صبح الأعشى

الجزء العاشر

دار الكتب السلطانية

كتاب صبح الأعشى

تأليف

الشيخ أبي العباس أحمد القلقشندي

الجـــــزء العاشر

حقوق إعادة طبعه محفوظة لدار الكتب السلطانية

طبـع
بالمطبعة الأمـيرية بالقاهرة
سنة ١٣٣٤ هـ
١٩١٦ م

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه

الوجه الخامس

(فيما يُكتب في ألقاب الملوك عن الخلفاء ، وهو نمطان)

النمط الأول

(ما كان يُكتب في قديم الزمن)

وهو أن يُقتصر على ما يلقب به الملك أو يُكنى به من ديوان الخلافة ، ثم يقال : « مولى أمير المؤمنين » ولا يُزاد على ذلك .

كما كتب أبو إسحاق الصابي في عهد فخر الدولة بن بويه عن الطائع لله :

« هذا ما عهد عبدُ الله عبدُ الكريم الطائعُ لله أميرُ المؤمنين ، إلى فخر الدولة أبي علي مولى أمير المؤمنين » .

وإلى هذا أشار في " التعريف " بقوله : على أن هذا ضابطًا كان في قديم الزمان وهو أنه لا يُكتب للرجل إلا ما كان يلقب به من ديوان الخلافة (1) [بالنص] (2) من غير زيادة ولا نقص .

---

(1) في " التعريف " ص ٨٧ لذلك .

(2) الزيادة من التعريف .

النمـــــــط الثــانى

(مايُكْتَب به لمُـــلوك الزمانـــ)

وقد حكىٰ فى " التعريف " فى ذلك مذهبَيْن :

الأوّل ـــ أن يُكتَب فيها : السُّلطان، السيِّد، الأجلّ، الملك الفلانىّ، مع بقيّة مايُناسب من الألقاب المفْرَدة والمركَّبة : كما كتب القاضى الفاضلُ فى عهْد أسَدِ الدِّين شيركوه الآتِى ذِكْرُه عن العاضد الفاطمىّ :

«مِنْ عبدِ الله ووَليِّه أبى محمدٍ الإمام العاضدِ لدينِ الله أميرِالمؤمنين إلىٰ السيِّد، الأجلِّ، الملِكِ، المنصُورِ، سلطان الجُيُوش، ولىِّ الأُمّة، فخرِ الدولة، أسَدِ الدِّين، كافلِ قُضاة المسلمين، وهادِي دُعاة المؤمنين، أبى الحرْثِ شيركوه العاضدىّ» .

وعلىٰ هذه الطريقة بزيادةِ ألقــاب كتَب ابْنُ القَيْسَرانىّ فى العهد للملِك النـاصر محمدِ بنِ قلاوُون : قدّس الله رُوحَه ونحــو ذلك . قال فى " التعريف " : وأنا إلىٰ ذلك أجنَحُ، وعليه أعمَلُ .

الثـانى ـــ أن يُكتَب : المَقام الشريف، أو الكَرِيم، أو العالى مجرّدا عنهما . ويُقتَصر علىٰ المفردة [دون المركبة][1] .

كما كتب به الصاحبُ فخرُ الدين بنُ لُقمان، فى عهْد الظاهر بيبَرْس بعد ذكر أوصافه ومَناقبه : ولـما كانت هذه المناقبُ الشريفةُ مختصّةً بالمَقام العالى المَوْلوىّ، السلطانىّ، المَلَكىّ، الظاهرىّ، الرُّكْنىّ، شرّفه الله تعالىٰ وأعلاه .

---

(١) الزيادة من "التعريف" .

قلت : ورُبَّما أبدل المتقدِّمون « المَقَام » فى هذه الحالة بـ« المَقَرّ » وأتى بالألقاب من نحو ماتقدّم .

وكما كتب به القاضى مُحْيِ الدِّين بنُ عبد الظاهر فى عهْد المنصُور قلاوُون بعد آستيفاءِ مَنَاقِبه وأوصافه ، وذكر إعمال الفِكْر والرِّوِيَّة فى آختياره : «وخرج أمرُ مولانا أميرِ المؤمنين شرّفه الله أن يكون للمَقَرّ العالى، المولَوِىّ، السلطانىّ، المَلَكىّ، المنصُورِىّ ، أجلَّه الله ونَصَره ، وأظفره وأقدره ، وأيّده وأبّده ، كلُّ مافوّضه الله لمولانا أمير المؤمنين » ونحو ذلك .

وبقِىَ مذهبٌ ثالثٌ ـ وهو أن يأتى بنظير ألقابِ المَذْهب الأوّل ، مقتصرا على الألقاب المفْرَدة دُونَ المركّبة . وعلى ذلك جرى الوزيرُ ضياءُ الدِّين بنُ الأثير فى العهد الذى كَتَب به معارَضَةً لعهْد السلطان صلاح الدِّين يُوسُف بن أيُّوب الآتى ذكره ـ فقال بعد ذكر مَنَاقبه : «وتِلكَ مَنَاقِبُك أيُّها الملِكُ، الناصرُ، الأجلُّ، السيدُ، الكبيرُ، العالمُ، العادلُ، صلاحُ الدين أبو المظفّر يوسفُ بنُ أيوبَ» . ولم يتعرّض لحكايته فى "التعريف" . على أنّ آبن الأثير إمامُ هذا الفن، وحائزُ قصَب السَّبْق فيه، ومقالتُه ممَّا يُحْتَجّ بها ويعوّلُ عليها .

فإن قيل : لعله فى "التعريف" أراد مذاهبَ كُتَّاب زمانه؛ فالجوابُ أنّ حكاية المذْهَب الثانى عن المتأخّرين تُؤْذِن بأنّ المراد متقدّمو الكتّاب ومتأخّروهم .

الوجـــه السادس
(فيما يكتب فى متن العهود، وفيه ثلاثة مذاهب)

المـــذهب الأول
(وعليه عامة الكتّاب من المتقدمين وأكثر المتأخرين)

أن يُفتتح العهدُ بلفظ « هذا » مثل : « هذا ما عَهِد به فلانٌ لفلان » أو « هذا ما أمَرَ به فلانٌ فلانا » أو « هـذا عهدٌ من فلان لفلان » أو « هذا كتابٌ اكتتبه فلان لفلان » وما أشبه ذلك .

وللكُتّاب فيـه طريقتان :

الطريقـــة الأولى
(طريقـة المتقدمين)

وهى أن لا يأتىَ بتحميد فى أثناء العهد فى خُطبة ولا غيرها، ولا يتعرَّضَ إلى ذكر أوصاف المعهود إليه والثناء عليه أصـلا، أو يتعرّضَ إلى ذلك باختصار ثم يقول : « فقلّده كذا وكذا » ويذكر ما فوّض إليه، ثم يقول : « وأمَره بكذا» حتى يأتىَ على آخر الوَصايا ، ثم يقول فى آخره : « هـذا عهدُ أمير المؤمنين إليك ، وحُجّتُـه لك وعلَيك » ويأتى بمـا يناسبُ ذلك، ويختمُه بقوله : « والسـلامُ عليكم ورحمةُ الله وبركاته » أو « والسـلام عليك » أو بغير ذلك من الألفاظ المناسبة على اختلاف طُرقهم فى ذلك ، وتبايُن مقاصدهم . وعلى هذا النَّهج وما قاربه كانت عهودُ السلف فمَن بعدَهم ، تأسِّيًا بالنبىّ صلّى الله عليه وسلم فيما كتَب به لعَمرو بن حَزْم حين وجّهه إلى اليمن، كما تقدمت الإشارةُ إليه فى الاستشهاد لأصل عُهود الملُوك عن الخلفاء .

وهذه نسخته بعد البسملة فيما ذكره ابنُ هشام وغيرُه :

« هذا بيانٌ من الله ورسوله : ﴿ يٰأَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُود ﴾ »
« عَهْدٌ من [محمدٍ[1]] النبيِّ رسولِ اللهِ لعَمْرِو بنِ حَزْم [حِينَ بَعَثه »
« إلى اليَمَن[1]] أَمَرَهُ بتقوى اللهِ فى أَمْرِهِ كُلِّه ، فإنَّ اللهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا »
« وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ . وأَمَرَه أن يَأْخُذَ بالحَقِّ كَمَا أَمَرَهُ اللهُ ، وأَنْ يُبَشِّرَ »
« النَّاسَ بالخَيْرِ ويَأْمُرَهُم بِهِ ، ويُعَلِّمَ النَّاسَ القُرْءانَ ويُفَقِّهَهُمْ فيه ، »
« ويَنْهَى النَّاسَ فلا يَمَسُّ القُرْءانَ إنسانٌ إلَّا وهُو طَاهِرٌ ، ويُخْبِرَ »
« النَّاسَ بالَّذِى لَهُمْ والَّذِى عَلَيْهِمْ ، ويَلِينَ للنَّاسِ فى الحَقِّ ويَشْتَدَّ عَلَيْهِمْ »
« فى الظُّلْمِ ، فإنَّ اللهَ كَرِهَ الظُّلْمَ ونَهَى عنه فقال : ﴿ أَلَا لَعْنَةُ اللهِ عَلَى »
« الظَّالِمِينَ ﴾ ويُبَشِّرَ النَّاسَ بالجَنَّةِ وبعَمَلِها ، ويُنْذِرَ النَّاسَ النَّارَ وعَمَلَها ، »
« ويَسْتَأْلِفَ النَّاسَ حَتَّى يَفْقَهُوا فى الدِّين ، ويُعَلِّمَ النَّاسَ مَعَالِمَ الحَجِّ »
« وسُنَّتَه وفَرِيضَتَه وما أَمَرَ اللهُ به ، والحَجُّ الأَكْبَرُ الحَجُّ الأَكْبَرُ ، »
« والحَجُّ الأَصْغَرُ هو العُمْرة ، ويَنْهَى النَّاسَ أَنْ يُصَلِّيَ أَحَدٌ فى ثَوْبٍ »
« واحِدٍ صَغِيرٍ إلا أن يَكُونَ ثَوْبًا يُثْنِي طَرَفَيْهِ على عاتِقَيْه ، ويَنْهَى »

(١) الزيادة من سيرة ابن هشام (ج ٣ ص ٧٢) .

« [الناسَ](١) أن يَحْتَبِيَ أحدٌ في ثوبٍ واحدٍ يُفْضِي بِفَرْجِه إلى السَّماء ، »
« ويَنْهَى أن لَا يَعْقِصَ أحدٌ شَعْرَ رأسه في قَفَاه ، ويَنْهَى إذا كانَ بَيْنَ »
« الناس هَيْجٌ عن الدُّعاء إلى القَبائِل والعَشائر ، وليَكُنْ دَعواهُمْ إلى اللهِ »
« [عزّ وجلّ](١) وحْدَه لاشَرِيكَ له [فَمَنْ لم يَدْعُ إلى اللهِ ودَعَا إلى »
« القَبائِـلِ والعَشائرِ فليُقْطَعُوا بالسـيف حتَّىٰ تَكُونَ دَعْواهُمْ إلى اللهِ »
« وحدَه لاشَرِيكَ له](١) ويأمُرَ الناس بإسْـباغِ الوُضُوء : وُجوهِهِـم ، »
« وأيْدِيهِمْ إلى المَرافِق ، وأرجُلِهِمْ إلى الكَعْبَيْن ، ويَمْسَحُون برُءُوسِهِم »
« كما أمَرَهم اللهُ ، وأمَرَ بالصلاةِ لِوَقْتِها ، وإتْمـامِ الرُّكُوعِ [والسُّجودِ](١) »
« والخُشُوعِ ، ويُغَلِّسَ بالصُّـبْحِ ، ويُهَجِّرَ بالظُّهْرِ(٢) حينَ تَمِيلُ الشمسُ ، »
« وصلاةُ العَصْرِ والشَّمْسُ في الأرض مُدْبِرة ، والمَغْرِبِ حينَ يُقْبِـلُ »
« الليلُ ، لا تُؤخَّرُ حتَّىٰ تَبْدُوَ النُّجُومُ في السماء ، والعِشاءِ أوّلَ اللَّيْـلِ . »
« وأمَرَ بالسَّعْيِ إلى الجمعة إذا نُودِيَ لهـا ، والغُسْلِ عند الرَّواح إليها . »
« وأمَرَه أن يَأْخُذَ من المَغانِم خُمُسَ الله ، وما كُتِبَ على المؤمنين »

---

(١) الزيادة من سيرة ابن هشام ج ٣ ص ٧٢ .

(٢) الذي في السيرة « بالهاجرة حين تميل » .

« فى الصَّـــدَقة من العقار[1] عُشْرُ ماسَقَتِ العَيْنُ وسَقَتِ السَّماءُ ، وعلىٰ »
« ماسَـــقَىٰ الغَرْبُ نِصْفُ العُشْرِ . وفى كلِّ عَشْرٍ من الإبِلِ شاتانِ ، »
« وفى كلِّ عِشْرِين أربعُ شِياهٍ . وفى كلِّ أربعِينَ من البَقَرِ بَقَرةٌ ، »
« وفى كلِّ ثلاثين من البَقَرِ تَبِيعٌ جَذَعٌ[2] أو جَذَعةٌ ، وفى كلِّ أربَعِين »
« من الغَنَم سائمة وحْدَها شاةٌ ، فإنَّها فَرِيضَةُ الله تعالىٰ التى افْتَرَضَ »
« علىٰ المُؤمنِينَ فى الصَّدَقة ، فَمَن زَادَ خَيْراً فهوَ خَيْرٌ لَهُ . وأنَّه مَنْ »
« أسْلَمَ مِن يَهُودِيٍّ أوْ نَصْرانِيٍّ إسْلاماً خالِصًا مِنْ نَفْسِه ودَانَ بِدِينِ »
« الإسْــلام ، فإنَّه من المُؤمِنِين : لَهُ مِثْلُ مَالَهُمْ وعَلَيْه مِثْلُ مَاعَلَيْهِمْ ، »
« ومَنْ كانَ علىٰ نَصْرَانِيَّتِهِ أوْ يَهُودِيَّتِهِ ، فإنَّه لاَيُرَدُّ عنها وعلىٰ كلِّ حالِمٍ : »
« ذَكَرٍ أوْ أُنْثَىٰ ، حُرٍّ أوْ عَبْدٍ دِينارٌ وافٍ ، أو عِوَضُه ثِياباً ، فَمَنْ أدَّىٰ »
« ذٰلِكَ فإنَّ لَهُ ذِمَّةَ اللهِ وذِمَّةَ رَسُولِهِ ، ومَنْ مَنَعَ ذٰلِكَ فإنَّه عَدُوٌّ للهِ »
« ولِرَسُولِهِ ولِلْمُؤمِنِينَ جَمِيعًا » .

« صلواتُ اللهِ علىٰ محمدٍ والسَّلامُ عليه ورحمةُ الله وبركاتُه » .

(١) كذا فى السيرة أيضا بالعين والقاف وفى كتب اللغة المعقار [أى كغراب] خيار الكلإ والمقار [أى كسلام] النخل . تأمل .

(٢) فى اللسان ج ٩ ص ٣٩٢ "اذا طلع قرن العجل وقبض عليه فهو عضب ثم هو بعد ذلك جذع"

وعلى نحو ذلك كتب أمير المؤمنين على بن أبى طالب كرّم الله وجهه عهد مالك بن الأشتر النخعى حين ولّاه مصر . وهو من العهود البليغة جمع فيه بين معالم التقوى وسياسة الملك .

وهذه نسخته فيما ذكره ابن حمدون فى تذكرته :

هذا ما أمر [به عبد الله][1] علىّ أمير المؤمنين مالك بن الحرث الأشتر، فى عهده إليه، حين ولّاه مصر: جباية خراجها، وجهاد عدوّها، واستصلاح أهلها، وعمارة بلادها . أمره بتقوى الله وإيثار طاعته، واتّباع ما أمر به فى كتابه من فرائضه؛ وسننه التى لا يسعد أحد إلا باتّباعها ، ولا يشقى إلا مع جحودها وإضاعتها ؛ وأن ينصر الله تعالى بيده وقلبه ولسانه، فإنّه جلّ اسمه قد تكفّل بنصر من نصره ، وإعزاز من أعزّه . وأمره أن يكسر من نفسه عند الشهوات ، ويزعها عند الجمحات، فإنّ النفس لأمّارة بالسوء إلّا ما رحم الله .

ثم اعلم يا مالك أنّى قد وجّهتك إلى بلاد قد جرت عليها دول قبلك : من عدل وجور، وأنّ الناس ينظرون من أمورك [فى مثل][2] ما كنت تنظر فيه من أمر الولاة قبلك ، ويقولون فيك كما كنت تقول فيهم . وإنما يستدلّ على الصالحين بما يجرى الله لهم على ألسن عباده، فليكن أحبّ الذخائر إليك ذخيرة العمل الصالح. فاملك هواك ، وشحّ بنفسك عمّا لا يحلّ لك ؛ فإنّ الشحّ بالنفس الإنصاف منها فيما أحبّت وكرهت . وأشعر قلبك بالرحمة للرعيّة ، والمحبّة لهم، واللطف بهم ؛ ولا تكوننّ عليهم سبعا ضاريا، تغتنم أكلهم؛ فإنهم صنفان : إمّا أخ لك فى الدين ،

(١) الزيادة عن " مفتاح الأفكار" (ص ١٠٥) .

(٢) الزيادة من شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد .

وإمّا نَظِيرٌ لك في الخلق : يفرط منهم الزَّلل، وتَعرِضُ لهم العِلَل، ويؤتى على أيديهم في العَمد والخَطإ : فأعْطِهِم من عَفْوك وصَفْحك مثلَ الذي تُحِبُّ أن يُعطِيَك اللهُ من عَفْوه وصَفْحه : فإنّك فَوْقَهم ووالي الأمر عليك فَوْقك، والله فَوْق مَنْ وَلّاك . وقد آستكْفاكَ أمرَهم، وآبتلاكَ بِهم ؛ ولا تَنْصِبَنّ نفسك لحَرْب الله، فإنه لا يَدَىْ لك بِنقمته، ولا غِنى بك عن عَفْوه ورحمته ؛ ولا تَنْدَمَنّ على عَفْو، ولا تَبْجَحَنّ بعقوبة، ولا تُسْرِعَنّ إلى بادرةٍ وجدت عنها مَنْدُوحة ؛ ولا تقولَنّ إني آمرٌ[(١)] آمُرُ فأُطاع : فإن ذلك إدغالٌ في القَلْب، ومَنْهَكةٌ في الدِّين، وتَقرّبٌ من الغِيَر . وإذا أحدثَ لك ما أنتَ فيه من سُلْطانك أبَّهةً أو مَخِيلةً، فانظُرْ إلى عِظَمِ مُلْكِ الله تعالى فَوْقَك، وقُدْرته منك على ما لا تَقْدر عليه من نَفْسك ؛ فإنّ ذلك يُطَامِنُ إليك من طِماحك ويَكُفُّ عنك من غَرْبك، ويَفِيءُ إليك بما عَزَب عنك من عَقْلك . وإيّاكَ ومُساماةَ الله تعالى في عَظَمته، والتَّشبُّهَ به في جَبَرُوته، فإن الله يُذِلُّ كلَّ جبّار، ويُهِينُ كلَّ مُختال .

أَنْصِفِ اللهَ وأنْصِفِ الناسَ من نَفْسك ومن خاصّة أهْلك ومِمَّن لك فيه هَوًى من رَعِيّتك : فإنّك إنْ لا تفعل تَظْلِمْ، ومَنْ ظَلَمَ عبادَ الله كان اللهُ خَصْمَه دُونَ عِباده، ومن خاصَمه اللهُ، أدْحَضَ حُجّته وكان لله حَرْبا حتّى يَنْزِعَ ويَتُوب . وليس شيءٌ أدعى إلى تغيير نِعمة الله وتعجيلِ نِقْمته من إقامة على ظُلْم [فإنّ الله سَمِيعٌ يَسْمَعُ دَعوةَ المظلومين وهو للظالمين بالمِرْصاد][(٢)] .

ولْيَكُنْ أحَبُّ الأمور إليك أوْسَطَها في الحَقّ، وأعَمَّها في العَدْل، وأجْمَعَها لِرضا الرَّعيّة، فإنّ سُخْطَ العامّة يُجْحِفُ بِرضا الخاصّة، وإنّ سُخْطَ الخاصّة يُغْتَفَر مع رضا

---

(١) في "مفتاح الافكار" وشرح نهج البلاغة " «مؤمر» .

(٢) الزيادة من "مفتاح الافكار" وشرح "نهج البلاغة" .

العامّة ، وليس أحدٌ من الرعيّة أثقَـلَ على الوالي مَئُونةً فى الرّخاء ، وأقلّ معُونةً له فى البَلاء ، وأكْرَه للإنصاف ، وأسْأَلَ بالإلحاف ، وأقلّ شكْرًا عند الإعْطاء ، وأبْطأ عُذْرا عنـد المنع ، وأضْعفَ صَبْرا عند مُلِمّات الدَّهْر ، من أهـلِ الخاصّة ؛ وإنمـا عمودُ الدِّين ، وجِمَاعُ المسلمين ، والعُدّةُ للأعداء العـامّةُ من الأمّة . فليكُنْ صَغْوُكَ لهم ، ومَيْلُك معَهم ، وليكُنْ أبْعَـدُ رعيّتك منك ، وأشْنَؤهم عندك ، أطلبَهم لمَعَايِبِ الناس : فإنّ فى الناس عيُوبًا الوالى أحقُّ بسَتْرها ، فلا تكْشِفَنّ عمّا غاب عنك منها ، فإنّمـا عليك تَطْهيرُ ما ظَهَر [لك] (١) واللهُ يحكم على ماغاب عَنْك منها . فاسْـتُرِ العَوْرة ما آستطعتَ يَسْتُرِ اللهُ ما تحبُّ سَتْره من عَيْبك .

أطْلِق عن الناس عُقْدةَ كلِّ حِقْد ، واقْطَعْ عنهم سبَبَ كلِّ وِتْر ، وتَغابَ عن كلِّ مالا يضِحُ لك ، ولا تَعْجَلَنّ إلى تصـديق ساعٍ : فإنّ السـاعيَ غاشٌّ وإن تَشَبَّه بالناصحين . ولا تُدْخِلَنّ فى مَشُورتك بَخِيلًا يعْدِلُ بكَ عن الفَضْـل ويَعِدُك الفَقْر ، ولا جَبَـانًا يُضْـعِفُك عن الأمُور ، ولا حَرِيصًا يُزَيِّن لك الشَّرَه بالجَوْر : فإنّ البُخْل والجُبْن والحِرْص غَرائزُ شَتَّى يجمَعُها سُوءُ الظنِّ بالله .

إنّ شَرّ وُزرائك مَنْ كان للأشْرار قَبْلَكَ وزيرا ومَنْ شارَكَهم فى الآثام ، فلا يكُونَنّ لك بِطانة ، فإنّهم أعوانُ الأَثَمَة ، وإخْوانُ الظَّلَمَة ، وأنت واجدٌ منهـم خيرَ الخَلَف ممّن له مِثْلُ آرائهم ونَفَاذهم ، وليس عليه مِثْلُ آصارِهم وأوْزارِهم : ممّن لم يُعاوِنْ ظالمًا على ظُلْمه ، ولا آثِمًـا على إثْمه ، أولئك أخفُّ عليك مَئُونه ، وأحسَنُ لكَ معُونه ، وأحْنَى عليكَ عطْفا ، وأقلّ لغيْرك إلْفا ، فاتّخذ أولئك خاصّةً لخَلَواتك [وحَفَلاتك] (١) . ثم لْيَكُنْ آثَرُهم عِندك أقْوَلَهم [لك] (١) بمُرّ الحقّ ، وأقلّهم مساعدةً فيما يكونُ منك ممـا

---

(١) الزيادة من "مفتاح الأفكار، ونهج البلاغة" .

كَرَه الله لأوليائه، واقمعْا ذلك من هواك حيث وقع. والصق بأهل الورع والصدق، ثم رُضْهم على أن لا يُطْرُوك ولا يُبَجِّحوك[1] بباطلٍ لم تفعله: فإنّ كثرة الإطراء تُحْدث الزَّهْو وتُدْني من الغِرَّة. ولا يكوننّ المحسنُ والمسيءُ عندك بمنزلةٍ واحدة، فإنّ في ذلك تزهيداً لأهل الإحسان [في الإحسان][2] وتدريباً لأهل الإساءة [على الإساءة][2][3]:

وإنّك لا تدري إذا جاء سائلٌ * أأنت بما تُعطيه أم هو أسعدُ!

عسى سائلٌ ذو حاجةٍ إن منعتَه * من اليوم سُؤْلاً أن يكون له غدُ!

وفي كثرة الأيدي عن الجهل زاجرٌ، * وللحِلْمُ أبقى للرجال وأعْوَدُ!

وعلى ذلك كتب أبو إسحاق الصابي عن[4] الخليفة «الطائع لله» إلى فخر الدولة بن ركن الدولة بن بُوَيه، في جمادى الأولى سنة ستّ وستين وثلثمائة.

وهذه نسخته:

هذا ما عهِد عبدُ الله عبدُ الكريم [الإمام][5] الطائعُ لله أميرُ المؤمنين [إلى فخر الدَّولة أبي الحسن بن ركن الدَّولة أبي علي مولى أمير المؤمنين][5] حين عرَف غَناءه وبلاءه،

(١) أي لا يفرحوك يقال بجحه تبجيحا فتبجح أي فرحه ففرح أنظر اللسان ج ٣ ص ٢٢٨ .

(٢) الزيادة عن "مفتاح الأفكار، ونهج البلاغة".

(٣) اقتصر في الأصل على هذا القدر وله بقية طويلة مذكورة في "نهج البلاغة، ومفتاح الأفكار" فليرجع إليهما من شاء.

(٤) أي كتب العهد عن الخ.

(٥) الزيادة من "رسائل الصابي" والمثل السائر.

وآستصح دينه ويقينه ، ورعى قديمه وحديثه ، وآستنجب عوده ونجاره . وأثنى عزّ الدولة أبو منصور بن معزّ الدولة أبي الحسين مولى أمير المؤمنين [أيده الله] (١) عليه، وأشار بالمزيد في الصنيعة إليه ، وأعلم أمير المؤمنين آقتداءه به في كلّ مذهب ذهب فيه من الخدمة ، وغرض رمى إليه من النصيحة ، دخولا في زمرة الأولياء [المنصوره، وخروجا عن جماعة الأعداء المدحوره] (٢) ، وتصرّفا على موجبات البيعة التي هي بعزّ الدولة أبي منصور منوطه ، وعلى سائر من يتلوه ويتبعه مأخوذة مشروطه ، فقلّده الصلاة وأعمال الحرب ، والمعاون ، والأحداث ، والخراج ، والأعشار ، والضياع ، والجهبذة ، والصدقات ، والجوالي ، وسائر وجوه الجبايات [والعرض (٢)] والعطاء ، والنفقة في الأولياء [والمظالم وأسواق الرقيق] (٢) والعيار في دور الضرب والطرز والحسبة بكور همذان ، وأستراباذ ، والدينور ، وقرميسين ، والإيغارين ، و [أعمال] (٢) أذربيجان ، وأران ، والسجانين ، وموقان . واثقا منه باستبقاء النعمة وآستدامتها ، والإستزادة بالشكر منها ، والتجنب لغمطها وجحودها ، والتنكب لإيحاشها وتنفيرها ، والتعمد لما مكن له الحظوة والزلفى ، وحرس عليه الأثرة والقربى ؛ بما يظهره ويضمره من الوفاء الصحيح ، والولاء الصريح ، والغيب الأمين ، والصدر السليم ، والمقاطعة لكل من قاطع العصبة ، وفارق الجمله ، والمواصلة لكل من حمى البيضة وأخلص النية ـ والكون تحت ظل أمير المؤمنين وذمته ، ومع عزّ الدولة أبي منصور وفي حوزته ؛ والله جلّ آسمه يعرّف أمير المؤمنين حسن العقبى فيما أبرم ونقض ، وسداد الرأي فيما رفع وخفض ، ويجعل عزائمه مقرونة بالسلامه ، محجوبة عن موارد الندامه ، وحسب أمير المؤمنين الله ونعم الوكيل .

(١) الزيادة من "رسائل الصابي" المطبوعة "والمثل السائر" .

(٢) الزيادة من "رسائل الصابي" المطبوعة "والمثل السائر" .

أمَرَه بتقوى الله التى هى العِصْمة المَتِينــة ، والجُنَّــة الحَصِينه ، والطَّوْد الأرفَع ، والمَعَاذ الأمْنَع ، والجانبُ الأعَزّ ، والمَلْجأ الأحْرَز ، وأنـ يَسْتشعِرها سِرًّا وجَهْرا ، ويستعمِلَها قَوْلا وفعلا ، و يتخذَها رِدْءا دافعا لنوائب القَدَر ، وكَهْفا حاميًا من حوادث الغِيَر ؛ فإنها أوجبُ الوسائل ، وأقربُ الذَّرائع ، وأعودُها على العبــد بمَصالحه ، وأدعاها إلى سُبُل مَناجِحه ، وأولاها بالاستمرار على هدايتــه ، والنَّجاة من غَوَايته ؛ والسلامة فى دُنْياه حين تُوبِق مُوبِقَاتُهـا ، وتُرْدِى مُرْدِيَاتُها ، وفى آخرته حين تُرَوِّعُ رائعاتُهـا وتُخِيف مُخِيفَاتُها . وأنـ يتأدّب بآداب الله فى التواضُـع والإخْبات ، والسَّكِينة والوَقَار ، وصِدْق اللَّهْجة إذا نَطَق ، وغَضِّ الطَّرْف إذا رَمَق ، وكَظْم الغيظ إذا أُحْفِظ ، وضَبْط اللسان إذا أُغْضِب ، وكَفِّ اليد عن المآثِم ، وصَوْن النفس عن المَحَارم . وأن يذْكُر الموتَ الذى هو نازِلٌ به ، والمَوْقِفَ الذى هو صائرٌ إليــه ؛ ويعلَمَ أنه مسئُول عمَّا اكتَسَب ، مجزِىٌّ بما ترمَّك(١) واحتقَب ؛ و يتزوّدَ من هذا المَمَرّ ، لذلك المَقَرّ ؛ ويستكثِرَ من أعمــال الخير لتنفَعَه ، ومن مَساعِى البِرّ لتُنقِذَه ؛ ويأتمِرَ بالصالحات قبل أن يأمُرَ بها ، ويَزْدَجِر عن السيِّئات قبل أن يَزْجُر عنهـا ؛ ويبتدئ بإصلاح نَفْســه قبل إصـلاح رعِيَّته : فلا يبعثُهم على ما يأتى ضِدَّه ، ولا ينهاهُمْ عمّـا يقترِفُ مثـلَه ؛ ويجعلَ ربَّه رقيبا عليه فى خَلَواته ، ومُروءتَه مانعــةً له من شَهَواته ؛ فإنَّ أحقَّ من غلَب سلطانَ الشَّهْوة ، وأَوْلَى من صَرَع أعداءَ(٢) الحَمِيَّة ، مَنْ ملك أزِمَّة الأمور ، واقتدَرَ على سِياسة الجُمهور ، وكان مُطاعًا فيما يَرَى ، متَّبعا فيما يَشاء ، يَلِى على النـاس ولا يَلُون عليه ، ويقتَصُّ منهــم ولا يقتَصُّون منه ؛ فإذا اطَّلع الله منــهُ على نَقَـاءِ جَيْبه ، وطهارة ذَيْله ، وصِحَّــة سَرِيرته ، واستقامة سِــيرته ، أعانه على حفظ

(١) فى «الرسائل ، والمثل السائر» «ترمل» .

(٢) كذا فى الرسائل أيضا . وفى المثل السائر ص ١٢٢ «من صرع لغذاء الحمية» .

ما آستحفظه، وأنهضه بثقل ما حمّله؛ وجعل له مخلصا من الشبهة ومخرجا من الحيرة، فقد قال تعالى: ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾. وقال عزّ من قائل: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾. وقال: ﴿ اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾ إلى آي كثيرة حضّنا بها على أكرم الخلق، وأسلم الطرق؛ فالسعيد من نصبها إزاء ناظره، والشقيّ من نبذها وراء ظهره؛ وأشقى منه من بعث عليها وهو صادف عنها، وأهاب إليها وهو بعيد منها؛ وله ولأمثاله يقول الله تعالى: ﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾.

وأمره أن يتخذ كتاب الله إماما متّبعا، وطريقا مُوقّعا (1)، ويُكثر من تلاوته إذا خلا بفكره، ويملأ بتأمّله أرجاء صدره؛ فيذهب معه فيما أباح وحظر، ويقتدى به إذا نهى وأمر، ويستبين ببيانه إذا آستغلقت دونه المعضلات، ويستضيء بمصابيحه إذا غمّ عليه في المشكلات؛ فإنه عُروة الإسلام الوثقى، ومحجّته الوسطى، ودليله المقنع، وبرهانه المرشد (2)، والكاشف لظلم الخطوب، والشافي من مرض القلوب، والهادى لمن ضلّ، والمتلافي لمن زلّ؛ فمن لهج به فقد فاز وسلم، ومن لهى عنه فقد خاب وندم، قال الله تعالى: ﴿ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾.

وأمره أن يحافظ على الصلوات، ويدخل فيها في حقائق الأوقات؛ قائما على حدودها، متّبعا لرسومها، جامعا فيما بين نيّته ولفظه، متوقّيا لمطامع سهوه ولحظه؛

(1) في الأصول والمثل السائر «موقعا» بزيادة الثاء، وهو تحريف من النساخ؛ ففي اللسان ج ١٠ ص ٢٨٢ يقال طريق موقع مذلل.

(2) في «الرسائل» الأسطع.

منقطعًا إليها عن كلّ قاطع لها، مشغولا بها عن كلّ شاغلٍ عنها، متثبّتا فى رُكوعها وسُجودها، مستوفيا عددَ مفروضها ومسنونها، موفّرا عليها ذهنَه، صارفاً إليها همّه، عالمًا بأنه واقفٌ بين يدَىْ خالقه ورازقِه، ومُحْييه ومُميته، ومُثيبه ومُعاقبه، لاتستتر دُونَه خائنةُ الأعينِ وما تُخفى الصّدور (١). فإذا قضاها على هذه السبيل مُنذُ تكبيرة الإحرام إلى خاتمة التسليم، أتبعها بدُعاء يرتفع بارتفاعها، [ويُسْتَمع باستماعها] (٢)، ولا يتعدّى فيه مسائلَ الأبرار، ورغائبَ الأخيار: من استصفاحٍ واستغفار، واستقالةٍ واسترحام، واستدعاء لمصالح الدّين والدنيا، وعوائد الآخرة والأولى؛ فقد قال تعالى: ﴿ إنّ الصّلاةَ كانتْ على المؤمنينَ كتابًا موقوتًا ﴾، وقال تعالى: ﴿ وأقِمِ الصّلاةَ إنّ الصّلاةَ تنهى عنِ الفحشاءِ والمُنكَر ﴾.

وأمره بالسّعي فى أيّام الجُمَع إلى المساجد الجامعة، وفى الأعياد إلى المُصلّيات الضّاحية، بعد التقدّم فى فَرْشها وكِسوتها، وجَمْع القُوّام والمؤذّنين والمكبّرين فيها، واستدعاء الناس إليها، وحضّهم عليها؛ آخذين الأُهبة، متنظّفين فى البِزّة، مؤدّين لفرائض الطّهارة، بالغين فى ذلك أقصى الاستطاعة، معتقدين خشية الله وخيفته، مُدّرعين تقواه ومُراقبته، مُكثرين من دُعائه ـ عزّ وجلّ ـ وسؤاله، مصلّين على عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم وعلى آله؛ بقلوبٍ على اليقين موقوفه، وهِمَمٍ إلى الدّين مصروفه، وألسُن بالتسبيح والتقديس فصيحه، وآمالٍ فى المغفرة والرحمة فسيحه؛ فإنّ هذه المُصلّيات والمتعبّدات بيوتُ الله التى فضّلها، ومناسكُه التى شرّفها؛ وفيها يُتلى القرءانُ [ومنها ترتفعُ الأعمال، وبها يلوذُ اللائذون] (٢) ويعوذُ العائذون؛

(١) كذا فى "المثل السائر" أيضا. وفى "رسائل الصابى" « ومن لايستتر دونه خائنة عينه وخافية صدره ».

(٢) الزيادة عن "رسائل الصابى" المطبوعة.

ويتعبّد المتعبّدون ، ويتهجّد المتهجّدون ، وحقيقٌ على المسلمين أجمعين : من والٍ ومولًّى عليه أن يصونوها ويعمّروها ،ويواصلوها ولا يهجُروها . وأن يُقيم الدعوة على منابرها لأمير المؤمنين ثم لنفسه على الرّسم الجارى فيها ، قال الله تعالى فى هـذه الصلاة : ﴿ يأيُّها الّذينَ آمَنُوا إذا نُودِىَ لِلصَّلاةِ مِن يَوْمِ الجُمُعةِ فَاسْعَوْا إلى ذِكْرِ اللهِ وذَرُوا البَيْعَ ﴾ . وقال فى عمـارة المساجد : ﴿ إنّمـا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللهِ مَنْ آمَنَ بِاللهِ واليَوْمِ الآخِرِ وأقَامَ الصَّلاةَ وآتَى الزّكاةَ ولَمْ يَخْشَ إلّا اللهَ فَعَسَى أولَئِكَ أنْ يَكُونُوا مِنَ المُهْتَدِينَ ﴾ .

وأمره بأن يُراعىَ أحوالَ مَنْ يليه ، من طبقات جُنْد أمير المؤمنين ومَواليه ؛ ويُطْلِقَ لهم الأرْزاق، فى وقت الوجُوب والاستحقاق، وأن يُحسنَ فى معاملتهم، ويُجمِل فى استخدامهم، ويتصرّف فى سياستهم : بين رِفْق من غير ضَعْف ، وخُشونة من غير عُنف ، مُثيبًا لمحسنهم ما زاد بالإبانة فى حُسن الأثر، وسَلِم معها من دَواعى الأشَر، ومتغمِّدا لمسيئهم ما كان التغمّدُ له نافعا، وفيه ناجعا؛ فإن تكررت زَلّاتُه ، وتتابعتْ عَثَراتُه ، تنـاوَلَه من عقُوبته بمـا يكون له مُصْلِحا ، ولغيره واعظا . وأن يختصّ أكابرَهم وأماثلَهم وأهـل الرأى والخَطَر منهـم بالمُشاوَرة فى المُلِمّ ، والإطلاع على بعض المُهِمّ ، مستخلِصا نَخائلَ قلوبهـم بالبَسْط والإدناء ، ومستشحِذًا بصائرَهم بالإكرام والإحْتِفاء : فإنّ فى مُشاوَرَة هـذه الطبقة استدلالًا على مَواقع الصواب ، وتحرُّزا من غَلَط الاستبْداد ، وأخذًا بمجامع الحَزامه ، وأمْنا من مُفارقة الاستقامه ؛ وقد حضّ اللهُ تعالى على الشُورَى حيث قال لرسوله عليه الصلاة والسلام : ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِى الأمْرِ فإذَا عَزَمْتَ فَتَوَكّلْ عَلَى اللهِ إنّ اللهَ يُحِبُّ المُتَوَكِّلِينَ ﴾ .

---

(١) أى ساترا لهفواته من قولهم تغمد فلانا ستره .

وأمره بأن يعمِدَ[1] لما يتصل بنواحيه من ثغور المسلمين، ورِباطات المرابطين، ويقسم لها قسما وافرا من عنايته، ويصرف إليها طرفا بل شطرا من رعايته؛ ويختار لها أهل الجَلَد والشدّة، وذوى البأس والنجدة: ممن عجمته الخطوب، وعركته الحروب؛ واكتسب دُرْبة بخدع المتناوبين، وتجربة بمكايد المتقارعين؛ وأن يستظهر بتكثيف عددهم، واختيار عُدَدهم، وانتخاب خيلهم، واستجادة أسلحتهم؛ غير مُجَمِّر[2] بعثا إذا بعثه، ولا مستكرِهه إذا وجّهه؛ بل يناوب بين رجاله مناوبة تُريحهم ولا تُمِلّهم، وترفّههم ولا تئودهم: فإنّ فى ذلك من فائدة الإجمام، والعدل فى الاستخدام، وتنافس رجال النوب فيما عاد عليهم بعز الظفر والنصر، وبُعد الصيت والذكر، وإحراز النفع والأجر، ما يحق على الولاة أن يكونوا به عاملين، وللناس عليه حاملين. وأن يكرّر على أسماعهم، ويثبّت فى قلوبهم، مواعيد الله لمن صابر ورابط، وسمح بالنفس وجاهد؛ من حيث لا يُقدمون على تورط غرّه، ولا يُحجمون عن انتهاز فرصه؛ ولا ينكصون عن تورّد معركه، ولا يلقون بأيديهم إلى التهلكه، فقد أخذ الله تعالى ذلك على خلقه، والمرامين عن دينه؛ وأن يُزيح العلّة فيما يُحتاج إليه من راتب نفقات هذه الثغور وحادثها، وبناء حصونها ومعاقلها؛ واستطراق طرقها ومسالكها، وإفاضة الأقوات والعلوفات للمترتّبين فيها والمتردّدين إليها والحامين لها. وأن يبذل أمانه لمن طلبه، ويعرضه على من لم يطلبه. ويفى بالعهد إذا عاهد، وبالعقد إذا عاقد، غير مُخفِر ذمّة، ولا جارح أمانة؛ فقد أمر

(١) فى "رسائل الصابى" بأن يضم ما يتصل الخ.

(٢) فى اللسان ج ٥ ص ٢١٧ «تجمير الجند أن يحبسهم فى أرض العدو ولا يقفلهم من الثغر» وهو المراد هنا. تأمل.

اللهُ تعالى بالوَفَاء فقــال جلّ من قائل : ﴿ يٰأيُّها الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بالعُقُود ﴾ ،
ونَهىٰ عن النَّكْث فقال عزّ من قائل : ﴿ فَمَنْ نَكَثَ فإنَّمَا يَنْكُثُ علىٰ نَفْسِه ﴾ .

وأمره أن يَعْرِض مَنْ فى حُبُوس عمَله علىٰ جَرَائِرهم [وإنعامِ النظر فى جِناياتِهم وجرائِمِهم] [1] فمن كان إقرارُه واجباً أقرّه ومن كان إطلاقُه سائغاً أطلَقــه . وأن ينظر فى الشُّرطة والأحداث نَظَرَ عدْلٍ وإنصاف، ويختارَ [لهــا من الوُلاة] [1] مَنْ يخافُ الله تعــالىٰ ويَتَّقيــه ، ولا يُحابِي ولا يُراقِب فيــه ؛ ويتقدَّمَ إليهم بقَمْع الجُهَّــال ، ورَدْع الضُّـــلَّال ، وتَتَبُّع الأشرار ، وطلَب الدُّعّار ، مســـتدِلِّينَ علىٰ أماكِنهم ، متوغِّلين إلىٰ مكامِنِهم ؛ متوَلِّجيـــن عليهم فى مَظَانِّهم ، متوثِّقِينَ ممن يجِدُونه منهم ، منفذين أحكامَ الله تعالىٰ فيهم بحسب الذى يتبيَّنُ من أمْرِهم ، ويتَّضحُ من فِعْلهم ؛ فى كبيرةٍ آرتكبُوها ، وعظيمةٍ آحتقبُوها ، ومُهْجةٍ أفاظُوها وآســتهلَكُوها ، وحُرْمةٍ أباحوها وآنتهكُوها : فمَنِ آستحقّ حدًّا من حدُود الله المعلومةِ أقامُوه عليه غيرَ مُخَفِّفين منه ، وأحلُّوه به غيرَ مقَصِّرين عنه ، بعد أن لا يكونَ عليهم فى الذى يأتونَ به حُجّه ، ولا يعترِضَهم فى وُجُوبه شُبْهه : فإنَّ الواجب فى الحدُود أن تُقامَ بالبيِّنات ، وأن تُدْرأَ بالشُّبُهات ؛ فأَوْلىٰ ما توخَّاه رُعاةُ الرَّعايا فيها أن لايُقْدِموا عليها مع نُقْصان ، ولا يتوقَّفوا عنها مع قيامِ دليلٍ وبُرْهان . ومن وجب عليه القتلُ آحتاط عليه بمــا يُحتاط به علىٰ مثــله : من الحَبْس الحَصِين ، والتوثُّق الشــديد ، وكتَبَ إلىٰ أمير المؤمنين بخبَره ، وشَرْح جِنايَتِــه ، وثُبوتها بإقرار يكون منه ، أو بشهادةٍ تَقَع عليه ، ولْيَنْتَظِرْ من جوابه مايكون عمَلُه بحَسَبه ، فإنَّ أميرَ المؤمنين لايُطْلِق سَفْك دمِ مسلِمٍ أومُعاهَدٍ إلاما أحاط به عِلْمــاً ، وأتقَنه فَهْما ، وكان ما يُمْضِيه فيــه عن بصيرة لايخالِطُها شَـــكّ ،

(1) الزيادة عن "رسائل الصابي" المطبوعة .

ولا يَشُوبها رَيْب . ومن أَلَمَّ بصغيرةٍ من الصغائر، ويسيرةٍ من الجرائر، من حيثُ لم يُعرف له مِثلُها، ولم تتقدّم منه أُختُها ، وعَظه وزَجَره، ونهاه وحَذّره ، وآستتابه وأقاله، مالم يكن عليه خَصم فى ذلك يطالِبُ بقِصاصٍ منه ، وجزاءٍ له ؛ فإنْ عادَ تناوله [من] التقويم والتهذيب، والتعزير والتأديب، بما يَرى أن قد كفى فيما آجترَم، ووفى بما قدّم، فقد قال تعالى : ﴿ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللهِ فَأُولٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ .

وأمره أنْ يعطّل مافى أعماله من الحانات والمَواخير، ويُطَهّرها من القبائح والمَناكير، ويمنع من تجمّع أهل الخَنا فيها وتألّف شَمْلهم بها : فإنه شَمْل يُصلحه التشتيت، وجَمْع يحفظه التفريق، ومازالتْ هذه المواطنُ الذّميمة والمطارح الدّنيئة، داعيةً لمن يأوِى إليها، ويَعْكُفُ عليها، إلى تَرْك الصلوات، [وإهمال المفترضات](١) ورُكوب المُنكَرات ، وآقتراف المحظورات ؛ وهى بيوتُ الشيطان التى فى عمارتها لله تعالى مَغضَبة، وفى إخرابها للخير مَجلَبة، والله تعالى يقول لنا معشرَ المؤمنين : ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ ﴾ ويقول عزّ من قائل لغيرنا من المذمومين : ﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَآتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴾ .

وأمره أن يُولّى الحمايةَ فى هذه الأعمال ، أهلَ الكفاية والغَناء من الرجال ؛ وأن يَضُمّ إليهم كلَّ مَنْ خفّ ركابُه، وأسرعَ عند الصَّريخ جوابُه؛ مرتّبا لهم فى المَسالح، وسادًّا بهم ثغر المَسالك؛ وأن يُوصيَهم بالتيقّظ ، ويأخذَهم بالتحفّظ، ويُزيحَ عِلَلهم فى عُلُوفة خيلهم؛ والمقرّر من أزوادهم ومِيَرهم؛ حتى لاتثقُل لهم على البلاد وطأة، ولا تدعُوَهم إلى تحيّفهم وثَلْمِهم حاجة ؛ وأن يَحُوطوا السابلةَ بادئةً وعائدة،

---

(١) الزيادة عن "رسائل الصابى" المطبوعة و"المثل السائر" .

ويتداركوا[(١)] القوافل صادرة وواردة، ويحرسوا الطرق ليلا ونهارا، وينفضوها رواحا وإبكارا، وينصبوا لأهل العيث الأرصاد، ويتمكنوا لهم بكل واد، ويتفرقوا عليهم حيث يكون التفرق مضيقا لفضائهم، ومؤديا إلى انفضاضهم ؛ ويجتمعوا حيث يكون الاجتماع مطفئا لجمرتهم، وصادعا لمروتهم ؛ وأن لايخلوا هذه السبل من حماة لها وسيارة فيها : يترددون في جواديها[(٢)]، ويتعسفون في عواديها[(٢)] ؛ حتى تكون الدماء محقونة، والأموال مصونة، والفتن محسومة والغارات مأمونة ؛ ومن حصل في أيديهم من لص خائن، وصعلوك خارب، ومخيف لسبيل، ومنتهك لحريم، امتثل فيه أمر أمير المؤمنين الموافق لقول الله عز وجل : ﴿ إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ذلك لهم خزي في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم ﴾ .

وأمره بوضع الرصـد على من يجتاز في أعماله من أباق العبيد، والاحتياط عليهم وعلى مايكون معهم، والبحث عن الأماكن التي فارقوها، والطرق التي استطرقوها ؛ ومواليهم الذين أبقوا منهم، ونشزوا عنهم ؛ وأن يردوهم عليهم قهرا، ويعيدوهم إليهم صغرا ؛ وأن ينشدوا الضالة بما أمكن أن تنشد، ويحفظوها على ربها بما جاز أن تحفظ، ويجتنبوا الامتطاء لظهورها والانتفاع بأوبارها وألبانها مما يجز ويحلب ؛ وأن يعرفوا اللقطة ويذيعوا أثرها، ويشيعوا خبرها ؛ فإذا حضر صاحبها وعلم أنه مستوجبها سلمت إليه، ولم يعترض فيها عليه ؛ فإن الله عز وجل يقول : ﴿ إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها ﴾ . ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : "ضالة المؤمن حرق النار" .

---

(١) في "الرسائل" وأصل الشارح «ويتدرقوا» والبذرقة الخفارة .

(٢) في "الرسائل" « في جوادها ... ... في عوادها » .

وأمره أن يُوصِيَ عُمّـاله بالشدّ على أيدي الحُكّام، وتنفيذ ما يَصْـدُر عنهم من الأحكام، وأن يَحْضُروا مجالسهم حُضُورَ المُوَقِّرين لها، الذابّين عنها، المُقِيمين لرُسُوم الهيبـة وحُدُود الطاعة فيها؛ ومَنْ خرج عن ذلك من ذي عَقْل سَخِيف، وحِلْم ضَعِيف، نالوه بما يَرْدَعُه، وأحلُّوا به ما يَزَعُه؛ ومتى تقاعَس متقاعِسٌ عن حضور مع خَصْم يستدعيه، وأمرٍ يوجّه الحاكمُ إليه فيه؛ أو التوى مُلْتوٍ بحقٍّ يحصل عليه، ودَيْن يستقرّ في ذِمّتـه، قادُوه إلى ذلك بأزِمّة الصَّـغار، وخَزائم الإضطرار؛ وأن يَحْبِسُوا ويُطْلِقُوا بأقوالهم، ويُثْبِتُوا الأيدي في الأملاك والفُرُوج ويَنْزِعُوها بقَضَاياهم؛ فإنهم أُمَناءُ الله في فَصْل ما يَفْصِلُون وبَتّ ما يَبُتّون، وعن كتابه وسُـنّة نبيه صلى الله عليه وسلم يُورِدُون [ويُصْدِرون](١) وقد قال تعـالى: ﴿ يَادَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ ﴾ . وأن يَتَوخَّى بمثل هـذه المُعاملة عُمّالَ الخَراج في آستيفاء حُقُوق ما آسـتُعْمِلُوا عليه، وآستنطاف بَقَاياهم فيـه، والرِّياضة لمن تَسُوءُ طاعتُـه من مُعامِليهم، وإحضارِهم طائعين أو كارهين بين أيديهم؛ فمن آداب الله تعالى للعبد التي يَحِقّ عليه أن يتخذها [أدبا](١) ويجعلها إلى الرضا عنه سببا، قوله تعالى: ﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ .

وأمره أن يَجْلِسَ للرعيّة جُلُوسا عامّا، ويَنْظُر في مَظالمها نَظَرا تامّا، ويساوي في الحق بين خاصّها وعامّهـا، ويُوازِيَ في المجالس بين عَزِيزها وذَليلها، ويُنْصِف المظلومَ من ظالمه، والمغصُوب من غاصبه؛ بعد الفَحْص والتأمّل والبَحْث والتَّبيّن،

(١) الزيادة عن "رسائل الصابي المطبوعة، والمثل السائر" وهي من سقط الناسخ.

حتى لا يحكم إلا بعدل ، ولا ينطق إلا بفصل ، ولا يثبت يدا إلا فيما وجب [تثبيتها فيه ، ولا يقبضها إلا عما وجب][(1)] قبضها عنه ، وأن يسهل الإذن لجماعتهم ، ويرفع الحجاب بينه وبينهم ، ويوليهم من حصانة الكنف ، ولين المنعطف ، والاشتمال والعناية ، والصون والرعاية ، ما تتعادل فيه أقسامهم ، وتتوازن منه أقساطهم ؛ ولا يصل المكين منهم إلى استضامة من تأخر عنه ، ولا ذو السلطان إلى هضيمة من حل دونه . وأن يدعوهم إلى أحسن العادات [والخلائق][(1)] ويحضهم على أجمل المذاهب والطرائق ، ويخلي عنهم كله ، ويمد عليهم ظله ؛ ولا يسومهم خسفا ، ولا يلحق بهم حيفا ؛ ولا يكلفهم شططا ، ولا يجشمهم مضلعا ، ولا يثلم لهم معيشة ، ولا يداخلهم في جريمة[(2)] ؛ ولا يأخذ بريئا منهم بسقيم ، ولا حاضرا بعديم ؛ فإن الله جل وعز نهى أن تزر وازرة وزر أخرى ، وجعل كل نفس رهينة بكسبها بريئة من مكاسب غيرها . ويرفع عن هذه الرعية ماعسى أن يكون سن عليها من سنة ظالمة ، وسلك بها من محجة جائرة ، ويستقري آثار الولاة قبله عليها ، فيما أزجوه من خير أو شر إليها : فيقر من ذلك ماطاب وحسن ، ويزيل ماخبث وقبح : فإن من يغرس الخير يحظى بمعسول ثمره ، ومن يزرع الشر يصلى بممرور ريعه ؛ والله تعالى يقول : ﴿والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه والذي خبث لايخرج إلا نكدا كذلك نصرف الآيات لقوم يشكرون﴾ .

وأمره أن يصون أموال الخراج وأثمان الغلات ، ووجوه الجبايات ، موفرا ، ويزيد ذلك مثمرا ، بما يستعمله من الإنصاف لأهلها ، وإجرائهم على صحيح الرسوم فيها : فإنه مال الله الذي به قوة عباده ، وحماية بلاده ، ودرور حلبه ، واتصال

---

(1) الزيادة عن "رسائل الصابي" المطبوعة و"المثل السائر" وهي من سقط الناسخ .

(2) كذا في "المثل السائر" أيضا وفي "الرسائل" «في حرفة» .

مَدَدِه؛ وبه يُحَاطُ الحريم، ويُدْفَع العَظِيم، ويُحْمَىٰ الذّمار، وتُذَاد الأَشْرار. وأن يعمل آفتتاحه إِيّاه بحَسَب [إدراك][1] أصـناقه، وعند حُضُور مَواقيتِه وأَحْيانِه؛ غير مستَسْلِف شيئًا قَبْلَها، ولا مؤَخّر لها عنها؛ وأن يَخُصّ أهلَ الطاعة والسلامة بالتّرفيه لهم، وأهلَ الأستِصْعاب والأمتِناع بالتشدُّد عليهم: لئلا يقع إرهاقٌ لمُذْعِن، أو إهمالٌ لطامع. وعلى المتولِّي لذلك أن يضع كُلًّا من الأمرين مَوْضِـعَه، ويُوقِعَه مَوْقِعَه؛ متجنِّبًا إحلال الغِلْظة بمن لايستحِقُّها، وإعطاءَ الفُسْحة لمن ليس من أهلها؛ والله تعالىٰ يقول: ﴿ وأَنْ لَيْسَ للإنْسانِ إلّا ما سَعىٰ وأنّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرىٰ ثُمّ يُجْزاهُ الجَزاءَ الأَوْفىٰ ﴾.

وأمره بأن يتخيّر عُمّاله علىٰ الأعشار، والخَرَاج، والضِّـيَاع، والجَهْبَذَة، والصَّدَقات، والجَوالي، من أهل الظَّلَف والنَّزاهة، والضَّـبْط والصِّيانة، والجَزالة والشّهامة؛ وأن يستظهِرَ مع ذلك عليهم بوصيَّة يُوعِيها أسماعَهُم، وعُهود يقلّدها أعناقَهم؛ بأن لايُضَيِّعوا حَقّا، ولا يأكُلُوا سُحْتا، ولا يستعمِلُوا ظُلْما، ولا يُقارفُوا غَشْما. وأن يُقيموا العِمارات، ويحتاطُوا [علىٰ الغَلّات][2] ويتحرّزوا من ترك حقٍّ لازِم أو تعطيلِ رَسْمٍ عادل؛ مؤدِّين في جميع ذلك الأمانة، مجتنبين الخِيَانة. وأن يأخُذُوا جَهابِذَتَهُم باستيفاء وَزْنِ المال علىٰ تمامه، وآستجادة نَقْده علىٰ عِيارِه؛ وآستعمال الصِّحّة في قَبْض مايقبِضُون، وإطلاق مايُطْلِقُون. وأن يُوعِزوا إلىٰ سُعاة الصَّدَقات بأخذ الفرائض من سائمة مَواشي المسلمين دُونَ عاملتها، وكذلك الواجبُ فيها؛ وأن لايجمَعُوا فيها متفرِّقًا ولا يفرّقوا مجتمعا، ولا يُدْخِلُوا فيها خارجًا عنها، ولا يُضِيفُوا إليها ماليس

---

(١) من "الرسائل، والمثل السائر".

(٢) الزيادة عن "رسائل الصابي" المطبوعة.

منهـا : من فحْـل إبل أو أكُولة[1] راع ، أو عقيـلة مال ، فإذا اجتبَوْها على حقّها ، واستوفَوها على رسْمها ، أخرجُوها فى سبيلها ، وقسّموها على أهلهـا الذين ذكرهم الله تعـالى فى كتابه ، إلّا المؤلّفـة قلوبُهم الذين سقط سَهْمُهم ، فإنّ الله تعـالى يقول : ﴿ إنّمـا الصَّدَقاتُ للفُقَراءِ والمَسَاكِينِ والعَامِلِينَ عليْهَا والمُؤَلَّفةِ قُلُوبُهُـمْ وفِى الرِّقَاب والغَارِمِينَ وفِى سَبِيلِ اللهِ وابْنِ السَّبِيل فَرِيضَةً مِنَ اللهِ واللهُ عَلِيمٌ حَكِيم ﴾ . وإلى جُباة [جَماجم][2] أهل الذّمّة أن يأخُذُوا منهم الجزْيةَ فى المحرّم من كل سنة [بحسب][2] منازلهم فى الأحوال ، وذات أيْديهـم فى الأموال ، وعلى الطّبَقات المُطبقة فيها ، والحُـدُود [المحدودة][2] المعهُودة لهـا ، وأن لا يأخُذُوها من النساء ، ولا ممن لم يبلُغ الحُـلُم من الرجال ، ولا من ذى سِنّ عاليه ، ولا ذى علّة باديَه ، ولا فقير مُعْدِم ، ولا مترهّب متبتّل ، وأن يُراعَى بجماعة هؤلاء العُمّال مراعاةً يُسِرُّها ويُظْهِرها ، ويُلاحظهم مُلاحظة يُخْفيها ويُبْديها : لئلا يزُولُوا عن الحـقّ الواجب ، أو يعْدِلُوا عن السَّنَن اللاحب ؛ فقد قال تعـالى : ﴿ وأوْفُوا بالعَهْدِ إنَّ العَهْدَ كانَ مَسْئُولا ﴾ .

وأمره أن يَنْدُب لعَرْض الرجال وإعطائهــم ، وحفْظ جِراياتهم وأوْقات إطْعامهم ، مَنْ يَعْرفه بالثّقة فى متَصرّفه ، والأمانة فيما يَجْرى على يده ، والبُعْـد عن الإسْفاف إلى الدّنيّه ، والاتّباع للدناءة ، وأن يبعثَه على ضبط [حلى][3] الرجال وشِيات الخيل ، وتجْديد العَرْض بعـد الاستحْقاق ، وإيقاع الاحتياط فى الإنفاق ؛ فمن صحّ عَرْضُه ولم يبْق فى نفسه شىءٌ منه : من شكّ يعرِض له ، أو ريبة يتوهّمها ، أطلق أموالَهم موفُوره ، وجعلها فى أيديهم غير مثلُومه ، وأن يردّ على بيت المـال أرزاق من

(١) أكولة الراعى مايسمنها للأكل .

(٢) الزيادة عن "رسائل الصابى" المطبوعة .

(٣) الزيادة من "رسائل الصابى" .

سقط بالوفاة والإخلال، ناسبًا ذلك إلى جهته، ومُوردًا له على حقيقته. وأن يطالب الرجال بإحضار الخيل المختاره، والآلات المستكملة المستعملة على ما توجبه مبالغ أرزاقهم، وحسب منازلهم ومراتبهم؛ فإن أخر أحدهم شيئًا من ذلك قاصّه به من رزقه، وأغرمه مثل قيمته؛ فإن المقصر فيه خائن لأمير المؤمنين، ومخالف لرب العالمين؛ إذ يقول الله سبحانه: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾.

وأمره أن يعتمد في أسواق الرقيق ودور الضرب والحسبة والطُّرُز، على من تجتمع فيه آلات هذه الولايات: من ثقة ودرايه، وعلم وكفايه، ومعرفة ودراية، وتجربة وحنكه، وحصافة ومسكه؛ فإنها أحوال تضارع الحكم وتناسبه، وتدانيه وتقاربه. وأن يتقدم إلى ولاة أسواق الرقيق بالتحفظ فيمن يطلقون بيعه، ويمضون أمره؛ والتحرز من وقوع تجوز فيه، وإهمال له؛ إذ كان ذلك عائدًا بتحصين الفروج، وتطهير الأنساب. وأن يبعدوا عنه أهل الريبه، ويقربوا أهل العفه؛ ولا يمضوا بيعًا على شبهه، ولا عقدًا على تهمه. وإلى ولاة العيار، بتخليص عين الدرهم والدينار: ليكونا مضروبين على البراءة من الغش، والنزاهة من المش[1]؛ وبحسب الإمام، المقرر بمدينة السلام؛ وحراسة السكك من أن تتداولها الأيدي المدغله، وتتناقلها الجهات الظنينه[2]؛ وإثبات اسم أمير المؤمنين على ما يضرب منها ذهبًا وفضة، وإجراء ذلك على الرسم والسنه. وإلى ولاة الطرز بأن يجروا الاستعمال في جميع المناسج على أتم النيقه[3]، وأسلم الطريقه، وأحكم الصنعه، وأفضل الصبغه؛

(١) المش الخلط حتى يذوب. انظر القاموس.

(٢) لعله معناه المعادية ففي اللسان ج ١٧ ص ١٤٥ الظنين المعادي لسوء ظنه وسوء الظن به. وفي الأصل «المتبنة» وفي المثل السائر المتبنة والتصحيح من رسائل الصابي.

(٣) النيقه الاسم من تنوق في الأمر إذا تأنق فيه.

وأن يُثْبِتوا آسْمَ أمـــير المؤمنين على طُرُز الكُسا ، والفُرش والأعلام والبُنُود ، وإلى وُلاة الحِسْــبة بتصفّح أحوال العوامّ فى حِرَفهم ومَتاجِرهم ، ومجتمع أسواقهم ومعاملاتهم ، وأن يُعايِرُوا المَوازين والمَكاييل ، ويفرزوها على التعـديل والتكميل ؛ ومن آطّلعوا منه على حِيلة أو تلبيس ، أو غيلة أو تدليس ، أو بَخْس فيما يُوفيـه ، أو آســتفضال فيما يَسْــتَوفيه ، نالُوه بغليظ العـقوبة وعَظِيمها ، وخَصُّوه بوجيعها وأليمها ، واقفيـن به فى ذلك عند الحدّ الذى يرونه لذنبه مجازيا ، وفى تأديبه كافيا فقــد قال الله تعــالى : ﴿ وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴾ .

هــذا عهدُ أمير المؤمنين إليكَ ، وحُجّته عليك ؛ وقد وقفك به على سَواء السبيل ، وأرشــدك فيه إلى واضح الدّليل ، وأوسعك تعليما وتحكيما ، وأقنعك تعريفا [وتفهيما][1] ولم يألُك جُهْــدا فيما عَصَمك وعَصَم على يدك ، ولم يدّخرك ممكنا فيما أصلح بك وأصلحك ؛ ولا ترك لك عُذرا فى غلط تغلطه ، ولا طريقا إلى متورِّط تتورّطه ؛ بالغا بك فى الأوامر والزّواجر إلى حيث يلزم الأئمة أن ينْدُبوا الناسَ إليه ، ويحثّوهم عليه ؛ مقيما لك على مُنْجِيات المسالك ، صارفا بك عن مُرْدِيات المهالك ، مُريدا فيك ما يُسَلّمك فى دينك ودُنياك ، ويعود بالحظّ عليك فى آخرتك وأُولاك ؛ فإن آعتدلت وعدَلْت فقــد فُزْت وغنِمْت ، وإن تجانفت وآعوججْت فقــد خسِرت وندمْت ؛ والأولى بك عند أمير المؤمنين مع مَغْرِسك الزّاكى ، ومَنْبِتك النامى ، وعُودك الأنجب ، وعُنصرك الأطيب ، أن تكون لظَنّه بك محققا ، ولمخيلته فيك مُصَدّقا ؛ وأن تستزيد بالأثر الجميل قُرْبا [من رب العالمين][1] وثوابا يوم الدين ؛ وزُلْفى عند أمير المؤمنين ،

(١) الزيادة عن "رسائل الصابى" المطبوعة .

وثناءً حسنا من المسلمين ، فخُذْ ما نبَذَ إليك أميرُ المؤمنين من معاذيره ، وأمسك بيدك على ما أعطى من مواثيقه ، واجعل عهده [هذا][1] مثالا تحتذيه ، وإماما تقتفيه ، واستعن بالله يُعنْك ، واستهده يَهدِك ، وأخلص إليه في طاعته ، يُخلِص لك الحظَّ من معونته ، ومهما أشكل عليك من خَطْب ، أو أعضل عليك من صَعْب ، أو بَهَرك من باهر ، أو بَهَظك من باهظ ، فاكتُبْ إلى أمير المؤمنين به مُنْهيا ، وكن إلى ما يرد [من جوابه][1] عليك مُنتَهيا ، إن شاء الله تعالى . والسلامُ عليك ورحمةُ الله وبركاته .

[وكتب نصير الدولة الناصح أبو طاهر يومَ الأحد لثلاثَ عَشْرةَ ليلةً خلتْ من جُمادى الأولى سنة ست وستين وثلثمائة][1] .

✦✦✦

وعلى هذا الأُسلوب كتب أمينُ الدين أبو سعيد ، العَلاءُ بن وَهْب بن مُوصَلايا عن القائم بأمر الله عهدَ أمير المسلمين يُوسفَ بن تاشفين ، بسلْطنة الأندلُس وبلاد المغرب ، بعد العشرين والأربعمائة ، فيما رأيتُه في ترسُّل آبن مُوصَلايا المذكور .

وهذه نسختُه بعد البسملة الشريفة :

هذا ما عهِد عبدُ الله ووليُّه ، عبدُ الله القائمُ بأمر الله أميرُ المؤمنين ، إلى فلان حينَ انتهى إليه ما هُو عليه من ادِّراع جَلابيب الرَّشاد ، في الإصدار والإيراد ، واتِّباع سَنَن من أبدى وأعاد ، فيما يجمع خيرَ العاجلة والمَعاد ، والتخصيص من حميد الأنحاء والمَذاهب ، بما يستمِدّ منه أصنافَ الآلاء والمَواهب ، والتحلِّي من السَّداد

(١) الزيادة عن "رسائل الصابي" .

الكامل ، بمـا فازَ فيه بامتطاء الغارب من الجمـال والكامل ، واتّضح ماهو منشبّث به من صحّة الدِّين واليقين ، والمُواظبة من آكتساب رضا الله تعالى على ماهو أقوى الظّهير والمُعين ، فى ضمن ماطوى عليه ضُلوعَه ، وأدام لَهَجَه به وولُوعه : من مُوالاةٍ لأمير المؤمنين يَدينُ الله تعالى بهـا ، ويرجُو النجاةَ من كل مَخُوف بآستحكام سَعْيها ، ومشايعة لدولتـه ساوى فيها بين ماأظْهر وأسَرّ ، وأمّل فى آجتناء ثمرها كلَّ ما أبهَج وسَرّ ، فولّاه الصّلاةَ بأعمال المَغْرب ، والمعاونَ ، والأحداث ، والخرَاج ، والضّياع ، والأعْشارَ ، والجَهْبذَة[(١)] ، والصّدقاتِ ، والجَوَالِىَ ، وسائرَ وجُوه الجبَايات ، والعَرْض ، والعَطاء ، والنَّفقةَ فى الأولياء ، والمَظَالم ، وأسواقَ الرقيق ، والعِيارَ فى دُور الضَّرْب ، والطُّرُز ، والحِسْبة ، ببلاد كذا وكذا : سكُونًا إلى آستقلاله بأعباء ماآستكْفاه إيّاه ، وآستقباله النعمةَ عليه فى ذلك بكلِّ ماينْشُر ذكْرَه ويُطيب ريّاه ، وثقةً بكونه للصّنيعة أهلا ، وبأفياء الطاعة الإماميَّـة مستَظلّا ، وتَوفُّرةً على مايزيدُه بحضرة أمير المؤمنين حُظْوة تُرَدّ باعَ الخطوب عنه قصيرا ، وتمُدّ مقاصدَه من التوفيق بما يَضْحَى له فى كلّ حالة نصـيرا ، وعلْما بمـا فى آصْطناعه من مصلحةٍ تَسْتنير أهِلّتُها ، وتستنير من شُبه الغىّ شواهدُها وأدلّتُها ، والله تعالى يَصل مَرامِىَ أمير المؤمنين بالإصابة ، ويُعينه على مايُقِرّ كلّ آمرئ فى حقِّه ويُحِـلُّه نِصابه ، ويُحْسن له الخَطْرةَ فى كلّ ما يغْـدو له مُمْضيا ، ولمَطَايا الآجتهاد فى فعله مُنْضيا ، وما توفيقُ أمير المؤمنيـــن إلّا بالله ، عليه يتوكل وإليه يُنيب .

وأمَره بآعتماد تَقْوى الله تعـالى فى الإعلان والإسْرار ، وآعتقاد الواجب من الإذعان بفَضْلها والإقْرار ، وأن يأْوِىَ منها إلى أمنَع المَعاقل وأحْصَنها ، ويَلْوِىَ عِنانَ

---

(١) عبارة عن نقد الذهب والفضة .

الهدى فيها إلى أجمل المقاصد وأحسنها ، ويجعلها عمدته يوم تخذل الأنصار ، وتشخص الأبصار : ليجتني من ثمرها مايقيه مصارع الخجل ، ويجتلي من مطالعها مايؤمنه من طوارق الوجل ، ويرد بها من رضا الله تعالى أصفى المشارب ، ويجد فيها من ضوال المنى أنفس المواهب : فإنها أبقى الزاد ، وأدعى في كل أمر إلى ورى الزناد ، وقد خص الله بها المؤمنين من عباده ، وحض منها على ماهو أفضل عدة المرء وعتاده ، فقال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون ﴾ .

وأمره أن يأتم بكتاب الله تعالى مستضيئا بمصباحه ، مستضيا لسلطان الغي بالوقوف عند محظوره ومباحه ، ويقصد الاستبصار بمواعظه وحكمه ، والاستدرار لصوب التوفيق في الرجوع إلى متقنه ومحكمه ، ويجعله أميرا على هواه مطاعا ، وسميرا لايرى أن يكشف عنه قناعا ، ودليلا إلى النجاة من كل مايخاف أثامه ، وسبيلا إلى الفوز في اليوم الذي يسفر عن فصل الحساب لثامه ، ويتحقق موقع الحظ في إدامة درسه ، وصلة يومه في التأمل بأمسه ، فإنه يبدي طريق الرشد لكل مبدئ في العمل به معيد : ﴿ وإنه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ﴾ .

وأمره أن يحافظ على الصلوات قائما بشروطها وحدودها ، وشائما بروق التوفيق في أداء فروضها وحقوقها ، ومسارعا إليها في أوقاتها بنية عائفة مناهل الكدر والرنق ، عارفة بما في إخلاصها من نصرة الهدى وطاعة الحق ، وموفرا عليها من ذهنه ، ما الحظ كامن في طيه وضمنه ، وموفيا لها من الركوع والسجود ، ما الرشاد فيه صادق الدلائل والشهود ، متجنبا أن يلهيه عنها من هواجس الأفكار ، ووساوس القلب

العُونِ منها والأَبكارِ، ما يَقِف فيه مَوْقِفَ المُقَصِّرِ الغالط، ويَنْزِل فيه مَنْزِلَةَ الجاحد للنِّعَمِ الغامط، وقد أمر اللهُ تعالىٰ بها وفَرَضها علىٰ المؤمنين وأوجبها وحَثَّ من إقامتها، علىٰ ما يُفْضي إلىٰ صلاح المَقاصد واستقامتها، فقال عزَّ من قائل: ﴿ فأَقِيمُوا الصَّلاةَ إنَّ الصَّلاةَ كَانَتْ عَلَىٰ المُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا ﴾ .

وأمره بالسَّعْي فى أيام الجُمَعِ إلىٰ المساجد الجامعـه، وفى الأعياد الىٰ المُصَلَّيات الضاحيه، بعد أن يتقدّمَ فى عِمارتها، وإعدادِ الكِسْوة لها، بما يؤدِّي إلىٰ كمال حلاها، ويُحْظِي من حُسن الذكر بأعذب الموارد وأحلاها، ويُوعِزَ بالاستكثار من المكبِّرين فيها والقُوّام، وترتيبِ المصابيح العائدة علىٰ شَمْلِ جَمالها بالاتِّساق والانتظام: فإنها بُيوتُ الله تعالىٰ التى تُتْلىٰ بها آياتُه، وتُعْلىٰ فيها أعلامُ الشَّرْع وراياتُه. وأن يُقيم الدعوةَ علىٰ مَنابرِها لأمير المؤمنين، ولوَلِيِّ عهده العُدّةِ للدِّين، أبى القاسم عبد الله ابن محمد ابنِ أمير المؤمنين، أدام اللهُ تعالىٰ به الإمتاع، وأحسن عن ساحته الدِّفاع، ثم لنفســه جاريا فى ذٰلك علىٰ ما أُلِفَ من مثله، وسالكًا منه أقومَ مَسالك الاهتداء وسُبُله، وقد بيَّن اللهُ تعـالىٰ ما فى عِمارتها من دلائل الإيمـان، والفوزِ بمـا يُعطي من سُخْط الله تعالىٰ أوثقَ الأمان، فى قوله سبحانه: ﴿ إنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللهِ مَنْ آمَنَ باللهِ واليَوْمِ الآخِرِ وأقامَ الصَّلاةَ وآتَىٰ الزَّكاةَ ولَمْ يَخْشَ إلَّا اللهَ فَعَسَىٰ أُولٰئِكَ أنْ يَكُونُوا مِنَ المُهْتَدِينَ ﴾ . وقال فى الحثّ علىٰ السعي الىٰ الجوامع التى يُذْكَر فيها اسمُه، ويَظْهر عليها مَنارُ الإســلام ورَسْمُه: ﴿ يأَيُّها الذين آمَنُوا إذا نُودِيَ للصَّلاةِ مِنْ يَوْمِ الجُمُعَةِ فاسْعَوْا إلىٰ ذِكْرِ اللهِ ﴾ .

وأمره أن يعتمدَ فى إخراج الزكاة ما أمر اللهُ تعالىٰ به، وهَدىٰ منه إلىٰ أرشَـد فعـلٍ وأصوَبِه، ويقومَ بذلك القيامَ الذى يُحْظِيـه بجميل الذِّكر، وجَزيل الأجر،

ويشهد له بزكاء المغرس وطيب النَّجْر، ويقصد فى أداء الواجب منه مايصل أمسه فى التوفيق بيومه، ويطلق الألسنة بحمده ويكفها عن لومه؛ متجنبا من إخلال بما نُصّ عليه فى هذا الباب، أو إهمال فيه لما يليق بذوى الديانة وأولى الألباب؛ ومتوخيا فى المسارعة إليه ما يتطهر به من الأدناس، ويتوفر به حسن الأحدوثة عنه بين الناس؛ فقد جعل الله تعالى الزكاة من الفروض التى لاسبيل إلى الحيد عنها، ولا دليل فى الفوز أوفى منها؛ وأمر رسوله صلى الله عليه وسلم بأخذها من أمته، وأبان عن كونها مما يُجتنى كل مرغوب فيه من ثمرته؛ ووصل الأمر له فى ذلك بما يوجب فضل المسابقة إلى قبوله: لما فيه من الحظ الكامل فى استنارة غرره وحجوله، فى قوله سبحانه: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

وأمره أن يهذب من الدنس خلاله، ويصل بأقواله فى الخير أفعاله؛ ويمتنع من تلبية داعى الهوى المضل، ويتبع سنن المتقى بالهدى المستظل؛ ويقبض يده عن كل محرم توبق أشراكه وتوبق غوائله، وتؤذن بسوء المنقلب شواهده ودلائله؛ ويجعل له من نهاره رقيبا على نفسه يصونها عن مراتع الغى ومطارحه، وأمينا يصدها عن مسارب الإثم ومسارحه؛ فإنها لاتزال أمارة بالسوء إن لم تقد إلى جدد الرشد، وتقم لها سوق من الوعظ يبلغ فيها أقصى الغاية والأمد؛ فالسعيد من أضحى لها عند سورة الغضب وازعا، وأنحى عليها بلوم يغدو معه عن كل مايسخط الله تعالى نازعا، وأن يتنزه عن النهى عما هو له مرتكب، والأمر بما هو له مجتنب: إذ كان ذلك بالمجنة حاليا، وبين المرء وبين مقاصد هديه حائلا، قال الله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

وأمره أن يُضفي على مَنْ قِبَلَه من أولياء أمير المؤمنين وجُنوده، أصناف جلابيب الإحسان وبُروده، ويخُصّهم من جزيل حِبائه بمـا يَصِلُون منه إلى أبعـد المَدَى، ويملكُون به نَواصِيَ الآمال ويُدرِكُون قَواصِيَ المُنَى، ويميّز من أدّى واجبَه في الطاعة وفَرْضَه وأبدى صَفحته في الغَناء بين يديه بمَزِيدٍ من الأشغال يُرهِف بصيرَة كلّ منهم في التوفّر على ماوافَقَه، ووصَـل بآنِفِه في التقرّب إليه سابِقَـه، ويَدْعُو المقصّرَ إلى الاستبْصار في اعتماد مايَلْحَق فيه رتْبَة من فازت في الحَظْوة قِداحُه، وفاتَت الوصفَ غُرَرُه في الزُّلفـة وأوضـاحُه : ليَمْرَح به في الاغتذاء بلِبَان النِّعمه، كما ابتهج جَدّده في إحسانِ الخِدمه . وأن يَرجِع إلى آراء ذَوِي الحُنْكَة منهم مستَضِيئًا بها مسترْشِدا، وطالبًا ضَوالَّ الرأي الثاقب ومُنْشِدا، وقد بيّن الله فضْلَ المَشُورة التي جعلها للألباب لِقاحا، وفي حَنادِس الشُّكوك مِصْباحا، حيثُ أمر رسولَه صلّى الله عليه وسلم بها، وبعثَه منها على أسَـدِّ الأفعال وأصْوَبِها، فقال تعـالى : ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ ﴾ .

وأمره أن يعدِلَ في الرَّعايا قِبَلَه، ويُحِلَّهم من الأمن هِضابَه وقُلَلَه، ويَمنَحَهم من الاشتِمـال، مايَجْري به أُمورَهم من الاختِـلال، ويَحْوِي به من طِيبِ الذِّكْر بحسَب مااكتَسَب من رِضيّ الأنحاء والخِلال، ويُضْفِي على المُسْلِم منهم والمُعاهَد من ظلّ رعايته مايَتَساوَى فيه بين القويّ والضَّعِيف، ويُلْحِقُ التليدَ منهم بالطَّريف : ليكونَ الكلُّ وادِعِين في كَنَف الصَّوْن، راجعين إلى الله تعالى في إمدادهم بالتوفيق وحُسْن الطاعة والعَوْن . وأن يَنظُرَ في مَظالِمهم نظَرا ينصُر الحقّ فيه، ويَنشُر عَلَم العدل في مَطاوِيه، ويَنْتصِفَ معه بعضَهم من بعض، ويُنْصِبُ[1] به لهم من اهتمامه أسنَى قِسْم وحَظّ، مُلِينًـا لهم في ذلك جانبَـه، ومُبِينا مايَظَلّ به كاسبَ الأجر وجالِبَـه،

(١) يقال أنصبه جعل له نصيبا . انظر اللسان والقاموس .

ويُزيل عنهم ماشرعه ظلمةُ الغلمان بتلك الأعمال، ويديل من تلك الحال باستئناف مايُوطئهم كواهلَ الآمال، جامعًا لهم بين العدل والإحسان، وجاعلًا أمرَ الله تعالى في ذلك متلقًى بالطاعة الواضحة الدليل والبرهان، قال اللهُ تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾.

وأمره بأن يكون بالمعروف آمرا، وعن المنكر زاجرا، ولله تعالى في إحياء الحق وإماتة الباطل متاجرا. وأن يشدّ من الساعين في ذلك والداعين إليه، ويعدّ القيامَ بهذه الحال من أفضل مايتقرّب به إلى الله تعالى يوم العرض عليه. ويتقدّم بتعطيل ما في أعماله من المواخير ودحضها، وإزالة آثارها ومحوها؛ فإنها مواطن بالمخازي آهلة، ومن مشارب المعاصي ناهلة، قد أسست على غير التقوى مبانيها، وأخليت من كل مايرضي الله تعالى مغانيها، وقد أبان الله تعالى عن فضل الطائفة التي ظلّت بالمعروف آمرة وعن المنكر ناهيه، وضنّت بما توى فيه عن مقاصد الخير ذاهلة لاهية، فقال: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾.

وأمره أن يرتّب لحماية الطُّرقات من يجمع إلى الصّرامة والشهامه، سلوكَ محاجّ الرّشاد والاستقامه، ويحملُ التعفّفَ عن ذميم المراتع شاهدًا بتوفيق الله إياه، وعائدًا عليه بما تحمد مغبّته وعقباه، ويأمر بحفظ السابلة، واختصاصهم بالحراسة السابغة الشامله، وحماية القوافل واردةً وصادرَه، واعتمادها بما تغدو به إلى السلامة مفضية صائره: لتُحرس الدماءُ مما يبيحها ويريقها، والأموالُ مما يقصد فيه سبيلُ الإضاعة وطريقُها، وأن يخوّفهم نتائجَ التقصير، ويعرّفهم مناهج التبصير، وأنّ عليهم

رُقَبـاءَ يلاحظُون أُمُورَهم ويُوضِّحُونها ؛ ليكون ذلك داعيًا إلى التحوُّط والتحرُّز، واعتياد الميل إلى جانب الصِّحَّة والتحيُّز، ويُوجِبَ لهم من بعْدُ مايكْفِي أمثالَهم مثلَه، ويكُفّ أيديهم عن الامتداد إلى ماتقدَّم سبله ؛ فإنْ أخلّ أحدُهم بما حُدَّ له، أو مَزَج بالسُّوء عملَه، جَزاه بحسَب ذلك ومُوجِبه . قال الله تعالى : ﴿ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ ﴾ .

وأمره أن يتقدّم إلى نُوّابه فى الأعمال بوَضْع الرَّصَد على من يَجْتاز بها من العبيد الأُبّاق، والاستظهارِ عليهم بحسَب العَدْل والاستحقاق ، واستعلام أماكنهم التى فَصَلُوا عنها، ومواطنهم التى بَعُدُوا منها ؛ فإذا وضَحَتْ أحوالُهم وبانَتْ، وانحسمَتْ الشُّكوكُ فى بابهم وزالَتْ، أعادُوهم إلى مَواليهم أبَوْا أم شاءُوا، وأصْفَوْا نيّاتِهم فى الرُّجوع إليهم أم شابُوا . وأن يقصِدُوا إنشادَ الضَّوالّ، ويجتهدُوا من إظهار أمرِها بما يغدُو بجمالِ الذِّكر به فى الظّلال ؛ ويجتنِبُوا أن يَغْطُوا ظهورَها بحال، أو يمُدُّوا أيديَهم إلى منافعِها فى إسرارٍ وإعلان ؛ حتى إذا حضَرَ أربابُها سُلِّمت إليهم بالنُّعوت والأوصاف ، وأُجْرِيَ الأمرُ فى ذلك على مايَضْحى به علَمُ العدل عالِيَ المَنار حالِيَ الأعطاف ؛ فقد أمر اللهُ تعالى بأداء الأمانات إلى أهلها، وهدى من ذلك إلى أوضح مَحاجِّ الصِّحّة وسُبُلِها ، فقال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ﴾ .

وأمره أن يختار للنظر فى المَعاوِن والأجلاب من يَرْجِع إلى دينٍ يحميه من مَهاوِى الزَّلَل وصَلَف(١) عن مدّ اليد إلى أسباب المَطامع ، وكَلَف بما يعود على ما كُلِّف إيّاه بصَلاحٍ مُشْرِق(٢) المَطالع، ومعرفةٍ بما وُكِل إليه كافيةٍ وافيه، ولما يُوجِبُ الاستزادةَ له

(١) لعله بالقاف المثالة بمعنى الكف . تأمل .

(٢) لعله الاستزراء أى الزراية عليه والتهاون به .

ماحية نافيه ؛ ويوعز إليهم بالتشمير فى طلب الدُّعّار، من جميع الأماكن والأقطار، وحسم موادّ العــار فى بابهم والمضار . وأن يمضوا فيهم حكم الله بحسب مقاصدهم فى الضّلال ، وتجرى أمورهم على قانون الشرع المنير فى حنادس الظلام ، ممتنعين أن يراقبوا من لم يراقب الله تعالى فى عمله، ويجانبوا الصواب بقبول الشفاعة فيمن شهدت آثاره بذميم سُــبله ؛ وإذا وقع الظّفر بجانٍ قد كشف فى الغىّ قناعه ، وأظهرت مساعيه إباءه من إجابة داعى الرّشــد وامتناعه ؛ أُقيم حدّ الله تعــالى فيه من غير تعدّ للواجب ، ولا تعرّ من ملابس السالكين لجدد اللّاحب، ﴿ ومن يتعدّ حُدُودَ الله فأولئك هُمُ الظّالمُونَ ﴾ .

وأمره أن يوعز إلى أصحاب المعاون بأن يشــدّوا من القضاة والحكّام، ويجدّوا فى إجراء أمورهم على أوفى شروط الضّبط والإقدام؛ ويأمرهم بحضور مجالسهم لتنفيذ أحكامهم وإمضائهــا ، والمسارعة إلى حثّ مطايا التشمير فى ذلك وإنضائهــا ؛ والتصرّف على أمثلتهــم فى إحضار الخُصوم إذا ما امتنعوا ، وسوقهم إلى الواجب إذا زاغوا عنه وانحرفوا . وأن يتقدّم بإمداد عُمّال الخراج بمــا يؤدّى إلى قوة أيديهم فى استيفاء مال الفىء واجتبائه، واعتماد ماينتصر الحقوق فى مطاويه وأثنائه ؛ إذ كان فى ذلك من الصّلاح الجامع، وكفّ المضارّ وحسم المطامع، ما المعونة عليه واجبه، وللتوفيق مقارنةٌ مصاحبةٌ؛ قال الله تعالى : ﴿ وتعاونوا على البرّ والتّقوى ولا تعاونوا على الإثم والعُدوان واتّقوا الله إنّ الله شديدُ العقاب ﴾ .

وأمره بعرض من تضمّه الحبوس من أهــل الجرائم والجرائر، وتأمّل أحوالهم فى الموارد والمصادر؛ والرّجوع إلى متولّى الشُّرطة فى ذكر صورة كلّ منهم والسّبب فى حبسه ، والتعيين من ذلك على مايُعرف به صحّة الأمر من لَبْسه ؛ فمن ألفى منهم

للذنوب آلفا ، وعن سنن الصواب منحرفا ، ترك بحاله ، وكف بإطالة آعتقاله ، عن مجاله فى ميادين ضلاله ؛ وإن وجد منهم من وجب عليه الحد ، أقيم فيه بحسب مايقتضيه الحق ؛ ومن آعترضت فى بابه شبهة تجوز إسقاط الحد عنه ودرأه ، آعتمد إلحاقه فى ذلك بمن آتصل إليه صوب الإحسان ودره ؛ ومن لم يكن له جرم وتظهر صحة شاهده ودليله ، قدم الأمر فى إطلاقه وتخلية سبيله ؛ وإن غدا لأحدهم سعى فى الفساد واضح وبان ، وغوى به فى محاربة الحق وخان ، قوبل بما أمر الله تعالى به فى كتابه حيث يقول : ﴿إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ذلك لهم خزى فى الدنيا ولهم فى الآخرة عذاب عظيم﴾ .

وأمره باختيار المرتب للعرض والعطاء ، والنفقة فى الأولياء ، من ذوى المعرفة والبصيره ، والمشهورين فى العفة بتساوى العلانية والسريره ؛ وممن تحلى بالأمانة جيده ، وآعتضد بطريفه فى الرشاد تليده ؛ وكان بما يسند إليه قيما ، وفى مقر الكفاية ثاويا مخيما . وأن يتقدم إليه بضبط حلى الرجال وشيات الخيول ، وأن يقصد فى كل وقت من تجديد العرض ما يشهد بالآحتياط السابغ الأهداب والذيول ؛ فإذا وضح وجه الإطلاق ، وسلم مال الآستحقاق ، كانت التفرقة على قدر المنازل فى التقديم والتأخير ، وبحسب الجرائد التى تدل على الصغير من ذلك والكبير ؛ ومتى طرق أحدهم ماهو محتوم على خلقه ، أعاد على بيت المال من رزقه بقدر قسطه وحقه . وأن يلزمهم إحضار جياد الخيول وخيار الشكك ، ويأخذهم من ذلك بأوضح مانهج المرء الطريق فيه وسلك ؛ فإن أخل أحدهم بما يلزمه البروز فيه يوم العرض ، أو قصر فى القيام بالواجب عليه الفرض ، حاسبه بذلك من الثابت باسمه ، والمطلق

برسمه، تنبيها له على تلافي الفارط، وتبصيرا لغيره في البعد عن مقام المخطئ الغالط؛ إذ كان في قوتهم وكمال عدتهم إرهاب للأعداء والأضداد، وإرهاف للبصائر فيما يؤدي إلى المصالح الوافية الأعداد والأمداد، قال الله تعالى : ﴿ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم ﴾ .

وأمره باختيار عمال الخراج، والضياع، والأعشار، والجهبذة، والصدقات، والجوالي؛ وأن يكونوا مختصين من الأمانة والكفاية بما يقع الاشتراك في علمه، ومتقمصين من ملابس العفة والدراية ما تحمد العواقب في ضمنه، ومتميزين بما يغنيهم عن الأفكار بنتائج الاتعاظ والاعتبار، ويغريهم بالاستمرار على السنن المنجي لهم من مواقف التنصل والاعتذار . وأن يأمر عمال الخراج بجباية الأموال، على أجمل الوجوه والأحوال، سالكين في ذلك جددا وسطا، يحمي من مقام من ضعف في الاستخراج أوسطا . و [أن يتقدم] إلى الناظرين في الضياع بتوفية العمارة حقها والزراعة حدها، والتوفير من حفظ الغلات الحاصلة على ما يقتفى فيه أرشد المذاهب وأسدها، متحرزين من أمر ينسبون فيه إلى العجز والخيانة، فكل من الحالين مخز في وضوح أدلة الفساد ومخز . وإلى الجهابذة بقصد الصحة في القبض والتقبيض، وحفظ النقد من التدليس والتلبيس، أداء للأمانة في ذلك، واهتداء فيه إلى أقوم المسالك . وإلى سعاة الصدقات بأخذ الفرائض من مواشي المسلمين السائمة دون العامله، والجري في ذلك على السنة الكاسبة للحمدة الوافية الكامله؛ متجنبين من أخذ فحل الإبل وأكولة الراعي، وعقائل الأموال المحظورة على سائر الأسباب والدواعي، فإذا استوفيت على المحدود من حقها، أخرجت في المنصوص عليه من وجوهها وسبلها . وإلى جباة جماجم أهل الذمة بأخذ الجزية منهم في كل سنة، على قدر ذات أيديهم في الضيق والسعه، وبحسب العادة المألوفة المتبعه؛ ممتنعين من

مُطالبة النّسوان، ومَن لم يبلغ الحُلُم من الرجال ومن علَتْ سنّه عن الاكتساب وتبتّل من الرُّهبان، ومَن غدا فقرُه واضحَ الدليـل والبُرهان ؛ وفاءً بالعَهْـد المسئول، وتلقّيًا لأمرِ الله تعالىٰ بالقَبُول حيثُ يقول : ﴿وأَوْفُوا بِالعَهْدِ إنَّ العَهْدَ كانَ مَسْـئُولًا﴾ .

وأمره أن يَرُدّ أمرَ المَظالم وأسواقِ الرقيق ودُورِ الضّرب والطُّرُز والحِسْبة إلىٰ مَن عَضّد بالعَفَافِ الوَرَع، وانتظَم له شَمْلُ الهدىٰ واجتمَع : فكان ذا مَعْرِفة بمـا يَحرُم ويَحِل ، وبصيرةٍ يتقيّأ[(١)] بها من عَوارض الشُّبَه ويَستَظِلّ ؛ وأن يكون النظرُ فى ذلك مُضاهيًا للحُكم ملائمًا، ولن يقُومَ به إلّا مَنْ لا يرىٰ عاذلًا له فى فعله لائمًا. وأنْ يتقدّم إلىٰ من يلى المَظالم بتسهيل الإذْنِ للخُصُوم فى الدُّخُول عليــه ، وتمكينِ كلٍّ منهم من آستيفاء الحُجّة بينَ يَدَيْه، والتوصّـل إلىٰ فَصْل ما بينَهم بحَسَب مايقُودُ الحقُّ إليـه ؛ وأن يقصِدَ فيما وقَع الخُلْفُ معهم فيه، الكَشْفَ الذى يقُوم به ويَستوفيه ؛ فإنْ وضَح له الحقُّ أنفَـذه وقطَع به ، وإلا ردّهم إلىٰ مجالس القَضاء لإمضاء ذلك علىٰ مقتضىٰ الشَّرع ومُوجَبه . وإلىٰ المرتّبين فى أسواق الرقيق بالتحفُّظ فيما يُبتاع ويُبَـاع ، وأن يستعمِلَ فى ذلك الآقتفاءَ للسَّنَن الجميل والآتّباع : ليُؤْمَنَ آختلاطُ الحُرّ بالعبد، ويُحْرَسَ الأنسابُ من القَدْح والفُروجُ من الغَصْب ؛ فى ضِمن حِفْظ الأموال، والمَنْع من مَزْج الحرام بالحَلال . وإلىٰ وُلاة العيار بتصْفية عيْنِ الدِّرْهم والدِّينار من الغِشّ والإدْغال ؛ وصَوْنِ السّكّة من تداوُل الأيْدى الغريبةِ لهـا بحالٍ من الأحْوال ؛ متحذِّرين من الآغترار بمـا رُبّمـا وضَح الفسادُ فيه عنـد الاعتبار ، وما يَعينَ التُّجّار المخصوصين بالإيراد ، من كل قولٍ مخالفٍ للإيثـار فى الصحّة والمُراد ؛ ومعتَمِدين إجراءَ الأمر فيما يُطْبَع علىٰ القانون بمدينة السـلام، من غير خلافٍ لمستقَرّ القاعدة فى ذلك ومتّسق النظام ؛ وأن يثبت ذِكْرُ أمير المؤمنين، ووَلىِّ عهده فى المسلمين ؛

---

(١) فى اللسان "فاء الفىء فيأ تحول وتفيأ فيه تظلل" .

على مايُضرب من الصِّنفين معا ، والمسارعة فى ذلك إلى أفضل مابادر إليه المرء وسعى . وإلى المستخدمين فى الطُّرز بملاحظة أحوال المناسج والإشراف عليها ، وأخذ الصُّنّاع بالتجويد على العادة التى يجب الانتهاء إليها ، وإثبات اسم أمير المؤمنين على ماينسج من الكسا والفُرُوش والأعلام والبُنُود ، جريا فى ذلك على السَّنَن المرضىّ والمنهاج المحمود . وإلى من يُراعى الحِسبة الشريفة بالكشف عن أحوال العوامّ فى الأسواق ، والانتهاء فى ذلك إلى ما ينتهى به شمل الصَّلاح إلى الانتظام والاتّساق ، وأن يتقدم [إليهم] بما يجب من تعيير مايختص بهم من المكاييل والموازين ، وحملها على قانون الصِّحة الواضحة الدلائل والبراهين ، وأن يقصد تبصيرهم مواضع الحظّ فى الاستقامه ، ويحذرهم مواقع الانتقام الذى لاتفيد فيه أسباب الاستصفاح والاستقاله ، فإن عرف من أحد منهم إقداما على إدغال فيما يزن أو يكيل ، قوبل من التأديب بما هو الطريق إلى ارتداعه والسبيل ، قال الله تعالى : ﴿وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾ .

وأمره أن يعرف قَدْر النعمة التى ضفت عليه بُرودُها ، وحلّت جيده عقودُها ، وزفّت منه إلى أوفى أكفائها ، وحُفّت بجزيل القسم من جميع أكنافها وأرجائها ، وأن يقابلها بإخلاص فى الطاعة يساوى فيه بين مايُبدى ويُسر ، وسعى فى الخدمة يوفى على كل مُجاز ومُبِرّ ، ويبدأ أمام مايتوخّاه بأخذ البيعة لأمير المؤمنين وولىّ عهده على نفسه وولده ، وكافّة الأجناد والرعايا فى بلده ، عن نيّة صفت من الكدر والقذى ، ووفت للتوفيق بما ضمنت من خذلان البغى ونصرة الهدى ، ويتبع ذلك بالحقوق فى كل خدمة ترضى ، والوقوف عند الأوامر الإماميّة فى كلّ مايؤدّى إلى الوفاق ويفضى ، وأن يحمل إلى حضرة أمير المؤمنين من الفىء والغنائم ما أوجبه

الله تعالى وفرضـه ، من غير تأخير لما يجب تقـديمه من ذلك ولا تقصير منـه فيما يقتضى التلافى والاستدراك ؛ ليأمر أمير المؤمنين بصرفه فى سبيله المشار إليهما ، ووجوهه المنصوص عليها ، قال الله تعـالى : ﴿ واعلموا أنما غنمتم من شىء فأن لله خمسه وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ﴾ .

ثم إن أمير المؤمنين آثر أن يضاعف له من الإحسان ، ما يقتضيـه مقامه لديه من وجيه الرتبة والمكان ، وشرفه بمـا يرفل من حلاه فى حلل الجمـال ، وتكفل له علاه ببلوغ منتهى الآمال ، وبوأه بما أولاه محلا تقصر عن الوصول إليه الأقدام ، وتعجز عن حل عراه الأيام ، ولقبـه بكذا ، وأذن له فى تكنيته عن حضرته ، وتأهيله من ذلك لما يتجاوز قدر أمنيته ، إنافة به على من هو فى مساجلته من الأقران طالع ، وإضافة للنعمة فى ذاك إلى ما اقترن بها فيما هو لشمل الفخر عنده جامع ؛ وأنفـذ لواء يلوى به إلى الطاعة أبى الأعناق ، ويحوى به من العز ما أنواره وافيـة الإشراق .

فتلق يا فلانـ هذه الصنيعة الغـراء ، والمنحة التى أكسبت زنادك الإيراء ، بالاستبشار التام ، والاعتراف فيها بسابغ الطول والإنعام ، وأشع ذكر ذلك عنـد كل أحد ، وانته فى الإبانة عنه إلى أبعـد أمد ، واعتمد مكاتبة حضرة أمير المؤمنين متسميا ، ومن عداه متلقبا متكنيا ، وتوفر على شكر تستدر به صوب المزيد ، وتستحق به إلحاق الطريف من الإحسان بالتليد ، والله تعالى يقول : ﴿ لئن شكرتم لأزيدنكم ﴾ .

هذا عهد أمير المؤمنين إليك ، والحجة لك وعليك ، قد أوضح لك [فيه] الصواب ، وأذل به الجوامح الصعاب ، وحباك منه بموهبة كفيلة بخيرى البدء والمعاد ، وقية فيها

المُنَى بسابِق الضَّمان والميعاد ، وضَمَّنه من مَوَاعظه ماهَـدَى به إلى كلّ ما الجَنِيُّ ثمرُه ، وغدا مَحْظِيًّا بمـا تَرُوق أوضاحُه فى المجد وغُرَرُه ، ولم يألُك فيه تجمُّلا يُكْسِبك الفخر النامى ، ويجعل ذِكْرَك زِينة المحفل والنادى ، وتقديمـا يُنْبِئ عمّا خُصِصْتَ به من المِنَح المُشْرِقة اللآلى ، وإكرامًا يَبْقَى صِيتُه على تَقَضِّى الأيام والليالى ، وتبصيرًا يَقِى من فَلَتات القول والعمـل ، ويرتَقِى المستضىءُ بأنواره إلى ذُرَى الأمْن من دَواعى العِثار والزَّلَل ؛ فأَصْغِ إلى ما حَواه ، إصغاء الفائز بأوْفَى الحظ ، وتدبَّرْ فَحْواه ، الناطقَ بفضل الحثّ على الهـدَى والحَضّ ؛ وكُنْ لأوامر أمير المؤمنـين فيه محتذيا ، ومِنْ تجاوُز محدُوده فى مَطاويه مُحْتَميا ، وبمواعظه الصادقة معتبرا ، وفى العمل بما قارَنَ الحق مستبْصِرا ، تَفُزْ بالغُنْم الأكبر ، وبالسلامة فى المَوْرِد والمَصْدَر ، وإيّاك وآعتمادَ ما تُذَمّ فيـه مَكاسِبُك ، فإنّ لك بين يدَى الله تعـالى مَوْقفا يناقشُك فيه ويحاسبُك . وآعلم أنّ أمير المؤمنين قد قلّدك جسيما ، وخوّلك جزيلا عظيما ، فلا تَنْسَ نصيبَك من الله تعـالى غدًا ، ولا تجعل لسُلْطان الهوَى المُضِلّ عليك يدًا ؛ وإنْ خَفِيَ عليك الصوابُ فى بعض ما أنتَ بصَدَده ، أو آعترض فيه من الشُّبَه ما يَحُولُ بينك وبين طريق الرَّشاد وجَدَده ، فطالِـعْ حضرةَ أمير المؤمنـين به ، وآستَنْجِد اللهَ فى ذلك بأسَدِّ رأيٍ وأصوبه ، يُبَدِّلْك من الشكّ يقينـا ، ويُبْدِ لكَ ما يغدُو لكلّ خير ضَمِينـا ، إن شاء الله تعالى .

الطريقـــــة الثـانية

(طريقةُ محقِّق المتأخرين ممّن جرىٰ علىٰ هذا المذهب : كالشيخ شهاب الدين محمود الحلبي ، والمقرّ الشهابيّ بن فضل الله ، ومَنْ والاهم)

وهي أن يأتي في أثناء العَهْد بخُطبة أو تحميد علىٰ عادة المكاتبات ، وأن يذكُرَ بعدَ صدر العهد حميدَ أوصاف المعهُود إليه ، ويُطنِبَ فيها ويُثْنِيَ عليه بما يليق بمقامه . قال في "التعريف" : علىٰ نحو ماتقــدّم في عهُود الخلفاء عن الخلفـاء . قال في "التثقيف" : وصورته أن يُكْتب :

«هذا ماعَهِد به عبدُ الله ووليُّـه أميرُ المؤمنين المتوكّلُ علىٰ الله (مثلا) أبو فلان فلان بن فلان ، إلىٰ السيِّد الأجلّ الملكِ العالِم العادل المؤيَّد المظفَّر المنصور المجاهد» ويذكر اللّقب هنا ، مثل الناصر أو الكامل أو غيره «فلانِ الدنيـا والدين ، فلان ، آبن السلطان السعيد الشهيد الملك الفلاني خلّد الله تعالىٰ ملكه .

أما بعدُ ، فإنّ أمير المؤمنين يحمَـدُ إليكَ اللهَ الذي لاإلهَ إلا هو ، ويصلّي علىٰ آبن عمّه سيدنا محمد صلّىٰ الله عليه وسلم» ويكمّل الخطبة بمـا أمكنه . ثم يقال : «عهِد إليه وقلّده جميعَ ماهو مُقلّده من مصالح الأمّة وصَلاح الخلق ، بعدَ أنِ آستخار اللهَ تعالىٰ في ذلك ، ومَكث مدّةً يتدبّرهذا الأمرَ ويُرَوِّي فِكْرَه فيه وخاطِرَه ، ويستشيرُ أهلَ الرأي والنظر ، فلم يرَ أوفَقَ منه لأمور الأمّة ومَصالح الدنيا والدِّين» . ومن هذا وشِبْهه . ثم يقال : «وإنّ المعهود له قَبِل ذلك منه» ويأتي فيه بمـا يليقُ من محاسن العبارة وأجناس الكلام .

قلت : وقد يُؤْتىٰ بعد «أما بعد» بخُطبة ، مثل أن يقال : «أما بعدُ فالحمدُ لله» ونحو ذلك ، ويكمّل الخطبة بمـا يليق بالمَقـام . ثم قد يقتصر علىٰ تحميـدة واحدة ،

وقد يكرره إلى ثلاث ، وإن شاء بلغ به سبعا . فقد قال فى "التعريف" فى الكلام على عهود الملوك للملوك : إنه كلما كثر التحميد ، كان أدلّ على عِظَم النعمة . وقد يقال فى آخره : « والاعتمادُ على الخط الفلانى (بلقب الخلافة) أعلاه حُجَّةٌ بمقتضاه أو « والخطُّ الفلانى أعلاه حُجَّةٌ فيه » ونحو ذلك .

وعلى هــذه الطريقة كتب الشيخُ شهاب الدين محمودٌ الحلبىّ عهدَ الملك العادل « كتبغا » عن الخليفة الإمام الحاكم بأمر الله أبى العباس أحمد،[1] ابن الإمام الذى استحضره الملكُ الظاهرُ بيبرس من بغدادَ وبايعه ، وهذه نسختُه :

هــذا عهدٌ شريف فى كتاب مرقوم يَشْهَدُه المُقَرَّبون ، ويُفوِّضه آلُ رسول الله صلى الله عليه وسلم الأئمةُ الأقربون . من عبد الله ووَلِيِّه الإمامِ الحاكم بأمر الله أبى العبّاس أحمدَ أمير المؤمنين ، وسليلِ الخُلفاء الراشدين والأئمة المهديِّين ، رضوانُ الله عليهم أجمعين ، إلى السلطان الملكِ العادل زَيْن الدنيا والدين « كُتبغا المنصورى » أعزّ الله سلطانَه .

أما بعــدُ ، فإنّ أمير المؤمنين يحمَدُ إليك اللهَ الذى جعل له منك سُــلطانا نصيرا ، وأقام له بمُلكك على ما ولّاه من أمور خَلْقه عَضُدا وظَهيرا ، وآتاك بمـا نهضتَ به من طاعته نِعَما ومُلْكا كبيرا ، وخوّلك بإقامة ماوراءَ سريره من مَصالح الإسلام بكُلّ أرض مِنْبَرا وسَريرا ، وجاءَ بك لإعانته على ما آستخلفه اللهُ فيه من أمور عبــاده على قَدَرٍ وكان ربُّك قديرا ، وجمع بك الأمةَ بعــد أن كاد يَزيغُ قلوبُ فريقٍ منهم ،

(١) لم يذكر نسبه فى الأصل . وفى ابن اياس هو أحمد بن على بن أبى بكر بن الخليفة المسترشد ابن الخليفة المستظهر ابن الخليفة المقتدى ابن محمد الذخيرة العباسى . وكذلك هو فى خطط المقريزى إلا أنه قال أحمد بن أبى على الحسن بن الخ . وأقام فى الخلافة نيفا وأربعين ســنة وتوفى سنة احدى وسبعمائة وهو أوّل خلفاء بنى العباس بمصر . وبمراجعة تاريخ كتبغا ولاجين يعلم أنهما كانا فى زمنه وبالضرورة يكون هو الذى كتب عهديهما فتنبه .

وعضدك لإقامة إمامته بأولياء دولتك الذين رضى الله عنهم، وخصك بأنصار دينه الذين نهضوا بما أمروا به من طاعتك وهم نازهون، وأظهرك على الذين ابتغوا الفتنة من قبل وقلبوا لك الأمور حتى جاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون؛ واصطفاك لإقامة الدين وقد اختلفت الأهواء فى تلك المدة، ولم يك شعث الأمة بعد الاضطراب فكان موقفك ثم موقف الصديق يوم الردة.

ويشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، شهادة حاكم بأمره، مستنزل لك بالإخلاص ملائكة تأييده وأعوان نصره، مسترهف بها سيف عزمك على من جاهر بشركه وحاربه بكفره، معتصم بتوفيقه فى تفويضه إليك أمر سره الذى استودعه فى الأمة وجهره؛ ويصلى على سيدنا محمد رسول الله الذى استخرجه الله من عنصره وذويه، وشرف به قدر جده بقوله فيه: «عم الرجل صنو أبيه» وأسر إليه بأن هذا الأمر فتح به ويختم ببنيه؛ وعلى آله وصحبه والخلفاء الراشدين من بعده، الذين قضوا بالحق وبه كانوا يعدلون، وجاهدوا أئمة الكفر الذين لا أيمان لهم والذين هم بربهم يعدلون؛ وسلم تسليما كثيرا.

وإن أمير المؤمنين لما آتاه الله من سر النبوة، واستودعه من أحكام الإمامة الموروثة عن شرف الأبوة، واختصه من الطاعة المفروضة على الأمم، وفرض عليه من النظر فى الأخص من مصالح المسلمين والأعم، وعصم آراءه ببركة آبائه من الخلل، وجعل سهم اجتهاده هو المصيب أبدا فى القول والعمل، وكان السلطان فلان هو الذى جمع الله به كلمة الإسلام وقد كادت، وثبت به الأرض وقد اضطربت بالأهواء ومادت، ورفع به منار الدين بعد أن شمخ الكفر بأنفه، وألف به شمل المسلمين وقد طمح العدو إلى افتراقه وطمع فى خلفه، وحفظ به فى الجهاد حكم

الكتاب الذى لا يأتيه الباطلُ مِن بين يديه ولا من خلفه ؛ وحَمىٰ به المَمالكَ الإسلاميّة فما شامَ الكُفرُ منها برقَ ثغرٍ إلّا رُمِىَ من وَباله بوابِل ، ولا أطلق عِنانَ طَرْفه إلى الأطراف إلا وَقع من سَطَوات جُنوده فى كُفّة حابِل ؛ ولا اطمأنُّوا فى بلادهم إلا أتتهم سَراياه من حيثُ لم يَرتقبوا ، ولا ظنُّوا أنهم مانِعتهم حصونُهم من الله إلّا وأتاهُم بجُنوده من حيثُ لم يحتسبوا ؛ وألّف جُيوشَ الإسلام فأصبحتْ علىٰ الأعداء بجُنه يدًا واحده ،وقام بأمُور الأمّة فأمستْ عُيونُ الرّعايا باستيقاظ سُيوفه فى مِهاد الأمْن راقده؛ وأقام منارَ الشريعة المطهّرة فهى حاكمةٌ له وعليه ، نافذٌ أمرُها علىٰ أمره فيما وضَع الله مقاليدَه فى يديه؛ ونَصره الله فى مَواطنَ كثيره ، وأعانَه علىٰ مَن أضمر له الشّقاق والصّلاة وإنَّها لكَبيره؛ وأظهره بمَنْ بغىٰ عليه فى يومه بعد حلمه عنه فى أمسه ، وأيّده علىٰ الذين خانُوا عهدَه ويدُ الله فوقَ أيديهم فمَن نكثَ فإنّما ينكُثُ علىٰ نفسه ؛ وتعيّن لمُلك الإسلام فلم يكُ يصلُح إلّا له ، واختاره اللهُ لذلك فبلغ به الدّينُ آماله ؛ وضعضع بمُلكه عمودَ الشرك وأمالَه ، وأعاد بسلطانه علىٰ الممالك بهجتَها وعلىٰ المُلك رَونقه وجلالَه ، وأخدمه النصرَ فما أضمر له أحدٌ سوءًا إلا وزَلزلَ أقدامَه وعجّل وَبالَه ، وردّه إليه وقد جعل من الرُّعب قيودَه ومن الذُّعر أغلالَه ، وأوطأ جوادَه هامَ أعدائه وإنْ أنِفَ أن تكونَ نِعالَه .

عهد إليه حينئذٍ مولانا الإمامُ الحاكم بأمرِ الله أميرُ المؤمنين فى كلّ ماوراءَ خلافته المقدّسه ، وجميع ما اقتضتْه أحكامُ إمامته التى هى علىٰ التّقوىٰ مؤسّسه : من إقامة شعار المُلك الذى جمع اللهُ الإسلامَ عليه ، وظهورِ أبّهة السلطنة التى ألقىٰ اللهُ وأميرُ المؤمنين مَقاليدَها إليه ؛ ومن الحُكم الخاصّ والعامّ ، فى سائر ممالك الإسلام ، وفى كل ماتقتضيه أحكامُ شريعةِ سيدنا محمد عليه أفضلُ الصلاة والسلام ؛ وفى خزائن الأموال وإنفاقِها ، ومِلك الرِّقاب وإعتاقها ، واعتقالِ الجُناة وإطلاقها ؛ وفى كل

ماهو فى يد الملة الإسلامية أو يفتحه الله بيده عليها ، وفى جميع ماهو من ضوالّ الممالك الإسلامية التى سيرجعها الله بجهاده إليها ؛ وفى تقليد الملوك والوزراء ، وتقدمة الجيوش وتأمير الأمراء ؛ وفى الأمصار يقرّ بها من شاء من الجنود ، ويبعث إليها ومنها ماشاء من البعوث والحشود ؛ ويحكم فى أمرها بما أمر الله من الذبّ عن حريمها ، ويحكم بالعدل الذى رسم الله به لظاعنها ومقيمها ؛ وفى تقديم حديثها واستحداث قديمها ، وتشييد ثغورها ، وإمضاء ماعرّفه الله به وجهله سواه من أمورها ، وإقرار من شاء من حكّامها ، وإمضاء ما شاء من إتقان القواعد بالعدل وإحكامها ؛ وفى إقطاع خواصها ، واقتلاع ما اقتضته المصلحة من عمائرها وعمارة ماشاء من قلاعها ؛ وفى إقامة الجهاد بنفسه الشريفة وكتائبه ، ولقاء الأعداء كيف شاء من [تسيير] سراياه وبعث مواكبه ؛ وفى مضايقة العدوّ وحصاره ، ومصابرته وإنظاره ، وغزوه كيف أراه الله فى أطراف بلاده وفى عقر داره ؛ وفى المنّ والفداء والإرقاق ، وضرب الهدن التى تسألها العدا وهى خاضعة الأعناق ؛ وأخذ مجاورى العدوّ المخذول بما أراه الله من النكاية إذا أمكن من نواصيهم ، وحكم عفوه فى طائعهم وبأسه فى عاصيهم ، وإنزال الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم . وفى الجيوش التى ألف الأعداء فتكات ألوفها ، وعرفوا أن أرواحهم ودائع سيوفها ؛ وصبّحتهم سرايا رعبها المبثوثة إليهم ، وتركهم خوفها كأنهم خشب مسنّدة يحسبون كلّ صيحة عليهم ؛ وهم الذين ضاقت بمواكبهم إلى العدا سعة الفجاج ، وقاسمت رماحهم الأعداء شرّ قسمة ففى أيديهم كعوبها وفى صدور أولئك الزجاج(١) ، وأذهبت عن الثغور الإسلامية رجس الكفر وطهرت من ذلك ماجاور العذب الفرات والملح الأجاج ؛ وعرفوا فى الحروب بتسرّع الإقدام ، وثبات الأقدام ، وادّخر الله

(١) جمع زج كرمح ورماح .

لأيامه الشريفة أن تردّنها[(١)] بهم دارَ السلام إلى مُلك الإسلام: فيُدِرّ عليهم ماشاء من إنعامه الذى يؤكّد طاعتهم، ويجدّد استطاعتهم، ويضاعف أعدادهم، ويجعل بصفاء النيات ملائكة الله أمدادهم، ويحملهم على الثبات إذا لقوا الذين كفروا زحفا، ويجعلهم فى التعاضد على اللقاء كالبنيان المرصوص فإن الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفا. وفى أمر الشرع وتولية قضاته وحكامه، وإمضاء مافرض الله عليه وعلى الأمة من الوقوف عند حدوده وا [(٢)] مع أحكامه، فإنه لواء الله الممدود فى أرضه، وحبله المتين الذى لانقض لإبرامه ولا إبرام لنقضه، وسنن نبيه الذى لاحظّ عند الله فى الإسلام لغير متمسّك بسنّته وفرضه، وهو ـ أعز الله سلطانه ـ سيف الله المشهور على الذين غدوا وهم من أحكام الله مارقون، ويده المبسوطة فى إمضاء الحكم بما أنزل الله: ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون﴾. وفى مصالح الحرمين الشريفين وثالثهما الذى تشدّ أيضا إليه الرحال، وإقامة سبيل الحجيج الذين يفدون على الله بما تمنحهم[(٣)] من بره وعنايته فى الإقامة والارتحال. وفى عمارة البيوت التى أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال رجال، وفى إقامة الخطب على المنابر، واقتران اسمه الشريف مع اسمه بين كل باد وحاضر، والاقتصار على هذه التثنية فى أقطار الأرض فإن القائل بالتثليث كافر، وفى سائر ماتشمله الممالك الإسلامية ومن تشتمل عليه شرقا وغربا، وبعدا وقربا، وبرا وبحرا، وشاما ومصرا، وحجازا ويمنا، ومن يستقر بذلك إقامة وظعنا. وفوض إليه ذلك جميعه وكل ماهو من لوازم خلافته لله فى أرضه، ماذكر ومالم يذكر

(١) النهب من معانيه الغارة أى ترد غاراتهم دار الخ وفى الأصل يردفها بهم. تأمل.

(٢) بياض بالأصل ولعلها «والمشى» مع الخ.

(٣) فى الأصل أوضحهم. تأمل.

تفويضًا لازما ، وإمضاءً جازما ، وعهدا محكما ، وعقدا فى مصالح مُلْك الإسلام محكّمًا ، وتقليدًا مؤبدا ، وتقريرًا على كرّ الجديدين مجدّدا ؛ وأثبت ذلك وهو الحاكم حقيقةً بما علمه من استحقاقه والحاكم بعلمه ، وأشهد الله وملائكته على نفوذ حكمه بذلك : ﴿والله يحكم لا معقّب لحكمه﴾ . وذلك لما صحّ عنده من نهوض مُلْكه بأعباء ما حمّله الله من الخلافة ، وأدائه الأمانة عنه فيما كتب الله عليه من الرحمة اللّازمة والرأفة ؛ واستقلاله بأمور الجهاد الذى أقام الله به الدين ، واختصاصه وجنوده بعموم ما أمر الله به الأمة فى قوله تعالى : ﴿ قاتلوهم يعذّبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين ﴾ . وأنّه فى الجهاد سَهْمه المصيب وله به أجر الرامى المسدّد ، وسيفه الذى جرّده على أعداء الدين وله من فتكاته حظّ المرهف المجرّد ؛ وظلّ الله فى الأرض الذى مدّه يُمْن يمينه ، وآية نصره الذى اختاره الله لمصالح دنياه وصلاح دينه ؛ الناهض بفرض الجهاد وهو فى مستقرّ خلافته وادع ، والراكض عنه بخيله وخياله إلى العدو الذى ليس لفتكات سيوفه رادع ؛ والمؤدّى عنه فرض النفير فى سبيل الله كلّما تعيّن ، والمنتقم له من أهل الشّقاق الذين يجادلون فى الحق بعد ما تبيّن والقائم بأمر الفتوح التى تردّ بيع الكفر مساجد يذكر فيها اسم الله واسمه ، ويرفع على منابرها شعاره الشريف ورسمه ؛ وتمثّل له بإقامة دعوته صورة الفتح كأنه ينظر إليها ، والناظر عنه فى عموم مصالح الإسلام وخصوصها تعظيمًا لقدره ، وترفيهًا لسرّه ، وتفخيما لشرفه ، وتكريمًا لجلالة بيته النبوىّ وسلفه ؛ وقيامًا له بما عهد إليه ، ووفاءً من أمور الدين والدنيا بما وضع مقاليده فى يديه .

وليدلّ على عظم سيرته المقدّسة بكرم سيره ، ونبّه على كمال سعادته إذ قد كفى به فى أمور خلق الله تعالى والسعيد من كُفى بغيره ، لم يجعل أمير المؤمنين على يده يدًا

في ذلك ، ولا فسّح لأحد غيره في أقطار الأرض أن يُدّعى بمُلك ولا مالك ، بل بسَط حُكْمَه وتحكمه في شَرْق الأرض وغَرْبها ومابين ذلك ؛ وقد فرض طاعتَه على سائر الأمَم ، وحكَم بوجُوبها على الخاصّ والعامّ ومَنْ ينقُض حُكْمَ الحاكم إذا حكَم ؛ وهو يعلَمُ أنّ الله تعالى قد أودَع مولانا السلطانَ سِرًّا يُستَضَاء بأنواره ، ويهتدى في مصالح المُلْك والممالك بمَنَاره ، فحمل له أن يفعَلَ في ذلك كلَّ ماهدى الله قلْبَه إليه ، وبعثَه بالتأييد الإلهىّ عليه ، وآكتفى عن الوَصَايا بأنْ الله تعالى تكفَّل له بالتأييد ، وخَصّه من كلّ خير بالمَزيد ؛ وجعل خُلُقَه التقوى وكُلُّ خير فَرْعٌ عليها ، ونوّر بصيرتَه بالهُدى فما يدُلّ على حسنة من أُمورِ الدنيا والآخرةِ إلّا وهو السابقُ إليها ؛ والله تعالى يجعلُ أيّامه مؤرَّخةً بالفُتوح ، ويؤيِّده بالملائكةِ والرُّوح ، على مَنْ يدّعى الأَبَ والآبنَ والرُّوح ؛ ويجعلُ أسباب النصر معقُودةً بسَبَبه ، والمُلْكَ كلمةً باقيةً في عَقِبه .

ويشهَد بهذا العهْد الشريف مع من شَهِده من الملائكة المقرّبين ، كلُّ من حضر تلاوتَه من سائر الناس أجمعين : لتكونَ حجّةُ الله على خلقه أسبَقَ ، وعهدُ أمير المؤمنين بثُبوته أوْثَق ، وطاعةُ سلطان الأرض قد زادها اللهُ على خلقه بذلك توكيدا ، وشهِدَ [الله] وملائكتُه على الخلق بذلك وكَفَى بالله شَهيدا . والآعتمادُ على الخط الحاكمىّ أعلاه حجّةٌ به ، إن شاء الله تعالى .

* * *

وعلى نحو ذلك كتب الشيخُ شِهاب الدين محمودٌ الحلبىُّ عهدَ الملك المنصور « حُسام الدّين لاجين » عن الخليفة الحاكم بأمْر الله بن أبى الربيع سليمان المتقدّم ذكره (١) . وهذه نسختُه :

---

(١) الذى فى التواريخ أن الحاكم بأمر الله الذى بايع له الظاهر بيبرس طالت مدته الى أيام حسام الدين لاجين وأما الحاكم بأمر الله بن أبى الربيع فهو آبن ابنه تأمل .

هذا عهدٌ شريفٌ تشهد به الأملاكُ لأشرف الملوك ، وتسلك فيه من قواعد العهود المقدّسة أحسنَ السلوك ، من عبد الله ووليّه الإمام الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين ، للسلطان الملك المنصور حسام الدنيا والدين ، أبى الفتح لاجين المنصورى ، أعزّ الله سلطانه .

أما بعدُ ، فالحمدُ لله مؤتى الملكِ من يشاءُ من عباده ، ومُعطى النصر من يُجاهد فيه حقّ جهاده ، ومُرهِف حُسامِ انتقامه على مَنْ جاهر بعناده ، ومفوّض أمر هذا الخلق إلى مَنْ أودعه سِرّ رأفته فى محبّته ومُرادَ نقمته فى مُراده ، وجامع كلمة الإيمان بمَن اجتباه لإقامة دينه وارتضاه لرفع عماده ، ومُقرّ الحقّ فى يد مَنْ منع سيفَه المجرّد فى سبيل الله أن يقرّ فى أغماده ، وناصر مَنْ لم تزل كلمةُ الفتوح مستكنّةً فى صدور سيوفه جاريةً على ألسنة صعاده ، وجاعل مُلْك الإسلام من حقوق مَنْ إذا عُدّ أهلُ الأرض على اجتماعهم كان هو المتعيّن على انفراده ، الذى شرّف أسرّة مُلْك الإسلام باستيلاء حُسام دينه عليها ، وزلزل ممالك أعدائه بما بعث من سرايا رُعبه إليها ، وثبّت به أركانَ الأرض التى ستحتوى مُلْكه فى طرفيها ، وضعضع بسلطانه قواعدَ ملوك الكفر فودّعت ما كان مُودَعا لأيّامه من ممالك الإسلام فى يديها ، وأقامه وليّه بأمره فلم يختلف عليه اثنان من خلقه ، وقلّده أمر بريّته لما أقدره عليه من النهوض بحقّهم وحقّه ، وأظهره على مَنْ نصب له الغوائل والله غالبٌ على أمره ، ونصره فى مواطنَ كثيرة لما قدّره فى القِدَم من رفعة شأنه واعتلاء قدره ، وجعل عدوّه وإن أعرض عن طلبه بجيوش الرعب محصورًا ، وكفاه بنصره على الأعداء التوغّل فى سفك الدماء فلم يُسرف فى القتل إنّه كانَ منصورا ، ونقل إليه المُلْكَ بسيفه والدماءُ مصونه ، وحكّمه فيما كان بيد غيره من الأرض والبلادُ آمنةٌ والفتنُ مأمونه ، فكان أمرُ مَنْ ذهب سحابةَ صيف ، أو جَلْسة ضيف ، لم تحُلّ له روعةٌ فى القلوب ،

ولم يذعرها ـ وقد ألبسه الله ما نزع عن سواه ـ سالبٌ ولا مسلوب، إجراءً لهذه الأمة على عوائد فضله العميم، واختصاصًا بما آتاه من ملكه ﴿ والله يؤتى ملكه من يشاء والله واسع عليم ﴾ .

يحمده أمير المؤمنين على ما منح في أيامه الدين من اعتضاده بحسامه، والاعتماد في ملك المسلمين على من يجعل جباه ملوك الشرك تحت أقدامه، والاعتداد بمساعي من حصونه في الجهاد ظهور جياده وقصوره أطراف حسامه .

ويشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة حاكم بما أراه، حامد له في ملك الإسلام على تيسر ما وطّده ورفع ما عراه، معتصم به في كل ما أثبته بالحق من قواعد الدين في جهاد أعداء الدين عن سيره في ذلك وسراه؛ وأن محمدا عبده ورسوله الذي جعله من عصبته الشريفة وعصبته (١)، وشرفه بوراثة خلافته في أمته [ورفع] قدر رتبته، وقصره على إقامة من يرهب العدا بنشر دعوته في الآفاق مع مواقع رغبته؛ ويسأله أن يصلى عليه صلاة تفتح له في الدنيا إلى العصمة طريقا، وتجعله في الأخرى معه ومع الذين أنعم الله عليهم من آبائه الشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا، وسلم تسليما كثيرا .

وإن أمير المؤمنين لما اختصه الله به من البر المودع في قلبه، والنور الذي أصبح فيه على بينة من ربه، والتأييد المنتقل إليه عمن شرف بقربه، والنص الذي أسره رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى جده العباس من بقاء هذا الأمر في ورثته دون أقاربه وصحبه؛ لم يزل يرغب إلى الله سبحانه ويستخيره في إقامة من ينهض في ملك الإسلام حق النهوض، ويفوض إليه الأمانة إلى من (٢) يرى أداء الأمانة فيهم من

(١) أي جعل الله الخليفة من عصبة النبي الخ فتنبه .

(٢) لعله ممن يرى . تأمل

آكد الفُروض ؛ ومَنْ إذا قال النفيرُ ياخيلَ الله اركبي سابقتْ خيلُه خيالَه ، وجازتْ عزائمُه نصالَه ؛ وأخذَ عدوُّ الدِّين من مأمنه ، وغالبَ سيفُه الأجلَ على انتزاع رُوحه من بَدَنِه ؛ وقاتلَ لتكونَ كلمةُ الله هي العُليا ، وجاهدَ لإقامة منَار الإسلامِ لا للتعرُّض إلى عَرَض الدنيا ؛ وقدمتْ له ملُوكُ الدنيا حُصُونَها ، وبذلَتْ له مع الطاعة مَصُونَها ؛ وأقيمَ له بكلِّ قُطر منبرٌ وسَرير ، وجمعَ ملوكَ العِـدا في رِقِّ طاعته وهو على جَمْعهم إذا يشاءُ قدير ؛ ومَنْ يُقيم العـدلَ على ما شُرِع ، والشرْعَ على ما أُخذ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وسُمِـع ؛ ويُميت البِدَع بإحياء السُّنَن ، ويعلَم أنَّ الله جعل لخلقه على لسان نبيِّه محمد صلى الله عليه وسلم سَنَنا ولا يعدلُ بهم عن ذلك السَّنَن .

ولـمـا كانَ السُّلطانُ الملكُ المنصورُ حُسامُ الدنيـا والدِّين أبو الفتح « لاجين المنصوري » ـ خلَّد الله سلطانَه ـ هو الذي جعلَ [الله] صَـلاحَ الأمة على يدَيْه ، واختـاره لإقامة دينه فساقَ مُلْكَ الإسـلام عَنْوةً إليه ؛ وأنهضَـه بذلك وقد أمدَّهُ بجُنود نصره ، وأنزل سكينَتَه عليـه وجمعَ قلوبَ أهل الإسـلام على حُبِّـه ؛ وفرَّقَ أعداءَ الدِّين خوفُ حَرْبه ، وجعلَ النصرَ حيثُ توجه من أشياخه وحِزْبه ؛ وعضَده لنصرة الإسلام بملائكةِ سَمـائه ، وأقام به عَمُودَ الدين الذي بالسَّيف قام ولا غَرْوَ فإنَّ الحُسام من أسمائه ؛ وأقبلتْ إليـه طوائفُ جُيوش الإسلام مُذْعنين ، وأدى في كرامتهم حُقُوقَ طاعة الله الذي أيده بنَصْره وبالمؤمنـين ، وتلقاهم ببشـيرِ كرامته ونعَمـه وقال : ادْخُلُوا مِصْرَ إنْ شاءَ اللهُ آمنين ؛ فطارتْ مُحَلِّقاتُ البشائرِ بمُلْكه في الآفاق ، وأغصَّ العِـدا سلطانُه فـما توهَّموا في أمرِ الإسـلامِ الاختلافَ حتى تحقَّقوا بحمـد الله ويُمن أيامه الوِفَاق ؛ واختالت المنابرُ الإسلاميَّةُ بذكْرِ أمير المؤمنين وذكْره ، وأعلنت الأمةُ المحمديَّةُ بحَمد الله الذي أقرَّ به الحقَّ في مَركَزه وردَّ به شاردَ

المُلْك إلى وَكْره، وتحقّق أمير المؤمنين أنه المكنونُ في طويّته والمستكنُّ في صَدْره، والقائمُ في عِمارة بيته النبويّ وسلامته مَقام سَلْمانه وعَمّاره، فعهِد إليه حينئذ في كلّ ما تقتضيه أحكامُ إمامته في أمّة نبيّه، وجعله في التصرُّف المطلَق عنه قائمًا مقامَ وَصيّه في المِلّة ووليّه؛ وقلّده أمرَ مُلْك الإسلام تقليدًا عامًّا، وفوّض إليه حُكْمَ السلطنة الشريفة تفويضًا تامًّا؛ وألبسه من ذلك ما خلَعه عن سِواه، ونَشَر عليه لواء المُلْك الذي زَوَى ظلّه عن غيره وطَوَاه؛ وحكّمه في كل ما تقتضيه خلافتُه المقدسه، وتُمْضيه إمامتُه التي هي على التقوى مؤسَّسه: من إقامة مَنَار الإسلام، والحُكْم العام في أمة محمد عليه أفضل الصلاة والسلام؛ وفي تقليد المُلُوك والوُزَراء، وتقدمة الجيوش وتأمير الأُمَراء؛ وفي تجهيز العساكر والسَّرَايا، وإرسال الطَّلائع والرَّايا، وتجريد الجُنود الذين ما ندَبَهم إلى الأعداء إلا آبُوا بالنِّهاب وبالسَّبَايا؛ وفي غَزْو العدوّ كيف أراه الله إن شاء بنَفْسه أو جُنْده، وفي استرسال النصر بالثبات والصبْر فإنّ الله يَجْزي الصابرين وما النَّصْر إلا من عِنْده؛ وفي محاصَرة العدوّ ومُصابَرته، وإنظاره ومُناظَرته، وإنزالهم على ما شَرَع الله فيهم من الأحكام، والتوخّي في ذلك ما حَكَم به سَعْدُ بنُ معاذ في زمن الرسول عليه أفضلُ الصلاة والسلام؛ وفي ضَرْب الهُدَن وإمضائها، والوفاءِ بالعقود المشروعة إلى انتهاء مُدَدها وانقضائها؛ وفي إرضاء السُّيوف من نكَث ولم يُتِمّ عهده إلى مدّته فإنّ إسخاط الكُفْر في إرضائها؛ وفي الأمصار يُقِرّ بها من شاءَ من الجُنود، ويبعثُ إليها من شاء من البُعوث والحُشُود؛ وفي سِداد الثغور بالرجال الذين تفترّ بهم عن شَنَب النصر، وتأمَنُ بهم أعداؤُها من غوائل الحصْر، وتوفير سِهامها من سِهام القوة التي ترمي بشَرَر كالقصْر؛ وإمداد بحْرها بالشَّواني المجرّبة المجدّده، والسُّفُن التي كأنها القصُورُ الممهَّدة على الصُّروح الممرّده؛ فلا تزال تدبُّ إليهم من ذوات الأرجُل عقاربُها، وتختطف غِرْبانهم الطائرةَ بأجنحة

القُلوبِ مخالبُها ، وفى تقدمة وتنفيذ السَّرايا التى لاتزالُ أسنَّتُها إلى نُحُور الأعداء مُقوَّمه ، وإنفاقِ ما يَراه فى مصالح الإسلام من القَناطيرِ المُقَنْطرة من الذهب والفضّة والخيل المُسَوَّمه ، وفى إعلاء منَار الشرع الشريف والاَنقياد إليه ، والمسارعةِ إلى نُفُوذ حُكْمه فيما لَهُ وعليـه ، وتقويةِ يدِ حُكَّامه على كلِّ أمـيرٍ ومأمورٍ أقرَّ الشرعُ فى يده شيئا أو اَنتزعَه من يدَيْه ، وتفويض الحُكْم إلى كلِّ من يتعيَّن لذلك من أئمة الأمّه ، وإقامةِ الشرع الشريف على قواعده الأربعـة فإن اَتِّفاق العلمـاء حُجَّةٌ واَختلافَهم رحْمه ، وفى مصالح الحرمين الشريفين وثالثِهما الذى تُشَدُّ الرحالُ أيضا إليـه ؛ وفى إقامة سُبُل الحجيج الذين دعاهم الله فلَبَّوه واَستدعاهُمْ فقدمُوا عليه ؛ وفوّض إليه كلَّ ماهو من لوازم خلافته لله فى أرضه : ماذُكِر وما لم يُذْكر ، تفويضًا لازما ، وتقليدًا جازما ، وعَقْـدا مُحْكما ، وعَهْدا فى مصالح الإسـلام والمسلمين محكَّما ، واَكتفى عن الوَصايَا بمـا جُبِل عليه خُلُقه الشريف من التقوى ، وهدى نَفْسَـه النفيسةَ إليه من التمسُّك بالسَنَد الأقومِ والسبَب الأقوى ؛ فمـا يُنَبَّه على حسنة إلّا وهو أسبَقُ إليها ، ولا يُدَلُّ على خَلَّة إلا وفكرُه الشريفُ أسرَعُ من فِكْر الدالِّ عليها ؛ وقد وثِق ببراءة الذِّمّة من حقِّ قومٍ أضحَوْا لفضـــل مثله راجين ، وتحقّق حلُول النعمة على أمة أمسَوْا إلى « لاجينَ » لاجين ؛ وقد اَستخار أمير المؤمنين اللهَ فى ذلك كثيرا ، ولجأ إلى اللهَ فى توفيقه وتوقيفه على الصواب ممـا يجدُه فى الحكم بذلك هاديًا ونصـيرا ؛ وسارَعَ إلى التسليم بأمر الله تعـالى فيما فوّض إليـه من أمور عباده إنّه كان بعِبَاده خَبيرا بصيرا . وأشهدَ الله وملائكتَه ومن حضَرَه من المؤمنين على نَفْسه بما تضمَّنه هــذا العهدُ الكريم ، وحكَمَ على الأئمة بمقتضاه فَمَنْ بدّله بعْدَ ماسَمِعه فإنّمـا إثْمُهُ على الذين يبدّلونه إنَّ الله سَميع عليم . والخطُّ الشريفُ الإماميّ الحاكميّ أعلاه ، حجةٌ بمقتضاه ، إن شاء الله تعالى .

وعلى قريب منه كتب القاضي شمس الدين إبراهيم بن القيسراني عهد الملك الناصر «محمد بن قلاوون» عن الحاكم بأمر الله أحمد بن أبي الربيع سليمان . وهذه نسخته :

هذا عهدٌ يعمُر بك للإسلام المعاهد ، وينصر منك الأعتزام فتغنى عن الموالى والمعاضد، ويلقى إليك مقاليدَ الأمور ، لتجتهِدَ في مراضى الله وتجاهد، ويبعثك على العمل بالكتاب والسنّة : ليكونا شاهدَين لك عندَ الله في أعظم المشاهد، خُذْ كتاب أمير المؤمنين بقوة تبركا بأخذ يحيىٰ عليه السلام للكتاب، وحاسبْ نفسك محاسبةً تجدُ نفعها يوم يقومُ الحساب، واعملْ صالحا فالذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبىٰ لهم وحُسْنُ مآب .

من عبد الله ووليّه الإمام الحاكم بأمر الله أبي العبّاس أحمدَ أمير المؤمنين : إلى السلطان الأجلّ ، العالم، العادل، المجاهد، المرابط، المظفّر، الملك، الناصر، ناصر الدنيا والدين ، سلطانِ الإسلام والمسلمين ، سيّد الملوك والسلاطين ، فاتح الأمصار، مُبيد الأرمن والفرنج والتتار، وارث المُلْك ، سلطان العرب والعجم والترك ، خادم الحرمين ، صاحب القبلتين ، أبي الفتح محمد قسيم أمير المؤمنين أعز الله سلطانه ، ولد السلطان الشهيد الملك المنصور سيف الدين قلاوون ، قدّس الله روحه .

أما بعدُ، فالحمدُ لله الذى أقام ناصرَ الإسلام وأهلَه بخير ناصر، وأحلّ في السلطنة المعظّمة من استحقّها بذاته الشريفة وشرف العناصر، ووضع الإصْر عن كثُرت منه

ومن سلفه الكريم على الرعايا الأواصر،(١) وعقد لواء الملك لمن هو واحد في الجود ألف في الوغى ففي حالته تعقد عليه الخناصر، وجمع كلمة الأمة بمتفرد في المعالي متوحد في المفاخر، متصف بمناقب أربى بها على أربابها من الملوك الأوائل والأواخر، وأقر النواظر والخواطر بمن أشرق عليهما نوره الباهر، وظهرت آثار وجوده وجوده على البواطن والظواهر، وأعاد شبيبة الأيام في آقبال سر السرائر، وسارت بشائر مقدمه في الآفاق سير المثل وماطلتك بالمثل السائر، وفعلت مهابته في التمهيد والتشييد فعل القنا المتشاجر، وشفت الصدور بوجود الاتفاق وعدم الشقاق بعد أن بلغت القلوب الحناجر، وأورث البلاد والعباد صفوة ذرية ورثوا السيادة كابرا عن كابر، وسرى سره إذا ولد المولود منهم تهللت له الأرض واهتزت إليه المنابر.

والحمد لله الذي اجتبى سيدنا محمدا صلى الله عليه وسلم من أشرف بيت وقبيله، ومنح الأمة برسالته من خيري الدنيا والآخرة الوسيله، وأوجب الشفاعة لمن سأل الله له أعلى درجة لاينالها إلا رجل واحد وهي الوسيله، وجعل شملهم بمبايعته ومتابعته في الهداية نظيما، وحض على ذلك بقوله تعالى: ﴿إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجرا عظيما﴾. وبلغهم به من السعادة غاية مطلوبهم، وأيده بنصره وبالمؤمنين وألف بين قلوبهم، وزان شريعته المطهرة بمحاسن أبهى منظرا ومخبرا من العقود، وفرض على المؤمنين أن يوفوا بالعهود وبالعقود، وأقدرهم على حمل الأمانة التي أشفقت السموات والأرض والجبال من حملها، وأنزل في كتابه العزيز: ﴿إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها﴾.

(١) المراد بها المتن انظر القاموس.

والحمد لله الذى اختار أميرَ المؤمنين من سُلالة عمّ نبيِّه العباس ، واصطفىٰ بيتَه المباركَ من خير أمّة أخرجتْ للناس ؛ وقوىٰ به جأشَ المسلمين وجُيوشَ الموحِّدين علىٰ المُلْحِدين، وآتاه بسيادة جَدّه وسَعادة جَدّه مالم يُؤت أحدًا من العالمين ؛ وحفظ به للمؤمنين ذِمَامًا ، وجعله للمتقين إمامًا ؛ وخصّه بمزيد الشرفَيْن : نَسَبِه ومَنْصبه ، وجعل مزيّة الرتبتين كلمةً باقيةً فى عَقِبه ؛ وصان به حَوْزَةَ الدين صيانةَ العَرِين بالأُسُود، وصيّر الأيْدِىَ البِيضَ مشكورةً لحامِلِى راياته السُّود .

يَحْمَده أميرُ المؤمنين حمدَ من اختاره من السَّماء فاستخلفه فى الأرض ، وجعل إمْرتَه علىٰ المؤمنين فَرْضا لتُقامَ به السُّنّة والفَرْض؛ ويشهدُ أن لا إلٰهَ إلا اللهُ وحدَه لاشريكَ له الذى أسرىٰ بعبده ليلًا من المَسْجِد الحَرَام إلىٰ المَسْجِد الأقْصىٰ ؛ ويشهد أن محمّدًا عبدُه ورسولُه الذى كَشَف بمَبْعثه عن القلوب حُجُبَ الغَىّ ، وأشرقتْ أنوارُ نُبوّته فأضاء لها يومَ دُخوله المدينة كُلُّ شىء ؛ صلَّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه الذين منهم من أقامه فى الإمامة مُقامه وأشار إلىٰ الاقتداء به من بعده، ومنهم من أعزَّ الله به الإسلامَ فى كلّ قُطْر مع قُرْبه وبُعْده، ومنهم من كانت اليدُ الشريفةُ النبويّةُ فى بَيْعة الرِّضْوان خيرًا له من يَدِه، ومنهم مَنْ أمر اللهُ تعالىٰ بالمُباهلة (١) بالأبناء والنُّفوس فباهل (١) خاتمُ الأنبياء صلَّى الله عليه وسلم به وبزوجه وولَدِه؛ وعلىٰ بقيّة العشرة، الذين غدَتْ بهم دعوةُ الحقّ مشتهرةً منتشرة؛ وعلىٰ عَمّيه أسد الله وأسد رسوله عليه السلام، وجدّ الأئمة المهديّين أمراء المؤمنين وخُلفاء الإسلام، وسلم تسليمًا كثيرا .

وإنّ اللهَ تعالىٰ جعل بَهْجةَ الأيّام الشريفة الإماميّة الحاكميّة أدام الله إشراقها، وقَسَم بها بين الأولياء والأعداء آجالَها وأرزاقَها، رَدَّ الحُقوق إلىٰ نِصابها ، وإعادتَها

(١) فى الأصول بالمباهاة ...... فباهى ، وهو تصحيف من الناسخ .

إلىٰ مستحقّها ولو تمادت الأيّامُ علىٰ اغتصابها ، وإقرارها عنـد مَنْ هو دُونَ الورىٰ أولىٰ بها : ليحقّق أنّ نسبه الشريف أظهر علىٰ أوامره دلائلَ الإعجاز ، وحلّى كلماتها بالإيجاز وهبّاتها بالإنجاز ، وإنّ الله جعـل الاسمَ الشريف الحاكميّ فى الحُكم بأمره علىٰ خير مسمّى ، وقوّى منـه فى تأييد كلمـة الحقّ جنانا وعزما ، ولم يُخرج من أحكامه عن اتّباع أمر الله قضيّةً ولا حُكما ، وكنتَ أيّهـا السيد ، العالمُ ، العادلُ ، السلطانُ ، الملكُ ، الناصرُ ، ناصرُ الدنيا والدين ، أبو الفتح محمدُ ابنُ السلطان الشهيد الملك المنصور ، سيف الدين قلاوُون ـ قدّس الله روحَه ـ أولىٰ الأوليـاء بالمُلك الشريف : لمـا لَسلَفك من الحقوق ، وما أسلفوه من فضـل لا يحسُن له التناسى ولا العُقوق ؛ ولِمـا أوجب لكَ علىٰ العساكر الإسـلامية سابقُ الأيمـان ، وصادقُ الإيمان : ولأنك جمعتَ فى المجد بين طارِف وتالِد ، وفُقتَ بزكىّ نفس وأبٍ ووالد ؛ وجلالة ، ماورثتها عن كلالة ؛ وخلال ، مالها بالسّيادة إخلال ؛ ومفاخر ، تكاثر البحرَ الزاخر ؛ ومآثر ، أعجز وصفُها الناظمَ والناثر ؛ وكان ركابُك العالى قد سار إلىٰ الكرك المحروس ، وقعدتْ عنك الأجسامُ وسافرتْ معك النُّفوس ؛ ووثِقت الخواطرُ بأنّك إلىٰ السلطنة تعُود ، وأنّ الله تعالىٰ يجدّد لك صُعوداً إلىٰ مراتب السُّعود ؛ وأقمتَ بها وذِكرُك فى الآفاق سائر ، والآمالُ مبشّرة بأنك إلىٰ كرسىّ مملكتك صائر . فلمّا احتاج المُلكُ الشريف فى هذه المدّة إلىٰ مالك يسُرُّ سريرَه ، وسلطانٍ تغدُو باستقراره عيونُ الأنام والأيّام قَريره : لِمـا للسلمين فى ذلك من تيسير أوطار وتعمير أوطـان ، ولأنهم لا ينفُذون فى المَصالح الإسـلاميّة إلا بسُلطان ؛ لم يدُرْ فى الأذهان ، ولا خطر لقاص ولا دان ؛ إلّا أنك أحقُّ الناس بالسلطنة الشريفه ، وأَوْلاهم برُتبتها المُنيفه ؛ ولا ذَكَرَ أحدٌ إلا حُقوقَ بيتك وتَصْلها ، ولا قال عنكم إلّا بقول الله : ﴿وكانُوا أحقَّ بِهـا وأهلَها﴾ : لأنّ البلادَ فُتوحاتُ سُيوفكم ، ورَعاياها فيما هم فيه من الأمْن والخير

بمنزلة ضيوفكم، ولأنّ العساكر الإسلامية استرقّهم ولاؤك، ووالوك لأنهم أرقاؤك، فلم يقل أحد: أنّى له الملك علينا؟ بل أقرّ كلٌّ منهم لك باليد وقرّ بولايتك عينا، وأخلصوا في موالاتك العقائد، واستبشروا منك بمبارك الوجه ماجد جائد، ولم يغب غائبٌ خليفتُه جيشُ أبيه وجدّه الصاعد، ورفعت الممالكُ يد الضّراعة سائلةً وراغبة، وخطبتك لعقائلها ومعاقلها والخطباءُ على المنابر لك خاطبةٌ وبدعائك مخاطبة، وقصدتْ لذلك أبوابك التي لا تزال تُقصد، ودُعيت للعود المبارك وعودُ محمّد للأمّة المحمدية أحمد، وفعلت الجيوشُ المنصورةُ من طاعتك كلَّ ما سرّ، وأرّبت في صفق البيات وبرّها على كل من برّ:

ولو أنّ مشتاقًا تكلّف فوق ما * في وسعه لسعى إليك المنبرُ!

فما ضرّ بحمد الله بُعدُ الدار والآمالُ بساكنها مطيفه، بل كان لك الذّكر في قلب الخليفة نعمَ الخليفه، وكنتَ لديه – وإن غبت – حاضرًا بجميل الذّكر، ونأيت دارا فقرّبك إليه حُسن التصوير في الفكر. وكان أميرُ المؤمنين قد شاهدك يافعا، وشهد خاطرُه أن ستصيرُ للمسلمين نافعا، وتأمّل منك أمائرَ أضحى لها لترقّبك آملا، وهلالا دلّته كرامته – ولا تنكر الكرامة – على أن سيكونُ بدرا كاملا، وبلغه عنك من العدل والإحسان، ما أعجز وصفَه بلاغتي القلم واللّسان، فناداك نداءه على بُعد المزار، ولم يجد لك نظيرا فأطال وأطاب لمقدمك السعيد الانتظار، إلى أن أقدمت إقدام اللّيث، وقدمت إلى البلاد المتعطّشة إلى نظرك الشريف قدوم الغيث، فلاح بك على الوجود دليلُ الفلاح، وحمد الرعايا سُراك عند الصّباح والاستصباح، وشاهدوا منك أسدًا فاق بوثباته وثباته الأُوَل، وشخصا لا يصلح إلّا لإدالة دُوَل ولا تصلح إلا لمثله الدُّوَل، وقامت باختيارك على اختيارك الدّلائل، وعرّفك

سرير المُلك وعرّف فيك من أبيك شمائل ، ورأى أمير المؤمنين من نجابتك فوق ما أخبرتْ به مُساءلة الرُّكبان ، ومن مهابتك ما دلّ على خفض الشانئ ورفع الشان ؛ ومن محامدك كلّ ما صغّر الخَبَر عنها الخُبْر ، وأعلنتْ ألسنةُ الأقدار بأنه لم يبق عن تقليدك الممالك الإسلاميّة بحمد الله تعالى عُذر ؛ فاختارك على علم على العالَمين ، واجتباك للذّبّ عن الإسلام والمسلمين ، واستخار الله تعالى فى ذلك فخار ، وأفاض عليك من بيعته المباركة مع فخرك المشتهر حُلَل الفخار ؛ وعهد إليك فى كلّ ما اشتملت عليه دعوةُ إمامته المعظّمه ، وأحكامُ خلافته التى لم تزل بها عقود الممالك فى الطاعة مُنظّمه ؛ وفوّض إليك سلطنة الممالك الإسلاميّة برًّا وبحرا ، شامًا ومصرا ؛ قُربا وبُعدا ، غورا ونجدا ؛ وما سيفتحه الله عليك من البلاد ، وتستنقذه من أيدى ذوى الإلحاد ؛ وتقليد الملوك والوزراء ، وقضاة الحُكم العزيز وتأمير الأمراء ؛ وتجهيز العساكر والبعوث للجهاد فى سبيل الله ومحاربة مَن ترى محاربته من الأعداء ، ومهادنة من ترى مُهادنته منهم ؛ وجعل إليك فى ذلك كله العقد والحَلّ ، والإبرام والنقض والولاية والعزل ؛ وقلّدك ذلك كلّه تقليدا يقوم فى تسليم الممالك إليك مقام الإقليد ، ويقضى لقريبها وبعيدها بمشيئة الله تعالى بمزيد التمهيد والتشييد : لتعلم أنّ الله قد جعل الأيام الشريفة الحاكمية ـ أدامها الله تعالى ـ فلكا أبدى سالفا من البيت الشريف المنصورى أقمارا ، وأطلع منهم آنفا بدرا ملأ الخافقين أنوارا ؛ فكلّما ظهرت لسلفه مآثر بدت ما ترخلفه أظهر ، ومن شاهدهم وشاهد شمس سعادته المنزّهة عن الأفول قال هذا أكبر ؛ وكلّما ذكر لأحدهم فضلٌ علم أنه فى أيامه متزيّد ، وأنه إنْ مضى منهم سيّد فى سبيله ، فقد قام بأطراف الأسنّة منهم سيّد ؛ وصيّر الدولة الشريفة الخليفيّة غابا إنْ غاب منهم أسود ، خلفهم شبل بشّرت مخايله أنّه عليها يسود .

فليتقلّد السلطانُ الملك الناصر ما قلّده أمير المؤمنين ، وليكن لدعوته الهادية من المُلبّين وعليها من المؤمّنين ؛ وليترقَّ إلى هذه الرُّتبة التي آستحقّها بحسبه ، وآسترقّها بنسبه ؛ وليباشرْها مستبشرا ، ويُظهِرْ من شكر الله تعالى عليها مايغدو به مستظهرا ؛ فقد أراد أميرُ المؤمنين القيامَ في نُصْرة الدين الحنيف فأقامك أنت مُقامه ، وصرّف بك بين أهل الطاعةِ والعِصيان إكرامَهُ وآنتقامَه ؛ رعْيًا لعهد سلفك الكريم ، ولما آستوجبته نفسُك النفيسةُ من وُفُور التعظيم والتكريم ؛ وعنايةً بالعساكر المؤيَّدة الذين وجّهوا وجُوهَ آمالهم إليك ، وأبتْ كلمتُهم التي صانها اللهُ عن التفرّق أن تجتمع في الطاعة والخدمة إلّا عليك ولديك ؛ ومنّةً عليهم بسلطانٍ مابرِحُوا من الله تعالى يطلبُونه ، وملك نشئُوا بأبوابه العالية فلهذا يُحبّهم ويُحبُّونه .

فاحمَدِ اللهَ تعالى الذي جعل لكَ في إعادة المُلْك أُسْوةً بسُلَيْمان عليه السلام ، وردّه إليكَ ردًّا لا آنفصال لعُرْوته ولا آنفصام ؛ فأصبحْتَ لأمور عباده سَدَادا ، ولثُغُور بلاده سِدَادا ؛ وللخليفة عَضُدا في الخليقه ، وفي الدهر سامِيَ الحقيقة حامِيَ الحقيقه ؛ وللمُلْك وارثا ، ورقّاك رُقِيًّا أصبحتَ به في السلطنة واحدًا وللخلافة المعظمة ثانيًا وللقمرين ثالثا .

وبُشراك ! أنّ الله أبرم سببَ تأييدك إبْراما لا تَصِل الأيدى إلى نقضه ، وأنك سُئلتَ عن أمرٍ طالمَا أتعبَ غيرَك سؤالُه في بعضه ؛ وأن الله يُحْسِن لك العونَ وبك الصَّوْن ، فقد قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : " ياعَبْدَ الرَّحْمن بنَ سَمُرةَ ! لا تَسألِ الإمارةَ فإنّك إنْ أُعطِيتَها عن مسألة وُكِلْتَ إليها ، وإنْ أُعطِيتَها عن غير مَسْألة أُعِنْتَ عليها " .

وبشراك ! أن أمير المؤمنين خصّك بمزيد الاعتناء ، وأقامك مُقـامَه فى حُسْن الغَناء ، وحقّق أنّ السـعادة فى أيامه موصولةٌ منـكم بالآباء والأبناء ، وبلّغك بهـذا التقليد الشريف الأمانِى ، وتَوّجهُ بجبين قريبةِ عهـد باستلام الرُّكن اليمـانى ؛ وآصطفاكَ بقَلْب أظهرله الكُشوفَ إشراقُ تلك السُّتور ، وغَدَا مَغْمورا بالهـداية ببركة البيتِ المَعْمور ، ونظرٍ زادَتْه مشاهدةُ الحـرم الشريف النبوىّ نُورا على نُور ، فقابِلْ ذلك بالقيام فى مُهِمّات الإسلام ، وتدقيقِ النظرِ فى مَصـالح الخاصّ والعام ؛ وآجتَهِدْ فى صـيانَةِ المـالكِ آجتهادًا يَحْرُس منهـا الأوساطَ والأطراف ، وتنتظِمُ به أحوالُهـا أجلَّ آنتظام وتأتلفُ أجملَ آئتلاف .

والوَصايَا كثيرةٌ وأولاها تَقوىٰ الله : فليجعَلْها حِليَـةً لأوقاته ، ويُحافِظْ عليها محافظَةَ من يتَّقيه حقّ تُقاته ، ويَتَّخِذْها نَجِيَّ فكره وأنيسَ قلبِه ، ويُعظِّمْ حُرماتِ الله : ﴿ وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ ﴾ .

والشرعُ الشريفُ فهو لِعقْد الإسـلام نِظَام ، وللدِّين القَيِّم قِوَام ؛ فتجتَهِـد فى آقتفاء سَنَنه ، والعملِ بفُروضه وسُنَنه ؛ وتكريمِ أهلِه وقُضاتِه ، والتوسُّـل بذلك إلى الله فى آبتغاء مَرْضاته .

وأمراءُ دولتك فهم أنصارُ سَلَفك الصالح ، وذَوُو النصائح فيما آثَرُوه من المصالح ؛ وخُلَصاءُ طاعتهم فى السِّرّ والنَّجْوىٰ ، وأعوانُهم على البِرّ والتقوىٰ ؛ وهم الذين أحلّهم والدُك من العِناية المحَلَّ الأسنىٰ ، والذين سبَقَتْ لهم بحُسْن الطاعة من الله الحُسنىٰ ؛ ولو لم يكن لهم إلّا حُسنُ الوفاء ، لكَفَاهم عندَك فى مَزيد الاعتماد والاستكفاء ؛ فإنهم جادَلُوا فى إقامة دولتِـك وجالَدُوا ، وأوفَوْا بالعهد فهم المُوفُون بعهدهم إذا عاهَدُوا ؛ وهم للوصايا بخِدْمتك واعُون ، وفيما آئتمَنْتَهم عليه لأماناتهم وعَهْدهم راعُون ؛ قد أصْفَوْا

لك النيّات بظهر الغيب ، وأخلصوا الطويّات إخلاصا لاشكّ معه ولا ريب ؛ ونابوا عنك أحسنَ مناب ، وكفّوا كفّ العدوّ فما طال له لاقتراس ولا اختلاس ظُفرٌ ولا ناب ؛ واتخذوا لهم بذلك عند الله وعندك يدا ، وأثّلوا لهم به مجدا يبقى حديثُه الحسنُ الصحيحُ عنهم مُسْنَدا .

فاستوص بهم وبسائر عساكرك المنصورة خيرا ، وأجمِلْ لهم سريرةً وفيهم سيْرا ؛ وأجزِهم عُقبَى هذه الخدمه ، وأورِدْهم منْهل إحسانٍ يُضاعِف لهم النّعمة والنِّعمه : لتؤكّد طاعتك على كل إنسان ، ويثقوا بحُسْن المكافأة : و ﴿ هَلْ جَزَاءُ الإحْسَانِ إلّا الإحْسَانُ ﴾ . ولتزداد أوامرُك ونواهيك امتثالا ، ولا يجدوا عن محبّة أيامك الشريفة انتقالا ، وليقال في حُسْن خدمهم وإحسانك : هكذا هكذا وإلّا فلالا .

وأما الغَزْو والجهادُ في سبيل الله تعالى، وما أوجبه فيهما قولُه : ﴿ انْفِرُوا خِفَافًا وثِقَالا ﴾ ، فأقلّ ما يُجزِئ فرضَ الكفاية منه مرّةٌ في كل عام ، وأما فرضُ العين فوجوبه على ذوى الاستطاعة من المسلمين عامّ ؛ وقد عرفت سنن السلطانين الشهيدين : والدك وأخيك ـ قدّس الله روحَهما ـ في الاعتناء بجهاد الكفّار، وغزوهم في عُقْر الدار ؛ وموقف أحدهما في موطنٍ زلّت فيه الأقدامُ عن الإقدام، واجتمع فيه الكفرُ على الإسلام، وشاب من هوله الوليد، ومُصابرته تجاهَ سيف من سيوف الله تعالى الإمام خالد بن الوليد ؛ واستنقاذ الآخر البلاد الساحلية التي أنقذها الله من أيدى المشركين على يد الصّلاحَيْن، وفتح لها أبوابَ الجنة ببركة الافتتاحَيْن ؛ وأنّ والدك وأخاك سدّا على المشركين الفجاج ، وطهّرا من أرجاسهم العذبَ الفراتَ والملحَ الأجاج ؛ فالكتائبُ المنصوريّه ، أبادت التتار بالسيوف المشرفيّه ؛ والممالكُ

الإسـلاميه، زَهَتْ نِظاما بالفُتُوحات الأشرفيـه؛ فاجتَهِدْ فى إعلاء كلمة الدين أتمّ آجتهاد، وعَزِّزْهما بثالث فى الغزو والجهاد .

وأما الرَّعايا بَعِيدُهم وقريبُهم ، ومستَوطِنُهم وغريبُهـم، فيُوفِّيهم من الرِّعاية حَظَّهم، ويُجزِل صِيانَتَهم وحِفْظَهم؛ وكما يرى الحقّ له فليَرَ الحقّ عليه، ويُحسِن إلى رَعاياه كما أحسن اللهُ إليه .

وأما العدلُ فإنّه للبلاد عمـاره، وللسعادة أماره، وللآخرة مَنْجاةٌ من النَّفس الأمّاره؛ فليكُنْ له شِعَارا ودِثَارا، وليُؤكِّد مَراسِمَـه فى الأمر بالمعْروف والنهى عن المنكَر، والمحافظةِ من ذلك على ما يُذْكَر به عند الله ويُشْكَر .

والحُدُود الشرعيَّـــة فليُحَلِّ بإقامتهـا لِسانَه وطِرْسَـه، ولا يَتعدّها بنَقْص ولا زيادة ﴿ ومَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَه ﴾ . والله يُخلِّد له رُتبةَ المُلْك التى أعلى بهـا مَقامه، ويُديمه ناصرا للدين الحنيف فأنصارُه لا يزالُون ظاهرين إلى يوم القيـامه؛ ويجعَل سبَبَ هـذا العهد الشريف مَدَى الأيّام متينا، ويجدِّدُ له فى كلِّ وقت نَصْرا قريبـا وفتحا مُبينا . والخطُّ الحـاكِمىّ أعلاه، حجّـةٌ بمقتضاه؛ إن شاء الله تعالى .

الحمدُ لله وحده، وصلواتُه على سيدنا محمد وآله وسلامُه، حسبُنا اللهُ ونعم الوكيل .

⁂

وعلى نحو من ذلك كتب القاضى علاءُ الدين بنُ عبد الظاهر عن المستكْفى بالله، أبى الرَّبيع سُلَيمان، عهدَ الملك المظفَّر ركن الدين "بيبرس المنصُورى" الجاشنكير .

وهذه نسخته :

هذا عهدٌ شريفٌ انتظمتْ به عقودُ مصالح المُلْك والممالك، وابتسمتْ ثغورُ الثغور ببيعته التي شهدت بصحّتها الكرامُ الملائك، وتمسّكتِ النفوسُ بمحكَم عقده النضيد ومُبرَم عقده النظيم، ووثقت بميثاقه فتركتِ الألسنَ مستفتحةً بقول الله الكريم: ﴿إنّهُ مِن سُلَيمانَ وَإنّهُ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحيمِ﴾.

الحمدُ لله الذي جعل المِلّة الإسلاميّة تأوي من سلطانها إلى رُكنٍ شديد، وتحوي من متابعة مظفّرها كلَّ ما كانت تَرومُه من تأبيد التأييد، وتَروي أحاديثَ النصر عن مَلِك لا يَملُّ من نُصرة الدين الحنيفيّ وإن مَلَّ الحديدُ من الحديد، مُؤتي مُلكه مَنْ يشاء من عباده، ومُلقي مقاليده للوليّ المليّ بقمع أهل عِناده، ومانحه مَنْ لم يزل بعزائمه ومكارمه مَرهوبا مَرغوبا، وموليه ومُولّيه مَنْ غدا محبوّا من الأنام بواجب الطاعة محبوبا، ومفوّض أمْره ونَهْيه إلى مَنْ طالما صَرَف خَطِّيَّه عن حِمَى الدين أخطارا وخُطوبا.

والحمدُ لله مُجري الأقدار، ومُظهِر سرّ المُلك فيمَن أضحى عند الإمامة العباسيّة بحُسن الاختيار من المصطفَين الأخيار، جامع أشتات الفخار، ورافع لواء الاستظهار، ودافع لأواء الأضرار، بحبل الالتجاء إلى رُكنٍ أمسى بقوّة الله تعالى عاليَ المنار، وافيَ المبارّ، باديَ الآثار الجميلة والإيثار.

والحمدُ لله على أن قلّد أمورَ السلطنة الشريفة لكافلها وكافيها، وأسنَدَ عَقدَها وحلَّها لمن يُدرِك بكريم فِطنته وسليم فطرته عواقبَ الأمور من مَباديها، وأيّد الكتائبَ الإيمانيّة بمن لم تزل عواليه تُبلّغها من ذُرى الأماني مَعاليها.

يحمَدُه أمير المؤمنين على إعلاء كلمة الإيمان بأعيان أعوانها، وإعزاز نَصرها بأركان تشييدها وتشييد أركانها، ويشهدُ أنْ لا إلهَ إلا الله وحدَه لا شريك له شهادةً

لا تبرح الألســنةُ تَرْوِيها والقلوبُ تَنْوِيها، والمواهبُ تُجْزِل لقائلها تَنْوِيلا وتَنْوِيهــا؛ ويشهد أنّ محمدا عبدُه ورسولُه أكملُ نبيّ وأفضلُ مبعوث، وأشرفُ مُوَرِّث لأجلّ مَوْرُوث؛ صلَّى الله عليه وعلى آله وصَحْبه صلاةً تَنْمِي بركاتُها وتَنُمّ[1]، وتخصّ حسناتُها وتَعُمّ؛ ورضي الله عن عمِّه العبّاس جدّ أمير المؤمنـين، وعن آبائه الأئمة المهديّين؛ الذين وَرِثُوا الخلافة كابرًا عن كابر، وسَمَتْ ووُسِمتْ بأسمائهم ونُعُوتهم ذُرَى المنابر .

أما بعدُ، فإن الله عزّ وجلّ لمـا عَلَّق بمولانا أميرِ المؤمنين مصالحَ الجُمْهور، وعقد له البيعةَ في أعناق أهلِ الإيمان فزادَهُم نُورًا على نُور؛ وأورثَهُ عن أسلافه الطاهرين إمامةَ خيرِ أُمّه ، وكشف بمُصابَرته من بأس العِـدَا ظَلَام كلّ غُمّه ؛ وأنزل عليــه السكينةَ في مواطنِ النصر والفتح المبين، وثبَّته عنــد تَزَلْزُل الأقدام وثبّت به قلوبَ المؤمنين ؛ وأفاض عليه من مَهَابة الخلافة ومَوَاهبها ماهو من أهلِه ، وأتمّ نعمتَه عليه كما أتمّها على أبوَيْه من قبـله ــ بايَعَ الله تعالى على أن يختارَ للتّمليك على البَرايا، والتحكيمِ في الممالكِ والرّعايا، مَنْ أسّس بُنْيانَه على التقوى، وتمسّك من خشــيةِ الله تعـالى بالسبَبِ الأقوى؛ ووقَف عند أوامر الشرع الشريف في قَضائه وحُكْمه ، ونَهَض لأداء فرض الجهــاد بمَعَالى عَزْمه وحَزْمه ؛ وكان المقامُ الأشرفُ العــالى ، المولَوِيّ، السلطانيّ، المَلَكيّ، المظفّريّ، الرُّكْنيّ؛ ســلطان الإسلام والمسلمين ، سيدُ الملوك والسلاطين ؛ ناصرُ الملّة المحمديه، مُحْيي الدولة العبّاسيه ؛ أبو الفتح «بيبرس» قسيمُ أمير المؤمنين : أعزّ الله تعالى ببقائه حِمَى الخلافة وقد فَعَل ، وبلّغ في بقاء دولته الأمل ــ هو المَلِكُ الذي انعقد الإجماعُ على تفضيله ، وشهدت مناقبُه الطاهرةُ باستحقاقه لتَخْوِيل المُلْك إليــه وتَخْويله ؛ وحكّمَ التوفيقُ والاتّفاق بترقّيــه

(١) نم الحديث ظهر ، ونم الشيء سطعت رائحته .

إلى كرسى السلطنة وصعوده ، وقضت الأقدار بأن يلقى إليه أمير المؤمنين أزمة عهوده ؛ والذى كم خفقت قلوب الأعادى عند رؤية آيات نصره ، ونطقت ألسنة الأقدار بأن سيكون مليك عصره وعزيز مصره ؛ واهتزت أعطاف المنابر شوقا للافتخار باسمه ، واعتزت الممالك بمن زاده الله بسطة فى علمه وجسمه ؛ وهو الذى ما برح مذ نشأ يجاهد فى الله حق جهاده ، ويساعد فى كل معركة بمرهفات سيوفه ومثقفات صعاده ؛ ويبدى فى الهيجاء صفحته للصفاح فيقيه الله ويبقيه : ليجعله ظله على عباده وبلاده ، فيردى الأعداء فى مواقف تأييده فكم عفر من خد لملوك الكفر تحت سنابك جياده ؛ ويشفى بصدور سيوفه صدور قوم مؤمنين ، ويسقى ظماء أسنته فيرويها من مورد وريد المشركين ؛ ويطلع فى سماء الملك من غرر آرائه نيرات لا تأفل ولا تغور ، ويظهر من مواهبه ومهابته ما تحسن به الممالك وتحصن الثغور ؛ فما من حصن استغلقه الكفر إلا وسيفه مفتاحه ، ولا ليل خطب دجا إلا وغرته الميمونة صباحه ؛ ولا عز أمل لأهل الإسلام إلا وكان فى رأيه المسدد نجاحه ، ولا حصل خلل فى طرف من الممالك إلا وكان بمشيئة الله تعالى وبسداد تدبيره صلاحه ؛ ولا اتفق مشهد عدو إلا والملائكة الكرام بمظافرته فيه أعدل شهوده ، ولا تجدد فتوح للإسلام إلا جاد فيه بنفسه وأجاد ؛ (والجود بالنفس أقصى غاية الجود) .

كم أسلف فى غزو أعداء الدين من يوم أغر محجل ، وأنفق ماله ابتغاء مرضاة الله سبحانه فحاز الفخر المعجل والأجر المؤجل ؛ وأحيا من معالم العلوم ودوارس المدارس كل دائر ، وحثه إيمانه على عمارة بيوت الله تعالى الجامعة لكل تالٍ

وذاكر : ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَساجِدَ اللهِ مَنْ آمَنَ بِاللهِ واليَوْمِ الآخِرِ﴾ . وهو الذى مازالت الأولياءُ تَتَخيَّلُ مَخايِلَ السَّلْطنة فى أعطافه مَعْنىً وصُوره ، والأعداءُ يَرُومون إطفاءَ ماأفاضه اللهُ عليه من أشِعَّة أنواره : ﴿وَيَأْبَى اللهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَه﴾ . طالَمَا تطاولت إليه أعناقُ الممالك فأعْرَض عنها جانبا ، وتطفَّلت علىٰ قُرْبه فكان لها ـ رعايةً لذِمَّة الوفاء ـ مُجانبا ؛ حتّى أذِن اللهُ سبحانه لكلمة سلطانه أن تُرْفَع ، وحَكَم له بالصُّعود فى دَرَج المُلْك إلىٰ المَحَلِّ الأعلىٰ والمكانِ الأرفَع ، وأدَّى له من المَواهب ما هو علىٰ اسْمِه فى ذخائر الغُيوب مستَوْدَع .

فعنــد ذلك استخار اللهَ تعالىٰ سيِّدنا ومولانا الإمام المستكفى بالله أميرُ المؤمنين أبو الربيع سليمان، ابنُ الإمام الحاكم (وذكر نسبه علىٰ العادة) جعل الله الخلافة كلمة باقيةً فى عَقِبه ، وأمتعَ الإسلامَ والمسلمين بشرَفِ حَسَبه ونَسَبه ، وعَهِد إلىٰ المقام العالى السلطانى بكلِّ ماوراءَ سرير خلافتِه ، وقلَّده جميعَ ماهو مقلَّده من أحكام إمامته ، وبسَطَ يدَه فى السلطنة المعظَّمه ، وجعل أوامرَه هى النافذةَ وأحكامَه هى المُحكَّمه ، وذلك بالديار المِصْرية ، والممالك الشاميّة ، والفراتيّة ، والجبليّة ، والساحلية ، والقِلاع والثُّغور المحروسة ، والبلاد الحجازيَّة ، واليمانية ، وكلّ ماهو إلىٰ خلافة أمير المؤمنين مَنْسوب ، وفى أقطارِ إمامته مَحْسُوب ؛ وألقىٰ إلىٰ أوامرِه أزِمَّة البَسْط والقَبْض ، والإبرامِ والنَّقْض ، والرَّفْع والخَفْض ، وما جعله اللهُ فى يده من حُكْم الأرض ، ومن إقامة سُنَّة وفَرْض ؛ وفى كلِّ هِبة وتمليك ، وتصرُّف فى ولاية أمور الإسلام من غير تشريك ؛ وفى تولية القُضاة والحُكَّام ، وفَصْل القضايا والأحكام ؛ وفى سائر التحكُّم فى الوجُود ، وعَقْـد الألوية والبُنود ، وتجنيـد الكتائب والجُنُود ،

وتجهيز الجيوش الإسلامية من التأييد[(١)] إلى كل مقام محمود ؛ وفي قهر الأعداء الذين تزجو بقوة الله تعالى أن يمكنه من نواصيهم ، ويحكم قواضبه في استنزالهم من صياصيهم ، واستئصال شأفة عاصيهم ؛ حتى يمحو إن شاء الله تعالى بمصابيح سيوفه سواد خطوب الشرك المدلهمه ، وتغدو سراياه في اقتلاع قلاع الكفر مستهمه ؛ وترهبهم خيل بعوثه وخيالها في اليقظة والمنام ، ويدخل في أيامه أهل الإسلام «مدينة السلام» بسلام — تفويضا تاما عاما ، منضدا منظما محكما ؛ أقامه مولانا أمير المؤمنين في ذلك مقام نفسه الشريفه ، واستشهد الكرام الكاتبين في ثبوت هذه البيعة المنيفه .

فليتقلد المقام الشريف العالي السلطاني — أعز الله نصره — عقد هذا العهد الذي لا تطمح لمثله الآمال ، وليستمسك منه بالعروة الوثقى التي لا انفصام لها ولا انفصال ؛ فقد عول أمير المؤمنين على يمن آرائك التي ما برحت الأئمة بها في المعضلات تستشفي ، واستكفى بكفايتك وكفالتك في حياطة الملك فأضحى وهو بذلك المستكفي ؛ وهو يقص عليك من أنباء الوصايا أحسن القصص ، وينص لديك ما أنت آخذ منه بالعزائم إذا أخذ غيرك فيه بالرخص ؛ فإن نبهت على التقوى فطالما تمسكت منها بأوثق عروه ، وإن هديت إلى سبيل الرشاد فما زلت ترقى منه أشرف ذروه ؛ وإن استرهفنا عزمك الماضي الغرار ، واستدعينا حزمك الذي أضاء به دهرك واستنار ، في إقامة منار الشرع الشريف ، والوقوف عند نهيه وأمره في كل حكم وتصريف ، فما زلت — خلد الله سلطانك — قائما بسنته وفرضه ، دائبا في رضا الله تعالى بإصلاح عقائد عباده في أرضه ؛ وما برح سيفك المظفر للأحكام الشرعية خادما ، ولمواد الباطل حاسما ، ولأنوف ذوي البدع راغما ؛ فكل ما نوصيك به

(١) لعله من التلبية . تأمل .

من خير قد جُبِلت عليه طِباعُك ، ولم يزَل مشتدًّا فيه ساعِدُك ممتدًّا إليه باعُك ؛ غير أنّا نُورِد لُمْعَة اقتضاها أمرُ الله تعالى فى الاقتداء بالتذكرة فى كتابه المبين ، وأوجبها نصُّ قوله تعالى : ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ . وينـدرج تحت أصولها فروعٌ يستغنى بدقيق ذِهنه الشريف عن نَصّها ، وبفكره الثاقب عن قَصّها ، فأعظمُها لله نفعا ، وأكثرُها للباطل دفعا ، الشرعُ الشريف : فليكن ـ أعز الله نصره ـ عاملًا على تشييد قواعد إحكامه ، وتنفيـذ أوامر أحكامه ؛ فالسعيدُ من قَرَن أمْرَه بأمره ، ورضِىَ فيه بحُلْو الحق ومُرّه . والعدلُ فلْيَنْشُر لواءه حتى يأوِىَ إليه الخائف ، وينكفَّ بردعه حيفُ كلّ حائف ؛ ويتساوى فى ظله الغنىّ والفقير ، والمأمورُ والأمير ، ويُنسى الظُّلمُ فى أيامك وقد خَمَدت ناره ، وعفَتْ آثارُه .

وأهمُّ ما احتفلت به العزائم ، واشتملت عليـه هِمَم الملوك العظائم ، واشرعت له الأسِـنّة وأرهفت من أجله الصوارم ؛ أمرُ الجهاد الذى جعله الله تعـالى حِصْنا للإسلام وجُنّة ، واشترى فيه أنفُسَهم وأموالَهم بأنّ لهم الجنّة ؛ فجنّد له الجُنودَ واجمع له الكتائب ، واقْضِ فى مواقفـه على الأعداء مِن بأسك بالقواضى القواضب ؛ واغْزُهم فى عُقْر الدار ، وأرهِفْ سيفَك البتّار : لتأخُذ منهم للسلمين بالثّار . والثغور والحصون ، فهى سِرّ المُلْك المَصُون ، وهى معاقلُ النفوس إذا دارت رَحَى الحرب الزَّبون ؛ فليُقلِّد أمرَها لكُفاتها ، ويخُصَّ حمايتها بحُماتها ، ويضاعِف لمن بها أسبابَ قوّتها ومادّةَ أقواتها . وأمراءُ الإسلام وجنودُ الإيمان فهم أولياءُ نَصْرك ، وحَفَظة شامك ومصرك ؛ وحزبُك الغالب ، وفريقُك الذين تفرّق منهم قلوبُ العِدا فى المشارق والمغارب ؛ فليكُن المقامُ العالى السـلطانى ـ أعزه الله تعـالى ـ لأحوالهم متفقّدا ، وببَسْط وجهه لهم متودّدا ؛ حتّى تتأكّد لمقامه العالى طاعتُهم ، وتتجدّدَ لسلطانه العزيز

ضَراعَتَهم . وأما غير ذلك من المصالح، فما بَرِح تدبيرُه الجميل لها ينفّذ ورأيُه الأصيل بها يُشير، فلا يحتاجُ مع علمه بغوامضها إلىٰ إيضاحها (ولا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ) . والله تعالىٰ يخصُّ دولته من العدل والإحسان بأوْفَر نصيب، ويمنحُ سلطانه ما يرجُوه من النصر المعجّل والفتح القريب؛ إن شاء الله تعالىٰ .

المـــذهب الثـانى

(أن يفتتحَ العهد بلفظ « من فلان » باسم الخليفة وكُنْيته ولقبِ الخلافة ،
« إلىٰ فلان » باسم السلطان وكُنيته ولقب السلطنة كما فى المكاتبات ،
ثم يأتى بعـــد ذلك بلفظ « أما بعـــد »)

ثم تارةً يأتى بعد البعدية بتحميد، مثل أن يقول : «أما بعدُ فالحمد لله» ويتخلص إلىٰ ذكر أمر الولاية وما ينخرط فى سِلكها ؛ وتارةً يأتى بعـــد البعدية بخطاب المولىٰ والدعاء له ، ويتخلّص إلىٰ مقاصد العهد : من الوَصايا وغيرها ، علىٰ آختلاف مقاصد الكُتّاب ، وعلىٰ ذلك كانت العهود فى دولة الفاطميين بمصر .

قلت : وقد يُستَحْسَن هـــذا المذهبُ فيما إذا كان المعهود إليه غائباً عن حضرة الخليفة : لأن العهدَ يصير حينئذ كالرسالة الصريحة إليه ، بخلاف ما إذا كان بحضرته فإنه لايكونُ فى معنىٰ الرسالة الصريحة .

وعلىٰ هذا المذْهَب كتب أبو إسحاق الصابى عن الطائع لله عهدَ شرف الدولة شِيرْزِيك بن عضُد الدولة بن بُوَيه ، وهذه نسخته :

من عبد الله « عبد الكريم الإمام الطـائع لله » أمير المؤمنين ، إلىٰ شِيرْزِيك بن عضد الدولة وتاج الملة أبى شُجَاع مولىٰ أمير المؤمنين :

سلامٌ عليك ، فإنّ أمير المؤمنين يحمَدُ إليك الله الذى لا إلٰه إلا هو ، ويسأله أن يصلِّىَ على محمدٍ عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم .

أما بعد ـ أطالَ اللهُ بقاءَك، وأدامَ عزَّك وتأييدَك، وسعادتَك ونعمتَك ، وأمتع أميرَ المؤمنين بك وبالمَوْهبة فيك وعندَك ـ فإنّ أمير المؤمنين يرى أن يحفظ على كل ولىّ أحمدَ مذاهبَه ، وأرضىْ ضرائبَه ، وآنصرفَ عن الدنيـا متمسّكا بطاعته ، متدينًا بمشايعته ، حقُوقَه المتوحّدة ، وحُرُماتِه المتمهّدة ؛ فيمن يخلُفه بعده من ولدٍ أمَّل أن يَرِث عنه محلَّه ، ويقُومَ فيه مَقامَه ؛ وفاءً لأهل الوِلاية ، وتصرُّفا على أحكام الرِّعاية ؛ وسباقةً للصنيعة من سالفٍ إلى خالف ، وإمضائها من تالدٍ إلى طارِف . هـذا على الأمرِ الجامع ، والعُمومِ الشامل ؛ فإذا آتّفق أنّ مُنتهىَ وِراثة القُرْب إليه ، والمَنازل لديْه ، إلى النُّجبـاء الأفاضـل ، والخُصَفاء الأماثل ؛ الذين يَسْـتحقُّون آستئناف الاصطناع لهم ، وآستقبالَ التفويض إليهم بالمَناقب الموجُودة فيهم ؛ لو آنفردَتْ عما حازُوه عن آبائهم وأوّليائهم ، أجرى أميرُ المؤمنين مايُفيضه عليهم من الأيادى ، ويُرقِّيهم إليه من هِضَاب المَعالى ، مُجرىَ الأمرِ الواجب الذى كثُرت الدواعى إليـه ، وآتّفق الرأى والهوىْ عليه ، وتطابقَ الإيثارُ والآختبار فيه ، وآقترنَ الصوابُ والسَّدادُ به ؛ وآشـترك المسلمُون فى آستثمار فائدَته وعائدَته ، والآنتفاع بتأديته وعاقبته ؛ والله يخير لأمير المؤمنـين فيما يُمضيه من العزائم ، ويبنيه من الدّعائم ، ويعتمده من المصالح ، ويتوخّاه من المَنـاجح ؛ إنه على ذلك قدير ، وبه جدير ؛ وهو حسْبُ أميرِ المؤمنين ونعم الوكيل .

وقد علمتَ ـ أدام الله عزّك وأمتع أمير المؤمنين بك ـ أنّ شجرةَ بيتك [هى] التى تمكّنتْ فى الخدمة أصُولُها، والفضيلةُ منوطةٌ بها ، وأسبابُ النّمام والدوام مجتمعةٌ فيها ؛

فلذلك سَبَغت النعمةُ عليكم، وآمتدّ ظِلُّها إليكم، وتُقِلت فيها أقداحُكم، وتوفَّرت منها حُظوظكم، فتداولتموها بينكم كابراً عن كابر بمساعيكم الصالحه، ومَناجحِكم الواضحه، وتعاضُـدكم على مالَمَّ تَشعَّثَ الدولةِ الجامعه، وطَرَف عنها الأعينَ الحاسـده، وكان شيخك عضد الدوله، وتاج المله، أبوشجاع رضوان الله عليه، صاحبَ الرتبة الزُّلفىٰ عند أميرالمؤمنين وهُمامَها، والمتطي غاربَها وسَنامَها، فعاش ماعاش مشكورا محمُودا، ثم آنقلبَ إلىٰ لقاءِ ربه سعيدًا رشـيدا، وأوجبَ أميرُ المؤمنين لكَ وله منكَ الحُلولَ بمكانه، وحيازةَ خَطَره وشانه، إذ كنت أظفرَ ولَدِه، وأولَ المستحقِّين لوِرَاثتـه، وكانتْ فيك مع ذلك الأدواتُ المقتضيات لأنْ يفوِّض الأُمورَ إليك، ويعتمدَ فيها عليك: من كِفَاية وغَناء، وآستِقْلال ووَفَاء، وسياسةٍ وتدبير، وشهامةٍ وتشمير، وتصرُّف علىٰ طاعةِ أميرِ المؤمنـين، وإشْبالٍ(1) علىٰ إخوتك أجمعين، وحُسْن أثرٍ فيما أُنفِذَ أمرُك فيـه، وإفاضـةِ أمْن فيمَنْ أُمضيَت ولايتُك عليـه، وإحاطةٍ بدلائل الحَوالِه، ومخايِلِ الأصاله، بمثلها تُنال الغاياتُ الأقاصي، وتُقْتَرَع الذوائبُ والنَّواصي، فنوّلكَ أميرُ المؤمنين تلكَ المأثُره، وخوّلكَ تلك المَفْخَره، وجعل أخاك صَمْصامَ الدوله، وشمسَ المله، أبا كاليجار ـ أمتع اللهُ [بكما] أميرَ المؤمنين ـ بك تأييـدُه، والمتقدّمَ بعدك علىٰ وَلَدِ أبيك، وأجراكما في التطبيق بينكما والتقريرِ لمنازلكما علىٰ مثل ماجرىٰ الأمرُ عليه بين ركْن الدولة أبي عليّ ومعزّ الدولة أبي الحسين سالفا، ثم بين عضُد الدولة وتاج الملة أبي شجاع ومؤيِّد الدولة أبي منصور آنفا، تولَّاهم الله بالرحمه، ونفعهم بمـا قبضَهم عليه من وَثائق العصمه، وخصَّك أميرُ المؤمنين بعـد ذلك بمـا يختصُّ به ذُو القَدْر الشامخ والقدَم السابقه، والمَحَلّة الساميه، فذكَرك بالتكنيه، ورفَعك عن التسميه، ولقَّبك لقبَين: أحدهما «شرفُ الدولة» لتشريفه بك أولياءه

(1) الإشبال العطف على الرجل ومعونته. انظر اللسان ج ١٣ ص ٣٧٥.

الذين أوطأهم عَقِبَك ، وأعلقهم حبلَك ، والآخر «زين الملة» لزينة أيامه بمماليك ، وتضاعُف جمالها بمساعيك ، وعقد لك بيده لواءين يلويان إليك الأعناق بالطوع ممن سرّاه وأبهجاه ، والكُره ممن راعاه وأزعجاه ، وأمر بأن تقام لك الدعوة على منابر مدينــة السـلام وما يجرى معها مـن الأعمـال بين الدّعوة لأمير المؤمنـين وبين الدّعوة لصَمْصام الدولة وشمس الملة ، أمتع الله أمير المؤمنـين بكما ، وأحسن الدّفاع له عنكما : إلحاقا لك وله بمن ك بأبيكما فيما كان شُرِّف به من هذه الحال التى لم يبلغها غيرُه ، ولا أُهِّل لهـا أحدٌ قبـله ، وأن يُثبَت ذِكْرك باللقب والكُنْية فيما يُنقش من سِكك العَـيْن والوَرِق فى دُور الضرب باديًا ، وذِكْرُ صَمْصام الدولة ـ كلأَكما الله ـ تاليا . وحَباك أمير المؤمنين مع ذلك بخلع تامّة تُفاض عليك ، وفرسَين من جياد خيله يُقادان إليك ، بمركبَىْ ذهب من خاصّ مَراكبه ، وسيف ماض من خيار أسيافه ، يعزّ الله منكبَيك بنجادَيه ، ويذلّ مناكبَ أعدائك بغرارَيه ، وطوق وسوارين . وأن تُجرى فى المكاتبة عنه إلى الغاية التى أجرى أبوك رحمه الله إليها ، وهذا الكتاب ناطقٌ بها ودالٌّ عليها . وندب لإيصال الجميع إليك علىَّ بنَ الحسين الهاشمىَّ الزّينبىّ ، وأحمدَ بنَ نصر العباسىَّ حاجبَه ووحى خادمه ؛ فتلقَّ شرفَ الدّولة وزينَ الملة وأبا الفوارس [ذلك] ـ أدام الله عزك ـ بما يحقّ عليك من تقوى الله فى سرّك وجهرك ، ومراقبتـه فى قولك وعملك ، وابتغاء رضاه فى مختلج خطَراتك وفِكَرك ، واتّباع طاعته فى مخارج أمرك ونهيك ، وقابل ما أنعم به عليك ، وأحسن فيه إليك ، بالشكر الذى موقعُـه من النعمة موقعُ القِرى من الضيف ، فإن وجده لم يذُم ، وإن فقده لم يُقِم ، وامدُدْ على من وُلِّيت عليـه من الخاصّـة والعامّة ظِلّك ، ووطِّئ لهم كنفك وأغمُرهم بطَوْلك ، وسُسْهم سياسةً يكون بها صلاحُهم مضمونا ، وحريمُهم مصونا ، وبلادهم معمُوره ، ومنـافعُهم موفُوره ، وحَلَبُهم دارًا ، وعيشُهم رَغَدا ، وثغورُهم

مسدوده ، وأعاديهم مذوده ، ومسالكهم مجيبه ، ومساكنهم مرتبه ؛ ومرهم بالمعروف ، وأنههم عن المنكر ، وابعثهم على الحسنات ، واكففهم عن السيئات ؛ وساو فى الحق بين شريفهم ومشروفهم ، وقويهم وضعيفهم ؛ وقريبهم وغريبهم ؛ ومليهم وذميهم ؛ وقوم سفهاءهم وجهالهم ، وأنف دعارهم وخرابهم ؛ وأكرم صلحاءهم وعلماءهم ، وشاور فضلاءهم وعقلاءهم ؛ وجالس أدنياءهم وأغلياءهم ؛ وأنلهم مراتبهم ، ونزلهم منازلهم ؛ وأرهم تمسكك بالدين ليقتدوا بك فيه ، ورغبتك فى الخير ليتقربوا إليك به ؛ وخذ الحق وأعطه ، وابسط العدل وقل به ؛ وادرإ الحدود بالشبهات ، وأقمها وأمضها بالبينات : لتكون الرغبة إليك فى رغب ، والرهبة منك فى رهب ؛ وبالجملة فاحمل الناس على كتاب الله ـ جل وعز ـ وآدابه ، وسنة الرسول وما جاء به .

واعلم أن أمير المؤمنين قد جعل كتابه هذا عهدا إليك ، وحجة لك وعليك ؛ وأن الأوامر والنواهى فى العهود تكون كثيرة ؛ وإنما قصر فيه عن استيفائها ، لارتفاع طبقتك عن الحاجة إلى استقصائها ، وللخروج إلى الله من الحق فى تضمينه هذه الجمل منها ؛ فإذا وصل ذلك إليك مع كرامات أمير المؤمنين المقدم ذكرها لك ، فالبس خلعه ، وتقلد سيفه ، وتحل بحلاه ، وابرز لمن يليك على حملانه[1] ، وأظهر لهم ضروب إحسانه وامتنانه ؛ وانصب أمامك اللواءين ، وتكن وتلقب باللقبين ؛ وكاتب من تكاتب من طبقات الناس متلقبا بهما متكنيا ، إلا أمير المؤمنين فإن الأدب أن لا تكاتبه متلقبا بل متسميا ؛ وليس ذلك ناقصا لك فيما أعطيته ، ولا مرتجعا شيئا مما حبيته ؛ ولكنه الأمر بالمعروف ، والرسم المألوف ؛ وصل ما بينك وبين أخيك

(١) فى القاموس مانصه « والحملان بالضم مايحمل عليه من الدواب فى الهبة خاصة » .

صمصام الدولة وشمس الملة ـ أدام الله الإمتاع بكما ـ بالمودّة، كما وصله الله بالأخوّة؛ وكونا جميعًا يدًا فى طاعة أمير المؤمنين، وآستقيما على كلمة سواء فى رعاية المسلمين؛ وآتّفقا على مسالمة المسالمين، وتعاضدا فى محاربة المحاربين؛ فإنّ ذلك أرأب للصّدع، وأحسم للبشر، وآنظم للشّمل، وأليق بالأهل. وأقم الدعوة لنفسك على منابر الممالك بعد إقامتها لأمير المؤمنين؛ وكاتب أمير المؤمنين بأخبارك، وطالعه بآثارك؛ وآستدع أمره فيما آستعجم من التدبير عليك، ورأيه فيما آستبهم من الأمور دونك؛ وآسترشده إلى الحظّ يرشدك، وآستهده فى الخطوب يهدك؛ وآستمدّه من المعونة يمددك، وآشكر آلاءه يزدك؛ إن شاء الله تعالى.

أطال الله بقاءك وأدام عزّك وتأييدك، وسعادتك ونعمتك؛ وأمتع أمير المؤمنين بك وبالرّغبة فيك وعندك؛ والسلامُ عليك ورحمةُ الله وبركاته.

*
* *

وعلى هـذا النمط كتب القاضى الفاضلُ عهـدَ أسد الدين شيركوه بالوزارة عن العاضـد الفاطمىّ، والوزارةُ يومئـذ قائمةٌ مَقام السلطنة على ما تقـدّم ذكره، وهذه نسخته :

من عبد الله ووليّـه، عبد الله أبى محمد الإمام العاضـد لدين الله أمير المؤمنين، إلى السـيد، الأجلّ، الملك، المنصور، سلطان الجيوش، ولىّ الأمه، فخر الدوله، أسد الدين، كافل قُضاة المسلمين، وهادى دُعاة المؤمنـين؛ أبى الحرث شيركوه العاضدى، عضّد الله به الدين، وأمتع بطول بقائه أمير المؤمنـين، وأدام قدرته، وأعلى كلمته.

سلامٌ عليك : فإنّ أمير المؤمنين يحمدُ إليك الله الذى لا إلهَ إلا هو ، ويسأله أن يصلّى على سيدنا محمدٍ خاتمِ النبيين ، وسيد المرسلين ؛ صلّى الله عليه وعلى آله الطاهرين، الأئمةِ المهديين، وسلّمَ تسليما كثيرا .

أما بعدُ، فالحمدُ لله القاهرِ فوقَ عبادِه ، الظاهرِ على مَنْ جاهَرَ بعنادِه ؛ القادرِ الذى يعجزُ الخلقُ عن دَفْعِ ماأودعَ ضمائرَ الغيوبِ من مُرادِه ، القوىّ على تقريب ماعزبت(١) الهِمَمُ باستبعادِه ؛ المَلِىّ بحُسْنِ الجزاءِ لمن جاهدَ فى اللهِ حقّ جهادِه ، مُؤْتِى المُلْكِ مَنْ يشاء بمـا أسلفَه من ذخائرِ رشادِه ، ونازعه ممّن يشاء بمـا اقترفَه من كبائرِ فسادِه ؛ منجدِ أميرِ المؤمنين بمَنْ أمضَى فى نُصْرته العزائمَ ، واستقبله الأعداءُ بوجوهِ النّدمِ وظُهورِ الهزائمِ ؛ وفعلتْ له المهابةُ مالا تصنعُ الهِمَمُ ، وخلعتْ آثارُه على الدُّنيا ما تخلعه الأنوارُ على الظُّلَمِ ؛ وعُدِمتْ نظراؤه بمـا وُجِد من محاسنه التى فاق بها ملوكَ العَربِ والعجمِ ، وانتقم اللهُ به ممّن ظلمَ نفسَه وإن ظنّ النـاسُ أنه ظلم ؛ وذادَ عن موارد أميرِ المؤمنين مَنْ هو [منه] أولى بها ويأبَى اللهُ سبحانه إلا إمضاءَ ماحتَمَ ، ورامَ إخفاءَ فضائله وهل يشتهرِ طيبُ المِسْكِ إلا إذا اكتُتِم ؟ مؤيِّد أمير المؤمنينَ بإمامٍ أقرّ اللهُ به عينَهم ، وقضى على يدِه من نُصرة الدين دَيْنَهم : ﴿ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ﴾ .

والحمدُ لله الذى خصّ جدّنا محمدًا بشرفِ الاصطفاءِ والاجتباءِ، وأنهضه من الرسالةِ بأثقلِ الأعباءِ ، وذخرَ له من شرفِ المقامِ المحمودِ أشرفَ الأنصباءِ ؛ وأقام به القسطاسَ ، وطهّر به من الأدناسِ ؛ وأيّده بالصابرين فى البأساءِ والضّرّاءِ وحينَ البأسِ ،

---

(١) كذا فى الأصول ولعله ماأعترفت ، تأمل .

وألبس شريعته من مكارم الأعمال والأقوال أحسن لباس ، وجعل النور ساريا منه في عقبه لا ينقصه كثرة الاقتباس : ﴿ ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ﴾ .

والحمد لله الذي اختار أمير المؤمنين لأن يقوم في أمته مقامه ، وهدى بمراشد نوره إلى طرق دار المقامه ، وأوضح به منار الحق وأعلامه ؛ وجعله شهيد عصره ، وحجة أمره ، وباب رزقه ، وسبيل حقه ، وشفيع أوليائه ، والمستجار من الخطوب بلوائه ، والمضمونة لذويه العقبى ، والمسئول له الأجر في القربى ؛ والمفترض الطاعة على كل مكلف ، والغاية التي لا يقصر عنها بولائه إلا من تأخر في مضمار النجاة وتخلف ، والمشفوع الذكر بالصلاة والتسليم ، والهادي إلى الحق وإلى طريق مستقيم ؛ لا يقبل عمل إلا بخفارة ولائه ، ولا يضل من استضاء بأنجم هدايته اللامعه ، ولا دين إلا به ولا دنيا إلا معه : ليتضح النهج القاصد ، ولتقوم الحجة على الجاحد ؛ وليكون لشيعته إلى الجنة نعم الشافع والرائد ، وليأتي الله به بنيان الأعداء من القواعد ، وليبين لهم الذي اختلفوا فيه وليعلموا أنما هو إله واحد .

يحمده أمير المؤمنين على ما حباه من التأييد الذي ظهر فبهر ، وانتشر فعم نفعه البشر ، والإظهار الذي اشترك فيه جنود السماء والأرض ، والإظفار الذي عقد الله منه عقدا لا تدخل عليه أحكام النقض ، والانتصار الذي أبان الله به معنى قوله : ﴿ ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض ﴾ .

ويسأله أن يصلي على سيدنا محمد الأمين ، المبعوث رسولا في الأميين ؛ الهادي إلى دار الخلود ، المستقل[1] ببيانه استقلال عواثر الجدود ، والمعدود أفضل نعمة على أهل الوجود ؛ والصافية بشريعته مشارع النعمه ، والواضحة به الحنيفية البيضاء

(١) المستقل - من استقل الشيء إذا ارتفع يريد أن بيانه مرتفع ارتفاع عواثر الجدود .

لِئَلّا يكونَ أمرُ الخلق عليهم غُمّة ، وعلى أبينا أخيه وابنِ عمّه أمير المؤمنين على بن أبى طالب ناصر شريعته وقسيمه فى النَّسب والسَّبب ، ويدِ الحقّ التى حكم لها فى كلّ طالبٍ بالغَلب ، وعلى الأئمة من ذرّيتهما وسائطِ الحكم ، ومصابيح الظُّلَم ومفاتيح النِّعم ، والمُخفِقين دعوى من باهاهم وفاخر ، والباذلين جُهدهم فى جهادِ من اتّخذ مع الله إلهاً آخر ، وسلّم وردّد ، ووالى وجدّد .

وإن أمير المؤمنين لما فوّضه الله تعالى إليه من إيالة الخليقه ، ومنحه من كرم السَّجية وكرم الخليقه ، وبسطه من يده على أهل الخلاف ، وأنجزه من موعوده الذى ليس له إخلالٌ ولا إخلاف ، وأوضحه من براهين إمامته للبصائر ، وحفظ به على الإسلام من طليعة المبادئ وساقة المصائر ، وأورثه من المقام الذى لا ينبغى إلّا له فى عصره ، واستخدم فيه السّيوف والصّروف من تأدية فرائض نصره ، وأظهر له من المعجزات ، التى لا يخلو منها زمن ، وظاهر له من الكرامات ، التى زادت على أمنيّة كل متمنّ ، وائتمنه عليه من أسرار النبوّة التى رآه الله تعالى لها أشرف مودَع وعليها أكرم مؤتمن ، وأجرى عليه دولته من تذليل الصّعاب وتسهيل الطّلاب ، وتفليل أحزاب الشّرك إذا اجتمعوا كما اجتمع على جدّه صلّى الله عليه وسلم أهلُ الأحزاب ـ يواصل شكر هذه النّعم التّوام ، ويعرف بموارفها الفرادى والتُّوام ؛ ويقدّم بين يدى كلّ عمل رغبةً إليه فى إيضاح المراشد ، ونيّةً لا تضلّ عنها الهدايةُ ولا سيّما وهو الناشد ؛ ويستخيره علماً أنه يقدّم إليه أسبابَ الخير ، ويناجيه فيطلعه الإلهام على ما يحلّ السّير ويحلّى الغير ؛ ويأخذ بيد الله حقّه إذا اغتُصبت حقوقه ، ويستنجد بالله إذا استبيح خلافُه واستجيز عقوقُه ؛ ويفزع إلى الله تعالى إذا قرع الضائر ، ويثق بوعد الله تعالى إذا استهلكت الشُّبَهُ البصائر ، فما اعترض ليلُ كُربة إلا انصدع

له عن بحْرٍ وضّاح ، ولا انتقض عقدُ غادرٍ إلا عاجلهُ اللهُ سبحانه بأمرٍ فضّاح ؛ ولا انقطعتْ سُبُلُ نُصْرةٍ إلا وصلها اللهُ تعالىٰ بمن يُرْسِله ولا انصدعتْ عصا أُلْفة إلا تداركَ اللهُ تعالىٰ بمن يجرّده تجريدَ الصِّفاح ؛ و إذا عدّدَ أميرُ المؤمنين هـذه النِّعَم الجسيمه ، والمِنَح الكريمه ، واللطائفَ العظيمه ، والعَوارفَ العميمه ، والآياتِ المعلومه ، والكفايات المختومة والعادات المنظومه ؛ كنت أيُّها السيد الأجل ـ أدام اللهُ قدرتَك ، وأعلىٰ كلمتَك ـ أعظمَ نِعَم الله تعالىٰ أثرا ، وأعلاها خطرا ، وأقضاها للأُمّة وطرا ، وأحقَّها بأن تسمّى نِعمه ، وأجدرَها بأن تُعدّ رحْمه ، وأسماها أن تكشف غُمّه ، وأنضاها في سبيل الله سبحانه عزْمه ، وأمضاها علىٰ الأعداء حدّا ، وأبذاها في الجهاد جِدّا ، وأعداها علىٰ الأعداء يدّا ، وأحسنَها فعلا لليوم وأرجاها غدا ، وأفرجَها للأزْمة وقد كادت الأمةُ تصير سُدىٰ ، وأحقّ الأولياء بأن يدعىٰ للأولياء سيّدا ، وأبقاهم فعلةً لاينصرم فِعْلُها الذي بدا أبدا .

فلْيَهنِئْك[1] أنّك حزبُ الله الغالب ، وشِهابُ الدين الثاقب ، وسيفُ الله القاضب ، وظلُّ أمير المؤمنين الممدود ، ومَوْرِدُ نعمته المورود ، والمقدَّمُ في نفسه وما نؤخّره إلا لأجلٍ معدود ؛ نصرتَه حين تناصرَ أهلُ الضلال ، وهاجرتَ إليه هاجرا بَرْدَ الزُّلال وبَرْدَ الظِّلال ، وخُضتَ بحارَ الأهوال ، وفي يدك أمواجُ النِّصال ؛ وها في جِيدك اليوم عِقْدُ جواهرٍ منه ونَظْمُ لآلٍ ، بل قد بلغتَ السماء وزُيِّنتْ منك بنجوم نهارٍ لانجومِ ليالٍ ، وكشفتَ الغمّاء وهي مُطْبِقه ، ورفعتَ نواظرَ أهل الإيمان وهي مُطْرِقه ؛ وعقَصتَ أعنّةَ الطغيان وهي مُطْلَقه ، وأعدتَ بحُنْكتك علىٰ الدولة العلويّة بهجةَ شبابها المُونِقه ، وأنقذتَ الإسلامَ وهو علىٰ شفىٰ جُرُفٍ هارٍ ، ونفذتَ حين لاتنفذ

---

(١) في الأصل فليهنك . وفي اللسان ج ٦ ص ١٨٠ « والعرب تقول ليهنئك الفارس بجزم الهمزة وليهنيك الفارس بياء ساكنة ولا يجوز ليهنك كما تقول العامة » . فتنبه .

السّهام عن الأوتار، وسمعت دعوته على بُعد الدار، وأبصرت حقّ الله ببصيرتك وكم من أناس لايرونه بأبصار، وأجليت طاغية الكفر وسواك اجتذبه، وصدّقت الله سبحانه حين داهنه من لابصيرة له وكذّبه، وأقدمت على الصّليب وجمراته متوقّده، وقاتلت أولياء الشيطان وغمراته متمرّده، وما يومك فى نُصْرة الدولة بواحد، ولا أمسك مجحودٌ وإن رغم أنف الجاحد، بل أوجبت الحقّ بهجرة بعد هجره، وأجبت دعوة الدين قائمًا بها فى غمرة بعد غمره، وافترعت صهوة هذا المحلّ الذى رقّاك إليه أميرُ المؤمنين باستحقاقك، وأمات الله العاجزين بما فى صدورهم من حسرات لحاقك، وكنت البعيدَ القريبَ نُصْحُه، المحجوبَ النافذَ بحجّته المذعورةَ أعداءُ أمير المؤمنين [به] إن فُوّق سهمُه أو أُشرع رُمْحُه، وما ضرّك أن تخطك أعداءُ أمير المؤمنين وأميرُ المؤمنين قد ارتضاك، ولا أن منعك المعاندُ حقّك وقد قضى لك واقتضاك، وما كان فى محاجزتك عن حظّك من خدمة أمير المؤمنين الذى أنت به منه أولى، ومدافعتك عن حقّك فى قُرب مقامه الذى لايستطيع طَوْلا، إلا مغالبةُ الله فيك والله غالبٌ على أمره، ومباعدتك وقد قربك الله من سرّ أمير المؤمنين وإن بعدت من جهره، استشرفتك الصّدور، وتطلّعت إليك عيونُ الجمهور، واستوجبت عقيلة النّعم بما قدمت من المهور، ونصرت الإيمان بأهله، وأظهرت الدّين بمظاهرتك على الدّين كلّه، وناهضت الكفرة بالباع الأشدّ والرأى الأسدّ، ونادتهم سيوفك: ـ ولا قرار على زأر من الأسد ـ وأدال الله بك ممن قدم على ما قدّم، وندم فما أغنى عنه النّدم، حين لجّ فى جهالته، وتمادى فى ضلالته، واستمرّ على استطالته، وتوالت منه عثراتٌ ما أتبعها باستقالته، فكم اجتاح للدّولة رجالا، وضيّق من أرزاقهم مجالا، وسلب من خزائنها ذخائر وأسلحة وأموالا، ونقلها من أيدى أوليائها إلى أعداء الله تبارك وتعالى، واتّسعت هفواته عن التعديد،

وما العهدُ منها ببعيد ، وقد نسخ الله تعالى بك حوادثها فوجب أن تُنسخ أحاديثُها ، وأتى الأئمــة منك بمن هو وليهــا والأمةَ بمن هو مُغيثُها ، ودعاك إمامٌ تُصرّك بقلبه ولسانه وخطّه على بُعد الدار ، وتحقّق أنك تتصرّف معه حيثُ تصرّف وتدور معه حيثُ دار ، واختارك على ثقة من أنّ الله تعالى يَحْمده فيك عواقبَ الاختيار ، ورأى لكَ إقدامَك ورقابُ الشرك صاغره ، وقدومَك وأفواهُ المخاوف فاغره ، وكرّتك فى طاعته وأبى الله تعالى أن تكونَ خاسره ، وسَطَا بك حين تمــالى بك المشركون ، وتمثّل لرسلهم بقوله سبحانه : ﴿ اخسئــوا فيهــا ولا تكلّمون ﴾ وأنفت عزّتُه هُجنة الهُدنه ، وقال لأوليائه : ﴿ وقاتلوهم حتّى لاتكونَ فتنةٌ ﴾ وازدرى بخنازيرهم انتظارًا لوصولك بأُسود الإسلام ، وصبر على علم أنك تلبّي نداءه بألسنة الأعلام قبل ألسنة الأقلام ؛ فكنتَ حيثُ رجا وأفضــل ، ووُجدت بحيثُ رعى وأعجل ؛ وقدمت فكتب اللهُ لك العُــلوّ ، وكبَت بك العَــدوّ ، وجمع على التوفيق لك طَرَقي الرَّواح والغُدوّ ، ولم يلبس الكافرُ لسهامك جُنّةً إلا الفرار ، وكان ﴿ كشجرةٍ خبيثةٍ اجتُثّتْ من فوقِ الأرض مالَهــا من قرار ﴾ فلله درّك حين نازلتَ بخبرك ، قبل عسكرك ، ونُصرتَ بأثيرك ، قبل عشيرك ؛ وأكرِمْ بك من قادم خطواتُه مبروره ، وسطواته للأعداء مُبيره ، وكلّ يوم من أيامه يُعدّ سيره ؛ وإنك لمبعوثٌ إلى بلاد أمير المؤمنين بعثَ السحاب المُسخّر ، ومقدَّمٌ فى النّية وإن كنتَ فى الزمان المؤخّر ، وطالــعٌ بفئة الإسلام غيرُ بعيد أن يُفيءَ اللهُ عليها بلادَ الكفّار ، ورجالِ جهادٍ عددناهم عندنا من المصطفين الأخيار ، وأبناءِ جلاد يشترون الجنة بعزائمَ كالنــار ، وغُرَرِ نصر سُكونُ العدوّ بعدَها غرورٌ ونومُه غِرار .

ولمــا جرى مَنْ جرى ذكرُه على عادته فى إيحاشك والإيحاش منك بكواذب الظنُون ، ورامَ رجعتَك عن الحضرة وقد قرّت بكَ الدار وقرّت بك العيون ؛ وكان

كما قال الله تعالى في كتابه المكنون : ﴿ لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ ﴾ هنالك عَصَبَتْ(١) نفوس الإسلام فتنكت به أيديها ، وكشفت له عن غطاء العواقب التي كانت منه مباديها ، وأخذه من أخذه أليم شديد ، وعدل فيه من قال ﴿وما ربك بظلام للعبيد﴾ : ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ .

ولما نشرت لواء الإسلام وطواه ، وعضدت الحق وأضعف قواه ، وجنيت عقبى مانويت وجنى عقبى مانواه ، وأبيت إلا إمضاء العزم في الشرك وما أمضاه ، ﴿ أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله ﴾ ودفعت الخطب الأشق ، وطلعت أنوار النصر مشرقة بك وهل تطلع الأنوار إلا من الشرق ؟ وقال لسان الحق : ﴿ فأي الفريقين أحق ﴾ ، قضى الله تعالى إلى أمير المؤمنين عدة قدمها ثم قضاها ، وولاه كما ولى جده صلى الله عليه وسلم قبلة يرضاها ، وانتصر له بك انتصاره لأهل البيت بسلمانه وعماره ، وأنطق أمير المؤمنين باصطفائك اليوم و بالأمس كنت عقد إضماره ، وقلدك أمير المؤمنين أمر وزارته ، وتدبير مملكته وحياطة ماوراء سرير خلافته ، وصيانة ما اشتملت عليه دعوة إمامته ، وكفالة قضاة المسلمين ، وهداية دعاة المؤمنين ، وتدبير ماعدقه الله بأمير المؤمنين من أمور أوليائه أجمعين ، وجنوده وعساكره المؤيدين ، المقيمين منهم والقادمين ، وكافة رعايا الحضرة بعيدها ودانيها ، وسائر أعمال الدول باديها وخافيها ، وما يفتحه الله تعالى على يديك من البلاد ، وما تستعيده من حقوقه التي اغتصبها الأضداد ، وألقى إليك المقاليد بهذا التقليد ، وقرب عليك كل غرض بعيد ، وناط بك العقد والحل ، والولاية والعزل ، والمنع

(١) في اللسان " عصبت الابل وعصبت بالكسر اذا اجتمعت " . ولعل هذا مراده ان لم يكن أصل نقطه وأصله غضبت . تأمل .

الوطأة ما استطعتَ عنهم ، وبدِّلهم من بعد خوفهم أمنا ، وكُفَّ من يعترضهم في عَرَض هذا الأذى .

والجهاد فهو سلطانُ الله تعالى على أهل العناد ، وسطوةُ الله تعالى التي يُمضيها في شرِّ العباد على يد خيرِ العباد ، ولك من الغَناء فيه مصرا وشاما ، وثبات الجأش كَرًّا وإقداما ، والمصافِّ التي ضُرِبتْ فكنت ضاربَ كُماتها ، والمواقف التي اشتدّتْ فكنتَ فارجَ هَبواتها ، والتدريب الذي أطلق جَدَّك ، والتجريب الذي أورى زَنْدك ، [ما] يُغني عن تجديد الوصايا البسيطه ، وتأكيد القضايا المحيطه ، وما زِلْتَ تأخُذ من الكُفّار باليمين ، وتعظُم فتوحُك في بلاد الشمال فكيف تكونُ في بلاد اليمين ؟ فاطلُبْ أعداء الله برًّا وبحرا ، وأجلِبْ عليهم سَهْلا ووَعْرا ، وقسِّم بينهم النَّكبات قتلا وأسرا ، وغارةً وحَصْرا ، قال الله تعالى في كتابه المكنون : ﴿ يا أيُّها الذين آمنوا قاتِلوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ من الكُفَّارِ ولْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً واعلَموا أنَّ اللهَ مع المتَّقِين ﴾ .

وتوفيقُ الله تعالى يفتحُ لك أبوابَ التدبير ، وخِبْرتك تدُلُّك على مَراشد الأمر : ﴿ ولا يُنَبِّئُكَ مثلُ خَبِيرٍ ﴾ فأنت تبتدعُ من المحاسن ما لا تُحيط به الوصايا ، وتخترع من المَيامن ما يَعترف ببركاته الأولياءُ والرَّعايا ؛ والله سبحانه وتعالى يحقِّق لأمير المؤمنين فيك أفضلَ المَخايِل ، ويفتحُ على يديك مستغلَق البلاد والمَعاقل ، ويصيبُ بسهامك من الأعداء النُّحورَ والمَقاتل ، ويأخُذ للإسلام بك ماله عنـد الشرك من الثارات والطَّوائل ؛ ولا يُضيع لك عملَك في خدمة أمير المؤمنين إنه لا يُضيع عمَلَ عامل ، ويُجْرى الأرزاقَ والآجالَ بين سَيْبك الفاضل وحُكْمك الفاصل ؛ فاعلمْ هذا من أمر أمير المؤمنين ورَسْمه ، واعمل بمُوجَبه وحكمه ، إن شاء الله تعالى ، والسلامُ عليك ورحمةُ الله وبركاتُه .

* * *

وعلى نحو منه كتب القاضى الفاضل أيضا عهد الملك الناصر، صلاح الدين يوسف بن أيوب بالوزارة عن العاضد أيضا، وهذه نسخته :

من عبد الله ووليه عبد الله أبى محمد الإمام العاضد لدين الله أمير المؤمنين، إلى السيد الأجل (على نحو ماتقدم فى تقليد عمه أسد الدين شيركوه) .

أما بعد، فالحمد لله مصرف الأقدار ومشرف الأقدار، ومحصى الأعمال والأعمار، ومبتلى الأخيار والأبرار، وعالم سر الليل وجهر النهار، وجاعل دولة أمير المؤمنين فلكا تتعاقب فيه أحوال الأقمار : بين انقضاء سرار واستقبال إبدار، وروضا إذا هوت فيه الدوحات أينعت الفروع سابقة النوار باسقة الثمار، ومنجد دعوته بالفروع الشاهدة بفضل أصولها، والجواهر المستخرجة من أمضى نصولها، والقائم بنصرة دولته فلا تزال حتى يرث الله الأرض ومن عليها قائمة على أصولها .

والحمد لله الذى اختار لأمير المؤمنين ودله على مكان الاختيار، وأغناه باقتضاب الإلهام عن روية الاختبار، وعضد به الدين الذى ارتضاه وعضده بمن ارتضاه، وأنجز له من وعد السعد ماقضاه قبل أن اقتضاه، ورفع محله عن الخلق فكلهم من مضاف إليه غير مضاه، وجعل مملكته عرينا لاعتزازها بالأسد وشبله، ونعمته ميراثا أولى بها ذوى الأرحام من بنى الولاء وأهله، وأظهر فى هذه القضية ما أظهره فى كل القضايا من فضل أمير المؤمنين وعدله، فأولياؤه كالآيات التى تتسق درارى أفقها المنير، وتتسق درر عقدها النظيم النضير : ﴿ ما ننسخ من آية أو ننسأها نأت بخير منها أو مثلها ألم تعلم أن الله على كل شىء قدير ﴾ .

والحمـد لله الذى أتمّ بأمير المؤمنين نعمةَ الإرشاد ، وجعله أوْلى مَن لحقّ ساد ولحقّ شاد ، وآثره بالمقام الذى لاينبغى إلّا له فى عصره ، وأظهر له من معجزات نصره مالا يستقلّ العددُ بحصره ، وجمع لمن والاه بين رفع قدره ووضع إصره ، وجعل الإمامةَ محفوظةً فى عقبه والمعقّبات تحفظه بأمره ، وأودعه الحكم التى رآه لها أحوطَ من أودعه ، وأطلع من أنوار وجهه الفجرَ الذى جهل من ظنّ غيرَ نوره مطلعه ، وآتاه مالم يؤت أحدا ، وأمات به غيًّا وأحيا رشدا ، وأقامه للدّين عاضدا فأصبح به معتضدا ، وحفظ به مقامَ جدّه وإن رغم المستكبرون ، وأنعم به على أمّته أمانًا لولاه ما كانوا ينظرون ولا يبصرون ، و ﴿ ما كانَ اللهُ ليعذّبهم وأنتَ فيهم وما كانَ اللهُ معذّبهم وهم يستغفرون ﴾ .

يحمده أميرُ المؤمنين على ماآتاه من توفيق يذلّل له الصّعبَ الجامح ، ويدنى منه البعيدَ النّازح ، ويخلف على الدّين من صلاحه الخلفَ الصالح ، ويلزم آراءه جدد السّعود الواضح ، ويريه آياتِ الإرشاد فإنّه نازح (؟) قدْح القادح ، ويسأله أن يصلّى على جدّه محمد الذى أنجى أهلَ الإيمان ببعثه ، وطهّر بهديه من رجس الكفر وخبثه ، وأجار باتّباعه من عنت الشيطان وعبثه ، وأوضح جادّةَ التوحيد لكلّ مشرك الاعتقاد مثلّثه ، وعلى أبينا أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب الذى جادلتْ يدُه بلسان ذى الفقار ، وقسّم ولاؤه وعداوته بين الأتقياء والأشقياء الجنّةَ والنار ، وعلى الأئمة من ذرّيتهما الذين أذلّ الله بعزّتهم أهل الإلحاد ، وأصفى بما سفكوه من دمائهم مواردَ الرشاد ، وجرتْ أيديهم وألسنتهم بأقوات القلوب وأرزاق العباد ، وسلّم ومجّد ، ووالى وجدّد .

وإن الله سبحانه ما أخلى قطُّ دولةَ أمير المؤمنين التى هى مَهْبِط الهُدى، ومَحَطُّ النَّدى، ومورِدُ الحياةِ للوَلىّ والرَّدَى للعِدا، من لُطْف يتلافى الحادثةَ ويَشْعَبها ورأْبُها، ونعمةٍ تبلغ بها النفوس آرابها، ومَوْهبة تَشُدُّ موضِعَ الكَلْم، وتسُدُّ موضع الثَّلْم، وتُجَلِّى غمائمَ الغُمَم، وتُحَلِّى مغانمَ النِّعَم، وتستوفى شرائطَ المَنَاجح، وتستَدْنى فَوارِطَ المَصَالح، ولم يكُنْ ينسِى الحادثةَ فى السيد الأجلِّ الملكِ المنصور رضى الله عنه وأرضاه، وجعل الجنةَ متقلَّبه ومَثْواه، التى كادَتْ لها أواخِى(١) المُلْك تتزعزع، ومَبانِى التدبير تتضَعْضع، إلّا ما نظر فيه أمير المؤمنين بنُور الله من اصطفائك أيها السيدُ الأجلّ الملكُ الناصر: ــ أدام الله قدرتَك ــ لأن تقُوم بخدمته بَعْده، وتَسُدَّ فى تقْدمة جيُوشه مَسَدَّه، وتَقْفُو فى ولائه أثرَه، ولا تفقدَ منه إلا أثَرَه، فوازَتِ الفادحةُ فيه النعمةَ فيك، حتّى تستوفى حظَّه من أمير المؤمنين بأجرٍ لا يُضيعُ اللهُ فيه عملَه، فاستوجبَ مقْعَدَ صِدق بما اعتقدَه من تأدية الأمانة له وحَمْله، واستحقَّ أن يُنضِّرَ اللهُ وجهَه بما أخْلَقَه اللهُ من جسمه فى مَوَاقف الجهاد وبذْله، ومضى فى ذِمَام رضا أمير المؤمنين: وهو الذِّمام الذى لا يقْطع اللهُ منه ماأمَرَه أن يَصله، وأُتْبِع من دعائه بتُحَفٍ أوّل ماتلقاه بالرَّوْح والرَّيحان، وذُخِرَتْ له من شفاعته ماعليه معوَّلُ أهل الإيمان فى الأمان، فرَعَى الله له قَطْعه البيداءَ إلى أمير المؤمنين وتجشُّمه الأسفار، ووطْأه المَواطِئَ التى تَغيظ الكُفّار، وطُلُوعَه على أبواب أمير المؤمنين طُلوعَ أنوارِ النهار، وهجْرتَه التى جمعتْ له أجْرَين: أجرَ المهاجرين وأجرَ الأنصار، وشكَر له ذلك المَسْعى الذى بلغ من الشِّرك الثار، وبَلَّغ

---

(١) الأواخى جمع آخية وهى عود يعرض فى الحائط ويدفن طرفاه فيه ويصير وسطه كالعروة تشد إليه الدابة. انظر اللسان ج ١٨ ص ٢٤.

الإسلامَ الإيثار . وما لقي رَبَّه حتّى تعرَّضَ للشَّهادة بين مُختلَف الصِّفاح، ومشتَجَر الرِّماح، ومفتَرَق الأجسامِ من الأرواح ؛ وكانت مشاهدتُه لأمير المؤمنين أجرًا فوق الشَّهاده، ومِنَّةً لله تعالى عليه له بها ما للّذينَ أحسَنُوا الحُسْنَى وزيادَه ؛ وحتّى رآك أيُّها السيدُ الأجلُّ الملك النـاصر ـ أدام الله قدرتَك ـ قد أقررْتَ ناظِرَه، وأرغَمْتَ مُناظِره ؛ وشَدَدْتَ سـلطانَه، وسَـدَدْتَ مكانَه ؛ ورَمَى بكَ فأصاب، وسقَى بك فصاب ، وجمعتَ ما فيـه من أُبَّهة المَشيب إلىٰ ما فيك من مَضَاء الشَّباب؛ ولقِنتَ ماأفادَتْه التَّجارِبُ جُمْـله ، وأعانَتْك المحاسِنُ التي هي فيك جِلّه ؛ وقلَّبَ عليكَ إسناد الفَتكات فتقلَّبت ، وأوضَح لك مِنْهاجَ البركات فتقبَّلت، وسَـدَّدَك سَهمًا، وجَرَّدَك شَهمًا، وانتضاكَ فارتضـاكَ غَرْبًا ، وآثرَك على آثرِ ولده إمامةً في التـدبير وحَرْبًا؛ وكنتَ في الســلم لِسانَهُ الآخذَ بمجامع القُلوب ، وفي الحَرْب سِنانَه النافذَ في مَضايق الخُطوب ، وساقتَـه إذا طُلِب ، وطليعتَـه إذا طَلَب ، وقلْبَ جيشِـه إذا ثبَتَ وجناحَهُ إذا وَثَب ؛ ولا عُذْرَ لِشِبْلٍ نشأ في حَجْر أسـد ، ولا لهلالٍ آستَمَلَّ النُّورَ من شمسٍ وآستَمَدّ :

هذا ولو لم يكُنْ لك هذا الإسنادُ في هذا الحديث، وهذا المُسْنَد الجامع من قديم الفخر وحديث ؛ لأغنَتْك غَريزةٌ عزيزة وسَجيّةٌ سَخيّة وشِيمةٌ وَسِيمه، وخلائقُ، فيهـا ما تُحِبُّ الخلائق، ومَآثِرُ، لم يحُزْ مثلَها حائزٌ؛ ومَحاسِن، ماؤُها غيرُ آسِن، ومآثِرُ جَدّ غيرُ عاثِرٍ؛ ومفاخِر، غفَـل عنها الأوّلُ : ليستأثِرَ بهـا الآخر؛ وبراعةُ لِسان، يَنْسَجِم قِطارُها ، وشجـاعة جَنان ، تَضْطرِم نارُها ؛ وخِلالٌ جِلالٌ عليكَ شـواهدُ أنوارها تتوضَّح، ومَساعي مُسَاعِد لديكَ كمائمَ نَوْرِها تتفتَّح ؛ فكيف وقد جمعتَ لك في المجد بين نَفْسٍ وأبٍ وعَمّ ، ووجب أن سالكَ من آصْطفاء أمير المؤمنين ماذا حَصَل ثُمّ علىٰ الخلق عَمّ؛ فيومُك واسطةٌ في المجد بين غَدِك وأمسِك، وكلُّ نادٍ من أندية الفَخار

لك أن تقول فيه وعلى غيرك ان يمسك ؛ فبشراك أن أنعم أمير المؤمنين موصولة منكم بوالد وولد ، وأن شمس ملكه بكم كالشمس أقوى ما كانت فى بيت الأسد .

ولما رأى الله تقلب وجه أمير المؤمنين فى سمائه ولاه من اختيارك قبله ، وقامت حجته عند الله باستكفائك وزيرا له ووزرا لآله ؛ فناجته مراشد الإلهام ، وأضاءت له مقاصد لاتعقلها كل الأفهام ، وعزم له على أن قلدك تدبير مملكته الذى أعرقت فى إرثه وأغرقت فى كسبه ، ومهد لك أبعد غاية فى الفخر بما يسر لك من قربه ؛ ولقد سبق أمير المؤمنين إلى اختيارك قبل قول لسانه بضمير قلبه ، وذكر فيك قول ربه : ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ﴾ . وقلدك لأنك سيف من سيوف الله تعالى يحق به التقلد وله التقليد ، واصطفاك على علم بأنك واحد منتظم فى معنى العديد ، وأحيا فى سلطان جيوشه سنة جده الإمام المستنصر بالله فى أمير جيوشه الأول ، وأقامك بعده كما أقام بعده ولده وإنه ليرجو أن تكون أفضل من الأفضل ؛ وخرج أمره إليك بأن يوعز إلى ديوان الإنشاء بكتب هذا السجل لك بتقليدك وزارته التى أحلك ربوتها ، وأحل لك صهوتها ، وحلاك نعمتها ، و (١) لك نعمتها ؛ فتقلد وزارة أمير المؤمنين من رتبتها التى تناهت فى الإنافة ، إلى أن لا رتبة فوقها إلا ما جعله الله تعالى للخلافة ، وتبوأ منها صدرا لاتتطلع إليه عيون الصدور ، واعتقل منها فى درجة على مثلها تدور البدور : ﴿وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ : وقل ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾ . وباشر مستبشرا ، واستوطن متديرا ، وابسط يدك فقد فوض إليك أمير المؤمنين بسطا وقبضا ، وارفع ناظرك فقد أباح لك رفعا وخفضا ؛ واثبت على درجات

(١) بياض بالأصول بقدر كلمة .

السعادة فقد جعل لحكمك تثبيتا ودحضا ، وأعقد حبى العزمات للصالح فقد أطلق بأمرك عقدا ونقضا ، وأنفذ فيما أهلك له فقد أدى بك نافلة من السياسة وفرضا ؛ وصرف أمور المملكة فإليك الصرف والتصريف ، وثقف أود الأيام فعليك أمانة التهذيب والتثقيف ، واسحب ذيول الفخار حيث لا تصل التيجان ، واملأ لحظا من نور الله تعالى حيث تثق الأبصار لحين الأجفان ؛ إن هذا لهو الفضل المبين فارتبطه بالتقوى التي هى عروة النجاة وذخيرة الحياة والممات ، وصفوة ما تلق آدم من ربه من الكلمات ، وخير ما قدمته النفوس لغدها فى أمسها ، وجادلت [به] يوم تجادل كل نفس عن نفسها ؛ قال الله سبحانه ومن أصدق من الله قيلا : ﴿ والآخرة خير لمن اتقى ولا تظلمون فتيلا ﴾ . واستتم بالعدل نعم الله تعالى عليك ، وأحسن كما أحسن الله إليك ، وأمر بالمعروف فإنك من أهله ، وانه عن المنكر كما كنت تنزهت عن فعله . وأولياء أمير المؤمنين ، وأنصاره الميامين ، ومن يحف بمقام ملكه من الأمراء المطوقين ، والأعيان المعصبين ، والأماثل والأجناد أجمعين ؛ فهم أولياؤه حقا ، ومماليكه رقا ، والذين تبوءوا الدار والإيمان سبقا ، وأنصاره غربا كما أن عسكرك أنصاره شرقا ؛ فهم وهم يد فى الطاعة على من ناواهم ، يسعى بذمتهم أدناهم ؛ وتحكم فيهم وأنت عند أمير المؤمنين أعلاهم .

هذا وقد كان السيد الأجل الملك المنصور ـ رضى الله عنه ـ استمطر لهم [من] إنعام أمير المؤمنين المساعفة بعلقهم ، ووأسى(1) فى هذه المنقبة التى استحق بها حسن الذكر بين طوائفهم وفرقهم ، فصنهم من جائحات الإعتراض ، وابذل لهم صالحات الأغراض ، وارفع دونهم الحجاب ، ويسر لهم الأسباب ، واستوف منهم عند

---

(1) لعله وساوى كما لا يخفى .

الحُضُور إليك غاياتِ الخطاب ؛ وصَرِّفهم فى بلاد أمير المؤمنين وُلَاةً وحُماة ، كما تُصَرِّفُهم فى أوقاتِ الحرب لُمَاةً وكُمَاة ؛ وعَرِّفهم بركةَ سُلطانِك ، وٱقْتَدْ قلوبهم بزِمامِ إحْسانِك .

وأما القُضاة والدُّعاةُ فهم بين كَفالَتِك وهَدْيِك ، والتصريفِ على أمْرِك ونَهْيِك ؛ فاستعمِلْ منهم مَنْ أحسَنَ عَملا ، فأمّا بالعِناياتِ فلا .

والجهاد فأنتَ راضِعُ دَرِّه ، وناشِئةُ حَجْرِه ؛ وظُهورُ الخيل مَواطِنُك ، وظِلال الجبل مَسَاكِنُك ؛ وفى ظُلُمات مَشَاكِه ، تُجْلَى محاسِنُك ، وفى أعقاب نَوَازِله ، تُتْلَى مَيَامِنُك ؛ فشَمِّر له عن ساقٍ من القَنا ، وخُضْ فيه بَحْرًا من الظُّبَا ، وٱحْلُلْ فيه عُقْدَةَ كلمات الله سبحانه وثِيقاتِ الحُبَى ؛ وأسِلِ الوِهادَ بدماء العِدا وٱرفَعْ برءوسهم الرُّبا ؛ حتّى يأتِيَ اللهُ بالفتح الذى يرجو أمير المؤمنين أن يكونَ مذْخُورا لأيّامك ، ومشهودًا به يومَ مَقامك بين يدَيْه من لِسانِ إمامك .

والأموال فهى زُبْدة حَلَب اللُّطف لا العُنف ، وجُمَّةٌ يمرِيها الرِّفقُ لا العَسْف ، وما برِحَتْ أجدَّ ذخائرِ الدُّول للصُّفُوف ، وأحَدَّ أسلِحتها التى تَمْضى وقد تَنْبُو السُّيوف ؛ فقدِّمْ للبلادِ الآستِعْمار ، تُقدِّمْ لكَ الآسْتِثمار ، وقَطْرةٌ من عدْلٍ تزْخَرُ بها من مالٍ بِحار .

والرَّعايا فهم ودائعُ الله لأمير المؤمنين وودائعُه لدَيْك ، فاقبِضْ عنهم الأيْدى وٱبْسُطْ بالعدلِ فيهم يدَيْك ؛ وكُنْ بهم رءوفا ، وعليهم عَطُوفا ؛ وٱجعل الضعيفَ منهم فى الحقّ قويًّا والقوىَّ فى الباطل ضَعيفا ؛ ووَكِّل برعايتهم ناظِرَ ٱجتهادك ، وٱجعلْ ألسِنَتَهم بالدُّعاء من سلاحك وقلوبَهم بالمحبَّة من أجْنادِك ؛ ولو جاز أن يستَغْنِيَ عن

الوصيَّة قائمٌ بأمر، أو جالسٌ فى صَدْر، لاستغنَيْتَ عنها بفطنتك الزَّكيَّه، وفطرتك الذَّكيّه؛ ولكنَّها من أمير المؤمنين ذِكْرى لك وأنتَ من المؤمنين، وعَرابةُ بركةٍ فتلَقّ رايتَها باليمين؛ والله تعالى يؤيِّدك أيُّها السيدُ الأجل ـ أدام الله قُدرتَك ـ بالنصر العَزيز، ويَقضى لدولة أمير المؤمنين على يديْك بالفَتح الوَجيز، ولأهلها فى نَظَرك بالأمر الحريز، ويمتِّع دَسْت الملك بحِلْى مَجْدِك الإبريز، ويُقِرُّ عيونَ الأعيان بما يَظْهَر لك فى مَيْدان السعادة من السَّبْق والتَّبريز، ويُملِّيك من نِحْلة أنْعُم أمير المؤمنين بما مَلَّكك إيّاه مِلْك التحويز، ويُلْحِق بك فى المجد أوّلَك، ويُحْمِد فيك العَواقبَ ولَك؛ فاعلَمْ ذلك من أمر أمير المؤمنين ورَسْمه، واعمَلْ بمُوجِبه وحُكْمه، إن شاء الله تعالى.

المذهب الثالث

(أن يفتتح العهد بخُطبة)

وهو ماحكاه فى "التعريف" عن الصاحب فخر الدين إبراهيمَ بنِ لُقْمان، فيما كَتَب به للظاهر بِيبَرْس، وذكر أن ابنَ لُقْمان ليس بحُجّة. ثم قال: على أن الفاضل مُحْيي الدين بنَ عبد الظاهر قد تبعه فيما كَتَب به للمنصور قلاوُون.

قلت: ليس ابنُ لقمانَ هو المبتكرَ لهذا المذهَب، بل كان موجودا معمُولا به. استعمله كُتَّاب الإنشاء بديوان الخلافة ببغدادَ قبلَ ذلك بزمنٍ طويل، وهو منبَع الكتابة الذى عنه يَصْدُر الترتيب، وقاعدتُها التى يُبْنى عليها المصطلَح. وعليه كُتِب عهد العادل[1] أبى بكر بن أيُّوب أخى السلطان صلاح الدين يوسف «من بغداد». وإليه مال ابنُ الأثير فى "المثل السائر". وذكر أن الافتتاح بـ«هذا ماعُهِد» قد

---

(١) لعله للملك الكامل ابن الملك العادل الخ كما يفيده ما يأتى فى صلب العهد، تأمل.

ٱبتُذِل بكثرة الآستعمال، وٱبنُ لقمانَ تابعٌ لامتبوع ، على أن إنشاءه يدلُّ على تقدُّمه في الكتابة، وهو وإنْ كان ليس بحجة فابنُ الأثير حجةٌ في هذا الشأن، يُرْجَع إليه ويعمل بقوله ، ويؤيِّده حديثُ : " كُلُّ أمرٍ ذِى بالٍ لا يُبْدَأ فيه بالحَمْدُ لله فهو أجْذَمُ " . ولذلك مال أهلُ العصر إلى آختياره والعملِ عليه ؛ إلا أنّ فيه مخالفةً لما وقع في عهدِ النبي صلى الله عليه وسلم لعَمْرو بن حزم وغيرِه من عُهُود الصحابة على ماتقدم ذكره .

وبكلِّ حال فأهلُ هذا المذهب لايخرُجون فيه عن ضربين : ضرب يعبِّرون عن الأوامر الواردةِ في العهد عن الخليفة بقوله : « أمَره بكذا وأمره بكذا » وهي طريقة المتقدّمين منهم، وعليها كُتِب عهدُ العادل أبي بكر المشار إليه . وضربٌ يعبِّرون بقولهم « أنْ يفعل كذا وكذا » وما يجرى هذا المَجْرى، وهى طريقة أهل زماننا .

وهذه نسخةُ العهد المكتوبِ به من ديوان الخلافة ببغدادَ على هذه الطريقة، للعادل[1] أبي بكرِ بنِ أيُّوب أخى[2] السلطان صلاح الدين « يوسفَ بنِ أيوب » وهى :

الحمدُ لله الذى اطمأنّت القلوبُ بذِكْره، ووجَبَ على الخلائق جزيلُ حَمْده وشُكْره؛ ووسِعتْ كلَّ شيء رحمتُه، وظهرتْ في كل أمرٍ حكمتُه؛ ودلَّ على وَحْدانيّته بعجائبِ ماأحكمه صُنْعا وتَدْبيرا، وخلَق كلَّ شيء فقدّره تقْديرا ؛ مُمِدِّ الشاكرين بنِعَمِه التي لاتُحصَى عَدَدا، وعالمِ الغيبِ الذى لايُظهِرُ على غَيْبه أحدًا ؛ لامُعقِّبَ لحُكْمِه في الإبْرام والنَّقض، ولا يَئُودُه حِفظُ السموات والأرض ؛ تعالى أنْ يُحيط

(١) تقدم قبلا التنبيه عليه . تأمل .

(٢) في الأصول عم السلطان وهو سبق قلم .

بحكمه الضــمير ، وجلّ أن يبلغ وصــفه البيانُ والتفسير : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وهو السَّمِيعُ البَصِــيرُ ﴾ .

والحمدُ لله الذى أرســل محمّدا صلّى الله عليه وسلم بالحقّ بشيرا ونذيرا ، وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا ، وابتعثه هاديا للخلق ، وأوضح به مَناهج الرّشد وسُبُل الحق ، واصطفاه من أشرف الأنساب وأعزّ القبائل ، واجتباه لإيضاح البراهين والدّلائل ، وجعله لديْه أعظمَ الشُّفعاء وأقربَ الوسائل ، فقذف صلّى الله عليــه وسلم بالحقّ على الباطل ، وحمل النّاسَ بشريعته الهادية على المحجّة البيضاء والسَّنن العادل ، حتّى استقام اعوجاجُ كلِّ زائغ ورجَع إلى الحقّ كلُّ حائد عنه ومائل ، وسجدلله كلُّ شيء تتفيّأ ظلاله عن اليمين والشّمائل ، صلّى الله عليــه وعلى آله وصحبه الكرام الأفاضل ، صــلاةً مستمرّة بالغُدُوات والأصائل ، خصوصًا على عمّه وصنو أبيــه العباس بن عبد المطلب الذى اشــتهرت مناقبه فى المجامع والمحافل ، ودرّت ببركة الاستسقاء به أخلافُ السُّحب الهواطل ، وفاز من تنصــيص الرسول على عقبــه فى الخلافة بمــا لم يفز به أحدٌ من الأوائل .

والحمدُ لله الذى حازَ مواريثَ النبوّة والإمامه ، ووفّر جزيلَ الأقسام من الفضــل والكرامه ، لعبده وخليفته ، ووارث نبيّه ومحيي شريعته ، الذى أحلّه الله عزّ وجلّ من معارج الشرف والجلال فى أرفع ذِرْوه ، وأعلقه من حُسْن التوفيق الإلهىّ بأمتن عِصْمة وأوثق عُرْوه ، واستخرجه من أشرف نجار وعُنْصر ، واختصّه بأزكى منحة وأعظم مَفْخَر ، ونصبه للؤمنين علمــا ، واختاره للسلمين إماما وحكما ، وناط به أمر دينه الحنيف ، وجعله قائمــا بالعدل والإنصاف بيــن القوىّ والضّعيف ، إمام المسلمين ، وخليفة ربّ العــالمين ، أبى جعفر المنصور المستنصر بالله أمير المؤمنين ،

آبن الإمام السعيد التقيّ ، أبي نصر محمد الظاهر بأمر الله ، آبن الإمام السعيد الوفيّ أبي العبّاس أحمدَ الناصر لدين الله ، آبن الإمام السعيد أبي محمد المستضيء بأمر الله أمير المؤمنين ، صلواتُ الله عليهم أجمعين[1] ، وعلى آبائه الطاهرين ، الأئمة المهديين ، الذين قضَوْا بالحقّ وبه كانوا يَعْدِلون ، ولقُوا اللهَ تعالى وهو عنهم راضٍ وهم عنه راضُون .

وبعد ، فبحَسَب ما أفاضه اللهُ على أمير المؤمنين ـ صلواتُ الله عليه[1] وسلامُه ـ من خلافته في الأرض ، وفوّضه إلى نَظَره المقدّس في الأمور من الإبرام والنّقض ، وما آستخلصه له من حياطة بلاده وعبَاده ، ووكَله إلى شريف نَظَره ومُقدّس آجتهاده ؛ لا يزال ـ صلوات الله عليه[1] ـ يَكْلأُ العباد بعَين الرِّعايه ، ويسْلُك بهم في المصالح العامّة والخاصّة مذاهبَ الرُّشد وسُبُلَ الهدَايه ؛ وينْشُر عليهم جناحَيْ عَدْله وإحسانه ، ويُنْعِم لهم النظرَ في آرتياد الأُمَناء والصُّلَحاء من خُلَصاء أكفائه وأعوانه ، متخيّرا للاسترعاء مَن آستحْمَد إليه بمشكور المساعي ، وتعرّف إليه في سياسة الرّعايا بجميل الأسباب والدّواعي ؛ وسلك في مفترَض الطاعة الواجبة على الخلائق قَصْدَ السبيل ، وعُلِم منه حُسْنُ الاضطلاع في مصالح المسلمين بالعبْءِ الثقيل ؛ واللهُ عزّ وجلّ يؤيّد آراءَ أمير المؤمنين ـ صلواتُ الله عليه[1] ـ بالتأييد والتّسديد ، ويُمِدّه أبدًا من أقسام التوفيق الإلٰهيّ بالموفور والمَزِيد ؛ ويقرُن عزائمَه الشريفةَ باليُمْن والنَّجاح ، ويُسَنّي له فيما يأتي ويذَر أسبابَ الخير والصَّلاح ؛ وما توفيقُ أمير المؤمنين إلّا بالله عليه يتوكّلُ وإليه يُنيب .

---

(١) لم نقف على استعمال هذه الصيغ في عهود غير الفاطميين إلا في هذا العهد .

ولما وفّق الله تعالى نصير الدين(١) محمد بن سيف الدين أبي بكر بن أيوب من الطاعة المشهوره، والخدم المشكوره، والحظوة في جهاد أعداء الدين بالمساعي الصالحه، والفوز من المراضي الشريفة الإمامية ـ أجلها الله تعالى ـ بالمغانم الجزيلة والصفقة الرابحه؛ لما وصل فيه سالف شريف الآختصاص بآنفه، وشفع تالده في تحصيل مأثور الآستخلاص بطارفه، وآستوجب بسلوكه في الطاعة المفروضة مزيد الإكرام والتفضيل، وضرع في الإنعام عليه بمنشور شريف إمامي يسلك في اتباعه هداه والعمل بمراشده سواء الصراط وقصد السبيل ـ آقتضت الآراء الشريفة المقدسة ـ زادها الله تعالى جلالا متألق الأنوار، وقدسا يتساوى في تعظيمه من هو مستخف بالليل وسارب بالنهار ـ الإيعاز بإجابته إلى ما وجه أمله إلى الإنافة فيه به إليه، والجذب بضبعيه إلى ذروة الآجتباء الذي تظهر أشعة أنواره الباهرة عليه؛ فقلده ـ على خيرة الله تعالى ـ الزعامة والقلات، وأعمال الحرب والمعاون والأحداث والخراج والضياع والصدقات، والجوالي وسائر وجوه الجبايات، والعرض والعطاء، والنفقة في الأولياء، والمظالم والحسبة في بلاده، وما يفتتحه ويستولي عليه من بلاد الفرنج الملاعين، وبلاد من تبرز إليه الأوامر الشريفة بقصده من الشاذين عن الإجماع المنعقد من المسلمين، و[من] يتعدى حدود الله تعالى بمخالفة من يصل(٢) من الأعمال الصالحات بولائه المفروض على الخلائق مقبوله، وطاعته ضاعف الله جلاله بطاعته وطاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم موصوله؛ حيث قال عز من قائل: ﴿يأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم﴾. وآعتمد ـ صلوات الله عليه وسلامه ـ في ذلك على حسن نظره ومدد رعايته، وألقى مقاليد التفويض إلى وفور آجتهاده وكمال سياسته؛ وخصه من هذا الإنعام الجزيل بما

---

(١) المشهور ناصر الدين.

يبقى له على تعاقب الدهر واستمراره، ويخلّد له على ممرّ الزمان حسن ذكره وجزيل فخاره؛ وحباه بتقليد يوطّد له قواعد الممالك، ويفتح بإقليده رتاج الأبواب والمسالك؛ ويفيد قاعدته فى بلاده زيادة تقرير وتمهيد، ويطير به صيته فى كلّ قريب وبعيد؛ ووسمه بالملك الأجلّ، السيد، الكامل، المجاهد، المرابط، نصير الدين، ركن الإسلام، أثير الأنام، تاج الملوك والسلاطين، قامع الكفرة والمشركين، قاهر الخوارج والمتمرّدين، غازى بك محمد، بن أبى بكر، بن أيوب، معين أمير المؤمنين؛ رعاية لسوابق خدمه وخدم أسلافه وآبائه، عن وفور اجتبائه، وكمال ازدلافه؛ وإنافة من ذروة القرب إلى محلّ كريم، واختصاصا له بالإحسان الذى لا يلقّاه إلّا من هو كما قال تعالى: ﴿ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ . وثوقا بصحّة ديانته التى يسلك فيها سواء سبيله، واستنامة إلى أمانته فى الخدمة التى ينصح فيها لله تعالى ولرسوله؛ وركونا إلى [كون] الإنعام عليه موضوعا بحمد الله تعالى فى أحسن موضع، واقعا به لديه فى خير مستقرّ ومستودع.

وأمير المؤمنين ـ صلوات الله عليه (لا زالت الخيرة موصولة بآرائه، والتأييد الإلهىّ مقرونا بإنفاذه وإمضائه) يستمدّ من الله عزّ وجلّ حسن الإعانة فى اصطفائه الذى اقتضاه نظره الشريف واعتاده، وأدّى إليه ارتياده المقدّس الإمامىّ واجتهاده؛ وحسب أمير المؤمنين الله ونعم الوكيل.

أمره بتقوى الله تعالى التى هى الجنّة الواقيه، والنعمة الباقيه؛ والملجأ المنيع، والعماد الرفيع؛ والذخيرة النافعة فى السرّ والنجوى، والجذوة المقتبسة من قوله سبحانه: ﴿ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ ﴾ وأن يدّرع بشعارها، فى جميع الأقوال والأفعال، ويهتدى بأنوارها، فى مشكلات الأمور والأحوال؛ وأن يعمل بها سرّا

وجَهْرا، ويشرحَ للقيام بحُدُودها الواجبة صَــدْرا؛ قال الله تعالى : ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللهَ يُكَفِّرْ عنه سيِّئاتِهِ ويُعْظِمْ لَهُ أجرا ﴾ .

وأمره بتلاوة كتاب الله متدبِّرا غوامِضَ عجائبه ، سالكًا سبيلَ الرَّشاد والهِـداية في العمَلِ به ؛ وأن يجعله مثالًا يتَّبِعه ويقتفيه ، ودليـلاً يهتدى بمَراشــده الواضحة في أوامره ونَوَاهيه ؛ فإنه الثَّقَل الأعظم ، وسببُ الله المُحْكَم ، والنورُ الذى يهـدى به إلى التى هى أقوَم ؛ ضرَبَ الله تعالى فيــه لعباده جوامِعَ الأمثال ، وبيّن لهم بهُـداه الرُّشْد والضَّلال ، وفرّق بدلائله الواضحة بينَ الحرام والحَلال ؛ فقال عز من قائل : ﴿ هٰذَا بَيانٌ لِلنّاس وهُدًى ومَوْعِظَةٌ لِلمُتَّقِين ﴾ . وقال تعالى : ﴿ كِتَابٌ أنزَلْنَاهُ إلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آياتِه ولِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الألبَاب ﴾ .

وأمره بالمحافظة على مَفْروض الصلوات ، والدُّخول فيها على أكمل هيئة من قَوانِين الخُشُوع والإخْبات ، وأن يكونَ نظَرُه فى مَوْضع سجوده من الأرض ، وأن يمثّل لنفسه فى ذلك موقِفَه بينَ يدَيِ الله تعالى يوم العَرْض ؛ قال الله تعــالى : ﴿ قَدْ أفْلَحَ المؤْمِنُون الّذِينَ هُمْ فِى صَلاتِهِمْ خاشِعُون ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ إنَّ الصَّلاةَ كانَتْ على المُؤْمنين كِتَاباً مَوْقُوتا ﴾ . وأن لايشتغلَ بشاغِل عن أداء فُرُوضها الواجبه ، ولا يَلْهُوَ بسببٍ عن إقامة سُنَنها الراتبه ؛ فإنها عمادُ الدين الذى تمّتْ أعاليه ، ومِهادُ الشرع الذى تمّت قواعدُه ومَبانيه ؛ قال الله تعــالى : ﴿ حافِظُوا عَلَى الصَّلَوات والصَّلاةِ الوُسْطَى وقُومُوا لِلهِ قانِتِين ﴾ ، وقال سبحانه : ﴿ إنَّ الصَّلاةَ تَنْهَى عن الفَحْشاءِ والمُنْكَر ﴾ .

وأمره أن يسعى إلى صلوات الجُمَع والأعياد ، ويقُومَ فى ذلك بما فرضه اللهُ تعالى عليه وعلى العباد ، وأن يتوجّه إلى الجَوامع والمساجد متواضِعا ، ويَبْرُزَ إلى المصلّيات الضاحِية فى الأعياد خاشــعا ؛ وأنْ يُحافِظَ فى تشييد قواعدِ الإســلام على الواجب

والمندوب ، ويعظّم باعتماد ذلك شعائر الله التي هي من تقوى القلوب ؛ وأن يشمل بوافر اهتمامه واعتنائه ، وكمال نظره وإرعائه ؛ بيوت الله التي هي محالّ البركات ، ومواطن العبادات ؛ والمساجد التي تأكد في تعظيمها وإجلالها حكمه ، والبيوت التي أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه ؛ وأن يرتّب لها من الخدم من يتبتّل لإزالة أدناسها ، ويتصدّى لإذكاء مصابيحها في الظلام وإيناسها ؛ ويقوم لها بما تحتاج إليه من أسباب الصلاح والعمارات ، ويحضر إليها مايليق من الفرش والكسوات .

وأمره باتّباع سنة النبيّ صلى الله عليه وسلم التي أوضح جددها ، وثقّف ــ عليه السلام ــ أودها ، وأن يعتمد فيها على الأسانيد التي نقلها الثقات ، والأحاديث التي صحّت بالطرق السليمة والروايات ؛ وأن يقتدى بما جاءت به من مكارم الأخلاق التي ندب صلى الله عليه وسلم إلى التمسك بسببها ، ورغّب أمته في الأخذ بها والعمل بأدبها ؛ قال الله تعالى : ﴿ وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ﴾ . وقال سبحانه وتعالى : ﴿ من يطع الرسول فقد أطاع الله ﴾ .

وأمره بمجالسة أهل العلم والدين ، وأولى الإخلاص في طاعة الله تعالى واليقين ؛ واستشارتهم في عوارض الشكّ والالتباس ، والعمل بآرائهم في التمثيل والقياس ؛ فإن الاستشارة لهم عين الهداية ، وأمن من الضلالة والغواية ؛ وبها تلقح عقم الأفهام والألباب ، ويقتدح زناد الرشد والصواب ؛ قال الله تعالى في الإرشاد إلى فضلها ، والأمر في التمسك بحبلها : ﴿ وشاورهم في الأمر ﴾ .

وأمره بمراعاة أحوال الجند والعسكر في ثغوره ، وأن يشملهم بحسن نظره وجميل تدبيره ؛ مستصلحا نياتهم بإدامة التلطف والتعهّد ، مستوضحا أحوالهم بمواصلة التفحّص والتفقد ؛ وأن يسوسهم سياسة تبعثهم على سلوك المنهج السليم ، ويهديهم

فى آنتظامها وآتساقها إلى الصّراط المستقيم ، ويحملهم على القيام بشرائط الخدم ، والتمسّك منها بأقوى الأسباب وأمتن العصم ، ويدعوهم إلى مصلحة التواصل والائتلاف ، ويصدّهم عن موجبات التخاذل والآختلاف ، وأن يعتمد فيهم شرائط الحزم فى الإعطاء والمنع ، وما تقتضيه مصلحة أحوالهم من أسباب الخفض والرفع ، وأن يثيب المحسن على إحسانه ، ويسبل على المسيء ماوسعه العفو وآحتمله الأمر ذيل صفحه وآمتنانه ، وأن يأخذ برأى ذوى التجارب منهم والحنكة ، ويجتنى بمشاورتهم فى الأمر ثمر الشّركة ، إذ فى ذلك أمنٌ من خطإ الانفراد ، وتزحزح عن مقام الزيغ والآستبداد .

وأمره بالتبتّل لمـا يليه من البـلاد ، ويتّصـل بنواحيه من ثغور أولى الشّرك والعناد ، وأن يصرف مجامع الآلتفات إليهـا ، ويخصّها بوفور الاهتمام بهـا والتطلّع عليها ، وأن يشمل مابـلاده من الحصون والمعاقل بالإحكام والإتقان ، وينتهى فى أسباب مصالحها إلى غاية الوسع ونهـاية الإمكان ، وأن يشحنها بالميرة الكثيرة والذّخائر ، ويمدّها من الأسلحة والآلات بالعدد المستصلح الوافر ، وأن يتخيّر لحراستها [من يختاره] من الأمناء الثّقاه ، ولسدّها من ينتخبه من الشّجعان الكماه ، وأن يؤكّد عليهم فى آستعمال أسباب الحفظة والآستظهار ، ويوقظهم للاحتراس من غوائل الغفلة والآغترار ، وأن يكون المشار إليهم ممن ربوا فى ممـارسة الحروب على مكابدة الشدائد ، وتدرّبوا فى نصب الحبـائل للشركين والأخذ عليهم بالمراصد ، وأن يعتمد هذا القبيل بمواصلة المدد ، وكثرة العدد ، والتوسعة فى النفقة والعطاء ، والعمل معهم بمـا يقتضيه حالهم وتفاوتهم فى التقصير والغناء ، إذ فى ذلك حسمٌ لمادّة الأطماع فى بلاد الإسلام ، وردٌّ لكيد المعاندين من عبدة الأصنام ، فمعلوم أنّ هذا الفرض أولى ما وجّهت إليـه العنايات وصرفت ، وأحقّ ماقصرت عليـه الهمم

ووُقِفَتْ ؛ فإن الله تعالى جعله من أهمّ الفُروض التى تَحَتّم فيها القيامَ بحقه، وأكبرِ الواجبات التى كَتَبَ العملَ بها على خلقه ؛ فقال سبحانه وتعالى هاديًا فى ذلك إلى سبيل الرشاد، ومحرِّضا لعباده على قيامهم بفُروض الجهاد : ﴿ ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ . وقال تعالى : ﴿ فَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ ﴾ . وقال النبيّ صلّى الله عليه وسلم : "مَنْ نَزَلَ مَنْزِلا يُخِيفُ فيه المُشْرِكِينَ ويُخِيفُونَه، كان له كأجْرِ ساجِدٍ لا يرفَعُ رأسَه إلى يوم القيامة، وأجْرِ قائمٍ لا يَقْعُد إلى يوم القيامة، وأجْرِ صائمٍ لا يُفْطِر" . وقال عليه السلام : " غَدْوةٌ فى سبيل الله أو رَوْحةٌ خيرٌ مما طلَعتْ عليه الشمْسُ" . هذا قوله صلى الله عليه وسلم فى حقّ من سمِع هذه المقالة فوقف لديها، فكيف بمن كان كما قال عليه السلام : " ألا أُخْبِرُكم بخَيْر الناس : مُمسكٌ بعِنان فَرَسِه كلّما سَمِع هَيْعةً طارَ إليها " .

وأمره باقتفاءِ أوامرِ الله تعالى فى رَعاياه، والاهتداء إلى رعاية العَدْل والإنصاف والإحسان بمَراشده الواضحة ووَصاياه، وأن يَسْلُك فى السياسة [بهم] سُبُل الصَّلاح، ويشمَلهم بلِين الكَنَف وخَفْض الجَناح، ويَمُدّ ظلّ رِعايته على مُسْلمهم ومُعاهَدهم، ويُزَحزِح الأقذاءَ والشَّوائبَ عن مَناهلهم فى العدل ومَواردهم، وينظُر فى مَصالحهم نظرا يُساوِى فيه بين الضعيف والقَوِىّ، ويقوِّمَ بأوَدهم قيامًا يهتدى به ويهديهم فيه إلى الصِّراط السَّوِىّ، قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ .

وأمره باعتبار أسباب الإستظهار والأمنة، وٱستقصاء الطاعة المستطاعة والقدرة الممكنة، في المساعدة على قضاء تفث حجاج بيت الله الحرام، وزوار نبيه عليه أفضل الصلاة والسـلام؛ وأن يمـدهم بالإعانة في ذلك على تحقيق الرجاء وبلوغ المرام، ويحـرسهم من التخطف والأذى في حالتي الظعن والمقـام؛ فإن الحج أحد أركان الدين المشيده، وفروضه الواجبـة المؤكده؛ قال الله تعـالى: ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى النَّـاسِ حِجُّ الْبَيْتِ ﴾.

وأمره بتقوية أيدي العاملين بحكم الشرع في الرعايا، وتنفيـذ مايصدر عنهم من الأحكام والقضايا، والعمل بأقوالهم فيما يثبت لذوي الاستحقاق، والشد على أيديهم فيما يرونه من المنع والإطلاق؛ وأنه متى تأخر أحد الخصمين عن إجابة داعي الحكم، أو تقاعس في ذلك لمـا يلزم من الأداء والعـدم، جذبه بعنان القسر إلى مجلس الشرع، واضطره بقوة الإنصاف إلى الأداء بعـد المنع. وأن يتوخى عمـال الوقوف التي تقرب المتقربون بهـا، واستمسكوا في ثواب الله بمتين حبلها. وأن يمدهم بجميل المعاونة والمساعده، وحسن الموازرة والمعاضده، في الأسباب التي تؤذن بالعمارة والاستنماء، وتعود عليها بالمصلحة والاستخلاص والاستيفاء؛ قال الله تعالى: ﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ ﴾.

وأمره أن يتخير من أولي الكفاءة والنزاهة من يستخلصه للخـدم والأعمال، والقيام بالواجب: من أداء الأمانة والحراسة والتمييز لبيت المال. وأن يكونوا من ذوي الاضطلاع بشرائط الخـدم المعينة وأمورها، والمهتدين إلى مسالك صلاحها وتدبيرها. وأن يتقدم إليهم بأخذ الحقوق من وجوهها المتيقنه، وجبايتها في أوقاتها المعينه؛ إذ ذاك من لوازم مصالح الجند ووفور الاستظهار، وموجبات قوة الشوكة

بكثير الأعوان والأنصار، وأسباب الحفظة (١) التي تُحمى بها البلادُ والأمصار، وبأمرهم بالجرى فى الطسوق (٢) والشروط على النمط المعتاد، والقيام فى مصالح الأعمال على أقدام الجد والاجتهاد . وإلى العاملين على الصدقات بأخذ الزكوات على مشروع السنن المهيع ، وقصد الصراط المتبع ، من غير عدول فى ذلك عن المنهاج الشرعى ، أو تساهل فى تبديل حكمها المفروض وقانونها المرعى ؛ فإذا أُخذت من أربابها ، الذين يُطهَّرون ويُزكَّون بها ، كان العمل فى صرفها إلى مستحقيها بحكم الشريعة النبوية وموجبها . وإلى جباة الجزية من أهل الذمة بالمطالبة بأدائها فى أول السنه ، واستيفائها منهم على حسب أحوالهم بحكم العادة فى الثروة والمسكنه ؛ إجراءً فى ذلك على حكم الاستمرار والانتظام ، ومحافظةً على عظيم شعائر الإسلام .

وأمره أن يتطلع على أحوال كل من يستعمله فى أمر من الأمور ، ويصرفه فى مصلحة من مصالح الجمهور ، تطلُّعا يقتضى الوقوف على حقائق أماناتهم ، وموجب تهذيبهم فى حركاتهم وسكناتهم ؛ ذهابا مع النصح لله تعالى فى بريّته ، وعملا فيه بقول النبى صلى الله عليه وسلم : " كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته " .

وأمره أن يستصلح من ذوى الاضطلاع والغناء ، من يرتب العرض والعطاء ، والنفقة فى الأولياء ؛ وأن يكونوا من المشهورين بالحزم والبصيره ، والموسومين فى المناصحة بإخلاص الطوية وإصفاء السريره ؛ حالين من الأمانة والصون بما يزين ، نا كبين عن مظان الشبه والطمع الذى يصم ويشين ؛ وأن يأمرهم باتباع عادات أمثالهم فى ضبط أسماء الرجال ، وتحلية الأشخاص والأشكال ؛ واعتبار شيات

(١) فى القاموس « الحفظة بالكسر والحفيظة الحمية والغضب » .

(٢) الطسوق جمع طسق وهو شبه الخراج له مقدار معلوم وليس بعربى خالص . أنظر اللسان .

الخيول وإثبـات أعدادها ، وتحريض الجند على تخيرها واقتناء جيـادها ، وبذل الجهـد فى قيامهم من الكراع واليزك والسلاح بما يلزمهم ، والعمل بقوله تعالى : ﴿ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيـل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم ﴾ . فاذا نطقت جرائد الجند المذكورين بما أثبت لديهم ، وحقق الاعتبار والعيان قيامهم بما وجب عليهم ، أطلقت لهم المعـايش والأرزاق بحسب إقراراتهـم ، وأوصلت اليهـم بمقتضى واجباتهم واستحقاقاتهم : فإن هذا الحال أصل حراسة البلاد والعباد ، وقيـام الأمر بما أوجبه الله تعالى من الاستعداد بفرض الجهاد ، قال الله تعالى : ﴿ والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين ﴾ .

وأمره بتفويض أمر الحسبة إلى من يكون بأمرها مضطلعا ، وللسنة النبوية فى إقامـة حدودها متبعـا ، فيعتمد فى الكشف عن أحوال العـامة فى تصرفاتهـا الواجب ، ويسلك فى التطلع إلى معاملاتهـم السـبيل الواضح والسنن اللاحب ، فى الأسواق لاعتبار المكاييل والموازين . ويقيـمه [مقامه] (١) فى مؤاخذة المطففين وتأديبهم بما تقتضيه شريعة الدين ، ويحذرهم فى تعدى حدود الإنصاف شدة نكاله ، ويقابل المستحق المؤاخذة بما يرتدع به الجمع الكثير من أمثاله ، قال الله تعالى : ﴿ أوفوا الكيل ولا تكونوا من المخسرين وزنوا بالقسطاس المستقيم ولا تبخسوا النـاس أشياءهم ولا تعثوا فى الأرض مفسـديـن ﴾ . وقال سبحانه : ﴿ ويل للمطففين الذين إذا اكتالوا على النـاس يستوفون وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون ألا يظن أولئك أنهـم مبعوثون ليوم عظيم يوم يقوم النـاس لرب العالمين ﴾ .

(١) بياض فى الأصل ولعله «ويطوف فى الأسواق» الخ .

فليتولَّ الملكُ السيِّدُ، الكاملُ، المجاهدُ، المرابطُ، نصيرُ الدين، ركنُ الإسلام، أثيرُ الأنام، جلالُ الدوله، فخر الملّه، عزُّ الأمة، سندُ الخلافه، تاجُ الملوك والسلاطين، قامعُ الكفرة والمشركين، قاهرُ الخوارج والمتمرّدين، أميرُ المجاهدين، غازى بك معين أمير المؤمنين – ماقلَّده عبدُ الله وخليفتُه فى أرضه، القائمُ له بحقّه الواجبِ وفرضه، أبو جعفرٍ المنصورُ المستنصرُ بالله أمير المؤمنين، تقليدَ مطمئنٍّ بالإيمان، وينصحُ لله ولرسوله وخليفته – صلواتُ الله عليه – فى السّرِّ والإعلان، وليشرحْ بما فُوِّض إليه من هذه الأمورِ صدرا، وليَقُم بالواجب عليه من شُكْر هذا الإنعام الجزيلِ سِرًّا وجهْرا، وليَعملْ بهذه الوصايا الشريفةِ الإماميّه، وليَقْفُ آثارَ مَراشِدها المقدّسةِ النبويّه، وليُظهر من أثَر الجِدّ فى هذا الأمر والاجتهاد، وتحقيق النظر الجميل لله والإرشاد، مايكون دليلًا على تأييد الرأى الأشرف المقدّس – أجله الله تعالى – فى اصطناعه واستكفائه، وإصابةِ مَواقع النُّجح والرُّشد فى التفويض إلى حُسن قيامه وكمالِ اعتنائه، فَليَقْدُر النعمةَ فى هذه الحال حَقّ قدرها، وليَمترِ بأداء الواجب بما غلَب عليه من جزيل الشكر غَزيرَ دَرّها، وليُطالِعْ مع الأوقات بما يُشكِل عليه من الأمور الغَوامض، وليُنْهِ إلى العلوم الشريفةِ المقدّسة – أجلها الله تعالى – مايلتبِس عليه من الشكوك والغَوامض (؟)، ليَرِدَ عليه من الأمثلة مايُوضِّح له وجهَ الصواب فى الأمور، ويستمِدَّ من المَراشد الشريفةِ التى هى شفاءٌ لما فى الصدور بما يكونُ ورُوده عليه وتتابعُه إليه نُورًا على نور، إن شاء الله تعالى.

✦✦✦

وهذه نسخة العهد الذى كتب به الصاحبُ فخرُ الدين: إبراهيم بن لُقْمانَ، للظاهر بيبرسَ، التى أنكر عليه القاضى شهابُ الدين بنُ فضل الله فى "التعريف" ابتداءها بخُطْبة، وهى:

الحمدُ لله الذى أضـفى [على الإســلام] (١) ملابِسَ الشَّرف ، وأظهر دُرَرَه وكانتْ خافيةً بِمـا آستَحْكَم عليها من الصَّدَف ، وشـيَّدَ ما وهىٰ من عَلائه حتى أنسىٰ ذِكْرَ ما سلَف ، وقيَّضَ لنصره ملوكًا آتفق علىٰ طاعتهم مَن آختلَف .

أحمده علىٰ نِعَمه التى رتَعت الأعينُ منها فى أرْوَض الأُنُف ، وألطافِه التى وقَفتِ الشُّـكْرَ عليها فليس له عنهـا مُنْصَرَف ، وأشهد أن لا إلٰه إلا الله وحدَه لا شريكَ له شهادةً توجب من المَخاوِف أمْنــا ، وتُسَهِّل من الأمور ما كان حَزْنا ، وأشهد أنّ محمدا عبــدُه ورسوله الذى جبَر من الدِّين وَهْنا ، وصــفيُّه الذى أظهر من المَكَارم فُنُونا لافَنًا ، صلَّى الله عليه وعلىٰ آله الذين أضحت مناقبُهم باقيــةً لاتَفْنىٰ ، وأصحابِه الذين أحسنوا فى الدِّين فاستحقُّوا الزيادةَ من الحُسْنىٰ .

وبعد ، فإن أوْلىٰ الأولياء بتقديم ذِكْره ، وأحقَّهم أن يُصْبِح القلم ساجدًا وراكعا فى تسطيرِ مَناقبِه وبِرّه ، مَنْ سـعىٰ فأضحىٰ بسعيه الجميل متقدِّما ، ودَعا إلىٰ طاعته فأجاب مَنْ كانــ مُنْجدا ومُتْهِما ، وما بدتْ يدٌ من المَكْرمات إلّا كان لهـا زَنْدا ومِعْصَما ، ولا آستباحَ بسيفه حِمىٰ وَغًى إلا أضرمه نارًا وأجراه دَما .

ولـمـا كانت هذه المناقبُ الشريفةُ مختصةً بالمقام العالى ، المولوى ، السلطانى ، المَلَكى ، الظاهرى ، الرُّكنى ، شرفه الله تعـالىٰ وأعلاه ، ذَكَرَه الديوانُ العزيز ، النبوىُّ ، الإمامىّ ، المستنصرىّ ـ أعز الله تعالىٰ سلطانَه ـ تنْوِيها بشريفِ قَدْره ، وآعترافا بصـنعه الذى تنْفَد العبارة المُسْهِبة ولا تقوم بشكره ، وكيف لا ؟ وقد أقام الدولة العبّاســيّة بعد أن أقعدتْها زَمانةُ الزَّمان ، وأذهبتْ ما كانــ لها من مَحاسن وإحسان ، وآستعتب دهرَها المسيءَ فأعتَب ، وأرضىٰ عنها زمانَها وقد كانَ صالَ

(١) إضافة لاستقامة الكلام .

عليها صَوْلة مُغْضَب ؛ فأعاده لها سِلْما بعد أن كان عليها حَرْبا ، وصَرَفَ اهتمامَه فرجع كلُّ مُتضايِق من أمورها واسعًا رَحْبا ، ومنَحَ أميرَ المؤمنين عند القُدُوم عليه حُنُوّا وعَطْفا ، وأظهر له من الوَلَاء رَغْبةً في ثواب الله مالا يَخْفَى ، وأبدَى من الاهتمام بالبَيْعة أمرًا لو رامَهُ غيره لامتنَع عليه ، ولو تمسَّك بحبله متمسِّكٌ لانقطَع به قبلَ الوُصُول إليه ؛ لكنّ الله ادَّخر هذه الحسنةَ ليُثَقِّل بها في الميزان ثوابُه ، ويُخَفِّف بها يومَ القيامة حسابُه والسعيدُ من خُفِّف حسابُه ؛ فهذه مَنْقَبة أبَى اللهُ إلا أن يُخَلِّدها في صَحيفة صُنْعه ، وتكرمةٌ فضتْ لهذا البيتِ الشريف بجَمْعه بعد أن حصَل الإياسُ من جَمْعه ، وأمير المؤمنين يشكُر لك هذه الصَّنائع ، ويعرِف أنه لولا اهتمامُك لاتَّسع الخَرْقُ على الراقع ؛ وقد قلَّدك الديارَ المصريّةَ والبلادَ الشامية ، والدِّيار البَكْرِيَّة والحجازية واليَمَنيّة والفُراتيَّة ، وما يتجدّد من الفُتُوحات غَوْرا ونَجْدا ، وفوّض أمر جُنْدها ورَعاياها إليك حين أصبحتَ في المَكارم فَرْدا ، ولم يَجْعَلْ منها بلدًا من البلاد ولا حِصْنا من الحصون مُسْتَثْنَى ، ولا جهةً من الجهات تُعَدُّ في الأعلَى ولا الأدنَى .

فلاحِظْ أمورَ الأمّة فقد أصبحْتَ لها حاملا ، وخَلِّص نفسك من التَّبِعات اليومَ ففي غدٍ تكونُ مَسْئُولا لا سائلا ، ودَعْ الاغترارَ بالدنيا فما نال أحدٌ منها طائلا ، وما رآها أحدٌ بعين الحقّ إلا رآها خيالًا زائلا ؛ فالسعيدُ مَنْ قطَع آمالَه الموصُولة ، وقدّم لنفسه زادَ التقوَى فتَقْدِمةُ غيرِ التقوَى مردودةٌ لا مقبولة ؛ وابْسُطْ يَدَك بالإحسان والعدْل فقد أمر اللهُ بالعدْل والإحسان في مواضِعَ من القرآن ، وكَفَّر به عن المرْء ذُنوبا وآثامًا ، وجعل يومًا واحدًا فيه كعِبادة العابِد ستِّين عامًا ؛ وما سلَك أحدٌ سبيلَ العدْل والإحسان ، إلا واجتُنِيَتْ ثمارُه من أفنان ؛ وتراجَعَ الأمرُ فيه بعد تداعِي أركانه وهو مشَيَّدُ الأركان ، وتحصَّن به من حوادث الزمان ؛ وكانت

أيّامُه فى الأيام أبهى من الأعيـاد ، وأحسن فى العيون من الغُرر فى أوجُه الجياد ، وأحلى من العقود إذا حُلّى بها عَطَل الأجياد .

وهـذه الأقاليم المنوطةُ بك تحتاج إلى نُوّاب وحُكّام، وأصحاب رأى من أصحاب السيوف والأقلام ؛ فإذا آستعنتَ بأحد منهم فى أمورك فنَقّب عليه تنقيبا ، وآجعل عليه فى تصرّفاته رقيبا ، وسَلْ عن أحواله ففى القيامة تكون عنه مسئولا وبما أجرم مطلوبا ، ولا تُولّ منهـم إلّا من تكونُ مَساعيه حسـنات لك لا ذنوبا ؛ وأمُرهم بالأناة فى الأمور والرِّفق ، ومخالفة الهوى إذا ظهرتْ أدلّةُ الحقّ ، وأن يقابِلوا الضعفاء فى حوائجهم بالثّغر الباسم والوجه الطَّلْق ، وأن لا يعاملوا أحدا على الإحسان والإساءة إلّا بما يستحقّ ، وأن يكونوا لمن تحتَ أيديهم من الرعية إخوانا ، وأن يُوسِعُوهم بِرّا وإحسانا ، وأن لا يستحِلّوا حُرُماتِهم إذا آستحلّ الزمانُ لهم حِرمانا ، فالمسلمُ أخو المسلم ولو كان عليه أميرا وسلطانا ، والسعيدُ من نَسَج وِلايتَـه فى الخير على مِنواله ، وآستَنّ بسُنّته فى تصرّفاته وأحواله ، وتحمّل عنه ماتعجِز قدرتُه عن حَمْل أثقاله .

وممـا يُؤمَرون به أن يُمحَى ماأُحدِث من سيّئ السُّنَن ، وجُدّد من المظالم التى هى من أعظم المِحَن ، وأن يُشترَى بإبطالها المحامدُ رخيصةً بأغلى ثمن ؛ ومهما جُبِي منها من الأموال فإنمـا هى باقيةٌ فى الذِّمَم حاصله ، وأجيادُ الخزائن إن أضحتْ بها حالية فإنمـا هى على الحقيقة منها عاطلة ؛ وهل أشقى ممن آحتقب إثمـا ، وآكتسب بالمَساعى الذميمة ذمّا ، وجعـل السّوادَ الأعظم [له] يومَ القيامة خَصْما ، وتحمّل ظُلْمَ الناس فيما صدَر عنه من أعمـاله ﴿ وقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴾ .

وحقيق بالمقـام الشريف المولوىّ ، السـلطانىّ ، الملَكىّ ، الظاهرىّ ، الرُّكنىّ أن تكون ظُلامات الأنام مردُودةً بعَدْله ، وطاعتُه تُخفِّف ثِقْلا لاطاقة لهم بحَمْـله ؛

فقد أضحى على الإحسان قادرا ، وصنعت له الأيامُ مالم تصنعه لمن تقدم من الملوك وإن جاء آخرا ، فاحمد الله على أن وصل إلى جنابك إمامُ هدًى يوجب لك مزيّة التقديم ، وينبّه الخلائق على ما خصّك الله به من الفضل العظيم ، وهذه أمور يجب أن تلاحظ وترعى ، ويوالى عليها حمدُ الله فإن الحمد يجبُ عليها عقلا وشرعا ، وقد تبين لك أنك صرتَ فى الأمور أصلا وصار غيرك فرعا .

ومما يجب أيضا تقديمُ ذكره أمرُ الجهاد الذى أضحى على الأمة فرضا ، وهو العمل الذى يرجع به مسودُّ الصحائف مبيضّا ، وقد وعد اللهُ المجاهدين بالأجر العظيم ، وأعدّ لهم عنده المقام الكريم ، وخصّهم بالجنة التى لالغوَ فيها ولا تأثيم ، وقد تقدمتْ لك فى الجهاد يدٌ بيضاءُ أسرعتْ فى سواد الحسّاد ، وعرفتْ منك عزمةٌ وهى أمضى مما تجنّه ضمائرُ الأغماد ، واشتهرتْ لك مواقفُ فى القتال وهى أشهرُ وأشهى إلى القلوب من الأعياد ، وبك صانَ الله حِمى الإسلام أن يتبذّل ، وبعزمك حفظ على المسلمين نظامَ هذه الدُّوَل ، وسيفُك أثّر فى قلوب الكافرين قروحا لاتندمل ، وبك يرجى أن يرجع مقرُّ الخلافة إلى ماكان عليه فى الأيام الأُوَل ؛ فأيقظ لنصرة الإسلام جفنا ماكان غافيا ولا هاجعا ، وكن فى مجاهدة أعداء الله إماما متبوعا لا تابعا ، وأيّد كلمة التوحيد فما تجد فى تأييدها إلا مطيعا سامعا ؛ ولا تخلِ الثغورَ من اهتمامٍ بأمرها تبسم له الثغور ، واحتفالٍ يبدّل ماد جا من ظلماتها بالنور ، فهذه حصونٌ بها يحصُل الانتفاع ، وعلى العدوّ داعيةُ افتراقٍ لا اجتماع ، وأولاها بالاهتمام ماكان البحرُ له مجاورا ، والعدوُّ إليه ملتفتا ناظرا ، لاسيّما ثغورُ الديارِ المصرية فإنّ العدوّ وصل إليها رابحا وراح خاسرا ، واستأصلهم اللهُ فيها حتى ما أقال منهم عاثرا ؛ وكذلك الأسطولُ الذى ترى خيله كالأهلّة ، وركائبه سابقة بغير سائقٍ مستقِلّة ، وهو أخو الجيش السليمانىّ فإنّ ذاك غدت الريحُ له حاملة ،

وهــذا تكفّلتْ بحَمْـله الرِّياح السابله ؛ وإذا لحَظَها الطَّرْف جارِيةً فى البحر كانت كالأعْلام، وإذا شبّهها قال: هذه ليالٍ تُقلَّـعُ بالأيام؛ وقد سنَّى الله لك من السعادة كلّ مَطْلَب، وآتاكَ من أصالة الرأى الذى يُريك المُغَيَّب، وبسطَ بعد القبض منك الأمَل، ونَشَّط بالسعادة ما كان من كَسَل، وهداكَ إلى مَنَاهِج الحقّ ومازلتَ مهتدياً إليها، وألزمك المَرَاشِدَ فلا تحتاجُ إلى تنبيه عليها؛ والله تعالى يُمِدّك بأسباب نصره، ويُوزِعُكَ شُكر نِعَمه فإنّ النعمةَ تَسْتَتِمُّ بشكره؛ إن شاء الله تعالى .

✤

وهذه نسخة عهد كتب بها القاضى محيى الدين بن عبد الظاهر، للسلطان الملك المنصور قلاوون، عن الخليفة الإمام أبى العبّـاس أحمد الحـاكم بأمر الله المتقدم ذكره على هذه الطريقة، وهى :

الحمـدُ لله الذى جعـل آيةَ السـيف ناسخةً لكثيرٍ من الآيات، وفاسخةً لعُـقُود أولى الشَّـكِّ والشُّبُهات، الذى رفع بعض الخلْق على بعض دَرَجات، وأهّـلَ لأمور البـلاد والعباد مَنْ جاءت خَوارقُ تَملُّكه بالذى إنْ لم يكُن من المُعْجِزات فمن الكَرامات .

ثم الحمدُ لله الذى جعـل الخلافةَ العبّاسـية بعد القُطُوب حَسَـنَةَ الابْتِسـام، وبعد الشُّحوب جميـلةَ الاتّسام، وبعـد التشريد كلُّ دار إسـلام لهـا أعظمُ من دار السَّـــلام .

والحمـدُ لله على أن أشهدَها مَصارِعَ أعدائها، وأحمَدَ لهـا عَواقِبَ إعادةِ نصرها وإبدائها، وردّ تشـتيتَها بعد أن ظَنّ كـلُّ أحد أنّ شِـعارَها الأسودَ ما بَقِىَ منه إلا ماصانَتْه العيونُ فى جُفُونها والقُلوبُ فى سُوَيْدائها . ونشهد أن لا إلهَ إلا الله وحْدَه

لاشريكَ له شهادةً يتلذّذ بذكرها اللّسان، وتتعطّر بنفحاتها الأفواهُ والأردان، وتتلقّاها ملائكةُ القَبول فترفعُها إلى أعلى مكان . ونصلّى على سيدنا محمد الذى أكرمنا الله به وشرّف لنا الأنساب ، وأعزّنا به حتّى نزل فينا مُحْكَمُ الكتاب ؛ صلّى الله عليه وعلى آله الذين أنجابَ الدّينُ منهم عن أنجاب ، ورضىَ الله عن صحابته الذين هم خيرُ صِحَاب ؛ صلاةً ورضوانا يُوفّى قائلُها أجرَه يومَ الحساب من الكثرة بغير حساب (؟) يومَ الحساب .

وبعدَ حمدِ الله على أن أحمَدَ عواقبَ الأمور، وأظهر للإسلام سُلطاناً آشتدّت به للأمة الظّهور وشُفيت الصُّدور ، وأقام الخلافةَ العبّاسية فى هذا الزمن بالمنصور كما أقامها فيما مضى بالمنصُور، وآختار لإعلانِ دَعْوتها مَنْ يُحْيِي معالِمَها بعد العَفَاء ورُسومَها بعد الدُّثور ، وجمع لها الآنَ ماكان جَمَع عليها فيما قبلُ من خِلاف كلِّ ناجم، ومَنَحها ماكانتْ تبشرها به صُحُفُ المَلاحم[1] ، وأنفذَ كلمتَها فى ممالك الدّولة العلوية بغير سيف مَشْحوذ ماضى العزائم، ومازَجَ بين طاعتها فى القلوب وذكرها فى الألسنة وكيف لا والمنصورُ هو الحاكم ؟ ؛ وأخرج لحياطة الأمّة المحمّديّة مَلِكاً تُقسم البركاتُ عن يمينه ، وتُقْسِم السعادةُ بنور جبينه ؛ وتُقهَر الأعداءُ بفتكاته ، وتُقهر عقائلُ المَعاقل بأصغر راياته ؛ ذو السعد الذى مازال نُوره يَشِفُّ حتّى ظهر، ومُعْجِزُه يرِفُّ إلى أن بَهَر ؛ وجوهَرُه ينتقل من جَيْد إلى جَيْد حتّى علا الجبين ، وسِرّه يكْمُنُ فى قلب بعد قلب حتّى عُلِم ــ والحمدُ لله ــ نَبأُ تمكينه فى الأرض بعدَ حين ؛ فاختاره اللهُ على عِلْم ، وآصْطفاه من بين عباده بما جَبَلَه اللهُ عليه من كَرَم وشجاعةٍ وحِلْم ؛ وأتى به الأمةَ المحمديةَ فى وقتِ الآحتياج عَوْناً وفى إبّان الآستِظْهار

(١) فى الأصول « من الملاحم » .

غَيْثا ، وفى حين عَيْث الأشبالِ فى غير الاقتراس لَيْثـا ؛ فوجَب علىٰ مَنْ له فى أعناق الأمّة المحمديّة مُبايعةُ رِضوان ، وعند أيْمانهم مصافَقةُ أيمان ؛ ومَنْ وجبَتْ له البيعةُ باستحقاقه لميراثِ مَنْصب النبوه ، ومَنْ تصِحُّ به كلُّ وِلايةٍ شرعيّة يؤخَذ كتابُها منـه بقوّه ؛ ومَنْ هو خليفةُ الزمانــ والعَصْر ، ومن بدَعواته تنزِل بالنصر عليكم معاشرَ الإسلام ملائكةُ النصر ، ومن نسَـبُه بنَسَب نبيكم ــ صلّى الله عليه وسلم ــ مُتَشّج ، وحَسَبُه بحَسَبِه ممتَزِج ، أن يفوِّض مافوّضَه اللهُ إليه من أمْرِ الخلق ، إلىٰ مَنْ يقُوم عنـه بفرضِ الجهاد والعمَل بالحَق ؛ وأن يُولّيـه ولايةً شرعيّة تصِحُّ بهـا الأحكام وتنْضبِط أمورُ الإسلام، وتأتِى هـذه العُصبةُ الإسلاميّةُ يومَ تأتِى كلُّ أمة بإمامهم من طاعةِ خليفتِهم هـذا بخير إمام ؛ وخرج أمْرُ مولانا أميرُ المؤمنين ــ شرَّفه الله ــ أنـــ يكون للمَقرّ العـالى ، المَوْلَوىّ ، السلطانىّ ، المَلَكىّ ، المنصورىّ ، أجلَّه الله ونَصَره ، وأظفَره وأقدره ، وأبده وأيدَه ، كلُّ مافوَّضه الله لمولانا أمير المؤمنين من حُكْم فى الوجود ، وفى التهائم والنُّجود ، وفى المَدائن والخزائن ، وفى الظّواهر والبَواطن ؛ وفيما فتحه اللهُ وفيما سيفتَحُه ، وفيما كان فَسَـد بالكفر والرَّجاءُ من الله أنه سيُصْلِحه ؛ وفى كل جُود ومَنّ ، وفى كلِّ عطاء ومَنٍّ(١) ؛ وفى كل هِبَة وتمليك ، وفى كل تفرُّد بالنَّظَر فى أمور المسلمين بغير شريك ؛ وفى كلِّ تعاهُد ونَبْذ ، وفى كلِّ عطاءٍ وأخْذ ؛ وفى كل عَزْل وتَوليـه ، وفى كل تسليم وتخْليـه ؛ وفى كل إرْفاق وإنْفاق ، وفى كل إنْعـام وإطْلاق ؛ وفى كلِّ تجْـديد وتعويض ، وفى كل حَمْـد وتقْريض ؛ ولايةً عامةً تامّة محكمة محكّمه ، منضدة منظّمه ؛ لايتعقَّبها نَسْخٌ مِنـــ خلفِها ولا من بين يديهـا ؛ ولا يعتَريها فسخٌ يطْرأ عليها ؛ يَزيدها مَرُّ الأيام جدّة يُعاقبها حُسْن شَبَاب ، ولا ينْتهى علىٰ الأعوامِ والأحْقاب ، نعمْ ينتهى إلىٰ مانصبـه اللهُ للإرشاد من سُــنّة وكِتاب ؛

(١) لعل مراده وقطع من منّ الحبل قطعه .

وذلك من شَرْع لله أقامه للهداية عَلَماً، وجعله إلى احتياز الثواب سُلَّماً.
فالواجب أن يعمل بجزئيات أمره وكُلِّياته، وأنْ لا يَخْرُج أحدٌ عن مقدماته، والعدل فهو الغرس المُثمِر، والسحابُ المُمطِر، والروضُ المُزْهِر؛ وبه تتنزل البركات، وتخلف الهبات، وتُرْبِي الصَّدقات؛ وبه عِمَارةُ الأرض، وبه تُؤدَّى السنةُ والفرض؛ فمن زرع العدلَ اجتنى الخير، ومن أحسنَ كُفِيَ الضَّرر والضَّير؛ والظُّلم فعاقبتُه وَخيمه، وما يطولُ عُمْرُ المُلْك إلا بالمَعْدَلة الرحيمه؛ والرعية فهُم الوديعة عند أُولي الأمر، فلا يخصَّصْ بحُسْن النظر منهم زيدٌ ولا عَمْرو؛ والأموال فهي ذخائر العاقبة والمآل؛ والواجبُ أن تُؤخَذ بحقِّها، وتُنفَق في مستحقِّها؛ والجهاد برًّا وبحرًا فمن كنانة الله تُفوَّق سِهامُه، وتؤرَّخ أيامُه؛ وتُنتضَى حُسامُه، وتجري مُنْشآتُه في البحر كالأعلامِ وتُنشَر أعلامُه؛ وفي عُقْر دار الحرب تُحَطُّ رِكابُه، ويُحَطُّ كِتابُه؛ وتُرْسَل أرسانُه، وتجوس خلالها فُرْسانُه؛ فليلزَمْ منه دَيْدنا، ويستصحبْ منه فعلاً حَسَنا؛ وجُيُوشُ الإسلام وكُماتُه، وأمراؤُه وحُماتُه؛ فهم مَنْ قد علمتَ قِدَمَ هِجْره، وعِظَمَ نُصْره؛ وشِدَّةَ باس، وقُوَّةَ مِراس؛ وما منهم إلا مَنْ شهد الفُتوحاتِ والحُروب، وأحسنَ في المُحاماة عن الدِّين الذُّبُوب؛ وهم بَقايا الدُّوَل، وتَحايا الملوك الأُوَل؛ لاسيَّما أُولِي السَّعْي الناجح، ومن لهم نسبةٌ صالحةٌ إذا فَخَروا بها قيل لهم: نِعْمَ السلفُ الصالح؛ فأوسِعْهم برًّا، وكُنْ بهم بَرًّا، وهم بما يجبُ من خدمتك أعلمُ وأنت بما يجب من حُرمتهم أدرى؛ والثغور والحصونُ فهم ذخائرُ الشِّدَّه، وخزائنُ العَديد والعُدَّه، ومقاعدُ للقتال، وكنائنُ الرِّجاء والرِّجال؛ فأحسِنْ لها التحصين، وفوِّض أمْرَها إلى كلِّ قويٍّ أمين، وإلى كلِّ [ذي] دينٍ متين، وعقلٍ رَصين؛ ونُوَّاب المَمالك ونُوَّاب الأمصار، فأحْسِنْ لهم الاختيار، وأجمِلْ لهم الاختبار، وتفقَّدْ لهم الأخبار.

وأمّا ماسوى ذلك فهو داخلٌ فى حدود هذه الوصايا النافعه، ولولا أنّ الله أمرنا بالتذكير، لكانت سجايا المقرّ الأشرف السلطانىّ، الملكىّ، المنصورىّ، مكتفية بأنوار المعيته الساطعه، وزمامُ كلّ صلاح يجب أن يشغل به جميعَ أوقاته، هو تقوى الله قال الله تعالى: ﴿يأيّها الّذينَ آمَنوا اتّقوا اللهَ حَقّ تُقَاتِه﴾.

فليكن ذلك نُصْبَ العين، وشغلَ القلب والشّفتين، وأعداء الدين من أرمن وفرنج وتتار، فاذقهم وبالَ أمرِهم فى كلّ إيراد للغزو وإصدار، وثُرْ لأن تأخذ للخلفاء العباسيّين ولجميع المسلمين منهم الثّار، واعلمْ أنّ الله نصيرك على ظُلْمهم وما للظّالمينَ مِنْ أنْصار.

وأما غيرهم من مُجاوريهم من المسلمين فأحسِنْ باستنقاذك منهم العلاج، وطُبّهم باستصلاحك فبالطّبّ الملكىّ والمنصورىّ ينصلح المزاج، والله الموفق بمنّه وكرمه.

⁂

وعلى هذه الطريقة مشى المقرّ الأشرفُ الناصرىّ محمدُ بن البارزىّ الحموىّ صاحب دواوين الإنشاء الشريف بالديار المصرية وسائر الممالك الإسلامية: جمّل الله تعالى الوجودَ بوجُوده، وأناف بقدْره على كيوانَ(١) فى ارتقائه وصُعُوده، وجعله لسلطانه المؤيّد رِدءًا مابدَا سعدُ المُلك صاعدًا إلا كان له سعْدَ سُعوده.

فكتب على ذلك عهدَ السلطان الملك المؤيّد أبي النصر «شيخ» خلّد الله سلطانه، عن الإمام المستعين بالله أبي الفضل العبّاس أمير المؤمنين خليفة العصر

(١) اسم لكوكب زحل وهو ممنوع من الصرف للعلمية والعجمة لأنه ليس فى كلام العرب اسم عينه ياء ولامه واو. انظر اللسان فى مادة ك ون ج ١٦.

أيد الله تعالى به الدين — فى شعبان المكرم سنة خمس عشرة وثمانمائة، بعد خلع الناصر فرج؛ فأتى فيه بما أخجل الروض المنمنم والنجم الزاهر، وأوجب على العارف بنقد الأمرين أن يقول : كم ترك الأول للآخر؛ عدد فيه وقائعه المشهوره، وذكر مناقبه التى صارت على صفحات الأيام مرقومة وعلى مر الليالى مذكوره، وفى بطون التواريخ على توالى الجديدين وتعاقب الدهور مسطوره؛ (فكتب على ذلك عهد السلطان الملك المؤيد أبى النصر شيخ خلد الله سلطانه)[1]، ونصه :

الحمد لله الذى جعل الدين بنصره مؤيدا، وآنتضاه لمصالح الملك والدين فأصبح ومن مرهفات عزمه بادية بائدة العدا؛ وفتح على فقر الزمان بشيخ ملك زويت له عوارف العدل ومعارف الفضل فاستغنى — ولله الحمد — بسعيد السعدا، وأصلح فساد الأحوال بإحكام رأيه وإحكام حكمه فأصبحت مأمونة الرداء آمنة من الردى؛ وامتن على أولياء الدولة الشريفة بمن لم يزل سهم تدبيره الشريف فيهم مسددا، ومياه الظفر جارية من قناة غوره الذى بذلك تعودا، وبحر إحسانه الكامل وإن قدم العهد المديد مجددا .

والحمد لله الذى جعل وجوه هذه الأيام بالأمن مسفره، وليالى جودها بالعدل مقمره؛ وعذبات أوليائها بالأفراح مزهره، وحدائق أخصائها بالنجاح مثمره؛ ومنازل أعدائها مقفرة موحشه، ونوازلهم مذعرة مدهشه؛ وأجسادهم بأمراض قلوبهم مشوشه، وأكبادهم بلواعج زفراتهم معطشه .

والحمد لله الذى جعل هذه الأيام الفاضلة الخلال جليلة الفضل، شاملة النظام ناظمة الشمل، هامية بالمكرمات هائمة بالعدل؛ دانية القطوف، معروفة بالمعروف، مغيثة الملهوف، مرهبة للألوف، متصرفة فى الآفاق صارفة الصروف؛ حمدا يبهج

(١) تقدمت هذه الجملة بنصها قبل ستة أسطر فلعلها تكررت من قلم الناسخ أو سهو من المؤلف فتنبه .

النفُوس، ويُزيل البُوس، ويُديم السُّرور، ويُذهِبُ المحذُور، و﴿ الحمدُ للهِ الَّذِى أذهَبَ عنَّا الحَزَنَ إنَّ ربَّنا لغَفُور شَكُور ﴾ .

نحمدُه علىٰ هذه النِّعم التى تفيَّأتِ الأُمَمُ بِظِلالها ، وبلغتْ بها النفوسُ غايةَ آمالِها، ورَوِيتْ بعد ظَمَإِ الخوفِ من حِياض أمْنٍ زُلَالهـا ، وآستبشَرتْ بعد الحَزَن بأفْراح قَبُولها وإقبالها، وآرتفعتْ بعد آنخفاضِها رُءُوس أبطالِها وأقيالِها .

ونشهد أن لا إلٰهَ إلَّا الله وحدَه لاشريكَ له شهـادةً تُديم النَّعماء، وتُجْزِل العَطَاء، وتَكْشِف الغَمَّاء، وتَقْهـر الأعداء ، ونشْهدُ أنَّ محمدًا عبـده ورسولُه الذى قرن طاعةَ أُولى الأمر بطاعتـه ، وأيَّد مَنِ آهتـدىٰ منهم بهِدَايته ، وأعانَهُ لمَّـا آستعان بعِنَايته ، وأظلَّه تحتَ ظلِّ عَرْشه يوم لاظِلَّ إلا ظِلُّه فى دار كرامته ، صلَّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه الذين آنحازُوا إلىٰ حَوْزته وآحْتَمَوْا بحمايته ، وأثمرَ لهم غرسُ دينـه فرَعَوْه حقَّ رعايته ، وشرَّف وكرَّم .

وبعـدُ ، فلمَّا كانتْ رحمةُ الله تعالىٰ لغَضَبه سابقه ، ورأفتُه بعبـاده متلاحِقه ، وكانت الممـالكُ الشريفة قد آختلَّت أمورُها، وصار إلىٰ الدُّثور معْمُورُها ، وأشرف علىٰ البَوَار أميرُها ومأمُورُها ، فالشرائعُ متغـيِّرة شرائعُها ، والعوائدُ مفقودةٌ مآثرُها ، والمظالِمُ قوىٌّ سلطانُها ، كثيرٌ أعوانُها، ضعيفٌ مُضادِدُها ، قليل مُعانِدُها ، فلا نائبُ سياسـةٍ إلا مشغُول بالنَّوائب ، ولا حاكمُ شرع إلا وقد سُـدَّتْ عليـه المَذَاهب ، ولا تاجرٌ إلا وقد خَسِرت تجارتُه فما ربِحَتْ ، ولا ذُو قِراض إلا ورُءُوس أمواله قد آنقرضَتْ ، ولا صاحبُ تُراث إلا وقـد مُحِيتْ آيةُ ميراثه ونُسِخَتْ ، ولا رُكْنُ مملكةٍ إلَّا وقد آنهـدَم أساسُه ، ولا عضُدُ دولة إلا وقد بطَل إحساسُه ـ أقامَ سبحانه وتعالىٰ لإزالةِ هذه النَّوازل الفادِحه ، وإخمادِ نار هذه القبائح القادِحه ،

مَنْ توفَّرتِ الدَّواعى على آستحقاقه السلطنةَ الشريفه ، وأجمعت الأئمةُ على آنحصار ذلك فى أوصافه المُنيفه ، ودلَّتْ أماراتُ السُّعود على محلِّه الجليـل ، وجنابِه الذى إذا لاذَ به مَنْ خافَ الدهرَ رجع وطَرْفُ الدَّهرِ عنه كَليل ، طالمَـا أصْفَى مواردَ العدل ، وأضْفى أذيالَ الفَضل ، وأمَّن الخائف ، وروَّعَ الحائف ، وأمضى فى الجهاد عزْمَه ، وأنفـذ فى السَّرايا إليه حُكْمَه ، وسـدَّدَ إلى مَعَاونِه فى غَرَض الكُفَّار سَهْمَه ، وفتح الطريقَ إلى بيت الله الحرام بعدَ الآنْسِداد ، وأنعم على القانـع والمعترِّ بالراحلة والزَّاد ، وعمَّر المساجد ، وجعلها آهـلةً بالرَّاكع والساجد ، وجلَا عَرُوسَ الأموىِّ فى حُلَلِ التهليل والتكبير ، وأعاد عُودَ منبرِه الذابلِ وهو نَضير . هذا مع شجاعة شاهدَها وشهِدَ بهـا أبطالُ الإسـلام ، وسَطْوةٍ تخشاها الأُسُـودُ فى الآجام ، ووَقارٍ يُخْضِع بالهيبة رُءوسَ الأعلام ، وبِشْرٍ يطلُع بَجْرُه من طالع جَبْهته ، ونُورٍ ساطع من جهـة جبهته ، وحياءٍ متطلِّع من طَلْعته ، وحِباءٍ متدفِّق من أنمُلِه ، وكنتَ أيُّها الملكُ الجليل المؤيَّد ـ لا زال شَمْلُ الدين بك مجموعا ، وعَلَمُ الإسلام مرفوعا ، وقلبُ أهل الشِّرك والنِّفاق مَرُوعا ـ أنتَ المتَّصفَ بهذه الصِّفات الحميده ، والكاشفَ لتلك الشدائد الشَّديده ، فلم يَرُعْك خطرُ الخطَّاره ، ولا أنحلالُ أهل صَرْخَد حيثُ آشتهرتْ عزائمُ صَوَارِمك البتَّـاره ، ولا خَطْرتُك من القَيْسارِيَّة إلى الرَّيْدانيَّـة فى أسرَعَ من غَفْوه ، والشَّيخُ لا تُنْكِره الخَطْوه ، ولا مشاهدةُ الحِمام فى الحَمَّـام ، ولا زاغ بَصَرُك بالجُون حينَ أظلمَ القَتَام ، حتَّى زال المـانـع ، وهَجَع الهاجع ، وأُمِنَت الخُطُوب ، وفُرِّجت الكُروب ، وخَلَا دَسْتُ السلطنة ممن نَكَثَ الأيمـان ، وأصرَّ على الإثم والعُدْوان ، وأقررت آسمَ الخلافة على الآنفراد ، ليستخيرَ اللهَ فى الأصلح للعباد والبلاد .

هذا ورأْىُ أهلِ الحَلِّ والعقد من مُلوك الإسلام وأُمَرائه ، وقُضاته وعلمـائه ، ومشايخه وصُلَحائه ، وخاصَّته وعامَّته ، ورأْىُ مولانا أمير المؤمنين ، أعزَّ الله تعالى به

الدين ، وجمع بيمن بركته شمل الإسلام والمسلمين ؛ يحتج على تفويض أمر المسلمين وولاية عهدهم وكفالة السلطنة الشريفة والإمامة العظمى إليك - خلد الله سلطانك ، وجعل الدهر خديك والملائكة أعوانك ؛ فقــدم أمير المؤمنين من الاستخارة أمام هــذا التقليد مايعتبر في الســنة الشريفة ويقدم ، وعلم أن المصلحة فيما خاره الله له وللأمة من ولايتك أيهــا الملك المبجل والســلطان الأعظم ؛ وأنك أبرأ للذمه ، وأبر بالأمه ؛ وشاهد بإجمــاع الأمة على سلطنتك من التألف والاتفاق ، مانفى الخلاف والشقاق ؛ وما سر الجمهور الطائعين من غير دفاع ، والجم الغفير لبديع آرائك ورفيع راياتك مذعنين لحســن الاتباع ؛ وأهــل الحل والعقد لأمرك ونهيك قد خضعت منهــم الرقاب ، وسارعوا الى إجابة دعوتك حيــن اتضحت لهم أدلة الصواب . والزمان بإفضاء الأمر إليــك قد طاب واعتــدل ، والأرض في مشارقها ومغاربهــا بمهابتك قد أمنت من الوجل ، والنفوس الأبية قد أذعنت لمبايعتك من غير مهل ؛ والفتنــة وقد رد الله بالغيظ مثيرها ، والألفــة وقد برقت من سرائر أهل التوحيــد أساريرها ، والعساكر المنصورة قد أحاطت به كما أحاطت بالبدور الهاله ، وقد أنزل الله عليــك ناموس المهابة والجــلاله ؛ وفوض إليك ما ولاه الله من أمو ر الإسلام والمســلمين ، وأسند إليك مافي يده من مصالح عبــاده المؤمنين : لتقيم على أساس أحكامك دعائم الديــن القويم ، وتسـير الخلائق على منهاج طريقك المســتقيم ؛ وتحســن - إن شاء الله - برعايتك عاقبة الرعيه ، كما أصبحت قلوبهم بك راضيــة مرضــيــه .

وعهد إليك أمير المؤمنين في كل ماوراء سرير خلافته ، وفي كل ما يرتبط بأحكام إمامته ؛ وقلدك ذلك شرقا وغربا ، وبعــدا وقربا ، وبرا وبحرا ، وسهلا ووعرا ؛ وفي كل ماله من الملك والمــالك ، وما يفتحه [الله] على يديك بعــد ذلك ؛ تفويضا

شاملا، وتقليدًا كاملا، وعهدًا تامًا، وإسنادًا عامًا، وولاية مكمّلة البنيان، مؤسسة على تقوى من الله ورضوان؛ وسلطنة آخذة بالذمم، مشتملة على جميع الأمم؛ يدخل في هذا العهد العامّ والتفويض التامّ، والرأى الذى شهد له إجماعُ الأئمة بالإحكام؛ [يدخل في ذلك](١) مفضولُ الناس وفاضلُهم، وعالمُهم وجاهلُهم، وخاصُّهم وعامُّهم، وناقصُهم وتامُّهم، وشريفُهم ومشروفُهم، وقويُّهم وضعيفُهم، وآمرُهم ومأمورُهم، وقاهرُهم ومقهورُهم، والجُمَعُ والجماعات، وبيوتُ العبادة والطاعات، والقضاةُ وأحكامُها، والخطباءُ ومنابرُها وأعلامُها، والجيوشُ والعساكرُ والكتائب، وربُّ سيف وكاتبُ إنشاء وقلمُ حاسب، وطوائفُ الرعايا على اختلاف أطوارهم، وتفاوتِ أرزاقهم وأقدارهم، والعُربانُ والعشائر، وبيوتُ الأموال والذخائر، ودانى الأمم وقاصيها، وطائعُها وعاصيها، والخراجُ وجباياتُه، والمصروفُ وجهاتُه، والصدقاتُ ومستحقُّوها، والرزق ومرتزقوها، والإقطاعاتُ والأجناد، وما يُستعَدّ [به] لمواطن الجهاد، والمنعُ والعطاء، والقبضُ والإمضاء، والخُمس والزكوات، والهُدَنُ والمعاهدات، والبيع والقمامات، وما يظهر من أمور الملك وما يخفى، وما تستدعيه براعتُك في السرّ والخفا، وشعارُ السلطنة وأهبتُها، ونواميسُ المُلك وحُرمتُها .

فأجبت ــ رعاك الله ــ دعوة أمير المؤمنين ودعوتهم لقبول ذلك مسئولا، معتمدًا على أن الله سيُنزل إليك من يُسدّدك من الملائك فعلا وقولا؛ فاجلس ــ أيدك الله ــ على تخت مُلك قد هيّأه الله لموافقك المطهّره، وسرير سلطنة عُقِدت سرر سعدك الأمجد فتقاعست الهمم عنه مقصّره . .

فالحمدُ لله ثم الحمدُ لله عن الدهر وأبنائه، ولا مثل هذه النعمة بهذا الخبر وأنبائه، ﴿ذٰلِكَ مِنْ فَضْلِ اللهِ علينا وعلى النَّاسِ﴾ وهذا ما كان من قضية الدين على رغم

(١) مابين القوسين في الأصل وهو من زيادة الناسخ كما لا يخفى .

الوَسْوَاس الخَنّاس ، وهــذا ما كانت الآمالُ تنتظر وُرُودَه ، وجوارى القِدَم ترقب سُــعُوده :

والله مازادُوكَ مُلْكا إنمـا ، زادُوا أكُفَّ الطالِبين نَوالَا!

وأمّا الوصايا ، فأنتَ بحمد الله طالَمَا ملأْتَ بها الأسمـاع ، وكَشَفْتَ عاطفتَك لمن أردتَ ترتيبَه عنها القِناع ؛ ولكن عُهِد من تعبُّـداتك السماعُ لشَـدْوِها ، والطَّرَبُ لحَنْوها ، فعليكَ بتقوى الله ، فبها تُورِقُ أغصانُ الأَرَب الذَّوابِل ، ويُغرِّدُ طائرُ عزِّك الميمُونُ بالأسحـار والأصائل ، فاجعَلْها ربيعَ صَـدْرك ، وأَيْنِعْ بها حدائقَ فِكْرك ، وروِّح⁽¹⁾ بعَرْفها الأَرِيج أرجاءَ مُلْكك ، وأجْرِ الشرعَ الشريفَ على ماعوَّدتَه من نصرك ، والعلماءَ على ماألِفُوه من بِرِّك وخَيْرِك ، فهم ورثةُ الأنبياء عليهم السلام ، والدالُّونَ على الشريعة بأسِنّة أقلامهم ما يكِلّ عنه حدُّ الحُسَام ؛ وطَهِّرْ مَنْصِبَ الشرع الشريف من الرَّذائل ، وصُنْ أيّامَ مُلْكك الشريف عن الجُهّال والآكلين أموالَ النـاس بالباطل ؛ والعدل ـ ونستغفر الله ـ فإنك مُعَمِّر لغراسه ، رافعٌ ماآنهدم من أساسه ؛ قد جعلتَــه مجلسَ محاكاتك ، وأنيسَ خَلَواتك ؛ والفضل ـ وبِرُّك أجَلّ الأقلام فلو مرّ بك راجيكَ على الصَّــفا لأرتاح للمعروف ، أو شاهد هِباتك حاتمٌ لرجع طَرفُه عنها وهو مَطْروف ؛ ولا سَرَفَ فى الخير ، ولا ضَرَر ولا ضَيْر ؛ وأمْرٌ بالمعروف وآنْهَ عن المنكر فأنت المسئولُ بين يدَيِ الله عن ذلك ، وآنْهَ نفسَك عن الهوى بحيث لايراك اللهُ هنالك ، وحُدُود الله فلاتتعدّاها ، والرعايا فحُطْها بعين رعايتك وآرْعاها ؛ وجَنِّــد الجنود برًّا وبحرا ، وأذِلّ أعداءك قهرا وقسرا ؛ وراجع النظرَ فى أمر نُوّاب السَّــلطنة الشريفة مراجعةَ الناقد البصـير ، وتيقّظْ لصيانة قِلاع الممـالك ومَعاقِلها وحُصُونها ، وتخيّرْ لها مَنْ ليس يشكُوك المناصحة ولا مَظْنُونها ؛ وحُطْها مع عِمـارتها

(١) فى الأصول وريح بالياء المثناة . تأمل .

بالمِدّة والعُدَد، والأقوات لكي تطمئنّ النفوسُ بمَددها منها إذا طالت المُدد؛ وتفقّد أحوالَ مَنْ فيهـا من المستخدَمه، وارعَ حقُوقَ من له بها خِدمةٌ متقدّمه؛ واجعل الثغورَ باسمةً بحفظها، ولاحِظ الأمورَ بحسن تدبيرك المألوف فى سياستها. واستوص خيرًا بأمرائك الخالصين من الشُّكوك، السالكين فى طاعتك أحسنَ السُّلُوك؛ وضاعِف لهم الحُرمه، وارعَ لهم الذِّمّه؛ لاسيّما أولى الفكر الثاقب، والرأْى الصائب؛ فشاوِرْهم فى مُهِمّات الأمور، واشرح بإحسانك منهم الصُّدور؛ وارعَ حقوقَ المهاجرين والأنصار، الذين سلكتْ معك مَطاياهم البِطاحَ والقِفار، وهجَروا محبُوبَهم من الوطَن والدار؛ وجالَدُوا وجادَلُوا، وآوَوْا فى سبيلك وقاتَلُوا؛ وأنِلْ كلًّا منهم مايرجُوه، واشرحْ صدُورَهم بإدراك ماأمّلوه؛ وجيوش الإسلام فاغرِس محبتَك فى قُلُوبهم بإحسانك، وكما سبقتَهم حِسا فتحبّبْ إليهم بجزيل امتنانك؛ وجيوش البحر فكُنْ لها محيطا، وبجليّات مشيها محيطا[1]؛ فإنهـا توجّه للأصقاع، سُلَيْمانِيّة الإسراع؛ تقـذف بالرُّعب فى قلوب أعداء الدين، وتقلَع بقلوعها آثارَ المُلْحدين؛ فواصِلْ تجهيزَ السَّرايا لركوب ثَبَجه، والغوص إلى أعداء الله فى عَميق لُجَجه. واجعـل النظرَ فى بيت الله الحرام، وحرم رسوله عليه أفضل الصلاة والسلام: لتسلُكَ عينُ الأمن الأباطح، وتقرّ عيونُ حُمَره بالمنائح والمنايح؛ وتتعرّف بعرفانك عرَفات، وتُرمى مخاوفُ الخَيف من أيدى مَهابتك بالجَمَرات؛ وصِلْ جيرانَهما بصلاتك: لتُسهِر أعينَهـم بالدعاء لك وأنتَ فى غَفَواتك. والقُـدس الشريفُ الذى هو أحدُ المساجد التى تُشَـدّ إليها الرحالُ فزِدْ تقديسَـه، واجعل رُبُوعَ عباداته بالصّلوات مأنوسه. وإقامةُ موسم الحج كلّ سـنة فأنت بعد حركة تجور فاتحُ سبيله، وكاسى محمله حُلَل توقيره وتبجيله.

(١) لعل محيطا الأولى البحر والثانية من الإحاطة بمعنى العلم.

هــذه الوصايا تذكرة لخاطر الشريف وحاشاك من النّســيان ، وهذا عهد أمير المؤمنين ومبايعةُ أولي الحلّ والعقد قد تقاضيا إلى حقّك على الزمان ، وعندك كتابُ الله وســنةُ رسوله صــلّى الله عليه وسلم ماضلّ من تمسّك بهما ولاَمَانْ، فاتّبع أحكامَ الله يُوسّع الله لك فى مُلكك ، واجعل هَديك بهما إمامَ نَهيك وأمرِك ؛ وأدّ ماقلّدك الله من حقوق الإمامة والأمانة إلى خَلقه أداءً موفورا : ﴿ إنّ الله يأمُرُكُم أن تؤدّوا الأماناتِ إلى أهلِها و إذا حكمْتُم بينَ الناسِ أنْ تحكُمُوا بالعــدْلِ إنّ الله نِعمّا يعِظُكُم به إنّ الله كانَ سَميعًا بَصيرا ﴾ .

قلت : ولمــا كان هذا العهد قد ادّرَعَ جِلباب العجائب فأعجَب، وارتدى برداء الغرائب فأغْرَب ؛ وسُقِيَ غرْسُــه ماء البلاغة فأنجب ، وشنّف الأسماعَ إذ أسمَعَ فأرقص على السماع وأطرب ؛ وامتطى صهوةَ جياد البَيان فتنقّل فيها من كُمَيت إلى أشْقَر ومن أحوى إلى أشْهب ـ أحببتُ أن آتِيَ له بطُرّة هي له فى الحقيقة ذَيل ، ونُغْبةٌ من بحر وقَطرةٌ من سَيل؛ لاجَرَم جعلتُها فى الوضــع فى الكتاب له لاحِقه ، و إن جرت العادةُ أن تكون الطُّرّة للعهد سابِقه ؛ وهو :

هــذا عهدٌ شريفٌ ترقُمه أقلام أشِــعّة الشمس بذَهب الأصــيل على صَفَحات الأيام ،وتُنجِمه كفُّ الثريّا بنُقَط النجوم الزواهر و إن كان لاعهدَ للعُهُود بالإعْجام ، وتعترف ملوكُ الأرض أنّ صاحبه شــيخُ الملوك والسلاطين فتقدّمه فى الرأى وتُجِلّه فى الرتبــة وتعامِلُه بالإجلال والإعظام ؛ من عبــد الله ووليّــه ، وخليفته فى أرضه وصــفيّه ، وسليل خلفائه الراشــدين وابنِ عم نبيّه ؛ الإمام الفلانى (إلى الســلطان الاعظم الملك الفلانى إلى آخر الألقاب) .

* * *

وهذه نسخةُ عهد على هـذا المذهب ، كُتب به عن أمير المؤمنين المستعين بالله أبي الفضل العباس خليفة العصر، للملك العادل شمس الدنيا والدين «مظفرشاه» بالسلطنة بالمملكة الهندية، فى شوال سنة ثلاث عشرة وثمانمائة بدمشق المحروسة؛ من إنشاء الشيخ الإمام علّامة العصر، جامع أشتات الأدب ومالك زمامه ، تقي الدين محمد بن حجّة، الشاعر الحموى، ومفتى دار العدل بحماة المحروسة، ممـا كُتب بخط المولى تاج الدين عبد الرحمن بن التـاج ، أحد كُتّاب الإنشـاء الشريف بالأبواب الشريفـة ، فى قطع البغـدادى الكامل بخفيف الطومار، وكانت الطرّة المكتتبة فى الوصل الأول خمســة أسطر بالقلم المذكور، وسطرين بخفيف المحقّق ، والطرّة البيضاء خمسة أوصال ، والبياض بين كلّ سطرين ثلث ذراع، وبيتُ العلامة الشريفة ضِعفُ ذلك ، والهامش رُبع الورق على العادة . وصورة الطرّة :

عهدٌ شريفٌ عَهِد به عبدُالله ووليُّه سيدُنا ومولانا الإمام الأعظمُ العبّاس أبوالفضل المستعينُ بالله أميرُالمؤمنين، وابنُ عمّ سيد المرسلين، أعزّالله به الدين، وأمتع ببقائه الإسلامَ والمسلمين، إلى المَقام الأشرف، العالى، السلطانىّ، العادلىّ، الشمسىّ، أبي المجاهد «مظفّر شاه» أعزّ الله تعالى أنصاره . وقلّده الســلطنة المعظّمة بحضرة "دِهْلى" وأعمالهـا ومُضافاتها على عادة من تقدّمه فى ذلك، ولايةً عامّةً شاملةً كاملةً جامعه، وازعةً قاطعةً ساطعه، شريفةً منيفة : فى سائر الممالك الهنـدية وأقاليمها ، وثُغورها وبلادِها، وعساكرها وأكابرِها وأصاغرِها ، ورعاياها ورُعاتها، وحُكّامها وقُضاتها، وما احتوت عليه شرقًا وغربًا، بُعْدا وقُرْبا على ماشُرح فيه .

الصدر بعد البسملة الشريفة :

الحمـدُ لله الذي وثّق عهدَ النّجاح للمستعين به ، وثبّت أوتادَه : ليفوزَ من تمسّك من غير فاصلة بسَببِه ، وزيّن السماءَ الدنيـا بمصابيحَ وحفظًا ، وأفرغ على أعطاف الأرضِ حُلَل الخلافة الشريفه ، وعلم أنّ خلقها الشريف زهرةُ الحياةِ الدنيـا فقال عز من قائل : ﴿ إنّى جاعلٌ فى الأرض خليفة ﴾ . وآختارها من بيتٍ براعةُ آستهلاله فى أوّل بيتٍ وُضِع للناس ، وسبقتْ إرادتُه ـ وله الحمد ـ أن تكونَ هذه النّهلةُ من سِقاية العبّاس .

فالحمدُ لله على أن جعلَ هـذه السِّقايةَ عَينا يَشرب بها المُقرّبون ، ومن علِم شرفَها تميّز وتمسّك بقوله تعالى : ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ ﴾ .

والحمـدُ لله الذى آستخلف آلَه فى الأرض وفضّلهم ، فإنْ تحدّثَ أحدٌ فى شرف بيتٍ فاللهُ سـبحانه قد جعل البيتَ والحديثَ لهم ؛ فأكْرِم به بيتًا من أقرّ بعُبوديّتـه كان له بحمد الله من النار عِتْقا ، وتمتّع بنعيم بركتِه التى لا يَحجُبُها إلا الأشقَى ؛ وهو البيتُ الذى بعثَ اللهُ منه شاهدا ومبشّرا ونَذيرا ، وداعيًـا إلى الله بإذْنه وسِراجا مُنـيرا ، وصفّى أهلَه من الأدناس وأنزل فى حقّهم : ﴿ إنّمـا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عنكم الرِّجْسَ أَهْلَ البيتِ ويُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرا ﴾ . وصيّر علَمَهم الخليفيّ(١) على وَجنـة الدّهر شامَةً ، وخصّهم بالتقديم فالحمدُلله واللهُ أكبر لهذه الإمامه ؛ وإذا كان النسيب مقدّما فى المَدح وهو فى النظم واسطةُ العُقود ، فهـذا هو النّسب الذى كأنّ عليه من شمس الضُّحى نُورا ومن فَلَق الصَّباح عَمُود ؛ وهـذا هو الركنُ الذى مَن آستلمه وآستَنَد إليه قيل له : فُزْت بعلُوّ سَنَدك ، فقد رُوِى عن النبيّ صلّى الله عليه وسلم أنه قال لعمّه العباس : " ياعمّ ألَا أُبَشّرك؟ " قال : بلى يارسولَ الله ــ قال : إنّ الله فتح الأمرَ بى

(١) نسبة الى الخليفة فالواجب حذف الياء والتاء .

ويَخْتِمُه بوَلَدِك» . وهذا الحديثُ يُرشد إلى التمسُّك بطيب العهود العباسيَّة لِتَفيضَ على المتمسك بها نَيْلَ الوفاء، وتُعيِّنَ من استعان بالمستعين وعلم أنَّ النبيَّ عليه السلام قال لجدّه : «أنتَ أبو الخُلَفاء» . وناهيك أنَّه صلى الله عليه وسلم قال لأمّ فضل وهي شاكَّةٌ في الحمل : «اذهَبي بأبي الخُلَفاء» فكان عبدَ الله المنتظمَ به هذا الشَّمْل فأَحبِبْ بها شجرةً زكا غَرْسُها ونَمَا، وتسامَتْ بها الأرضُ وكيْفَ لا ؟ وأصلُها ثابتٌ وفَرْعُها في السَّماء؛ فسلام على هذا الخَلَف الذي منه المستعينُ بالله والمتوكلُ عليه والواثقُ به والمعتصمُ والرشيدُ، ورحمةُ الله وبركاتُه عليكم أهلَ البيتِ إنَّه حميدٌ مجيد .

نحمدُه حمدَ مَنْ علِم أنَّ آلَ هذا البيتِ الشريفِ كسفينةِ نُوحٍ وتعلَّق بهم فنَجَا ، ونَشكره شُكْرَ من مالَ إلى الدُّخُول تحتَ العلَمِ العبَّاسيِّ وتنصَّل من الخوارج فوجَدَ له من كلِّ ضِيقٍ مَخْرَجا ، ونشهدُ أن لا إلَهَ إلا الله وحدَه لاشريك له شهادةً نرجُو أن تكون مقبولةً عند الحاكم وَقْتَ الأدا ، ونشهدُ أنَّ محمَّدا عبده ورسولُه الذي حرَّضَنا على التمسك بالعُهود وأرشدَنا إلى طريق الهُدى؛ صلَّى الله عليه وعلى آله وصَحْبه الذين وَفَّوا بالعُهود، وكانوا في نظام هذا الدِّين وجمعه فرائدالعقُود؛ صلاةً يسقِي عهادالرحمة ـ إن شاء الله ـ عهدَها، وينتظِمُ في سِلْك القَبُول عِقْدُها؛ وسلَّم تسليما .

أما بعدَ حمد الله الذي ألهمَنا الرُّشد وجعل منَّا الخلفاء الراشدين ، وهدانا بنَبِيِّه صلَّى الله عليه وسلم وخَصَّنا من بيته الشريف بالأئمة المهديِّين ، واصطفَى من هذا الخَلَف خلائفَ الأرض، وسنَّ مواضيَ العُقُول التي قطعَتْ أنَّ طاعَتنا فَرْض ؛ فإنَّ لعهدنا العبَّاسيِّ شَرَفا لا يرفُل في حُلَله إلّا من اتَّخذ مع الله عهدًا وأتاه بقلبٍ سليم ، فقد قال الله تعالى بعدَ أعوذُ بالله من الشيطان الرجيم : ﴿إنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللهِ وأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لاخَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ ولا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ ولا يَنْظُرُ إلَيْهِمْ يَوْمَ القِيَامَةِ ولا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ . ولا يتمسَّك بهذا العهدِ إلَّا مَنْ صَحَا إلى القيام

بواجب الطاعة وترك أهل الجهل فى سكرتهم يعمهون، وانتظم فى سلك من أنزل الله فى حقهم : ﴿ والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون ﴾ .

فمن نهض إلى المشى فى مناهجه مشى بعين البصيرة فى الطريق القويم، وتلا له لسان الحال : ﴿ أفمن يمشى مكبا على وجهه أهدى أمن يمشى سويا على صراط مستقيم ﴾ . وهو قبضة من آثار البيعة النبويه، وشعار يتشرف به من مشى تحت ألويته العباسيه؛ وما أرسل هذا العهد النبوى إلى أحد من ملوك الأرض إلا عمه الشرف من جميع جهاته، و ﴿ الله أعلم حيث يجعل رسالاته ﴾ وشدت أعواد منبره طربا، وأزهرت رونقا وأثمرت أدبا، واستطالت بيد الخلافة لإقامة الحد، وكيف لا ويد الخلافة لا تطاولها يد؛ وكان المقام الأشرف (إلى آخر الألقاب المذكورة فى التعريف واسمه المكتتب فى الطرة) هو الذى رغب فى التمسك بهذا العهد الشريف ليزيل عن ملكه الالتباس، واستند إليه ليروى بسنده العالى عن ابن عباس؛ فإنه الملك الذى ظفره الله بأعداء هذا الدين وسماه مظفرا، ولقبه بالشمسى واختار له أن يقارن من الطلعة المستعينية قمرا؛ أينع زهر العدل من حضرة "دهلى" فعطر الآفاق، وضاع نشره بالهند فعاد الشم إلى المزكوم بالعراق؛ وصارت دمن "سمنات"[(١)] عامرة بقيام الدين، وأيده الله فيها بعد القتال بالفتح المبين؛ ولم يترك للعدو فى بيت بيت ليله، وأبطل ما دبره أهل دهلى بحسن اليقظة وقوة الصوله؛ وأباد الكفرة من أهل ديو ولم يقبل لهم ديه، وفاءوا إلى غير أمر الله فأبادهم بسيفه المهدى فلم تقم لهم فيه؛ وفطر أكباد من ناوأه بها فلازموا عن رؤيتها الصوم، ونادى منادى عدله

(١) تقدم فى (ج ٥) من هــذا المطبوع أنها "صومنات" بالصاد المهملة، ويقال أيضا بالسين المهملة بدل الصاد .

بالبلاد الهندية : لا ظُلْمَ اليَوْم، ودانت له تلك الممالك بَرًّا و بحرا، وسهلا ووَعْرا؛ ما نظم الأعداءُ على البحر المديد بيتا إلا أبان زِحَافَه وأدار عليه دوائِرَه، فكم نَظَم شَمْل الرعايا بالعدل ونثر رُءُوس الطُّغاة بالسيف فلا عَدِم الإسلامُ ناظمَه وناثِرَه؛ سُئلت الرُّكبانُ فى البَرّ عن مَناقبه الجليلة وعَمَّ يتساءلُون وقد صار لها عَظِيم النبا، وصرّح راكبُ البحر بعد التسمية باسْمِه ﴿ وٱتخذَ سبيلَه فى البحر عَجَبا ﴾ فظلُّه فى البَرّ ظليل، وعدلُه فى البحر بَسِيط وطَوِيل .

هذا ولم يَبْقَ فى تلك الممالك الهندية بُقْعة إلا ولم يصغر الله(١) بسنابك الخيل فيها مَمْشاه، ولا نفسٌ خارجةٌ عن الطاعة إلا وماتت فى رُقْعة الأرض بمظفَّر شاه؛ فلذلك رُسِم بالأمر الشريف العالى، المولوى، السيّدى، الإمامىّ، الأعظَمىّ، النبوىّ، المستعينى، سيدنا ومولانا أمير المؤمنين المستعين بالله أبى الفضل العبّاس (ونسبه إلى الحاكم بأمر الله، والدعاء) بعد أن آستخار الله تعالى سيدُنا ومولانا أمير المؤمنين كثيرا، وآتخذه هاديًا ونصيرا، وصلّى على آبن عمه سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ـ أن يفوض إلى المقام الأشرف المشار إليه ولايةُ العهد وكفالةُ السلطنة المعظّمة، بحضرة دِهْلى وأعمالها كما فى الطرّة كما هو المعهود : ليهطِلَ جُودُ الرحمة على تلك البِقاع المباركة إن شاء الله ويجود : لما رآه من صَلَاح الأمّة ومصالح الخلق، آستحلافا تَحَلّى بذكره الأفواه، وتستنِدُ إليه الرُّواه، وتترنّم به الحُدَاه، وتستبشرُ به كافّة الأُمَم، ويقطَع به ويحفَظه ربُّ كل سيف وقلم، ويعتمدُ عليه كلُّ ذى عِلْم وعَلَم، فلا زعيم جيش بها إلّا وهذا التفويضُ يَسِمُه ويشمَلُه، ولا إقليمَ من أقاليمها إلا ومَنْ به يُقبّله ويقبَله، ويتمثّل به ويمتثله، ولا منبرَ بجوامعها إلا وخطيبُه يتلو برهانَ هذا التفويض ويرتّله .

(١) لعله إلا وصغر الله أو بقعة لم يصغر الخ . تأمل .

وأما الوصايا فعنده ـ إن شاء الله ـ تُهب نَسَماتُ قَبُولها ، وتُعرب عن نصب مفعولها ، وهو بحمد الله تعالى لوصايا هذا العهد المبارك نِعم القابل ، ففى الصحيحين عن النبيّ صلّى الله عليه وسلم : " سَبعةٌ يُظِلُّهم اللهُ فى ظِلّه منهم الإمامُ العادل " والوصيّة بالرّعايا واجبة والعدل فيهم قد حرّض النبيّ صلّى الله عليه وسلم عليه ، وقال : " يومٌ من إمامٍ عادلٍ أفضَلُ من مَطَرِ أربعينَ صباحًا أحوجَ ما تكون الأرضُ إليه " . وقال ابن عمّنا علىّ رضى الله عنه « المُلْكُ والدِّينُ أخوانِ لاغنىً لأحدهما عن الآخر، ونَشْرهما فى الرعيّة ضائع ، فالدِّين أُسٌّ والمُلْك حارس ، فما لم يكُن له أُسٌّ فمهدُوم ، وما لم يكن له حارسٌ فضائع » ـ فليأمُرْ بالمعروف ويَنْهَ عن المنكر عالمًا أنه ليس يُسأل غدًا بين يدى الله عز وجل عن ذلك سوانا وسواه ، وينْهَ نفسَه عن الهوى فلا يحسُن لعُودِ قدّه أن يَميل مع هواه ـ وليترك الثُّغور بعدله باسمة ، وقواعدَ المُلْك بفضله قائمة ـ وليجاهدْ فى الله حقّ جهاده ، وليَلْطُف بالرعايا وَيعلَمْ أن الله لطيفٌ بعباده ـ وليشرح لهم بالإحسان صدْرا ، ويُجْرِهم إذا وقف على أحوالهم أحسَنَ مُجرىً ؛ وهو بحمد الله غير محتاج إلى التأكيد : لأنه لم يَخْلُ له من القيام فى مصالح المسلمين فِكْر ، ولكنه تجديدُ ذِكْر على ذِكْر ؛ والله تعالى يمتّع بطول بقائه البلادَ والعبادَ ، ولا بَرِحت سيُوفُه الهندية تكلِّم أعداء هذا الدين بالسنة حداد ، وثبّت مُلْكه بالعدل وشيّد أقوالَه وأفعاله ، وختم بالصالحات أعمالَه ؛ والاعتمادُ على الخط الإماميّ المستعينيّ أعلاه ، إن شاء الله تعالى .

قلت : ولم يُعْهد أنه كُتب عن الخلفاء العباسيين القائمين بالديار المصريّة عهدٌ لملك من غير ملوك الديار المصرية سوى هذا العَهْد .

المـــــــذهب الرابع

([أن يفتتح العهد بقوله أما بعد] (١) « فالحمد لله » أو « أما بعد فإنّ أمير المؤمنين » أو « أما بعد فإن كذا » ونحو ذلك)

ويأتى بما يناسب من براعة الاستهلال وحال المتولّى والمولّى وما يجرى مجرى ذلك مما يسنح للكاتب ذكره مما يناسب الحال ، ويأتى من الوصايا بما يناسب المقام : إما بلفظ الغيبة أو بلفظ الخطاب كما فى غيره من المذاهب السابقة ، وهى طريقة اقترحها الوزير ضياء الدين بن الأثير فى "المثل السائر" أنشأ عليها عهدا فى معارضة المكتوب للسلطان صلاح الدين «يوسف بن أيوب» من ديوان الخلافة ببغداد الآتى ذكره فى المذهب الخامس ، وهذه نسخته :

أما بعد ، فإنّ أمير المؤمنين يبدأ بحمد الله الذى يكون لكلّ خطبة قيادا ، ولكلّ أمر مهادا ، ويستزيده من نعمه التى جعلت التقوى له زادا ، وحمّله عبء الخلافة فلم يضعف عنه طوقا ولم يأل فيه اجتهادا ، وصغرت لديه أمر الدنيا فما تسورت له محرابا ولا عرضت عليه جيادا ، وحققت فيه قوله تعالى : ﴿ تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوّا فى الأرض ولا فسادا ﴾ . ثم يصلى على من أنزلت الملائكة لنصره إمدادا ، وأسرى به إلى السماء حتى ارتقى سبعا شدادا ، وتجلى له ربه فلم يزغ منه بصرا ولا أكذب فؤادا ، ثم من بعده على أسرته الطاهرة التى زكت أوراقا وأعوادا ، وورثت النور المبين تلادا ، ووصفت بأنها أحد الثقلين هداية وإرشادا ، وخصوصا عمّه العباس المدعوّ له بأن يحفظ نفسا وأولادا ، وأن تبقى كلمة الخلافة فيهم خالدة لا تخاف دركا ولا تخشى نفادا .

---

(١) بياض بالأصل ، والتصحيح مما يقتضيه المقام .

وإذ آستوفى القلمُ مدادَه من هـذه الحَلْبَه ، وأسند القولَ فيها عن فصاحته المُرْسَله ، فإنّه يأخذ فى إنشاء هـذا التقليد الذى جعله حليًّا لقِرطاسه ، وآستدامَ سُجودَه علىٰ صَفْحته حتّى لم يكَدْ يرفَع من راسه ، وليس ذلك إلا لإفاضته فى وَصْف المَنَاقب التى كَثُرت فحَسُن لهـا مَقامُ الإكثار ، وآشتبه التطويلُ فيهـا بالآختصار ، وهى التى لا يفتقرُ واصـفُها إلىٰ القول المُعـاد ، ولا يستوعِر سُلُوكَ أطوادها ومن العَجَب وجُودُ السَّهل فى سُلُوك الأطواد ، وتلكَ مناقبُك أيُّها الملك الناصر الأجلّ ، السيدُ ، الكبيرُ ، العالمُ ، العادلُ ، المجاهدُ ، المُرابِط ، صلاحُ الدين أبو المظفَّر يوسف آبن أيوب ، والديوانُ العزيز يتلُوها عليك تحدُّثًا بشُكْرك ، ويباهى بك أولياءَه تنويهًا بذكْرك ، ويقول : أنت الذى تُستكفىٰ فتكونُ للدولة سهمَها الصائب ، وشهابَهـا الثـاقب ، وكَنْزَها الذى تذهَبُ الكنوزُ وليس بذاهب ، وما ضَرَّها وقد حَضَرْتَ فى نُصْرتهـا إذا كان غيرُك هو الغائب ، فآشكُرْ إذًا مَساعيَك التى أهّلتْك لمـا أهّلتْك ، وفضّلتْك علىٰ الأولياء بمـا فضّلتْك ، ولئن شُورِكْتَ فى الولاء بعقيدة الإضمـار ، فلم تُشارَكْ فى عَزْمك الذى آنتصَر للدولة فكان له بسطةُ الآنتصار ، وفَرْقٌ بين مَنْ أمدّ بقَلْبه ومَنْ أمدّ بيده فى دَرَجات الإمداد ، وما جعلَ اللهُ القاعدين كالذين قالوا " لو أمَرْتَنا لضَرَبْنا أكبادَها إلىٰ بَرْك الغِماد " . وقد كفاكَ من المساعى أنك كَفَيْتَ الخلافةَ أمْرَ منازِعيها ، فطَمَسْتَ علىٰ الدَّعوة الكاذبة التى كانتْ تدّعيها ، ولقد مضىٰ عليها زمنٌ ومِحرابُ حقّها محفوف من الباطل بمِحرابَين ، ورأتْ مارآه رسولُ الله صلّى الله عليه وسلم من السّوارين اللّذين أوّلَهما كذّابين ، فبمصْرَ منهما واحدٌ تاهَ بمُجرىٰ أنهارها من تحته ، ودعا الناسَ إلىٰ عبادة طاغُوته وجِبْته ، ولَعِبَ بالدين حتّى لم يَدْرِ يومَ جُمُعته من [يوم أحده ولا] (1) يوم سَبْته ، وأعانه علىٰ ذلك قومٌ رمىٰ اللهُ بصائرَهم

(1) الزيادة من "المثل السائر" ص ٤٤٢ .

بالعمىٰ والصَّمَم ، وآتخذوه صَنمًا [بينهم][1] ولم تكن الضلالةُ هناك إلا بعجْل أو صَنَم ؛ فقمت أنت فى وَجْه باطله حتَّى قعَد ، وجعلتَ فى جيده حَبْلا من مَسَد ، وقلت ليــده : تبَّتْ فأصبح [وهو][1] لايَسْعىٰ [بقَدَم][1] ولا يَبْطش بيــد ؛ وكذلك فعلتَ بالآخر الذى نَجَمَتْ باليمن ناجمتُه ، وسامتْ فيه سائمتُــه ؛ فوضع بيتَه موضعَ الكَعْبة اليمــانيَه ، وقال : هذا ذُو الخَلَصة الثانيــه ؛ فأىُّ مَقَاميْك يعترف الإسلام بسَبْقه ، أم أيهما يقُوم بأداء حقِّه ؛ وهاهنا فلْيَصْبِح القلم للسيْف من الحُسَّاد ، ولتَقْصُرْ مكانَتُه عن مكانَته وقد كان له من الأنْداد ، ولم يَحْظَ بهذه المَزِيَّة إلا أنَّه أصبح لك صاحبا ، ونَقَر بك حتَّى طال نَفرا كما عَزَّ جانبا ، وقضىٰ بولايتك فكان بها قاضــيًا لَمَّــا كان حدُّه قاضــبا .

وقد قلَّدك أمير المؤمنين البــلادَ المصريَّة واليَمنيَّة غَوْرا ونَجْدا ، وما آشتملتْ عليه رَعِيَّةً وجُنْدا ، وما آنتهتْ إليــه أطرافُها بَرًّا وبَحْرا ، وما يُستنقَذُ من مُجاوِريها مسالمَةً وقَهْرا ، وأضاف إليها بلادَ الشام وماتحتوى عليه من المُدُن المَدَّنه ، والمراكز المُحَصَّنه ؛ مستثنيًا منها ما [هو][1] بيد نُور الدِّين إسمــاعيل بن نُور الدين محمود رحمه الله : وهو حلَبُ وأعمــالُها ، فقد مضىٰ أبُوه على آثار فى الإســلام تَرفَع ذكره فى الذاكرين ، وتَخْلُفه فى عَقِبــه فى الغابرين ، وولده هــذا قد هَذَّبتْه الفطرةُ فى القول والعمــل ، وليستْ هذه الرُّبوةُ إلا من ذلك الجَبَل .

فليكُنْ له منك جارٌ يدنُو منــه ودادًا كما دَنَا أرضا ، ويُصْــبح وهو [له][1] كالبُنْيان يَشُدّ بعضُه بعضا ؛ والذى قدّمناه من الثناء عليك رُبَّمــا تجاوزَ بك درجةَ الاقتصاد ، وألفتَك عن فضيلة الازدياد ؛ فإيَّاك أن تنظُرَ إلىٰ سَــعْيك نظرَ الإعجاب ، وتقولَ : هذه بلادٌ أنا آفتتحتُها بعــد أنْ أضْرَبَ عنهــا كثيرٌ من الأضْراب ؛ ولكن آعلم أنّ

(١) الزيادة من "المثل السائر" ص ١٤٢ .

الأرض لله ولرسوله ثم لخليفته من بعده ، ولا مِنّة للعبد بإسلامه بل المِنّةُ لله بهداية عبده ، وكم سلف قبلك ممن لو رام ما رُمتَه لَدنا شاسعه ، وأجاب مانعه ، لكن ذخره الله لك لتحظى في الآخرة بمفازه ، وفي الدنيا برقم طرازه ، فألق بيدك عند هـذا القول إلقاء التسليم ، وقل : ﴿ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ .

وقد قُرِن تقليدُك هذا بخلعة تكونُ لك في الإسم شعارا ، وفي الرسم دثارا ، وتناسب محلّ قلبك وبصرك وخيرُ ملابس الأولياء ما ناسب قلوبا وأبصارا ، ومن جملتها طوقٌ يوضع في عنقك موضعَ العهد والميثاق ، ويُشير إليك بأنّ الإنعام قد أطاق بك إطاقة الأطواق بالأعنـاق ، ثم إنك قد خوطبت بالملك وذلك خطابٌ يقضي لصـدرك بالانشراح ، ولأملك بالانفساح ، وتؤمر معه بمد يدك إلى العليـاء لا بضـمها إلى الجناح ، وهذه الثلاثةُ المشارُ إليها هي التي تكمل بها أقسام السياده ، وهي التي لا مزيد عليها في الإحسان فيقال : إنها الحُسنى وزياده ، فإذا صارت إليك فانصبْ لها يوماً يكونُ في الأيام كريمَ الأنساب ، واجعله لهـا عيدا وقل : هذا عيدُ التقليد والخلعة والخطاب ، هـذا ولك عنـد أمير المؤمنين مكانةٌ تجعلك لديه حاضراً وأنت ناءٍ عن الحضور ، وتضِنّ أن تكون مشتركةً بينك وبين غيرك والضِّنّة من شيم الغيور ، وهذه المكانةُ قد عرّفتك نفسها وما كنت تعرفُها ، وما تقول إلا أنهـا لك صاحبةٌ وأنت يوسفُها ، فاحرسها عليك حراسةً تقضي بتقديمها ، واعمل لها فإنّ الأعمال بخواتيمها ، واعلمْ أنك قد تقلّدت أمرا يفتن به تقيُّ الحلوم ، ولا ينفكُّ صاحبُه عن عُهدة الملوم ، وكثيرا ما ترى حسناته يوم القيامة وهي مقتسمةٌ بأيدي الخصوم ، ولا يجو من ذلك إلا من أخذ أُهبة الحذار ، وأشفق من شهادة الأسماع والأبصار ، وعلم أنّ الولايةَ ميزانٌ إحدى كفّتيه في الجنة والأخرى في النار . قال النبيُّ صلّى الله عليه وسـلم : " يا أبا ذرّ إنّي أُحبّ لك ما أُحبّ لنفسي لا تأمّرنّ على اثنين ولا تولّين مالَ يتيم " .

فانظر إلىٰ هــذا القول النبوىّ نَظَر من لم يُخْدَع بحــديث الحِرْص والآمال ، ومثّــل الدنيا وقد سِيقَتْ [إليك](١) بحذافيرها أليس مَصيرُها إلىٰ زوال ؟ . والسعيدُ مَنْ إذا جاءَته قضىٰ بهــا أربَ الأرواح لاأرَبَ الجُسُوم ، واتخذ منهــا وهى السُّمُّ دواءً وقد تُتَّخذ الأدويةُ من السُّمُوم ؛ وما الاغتباطُ بمــا يختلف علىٰ تلاشيه المَسَاء والصَّباح؟ وهو ﴿ كماءٍ أنزلناه من السماءِ فاختلط به نَبَاتُ الأرض فأصبح هشيماً تَذْرُوه الرِّياح ﴾ والله تعــالىٰ يعصِمُ أميرَ المؤمنين ووُلاةَ أمرِه من تَبِعاتها التى لابَسَــتْهم ولا بَسُوها ، وأحصاها الله عليهــم ونَسُوها ؛ ولك أنتَ من هــذا الدعاء حظٌّ علىٰ قدر مَحَلِّك من العناية التى جذَبَتْ بضَبْعك [ومحلِّك من الوِلاية التى بسطَتْ من ذِرْعك](١) .

خُذْ هذا الأمرَ الذى تقلَّدته أخذَ من لم يتعقَّبه بالنسيان ، وكُنْ فى رعايته مَن إذا نامَتْ عيناه كان قلبُه يقْظان .

ومِلاكُ ذٰلك كلِّه فى إسباغ العدل الذى جعــله اللهُ ثالثَ الحديث والكتاب ، وأغنىٰ بثوابه وحْدَه عن أعمال الثواب ، وقدَّر يومًامنه بعبادةِ ستِّين عاما فى الحِسَاب ؛ ولم يأمُرْ به آمِرٌ إلا زِيدَ قوّةً فى أمرِه ، وتحصَّن به من عدُوّه ومن دَهْره ؛ ثم يجاء به يومَ القيامة وفى يديه كتَابا أمانٍ ، ويجلس علىٰ منــبر من نُور عن يَمِين الرحمٰن ؛ ومع هذا فإنَّ مَرْكَبه صعْبٌ لا يستوِى علىٰ ظهره إلا مَنْ أمسك عِنانَ نفسه قبــل إمساك عِنانه ، وغلبَتْ لَمَّةُ مَلَكه علىٰ لَمَّة شَيْطانه ؛ومن أوكَد فُروضه أن يَمحى السُّنَنَ السيئة التى طالتْ مُدَد أيّامها ، ويَئِس الرَّعايا من رفع ظُلاماتهــا فلم يجعــلُوا أمدًا لانحسار ظلامها ؛ وتلك هى المُكُوس التى أنشأتْها الهِمَم الحقيرة ، ولا غِنىٰ للأيدى الغنيَّة إذا كانتْ ذا[تَ] نفوسٍ فقيرة ؛ وكُلَّما زِيدتِ الأموالُ الحاصلةُ منها قَدْرا زادها اللهُ مَحْقا ،

(١) الزيادة من "المثل السائر" ص ١٤٤ .

وقد آستمرت عليها العوائدُ حتّى ألحقها الظالمون بالحقوق الواجبة فسمّوها حقّا ؛ ولولا أن صاحبها أعظمُ الناس جُرْما لما أُغلظ فى عقابه ، ومُثِّلت تَوْبةُ المرأة الغامديّة بمَتابه ؛ وهل أشقى ممن يكون السوادُ الأعظمُ له خَصْما ، ويُصبح وهو مطالَبٌ منهم بما يَعلَم وبما لم يُحِط به عِلْما . وأنت مأمورٌ بأن تأتى هذه الظُّلامات فتَنْحى على إبطالها ، وتُلحِق أسماءها فى المَحْو بأفعالها ؛ حتّى لا يبقى لها فى العِيان صُوَر منظوره ، ولا فى الألسنة أحاديثُ مذكوره ؛ فإذا فعلتَ ذلك كنتَ قد أزلت عن الماضى سُنّة سُوء سنّتها يَدَاه ، وعن الآتى مُتابعةَ ظُلْمٍ وجده طريقًا مسلوكًا فجرى على مَدَاه .

فبادِرْ إلى ما أُمِرتَ به مُبادرةَ مَنْ لم يَضِق به ذِرَاعا ، ونظر إلى الحياة الدُّنيا بعينه فرآها فى الآخرة مَتاعا ؛ وآحمد الله على أن قيّض لك إمامَ هُدًى يقف بك على هُدَاك ، ويأخذ بحُجْزتك عن خُطُوات الشيطان الذى هو أعدى عِدَاك ؛ وهذه البلادُ المَنُوطة بنظرك تشتمل على أطراف متباعده ، وتفتقر فى سياستها إلى أيدٍ مُساعده ؛ وبهذا تكثر فيها قُضاةُ الأحكام ، وأولو تدبيرات السُّيوف والأقلام ؛ وكُلٌّ من هؤلاء ينبغى أن يُفتَن على نار الآختبار ، ويسلّط عليه شاهدًا عدل من أمانة الدِّرْهم والدِّينار ؛ فما أضلّ الناسَ شئٌ كحُبّ المال الذى فُورِقَتْ من أجله الأديان ، وهُجِرت بسببه الأولادُ والإخوان ، وكثيرا ما يُرى الرجلُ الصائمُ القائمُ وهو عابدٌ له عبادةَ الأوثان ؛ فإذا آستعنت بأحد منهم على شئٍ من أمرك فآضرب عليه بالأرصاد ، ولا تَرْضَ بما عرفته من مَبْدإ حاله فإنّ الأحوال تتنقّل تنقُّل الأجساد ، وإيّاك أن تُخدَع بصلاح الظاهر كما خُدِع عمرُ بن الخطّاب رضى الله عنه بالرّبيع ابن زياد ؛ وكذلك فأْمُر هؤلاء على آختلاف طَبَقاتهم أن يأمُروا بالمعروف مُواظبين ، ويَنْهَوْا عن المنكر محاسبين ، ويعلموا أنّ ذلك من دأْبِ حزب الله الذين جعلهم

الغالبين، وليبدءوا أولا بأنفسهم فيعدلوا بها عن هواها ، ويأمروها بما يأمرون به من سواها، ولا يكونوا ممن هدى إلى طريق البر وهو عنه حائد، وانتصب لطب المرضى وهو محتاج إلى طبيب وعائد ، فما تنزل بركات السماء إلا على من خاف مقام ربه ، وألزم التقوى أعمال يده ولسانه وقلبه ، فإذا صلحت الولاة صلحت الرعية بصلاحهم، وهم لهم بمنزلة المصابيح ولا يستضيء كل قوم إلا بمصباحهم .

ومما يؤمرون به أن يكونوا لمن تحت أيديهم إخوانا فى الاضطراب، وأعوانا فى توزع الحمل الذى يثقل على الرقاب، فالمسلم أخو المسلم وإن كان عليه أميرا، وأولى الناس باستعمال الرفق من كان فضل الله عليه كبيرا، وليست الولاية لمن يستجد بها كثرة اللفيف، ويتولاها بالوطء العنيف، ولكنها لمن يمال على جوانبه، ويؤكل من أطايبه ، ولمن إذا غضب لم ير للغضب عنده أثر ، وإذا ألحف فى سؤاله لم يلحق الإلحاف بخلق الضجر، وإذا حضر الخصوم بين يديه عدل بينهم فى قسمة القول والنظر، فذلك الذى يكون لصاحبه فى أصحاب اليمين ، والذى يدعى بالحفيظ العليم وبالقوى الأمين ، ومن سعادة المرء أن يكون ولاته متأدبين بآدابه، وجارين على نهج صوابه، وإذا تطايرت الكتب يوم القيامة كانت حسناته مثبتة فى كتابه .

وبعد هذه الوصية فإن هاهنا حسنة هى للحسنات كالأم الولود، ولطالما أغنت عن صاحبها إغناء الجنود، وتيقظت لنصره والعيون رقود، وهى التى تسبغ لها الآلاء، ولا يتخطاها البلاء ، ولأمير المؤمنين بها عناية تبعثها الرحمة الموضوعة فى قلبه ، والرغبة فى المغفرة لما تقدم وتأخر من ذنبه، وتلك هى الصدقة التى فضل الله بعض عباده بمزية إنفاقها ، وجعلها سببا إلى التعويض عنها بعشر أمثالها . وهو يأمرك

أن تتفقد أحوالَ الفقراء الذين قُدِرتْ عليهم مادةُ الأرزاق، وألبسهم التعفُّفُ ثوبَ الغِنىٰ وهم فى ضِيقٍ من الإملاق ؛ فأولئك أولياءُ الله الذين مسّتهم الضرّاءُ فصبَروا ، وكَثُرت الدنيا فى يدِ غيرِهم فما نَظَروا إليها إذْ نظَرُوا ؛ وينبغى أن يُهيِّئَ لهم من أمرِهم مِرْفَقا ، ويضرِبَ بينَهم وبين الفقرِ مَوْبِقا .

وما أطلْنا لك القولَ فى هـــذه الوصية إلا إعلاما بأنهـا من المُهِمّ الذى يُستقبَل ولا يُستدبَر، ويستكثَر منه ولا يستكثَر، وهذا يُعَدّ من جهاد النفس فى بَذْل المـال، ويتلُوه جهادُ العـدوّ الكافر فى مَواقِف القتال ؛ وأمير المؤمنين يعرِفُك من ثوابه ما تجعل السـيفَ فى ملازمته أخا ، وتسخُو له بنفسِك إن كان أحدٌ بنفسه سخـا ؛ ومن صفاته أنه العملُ المحبُوّ بفضل الكَرامه ، الذى ينْمِى أجْرُه بعدَ صاحبه إلىٰ يوم القيامه ؛ وبه تُمتحَنُ طاعةُ الخالق علىٰ المخلُوق ، وكلُّ الأعمـال عاطلةٌ لا خَلُوقَ لهـا وهو مختَصٌّ دُونَها بزينة الخَلُوق ؛ ولولا فضلُه لمـا كان محسوباً بشَطْر الإيمان ، ولَمـا جعلَ الله الجنة له ثمنًا وليستْ لغيْره من الأثمـان ؛ وقد علمتَ أن العدُوّ هو جارُك الأدنىٰ ، والذى يبلُغُك وتبلغه عينا وأُذُنا ؛ ولا يكون للإسلام نِعْم الجار حتّى تكون له بئس الجار، ولا عُذْرَ لك فى ترك جهاده بنفسك ومالك إذا قامتْ لغيرك الأعذار ؛ وأميرُ المؤمنين لا يَرضىٰ منك بأن تلقاه مُكافِحا ، أو تَطْرُقَ أرضَه مماسيا أو مُصابِحا ؛ بل يُريد أن تقصِدَ البلاد التى فى يده قصـدَ المستنقِذ لا قصد المُغير، وأن تحكُمَ فيها بحُكْم الله الذى قضاه علىٰ لسـان سعدٍ فى بَنِى قُرَيظَة والنَّضير؛ وعلىٰ الخُصوص البيتَ المقدَّس فإنه تِلادُ الإسلام القديم ، وأخُو البيت الحرامِ فى شَرَف التعظيم ، والذى توجّهت إليه الوُجوهُ من قبلُ بالسُّجود والتسليم ؛ وقد أصبح وهو يشكُو طُولَ المدّة فى أَسْر رَقَبته ، وأصبحتْ كلمةُ التوحيـد وهى تشكُو طُولَ الوحشة فى غُرْبتها عنه

وغربته، فانهض إليه نهضة توغل فى قرحه، وتبدل صعب قياده بسمحه، وإن كان له عام حديبية فأتبعه بعام فتحه ؛ وهذه الاستزادة إنما تكون بعد سداد ما فى اليد من ثغر كان مهملا فحميت موارده، أو مستهدما فرفعت قواعده ؛ ومن أهمها ما كان حاضر البحر فإنه عورة مكشوفه، وخطة مخوفه ؛ والعدو قريب منه على بعده، وكثيرا ما يأتيه بغتة حتى يسبق برقه رعده ؛ فينبغى أن ترتب بهذه الثغور رابطة تكثر شجعانها، وتقل أقرانها، ويكون قتالها لأن تكون كلمة الله هى العليا لا لأن يرى مكانها ؛ وحينئذ تصبح كل منها وله من الرجال أسوار، ويعلم أهله أن بناء السيف أمنع من بناء الأحجار ؛ ومع هذا لا بد من أسطول يكثر عدده، ويقوى مدده، فإنه العدة التى تستعين بها فى كشف الغماء، والاستكثار من سبايا العبيد والإماء، وجيشه أخو الجيش السليمانى : فذاك يسير على متن الريح وهذا على متن الماء، ومن صفات خيله أنها جمعت بين العوم والمطار، وتساوت أقدار خلقها على اختلاف مدة الأعمار ؛ وإذا أشرعت قيل جبال متلفعة بقطع من الغيوم، وإذا نظر إلى أشكالها قيل : إنها أهلة غير أنها تهتدى فى سيرها بالنجوم ؛ ومثل هذه الخيل ينبغى أن يغالى فى جيادها، ويستكثر من قيادها ؛ وليؤمر عليها أمير يلقى البحر عنه من سعة صدره، ويسلك طرقه سلوك من لم تقتله بجهلها ولكن قتلها بخبره ؛ وكذلك فليكن من أفنت الأيام تجاربه، وزحمتها مناكبه، وممن يذل الصعب إذا هو ساسه وإن سيس لان جانبه ؛ وهذا هو الرجل الذى يرأس على القوم فلا يجد هزة بالرياسه ؛ وإن كان فى الساقة ففى الساقة أو فى الحراسة ففى الحراسه ؛ ولقد أفلحت عصابة اعتصبت من ورائه، [وأيقنت بالنصر من رايته كما أيقنت بالنصر من رائه] (١).

---

(١) الزيادة من "المثل السائر" ص ١٤٧ .

واعلم أنه قد أخلّ من الجهاد بركن يقدح فى عمله ، وهو تمامه الذى يأتى فى آخره كما أن صــدق النيــة يأتى فى أوله ؛ وذلك هو قسم الغنائم فإن الأيدى قد تداولتــه بالإجحاف ، وخلطت جهادها فيــه بغلولها فلم ترجع بالكفاف ؛ والله قد جعل الظلم فى تعدى حدوده المحدوده ، وجعل الاستئثار بالمغنم من أشراط الساعة الموعوده ؛ [ونحن نعوذ به] [1] أن يكون زماننا هذا شر زمان وناسه شر ناس ، ولم يستخلفنا على حفظ أركان دينه ثم نهمله إهمال مضيع ولا [إهمال] [1] ناس ؛ والذى نأمرك به أن تجرى [هذا] [1] الأمر على المنصوص من حكمه ، وتبرئ ذمتك مما يكون غيرك الفائز بفوائده وأنت المطالب بإثمه ؛ وفى أرزاق المجاهدين بالديار المصرية والشامية ما يغنيهم عن هذه الأكلة التى تكون غدا أنكالا وجحيما ، وطعاما ذا غصة وعذابا أليما .

فتصفح ما سطرناه لك فى هــذه الأساطير التى هى عزائم مــبرمات ، بل آيات محكمات ؛ وتحبب إلى الله وإلى أمير المؤمنــين باقتفاء كتابها ، وابن لك منهــا مجدا يبقى فى عقبك إذا أصيبت البيوت فى أعقابها ؛ وهذا التقليد ينطق عليك بأنه لم يأل فى الوصايا التى أوصاها ، وأنه لم يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ؛ ثم إنه قد ختم بدعوات دعا بها أمير المؤمنين عند ختامه ، وسأل فيها خيرة الله التى تــتنزل من كل أمر بمــنزلة نظامه ؛ ثم قال : اللهم إنى أشهدك على من قلدته شهادة تكون عليــه رقيبه ، وله حسيبه ؛ فإنى لم آمره إلا بأوامر الحق التى فيها موعظة وذكرى ، وهى لمن اتبعها هدى ورحمــة وبشرى ؛ فإذا أخذ بها فلج بحجته يوم يسأل عن الحجج ، ولم يختلج دون رسول الله عن الحوض فى جملة من يختلج ؛ وقيل له : لا حرج عليك ولا إثم إذ نجوت من ورطات الإثم والحرج ، والسلام .

(١) الزيادة من كتاب " المثل السائر " ص ١٤٧ وهى لازمة لاستقامة الكلام .

المـــذهب الخامس

(أن يفتتح العهد بـ«إنّ أولى ما كان كذا » ونحوه)

وهى طريقة غريبة، كُتب عليها عهدُ السلطان صلاح الدين «يوسُف بن أيوب» بالديار المصرية من ديوان الإنشاء ببغداد . وهو الذى عارضه الوزيرُ ضياءُ الدين بن الأثير فى العهد المتقدّم ذكره فى المذهب [الرابع](١) . وهذه نسخته :

إنّ أولى من جادَتْ رِباعَه سُحُبُ الاصْطِناع ، وخُصّ من الاصْطفاء والاجْتباء بالصَّفَايا والمِرْباع ، مَنْ تَرسّم انتهاجَ الجَدَد القويم ، والطريقِ الواضح المستقيم ، واعتَلَق من الوَلاء بأوثق عِصَمِه وحِباله ، والغَناء الذى يهتدى بأنواره فى متصرَّفاته وأعماله ، والتحلّى بجميل الذكر فى سيرته ، وخُلُوص الاعتناء بأمُور رعيّته ، وكان راغباً فى اقتناء حَمِيد الخلال ، مجتهداً فى طاعة الله بما يُرضيه من العدل الممتدّ الظِّلال ، عاملا فيما يُناط به بما يَتضوّعُ نَشْرُ خَبَره ، ويُجْتَنَى بحُسْن صُنعه يانِعُ ثمره ، باذلا وُسْعه فى الصلاح ، مُؤْذِنةً مَساعيه بفَوز القِداح .

ولمّا كان الملكُ الأجلُّ ، السيِّدُ ، صلاحُ الدين ، ناصرُ الإسلام ، عمادُ الدولة ، جمالُ المُلْك ، فخرُ الملة ، صفِيّ الخلافة ، تاجُ المُلوك والسلاطين ، قامعُ الكفرة والمشركين ، قاهرُ الخوارج والمتمرّدين ، عِزُّ المجاهدين ، ألْب غازى بك ابن يُوسف ابن أيُّوب ــ أدام الله علُوّه ــ على هذه السَّجايا مُقْبِلا ، وبِصفاتها الكاملة مشتملا ، مُؤْثِرا تضاعُفَ المأثُرات ، مثابرًا على ما تَزْكُو به الأعمالُ الصالحات ، متحلِّيا بالمحامد الرائقة ، مستبِدًا بالمناقب التى هى بجميل أفعاله موافقةٌ مطابِقة ، محصِّلا من رِضا الله تعالى ما يُؤْثِره ويرومُه ، [و] من طاعة الدار العزيزة ــ لا زالتْ مُشَيَّدة البِناء ، سابغة

(١) بياض بالأصل والتصحيح مما تقدم .

النَّعماء ، دائمةَ الاستبشار ، عزيزةَ الأنصار ـ [و] من استمرار الظَّفر مايستديمُه ، ـ اقتضت الآراءُ الشريفةُ ـ لازال التوفيقُ قرينَها ، والتأييدُ مظافرَها ومُعِينَها ـ إمضاءَ تصرُّفه وإنفاذَ حُكمِه في بلاد مصر وأعمالها ، والصعيد الأعلى ، والإسكندرية ، وما يفتحُه من بلاد الغرب والساحل ، وبلاد اليمن وما افتتحه منها ويستخلصه بعدُ من ولايتها ؛ والتعويلَ في هذه الولايات عليه ، واستنقاذَ ما استولى عليه الكُفَّار من البلاد ، وإعزازَ كلِّ مَنْ أذلُّوه واضطهدُوه من العباد : لتعودَ الثغورُ بيُمْن نَقيبته ضاحكةَ المَباسم ، وبإصابة رأيه قائمةَ المَواسم .

أمَرَه بادئًا بتقوى الله التي هي الجُنَّــة الواقيـه ، والذَّخيرةُ الباقيـه ، والعِصْمة الكافيَه ، والزادُ إذا أنفضَ وَفْدُ الآخرة وأرملُوا ، والعَتادُ النـافعُ إذا وجدُوا شاهدًا لهم وعليهم ماعمِلُوا : فإنَّها العَلَم المنصوبُ للرَّشــد ، قال الله تعالى : ﴿ يأيُّهـا الَّذينَ آمَنوا اتَّقوا اللهَ ولْتَنظُرْ نفسٌ ماقدَّمتْ لغَدٍ ﴾ .

وأمَرَه أنْ يتَّخذ كتابَ الله سبحانه العَـلَم الذي به يَقتدى ، وبأنواره إلى حدُود الصواب يَهتدى ، ويستمِعَ لزواجِره ومَواعِظه ، ويعتبرَ بتخويفه وملاحظه ، ويُصغى إليه بسَـمعه وقلبه ، وجَوارِحه ولُبِّه ، ويعمَلَ بأوامره المُحكَمه ، ويقفَ عند نَواهيه المُبْرَمه ، ويتدبَّرَ ماحوتْه آياتُه من الوَعْد والوعيـد ، والزَّجْر والتَّهـديد ، قال الله عزَّ وجل : ﴿ وَإِنَّهُ لَكِتابٌ عَزِيزٌ لايَأْتِيهِ الباطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِـهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ .

وأمَرَه أن يكونَ على صَـلاته محافِظًا ، ولِنَفْسه عن الإخلال والتقصـير في أداء فَرْضها واعِظًا ، فيغتنِمَ الاستعدادَ أمامَ أوقاتها للأداء ، ويحترزَ من فَواتها والحاجة إلى القَضاء ، مُوَفّيًا حقَّها من الرُّكوع والسُّجود ، على الوصْف الواجب المحدُود ، مُخْلصا سرَّه عند الدُّخول فيها ، وناهيًا نَفْســه عمَّـا يصُدُّها بالأفكار ويُلْهيها ؛ مجتهدًا في نَفْي

الفكر والوسواس عن قلبه، منتصباً فى إخلاص العبادة لربّه: ليغدو بوصف الأبرار منعوتا، قال الله تعالى: ﴿ إنّ الصّلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا ﴾.

وأمره بقصد المساجد الجامعة فى أيّام الجمع، امتثالا لأمر الله المتّبع، بعزيمة فى الخير صادقة، ونيّة للعبادة موافقه، وفى الأعياد إلى المصلّيات المصحرة المجمّلة بالمنابر الحاليه، التى هى عن الأدناس مطهّرة نائيه، فإنّها من مواضع العبادة ومواطنها، ومظانّ تلاوة القرآن المأمور بحفظ آدابها وسننها، فقد وصف الله تعالى من وفّقه لتحميل مؤنه[1] بالعماره، بما أوضح فيه الإشاره، وشرّفه بوضع سمة الإيمان عليه بالإكرام الفاخر، فقال: ﴿ إنّما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر ﴾: فيقيم الدعوة الهادية على المنابر على عادة من تقدّمه، ومنتهيا فيها إلى أحسن ماعهده وعلمه.

وأمره بلزوم نزاهة الحرمات، واجتناب المحرّمات، والتحلّى من العفاف والورع بأجمل القلائد الرائقه، والتقمّص بملابس التقوى التى هى بأمثاله لائقه، وسلوك مناهج الصّلاح الذى يجمل به فعله، ويصفو له عقله ونبله، وأن يمنع نفسه من الغضب، ويردّها عمّا تأمر به من سوء المكتسب، ويأخذها بآداب الله سبحانه فى نهيها عن الهوى، وحملها على التّقوى، وردعها عن التورّط فى المهاوى والشّبه، وكلّ أمر يلتبس فيه الحقّ ويشتبه، ويلزمها الأخذ بالعفو والصّفح، والتأمّل لمكان الأعمال فيه والنّجح، قال الله تعالى: ﴿ خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين ﴾.

وأمره بإحسان السّيرة فى الرعايا بتلك البلاد، واختصاصهم بالصّون الرائح الغاد، ونشر جناح الرّعاية على البعيد منهم والقريب، وإحلال كلّ منهم محلّه على القاعدة

(١) لعله لتحميل بيوته. تأمل.

والترتيب، وإشاعة المَعْدلة فيهم، وإسْهام دانيهم مِنْ وافر مُلاحَظَته وقاصيهم، وأن يَحْمِيَ سَرْحَهم من كلّ داعِر، ويَذُودَ عنهم كلّ مُوارِبٍ بالفَساد ومُظاهِر، حتّى تَضْفُوَ لهم من الأمْن الشّرائع، وتَضْفُوَ عليهم من بركة وِلايته المَدارِع، وتَسْتَنِيرَ بضَوْء العَدْل منهم المَطالع، ويحتَرِمَ أكابرَهم، ويَحْنُوَ على أصاغرِهم، ويشْمَلَهم بكَنَفه ودِرْعه، ويَنْتَهِيَ في مَصالحهم إلى غاية وُسْعه، ولا يألُوهم في النُّصْح جُهْدا، ولا يُخْلِف لهم في الخير وَعْدا، ويُشاوِرَهم في أمره فإنّ المَشُورة داعيةٌ إلى الفَلاح، ومِفْتاحُ باب الصَّلاح، قال الله تعالى: ﴿ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾.

وأمَرَه بإظهار العَدْل في الرعيّة التي تضُمُّها جميعُ الأكناف والأطراف، والتحلّي من النَّصَفة بأكمل الأوصاف، وحَمْلِ كافّتهم على أقْوَم جَدَد، وعِصْيانِ الهوى في تقويم كلّ أوَد، والمساواة بين الفاضل والمفضول في الحقّ إذا ظهر صِدْقُ دليله، والاشتمالِ عليهم بالأمن الذي يَعْذُب لهم بَرْدُ مَقِيله، وكَشْف ظُلامة من انبسطت إلى تَحَيُّفه الأيْدي والأطماع، وأعجزته النُّصرةُ لنفسه والدّفاع، وتَصَفُّحِ أحوالهم بعينٍ لا ترْنو إلى هَوًى يميلُ بها عن الواجب، وسَمْعٍ لا يَصْغَى إلى مَقالة مائنٍ ولا كاذب، ولا يَغْفُل عن مصلحةٍ تَعُود إليهم، ويرجعُ نفعُها عليهم، ولا عن كَشْف ظُلاماتِ بعضهم من بعض، وردِّهم إلى الحقّ في كلّ رَفْع من أحوالهم وخَفْض، فلا يُرَى إلّا بالحق عاملا، وللأمور على سَنَن الشريعة حاملا، مجتنبًا إغفالَ مَصالحهم وإهمالَها، وحارسًا نِظامَها على تتابُع الأيّام واتّصالها: ليكونَ ذلك إلى وُفور الأجر داعيا، وبحسن الأُحدوثة قاضيا، مقتديًا بما نطَق به القرءان: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ ﴾.

وأمره أن يأمر بالمعروف ويقيم مناره، وينهى عن المنكر ويمحو آثاره؛ فلا يترك ممكنا من إظهار الحق وإعلانه، وقمع الباطل وإخماد نيرانه؛ ويعتمد مساعدة كل مرشد إلى الطريق الأقصد، وناه عن التظاهر بالمحظور في كل مشهد؛ وكل من تضحي معونته مشاركة في إحراز المثوبة ومساهمه، ومساومة في اقتناء الأجر ومقاسمه؛ وأن يوعز بإزالة مظان الريب والفساد في الداني من الأعمال والقاصي، فإنها مواطن الشيطان وأماكن المعاصي؛ وأن يشد على أيدي الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر، ويعينهم على ذلك بما يطيب ذكره في كل مشهد ومحضر؛ ويجتهد في إزالة كل محظور ومنكر، مقدم في الباطل ومؤخر؛ قال الله تعالى: ﴿وأمر بالمعروف وانه عن المنكر﴾.(١)

وأمره أن يقدم الاحتياط في حفظ الثغور ومجاوريها من الكفار، ويستعمل غاية التيقظ في ذلك والاستظهار؛ ليأمن عليها غوائل المكايد، ويفوز من التوفيق لذلك بأنواع المحامد؛ ويتجرد لجهاد أعداء الدين، والانتقام من الكفرة المارقين؛ أخذا بقول رب العالمين: ﴿انفروا خفافا وثقالا وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون﴾. وأن يعمل فيما يحصل من الغنائم عند فل جموعهم، وافتتاح بلادهم وربوعهم، بقول الله وما أمر به في قسمتها، وإيفاء كل صاحب حصته منها، سالكا سبل من غدا لآثار الصلاح مقتفيا، وللفرض في ذلك مؤديا؛ وبهدى ذوي الرشد مهتديا. قال الله تعالى في محكم التنزيل: ﴿واعلموا أنما غنمتم من شيء فأن لله خمسه وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل﴾.

(١) في الأصل فانه من تضحى الخ تأمل.

وأمَرَه أن يُجيبَ إلى الأمَانِ مَن طلَبه منه، ويكونُ وفاؤُه مقترِنا بمـا تضمَّنه، غير مُضْمِرٍ خلافَ ما يُعْطِى به صَفْقةَ أمانِه، ويجتنِبَ الغَدْرَ وما فيه مِن العار، وإسْخاط المَلِك الجَبّار، قال الله عز وجل: ﴿وأوفُوا بعَهْدِ اللهِ إذا عاهَدْتُم ولا تَنقُضُوا الأيْمانَ بعْدَ توْكِيدِها وقد جَعَلتُمُ اللهَ عليكم كَفِيلًا إنَّ اللهَ يَعلَمُ ماتفعَلُون﴾.

وأمَرَه بأن يأمُرَ أصحابَ المَعاوِن بمساعدة القُضاة والحُكّام، ومعُونتِهم بما يَقتضِى [بلَمّ] شَمْل الصلاح فى تنفيذ القضايا والانتظام، وأخْذ الخُصُوم بإجابة الداعى إذا استُحْضِر[وا] إلى أبوابهم للإنصاف، والمُسارعة إلى الحقِّ الواجبِ عليهم من غيرِ خلاف، قال الله تعالى: ﴿وأكْثَرُهُمْ للحَقِّ كارِهُون﴾.

وأمره بالتعويل فى المَظالم وأسواقِ الرقيق ودُور الضَّرْب والحِسْبة على مَنْ يأوِى إلى عَفافٍ ودِين، وعِلْمٍ بأحكام الشريعة وصِحّة يَقين، لايخفى عليه ماحرَّمه الله تعالى وأحلَّه، ولا يلتبس على عِلمه ماأوضح إلى الحقّ الواضح سُبُلَه؛ وإلى مَن يتولّى المَظالِمَ بإيصال الخُصُوم إليه، وإنصافِهم كما أوجبه اللهُ تعالى عليـه، واستماع ظُلاماتِهم، وإحسان النظَر فى مُشاجَراتهم، فإنْ أسفرَ للحق ضِياءٌ تَبِعه، أو اشتَبَه الأمرُ ردّه إلى الحُكّام ورَفَعه. و[إلى] الناظرِ فى أسواق الرقيق بالاحتراز والاستظهار، وتعرِيةِ الأحوال من الشُّبَه فى امتزاج العبيد بالأحرار: لتضحى الأنسابُ مَصُونةً مرعِيّه، والأموالُ عن الثَّلْم محرُوسةً محمِيّه. وإلى من ينظُر فى الحِسْبة بتصفُّح أحوال العامّة فى مَتاجِرهم وأمْوالِهم، وتتبُّع آثار صحّتهـم فى المعاملة واعْتِلالِهم، واعتبار المَوازِين والمَكايِيـل، وإلزام أربابهـا الصِّحّةَ والتعـديل، قال الله سـبحانه وتعـالى: ﴿وزِنُوا بالقِسْطاسِ المُستَقيم﴾.

وأن يُعْمل الجفن فى تطهير البِـلاد ، من كلّ مدْخُول الاعتقاد ، معروف بالشُّبه فى دينه والإلحاد ، ومَنْ يسعىٰ منهم فى الفَساد ، ويأمُرَ المرتّبين فى المراكز والأطْراف باقْتِناصهم ، وكَفِّ فسادِهم وإجلائهم عن عِراصهم ؛ وأن يُجْرِيَ عليهم فى السِّياسة ما يجبُ علىٰ أمثالهم من الزَّنادقة والذين تَوْبتُهم لا تُقْبل ، وأمْرُهم علىٰ حُكْم الخاطِئين لايعمل . قال الله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ ﴾ .

وأمَرَه أن يتلقىٰ النعمةَ التى أُفْرِغتْ عليه ، وانْساقتْ إليه ؛ بشُكْرٍ يَنْطِق به لسانُه ، ويُتَرجم عنه بَيانُه : لِيَستديمَ بذلك الإكرام ، ويقْترن الإحسانُ عنده بالالْتئام ؛ وأن يُوفِّيها حقّها من دوامِ الحمد ، والقَصْد إلىٰ شُكْرها والعَمْد ؛ قال الله تعالىٰ : ﴿ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ﴾ .

وليعلمْ أن أميرَ المؤمنين[1] قد بيّن له من الصلاح ما اتّضحتْ أعلامه ، وأثبتتْ فى المَرامى سِهامُه ؛ وأرشَد إلىٰ ما أودع هذا المنشور من جَدَد الفوز بمرضاة الله تعالىٰ وشُكْرِ عباده ، عاملاً فى ذلك بمقتضىٰ جِدّه واجتهاده : لِيُحْرز السَّبق فى دنياه وعُقْباه ، ويتوفّر عنده ما مُنِح به ممّا أزْهَف عزْمَه وحَباه ؛ وغدا بمكانه رافلاً فى ملابِس الفخر والبَهاء ، نائلاً منى ما طال به مَناكبَ القُرناء ؛ واختصّ بما أعلىٰ درجتَه فتقاعستْ عنه آمالُ حاسديه ، وتفرّد بالمكانة عن مَقام من يُباريه ويُناويه ؛ وأولِيَ من الإنعام ما أمِنَ به سِرْبَ النعمة عنده ، وأصْفىٰ من مَناهل الإحسان وِرْده ؛ وأهدىٰ إليه من المواعظ ما يجبُ أن يُودِعه واعيةَ الأسماع ، ويأخُذَ بالعمل به كُلُّ راعٍ ؛ فيَنْتهج ـ أدام الله علوّه ـ مَحاجَّ الولاء ، الذى عَهِده من أمثاله من الأولياء ؛

(١) فى الأصل وليعلم أن الله وهو غير موافق لباقى الكلام كما لايخفى .

منزّها عن تقصير منه فى عامّة الأوقات ، ومراعيًا أفعاله فى جميع التصرّفات ؛ ويعلم أنّه مسئول عن كل ماتلفّظ به لسانُه ناطقا، ونظر طَرْفُه إليه رامقا ؛ فيَل أن يُجانب هَوَاه ، ويَبْقَ رهينًا بمـا اكتسبتْ يداه ؛ ولا يغـترّ من الدنيا وزُخرفها بغَرار ليس الوفاءُ من طبـاعه ، ومُعيرٍ ما أقصر مُدّة ارتجاعه ! ؛ وسبيلُ كافّة القضاة والأعيـان ومقدّمى العساكر والأجناد ، ورُؤساءِ البلاد، متابعتُه وموافقتُه ، وطلبُ مصالحهم من جَنابه ، والتصرفُ على استصوابه ؛ وقد أُكِّدتْ وَصَاتُه فى الرفق بهم والاشتمال عليهم ، والإحسـان إليهـم ، وإجمال السِّيرة فيهم ؛ وكلّمـا أشكل عليه أمرٌ من المتجدّدات يطالع به الديوانَ العزيز ـ مجده الله تعـالى ـ ليَنْهج له السبيل إلى فتح رِتَاجه، وسُلوك مِنْهاجه ؛ والله ولىُّ التوفيق والهـدايه ، وجمع الكلمةِ فى كلّ إعادةٍ وبدايه ؛ والمعونةِ على العصْـمة من الزَّلل ، والتأييدِ فى القول والعمل ؛ إن شاء الله تعالى، وهو حسبُنا ونِعْم الوكيل .

الوجـــــه السـابع

(فيما يكتب فى مستَنَد عهد السلطان عن الخليفة، ومايكتُبه الخليفةُ فى بيت العلامة، ومايُكتَب فى نسخة العهد من الشّهادة أو مايقومُ مَقامَها)

أما مايكتَب فى المستَنَد، فقد جرتِ العادةُ أن يكتَب فيه نحوُ ماتقدّم فى البَيْعات وعُهودِ وُلاة العهد بالخلافة : وهو : « بالإذْن العالىّ ، المولَوىّ ، الإمامىّ ، النّبوىّ ، الفلانىّ (بلقب الخلافة) أعلاه الله تعالى » .

وأما مايكتُبه الخليفةُ فى بيت العلامة ، فإنّه يكتُب علامتَه وتحتها : « فوّضتُ إليه ذلك ، وكتَب فلانُ بنُ فلان» . ورأيت فى بعض الدساتير نقلا عن الحاكم بأمر الله

أبي العباس [ابن الخليفة] المستكفي بالله أبي الربيع سليمان [أنه] كان يكتب : « وكتب أحمد ابن عم سيدنا محمد صلّى الله عليه وسلم » .

وأما ما يُكتَب في نسخة العهد من الشّهادة، فقد جرت العادةُ أن يكتُب قاضيان فأكثرُ من قُضاة القضاة الأربعة في حاشيَة العهد أو في ذَيْله ماصورتُه : « أشهدَني مولانا أميرُ المؤمنين العاهدُ المشارُ إليه فيه ــ أدام الله تعالى أيّامَه ــ بما نُسِب إليه فيه من العهد إلى فلانِ بنِ فلان » أو ما في معنى ذلك .

قلت : والواجب أن يضمُّوا في رسم شهادته الشهادةَ على السلطان بقَبُول العهد؛ بأن يقال قَبِل على مانُصّ وشُرِح فيه : « وعلى مولانا السلطانِ المشارِ إليه فيه بقَبُول مافُوِّض إليه فيه » أو نحو ذلك : لأنه كما يعتبر العهدُ من العاهد يعتبر القَبُول من المعهود إليه كما تقدّم في مَوْضعه .

الوجــــــــه الثامن

(في قَطْع الورق الذي تُكتَب فيه عهودُ الملوك عن الخلفاء، والقلم الذي يُكتَب به، وكيفيّةِ كتابتها، وصورةِ وضْعها في الورق)

أما قطْعُ الورق فلا نِزاعَ في أنه يُكتَب في قَطْع البغداديّ الكامل، على ماهو مستقِرّ العادة إلى الآن . وقد تقدّم في الكلام على مقادير قَطْع الورق في المقالة الأُولى (1) من الكتاب أنّ عَرْضَه ثلاثةُ أشبار وخمسةُ أصابع، وطُول الوصل كذلك .

(١) كذا في الأصل مضببا عليه ولم يتقدم في الأولى وإنما تقدم في المقالة الثالثة الكلام على المقادير وأن عرض البغدادي الكامل ذراع واحد بذراع القماش المصري . انظر ج ٦ ص ١٩٠ من هذا المطبوع .

وأما القلم الذى يكتب به، فمختصر قلم الطُّومار لمناسبته له على ماتقدّم فيما يُناسب كل قَطْع من الورق من الأقلام .

وأما كيفيَّة كتابة العهد وصورةُ وضعه فى الورق، فعلى ماتقدّم فى البَيْعات وعُهودِ أوليـاء العهد بالخلافة : وهو أن يَبْـدأ بكتابة الطُّرّة فى أعلى الدرج من أوّل عَرْض الورق إلى آخره سـطوراً متلاصقةً من غير هامش، وفى أعلاه قدْرُ إصبع بياضًا، ثم يترك سـتةَ أوصالٍ بياضًا من غيرِ كتابة غير الوصل الذى فيـه الطُّرّة، ثم تكتبُ البسملةُ فى أوّلِ الوصل الثامن بحيثُ تكونُ أعالِى ألفاتها تكادُ تلْحَق بالوصل الذى فوقه، بهامش عن يمِين الدَّرج قَدْرِ أربعة أصابع مطْبُوقَة أو خمسة، ثم يكْتَب سطرا من أوّل العهد تحت البسملة ملاصقا لها بحيثُ تكاد أعالى ألفاته تلْحَق بالبسملة، ثم يُخَلَّى بيتَ العلامة قدْرَ شبر، ثم يكتب السطر الثانىَ من العهد على سَمْت السطر الذى تحت البسملة، ويسترسل فى كتابة بقية العهد .

ثم الذى رأيتـه فى دُسْـتُور معتمد يُنْسَب للمَقرّ العلائىّ بن فضـل الله أنه يكون بين كلّ سطرين قدر ربع ذراع . وأخبرنى بعضُ فضلاء الكُتَّاب أنه رأى فى بعض الدساتير أنّ سُـطوره تكون مُزْدوجةً على نظير البسملة والسـطر الأوّل، وبين كل سطرين بعد بيت العلامة تقديرُ خمسـة أصابع مَطْبوقة .

قلت : ولعل ذلك تفنُّن من الكاتب وتطرُّز للكتابة، لاعلى سـبيل اللُّزوم .

فإن قيـل : لِمَ كان مقدارُ البياض بين سُطور العهد مع كِبَر قَطْع الورق دُونَ بياض ما بين سُطُور التقاليد ونحوها ممـا يكتب عن السلطان على ما سيأتى ذكره ؟ فالجواب أن العهد كالمكاتبة من العاهد للمعهود إليـه، كما أنّ التقليد كالمكاتبـة من المقلِّد للمقلَّد، والأعلى فى حقّ المكتوب إليه أن تكون السطور متضايقةً على ماتقدّم

فى الكلام على المكاتبات، فناسب أن تكون سطورُ العهد أكثر تقاربا من سطور التقليد وما فى معناه، تعظيما لشأن السلطان فى الحالتين .

فإن قيل : يُنقض ذلك بعظم قلم العهد ، ضرورةَ أنه كلما غلُظ القلم كان أنزل فى رُتْبة المكتوب إليه على ماتقدم أيضا ، فالجوابُ : أن غلَظ القلم فى العهد تابعٌ للورق فى كِبَر قطْعه، وقاعدةُ ديوان الإنشاء أنه كُلَّما كبر قطعُ الورق فى المكاتبات ، كان تعظيماً للمكتوب إليه، بدليل أنّ كلّ من عَظُم مقداره من الملوك كان قَطْع الورق فى مكاتبته أكبرَ، ولو كُتِب العهدُ بقلمٍ دقيق معَ ضِيق السُّطور وسَعة الورَق لجاء فى غاية القِصَر . ثم قد جرت العادةُ أن تكون كتابةُ العهد من أوله إلى آخره من غير نَقْط ولا شَكْل، وعليه عملُ الكُتَّاب إلى آخرِ وقت .

قلت : هـذا بناءٌ على المذهَب الراجح فى أن المكاتَبةَ إلى الرئيس تكونُ من غير إعجام ولا ضَبْط : لما فى الإعجام والضَّبط من آستجهال المكتوب إليه ونسبته للغَباوة وقِلّة الفهم، بخلاف من ذَهَب إلى أن الكتابةَ إلى الرئيس تُقيَّـد بالإعجام والضـبطِ كى لايعتَرِضَه الشكُّ ، ولا يُكلَّف إعمالَ الفكر، على ما تقدم ذكره فى أوائل المكاتبات، فإنه يرى نَقْط العهد وشَكْلَه .

وإذا آنتهى إلى آخر العـهد كتب المشيئةَ ، ثم التاريخ ، ثم المستَنَد ، ثم الحمدلة والصلاة على النبيّ صلى الله عليه وسلم ثم الحسبلة ، على ما تقدم فى الكلام على الفواتح والخواتم فى أوائل المقالة الأولى من الكتاب .

وهـذه صورة وضعه فى الورق، ممثّلا له بالطرّة التى أنشأها القاضى علاءُ الدين آبن عبد الظاهر، والعهد الذى أنشأه القاضى شمسُ الدين إبراهيمُ بنُ القيْسَرانى للملك الناصر "محمد بن قلاوون" وهو العهد الأخير من المذهب الأوّل .

الطـــرة

هذا عهدٌ شريفٌ تجددتْ مَسَرّاتُ الإسلامِ بتجديده، وتأكّدتْ أسبابُ الإيمانِ بتأكيده، ووُجِد النصرُ العزيزُ والفتحُ المبينُ بوُجُوده، ووَفَدَ اليُمْنُ والإقبالُ على الخليقة بوُفوده، وورَدَ الأنامُ مَوْرِدَ الأمانِ بوُرُوده . من عبدالله ووليّه الإمام المستكفي بالله أبي الربيع سليمان أمير المؤمنين، ابن الحاكم بأمر الله أبي العباس أحمد، عَهِد به إلى السلطان الملك الناصر أبي الفتح محمد خلّد الله سلطانه، ابن السلطان الملك المنصور سيف الدين قلاوون الصالحي قدّس الله روحه على ما شرح فيه .

بســـم الله الرحمن الرحيـــم

المـتن هـــذا عهدٌ شريفٌ يَعْمُرُ بك للإســـلام المَعَاهد، ويَنْصُر منك الأعتزام

بيت العـــلامة

فتغني عن المُوالي والمُعاضِد، ويُلْقِي إليك مقاليدَ الأمور لتَحْمِيَ في مَرْضاة

تقـــدير ربع ذراع

الله وتُجاهِد، ويَحُثّك على العمل بالكتاب والسُّنّة : ليكونا شاهدين لك

تقـــدير ربع ذراع

عند الله في أعظم المَشاهد ـ إلى أن يأتي إلى قوله في آخره : والله تعالى

الهامش يخلّد له رُتبةَ المُلْك التي أعلى بها مَقامَه، ويُديمُه ناصرًا للدين الحنيف

فأنصارُه لايزالُون ظاهِرين إلى يَوْم القيامه، ويجعل سببَ هذا العهدِ

مَدى الأيامِ مَتِينا، ويجدّدُ له فى كل وقت نصرا قريبًا وفتحا مُبِينا؛

والخط الحاكمىُّ أعلاه، حجةٌ بمقتضاه

إن شاء الله تعالى

كتب فى من شهر كذا

سنة كذا

بالإذن العالى المَولوى الإمامىّ النَّبوىّ الحاكمىّ

أعلاه الله تعالى

الحمد لله وحدَه، وصلواتُه على سيدنا محمدٍ وآله وصحبه وسلامُه

حسبنا الله ونعم الوكيل

النــــوع الثــالث

(من العُهود عهودُ الملوك لوُلاة العهْد بالمُلْك)

وهو أن يعْهد الملكُ بالمُلْك بعــده لمن يختاره من أولادِه أو إخْوته أو غيرهم من الأقارب أو الأجانب .

ويتعلق النظــرُ به من ســبْعة أوجه :

الوجـــه الأوّل

(فى بيــان صِحّــة ذلك)

لمّـا صحّت إمارةُ الاستيلاء إخمادًا للفِتَن، وتنفيذًا للأحكام الشرعيّة على ماتقــدّم من كلام المــاوردىّ فى النوع الثــانى من العهود، اقتضتِ المصلحةُ تصحيحَ العهد بالمُلْك لمــا فيــه من المعنى المتقدّم . وقد جرَتْ عهودٌ من الملوك لأبنائهــم بالديار المصرية وغيرها بحضرة الجمّ الغفير من العلماء وأهل الحلّ والعَقد فأمضَوْا حكم ذلك ولم ينكِرُوه، وذلك منهم دليلُ الجواز .

فإن قيل : قد تقدّم فى النوع الثانى من العُهود من كلام المــاوردىّ أن وزيرَ التفويض لايجوز له أن يَعْهَــد بالوِزارة لغيره ، ووزارةُ التفويض فى معنى السلطنة الآنَ أو قريبةٌ منها على ماتقــدّم هناك ، فالجواب : أنه قد تقدّم أن السلطنةَ الآنَ مُرَكّبة من وِزَارة التفويض وإمارةِ الاستيلاء، بل السلطانُ الآنَ كالمستبدّ بالأمر، والشوكةُ مصحّحة لأصل الولاية فلأن تكونَ مصحِّحةً لفرعها أولى .

الوجـــــه الثـانى

(فيما يكتب فى الطـرزة)

ينبغى أن يكونَ مايكتَب فيها على نحو مايكتَب فى طُرَر عهود الملوك عن الخلفاء، إلا أنه يُزاد فيها : « عهِدَ إليه بالملك بعده » كما يقال فى عهود الخلفاء عن الخلفاء : « عَهِد إليه بالأمر بعدَه » .

وهذه نسخة طـرزة :

«هذا عهدٌ شريفٌ جليلٌ قدره ، رفيعٌ ذكره، علىٌّ فخره ، متبلّج صُبْحه ضوْءُ فجْره . من السلطان الأعظم الملك الفلانىّ فلان الدنيا والدين فلان ، خلّد الله تعالى سلطانَه، ونصر جُيوشَه وأعوانه ـ بالسلطنة الشريفة لولده المَقام العالى السلطانىّ المَلكىّ الفلانىّ ، بلّغه الله تعالى فيه غايةَ الآمال، وحقّق فيه للرعية مايرجُونه من مَزيد الإفضال، على ما شرح فيه» .

الوجـــــه الثـالث

(فى الألقاب التى تُكتَب فى أثناء العـــهد)

وقد ذكر فى " التعريف " أنه يكتَب له : المَقام الشريف أو الكريم، أو العالى مجردا عن الشريف والكريم، ويُقتصر فيها على الألقاب المفردة دُونَ المركبة .

قلت : وعلى هـذه الطريقة كتب القاضى محيى الدين بن عبـد الظاهر ألقاب الملك الصالح علىّ بن المنصور قلاوون فى عهده بالسلطنة عن والده المذكور؛ فقال : « ولمَّـا كان المقامُ العالى الوَلَدِىّ السلطانىّ المَلَكىّ الصالحىّ العمادىّ » .

وعلى نحو من ذلك كتب المشارُ إليه ألقابَ الملك السعيد بركة بن الظاهر بيبرس في عهده بالسلطنة عن والده المذكور، فقــال : « وخرج أمرُنا بأن يكتَب هــذا التقليدُ لولدنا الملكِ الســعيد ناصرِ الدين بَرَكة خاقان محمد » إلا أنه قد خالف ذلك فيما كتب به في ألقاب الملكِ الأشرف خليل بن المنصور قلاوون في عهده بالسلطنة عن والده بجمع بينَ الألقاب المفْرَدة والمركَّبة ، فقال : « هذا عهدُنا للسيِّد الأجل الملكِ الأشرف صلاح الدُّنيا والدين، فخرِ الملُوك والسلاطين، خليلِ أمير المؤمنين » ولم يتعرض في التعريف لحكاية هــذا المذهَب، مع كون كلام ابن عبـد الظاهر حجةً يُرْجَع إليه في هذا الفن .

الوجــــــــه الرابع

(ما يكـتب في المســتند)

ويتعين أن يُكْتَب فيــه « حسَبَ المرسُوم الشريف » لصُدُوره عن السلطان كما يُكْتَب في التقاليد .

الوجــــــــه الخامس

(ما يكتب في متْن العــهد)

وللكُتّاب فيــه طريقتان :

الطريقةُ الأُولى ـــ أن يفتَتح العهدُ بعد البسملة بلفظ «هذا» ونحوه على ماتقدّم في عُهُود الملوك عن الخلفاء .

وعلى هذه الطريقة كتب أبو بَكْر بنُ القَصيرة المغربيّ الكاتبُ عن أمير المسلمين «يوسف بن تاشفين» سلطان المَغْرِب بولايةِ عهدِه لابنه أبي الحسن على مابيَده من المَغْرب والأندَلُس، في ذى الحجة سنة ستّ وتسعين وأربعمائة، وهو :

كتابُ تولية عظيمٍ جَسيم ، وتوصيةٍ حَمِيم كريم ؛ مُهِّدت على الرضا قواعدُه ، وأُكِّدت بيد التقوى معاقدُه ، وأُبعِدت عن الغَوَاية والهوى مصادرُه ومَوارِدُه ؛ أنفذه أميرُ المسلمين وناصرُ الدِّين ، أبو يعقوبَ يوسفُ بنُ تاشفين ، أدام الله أمره ، وأعزّ نصره ، وأطال فيما يُرضيه ويَرضَى به عنه عُمُرَه ؛ غيرَ محابٍ ، ولا تاركٍ في النصيحة لله عزّ وجلّ ولرسوله موضعَ ٱرتيابٍ لمُرتاب ـ للأمير الأجلّ أبي الحسن على ٱبنه المتقبل شِيَمَه وهِمَمَه ، المماثِل حِلمَه وتحلُّمَه ، الناشئ في حَجْر تقويمه وتأديبه ، المتصرِّف بين يَدَيْ متحديه(١) وتهذيبه ؛ أدام الله عِزّه وتوفيقَه ، وأنْهج إلى كل صالح من الأعمال طريقَه ؛ وقد تَهمَّم بمَنْ تحت عَصَاه من المسلمين ، وهذا فيمَنْ يخلُفُه فيهم هُدًى للتقين ، ولم يرَ أن يَترُكهم سُدًى غيرَ مَدِينين ؛ فٱغتام في النِّصاب الرفيع وٱختار ، وٱستنصح أُولِي الرأْي منهم ومن غيرهم وٱستشار ، وٱستضاء بشهاب ٱستخارة الله عزّ وجلّ وٱستنار ؛ فلم يُوقِع الله بعد طُول تأمُّل ، وتراخي مُدَّة وتَمهُّل ؛ ٱختيارَه ولا ٱختيارَ مَنْ فاوضه في ذلك من أُولِي التقوى والحكمة والتجربة وٱستشاره إلا عليه ، ولا صار به وبهم الاجتهادُ إلا إليه ، ولا ٱلتقَى وُرّادُ التّرائي والتشاوُر إلا بين يديه ؛ فولّاه على ٱستحكامٍ بصيرةٍ وبعدَ طُول مَشُورةٍ عهدَه ، وأفضَى إليه بالأمر والنهي والبَسْط والقبض بعدَه ؛ وجعله خليفتَه في رَعاياً مَننَدَه وأوطأَ عقبَه جماهيرَ الرجال ، وناطه بمُهِمّات الأموال والأحوال ؛ وعَهِد إليه أن يتّقيَ اللهَ ما ٱستطاع ، ولا يَعدِلَ عن سَمْت العَدْل وحُكْم الكتاب والسنّة في أحد عَصَى أو أطاع ، ولا يَنسامَ به عن حمايةٍ من أَنْهره الحَيْف والخوف والاضطجاع ، ولا يتلهَّى دُونَ معلِن شَكْوى ، ولا يتصَمَّم عن مستصرِخٍ لدِفاع بَلْوى ؛ وأن ينتظم أقصَى بلادِه وأدناها في سِلْك تدبيره ، ولا يكونَ بين القريب والبعيد من رعيّته بونٌ

(١) كذا في الأصول ولعله تجريبه ، تأمل .

في إحصائه وتقديره، ثم دعا ـ أدام الله تأييده ـ لمبايعته من دنا ونأى من المسلمين، فأتوا مسرعين وأتوا مهطعين، وأعطوا صفقة أيمانهم متبرعين متطوعين؛ وبايعوه على السمع والطاعه، والتزام سنن الجماعه؛ وبذل النصيحه، وإصفاء النيات الصحيحه؛ وموالاة من صاحبه، ومحاربة من حاربه؛ ومكايدة من كايده، ومعاندة من عانده؛ لا يدخرون في ذلك على حال المكره والمنشط مقدره، ولا يحتجون في وقتي السخط والرضا بمعذره؛ ثم أمر بمخاطبة أهل البلاد لتبايعه كل طائفة في بلدها، وتعطيه كما أعطاه من حضر صفقة يدها؛ حتى يستوي في التزام بيعته القريب والبعيد، ويجتمع على الاعتصام بحبل دعوته الغائب والشهيد؛ وتطمئن من أعلام الناس وخيرهم قلوب كانت من تراخي ما انتجز قلقه، ولم تزل ببقية التأخر أرقه؛ ويشمل الناس السرور والاستبشار، وتتمكن لهم الدعة ويمهد القرار؛ وتنشأ في الصلاح لهم آمال، ويستقبلهم جد صاعد وإقبال؛ والله يبارك لهم فيها بيعة رضوان، وصفقة رجحان، ودعوة إيمان؛ إنه على ما يشاء قدير، لا إله إلا هو نعم المولى ونعم النصير.

شهد على أمير المسلمين(1) ناصر الدين، أبي يعقوب يوسف بن تاشفين ـ أدام الله أمره، وأعز نصره ـ بكل ما ذكر عنه من التزام البيعة المنصوصة فوق هذا، وأعطى صفقة يمينه متبرعا بها، وبالله التوفيق. وذلك بحضرة قرطبة حماها الله تعالى.

الطريقة الثانية ـ أن يفتتح العهد بعد البسملة بخطبة مفتتحة بالحمد لله، وهي طريقة المصريين، وعليها اقتصر المقر الشهابي بن فضل الله في "التعريف" وعلى هذه الطريقة كتب القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر عن الظاهر بيبرس عهد ولده الملك السعيد بركة، وهذه نسخته:

(1) في الأصول أمير المؤمنين وهو سهو عما تقدم فتنبه.

الحمدُ لله مُنمّى الغُرُوس ، ومُبْهِج النُّفُوس ، ومُزيِّن سماءِ المملكة بأحسَنِ الأهِـلَّةِ وأضوإِ البُدُور وأشرقِ الشُّموس ، الذي شَدّ أزْرَ الإسلام ، بملوك يتعاقَبون مصالحَ الأنام ، ويتناوَبُون تدبيرَهم كتناوُب العينين واليدين في مُهِمّات الأجساد ومُلِمّـات الأجْسـام .

نحمدُه على نِعَمه التي أيقظَتْ جَفن الشُّكْر المُتغافِي ، وأوردَتْ نَهْلَ الفضل الصافي ، وخَوّلتِ الآلاءَ حتّى تمسّكتَ الآمالُ منهـا بالوَعْد الوَفِيّ وأخذَتْ بالوَزْن الوافي ؛ ونشهد أن لا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةَ عبدٍ كَثّر الله عَدَده وعُدَده ، وأحْمد أمسَه ويَوْمَه ويُحْمِدُ ـ إن شاء الله تعالى ـ غَدَه ؛ ونُصلّي على سيدنا محمد الذي أطْلـع اللهُ به نَجْمَ الهُـدى ، وألبس المشركين به أرْدِيَةَ الرَّدى ، وأوضَح به مَنـاهِجَ الدين وكانتْ طرائقَ قِدَدا ، صلّى الله عليـه وعلى آله وصحبه صـلاةً دائمةً لا تنقضي أبدا .

وبعدُ ، فإنا [بمـا] ألْهَمَنا الله من مصالح الأُمَم ، وخَوّلنَا من الحِرْص على مُهِمّات العباد الذي قَطَع به شأفَةَ الكُفر وحَتّم ، وأتى به والشركُ قد علِم كلُّ أحدٍ اشتعالَ ناره فكان عَلَما بنـارٍ مُضْرَمة لا نارًا على عَلَم ؛ وقَدّره من رفع الكُفرَ من جميع الجوانِب ، وقفوهم من كل جهة حتّى رماهم بالحَتْف الواصـل والعذابِ الواصب ؛ فأصبحَ الشِّركُ من الإبادة في شَرَك ، والإسـلامُ لا يَخْشى من قتـل ولا يخافُ من دَرَك ؛ وثُغورُ الإسلام عاليةُ المبنَى ، جانيةٌ ثِمَـارَ الادِّخار من هُنا ومن هُنا ، تُزاحِم بُرُوجُها في السماء البُروج ، وتشاهِدُ الأعداءُ منها سماءً قد بُنِيت وزُيِّنَتْ وما لهـا من فُرُوج ؛ وعسـاكرُ المِلّة المحمديةِ في كلِّ طَرَف من أطراف الممالك تجُول ، وفي كلِّ وادٍ تهيمُ حتّى تَشْعُر بالنصر ولكنّها تفعل ماتقُول ؛ قد دوّخت البلادَ فقتلَت الأعداء

تارةً بالإلمام وتارة بالإدهام (١) ، وسلّت سيوفها فراعتهم يقظةً بالقراع ونوماً بالأحلام؛ ترى أنا قد لذّ لنا هذا الأمرُ ٱلتذاذَ المُستطيب ، وحسُن لدينا موقعُه فعكفْنا عليه عُكوفَ المستجيد ولبّيناه تلبيةَ المستجيب ، وجعلنا فيه جميعَ الآلاتِ والحوَاس ، وتقسّمت مباشَرتُه ومؤامرتُه سائرَ الزمن حتى غدا أكثرَ تردّداً إلى النّفس من الأنفاس ، وٱستنفدْنا الساعات في ٱمتطاء المُضمَّر الشُّموس ، وٱدّراع مُحكَم الدِّلاص التي كأنها وميضُ برقٍ أو شُعاعُ شُموس ، وتجريد المُرهَفات التي جفَتْ لحاظُها الأجفان ، وجرَتْ فكالمياه وأُضرمتْ فكالنيران ، وتفويق السهام التي غدَتْ قِسيُّها مرابعا نبالها بان (؟) ، وٱعتقال السَّمْهَريَّة التي تقرع الأعداءُ سِنَّها ندماً كلّما قرعت هي السِّنان ، إلى غير ذلك من كلّ غارةٍ شَعواء تُسيء للكفّار الصَّباح ، وتصدم كالجبال وتسير كالرِّياح ، ومنازلاتٍ كم ٱستلبتْ من موجود ، وكم ٱستنجزتْ من نصرٍ موعود ، وكم مدينةٍ أضحتْ لها مَدينةً ولكنْ أخّرها الله إلى أجلٍ معدود .

وكانت شجرتُنا المباركةُ قد ٱمتدّ منها فرعٌ تفرّسنا فيه الزيادةَ والنموّ ، وتوسّمنا منه حُسنَ الجَنى المرجوّ ، ورأينا أنّه الهلالُ الذي قد أخذ في ترقّي منازل السُّعود إلى الإبدار ، وأنه سِرُّنا الذي صادف مكانَ الأختبار له مكانَ الآختيار ، فأردنا أن ننصبه في منصب أحلّنا الله فسيحَ غُرَفه ، ونشرّفه بما خوّلنا الله من شَرَفه ، وأن تكون يدُنا ويدُه تلتقطان من ثمره ، وجيدُنا وجيدُه يتحلّيان بجوهره ، وأنّا نكون للسلطنة الشريفة السمعَ والبصر ، وللمملكة المعظّمة في التناوب بالإضاءة الشمسَ والقمر ، وأن تصولَ الأمّةُ منّا ومنه بحدّين ، وبيطشُوا من أمرنا وأمره بيدين ، وأن نرتّبه على حُسن سياسةٍ تحمدُ الأمةُ ـ إن شاء الله تعالى ـ عاقبتَها عند الكِبَر ، وتكونُ

(١) لعله بالإيهام أي تارة بالنزول بهم وتارة بالرعب .

الأخلاقُ الملوكيةُ منتشئة منه ومنتشئةً به من الصِّغَر ، ونجعل سَعْيَ الأمة حميدا ، ونَهَبَ لهم منه سلطانًا نصيرًا ومُلكا سعيدا ، ونُقوِّى به عَضُد الدين ونَرِيش جَناحَ الملك ، ونُنجِح مَطْلَبَ الأمة بإياباته وكيف لاينجح مطلَب فيه بركه ؟ .

وخرج أمرُنا لا برِح مُسعِدا ومُسْعِفا ، ولا عَدِمت الأمةُ منه خَلَفا مُنِيلاً[(١)] ونَوْءًا مُخلِفا ، بأن يُكتَب هذا التقليد لولدنا السعيد ناصر الدين « بركة خاقان محمد » جعل الله مَطْلَع سعده بالإشراق محفوفا ، وأرى الأمة من مَيَامنه مايَدفَع للدهر صَرْفا ويُحسِن بالتدبير تَصْريفا ــ بولاية العهد الشريف على قُرْب البلاد وبُعْدها ، وغَوْرها ونَجْدها ، وقلاعها وثُغُورها ، وبُرورها وبُحورها ، وولاياتها وأقطارها ، ومُدُنها وأمصارها ، وسَهْلها وجبلها ، ومُعطَّلها ومُغتَلِّها ، وماتحوى أقطارَه الأحلام ، ومايُنسَب للدولة القاهرة من يَمَنٍ وحِجازٍ ومصر وغَرْب وسَواحل وشامٍ بعدَ شام ، وما يتداخلُ ذلك من قِفَار ومن بِيد فى سائر هذه الجهات ، وما يتخلَّلها من نِيل ومِلْح وعَذْب فُرات ، ومَنْ يسكُنُها من حقير وجليل ، ومن يَحُلُّها من صاحب رُغاء وثُغاء وصَليل وصَهيل ؛ وجعلنا يده فى ذلك كلِّه المبسوطه ، وطاعته المشروطة وتَواميسَه المضبوطه ؛ ولا تدبيرَ مُلكٍ كُلِّىّ إلا بنا أو بولدنا يُعمَل ، ولا سَيْفَ ولا رِزْقَ إلا بأمرنا هذا يُسَلُّ وهذا يُنال ؛ ولا دَسْتَ سلطنةٍ إلا بأحدنا يتوشَّح منه الإشراق ، ولا غُصْنَ قلم فى روض أمرٍ ونَهْى إلّا ولدينا ولديه تمتدُّ له الأوراق ؛ ولا منبرَ خطيبٍ إلا باسمنا يميس ، ولا وجهَ درهم ولا دينارٍ إلا بنا يُشرِق ويكادُ تبرُّجًا لا بَهْرَجًا يتطلَّع من خلال الكيس .

فليتقلَّد الولدُ ماقلَّدناه من أمور العباد ، وليَشرَكْنا فيما نباشره من مصالح الثُّغور والقلاع والبلاد ؛ وستعاهد هذا الولَد من الوصايا بما سَيَنْشأ معه توءما ، ويمتزج

(١) يقال أنيلت الرجل ونيلته اذا ناولته النيل أى والمراد أنه نافع معين تأمل .

بلحمه ودمــه حتى يكاد يكون ذلك إلهـاما لاتعلّمـا ، وفى الولد بحمد الله من نفاذ الذهن وصحة التصور ماتتشكل فيه الوصايا أحسن التشكيل ، وتظهر صورة الإبانة فى صفائه الصقيل ، فلذلك استغنينا عن شرحها هاهنا مسروده ، وفيه ـ بحمد الله ـ من حسن الخليقة مايحقق أنها بشرف الإلهـام موجوده ، والله لايعدمنا منه إشفاقا وبرا ، ويجعله أبدا للأمة سندا وذخرا ، إن شاء الله تعالى .

⁂

وعلى ذلك كتب القاضى محيى الدين بن عبدالظاهر أيضا عن المنصور «قلاوون» عهد ولده الملك الأشرف صلاح الدين « خليل » وهذه نسخته :

الحمـد لله الذى لم يزل له السمع والطاعة فيما أمر ، والرضا والشكر فيما هدم من الأعمار وما عمر ، والتفويض فى التعويض إن غابت الشمس بقى القمر .

نحمده على أن جعل سلطاننا ثابت الأركان ، كل روضة من رياضه ذات أفنان ، لاتزعزعه ريح عقيم ، ولايخرجه رزء عظيم عن الرضا والتسليم ، ولا يغتبط من جملته كريم إلا ويغتبط من أسرته بكريم ، ونشهد أن لاإله إلا الله وحده لاشريك له شهادة تزيد قائلهـا تفويضا وتجزل له تعويضا ، وتحسـن له على الصـبر الجميل فى كل خطب جليل تحريضا ، ونشهد أن محمدا عبده ورسوله الذى أنزل عليه فى التسليم : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ ﴾ . والنبى الذى أوضح به المنـاهج وبين به السبل ، صـلى الله عليه وعلى آله وأصحابه ماتجاوبت المحاير والمنـابر فى البكر والأصل ، وما نثرت عقود ونظمت ، ونسـخت آيات وأحكمت ، ونقضت أمور وأبرمت ، وما عزمت آراء فتوكلت وتوكلت فعزمت ، ورضى الله عن أصحابه

الذين منهم من كان للخليفة نِعْمَ الخليفه ، ومنهم مَنْ لم يُدْرِك أحدٌ فى تَسْويد النفْس الخَصِيفة ولا فى تبييض الصَّحيفة مُدَّه ولا نَصِيفه ؛ ومنهم من يسَّره الله لتجهيز جَيْش العُسْرة فعرَفَ اللهُ ورسولُه معروفَه ، ومنهم من عمِل صالحًا أرضَى ربَّه وأصلَح فى ذُرِّيته الشريفه .

وبعدُ ، فإن من ألطاف الله تعالى بعباده ، وأكتناف عواطفه ببلاده ؛ أنْ جعلنا كُلّما وهَى للمُلْك ركنٌ شديدٌ شيَّدنا رُكْنًا عِوَضه ، وكلما أعترضتْ للقادير جملةٌ بدَلْنا آيةً مكانَ آيةٍ وتناسَيْنا - تجلُّدا - تلك الجملةَ المعترِضه ؛ فلم يُحْوِج اليومَ لأمْسِه ، وإن كان حميدا ، ولا الغارسَ لغَرْسه ، وإن كان ثمرُه يانعًا وظلّه مديدا ؛ فأطلَعْنا فى أُفُق السلطنة كوكبًا سعيدا كان لحُسْن الأستخلاف مُعَدّا ، ومَنْ لقَبِيل المسلمين خيرُ ثوابا وخيرُ مَرَدّا ؛ ومن يبشِّرُ الله به من الأولياء المتّقين ويُنْذِرُ من الأعداء قومًا لُدّا ، ولم يبقَ [إلا] به أنْسنا بعدَ ذهاب الذين نحِبُّهم (كالسيف فَرْدا) ؛ والذى ماأمضَى حدّه ضريبةً إلا (قدَّ البِيضَ والأبدانَ قَدّا) ؛ ولا جهَّز رايةَ كتيبةٍ إلا أغْنَى غَناءَ الذاهبين وعَدَّ الأعداءَ عدّا ؛ ولا بعثَه جَزَع فقال : (كم من أخٍ لى صالحٍ) إلّا لقِيَه ورَعٌ فقال : (وخُلِقتُ يوم خُلِقتُ جَلْدا) ؛ وهو الذى بقَواعد السلطنة أدرَى وبقوانينها الأعْرَف ، وعلى الرَّعايا الأعْطَف وبالرَّعايا الأرْأَف ؛ وهو الذى ما قيل لبناء مُلْك هذا عليه قد وَهَى إلّا وقيل هذا بناءٌ مثلُه منه أسمَى مِلْكٌ أشرَف ، والذى مابرِح النصرُ يتنسَّم من مَهابِّ تأميله الفَلاح ، ويتبسَّم ثغرُه فتتوسَّم الثغورُ من مَبْسَمه النَّجاح ؛ ويقسم نُورُه على البسيطة فلا مِصْرٌ من الأمصار إلّا وهو يَتشرَّبُ إلى ملاحظة جبين عهْده الوَضّاح ، ويتفّق أشتقاقُ النُّعوت فيقول المتَمَلِّي للتملِّي : سواءٌ الصالحُ والصَّلاح ؛ والذى مابرِح لشِعار السلطنة إلى توقُّله وتنقّله أتمَّ حَنِين ، وكأنما كُوشِفت الإمامة العباسيةُ بشرَف مسمّاه فيما تقدّمَ من زمنٍ سلَفَ ومنْ حِين ؛ فسمَتْ ووسَمت بأسمه

أكابر الملوك وأخاير السلاطين، مخُوطَب كلٌّ منهم مجازا لا كهذه الحقيقة «بخليل» أمير المؤمنين، والذى [كم] جلا ببهى جَبينه من بهيم، وكم غدا المُلك بحُسْن رُوائه ويُمْن آرائه يهيم، وكم أبرأ مَوْردُه العذبُ هيمَ عِطاش ولا يُنكَر الخليل إذا قيل عنه أبراهيم، ومن تَشْخَص الأبصارُ لجمَاله يوم رُكُوبه حَسيره، وتُلقى البَنانُ سلاحَها ذَهَلا وهى لاتدرى لكثرة الإيماء إلى جَلاله إذا يَبْدُو مَسيره، والذى ألهم اللهُ الأمةَ بجوده ووُجُوده صَبرا جميلا، وآتاهم من نَفاسة كرمه وحراسة سَيْفه وقَلمه تأمينا وتأميلا، وعَظُم فى القلوب والعُيون بما من بِرّه سيكون فسمَّتْه الأبوّة الشريفةُ ولَدا وسمّاه الله «خليــلا» .

ولمّا تحتّم من تفويض أمر المُلك إليه ماكان لوقته المعلوم قد تأخّر، وتعيّن حينه فكمَل زيادةً كزيادة الهلال حتّى بادرَ تمامَه فأبدَر ، اقتضى حُسْنُ المناسبة لمصالح الجُمهور، والمراقبة لمصالح الأُمور، والمُصاقبة لمَناجح البلاد والثُّغور، والمُقاربة من فوائح كلّ أمر مَيْسور، أن نُفوّض إليه ولايةَ العهد الشريف بالسلطنة الشريفة المعظّمه، المكرّمة المفخّمة المنظّمه ، وأن يَبسُط يدَه المُنيفةَ لمصافحتها بالعُهود ، وتحكّمها فى العساكر والجُنود ، وفى البُحور والثُّغور وفى التّهائم والنُّجود ، وأن يُعلَق بَبسْطها وقَبْضها كلُّ قَطْع ووَصْل، وكلُّ فرع وأصل، وكلُّ نَصْر ونَصْل ، وكلُّ مايجى سَرْحا ، ويَحمى مَنْحا ، وفى المُثيرات فى الإعداء على الأعداء نَقْعا وفى المُغيرات صُبْحا ، وفى المَنْع والإطلاق ، وفى الإرفاد والإرفاق ، وفى الخَميس إذا ساق ، وفى السيوف إذا بلغت التراقى وقيل مَن راق ، وفى الرِّماح إذا التفّت الساقُ بالسّاق ، وفى المُعاهَدات والهُدَن ، وفى الفداء بما عَرَض من عرض وبالبُدْن بالبَدَن، وفيما ظَهر من أُمور المُلك وما بطَن، وفى جميع ماتستدعيه بواعثُه، فى السرّ والعَلَن، وتسترعيه نوافثُه، من كُتب وكُتُب متفرّقين أو فى قَرَن، عهدا مباركا عُوذه

وتمائمه ، وفواتحه وخواتمه ؛ ومناسمه ومياسمه ، وشروطه ولوازمه ؛ وعلى عاتق الملك الأعز نجاده وفى يد جبّار السموات قائمه ؛ لا رادّ لحكمه ولا ناقض لبرمه ، ولا داحض لما أثبتته الأقلام من مكنون علمه .

[و] يزيده مرّ الليالى جدّة ﴿ وتقادم الأيام حسن شباب

وتلزم السنون والأحقاب ، استيداعه للذرارى والأعقاب ؛ فلا سلطان ذو قدر وقدره ، ولا ذو أمر وإمره ؛ ولا نائب فى مملكة قربت أو بعدت ، ولا مقدّم جيوش أتهمت أو أنجدت ، ولا راع ولا رعيّه ، ولا ذو حكم فى الأمور الشرعيّه ؛ ولا قلم إنشاء ولا قلم حساب ، ولا ذوو أنساب ولا ذوو أسباب ؛ إلا وكلّ داخل فى قبول هذا العقد الميمون ، ومتمسّك بحكم كتابه المكنون ، والتسليم لنصّه الذى شهد به من الملائكة الكرام الكاتبون ؛ وأمست بيعته بالرّضوان محفوفه ، والأعداء يدعونها تضرّعا وخيفه ، وليشكروا الصنيع الذى بعد أن كانت الخلفاء تسلطن الملوك قد صار سلطانهم يقيم من ولاة العهد خليفة بعد خليفه .

وأمّا الوصايا فأنت ياولدنا الملك الأشرف ـ أعزّك الله ـ بها الدّرب ، ولسماع شدوها وحدوها الطّرب ، الذى للّغو لا يضطرب ؛ فعليك بتقوى الله عز وجلّ فإنها ملاك سدادك ، وهلاك أضدادك ؛ وبها يراش جناح نجاحك ، ويحسن اقتداء اقتداحك ؛ فاجعلها دفين جوانح تأميلك ووعيك ، ونصب عينى أمرك ونهيك ؛ والشرع الشريف فهو قانون الحق المتّبع ، ومأمون الأمر المستمع ؛ وعليه مدار إيعاء كلّ إيعاز ، وبه يتمسّك من أشار وامتاز ، وهو جنّة والباطل نار : ﴿فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ . فلا تخرج فى كلّ حال عن لوازمه وشروطه ، ولا تنكب عن معلّقه ومنوطه . والعدل فهو مثمر غروس الأموال ، ومعمّر بيوت

الرَّجاء والرِّجال، وبه تزكو الأعمار والأعمال ؛ فاجعله جامعَ أطراف مراسمك، وأفضلَ أيّام مواسمك ؛ وسِمْ به فعلك، وسِمّ به فرضك ونفلك، ولا تُفرد به فلانا دونَ فلان، ولا مكانًا دونَ مكان، واقرِنْه بالفضل : ﴿ إنَّ اللهَ يأمُرُ بالعـدل والإحسان ﴾ . وأحسِن التخويل، وأجمِل التنويل ؛ وكثِّرْ لمن حولك التموين والتمويل، وضاعِف الخير في كلِّ مُضاف لمَقامك، ومُستضيف بإنعامك ؛ حتى لاتَعدَم في كلِّ مكان وكلِّ زمان ضيافةَ الخليل ؛ والثغور فهي للمالك مَباسِمُها، وللسالك مَناسِمها ؛ فاجعل نواجذَها تفترُّ عن حسن ثنايا الصَّون ، ومراشفَها شَنِبةَ الشِّفاه بحُسن العَون ؛ ومُنها ؛ بما يَحمي السَّرح منها، وأعِنها ، بما يدفع المكاره عنها ؛ فإنها للنصر مقاعد ، وبها حِفظُ البلاد من كلِّ مارٍّ من الأعداء مارد ؛ وأمراءُ الجيوش فهم السُّورُ الواقي بين يدَيْ كلِّ سُور ، وما منهم إلا كلُّ بطَل بالنصر مشهور ، كما سيفُه مشهور ؛ وهم ذخائرُ الملوك، وجواهر السُّلوك، وأخايرُ الأكابر الذين خلَصُوا من الشكوك ؛ وما منهم إلا مَنْ له خِدَمات سلَفت، وحقوق عُرِفت ، ومواتٌ على استلزام الرِّعاية للعهود وُقفت ؛ فكُنْ لجنودهم متحبِّبا، ولمراتبهم مُخصِبا، ولمصالحهم مُرتِّبا، ولآرائهم مستصوِبا، ولاعتضادهم مستصحِبا، وفي حمدهم مُطنِبا، وفي شكرهم مُسهِبا ؛ والأولياءُ المنصوريُّون الذين هم كالأولاد، ولهم سوابقُ أمّتْ من سوابق الإيجاد ؛ وهم مَنْ علمتَ استكانةً من قُربنا ، ومكانةً من قلبنا ؛ وهم المساهمون فيما ناب ، وما برِحُوا للدولة الظُّفُرَ والناب ؛ فأسْهِم لكلِّ منهم من احترامك نَصيبا ، وادِمْ لهم ارتياحك ، وألِنْ جناحك، وقوِّهم بسلاحك، تجدْ منهم ضُروبا، وترى كُلًّا منهم في أعدائك ضَروبا .

وكما أنا نُوصيك بجيوش الإسلام، كذا نُوصيك بالجيش الذي له الجوارِ المُنشآتُ في البحر كالأعلام ؛ فهو جيشُ الأمواه والأمواج ، المضافُ إلى الأفواج من جيش

الفِجَاج ؛ وهو الجيشُ السُّلَيمانىُّ فى إسْراع السـير ، وما سُمِّيت شَـوانيه غِرْبانا إلا ليجتمِع بها لنـا ما آجتمع لسليمانَ صلّى الله عليه وسلم من تسخير الريح والطَّيْر؛ وهى من الديار المصرية على ثَبَج البحر الأسْوار ، فإن قُذِفت قَذَفَتْ الرعب فى قلوب الأعداء وإن أُقْلِعت قلعَتْ منهم الآثار ، فلا تُخْلِه من تجهيز جَيْشه ، وسكِّنْ طَيْش البحر بطَيْشه ؛ فيُصْبِح لك جيشان كلٌّ منهما ذو كَرٍّ وفَرٍّ : هذا فى بَرٍّ بحرٍ وهذا بحرٍ برٍّ ؛ وبيوت العبادات فهى التى إلى مصلَّى سميِّك «خليل» الله تنتهى محاريبُها ، وبها لنا ولك وللسلمين سُرىَ الدَّعوات وتأْويبُها ، فوَفِّها نصيبَها المفروضَ غير منقوص ، ومُرْ برفعها وذِكْرِ آسم الله تعالى [فيهـا] للأمر المنصُوص ؛ وأخواتُهـا من بُيُوت الأموال الواجدات الواجبات ، من حيثُ إنهـا كلَّها بيوتُ الله عز وجل : هذه للصَّلاة وهذه للصَّـلات ؛ وهذه كهذه فى رَفْع المَنَار وجمع المَبَار ، وإذا كانتْ تلكَ ممـا أَذِنَ اللهُ أن تُرْفَع ويذْكَر فيها آسْمُه فهذه تُرْفَع ويُذْكَر فيها آسْمُـه حتّى على الدِّرهم والدِّينار ؛ فآصرِفْ إليها آجتهادَك فيما يعُود بالتثمير ، كما يعُود على تلكَ بالتَّنْوير ؛ وعلى هذه بإشحانها(١) بأنواع الصُّروف ، كإشحان(١) تلك باستواء الصُّفُوف ، فإنها إذا أصبحَتْ مَصُونه ، أجملَتْ بحمـد الله المَعُونه ، وكَفَلَتْ بالمئونة وبالزيادة على المَئُونه ، فتكفَّل هذه لكل وَلِىِّ دُنْياه كما كَمُلَتْ تلك [لكل] وَلِىِّ دِينه ؛ وحدود الله فلا يتعدّاها أحد ، ولا يرأَفْ فيها ولَدٌ بوالد ولا والد بولَد ، فأقِمْها وقُمْ فى أمرها حتّى تنضبط أتمَّ الضبط ، ولا تجعَـلْ يدَ الفَتْك مغلولةً إلى عُنُقها ولا تَبْسُطْها كُلَّ البَسْط ، فلكلٍّ من الجنايات والقِصَاص شَرْط شرَطه الله وحدٌّ حدّه فلا يتجـاوَزْ أحد ذلك الحـدّ ولا يخرج عن

---

(١) لعل الصواب بشحنها من شحن الثلاثى يقال شحنه يشحنه ملأه ، وأما الرباعى فمعناه الاغماد يقال سيوف مشحنة أى مغمدة وأشحن الرجل اشحانا تهيأ للبكاء وهو غير مناسب هنا تأمل .

ذلك الشرط ، والجهاد فهو الدَّيْدن المألوف من حيث نشأ نشأ ونشأتك (١) وفى ظهور الخيل ، فمِلْ على الأعداء كُلّ المَيْل ، وصبّحهم من فتكاتك بالوَيْل بعد الوَيْل ، وارْمِهم بكلّ شِمْرِيّ (٢) قد شمّر من يده عن الساعد ومن رُمحه عن الساق ومن جَواده الذَّيْل ، واذهبْ لهم من كلّ ذلك مَذهب ، وأرِ نجُوم الخرصان كلّ غَيّ وغَيْهب ، وتَكَثَّرْ فى غزوهم من الليل بكلّ أدهَم ومن الشَّفَق بكلّ أحمَر وأشقَر ومن الأصيل بكلّ أصفَر ومن الصبح بكلّ أشْهب ، واستَنِبْ أعمارهم واجعلْها آخِرَ ما يُسلَب وأوّلَ ما يُنْهَب ، ونرجو أن يكونَ اللهُ قد خَبأ لك من الفُتُوحات ما يستنجزُها لك صادقُ وَعْده ، وأن ينصُرَ بك جُيوشَ الإسلام ، فى كلّ إنجاد وإتْهام ، وما النَّصْرُ إلّا من عِنده ، وبيت الله المحجُوجُ من كلّ فَجّ ، المقصودُ من كلّ نَهج ، فسَيِّر سبيلَه ، ووسّعْ [له] الخيرَ وأحسِن تسبيلَه ، وأوصِلْ من بِرِّك لكلّ من الحرمَين ماهو لَه ، لتُصبِحَ رُبوعُه بذلك مأهولَة ، وآحْمِه ممّن يُرِيدُ فيه بإلحادٍ بظُلْم ، وطَهِّره من مَكْس وغُرْم : ليعُودَ نفعُك على البادى والعاكف ، وتُصبِحَ واديه ونادِيه مستغنِيَين بذلك عن السَّحاب الواكف ، والرعايا فهم للعَدْل زُروع ، وللاستِثمار فُرُوع ، ولاستلزام العمارة شُرُوع ، فمَتَى جادَهُم غيثُ أعجَبَ الزُّرّاعَ نَباتُهم ، ونَمَت بالصَّلاح أقواتُهم ، وصلَحتْ بالنَّماء أوقاتُهم ، وكَثُرت للجنود مستغَلّاتُهم ، وتوفَّرت زَكَواتُهم وتنوّرتْ مِشكاتُهم ، والله يضاعِفُ لمَنْ يَشاء .

هذا عهدُنا للسيد الأجلّ ، الملك ، الأشرف ، صلاح الدنيا والدين ، فخر الملوك والسلاطين ، خليل أمير المؤمنين ، أعزّ الله تعالى ببقائه الدِّين ، فليكُنْ بعُروته متمسّكا ، وبنَفحته متمسّكا ، وليتقلّد سيفَ هذا التقليد ، وبفتْحِ مُغلَق كلّ فتح منه

---

(١) بياض فى الأصل بقدر كلمة صغيرة .

(٢) الشمرىّ بفتح الشين وكسرها مع شد الميم فيهما الماضى فى الأمور المجرب انظر اللسان ج ٦ ص ٩٦ .

بخير إقليد، وها نحن قد كثّرنا لديه جواهره فدونه مايشاءُ تحليتَــه من تتويج مَفرِق وتختيم أنامِلَ وتسوير زَند وتطويق جِيد، ففى كلّ ذلك تجميلٌ وتمجيد، والله تعــالى يجعل آستخلافَه هــذا للمتقين إماما، وللدّين قِواما، وللجاهدين آعتصاما، وللمعتدين آنفصاما، ويُطفِئ بمياه سُيوفه نار كلّ خَطْب حتى يُصبِح كما أصبحت نارُ سَمِيِّــه صلّى الله عليه وسلم بَرْدًا وسَلَاما، إن شاء الله تعالى .

* * *

وعلى ذلك كتب القاضى محيى الدين بن عبد الظاهر، عن المنصور « قلاوون » المتقدّم ذكره، عهدَ ولده الملكِ الصالح «علاءِ الدّين على» وهذه نسخته :

الحمد لله الذى شرّف سريرَ المُلْك منه بعَلِيِّه، وحاطه منه بوَصِيِّه، وعضَد منصُورَه بولاية عهد صالِحه وأسمى حاتِمَ جُوده بمكارمَ حازها بسَبْق عَدِيِّه ، وأبهج خيرَ الآباء من خير الأبناء بمن سُمُوّ أبيه منه بشريف الخُلُق وأبِيِّه، وغَذّى روضَه بمتابعة وَسْمِيِّه وبمسارعة وَلِيِّه .

نحمَدُه على نِعَمه التى جمعتْ إلى الزّهَر الثمَر، ودارَكتْ بالبحر وباركتْ فى النّهَر، وأجملتِ المبتدأ وأحسنَتِ الخبَر، وجمعتْ فى لَذاذة الأوقات وطِيبها بين رَوْنق الآصالِ ورِقّة البُكَر. ونشهد أن لا إلٰهَ إلا الله وحده لاشريكَ له شهادةً تُلبِس الألسنةَ منها فى كلّ ساعة [ثوبا] جَديدا، وتتفيّأ منها ظِلًّا مَديدا، ونستقرب من الآمال مايَراه سِوَانا بَعِيدا. ونصلّى على سيدنا محمد الذى طَهَّر الله به هذه الأمّةَ من الأدْناس، وجعلها بهدايته زاكيَةَ الغِرَاس؛ صلّى الله عليه وعلى آله وصَحْبه الذين منهم من فَهِم حُسْنَ آستخلافه بالأمر له بالصّــلاة بالنــاس، ومنهم من بنى الله به قواعدَ الدّين وجعلها مُوطّدة الإساس، ومنهم من جهّز جيشَ العُسْرة وواسى بمــاله حين الضَّرّاء

والبأس ، ومنهم من قال عنه صلّى الله عليه وسلم : " لَأُعْطِيَنَّ الرَّايَةَ غَدًا رَجُلًا يُحِبُّه اللهُ ورسولُه ويُحِبُّ اللهَ ورسولَه " حُسْنَ الالتماسِ بذلك والاقتباس ، وزاد فى شرفه بأن طَهَّر أهلَ بيتـه وأذهب عنهم الأرجاس ، صلاةً لاتزال تَتَردَّدُ تَرَدُّدَ الأنفاس ، ولا تَبرح فى الآناء حسنةَ الإيناس .

وبعد ، فإنّ خير من شَرُفت مراتبُ السـلطنة بحُلُوله ، وفُوِّفت ملابسُ التحكيم بقَبُوله ، ومَنْ تَزْهى مطالـعُ المُلْك بإشراقه ، وتتبادرُ الممالكُ مُذْعنةً لاستحقاقه ، ومن يَزدهي مُلْكُ منصورُه ــ نصره الله ــ بولَدِه وولىّ عهـده مَكْنَةً بانيه ، ومن يتشرّف إيوانُ عظمةٍ : إن غاب والدُه فى مصلحة الإسـلام فهو صدْرُه وإن حضر فهو ثانيه ، ومن يتحمّل غابُ الإيالة منه بخير شبلٍ كَفَلَ لَيْثا ، ويتكفّل غوثُ الأمّة بخير وابلٍ خلَفَ غَيْثا ، ومن أُلْهِم الأخلاقَ الملوكيّةَ وأُوتِىَ حُكْمَها صبيًّا ، ومن خصّصته الأدعيةُ الشريفةُ بصالحها ولم يكُن بدُعائها شَقِيًّا ، ومن رُمت به هَضْبةُ المُلْك حتّى أمسىٰ مَكانُها عليّا ، ومن هو أحقُّ بأن يُنْجِب الأملَ ويُنْجِح ، وأولىٰ بأن يُتْلىٰ له : ﴿ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ ﴾ . ومن هو بكلّ خيرٍ مَلِيّ ، ومَنْ إذا فُوِّضت إليه أمورُ المسلمين كان أشرَفَ من لأمورهم يَلِي ، ومن يَتحقّق من والدِه الماضى الغِرار ، ومن اسْمِه العالى المَنار ، أنْ لاسيفَ إلا ذُو الفقار ولا فتىٰ إلا علِيّ .

ولمّا كان المقامُ العـالى ، الولَدِيّ ، السـلطانى ، المَلَكِيّ ، الصالحيّ ، العلائىّ ــ عضَد اللهُ به الدّيـن ، وجمعَ إذعانَ كلّ مؤمن على إيجاب طاعتـه لمباشرة أمور المسلمين ، حتّى يُصْبِح وهو صالح المؤمنين ــ هو المرجوّ لتدبير هذه الأُمُور ، والمأمولَ لصَلاح البلاد والثُّغور ، والمدّخَر فى النصر لشِفَاء ما فى الصُّدُور ، والذى تَشهد الفِراسةُ لأبيه وله بالتحكم : أو ليس الحاكمُ أبو علىّ هو المنْصُور " . فلذلك اقتضت الرحمة ،

والشفقةُ على الأمه ، أن يُنْصَب لهم ولىّ عهد يتمسَّكون من الفضل بعُرْوة كرمه ، ويَسْعَوْن بعد الطواف بكعْبة أبيه لحَرَمه ، ويقتطِفون أزاهرَ العدل وثمارَ الجُود من كَلِمه وقلمه ، وتَستسعِدُ الأمةُ منه بالملِك الصالح الذى تُقْسم الأنوارُ لجبينه وتُقسَّم المبارّ من كراماته وكَرَمه .

فلذلك خرج الأمرُ العالى ، المولوىّ ، السلطانىّ ، الملكىّ ، المنصورىّ ، السيفىّ — أخلده الله القَدَر ، ولا زالت الممالكُ تتباهى منه ومن وَلِىّ عهده بالشمس والقمر — أن يُفوَّض إليه ولايةُ العهد وكَفالةُ السلطنة المعظَّمة ، ولايةً تامّةً عامّةً شاملةً كاملة ، شريفةً مُنيفه ، عَطُوفةً رَءُوفه ، فى سائر أقاليم الممالك وعساكرها وجُنْدها ، وعَرَبها وتُرْكُمانها وأكرادها ونُوّابها ووُلاتها ، وأكابرها وأصاغرها ورَعَاياها ورُعاتها ، وحُكّامها وقُضاتها ، وساحلها وساحلها ، بالديار المِصْرية وثُغُورها وأقاليمها وبلادها ، وما آحتوتْ عليه . والمملكة الحجازيّة ، وما آحتوتْ عليه . ومملكة النُّوبة ، وما آحتوتْ عليه ، والفُتُوحات الصفَدية والفُتُوحات الإسلاميّة الساحلية وما آحتوتْ عليه . والممالك الشاميّة وحُصُونها ، وقِلَاعها ومُدُنها ، وأقاليمها وبلادها ، والمملكة الحِمْصيّة ، والمملكة الحِصْنية الأكراديّة والجبلية وفُتُوحاتها ، والمملكة الحَلَبية وثُغُورها وبلادها ، وما آحتوت عليه ، والمملكة الفُراتيّة ، وما آحتوتْ عليه ، وسائر القِلاع الإسلامية بَرًّا وبحرا ، وسَهْلا ووَعْرا ، شامًا ومصرا ، يمنًا وحجازا ، شرقا وغربا ، بُعْدا وقُرْبا . وأن تُلْقَى إليه مَقاليدُ الأمور فى هذه الممالك الشريفه ، وأن تستخلفه سلطنةُ والده — خلّد الله دولته — لتُشاهدَ الأمةُ منه فى وقتٍ واحدٍ سلطانا وخليفه ، ولايةً وآستخلافا تُسنِدُهما الرُّواه ، وتترنَّم بهما الحُدَاه ، وتعِيهما الأسماعُ وتنطق بهما الأفواه ، تفويضًا يُتلَى لكافّة الأمم ، ولكلّ ربّ سيفٍ وقلم ، ولكل ذى علمٍ وعلَم ، بما قاله صلّى الله عليه وسلم لسميّه رضى الله عنه حين أولاه من الفخار ما أولاه :

"من كُنتُ مَولاه فعليٌّ مَولاه" . فلا مَلِكُ إقليم إلّا وهذا الخطابُ يَصِله ويُوصَله ، ولا زعيمُ جيشٍ إلا وهـذا التفويضُ يسَعُه ويشـمَلُه ، ولا إقليمٌ إلّا وكلُّ مَنْ به يُقبِّله ويقبَله ، ويمثُل بين يديه ويمتثِلُه ، ولا منبرٌ إلّا وخطيبُه يتلو قُرقانَ هـذا التقديم ويرتّله .

وأمّا الوَصايا فقد لَقَّنّا ولَدَنا وولِيَّ عهدِنا ما ٱنطَبع في صفاء ذِهنه ، وسرت تغذيته في نَمـاء غصنه ، ولا بُدّ من لوامعَ للتبرُّك بها في هذا التقليد الشريف تُنير ، وجوامعَ بحر لحرمها (؟) حيث يصير ، وودائـعَ يُنبّئك عنهـا ولَدُنا ـ أعزنا الله ببقائه ـ (١) ولا ينبّئك مِثلُ خَبير : فاتّقِ الله كأنّك تَراه فإنْ لم تكُنْ تَراه فإنّه يَراك ، وٱنصُرِ الشرعَ فإنّك إذا نصرْتَه ينصُرُك اللهُ على أعداء الدِّين وعِداك ، وٱقضِ بالعدل مخاطِبا ومكاتِبا حتّى يستَبِق إلى الإيعاز به لسانُك ويُمناك ، وأْمُرْ بالمعروف وٱنْهَ عن المنكَر عالما أنه ليس يُخاطَبُ غدًا بين يدَي الله عن ذلك سِواكَ وسِـواك ، وٱنْهَ نفسَـك عن الهوى حتّى لا يراك اللهُ حيثُ نَهـاك ، وحُطِ الرعيّـه ، ومُرِ النُّوّابَ بحملِهم على القضايا الشرعيّه ، وأقِمِ الحُدُود ، وجَنِّـد الجُنود ، وٱبعثْها بَرًا وبحرا من الغَزْو إلى كلِّ مقام محمود ، وٱحفَظِ الثُّغور ، ولاحِظِ الأُمور ، وٱزدَدْ بالاسترشاد بآرائنا نُورا على نُور ؛ وأمراء الإسلام الأكابر وزُعَماؤه ، فهم بالجهاد والذَّبّ عن العباد أصفياءُ الله وأحبّـاؤه ؛ فضاعِفْ لهم الحُرْمةَ والإحسان . وٱعلمْ أنّ الله ٱصطفانا على العالمين وإلّا فالقومُ إخوان ؛ لاسيّما أولُو السـعْي الناجح ، والرأْي الراجح ، ومن إذا نُخرُوا بنِسْبة صالحية قيل لهم : نِعْمَ السَّلَفُ الصالح ؛ فشاوِرْهم في الأمر ، وحاوِرْهم في مهمّات الأمور في كلّ سرٍّ وجهْر ؛ وكذلك غيرهم مِن أكابر الأُمراء الذين هم من تَحايا

---

(١) كذا في الأصول ولعله تعز بجيوشها حيث تسير . تأمل .

الدُّول، وذخائرِ الملوك الأُوَل؛ أَجْرِهم فى هذا المَجْرَى؛ وآشرَحْ لهم بالإحسان صَدْرا؛ وجيوش الإسلام هم البَنان والبُنْيان، فَوالِ إليهم الامْتِنان؛ وآجعل محبّتك فى قلوبهم بإحسانك إليهم حسنة المَرْبَى، وطاعتَك فى عقائدهم قد شَغَفها حُبّا: لِيُصبِحوا بحُسْن نظرك إليهم طَوْعا، ولِيُحصِّل كلُّ جيش منهم من التقرب إليك بالمُناصحة نَوْعا؛ والبلاد وأهلها فهم عندك الوديعه، فآجعل أوامرك [لهم] بَصيرة وسَميعه.

وأما غيرُ ذلك من الوصايا، فسَتُخوِّلك منها بما يَنْشأ معك تَوْءما، ونلقّنك من آبائها مُحْكمًا فمُحْكما؛ والله تعالى يَحْمِى هلالَك حتى يُوصِّله إلى درجة الإبدار، ويغَذِّى غُصنَك حتى نراه قد أينَع بأحسن الأزهارِ وأينَع الثمار؛ ويرزُقُك سعادةَ سلطاننا الذى نُعِتَ بنَعْته تبرُّكا، ويُلْهِمك الاعتضادَ بشيمته، والاستنانَ بسُنّته، حتى تُصبح كتَمسُّكنا بذلك متمسِّكا، ويجعل الرعيةَ بك فى أمْن وأمان حتى لاتخشَى سُوءا ولا تخافُ دَرَكا؛ والاعتمادُ على الخط الشريف ـ أعلاه الله تعالى ـ أعلاه إن شاء الله تعالى.

الوجــــه السادس

(فيما يُكتَب فى مستَنَد عهدِ ولىِّ العهد بالسلطنة، وما يكتُبه السلطان فى بيت العلامة، وما يُكتَب فى ذَيل العهد)

أما ما يُكتَب فى مستَنَد العهد وما يكتُبه السلطانُ فى بيت العلامة، فكغيره من سائر الوِلايات من التقاليد وغيرها: وهو أنه يكتب فى المستند «حَسَب المرسوم الشريف» كما يُكتب فى المكاتَبات التى هى بتلَقّى كاتب السر على ماتقدم ذكره فى بابه. ويكتُب السلطانُ فى بيت العلامة آسمَه وآسمَ أبيه.

وأما مايكتب في ذيل العهد وشهادة الشهود على السلطان بالعهد ، فمثل أن يكتب : « شهدتُ على مولانا السلطانِ الملكِ الفلانىّ العاهدِ المشارِ إليه فيه خلّد الله مُلْكه ، أوخلّد الله سلطانه » وماأشبه ذلك من الدعاء « بما نُسِبَ إليه فيه من العهد بالسلطنة الشريفةِ إلىٰ ولده المَقام الشريف العالى السلطانىّ ، الملكىّ ، الفلانىّ ، وعلىٰ المعهودِ إليه ـ أعزّ الله أنصارَه ـ بقَبُول العهد المذكور ،وكَتَب فلانُ بنُ فلان» .

الوجـــــه السابع

(فى قطع ورق هذا العَهْد وقَلَمه الذى يُكتَب به ، وكيفيّة كتابته ، وصـــورة وضْـــعه فى الورق)

أما قطع ورَقه فمقتضىٰ إطلاق المَقرّ الشهابىّ بن فضــل الله فى « التعريف » أن للعهود قَطْع البغدادىّ الكامل أنه يكتب فى البغدادىّ أيضا .

قلت : وهو المناسبُ لعَظَمة السلطنة ، وشَماخَة(١) قَدْرها . إذ المُلْك إلىٰ ولىّ العهد آئل ، وللدُّخول تحتَ أمره صائر ، خصوصًا إذا كان المعهودُ إليــه ولَدا أو أخًا . وحينئذ فيكتب بمختَصَر قلم الطُّومار لمناسبته له ، علىٰ ما تقدّم فى غير مَوْضع .

وأما كيفيــة كتابته وصورةُ وضعها فى الورق ، فهو أن يخلّى من أعلىٰ الدَّرْج قدْر إصبع بياضًا . ثم يكتُب فى وسطه بقَلمٍ دقيق ماصورتُه «الأسْمُ الشريف» كما يكتب فى التقاليد وغيرها علىٰ ماسيأتى . ثم يبتدئ بكتابة الطُّرّة بالقلَم الذى يُكتَب به العهد من أوّل عَرْض الورق من غير هامش سُطورا متلاصــقة إلىٰ آخر الطُّرّة . ثم يَتْرُك ســتة أوصال بياضًا من غير كتابة غيرَ الوصل الذى فيــه الطرة . ثم يكتُب البسملة فى أوّل الوصل الثامنِ بحيث تلحقُ أعالى ألفاته بالوصــل الذى فوقَه ، بهامش عن

---

(١) لعل الصواب وشموخ قدرها فإنا لم نقف على هذا المصدر فيما بين يدينا من كتب اللغة فليحرر .

يمين الورق قدرَ أربعة أصابعَ أو خمســة مطبُوقة . ثم يكتب تحتَ البسملة سطرا من أوّل العهد ملاصقًا لهـا . ثم يخلِّ بيتَ العلامة قدرَ شبر كما فى عهود الملوك عن الخلفاء . ثم يكتبُ الســطر الثانى تحت بيت العلامة علىٰ سَمْت السطر الذى تحت البسملة ، ويَستَرسِل فى كتابة بقيّــة العهد إلىٰ آخره ، ويجعلُ بين كلّ سطرين قدرَ رُبع ذراع بذراع القُماش . فإذا انتهىٰ إلىٰ آخر العَهْـد كتب « إنْ شاء الله تعالىٰ » ثم المستَنَد، ثم الحَمْدلة والصلاةَ علىٰ النبىّ صلّى الله عليه وسلم والحَسْبلَة ، علىٰ ماتقدّم فى القَوَاتح والخَواتم . ثم يكتُب شهودُ العهد بعد ذلك .

وهذه صورة وضعه فى الورق ، ممثَّلا له بالطرّة التى أنشأتها لذلك ، وبالعهد الذى أنشأه القاضى مُحيى الدّين بن عبد الظاهر عن المنصور «قلاوون» بالعهد بالسلطنة لوَلَده الملِك الصالح « علاءِ الدّين علىّ » وهى :

هذا عهــدٌ شريفٌ جليلٌ قدْرُه ، رفيعٌ ذِكْرُه ، علىٌّ فَخْره ، مُتبلّج صُبحه ضَوْءَ فَجْره ؛ من الســلطان الأعظم الملِك الظاهر ، رُكْنِ الدنيا والدّين «بيبرس» خلّد الله تعالىٰ ســلطانَه ، ونصر جُيوشَــه وأعوانَه ، بالسلطنة الشريفة لولده المَقَام العــالى السلطانىّ ، الملَكىّ ، السعيدىّ ، بلّغه الله تعــالىٰ فيه غايةَ الآمال ، وحقّق فيه للرعية مايرجونه من مَزِيد الإفضال . علىٰ ما شرح فيه

بسم الله الرحمٰن الرحيم

هامش الحمــدُ لله الذى شــرّفَ سريرَ المــلك منه بعليّــه ، وحاطه

منه بوَصيّه ، وعَضّد منصورَه بولاية عهــد صالحه ، وأسْمىٰ حاتَم جُوده

هامش بمكارم حازها بسبق عديه، وأبهج خير الآباء من خير الأبناء بمن سُمُوُّ أبيه

منه بشريف الخُلُق وأبيه، وغذّى روضه بمتابعة وَسْميه، و بمسارعة وليّه.

نحمده على نعمه التي جمعت إلى الزّهر الثمر إلى أن يأتي إلى قوله : ولا يخافُ

دَرَكا والاعتمادُ على الخطّ الشريف ـ أعلاه اللهُ تعالى ـ أعلاه

إن شاء الله تعالى

كتب في

سنة

حسب المرسوم الشريف

الحمدُ لله وحده، وصلواتُه على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلامه

حسبنا الله ونعم الوكيل

النـــــوع الرابـــــع

(من العهود عهود الملوك بالسلطنة للملوك المنفردين بصغار البلدان)

ويتعلق النظر به من أربعة أوجه :

الوجـــــــه الأول

(في بيان أصل ذلك وأول حدوثه في هذه المملكة إلى حين زواله عنها)

قد تقدم في المكاتبات ، في الكلام على مكاتبة صاحب حماة أن ذلك ممـا كان في الدولة الأيوبية ، ثم في الدولة التركيـة في الأيام المنصورية « قلاوون » والأيام الناصرية « محمد بن قلاوون » ثم بطل ذلك . وذلك أن السلطان صـلاح الدين «يوسف بن أيوب» حين آستولى على البلاد الشامية مع الديار المصرية بعد موت السلطان نور الدين «محمود بن زنكي» صاحب الشام ، فرق أقاربه في ولاية الممـالك الشامية : كدمشق وحلب وحماة وحمص وغيرها وآستمرت .

وكان السلطان صلاح الدين قد ولى حماة لآبن أخيه تقي الدين عمر بن شاهنشاه آبن أيوب ، فبقيت بيده حتى توفي سنة سبع وثمـانين وخمسمائة . فوليها بعده آبنه المنصور ناصر الدين محمد وبقي بها حتى توفي سنة سبع عشرة وستمـائة . فوليها آبنه الناصر قليج أرسلان فبقي بها إلى أن آنتزعها منه أخوه المظفر في سنة ست وعشرين وستمائة ، وأقام بها إلى أن مات سنة ثلاث وأربعين وستمائة . فوليها آبنه المنصور محمد ، فبقي بهـا إلى أن غلب هولاكو ملك التتار على الشام وقتل من به من بقايا الملوك الأيوبية ، فهرب المنصور إلى مصر وأقام بها إلى أن سار المظفر قطز صاحب مصر إلى الشام ، وآنتزعه من يد التتار ، وصار الشام مضافا إلى مملكة الديار المصرية ،

فَرَدّ المنصورَ إلىٰ حمــاةَ ، فبقِى بها حتّى تُوفّى ســنةَ ثلاث وثمانين وستّمــائة . فولّى المنصورُ قلاوون آبنَه المظفَّر شادِى مكانَه ، وكتب له بها عَهْدا عنه ، فبقِىَ بها حتّى تُوفّى سنةَ ثمان وتسعين وستّمائة ، فى الأيام الناصرية « محمد بن قلاوون » فى سلطنته الثانية بعد «لاجين» . فولّى الملك الناصرُ قَراسُنْقُر أحدَ أمرائه نائبا ؛ فلما آستولىٰ غازانُ ملكُ التتار علىٰ الشام ، كان العادل كُتْبغا بعد خلعه من سلطنة الديار المصرية نائبا بصَرْخَدَ ، فاظهر فى قِتال التتار قُوّةً وجَلادة ، فولّاه الملكُ الناصر حَماةَ ، وحضر هزيمةَ التتار مع الملك الناصر ســنةَ آثنتين وسَبْعمائة ورجع إلىٰ حماة فمــات بها . فولّى الملكُ الناصرُ مكانَه سيفَ الدين قَبْجَق نائبــا ، ثم نقله إلىٰ حَلَب ، وولّى أسندمرَكَرْجى نيابةَ حماةَ مكانه . ولمــا رجع السلطانُ الملكُ الناصر من الكَرَك نقل أســندمرَكَرْجى من حماةَ إلىٰ حلب ، وولّى المؤيَّد عمادَ الدّين إسماعيلَ بنَ الأفضل علىِّ بنِ المظفَّر عمرَ ، مكانَه بحماةَ سنة ستَّ عشرةَ وســبْعمائة علىٰ عادة من تقدّمه من الملوك الأيُّوبية ، فبقِى بهــا إلىٰ أن تُوفّى ســنةَ ثنتين وثلاثين وسبْعمائة . فولّى الملكُ الناصر آبنَه الأفضلَ محمدًا مكانَه ، فبقِىَ بها حتّى مات الملكُ الناصر فى ذى الحِجّة سنةَ إحدىٰ وأربعين وســبعمائة ؛ وآستقرّ فى السلطنة بعــده آبنُه المنصورُ أبو بكر ، وقام بتدبير دولتــه الأميرُ قُوصُون . فكان أوّلُ ما أحدث عزلَ الأفضلِ بن المؤيَّد عن حماة ، وولّى مكانَه بها الأميرَ قُطْز نائبــا . وسار الأفضلُ إلىٰ دِمَشق فأقام بها حتّى تُوفّى بها سنة ثنتين وأربعين وسبعمائة ، وهو آخرُ من وليها من بنى أيّوبَ .

وقد ذكر المقرّ الشّهابىُّ بنُ فضــل الله فى " مسالك الأبصار " أنّ سلطانَها كان يســتقلُّ باعطاء الإمْرة والإقطاعات ، وتوليَــة القُضاة والوُزَراء وكُتّاب السرّ وكلّ الوظائف ؛ وتُكتَبُ المناشير والتواقيعُ من جِهَته . ولٰكنه لا يُمْضِى أمرًا كبيرًا فى مثل

إعطاء إمْرة أو إعطاءِ وظيفةٍ كبيرة حتّى يُشاوِر صاحبَ مصر، وهو لا يُجيبه إلا أنّ الرأى ماَيراه . ومن هــذا ومثله . قال : وإن كان ســلطاناً حاكماً ومَلِكا متصرِّفاً فصاحبُ مصر هو المتصرِّفُ فى توليةٍ وعزلٍ، مَنْ أراد وَلّاه ومَنْ أراد عَزَله .

قلت : وكان للملكة بذلك زيادةُ أُبّهة وجَمال : لكون صاحبها تحتَ يد[ه] من هو متّصف بآسم السلطنة، يتصرَّف فيه بالولاية والعَزْل . على أنّ هذا القِسم لم يتعرض له المَقَرّ التقوىّ بنُ ناظر الجيش فى " التثقيف " لخُلُوّ المملكة الآنَ عن مثله ؛ وإنما أشار إليه المَقرّ الشهابىُّ بنُ فضل الله رحمه الله فى " التعريف " حيث قال : وأما مايُكتَب للملوك عن المُلُوك، مثــلِ وُلاة العهود والمنفرِدين بِصغار البُــلْدان فإنه لاتُستفتَح عهودُهم إلا بالخُطَب . وذلك أنّ حماة كانتْ فى زمنــه بأيْدى بنى أيُّوبَ علىٰ ما تقدّم ذكره، ولذلك قال فى "مسالك الأبصار" : ومما فى حُدُود هذه المملكة ممن له آسمُ سلطانٍ حاكمٍ وملِكٍ متصرّف صاحبُ حماةَ .

الوجــــــه الثانى

(فى بيان مايُكتَب فى العهد، وهو علىٰ ضربين)

الضــــــرب الأوّل

(مايكتب فى الطرّة، وهو تلخيص مايشتمل عليه العهد)

وهــذه نسخة عهــد كتب بها المَقرّ الشهابىّ بن فضــل الله عن الملك النــاصر «محمد بن قلاوون» للملك الأفضلِ «محمدابنِ المؤيَّد عمادِ الدين إسمـاعيل» بسلطنة حماةَ أيضا، فى رابع صفر سنة آثنتين وثلاثين وسبْعمائة . وهو آخِرُ مَن ملَكها من بنى أيُّوبَ، وهى :

الحمـدُ لله الذى أقر بنـا المُلْكَ فى أهلِهِ أهله ، وتدارك مُصـابَ ملكٍ لولا ولَدُه الأفضلُ لم يكن له شَبيهٌ فى فضله ، ووهبَ بنا بيتَ السلطنة مِنْ أبقَى البقايا مايلحق به كلَّ فرع بأصْلِه ، ويظهَرُ به رَوْنَقُ السيف فى نَصْله .

نحمدُه على ماأفاض بمَواهبنـا من النِّعَم الغزار ، وأدخلَ فى طاعتنا الشريفـة من مُلوك الأقْطار ، وزاد عَطايانا فأضحتْ وهى ممـالكُ وأقاليمُ وأمصـار ، ونشهدُ أن لا إلَهَ إلَّا الله وحدَه لا شريكَ له شهادةً أفلَح مَنْ مات من ملوك الإسلام عليهـا ، وحَرَض بها فى الجهـاد على الشَّهادة حتَّى وصَل اليها ، ومدّ يَدَه لمُبايعتنا على إعلائها فسابقَتِ الثُّريَّا بَبَسْط يدَيْها ، ونشهدُ أن محمدًا عبـدُه ورسولُه الذى شَرُف من تسمَّى بآسْمِه أومَتَّ بالقُربَى إلى نَسَبه ، وصَرَّف فى الأرض مَنْ تمسَّـك من رعايَة الأمَّة بسبَبِه ، وأكرَمَ به كريمَ كلِّ قومٍ وجعَلَ كلمةَ الفَخَار كلمـةً باقيةً فى عقِبِه ، صلَّى الله عليه وعلى آله وأصحابِه مانَاحَ الحمامُ لحُزْنه ثم غَنَّى من طَرَبه ، وسلَّم تسليمًا كثيرًا .

أما بعدُ ، فإنَّنا ــ ولله الحمدُ ــ ممَّن تحفَّظ بإحساننا كلَّ وديعه ، وتَتَقَبَّل لمن أقبل من الملوك على سؤال صَـدَقاتنا الشريفةِ كلَّ ذريعـه ، ونتكفَّل لمَنْ ماتَ وهو على وَلائنا بمـا لو رآه فى ولده لسَرَّه ماجَرَى ، وعلم أنَّ هـذا الذى كان يتمنَّى أن يعيش حتَّى يُبصِر هذا اليومَ ويرى ، وكان السلطانُ الملكُ المؤيِّد عمَـاد الدين ــ قدّس الله رُوحه ــ هو بقيَّةَ بيتِه الشريف ، وآخِرَ مَنْ حلَّ من ملوكهم فى ذِرْوة عِزِّه المُنيف ، ولم يزَلْ فى طاعتنا الشريفة على ما كان من الحُسْنَى عليـه ، ومن المحاسن التى لَقِىَ الله بها ونُورُ إيمـانه يَسْعَى بين يدَيْه ، فوهَبْنا له من المَمْلكة الحَمَويَّة المحروسـة ما كان قد طال عليه سالفُ الأمد ، ورسَمْنا له بها عطيَّةً باقيةً للوالد والولَد ، فلمَّا قارَبَ آنقضاءَ أجَله ، وأشرفَ على ماقدَّمه إلى الله وإلينا من صالح عمَلِه ، لم يشْغَلْه مابه عن مطالعة

أبوابنا الشريفة والتذكار بولده، وتقاضي صدقاتنا العميمة بما كان ينتظره قمره المنير لفرقده؛ وورد من جهة ولده المقام الشريف، العالي، الولدي، السلطاني، الملكي، الأفضلي، الناصري - أعز الله أنصاره - ما أزعج القلوب بمصابه في أبيه، وأجرى العيون على من لا نفع له على شبيه؛ فوجدنا من الحزن عليه ما أبكى كل سيف دما، وأن كل رمح يقرع سنه ندما؛ وتأسفنا على ملك كاد يكون من الملائك، وأخ كريم أو أعز من ذلك، وسلطان عظيم طالما ظهر شنب بوارقه في ثغور الممالك؛ وقمنا من الحزن في مشاركة أهله بالمندوب، ثم قلنا: لكم في ولده العوض ولا ينكر لكم الصبر يا آل أيوب.

فاقتضت مراسمنا المطاعة أن نرقيه إلى مقامنا العالي، ونعقد له من ألوية الملك ماتهتز به أطراف العوالي؛ ونركبه من شعار السلطنة بما تجمل به مواكبه، وتمد به عصائبه، وتميس من العجب وتمد رقابها بالرقبة السلطانية جنائبه؛ تنزيها لخواطركم الكريمة علينا عن قول ليت، وتنويها بقدر بيتكم الذي رفع لكم إسماعيل به قواعد البيت: لما نعلمه من المقام العالي الملكي الأفضلي الناصري - أمتع الله ببقائه - من المناقب التي استحق بها أن يكون له عليكم الملك، والعزائم التي قلد بها من الممالك ماتجول به الجياد وتجري به الفلك؛ مع ماله من الكرم الذي هو أوفى من العهاد بعهده، والفضل الذي اتصل به ميراث الأفضلية عن جده؛ والجود الذي جرى البحر معه فاحمرت من الخجل صفحة خده، والوصف الذي لم يرض بالجوزاء واسطة لعقده؛ والعدل الذي أشبه فيه أباه فما ظلم، والعلم الذي ماخلا به بابه من طلب: إما لهدى وإما لكرم؛ ولم يخرج من كفالة والده إلا إلى كفالتنا التي أظلته بسحبها، وحلت سماء مملكته بشهبها؛ وخاطبناه كما كنا نخاطب والده - رحمه الله - بالمقام الشريف، وأجريناه في ألقابه مجرى الولد زيادة له في التشريف، وصرفنا

أمره في كل ما كان لملوك أهله فيه تصريف، وسترشده إلى أوضح طريقه، ويقوم مقام أبيه أو ليس «الناصر» هو أبو الأفضل حقيقه؛ ورسمنا بطلبه إلى [ما] بين أيدينا الشريفة لنجدد له من نظرنا الشريف ما تتضاعف به سعوده، ويزداد صعوده، ويتماثل في هذا البيت الشاهنشاهي أبناؤه وآباؤه وجدوده: لتعمل معه صدقاتنا الشريفة ماهو به جدير، وترفعه إلى أعز مكان من صهوة المنبر والسرير، وتكاثر به كل سلطان وما هو إلا جحفل يسير؛ لتشيد به أركان هذا البيت الكريم، وتحيا عظامه وهي في اللحود عظم رميم، وتعرف الناس أن عنايتنا الشريفة بهم تزيد على ما عهدوه لجدهم القديم من سمينا الملك الناصر القديم.

فخرجت المراسم الشريفة، العالية، المولوية، السلطانية، الملكية، الناصرية: لا زالت الملوك تتقلد مننها في أعناقها، ولا برحت الممالك من بعض مواهبها وإطلاقها؛ أن يقلد هذا السلطان الملك الأفضل ـ أدام الله نصره ـ من المملكة الحموية وبلادها، وأمرائها وأجنادها، وعربها وتركمانها وأكرادها؛ وقضاياها وقضاتها، ورعاياها ورعاتها؛ وأهل حواضرها وبواديها، وعمرانها وبراريها ـ جميع ما كان والده ـ رحمه الله ـ يتقلده، وبسيفه وقلمه يجريه ويجرده: من كل قليل وكثير، وجليل وحقير، وفي كل مأمور به وأمير، يتصرف في ذلك جميعه، ويقطع إقطاعاتها بمناشيره ويولي وظائفها بتواقيعه؛ وينظر فيها وفي أهلها بما يعلم أن له ولهم فيه صلاحا، ويقيم من هيبة سلطانه ما يغنيه أن يعمل أسنة ويجرد صفاحا.

وليحكم فيها وفيمن هو فيها بعد له، ويجمع قلوب أهلها على ولائه كما كانوا عليه لأبيه من قبله؛ وليكن هو وجنوده وعساكره أقرب في النهوض إلى مصالح الإسلام من رجع نفسه، وأمضى في العزائم مما يشتبه (؟) بها من سيفه وقبسه.

وأما بقيّة مايُملَى من الوصَايا ، أو يُدَلُّ عليه من كَرَم السَّجايا ؛ فهو ــ بحمد الله تعالى ــ غريزةٌ فى طِبَاعه ، ممتزجٌ به من زَمان رَضَاعه ؛ وإنمـا نُذَكِّره ببعض مابه يتبرّك ، ونحُضّه على آتّباع أبيـه فإنها الغايةُ التى لاتُدْرَك ؛ والشرع الشريف أهمّ مايشْغَل به جميعَ أوقاته ، وتقوى الله فما ينتصرُ المَلِكُ إلا بتُقاته ؛ والفِكْرة فى مصالح البلاد والرعايا فإنها مادّةُ نَفَقاته ، وآستكثارُ الجنود فإنهم حِصْنُه المنيع فى مُلاقاته ، ومبادرةُ كلِّ مهـم فى أوّل مِيقاته ، وولاياتُ الأعمـال لايعتمد فيها إلّا على ثِقَاته ، وإقامةُ الحُـدود حتّى لايُنصتَ فى تَرْكها إلى رَقْيِ رُقَاته ؛ ورعايةُ مَنْ له على سَـلَفه خدمةٌ سابقه ، وآستجلابُ الأدْعية الصالحةِ لنا وله فإنها للسهام مسابقه ؛ ويُمْضِ فى الأُمُور عزمه فإنه مُذَرَّب ، وبَبْسُـطِ العـدلَ والإحسان فإنه بهـما إلينا يُتقرّب ؛ وليأخُذْ بقلوب الرعايا فإنها تتقلّب ، وليُكْرِم وِفادةَ الوُفُود ليقفَ بهـم ــ لنجاح مقاصـدهم ــ على باب صحيح مجرّب ؛ وليجتهـدْ فى الجهاد ، وبتيقّظْ والسَّـيْف مكتحِلُ الجَفْن بالرُّقاد ؛ ويهتمّ فإنّ الهمم العالية تُقوّم بها عَوالى الصِّعاد ، ويُقوّم البريدَ فإنَّ فى تقويمه بقاءَ المُلْك وعمارةَ البلاد ؛ وليقفْ عنـد مراسمنا الشريفةِ لتَهْديَه إلى سبيل الرَّشاد ، ويُحْسِنْ سلُوكَه ليَطْرَبَ بذكره كلُّ أحد ويترنَّم كلُّ حاد ؛ وغيرُ هذا من كلّ ماعهدْنا والِدَه ــ سقى الله عهده ــ له سالِكًا ، ولأزِمَّة أُمُوره الجميلة مالِكًا ؛ ممـا لايحتاج ــ ممـا نعرفه من سيرته المُثْلَى ــ إلى شَرْحه ، ولا يدُلُّ نهارُه الساطعُ على صَبَاحة صُبْحه ؛ وليُبْشِر بمـا جُعِل له من فضلنا العَمِيم ، ويتمسّكْ بوعْدنا الشريف أن هـذه المملكةَ له ولأبنائه وأبناءِ أبنائه ماوُجد كُفءٌ من نَسِـيم الصميم ؛ والله تعـالى يُمِدّك ــ أيها الملك الأفضل ــ بأفضـل مَزِيده ، ويحفَظُ بك ماأبقاه لك أبُوك « المؤيَّدُ » من تأييده ؛ والاعتمادُ على الخط الشريف أعلاه ، إن شاء الله تعالى .

الوجـــــه الثـالث

(فيما يُكْتب فى المستَنَد عن السلطان فى هذا العهد ، وما يكتبه السلطانُ فى بيت العَــلامة)

والحُكْم فى ذلك على مامَرّ فى عهود أوليـاء العهد بالسـلطنة : وهو أن يكتب فى مستَنَد العهد « حَسَبَ المرسوم الشريف » كما فى غيره من الولايات ، ويكتب السلطان فى بيت العلامة آسمَه من غير زيادة .

قلت : ولا يُكْتَب فيـه شهادةٌ على السلطان كما يُكْتَب فى عُهُودِ أوليـاء العهد بالسلطنة : لأن العهد بالسـلطنة العظمى شبيهٌ بالبَيْعة ، والشهادة فيها مطلوبةٌ للخروج من الخلاف ، على ماتقدّم فى موْضــعه . والعهدَ بولاية سلطنةِ بعض الأقاليم شبيهٌ بالتقليــد ، والشهادة فى التقاليد غير مطْلُوبة ، وذلك أن السـلطنة لا تنتهى إلى ولىّ العهدِ إلا بعد موتِ العاهد ، ورُبَّمـا جَحَد بعضُ الناس العهدَ إليــه ؛ وولايةَ بعض البُلْدان إنمـا تكون والسلطانُ المولىّ منتصبٌ فلا يؤثّرُ الجحودُ فيها .

الوجـــــه الرابع

(فى قَطْع ورق هــذا العهد وقلمِه الذى يُكتَب به ، وكيفيّــة الكتابة ، وصورةِ وضــعها فى الورق)

أما قطع الورق فمقتضى عموم قول المقرّ الشهابىّ بن فضل الله فى "التعريف" : إن للعهود قطع البغدادىّ الكامل أنه يُكتَب فى قطع البغدادىّ أيضا .

قلت : والذى يقتضيه القياس أن تكون كتابته فى الورق البغدادىّ لمعنى السلطنة ، ولكن فى قَطْع دُونَ القطع الكامل : لنقصان رُتْبة هذه السلطنة عن السلطنة العظمى ؛ ألا ترى مكاتبة صاحب مملكة إيران كانت فى زمن القان «أبى سعيد» تُكتَب فى قطع البغدادىّ الكامل كما ذكره فى " التعريف " وغيره ؛ ومكاتبة صاحب مملكة بَيْت بَركة المعروفة بمملكة أُزْبَك من مملكة تُوران تكتب له فى قطع البغدادىّ بنقص أربعة أصابع مطْبُوقة كما ذكره فى " التثقيف " لانحطاط رُتْبته عن رتبة القان أبى سعيد، على ماتقدم ذكره فى المكاتبات .

وأما قلمه الذى يكتب به، فينبغى إن كُتِب فى قطع البغدادىّ الكامل أن يكون مختصر قلم الطُّومار كما فى غيره من العهود التى تُكتَب فى القطع الكامل . وإن كتب فى دون الكامل، فينبغى أن يكون القلمَ دُونَ ذلك بقليل .

وأما صورة وضعه فى الورق ، فعلى مامرَّ فى عهُود أولياء العهد بالسلطنة من غير فرق : وهو أن يكتُبَ فى رأس الدرج بقلم دقيق الاسمَ الشريفَ، ثم يبتدئ بكتابة الطرّة فى عَرْض الورق من غير هامش سُطورا متلاصقةً إلى آخر الطرّة، ثم يخلّى ستة أوصال بياضا، ثم يكتُبُ البسملة فى أوّل الوصل الثامن بهامش قدرَ أربعة أصابع أو خمسة مطبوقة ، ثم يكتب سطرا من أوّل العهد ملاصقًا للبسملة ، ثم يخلّى بيت العلامة قدر شبر على ما تقدّم ، ويكتُب السطرَ الثانى على سَمْت السطر الذى تحت البسملة ، ثم يسترسِلُ فى كتابة بقية العهد إلى آخره ، ويكون بين كلّ سطرين قدرُ رُبع ذراع على قاعدة العهود . فإذا انتهى إلى آخر العهد كَتَب «إن شاء الله تعالى» ثم التاريخ ، ثم المستند ، ثم الحمدَ لله والصلاةَ على النبىّ صلّى الله عليه وسلم ، ثم الحَسْبلة . وتكون كتابته من غير نقط ولا شكل كسائر العُهُود .

قلت : ولو وُسّع ما بينَ سطُوره ونُقطت حروفُه وشُكلت : لمـا فيـه من معنىٰ التقاليد، لكان به أليَق .

وهــذه صورةُ وضـعه فى الورق ، ممثَّلا لهـا بالطرّة التى أنشأتُها فى معنىٰ ذلك، والعهد الذى أنشاه المقرّ الشّهابى بنُ فضل الله للملك الأفضل «محمد» بن الملك المؤيد «عماد الدين إسماعيل» آخر ملوكِ بنى أيُّوب بها (١)، وهى :

هذا عهدٌ شريفٌ عَذُبت مواردُه ، وحَسُنَتْ بحسن النيـة فيه مقاصِـدُه ، وعاد علىٰ البريّة باليُمْن عائدُه . من السلطان الأعظم ناصر الدنيا والدين الملكِ الناصر أبى الفتح محمد ٱبنِ السلطان الشهيد « قلاوون » خلّد الله تعالىٰ ملكه ، وجعل الأرض بأسرها مِلْكه ــ للمقام الشريف العـالى السـلطانى ، المَلَكى ، الأفضـلى ، محمـدِ ٱبنِ المقام العالى المؤيّدىّ إسمـاعيل أعزّ الله تعالىٰ أنصاره ، وأحمد آثارَه ، بالسلطنة الشريفة بحماة المحروسةِ وأعمالها ، علىٰ أكمل العوائد وأتمِّها، وأجمل القواعد وأعمّها، علىٰ ما شرح فيه :

بسم الله الرحمن الرحيم

حاشية الحمدُ لله الذى أقرَّ بنا المُلكَ فى أهلِه أهـله ، وتدارَكَ مُصابَ مَلِك لولا

ولَدُه الأفضـلُ لم يكن له شبيه فى فَضْـله ، ووهب بنـا بيتَ السلطنة

(١) أى بحماة ولم يتقدم لها ذكر فتنبه .

حاشية من أبقى البقايا ما يلحق به كل فرع بأصله ، ويظهر به رونق السيف

فى نصله ، إلى أن يأتى إلى قوله فى آخره : والله تعالى يمدك أيها الملك

الأفضل بأفضل مزيده ، ويحفظ بك ما أبقاه لك أبوك المؤيد من

تأييده ، والاعتماد على الخط الشريف ــ أعلاه الله تعالى ــ أعلاه

إن شاء الله تعالى

كتب فى

سنة

حسب المرسوم الشريف

الحمد لله وحده ، وصلواته على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلامه

حسبنا الله ونعم الوكيل

البـاب الرابع

من المقـالة الخامســـة

(فى الولايات الصادرة عن الخلفاء لأرباب المناصب من أصحاب السيوف والأقلام، وفيـه [ثلاثة][1] فصول)

الفصـــل الأول

(فيما كان يكتب من ذلك عن الخلفاء، وفيه خمسة أطراف)

الطـــرف الأول

(فيما كان يكتب عن الخلفاء الراشدين من الصحابة رضوان الله عليهم)

وكان الرسم فى ذلك أن يفتتح العهد بلفظ: «هـذا ما عهد» أو «هذا عهد من فلان لفلان» ويؤتى على المقصد إلى آخره. ويقال فيه: «أمره بكذا وأمره بكذا».

والأصل فى ذلك ما كتب به أبو بكر الصـديق رضى الله عنه، لأمرائه الذين وجّههم لقتال أهل الرِّدّة، وعليه بنى من بعده. وهذه نسخته:

هذا عهد من أبى بكر خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم، لفلان حين بعثه [فيمن بعثه] لقتال من رجع عن الإسـلام. عهد إليه أن يتّقى الله ما آستطاع فى أمره: كلّه سرّه وجهره. وأمره بالجدّ فى أمر الله، ومجاهدة من تولّى عنه ورجع عن الإسـلام إلى أمانىّ الشيطان، بعد أن يُعذر إليهم: فيدعوهم بدعاية الإسلام:

---

(١) بياض فى الأصل والتصحيح من ج ١ ص ٢٥ من هذا المطبوع.

فإنْ أجابُوه أمسك عنهم، وإن لم يُجيبُوه شَنَّ غارتَه عليهم حتّى يُقِرّوا له، ثم يُنَبِّئهم بالذى عليهم والذى لهم، فيأخُذ ما عليهم ويُعطيهم الذى لهم، لا يُنظِرهم ولا يَرُدّ المسلمين عن قِتال عَدُوّهم، فمن أجاب إلى أمر الله عزّ وجلّ وأقرّ له، قَبِل ذلك منه وأعانَه عليه بالمعروف، وإنما يُقاتِل مَنْ كَفَر بالله على الإقرار بما جاء مِنْ عِند الله: فإذا أجابَ الدّعوةَ لم يكن له عليه سبيلٌ، وكان اللهُ حَسِيبَه بعدُ فيما اسْتَسَرّ به. ومَنْ لم يُجِبْ إلى داعِيَة الله قتل وقوتل حيثُ كان وحيثُ بلغ مَراغِمَه، لا يقبلُ من أحدٍ شيئًا أعطاه إلّا الإسلامَ، فمن أجابه وأقرّ به قَبِل منه وعلّمه، ومَنْ أبَى قاتله: فإن أظهرَه اللهُ عزّ وجلّ عليه، قتَل فيهم كلّ قِتلة بالسّلاح والنّيران، ثم قَسَم ما أفاء اللهُ عليه إلّا الخُمسَ فإنه مُبَلِّغناه. وأن يَمنعَ أصحابَه العَجلةَ والفَساد، وأن لا يُدْخِل فيهم حَشْوا حتّى يَعرِفَهم ويَعلَمَ ماهُم: لئلّا يكونوا عيونا، ولئلا يُؤْتَى المسلمون من قِبَلهم؛ وأن يَقْتصِد بالمسلمين ويَرْفُق بهم فى السَّير والمَنزِل، ويتفقّدَهم ولا يُعْجِل بعضَهم عن بعض، ويستوصِي بالمسلمين فى حُسْن الصُّحبة ولِين القَوْل.

*
* *

وهذه نسخة عهد كتَب به أميرُ المؤمنين عمرُ بن الخطّاب رضى الله عنه، لأبى موسى الأشعرىّ رضى الله عنه، حينَ ولّاه القضاءَ:

أما بعدُ، فإنّ القضاءَ فريضةٌ مُحكَمَة، وسُنّةٌ مُتّبَعة، فافهَمْ إذا أُدْلِىَ إليك، وأنْفِذْ إذا تبيّنَ لك: فإنه لا ينفَعُ تكلُّمٌ بحقٍّ لا نَفاذَ له. آسِ بينَ الناس فى وَجْهك وعَدْلك ومَجْلِسك حتّى لا يَطْمَعَ شريفٌ فى حَيْفك، ولا ييأسَ ضعيفٌ من عَوْنك(1). البيّنةُ على مَنِ ادّعى، واليمينُ على من أنكر، والصُّلح جائزٌ بينَ المسلمين إلّا صُلْحا أحلّ حَرَاما

---

(1) فى العقد الفريد (ج ١ ص ٣٣) "ولا يخاف ضعيف من جورك".

أو حرّم حلالا . لا يمنعنّك قضاءٌ قضيته بالأمس فراجعتَ فيه عقلَك وهُديتَ فيه لرشدك أن ترجع إلى الحق : فإن الحقّ قديم ، ومُراجعةُ الحق خيرٌ من التمادي في الباطل .

الفَهْمَ الفَهْمَ فيما تلجلج في صدرك مما ليس في كتاب ولا سنة ، ثم اعْرِف (١) الأشباهَ والأمثال ، وقس الأمورَ عند ذلك بنظائرها ، واعْمِدْ إلى أقربها إلى الله وأشبهها بالحقّ ، واجعلْ لمن ادّعى حقًّا غائبا أو بيّنةً أمدًا ينتهي إليه : فإن أحضر بينةً ، أخذتَ له بحقّه وإلا استحللتَ القضيّةَ عليه ، فإنه أنفى للشكّ ، وأجلى للعمى . المسلمُونَ عُدُولٌ بعضهم على بعض إلا مجلودًا في حدّ ، أو مجرّبا عليه شهادةُ زُور ، أو ظنينًا في ولاء أو نَسَب ، فإنّ الله تولّى منكم السّرائرَ ودرَأ بالبيّنات والأيمان . وإيّاكَ والقلَقَ والضّجر ، والتأذّي بالخصوم ، والتنكّر عند الخصومات : فإنّ الحقّ في مواطنِ الحقّ يُعظِّمُ اللهُ به الأجرَ ، ويُحسن عليه الذُّخر والجزاء . فمَنْ صحّت نيّته وأقبل على نفسه ، كفاه اللهُ ما بينه وبينَ الناس ، ومَنْ تخلّق للناس بما يعلمُ اللهُ أنه ليس مِنْ نفسه شانَه اللهُ ، فما ظنُّك بثوابِ الله في عاجل رِزْقه وخزائنِ رحمته ، والسلام .

قلتُ : هذا ما ذكره ابنُ عبد ربّه في « العقد » . ويقع في بعض المصنّفات ابتداؤه : من عمرَ بن الخطاب إلى عبد الله بن قيس ـ سلامٌ عليكَ أما بعدُ .

ووقع في مسنَد البزّار أن أوّله : اعْلم أنّ القضاءَ فريضةٌ محكَمه ، مع تغيير بعض الألفاظ وتقديم بعض وتأخير بعض .

---

(١) يردى إلى الصواب .

الطـــرف الثانى
(فيما كان يكتب عن خلفاء بنى أميـــة)

كتب عبد الحميد بن يحيى الكاتب، عن مروان بن محمد لبعض من ولّاه[1] .

أما بعــد ، فإنّ أمير المؤمنين ـ عند ما اعتزم عليه من توجيهك إلى عدوّ الله الجلف الجافى الأعرابىّ، المتسكّع فى حيرة الجهالة، وظلم الفتنة، ومهاوى الهلكة . ورعاعه الذين عاثوا فى أرض الله فسادا، وانتهكوا حرمة الإسلام استخفافا، وبدّلوا نعمة الله كفرا ، واستحلّوا [دماء أهل][2] سـلمه جهلا ـ أحبّ أن يعهد إليـك فى لطائف أمورك ، وعوامّ شئونك ، ودخائل أحوالك ، ومصطرف تنقّلك عهـدا يحمّلك فيه أدبه ، ويشرع لك به عظته ، وإن كنت بحمـد الله من دين الله وخلافته بحيث اصطنعك الله لولاية العهـد مختصّا لك بذلك دون لحمتك وبنى أبيك . ولولا ماأمر الله تعالى به ، دالّا عليه، وتقدمت فيـه الحكماء آمرين به : من تقديم العظة ، والتذكير لأهل المعرفة وإن كانوا أولى سابقـة فى الفضـل وخصّيصاء فى العـلم ، لاعتمد أمير المؤمنين على اصطناع الله إيّاك ، وتفضيله لك بما رآك أهله فى محلّك من أمير المؤمنين ، وسبقك إلى رغائب أخلاقه ، وانتزاعك محمود شيمه ، واستيلائك على مشابه تدبيره . ولو كان المؤدّبون أخذوا العلم من عند أنفسهم ، أو لقنوه إلهاما من تلقائهم ولم تصبهم تعلّموا شيئا من غيرهم ، لنحلناهم علم الغيب ، ووضعناهم بمنزلة قصّر بها عنهم خالقهم المستأثر بعلم الغيب عنهم بوحدانيّته فى فردانيّته وسابق لاهوتيّتـه ، احتجاباً منهـم لتعقّب فى حكمه ، وتثبّت فى سـلطانه وتنفيذ إرادته ،

---

(١) المولى هو عبد الله بن مروان أرسله لقتال الضحاك بن قيس الشيبانى الخارجى .

(٢) الزيادة عن "مفتاح الأفكار" (ص ٢٣٠) وغيره وهى لازمة .

على سابق مشيئته . ولكن العالمُ الموفَّقُ للخيْر، المخصوصُ بالفضـــل، المحبوُّ بمزيّة العـــلم وصَفوته، أدركه معانًا عليه بلُطف بَحْثه، وإذلال كَنَفه، وصحّة فَهْمه، وبحر سَامته .

وقد تقدّمَ أميرُ المؤمنين إليك، آخذًا بالحجّة عليك، مُؤدّيا حقّ الله الواجبَ عليه في إرشادك وقَضاء حَقّك، وما ينْظُر به الوالدُ المَعْنيُّ الشَّفيق لولَده . وأميرُ المؤمنين يرجو أن يُنَزّهَك اللهُ عن كل قَبيح يَهُشّ له طَمَع، وأن يعصمَك من كلِّ مكروهٍ حاقَ بأحدٍ، وأن يُحصِّنَك من كلِّ آفة آستولَتْ على آمرئ في دين أو خُلُق، وأن يُبلِّغــه فيكَ أحسنَ ما لم يزَلْ يُعوِّدُه ويُريه من آثار نعمة الله عليك، ساميــةً بك إلى ذِرْوة الشرف، متبحبحةً بك بَسْطةَ الكرم، لائحةً بكَ في أزْهر مَعالي الأدب، مُورِثةً لك أنفَسَ ذخائرِ العزّ، واللهُ يستخلِفُ عليك أميرُ المؤمنين ويسألُ حِيــاطتَك، وأن يعصمَك من زَيْغ الهوى، ويُحضِرَك داعيَ التوفيق، مُعانًا على الإرشاد فيــه، فإنه لا يعينُ على الخير ولا يُوفِّق له إلّا هو .

اعلم أنّ للحكمة مَسالكَ تُفْضي مَضايقُ أوائلِها بمن أمَّها سالِكا، وركِبَ أخطارَها قاصــدًا، إلى سَعة عاقبتِها، وأَمْن سَرحها، وشرَف عِزّها، وأنهــا لا تُعارُ بسُخْف الخِفّة، ولا تُنْشأ بتفريط الغفلة، ولا يتعــدّى فيها بامرئ حَدّه، وربمــا أظهرتْ بَسْطةُ الغنى مستورَ العيب . وقد تلقّتك أخلاقُ الحكمة مِن كلِّ جهة بفضلها، من غير تعَب البحث في طَلَبها، ولا مُتطاوِلٍ لمُناولة ذروتها، بل تأثّلتَ منها أكرمَ نَبَعاتهــا، وآستخلصتَ [منهــا][1] أعْتقَ جواهرِها، ثم سَموتَ إلى لُباب مَصاصِها، وأحرَزتَ مُنْفَسَ ذخائرِها، فاقتعِدْ ما أحرزتَ، ونافِسْ فيما أصبْتَ .

---

(١) الزيادة من رسائل البلغاء .

واعلم أن احتواءك على ذلك وسبقك إليه بإخلاص تقوى الله في جميع أمورك مؤثرا لها، وإضمار طاعته منطويا عليها، وإعظام ما أنعم الله به عليك شاكرا له، مرتبطا فيه للمزيد بحسن الحياطة له والذب عنه من أن تدخلك منه سآمة ملال، أو غفلة ضياع، أو سنة تهاون، أو جهالة معرفة: فإن ذلك أحق ما بدئ به ونظر فيه، معتمدا عليه بالقوة والآلة والعدة والانفراد به من الأصحاب والخاصة. فتمسك به لاجئا إليه، واعتمد عليه مؤثرا له، والتجئ إلى كنفه متحيزا إليه: فإنه أبلغ ما طلب به رضا الله، وأنجحه مسألة، وأجزله ثوابا، وأعوده نفعا، وأعمه صلاحا، أرشدك الله لحظك، وفهمك سداده، وأخذ بقلبك إلى محموده. ثم اجعل لله في كل صباح يتم عليك ببلوغه، ويظهر منك السلامة في إشراقه [من نفسك](١) نصيبا تجعله له شكرا على إبلاغه إياك يومك ذلك بصحة جوارح وعافية بدن، وسبوغ نعم، وظهور كرامة. وأن تقرأ فيه من كتاب الله ــ تبارك وتعالى ــ جزءا تردد رأيك في آيه، وترتل(٢) لفظك بقراءته، وتحضره عقلك ناظرا في محكمه، وتتفهمه مفكرا في متشابهه: فإن في القرءان شفاء الصدور من أمراضها، وجلاء وساوس الشيطان وصعاصعه(٣)، وضياء معالم النور، تبيانا لكل شيء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون. ثم تعهد نفسك بمجاهدة هواك: فإنه مغلاق الحسنات، ومفتاح السيئات، وخصم العقل.

واعلم أن كل أهوائك لك عدو يحاول هلكتك، ويعترض غفلتك: لأنها خدع إبليس، وخوائل مكره، ومصايد مكيدته، فاحذرها مجانبا لها، وتوقها محترسا منها،

(١) الزيادة عن "مفتاح الأفكار" وغيره.

(٢) في مفتاح الأفكار (ص ٢٣٢) وغيره «وتزين» وهي أنسب.

(٣) الصعاصع جمع صعصع وهو طائر أشهب يصيد الجنادب شبه وسوسة الشيطان به وفي بعض المؤلفات وسفاسقه.

وٱستَعِذْ بالله عزّ وجلّ من شرِّها، وجاهِدْها إذا تناصرتْ عليك بعزمٍ صادقٍ لاوَنْيةَ (١) فيـه، وحَزْمٍ نافذٍ لامَثْنوِيّةَ لرأيك بعدَ إصْداره، وصِدْقٍ غالبٍ لامَطْمَعَ فى تكذيبه، ومَضَاءةٍ صارمةٍ لا أناةَ معهـا (٢)، ونيّةٍ صحيحةٍ لاخَلْجةَ شـكٍّ فيها : فإنّ ذلك ظِهْرِيٌّ صِدْقٍ لكَ على رَدْعِها عنك، وقَمْعِها دُونَ ما تتطلَّعُ إليه منك ؛ فهى واقيةٌ لك سُخْطةَ ربك، داعيةٌ إليكَ رضَا العامّةِ عنـك ، ساترةٌ عليك عَيبَ مَن دُونَك ؛ فازدَنْ بهـا متحلِّيا، وأصِبْ بأخلاقك مواضعَها الجيدةَ منها، وتَوَقَّ عليها الآفةَ التى تقتَطعك عن بُلوغها، وتقصُر بك دُونَ شَأْوِها : فإنّ المئُونةَ إنمـا ٱشتدّتْ مستصْعِبة، وفَدَحتْ باهظةً أهـلَ الطَّلبِ لأخلاقِ أهلِ الكَرَمِ المتحلِّين سُمُوَّ القَدْر ، بجهالةِ مواضعِ ذَميمِ الأخلاق ومحمودها ، حتّى فرّط أهلُ التقصـير فى بعض أُمُورهم، فدخلتْ عليهـم الآفاتُ من جهاتٍ أمنُوها، فنُسـبُوا إلى التفريط ، ورَضُوا بذُلِّ المنْزِل، فأقامُوا به جاهلينَ بموضع الفضل، عَمِهِين عن دَرَج الشَّرَف، ساقطين دُونَ منزلة أهلِ الحِجا . فحاوِلْ بُلوغَ غاياتِها مُحْرِزًا لها بسَبْقِ الطلبِ إلى إصابة المَوْضِع، مُحَصِّنًا أعمـالَك من العُجْب : فإنه رأسُ الهَـوى ، وأوّلُ الغَواية، ومَقَادُ الهَلَكة ؛ حارسًا أخلاقَك من الآفاتِ المتّصـلةِ بمَساوِى الألقاب (٣) وذَميمِ تنابُزها، من حيثُ أتت الغفلةُ ، وٱنتشر الضَّياع، ودخَل الوَهْن . فتوقَّ غُلُوب (٤) الآفاتِ على عقلك، فإنّ شواهدَ الحق ستَظْهر بأماراتهـا تصـديقَ آرائك عنـد ذَوِى الحِجا، وحالَ الرأى وخَفْضِ النظر . فاجتلِبْ لنفسك محمودَ الذِّكرِ وباقِيَ لسانِ الصِّـدْقِ بالحَذَر لمـا تقدَّمَ إليك فيه أميرُ المؤمنين،

---

(١) من قولهم افعل ذلك بلا وَنْية أى بلا توان .

(٢) هو من قولهم تأنّى بالأمر ترفق وتنظر . أى لا رفق معها .

(٣) فى بعض المؤلفات بمساوى العادات وذميم إيثارها .

(٤) أى غلبة الآفات ولم نقف على هذا المصدر فيما بأيدينا من كتب اللغة .

متحرّزا من دُخُول الآفاتِ عليك من حيثُ أَمْنُــك وقلّةُ ثقتك بمُحْكَمِها : من ذلك أن تملكَ أمورَك بالقصــد، وتُداوىَ جُنْدَك بالإحسان، وتَصُونَ سِرَّك بالكِتْمان، وتُداوىَ حِقْدَك بالإنصاف، وتُذَلِّل نفْسَك بالعَدْل، وتُحصّنَ عُيوبَك بتقويم أَوَدِك، وتَمنَع عقلَك من دُخُول الآفاتِ عليه بالعُجْب المُرْدِى . وأناتَك فوِّقْها المَلالَ وفوْتَ العــمل، ومَضاءَتَك فدرِّعْها رَوِيّةَ النظر وآكْنُفْها بأَناة الحِــلْم . وخَلْوتَك فآحْرُسْها مِن الغَفْلة وآعتِياد الراحة، وصَمْتَك فانْفِ عنه عِيَّ اللّفظ، وخَفْ سُوءَ القالَة؛ وآستِمــاعَك فأَرْعِه حُسْنَ التفهُّم، وقوِّه بإشْهاد الفكر؛ وعطاءَك فأمْهِــدْ له بيُوتاتِ الشَّرف وذَوِى الحَسَب، وتحرَّزْ فيه من السَّرَف وآستطالةِ البَذْخ وآمْتِنانِ الصَّنِيعة؛ وحَياءَك فآمْنَعْــه من الخَجَل، وبَلادةِ الحَصَر؛ وحِلْمَك فزَعْه عن التّهاوُن وآحْضِرْه قُوّةَ الشّكِيمة؛ وعُقُوبَتَك فقَصِّر بهــا عن الإفراط، وتعمَّدْ بها أهلَ الاستحقاق؛ وعفْوَك فلا تُدخِلْه تعطيلَ الحقُوق، وخُذْ به واجبَ المفْترَض، وأقِمْ به أَوَدَ الدِّين؛ وآستِئْناسَك فآمنَعْ منــه البَذاءَ وسُوءَ المُناقثة (١) . وتَعهُّدك أُمورَك فخُذْه أوقاتًا، وقدِّره ساعاتٍ، لا تَستفْرِغُ قُوّتك، ولا تســتدْعِى سآمَتَك؛ وعَزَماتِك فآنْفِ عنها عَجَلةَ الرَّأى، ولَجاجةَ الإقدام؛ وفَرَحاتِك فاشْكُلْها عن البَطَر، وقيِّــدها عن الزَّهْو؛ ورَوْعاتِك حُطْها من دَهَش الرَّأى، وآستِسْلام الخُضُوع؛ وحَذَراتِك فامنَعْها من الجُبْن، وآعمِدْ بها الحَزْم؛ ورَجاءَك فَقيِّده بخَوْف الفائت، وآمنَعْه من أَمْنِ الطَّلَب .

هذه جَوامعُ خِلال دَخّال النقص منها واصلٌ إلى العقل بلَطائفِ أبنِه وتصاريفِ حَوِيله، فأَحْكِمْها عارفًا بها، وتقــدّم فى الحِفْظ لهــا، معترِما على الأَخْذ بمَراشدها والانتهاءِ منها إلى حيثُ بلغَتْ بك عِظةُ أمير المؤمنين وأدَبُه إن شاء الله .

(١) يقال ناقث فلان فلانا بالكلام آذاه انظر القاموس مادة ن ق ث .

ثم لتكن بطانتك وجلساؤك فى خلواتك، ودخلاؤك فى سرك، أهل الفقه والورع من خاصة أهل بيتك، وعامة قوادك ممن قد حنكته السن بتصاريف الأمور، وخبطته فصالها بين قراسن البزل منها، وقلبته الأمور فى فنونها، وركب أطوارها: عارفا بمحاسن الأمور ومواضع الرأى وعين المشورة؛ مأمون النصيحة، منطوى الضمير على الطاعة. ثم أحضرهم من نفسك وقارا يستدعى لك منهم الهيبة، واستئناسا يعطف إليك منهم المودة، وإنصاتا يفل إفاضتهم له عندك بما تكره أن ينشر عنك من سخافة الرأى وضياع الحزم. ولا يغلبن عليك هواك فيصرفك عن الرأى، ويقتطعك دون الفكر. وتعلم أنك - وإن خلوت بسر فالقيت دونه ستورك، وأغلقت عليه أبوابك - فذلك لا محالة مكشوف للعامة، ظاهر عنك وإن استتر[ت] ربما ولعل وما أرى إذاعة ذلك وأعلم(١)، بما يرون من حالات من ينقطع به فى تلك المواطن. فتقدم فى إحكام ذلك من نفسك، واسدد خلله عنك: فإنه ليس أحد أسرع إليه سوء القالة ولغط العامة بخير أو شر ممن كان فى مثل حالك ومكانك الذى أصبحت به من دين الله والأمل المرجو المنتظر فيك. وإياك أن يغمز فيك أحد من حامتك وبطانة خدمتك بضعفة يجد بها مساغا إلى النطق عندك بما لا يعترك عيبه، ولا تخلو من لائمته، ولا تأمن سوء الأحدوثة فيه، ولا يرخص سوء القالة به إن نجم ظاهرا أو علن باديا، ولن يجترئوا على تلك عندك إلا أن يروا منك إصغاء إليها، وقبولا لها، وترخيصا لهم فى الإفاضة بها. ثم إياك وأن يفاض عندك بشىء من الفكاهات والحكايات والمزاح والمضاحك التى يستخف بها أهل البطالة، ويتسرع نحوها ذوو الجهالة، ويجد فيها أهل الحسد مقالا لعيب يذيعونه،

---

(١) كذا فى الأصل ومفتاح الأفكار مع توقف والمراد أنه يحذر من نشره بهذه الألفاظ.

وطَعنا فى حقِّ يَحْمَدونه ؛ مع مافى ذلك من نَقص الرأى ، ودَرَن العِرْض ، وهَــدْم الشرف ، وتأثيل الغَفلة ، وقُوّة طِباعِ السُّوء الكامنة فى بنى آدم كَكُمُون النار فى الحَجر الصَّــلْد ، فإذا قُدِح لاحَ شَرَرُه ، وتلهَّبَ وَمِيضُه ، ووَقَدَ تَضَرُّمُه . وليسَتْ فى أحد أقوىَ سَطْوةً ، وأظهَرَ توقُّــدا ، وأعلىَ كُمُونا ، وأسرَعَ إليــه بالعَيْب وتَطرُّق الشَّــيْن منها لمَنْ كان فى مِثْــل سِنّك : من أغفال الرجال وذَوى العُنْفُوان فى الحَداثة ، الذين لم يقع عليهم سِمَــاتُ الأمور ، ناطقًا عليهم لائحُها ، ظاهرًا فيهم وَسْمُها ، ولم تَمْحَضْهم شهامتُها ، مظهِرةً للعامَّة فضلَهم ، مُذِيعــةً حسْنَ الذكر عنهم ؛ ولم يبلُغ بهــم الصِّيتُ فى الحُنْكة مستَمعا يَدفَعون به عن أنفُسهم نواطِقَ ألْسُن أهــل البَغْى ، ومَوادَّ أبْصار أهل الحَســـد .

ثم تعهَّدْ من نَفسك لطيفَ عَيْبٍ لازمٍ لكثيرٍ من أهل السلطان والقُدْرة : من أبطال الذرع[(1)] ونَخْوة الشَّرف والتِّيه وعَيْب الصَّلَف ، فإنها تُسْرِع بهم إلىٰ فَسَاد وتهجين عقُولهم فى مواطِنَ جمَّــة ، وأنحاء مُضْطَرِبة ، منها قِلَّةُ اقتدارهم علىٰ ضَــبْط أنفُسهم فى مَوَاكِبهم ومسايرتِهم العامَّة : فمن مُقَلْقِل شَخصَه بكثْرة الالتفات عن يمينه وشماله ، تَزدَهيه الخِفّة ، ويُبْطِره إجلابُ الرجال حَوْلَه . ومن مُقْبِــل فى مَوْكبه علىٰ مُداعَبة مُسايِره بالمُفاكَهة له والتَّضاحُك إليه ، والإيجاف فى السَّيْر مَرَحا ، وتحريك الجَوارح متسرِّعا ، يَخَــالُ أنَّ ذلك أسرَعُ له وأحثُّ لمَطِيَّتِــه ، فلْتحْسُن فى ذلك هَيْئَتــك ، ولتجمُل فيــه دَعَتــك ؛ وليَقِلَّ علىٰ مُسايِرك إقبــالُك إلا وأنتَ مُطْرِق النظر ، غيرُ ملتفِتٍ إلىٰ محــدِّث ، ولا مقبل عليــه بوجهك فى مَوْكبك لمحــادَثته ، ولا مُوجِف فى الســير مقلقِل لجوارحك بالتحريك والاستنهاض ؛ فإنَّ حُسْنَ مسايَرة الوالى واتِّداعَه فى تلك الحالة دليلٌ علىٰ كثيرٍ من غُيُوب أمره ومستَترِ أحواله .

(١) فى مفتاح الأفكار «من أبطال البدع» وفى غيره «من أقطار الذرع» وفى كليهما علامة التوقف تأمل .

واعلم أن أقواما يتسرّعون إليك بالسّعاية، ويأتونك على وجه النّصيحة، ويستميلونك بإظهار الشّفقة، ويستدعونك بالإغراء والشّبهة، ويوطئونك عشوة الحيرة: ليجعلوك لهم ذريعة إلى استئكال العامّة بموضعهم منك فى القبول [منهم][1] والتصديق لهم على من قرفوه بتهمة، أو أسرعوا بك فى أمره إلى الظّنّة؛ فلا يصلنّ إلى مشافهتك ساع بشبهة، ولا معروف بتهمة، ولا منسوب إلى بدعة [فيعرّضك][2] لإيتاغ دينك، ويحملك على رعيّتك بما لا حقيقة له عندك، ويلحمك أعراض قوم لا علم لك بدخلهم[3]، إلا بما أقدم [به] عليهم ساعيا وأظهر لك منهم متنصحا. وليكن صاحب شرطتك المتولّى لإنهاء ذلك[4] هو المنصوب لأولئك، والمستمع لأقاويلهم، والفاحص عن نصائحهم؛ ثم لينه ذلك إليك على ما يرفع إليه منه ليأمره بأمرك فيه، وتقفه على رأيك من غير أن يظهر ذلك للعامّة: فإن كان صوابا نالتك خيرته، وإن كان خطأ أقدم به عليك جاهل أو فرطة سعى بها كاذب فنالت الساعى منهما أو المظلوم عقوبة، أو بدر من واليك إليه عقوبة ونكال، لم يعصب ذلك الخطأ بك ولم تنسب إلى تفريط، وخلوت من موضع الذّمّ فيه: مختصرا إليه ذهنك وصواب رأيك. وتقدم إلى من تولّى ذلك الأمر وتعتمد عليه فيه أن لا يقدم على شىء ناظرا فيه، ولا يحاول أخذ أحد طارقا له، ولا يعاقب

---

(١) الزيادة عن "مفتاح الأفكار" وغيره.

(٢) الزيادة عن "مفتاح الأفكار" وغيره وهى لازمة. وفى القاموس فى مادة (و ت غ) وأوتغ دينه بالإثم أفسده.

(٣) دخل الرجل بالفتح والكسر نيته ومذهبه.

(٤) الذى فى "مفتاح الأفكار" وغيره «وليكن صاحب شرطتك ومن أحببت أن يتولى ذلك من قوادك إليه انتهاء ذلك وهو المنصوب الخ».

أحدا منكّلا به، ولا يُخلِّي سبيلَ أحد صافحاً عنه : لإصحار(١) براءته، وصحّة طريقته؛ حتّى يرفع إليكَ أمرَه، ويُنهِى إليك قضيّته على جهة الصِّدْق، ومَنْحى الحق، ويقين الخبر؛ فإن رأيتَ عليه سبيلاً لحَبْس أو مجازاً لعُقوبة، أمرته بتولّى ذلك من غير إدخاله عليك، ولا مُشافهة لك منه؛ فكان المتولّى لذلك ولم يَجْرِ على يديك مكروهُ رأى ولاغلظةُ عقوبة . وإن وجدتَ إلى العفو [عنه] سبيلا، أوكان مما قُرِف به خَلِيّا؛ كنتَ أنتَ المتولّى للإنعام عليه بتخليَة سبيله، والصفح عنه بإطلاق أسْره؛ فتولّيتَ أجْرَ ذلك وآستحققت ذُخْره، وأنطقت لسانَه بشُكْرك، وطوّقت قومَه حمْدَك، وأوجبتَ عليهم حقّك؛ فقرنْتَ بين خصلتين، وأحرزتَ حُظْوتين : ثوابَ الله فى الآخرة، ومحمودَ الذِّكْر فى الدّنيا .

ثم وإيّاك أن يصلَ إليك أحدٌ من جُنْدك وجُلَسائك وخاصّتك وبِطانتك بمسألة يكْشِفُها لك، أو حاجة يَبْدَهك بطلبها، حتّى يَرْفَعها قبلَ ذلك إلى كاتبك الذى أهدفتَه لذلك ونصبتَه له، فيَعْرِضَها عليكَ مُنْبِئاً لها على جهة الصِّدق عنها، وتكونَ على معرفة من قَدْرها : فإن أردتَ إسعافَه بها ونجاح ماسأل منها، أذنْتَ له فى طَلَبها، باسطاً له كنَفَك، مُقْبِلا عليه بوجهك، مع ظُهور سُرورك بما سالك، وفسحة رأى وبَسْطة ذَرْع، وطِيب نَفْس . وإن كرِهْتَ قضاء حاجته، وأحببْتَ ردَّه عن طَلِبته، وثَقُل عليكَ إجابتُه إليها، وإسعافُه بها، أمرتَ كاتبَك فصَفَحه عنها، ومَنَعه من مُواجهتك بها؛ تَخفَّتْ عليكَ فى ذلكَ المَئُونةُ، وحَسُن لك الذِّكْر، ولم يَنْتشر عنك تجهُّم الردّ، ويَنلْك سُوءُ القالة فى المنع، وحُمِل على كاتبك فى ذلك لائمةٌ أنت منها برىءُ الساحة .

(١) أى لوضوح براءته ففى حديث علىّ فأصحر لعدوك أى كن من أمره على أمر واضح انظر اللسان ج ٦ ص ١١٣ .

وكذلك فليكن رأيك وأمرك فيمن طرأ عليك من الوفود وأتاك من الرسل ، فلا يصلنّ إليك أحدٌ منهم إلاّ بعد وصول علمه إليك، وعلم ماقدم له عليك، وجهة ماهو مكلمك به، وقدر ما هو سائلك إياه إذا هو وصل إليك، فأصدرت رأيك فى حوائجه ، وأجلت فكرك فى أمره ، وآخترت معترما على إرادتك فى جوابه ، وأنفذت مصدور رويتك فى مرجوع مسائله قبل دخوله عليك ، وعلمه بوصول حاله إليك ، فرفعت عنك مئونة البديهة ، وأرخيت عن نفسك خناق الروية ، وأقدمت على رد جوابه بعد النظر وإجالة الفكر فيه . فإن دخل إليك أحدٌ منهم فكلمك بخلاف ما أنهى إلى كاتبك وطوى عنه حاجته قبلك ، دفعته عنك دفعا جميلا ، ومنعته جوابك منعا وديعا، ثم أمرت حاجبك بإظهار الجفوة له ، والغلظة عليه، ومنعه من الوصول إليك؛ فإنّ ضبطك لذلك مما يحكم لك تلك الأسباب ، صارفا عنك مئونتها، ومسهلا عليك مستصعبها .

احذر تضييع رأيك وإهمالك أدبك فى مسالك الرضا والغضب وآعتوارهما إياك ، فلا يزدهينك إفراط عجب تستخفك روائعه، وتستهويك منظره ، ولا يبدرن منك ذلك خطأ ونزق خفة لمكروه إن حل بك، أو حادث إن طرأ عليك . وليكن لك من نفسك ظهرى ملجأ تحترز به من آفات الردى، وتستعضد (١) فى مهم النازل، وتتعقب به أمورك فى التدبير. فإن آحتجت إلى مادة من عقلك، وروية من فكرك، أو آنبساط من منطقك، كان آنحيازك إلى ظهريك مزدادا مما أحببت الإمتاح منه والامتيار؛ وإن آستدبرت (٢) من أمورك بوادر جهل أو مضى زلل أو معاندة حق أو خطل تدبير، كان ما آحتجت إليه من رأيك عذرا لك عند

(١) فى رسائل البلغاء وتستعهده فى مهم نازل .

(٢) كذا فى المفتاح ورسائل البلغاء أيضا ولعله وإن آبتدرت الخ . تأمل .

نَفسك ، وظهيرًا قويًّا على ردّ ما كرهتَ ، وتخفيفًا لمُؤونة الباغين عليك فى القالة وآنتشار الذكر ، وحِصنا من غُلوب الآفات عليك ، وآستعلائها على أخلاقك .

وآمنع أهل بطانتك وخاصّة خدَمك من آستلحام أعراض الناس عندك بالغيبة ، والتقرّب إليك بالسّعاية ، والإغراءِ من بعض ببعض ، أو النّميمة إليك بشيء من أحوالهم المستترة عنك ، أو التحميل لك على أحد منهم بوجْه النّصيحة ومذهب الشّفقة : فإنّ ذلك أبلغُ بك سُمُوّا إلى منالة الشرف ، وأعونُ لك على محمود الذكر ، وأطلَقُ لعنان الفضل فى جَزالة الرأى وشَرف الهمّة وقُوّة التدبير .

وآملِكْ نفسك عن الانبساط فى الضحك والانفهاق ، وعن القُطُوب بإظهار الغضب وتحلّله : فإنّ ذلك ضَعف عن مِلْك سَوْرة الجهْل ، وخروجٌ من آتحاد آسم الفَضل . وليكُنْ ضَحكك تبسّما أو كَشرا فى أحايين ذلك وأوقاته ، وعند كلّ رائع مستخِفّ مُطرِب ، وقُطُوبُك إطراقًا فى مواضع ذلك وأحواله ، بلا عَجَلة إلى السّطوة ، ولا إسراع إلى الطّيرة ، دُونَ أن يكْنُفَها روِيّةُ الحِلم ، وتملِكَ عليها بادرة الجهل .

إذا كنتَ فى مجلس مَلَئك ، وحيثُ حضورُ العامّة مجلسَك ، فإيّاك والرمْىَ بنظرك إلى خاصّ من قُوّادك ، أو ذى أثَرة عندك من حَشَمك . وليكُنْ نظرُك مقسومًا فى الجميع ، وإرعاؤك سمْعَك ذا الحديث بدَعة هادئة ، ووَقار حسَن ، وحضور فَهم مجتمِع ، وقلّة تضجّر بالمحدِّث . ثم لا يبرحْ وجهُك إلى بعض حَرَسك وقُوّادك متوجّها بنظر رَكين ، وتفقّد مَحْض . وإن وَجّه إليك أحدٌ منهم نظره محدِّقا ، أو رماك ببصره مُلحًّا ، فاخفض عنه إطراقًا جميلا بآتّداع وسُكون . وإيّاك

والتسرّعَ فى الإطراق ، والخفّة فى تصريف النظر ، والإلحاحَ على من قصدَ إليك فى مخاطبته إيّاك رامقًا بنظره .

واعلم أنّ تصفُّحك وجوهَ جلسائك وتفقّدك مجالسَ قُوّادك ، من قوّة التدبير ، وشهامة القلب ، وذكاء الفطنة ، وانتباه السِّنة . فتفقّد ذلك عارفًا بمن حضرك وغابَ عنك ، عالمًا بمواضعهم من مجلسك ، ثم اعْدُهم عن ذلك سائلا لهم عن أشغالهم التى منعتْهم من حضور مجلسك ، وعاقتْهم بالتخلّف عنك .

إن كان أحدٌ من حَشَمك وأعوانك تثق منه بغيب ضمير ، وتعرِف منه لِينَ طاعة ، وتُشرِف منه على صحّة رأى ، وتأمنُه على مَشُورتك ، فإيّاك والإقبالَ عليه فى كلّ حادثٍ يَرِدُ عليك ، والتوجّهَ نحوه بنظرك عند طوارق ذلك ، وأن تُرِيه أو أحدا من أهل مجلسك أنّ بك حاجةً إليه مُوحِشة ، أو أنْ ليس بك عنه غِنًى فى التدبير ، أو أنّك لاتقضى دُونَهُ رأيا ، إشراكًا منك له فى رَوِيّتك ، وإدخالًا منك له فى مَشُورتك ، واضطرارًا منك إلى رأيه فى الأمر يَعْرُوك : فإنّ ذلك من دخائل العُيوب التى ينتشر بها سُوءُ القالة عن نُظرائك فانفِها عن نفسك حائطًا لأعلاقها ذِكْرَك ، واحجُبْها عن رويّتك قاطعًا لأطماع أوليائك عن مثلها عندك ، أو غُلُوِّهم عليها منك .

واعلم أنّ للمشورة موضعَ الخلوة وانفرادَ النظر ، ولكلّ أمرٍ غايةٌ تُحيط بحُدوده ، وتجمعُ معالمَه . فابغِها مُحرِزا لها ، ورُمْها طالبا لنَيْلها ، وإيّاك والقصورَ عن غايتها أو العجزَ عن دَرْكها ، أو التفريطَ فى طلبها . إن شاء الله تعالى .

إيّاك والإغرامَ عن حديثٍ مّا أعجبك ، أو أمرٍ مّا ازدهاكَ بكثرة السؤال ، أو القطعَ لحديث مَنْ أرادك بحديثه حتّى تنقُضه عليه بالخوض فى غيره أو المسألة

عمّا ليس منه : فإنّ ذلك عند العامّة منسوب إلى سُوء الفهم وقِصَر الأدب عن تناوُل محاسِن الأُمور والمعرفة بمساويها، ولكن أنصت لمحدّثك وارْعه سمعَك حتى يعلَم أن قد فهِمتَ حديثَه ، وأحطتَ معرفةً بقوله : فإن أردتَ إجابته فعن معرفةٍ بحاجته وبعد علمٍ بطَلِبته ؛ وإلا كنتَ عند انقضاء كلامه كالمتعجِّب (١) من حديثه بالتبسّم والإغضاء، فأجزى عنك الجواب، وقطع عنك ألْسُن العَتْب .

إيّاك وأن يظهر منك تبرُّم بطُول مجلسك ، أو تضجُّر من حضَرك ؛ وعليك بالتثبُّت عند سَوْرة الغضَب، وحَمِيّة الأنَف ، وملال الصبر في الأمر تستعجل به والعمل تأمر بإنفاذه ؛ فإنّ ذلك سُخف شائن، وخفّة مُرْدِية، وجهالة بادية . وعليك بثُبوت المَنطق ، ووقار المجلس ، وسُكون الريح ، والرفْض لحَشْو الكلام ، والترْك لفضوله . والإغرام (٢) بالزّيادات في مَنْطقك والترديد للفْظك : من نحو اسمع ، وافهم عنّي ، ويا هَناه ، وألا ترى ؛ أو ما يُلْهَج به من هذه الفضول المقصّرة بأهل العقل ، الشائنة لذوى الحِجا في المنطق، المنسوبة إليهم بالعِيّ ، المُزْرية لهم بالذِّكر . وخِصالٌ من مَعايب الملُوك والسُّوقةُ عنها غبيّة النظر إلا مَنْ عرَفها من أهل الأدب، وقلّما حاملٌ لها، مضطلع بها، صابرٌ على ثقلها ، آخذٌ لنفسه بجوامعها . فانفِها عن نفسك بالتحفُّظ منها، وأملِك عليها اعتيادَك إيّاها معتنيا بها : منها كثرة التنخُّم ، والتبصُّق ، والتنحنح، والتثؤباء ، والتمطّي ، والجُشاء ، وتحريكُ القدم ، وتنقيضُ الأصابع، والعبثُ بالوجه واللحية أو الشارب أو المِخصرة أو ذُؤابة السيف، أو الإيماض بالنظر، أو الإشارةُ بالطَّرف إلى بعض خدَمك بأمر إن أردتَه، أو السِّرار في مجلسك، أو الاستعجال في طَعْمك أو شُرْبك . وليكن طَعْمك متّدِعا، وشُرْبك

---

(١) في المفتاح وغيره كالمتطلل وهي واضحة .

(٢) مراده والترك للاغرام أي الولوع بالزيادات الخ فهو من المنهي عنه بدليل بقية الكلام فتنبه .

أنفاسا ، وتجرعك مَصًّا ، وإياك والتسرع إلى الأيمان فيما صَغُر أو كَبُر من الأمور، والشتيمة بقول يا آبن المَنَاة ، أو الغميزة لأحد من خاصتك بتسويفهم مقارفة الفُسوق بحيث مَحْضَرك أو دارك وفنائك : فإن ذلك كله مما يقبح ذكره ، ويسوء موقع القول فيه ، وتحمل عابك معايبه ، وينالك شَينه ، وينتشر عليك سوء النبإ به . فاعرف ذلك متوقيا له ، وآحذره مجانبا لسوء عاقبته .

آستكثر من فوائد الخير : فإنها تنشر المَحْمَدة ، وتُقيل العثرة ، وآصبر على كظم الغيظ : فإنه يُورث الراحه ، ويؤمّن الساحه ، وتعهّد العامة بمعرفة دخلهم ، وتبطُّن أحوالهم ، وآستثارة دفائنهم ، حتى تكون منها على رأْي عين ، ويقين خُبْرة ، فتنعش عديمهم ، وتجبر كسيرهم ، وتقيم أودهم ، وتعلّم جاهلهم ، وتستصلح فاسدهم : فإن ذلك من فعلك بهم يُورثك العزة ، ويقدمك في الفضل ، ويبقى لك لسان الصدق في العاقبة ، ويحرز لك ثواب الآخرة ، ويرد عليك عواطفهم المستنفرة منك ، وقلوبهم المتنحية عنك .

قس بين منازل أهل الفضل في الدين والحِجا والرأْي ، والعقل والتدبير ، والصيت في العامة ، وبين منازل أهل النقص في طبقات الفضل وأحواله ، والخمول عند مباهاة النسب ، وآنظر بصحبة أيهم تنال من مودته الجميل ، وتستجمع لك أقاويل العامة على التفضيل ، وتبلغ درجة الشرف في أحوالك المتصرفة بك . فاعتمد عليهم مُدْخِلا لهم في أمرك ، وآثرهم بمجالستك لهم مستمعا منهم ، وإياك وتضييعهم مفرطا ، وإهمالهم مضيعا .

هذه جوامع خصال قد لخصها لك أمير المؤمنين مفسرا ، وجمع لك شواذها مؤلفا ، وأهداها إليك مرشدا ، فقف عند أوامرها ، وتناه عن زواجرها ، وتثبت

فى مجامعها، وخذ بوثائق عُراها تَسْلَمْ من معاطب الردى، وتنل أنفس الحظوظ ورغيب الشرف، وأعلى درج الذكر، وتأتل سطر العز (؟) والله يسأل لك أمير المؤمنين حُسْنَ الإرشاد، وتتابع المزيد وبلوغ الأمل، وأن يجعل عاقبة ذلك بك إلى غبطة يُسوغك إياها، وعافية يُحلك أكنافها، ونعمة يُلهمك شكرها: فإنه الموفق للخير، والمعين على الإرشاد، منه تمام الصالحات، وهو مؤتى الحسنات، عنده مفاتيح الخير، وبيده الملك وهو على كل شيء قدير.

فإذا أفضيتَ نحو عدوك، واعتزمتَ على لقائهم، وأخذت أُهبة قتالهم، فاجعل دِعامتك التى تلجأ إليها، وثقتك التى تأمل النجاة بها، وركنك الذى ترتجى منالة الظفر به، وتكتنف به لمعاقل الحذر تقوى الله مستشعرًا لها بمراقبته، والاعتصام بطاعته متبعًا لأمره، مجتنبًا لسخطه، محتذيا سنته، والتوقى لمعاصيه فى تعطيل حدوده، أو تعدى شرائعه، متوكلا عليه فيما صمدتَ له، واثقًا بنصره فيما توجهت نحوه، متبرئا من الحول والقوة فيما نالك من ظفر، وتلقاك من عز، راغبًا فيما أهاب[1] بك أمير المؤمنين إليه من فضل الجهاد ورمى بك إليه، محمود الصبر فيه عند الله من قتال عدو المسلمين، أكلبهم عليه وأظهره عداوة لهم، وأفدحه ثقلا لعامتهم، وآخذه بريقهم، وأعلاه عليهم بغيا، وأظهره عليهم فسقا وجورا، وأشده على فيئهم الذى أصاره الله لهم وفتحه عليهم مئونة وكلا. والله المستعان عليهم، والمستنصر على جماعتهم، عليه يتوكل أمير المؤمنين، وإياه يستصرخ عليهم، وإليه يفوض أمره وكفى بالله وليا وناصرا ومعينا، وهو القوى العزيز.

(١) هو من قولهم أهاب بالإبل إذا دعاها فتنبه.

ثم خُذْ مَنْ معك من تُبَّاعك وجُنْــدك بكَفِّ معَرّتهم ، وردّ مشْــتَعِل جهْلهم ، وإحكام ضَيَاع عملهم ، وضَمِّ منتشِر قَواصِيهم ، ولَمِّ شعَث أطرافهم ، وتقييدهم عمَّن مرّوا به من أهل ذمّتك وملتك بحُسن السيرة ، وعَفاف الطُّعمة ، ودَعة الوَقار ، وهَدْى الدَّعة ، وجِمام المستجم ، محكما ذلك منهـم ، متفقِّدا لهم تفقُّدك إيّاه من نفســك .

ثم اَصْمِد لعدُوّك المتسمَّى بالإسلام ، الخارج من جماعة أهله ، المنتحِل ولايةَ الدِّين مســتحلاًّ لدماء أوليائه ، طاعنًا عليهم ، راغبا عن سُنّتهم ، مفارقا لشرائعهم ، يَبْغيهم الغَوائل ، وينصِبُ لهم المَكايد ، أضرمُ حِقْدا عليهم ، وأرصدُ عداوةً لهم ، وأطلَبُ لغِرّات فُرَصهم من التُّرْك ، وأُمم الشرك ، وطواغى الملل ، يدْعو إلى المعصية والفُرْقة ، والمُرُوق من ديـــن الله إلى الفِتنــة ، مخترعا بهواه للأديان المنتحَلة والبِـدَع المتفرّقة خَسَارا وتخسيرا ، وضَــلالًا وتضليلا ، بغير هُدًى من الله ولا بيان ، ساء ما كسبت له يدَاه [وما اللهُ بظَلَّام للعَبيد] [1] وساءَ ما سوّلتْ له نفْســه الأمّارةُ بالسُّوء ، واللهُ من ورائه بالمِرْصاد : ﴿ وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴾ .

حَصِّنْ جُنْدك ، وآشْكُمْ نَفْسك بطاعة الله فى مجاهَدة أعدائه ، وآرجُ نَصْره ، وتَنجُّز موعُوده ، متقدّما فى طلَب ثوابه على جهادهم ، معتزما فى آبتغاء الوسـيلة إليه على لقائهـم : فإنَّ طاعتك إيّاه فيهم ، ومراقبتَك له ورجاءك نَصْرَه مُسهِّل لك وُعورَه ، وعاصِمُك من كل شُبْهة ، ومُنجيك من كلّ هُوّة ، وناعشُك من كلّ صَرْعة ، ومُقيلُك من كل كَبْوة ، ودارِئٌ عنك كلَّ شُــبْهة ، ومُذْهِب عنك لَطْخة كلِّ شك ، ومُقوّيك بكلِّ أيد ومَكيدة ، ومُعِزُّك فى كل معترَك قتال ، ومؤيّدك فى كلِّ مَجْمَع لقاء ، وكالئك

(١) الزيادة عن "مفتاح الأفكار" ص ٢٤٣ .

عند كل فتنة مُغْشِيه[1]، وحائطك من كل شُبهة مُرْديه؛ والله وليُّك وولىّ أميرالمؤمنين فيك، والمستخلَف علىٰ جُندك ومَنْ معك.

اعلم أنّ الظفر ظَفَران: أحدُهما وهو أعمّ منفعة، وأبلغُ فى حُسن الذكر قالةً، وأحوطُه سَلَامة، وأتمّه عافيةً، وأحسنُه فى الأُمور وأعلاه فى الفضل شرفا، وأصحُّه فى الرَّوِيّة حَزْما، وأسلمُه عند العامّة مَصْدرا ــ مانِيلَ بسلامة الجُنود، وحُسْنِ الحِيلة، ولُطف المَكِيدة [ويُمْن النَّقِيبة][2] واستنزال طاعةِ ذَوِى الصُّدوف بغير إخْطار الجُيُوش فى وَقْدة جَمْرة الحرب، ومُبارزة الفُرسان فى معتَرَك الموت؛ وإن ساعدَتْك طُلُوق الظَّفَر، ونالكَ مزيدُ السعادة فى الشرف، ففى مُخاطَرة التَّلَف مكروهُ المصائب، وعِضَاضُ السيوف وألمُ الجِراح، وقِصَاص الحروب وسِجالُها بمُغاوَرة أبطالها. علىٰ أنك لاتدرى لأىّ يكون الظَّفَرُ فى البديهة، ومَنِ المغلوبُ بالدولة، ولعلك أن تكون المطلوبَ بالتمحيص. فحاوِلْ إصابةَ أبلغهما فى سلامة جُندك ورعيّتك، وأشهرِهما صِيتًا فى بُدُوّ تدبيرك ورأيك، وأجمعِهما لأُلْفة وليّك وعدُوّك، وأعوَنِهما علىٰ صلاح رعيّتك وأهل مِلّتك، وأقواهما شكيمةً فى حَزْمك، وأبعدِهما من وَصْم عَزْمك، وأعلَقِهما بزِمَام النجاة فى آخرتك، وأجزلِها ثوابًا عند ربّك.

وابْدأْ بالإعذار إلىٰ عَدُوّك، والدُّعاء لهم إلىٰ مراجعة الطاعه، وأمْر الجَمَاعه، وعِزّ الأُلفة؛ آخذًا بالحُجّة عليهم، متقدِّمًا بالإنذار لهم، باسطًا أمانك لمَنْ لجأ إليك منهم، داعيًا [لهم اليه][2] بألين لفظك وألطف حِيَلك، متعطِّفا برأفتك عليهم، مترفّقا بهم

(١) أى مدلهمة سوداء من قولهم أغشى الليل إذا أظلم. تأمل.

(٢) الزيادة عن "مفتاح الأفكار" ص ٢٤٤ وغيره.

فى دُعائك ، مُشفِقا عليهم من غَلَبة الغَوَاية لهم ، و إحاطة الهَلَكة بهم ، منفّذا رُسُلَك إليهم بعدَ الإنذار، تَعِدُهم إعطاءَ كلِّ رغبة يَهِشّ إليها طَمَعُهم فى موافقة الحق ، وبَسْطَ كل أمان سألوه لأنفسهم ومَنْ معهم ومن تَبِعهم ، موطِّناً نفســك فيما تَبْسُط لهم من ذلك على الوفاء بعهدك ، والصبرِ على ما أعطيتَهم من وَثائق عَقْدك ، قابِلاً توبة نازعهم عن الضَّــلالة ، ومُراجعة مُسِيئهم إلى الطاعة ، مُرْصِــدا للمُنْحاز إلى فئة المسلمين وجماعتهم إجابةً إلى مادعوتَه إليه وبَصَّرتَه إيّاه من حقّك وطاعتك ، بفضل المنزلة ، و إكرام المَثْوى ، وتشريف الجـاه . ولْيَظهرْ من أثرك عليـه ، و إحسانك [إليه] ما يرغَبُ فى مثـله الصادفُ عنـك ، المُصِرُّ على خلافك ومعصيتك ؛ ويَدْعو إلى اعتلاق حبْــل النجاة وما هو أملك به فى الاعتصام عاجلا ، وأنجى له من العــقاب آجلا ، وأحوطُه على دينه ومُهجته بدْءا وعاقبة ؛ فإنّ ذلك ممـا يستدعى به من الله نصرَه عليهم ، و يعتضِدُ به فى تقديمه الحجّة إليهم ، مُعذِرا أو منْذِرا ، إن شاء الله .

ثم أذْكِ عُيونَك على عَدُوك متطلّعا لعلمِ أحوالِهم التى يتقلَّبُون فيهـا ، ومَنازِلهم التى هم بها ، ومَطامِعهم التى قدمدّوا أعناقَهم نحوها ، وأىّ الأمور أدْعى لهم إلى الصُّلح ، وأقْوَدُها لرضاهم إلى العافية ، وأسهلُها لاستنزال طاعتهم ، ومن أىّ الوجُوه مَأتاهم : أمِن قِبَل الشِّـدّة والمُنافرة والمكيدة والمُباعدة والإرْهاب والإيعاد ، أو التَّرْغيب والإطماع ، متثبِّتا فى أمرك ، متخيِّرا فى رويّتك ، مستمكنا من رأيك ، مستشيرا لذوى النصيحة الذين قد حنكتهم السِّنّ ، وخبطتْهم التجْرِبة ، ونجّذتْهم الحروب ، متشزّنا(١) فى حَربك ، آخذًا بالحزْم فى سُوء الظن ، مُعِدّا للحَذَر ، محترسا مــن الغِرّة ، كأنّك فى مَسيرِك كلّه ونُزولِك أجمــعَ مُواقِفٌ لعدوك رأْىَ عينٍ تنتظرُ حَملاتِهم ، وتتخوّف

---

(١) هو من قولهم تشزّن للامر تأهب .

كَرَّاتِهِم، مُعِدًّا أقوى مَكايِدِك، وأرهَبَ عَتادِك، وأنكأَ جندِك، وأجَدَّ تَشميرِك؛ معطيًا أمرَ عدوِّك لأعظمَ مما بلغك، حذرًا يكاد يُفرِط: لتُعِدَّه من الاحتراس عظيمًا، ومن المَكيدة قويًّا، من غير أن يَفْثَأَكَ(١) ذلك عن إحكام أمورك، وتدبير رأيك، وإصدار رويَّتك، والتأهُّب لما يَحزُبُك؛ مصغِّرًا له بعد استشعار الحذر، واضطلاع الحزم، وإعمال الرويَّة، وإعداد الأهبة: فإن ألفيتَ عدوَّك كليلَ الحدّ، وَقِمَ الحزم، نَضيضَ الوفر(٢)، لم يَضُرَّك ما اعتددت له من قوّة، وأخذتَ له من حزم؛ ولم يزدك ذلك إلا جُرأةً عليه، وتسرُّعا إلى لقائه. وإن ألفيتَه متوقِّد الحرب، مستكثِف الجمع، قويَّ التَّبَع، مستعليَ سَورةِ الجهل؛ معه من أعوان الفتنة وتَبَعِ إبليسَ من يُوقِد لهبَ الفتنة مسعِّرا، ويتقدّم إلى لقاء أبطالها متسرِّعا، كنتَ لأخذك بالحزم، واستعدادك بالقوّة؛ غيرَ مُهِين الجند، ولا مفرِّط في الرأي، ولا متلهِّف على إضاعة تدبير، ولا محتاج إلى الإعداد وعجلة التأهُّب مبادرةً تدهَشُك، وخوفا يُقلقك. ومتى تغترَّ بترقيق المرقِّقين، وتأخذ بالهُوَيْنَى في أمر عدوِّك لتصغير المصغِّرين، ينتشرْ عليك رأيُك، ويكونُ فيه انتقاضُ أمرك ووهنُ تدبيرك، وإهمالٌ للحزم في جندك، وتضييعٌ له وهو مُمكِن الإصحار، رحبُ المطلَب، قويُّ العِصمة، فسيحُ المضطرَب؛ مع ما يدخُل رعيّتك من الاغترار والغفلة عن إحكام أحراسهم، وضبط مراكزهم؛ لما يرون فيه من استنامتك إلى الغِرّة، وركونك إلى الأمن، وتهاونك بالتدبير؛ فيعودُ ذلك عليك في انتشار الأطراف، وضياع الأحكام، ودخول الوهن بما لا يُستقالُ محذوره، ولا يُدفَع مخوفُه.

---

(١) بالفاء والثاء المثلثة أي يكسرك ويزحزحك عن الخ.

(٢) أي قليل الوفر والمال من قولهم رجل نضيض اللحم قليله.

احفظ من عيونك وجواسيسك ما يأتونك به من أخبار عدوك . وإياك ومعاقبة أحد منهم على خبر إن أتاك به اتهمته فيه أو سؤت به ظنا وأتاك غيره بخلافه ، أو أن تكذبه فيه فترده عليه ولعله أن يكون قد محضك النصيحة وصدقك الخبر ، وكذبك الأول، أو خرج جاسوسك الأول متقدما قبل وصول هذا من عند عدوك ، وقد أبرموا لك أمرا ، وحاولوا لك مكيدة ، وأرادوا منك غرة ، فازدلفوا إليك فى الأهبة ثم انتقض بهم رأيهم ، واختلف عنه جماعتهم ، فأرادوا رأيا ، وأحدثوا مكيدة، وأظهروا قوة، وضربوا موعدا، وأموا مسلكا لمدد أتاهم، أو قوة حدثت لهم، أو بصيرة فى ضلالة شغلتهم، فالأحوال بهم متنقلة فى الساعات، وطوارق الحادثات . ولكن البسهم جميعا على الانتصاح ، وارضخ لهم بالمطامع، فإنك لن تستعبدهم بمثلها . وعدهم جزالة المثاوب، فى غير ما استنامة منك إلى ترقيقهم أمر عدوك ، والاغترار إلى ما يأتونك به دون أن تعمل رويتك فى الأخذ بالحزم ، والاستكثار من العدة . واجعلهم أوثق من تقدر عليه، وآمن من تسكن إلى ناحيته: ليكون ما يبرم عدوك فى كل يوم وليلة عندك إن استطعت ذلك، فتنقض عليهم برأيك وتدبيرك ما أبرموا، وتأتيهم من حيث أمنوا، وتأخذ لهم أهبة ما عليه أقدموا، وتستعد لهم بمثل ما حذروا .

واعلم أن جواسيسك وعيونك ربما صدقوك، وربما غشوك، وربما كانوا لك وعليك فنصحوا لك وغشوا عدوك وغشوك ونصحوا عدوك ، وكثيرا ما يصدقونك ويصدقونه . فلا تبدرن منك فرطة عقوبة إلى أحد منهم، ولا تعجل بسوء الظن إلى من اتهمته على ذلك ، واستنزل نصائحهم بالمباحة والمنالة ، وابسط من آمالهم فيك من غير أن يرى أحد منهم أنك أخذت من قوله أخذ العامل به والمتبع له، أو عملت على رأيه عمل الصادر عنه، أو رددته عليه رد المكذب به، المتهم له،

المستخفّ بما أتاك منه، فتُفسد بذلك نصيحته، وتستدعى غشّه، وتجترّ عداوته. وآحذر أن يعرفوا فى عسكرك أو يُشار إليهم بالأصابع، وليكن متولّهم على كاتب رسائلك وأمين سرّك، ويكونُ هو الموجِّه لهم، والمُدخِل عليك مَن أردتَ مشافهته منهم.

وآعلمْ أن لعدوّك فى عسكرك عيوناً راصدة، وجواسيس متجسّسة(١)، وأنه لن يقع رأيُه عن(٢) مكيدتك بمثل ما تُكايِدُه به، وسيحتالُ لك كآحتيالك له، ويُعدّ لك كإعدادك فيما تُزاوله منه، ويُحاولك كمحاولتك إياه فيما تُقارعه عنه؛ فاحذر أن يَشْهر رجل من جواسيسك فى عسكرك فيبلغ ذلك عدوّك ويَعرف موضعه، فيُعِدّ له المَراصد، ويحتال له بالمكايد. فإن ظفِر به فأظهر عقوبته، كسر ذلك ثقات عيونك، وخذلهم عن تطلّب الأخبار من معادنها، وآستقصائها من عيونها، وآستعذاب آجتنائها من ينابيعها، حتى يصيروا إلى أخذها مما عرض من غير الثّقة ولا المعاينة، تَقَطُّعا لها بالأخبار الكاذبة، والأحاديث المُرْجِفة. وآحذرْ أن يَعرف بعض عيونك بعضا: فإنّك لا تأمن تواطُؤهم عليك، ومُمالأتهم عدوّك، وآجتماعهم على غشّك، وتطابقهم على كذبك، وإصفاقهم(٣) على خيانتك، وأن يُورِّط بعضُهم بعضا عند عدوّك. فأحكم أمرهم فإنّهم رأس مكيدتك، وقوامُ تدبيرك، وعليهم مدار حربك، وهو أوّل ظفرك. فاعمَلْ على حَسَب ذلك وحيثُ رجاؤك به، تنلْ أملك من عدوّك، وقوّتك على قتاله، وآحتيالك لإصابة غِرّاته وآنتهاز فُرَصه، إن شاء الله.

فإذا أحكمتَ ذلك وتقدّمتَ فى إتقانه، وآستظهرت بالله وعونه، فولِّ شُرْطتك وأمر عسكرك أوثق قُوّادك عندك، وأظهرَهم نصيحةً لك، وأنفذهم بصيرةً

(١) فى "مفتاح الأفكار" وغيره «كامنة».

(٢) كذا فى الأصول. وفى "رسائل البلغاء" «وأن رأيه فى مكيدتك مثل ما تكايده به». تأمل.

(٣) أى آجتماعهم من قولهم أصفقوا على الأمر آجتمعوا عليه.

فى طاعتك ، وأقواهم شكيمةً فى أمرك ، وأمضاهم صَرِيمةً [(١)] ، وأصدقهم عفافا ، وأجزأهم غَناء ، وأكفاهم أمانَةً ، وأصحّهم ضميرا ، وأرضاهم فى العامّة دينا ، وأحمدهم عند الجماعة خُلُقا ، وأعطفهم على كافّتهم رأفة ، وأحسنهم لهم نَظَرا ، وأشدّهم فى دين الله وحقّه صَلَابة . ثم فوّض إليه مُقوّيا له ، وابسُط من أمله مُظهِرا عنه الرضا ، حامِدًا منه الابتلاء . وليَكُنْ عالما بمراكز الجنود ، بصيرًا بتقدّم المَنازل ، مُجرِّبا ، ذا رأى وتجربةٍ وحَزْم فى المَكيدة ، له نَباهةٌ فى الذِّكر ، وصيتٌ فى الوِلَاية ، معروفَ البيت ، مشهورَ الحَسَب . وتقدّم إليه فى ضَبْط مُعَسكره ، وإذكاء أحراسه فى آناء ليله ونهاره ، ثم حذّره أن يكون منه إذنٌ لجنوده فى الانتشار والاضطراب ، والتقدّم لطلائعك ، فتُصابَ لهم غِرّة يجترئ بها عدوُّك عليك ، ويُسرِع إقداما إليك ، ويَكسِر من إياد [(٢)] جُنْدك ويُوهِن من قوّتهم : فإنّ الصوت فى إصابة عدوّك الرجلَ الواحدَ من جُنْدك أو عبيدهم مُطمِعٌ لهم فيك ، مُقوٍّ لهم على تَجَشُّد أتباعهم عليك وتصغيرهم أمْرَك ، وتوهينهم تدبيرَك . فحذِّره ذلك وتقدَّمْ إليه فيه . ولا يكونَنّ منه إفراطٌ فى التضييق عليهم ، والحَصْر لهم ، فيَعُمَّهم أزْلُه ، ويشمَلَهم ضَنْكه ، وتسوء عليهم حالُه ، وتشتدّ به المئُونةُ عليهم ، وتخبُث له ظنونُهم . وليكنْ موضعُ إنزاله إيّاهم ضامّا لجماعتهم ، مستديرًا بهم جامعًا لهم ، ولا يكون منبسطا منتشرا متبدّدا ، فيشُقّ ذلك على أصحاب الأحراس ، وتكون فيه النُّهزة للعدوّ ، والبُعدُ من المادّة إن طرق طارق فى لَجَآت الليل وبَيَاته . وأوعِزْ إليه فى أحراسه ، وتقدّمْ إليه فيهم كأشدّ التقدّم وأبلغ الإيعاز ، ومُره فليولِّ عليهم رَجُلا رَكينا مجرِّبا جَرىء الإقدام ، ذاكِى الصّرامة ،

---

(١) الصريمة العزيمة .

(٢) فى مفتاح الأفكار وغيره « أفئدة » وفى بعض الأصول من اباده بالباء الموحدة وهاء التأنيث وفى اللسان فى مادة أى د إياد « العسكر الميمنة والميسرة وكل ما تحرز به فهو أياد » . تأمل .

جَلْدَ الجَوارح ، بصيراً بمواضع أحراسه ، غيرَ مُصانِع ولامشَفِّع للناس فى التنحّى إلىٰ الرَّفاهيَة والسَّعة ، وتقدُّمِ العسكر والتأخر عنه ، فإن ذلك مما يُضعِف الوالىَ ويُوهِنه لاستنامته إلىٰ مَنْ ولّاه ذلك وأمَّنه به علىٰ جَيْشه .

واعلم أنَّ مواضعَ الأحراس من مُعَسْكرك ، ومكانَها من جُندك ، بحيثُ الغَناءُ عنهم والرَّدُّ عليهم ، والحفظُ لهم ، والكَلاءةُ لمن بغتهم طارِقا ، أو أرادهم خاتِلا ؛ ومراصِدُها المُتَسلِّل منها والآبِق من أرقائِهم وأعْبُدهم ؛ وحِفْظُها من العيون والجواسيس من عدوّهم . واحذر أن تَضرب علىٰ يديه أو تَشْكُه عن الصَّرامة بمؤامَرتك فى كلّ أمرٍ حادثٍ وطارئٍ إلا فى المُهِمّ النازل والحَدَث العام : فإنك إذا فعلتَ ذلك به ، دعوته إلىٰ نُصحك ، واستوليتَ علىٰ محصُول ضميره فى طاعتك ؛ وأجهد نفسَه فى ترتيبك ، وأعمَلَ رأيَه فى بُلوغ موافقتك وإعانتك ؛ وكان ثقتَك ورِدْأَك وقُوّتك ودِعامتك ، وتفرّغتَ أنت لمُكايدة عدوّك ، مُريحًا لنفسك من همّ ذلك والعناية به ، مُلْقيا عنك مَؤُونةً باهظة وكُلْفةً فادِحة .

واعلم أنَّ القضاء من الله بمكانٍ ليس به شيءٌ من الأحكام ، ولا يَحُل محلَّه أحدٌ من الوُلاة : لما يَجْرى علىٰ يديه من مَغَالِظ الأحكام ومَجارِى الحُدُود . فليكُنْ من تُولِّيه القضاء فى عسكرك [من ذوى](١) الخير فى القناعة والعَفَاف والنَّزاهة والفَهْم والوقار والعِصْمة والوَرَع ، والبَصَر بوجوه القضايا ومَواقعها ، قد حنَّكتْه السِّنُّ وأيَّدته التجربةُ وأحكمتْه الأمور ، ممن لايتصنَّع للولاية ويستعِدُّ للنُّهْزة ، ويجترئُ علىٰ المُحاباة فى الحكم ، والمُداهنة فى القضاء ، عَدْلَ الأمانة ، عَفِيفَ الطُّعْمة ، حَسَنَ الإنصاف ، فَهِم القلب ، وَرِع الضمير ، متخشِّع السَّمْت ، بادِى الوَقَار ، محتسِبا للخير . ثم أجر

(١) الزيادة عن مفتاح الأفكار (ص ٢٥٠) وغيره .

عليه مايكفيه ويسعُه ويُصلحه ، وفرّغه لمـا حمّلتـه ، وأعنه على ماولّيته : فإنك قد عرّضتـه لهلكة الدنيا وبوار الآخرة ، أو شرف الدنيا وحُظوة الآجلة ، إن حسُنت نيتُه ، وصدقت رويّته ، وصحّت سريرتُه وسلّط حكمَ الله على رعيّته ، مُطلقا عنانه ، منفّذا قضاءَ الله فى خلقه ، عاملا بسُنّته فى شرائعه ، آخذا بحُدُوده وفرائضه .

واعلم أنه من جُنـدك بحيثُ ولايتُك (١) ، الجاريةُ أحكامُه عليهم ، النافذةُ أقضيته فيهم ، فاعرِف من تُولّيه ذلك وتُسْنده إليه . ثم تقدم فى طلائعك فإنهـا أولُ مَكيدتك ، ورأسُ حَربك ، ودِعامةُ أمرِك ، فانتخبْ لها من كلّ قادة وصَحابة رجالا ذوى نجدة وبأس ، وصرامة وخُبرة ، حُماةً كُفاة ، قد صَلُوا بالحرب وذاقوا سِجالها ، وشربُوا مرارَ كُئوسها ، وتجرّعوا غُصص درّتها ، وزبنتهم بتكرار عواطفها ، وحملتهم على أصعب مَراكبهـا ، وذلّلتهم بثقاف أوَدها . ثم آنتقهم على عينـك ، وآعرِض كُراعهم بنفسـك ، وتوخّ فى آنتقائك ظُهورَ الجلَد ، وشهامةَ الخُلُق ، وكمالَ الآلة . وإياك أن تقبل من دوابّهـم إلا الإناثَ من الخيل المهلوبة ، فإنهنّ أسرعُ طلبا ، وأنجى مَهرَبا ، وألينُ مَعطفا ، وأبعـدُ فى اللُّحوق غاية ، وأصـبرُ فى معترك الأبطال إقداما . وخُذهم من السّلاح بأبدان الدُّروع ، ماذيّة الحـديد ، شاكّة النّسج ، متقاربة الحلَق ، متلاحمة المسامير وأسـوق الحديد ، مُموّهة الركب ، مُحكمة الطّبع ، خفيفة الصّوغ ، وسواعد طبعها هندى ، وصَوْغُها فارسىٌّ ، رقاقُ المَعاطف بأكُفّ واقيـة وعمل محكم . وبِلَقِ البيض مُذهبـة ومجرّدة ، فارسيـة الصّوغ ، خالصة الجوهر ، سابغةُ الملبس ، واقيةُ الجُنن ، مستديرة الطّبع ، مُبهمة السّرد ، وافيةُ الوزن كتريك النّعام فى الصّنعة وآسـتدارة التّقبيب ، وآستواء الصّوْغ ، مُعلمة بأصناف

---

(١) فى "مفتاح الأفكار" وقيه بحيث ولايتك وفى الموضع الجارية الخ تأمل .

الحرير وألوان الصِّبغ ؛ فإنها أهيبُ لعدوّهم، وأفتّ لأعضاد مَنْ لقيهم، والمُعلِمُ مَخشيٌّ محذور، له بَديهةٌ رادعه، وهيبة هائله ؛ معهم السُّيوف الهندية، وذُكور البيض اليمانيه، رِقاقُ الشَّفرات، مسنونةُ الشَّحْذ، مُشَطَّبة الضرائب، معتدلةُ الجواهر، صافيَةُ الصَّفائح، لم يَدخُلْها وَهْن الطبْع، ولا عابها أَمْتُ الصَّوْغ، ولا شانَها خِفَّة الوزْن، ولا فدح حامِلَها بُهورُ الثِّقَل ؛ قد أشرَعوا لُدْن القَنا، طِوال الهوادي، مُقوَّمات الأَوَد، زُرْق الأسِنّة، مستويةَ الثَّعالب[1]، وميضُها متوقِّد، وسِنْخُها[1] متلهِّب، مَعاقِص عُقَدها منحوتة[2]، ووُصوم أَوَدها مقوّمة، وأجناسُها مختلفة، وكُعوبها جَعْدة، وعُقَدُها حبكة ؛ شَطْبة الأسنان، مُموَّهة الأطراف، مستحدّة الجُبات، دِقاقُ الأطراف، ليس فيها الْتِواءُ أَوَد، ولا أَمْتُ وَصْم، ولا بها مَسْقَط عيب، ولا عنها وُقُوع أمنية ؛ مستخِفِّين كَنائِنَ النَّبْل وقِسِيَّ الشَّوْحط والنَّبْع ؛ أعرابيَّةَ التعقيب، رُوميَّة النُّصول، مسمومة الصَّوْغ ؛ ولتكُن سهامُها على نَحْس قَبَضات سوى النُّصول، فإنها أبلغُ في الغاية، وأنفذُ في الدُّروع، وأشكُّ في الحديد ؛ ساقطين حقائبهم على مُتُون خُيولهم، مستخِفِّين من الآلة والأمتعة والزاد [إلا مالا غناءَ بهم عنه[3]] .

واحذَرْ أن تَكِل مباشرة عَرْضهم واتخابَهُم إلى أحد من أعوانك وكُتّابك : فإنك إن وكَلته إليهم أضعتَ مواضِعَ الحزم، وفرّطت حيثُ الرأْيُ، ووقفت دُونَ عَزْم الرَّويّة، ودخل عملَك ضَياعُ الوَهْن، وخلَص إليك عيبُ المحاباة، ونالَه فسادُ

---

(١) الثعلب طرف الزج الداخل فى جبة السنان ؛ وفى "مفتاح الأفكار" وغيره «وشخذها متلهب» .

(٢) فى الأصول والمفتاح بالغين والفاء، ولم نقف له على معنى مناسب .

(٣) الزيادة عن "مفتاح الأفكار" ص ٢٥١ .

المداهنة، وغلب عليــه مَن لايصْلح أن يكونَ طليعة للسلمين ولا عُدّة ولا حِصْنا يَدّرِئُون به ، ويكتفون بموضعه . والطلائعُ حصونُ المسلمين وعُيونُهم ، وهم أوّل مَكِيدتِك ، وعُروةُ أمرك ، وزمامُ حربك . فليكن آعتناؤك بهـم ، وآنتِقاؤُك إيّاهم بحيثُ هم من مُهِمّ عمَـلك، ومكيدة حَربك ؛ ثم آنتخبْ للولاية عليهـم رجلًا بعيدَ الصوت، مشهورَ الآسم ، ظاهرَ الفضل ، نَبِيهَ الذِّكر، له فى العدوّ وقَعات معرُوفات ، وأيّامٌ طِوال وصَوْلات متقدّمات ، قد عُرِفَتْ نِكايتُه، وحُذِرتْ شوكَته ، وهِيبَ صوتُه ، وتُنُكِّب لقــاؤُه ؛ أمينَ السّريرة ، ناصحَ الجَيْب ؛ قد بلَوْتَ منــه مايُسَكِّنك إلى ناحيته : من لِين الطاعة، وخالص المودّة، ورَكانة الصّرامه، وغُلُوب الشّهامه، وآســتجماع القوّة ، وحَصَافة التدبير . ثم تقدّمْ إليــه فى حُسْن سياستهم، وآستِنْزال طاعتهم، وآجتلابِ مَوَدّاتهم ،وآستِعْذاب ضمائرهم ،وأجْرِ عليهم وعليه أرزاقًا تَسَعُهم ، وتُمِدّ من أطماعهم سِوىٰ أرزاقهم فى العــامّة ، فإنّ ذلك من القوّة لك عليهــم ، والآستنامة إلىٰ ماقِبَلَهم .

وآعلَمْ أنهم فى أهمّ الأماكن لك ، وأعظمِها غَناءً عنك وعمّن معك ، وأقمعِها كَبْتا لمحادِّك ، وأشجاها غَيْظا لعــدُوّك ؛ ومَن يكُنْ فى الثقة ، والجَلَد ، والبأس ، والطاعة، والقوّة، والنصيحة، والعُدّة، والنجدة حيثُ وصــفَ لك أميرالمؤمنين وأمَرك به ، يضَعْ عنك مَئُونة الهم ، ويُرِحْ من خِناقك رَوْعَ الخوف ، وتَلْتجئْ إلىٰ أمر منيع ، وظهر قوىّ ، ورأيٍ حازم، تأمن به بَغَتَات عدُوّك ، وغِرّات بغَتاتهـم ، وطوارقَ أحداثهم ، ويصيرُ إليك علمُ أحوالهم، ومتقدّمات خُيُولهم ؛ فانتخبْهم رأىَ عيـن ، وقوّهم بمـا يُصْلِحهم من المَنَالات والأطماع والأرْزاق ، وآجعلْهم منك بالمنْزل الذى هم به من مَحَارِز علاقتك ، وحصانة كُهُوفك ، وقوّة سَيّارة عسكرك . وإيّاك أن تُدخِل فيهـم أحدًا بشفاعة ، أو تحتملَه علىٰ هَوادة ، أو تقدّمه لأثَرة ؛ أو أن يكون

مع احد منهم بغل ثقل ، أو فضلٌ من الظّهر ، أو ثقل فادح ، فتشتدّ عليهم مَئُونة أنفسهم ، ويدخلُهم كَلاَلُ السآمة فيما يعالجُون من أثقالهم ، ويشتغلُون به عن عدُوِّهم إن دَهِمَهمْ منه رائع ، أو بجَأهم منه طليعةٌ . فتفقّدْ ذلك محكّمًا له ، وتقدّم فيه آخذا بالحزْم فى إمضائه ، أرشدك اللهُ لإصابة الحَظّ ، ووفّقك ليُمْن التدبير ، وقصَد بك لأسْهل الرأى وأعوده نفعا فى العاجل والآجل ، وأ نْكَبِه لعدُوّك وأنْجاه لهم ، وأردَعِه لعاديَتِهم .

ولِّ دَرَّاجة عسكرك وإخراج أهله إلىٰ مَصَافّهم ومراكزِهم رجُلًا من أهل بيوتات الشّرف ، محمودَ الخُبْرة ، معروفًا بالنّجدة ، ذا سِنٍّ وتَجْرِبة ، ليِّنَ الطاعة ، قديمَ النّصيحة ، مأمُونَ السّريرة ، له بصيرةٌ بالحق نافذةٌ تُقَدِّمه ، ونيّةٌ صادقةٌ عن الإدهان تَحْجُزه . واضْمُم إليه عِدّةَ نفر من ثِقات جُنْدك وذَوِى أسنانِهم يكونُون شُرْطةً معه ، ثم تقدّمْ إليه فى إخراج المَصَافّ ، وإقامة الأحْراس ، وإذْكاء العُيون ، وحِفْظ الأَطراف ، وشِدّة الحَذَر ، ومُرْه فليضَع القُوّادَ بأنفسهم مع أصحابهم فى مَصافّهم ، كلُّ قائد بإزاء مكانه ، وحيثُ منزِلُه ، قد سُدّ مابينه وبين صاحبه بالرّماح شارعةً ، والتّرسة موضُونةً ، والرجالِ راصدةً ، ذاكيةَ الأحراس ، وجِلةَ الرّوْع ، خائفةً طوارقَ العدوّ وبَيَاتَه . ثم مُرْه فليُخْرِج كلَّ ليلة قائدًا فى أصحابه أو عدّةٍ منهم إن كانوا كثيرًا ، علىٰ غلْوة أو اثنتين من عسكرك ، متنبِذًا عنك مُحيطا بعسْكرك ، ذاكيةً أحراسُه ، قَلِقةَ التردّد ، مُفْرِطةَ الحذَر ، مُعدّة للرّوْع ، متأهّبةً للقتال ، آخذةً علىٰ أطراف المُعَسْكر ونواحيه ، متفرِّقين فى اختلافهم كُرْدُوسا كُرْدُوسا ، يستقبل بعضُهم بعضا [فى الاختلاف] (١) ويَتْبَع تالٍ متقدّمًا فى التردّد ، واجعلْ ذلك بين قُوّادك وأهلِ

(١) الزيادة عن "مفتاح الأفكار" ص ٢٥٢ .

عسكرك نُوَبا معروفة ، وحِصَصا مفْروضة ، لا تغير منها مُزدلفا منك بمودّة، ولا تحامُل فيه على أحد بموجدة، إن شاء الله تعالى .

فوّض إلى أمراء أجنادك وقوّاد خيلك أمور أصحابهم، والأخذ على قافية أيديهم، رياضةً منك لهم على السّمع والطاعة لأمرائهم ، والاتّباع لأمرهم ، والوقوف عند نهيهم ؛ ونقدّم إلى أمراء الأجناد في النوائب التي ألزمتهم إياها ، والأعمال التي آستنجدتهم لها ، والأسلحة والكُراع التي كتبتها عليهم ؛ وآحذر آعتلال أحد من قوّادك عليك بما يحول بينك وبين تأديب جندك ، وتقويمهم لطاعتك ، وقمعهم عن الإخلال بمراكزهم لشيء مما وُكلوا به من أعمالهم ؛ فإنّ ذلك مفسدة للجند ، مفتاة للقوّاد عن الجِدّ والإيثار للناصحة ، والتقدّم في الأحكام .

وآعلم أنّ في آستخفافهم بقوّادهم وتضييعهم أمر رؤسائهم دُخولا للضّياع على أعمالك ، وآستخفافا بأمرك الذي يأتمرون به ورأيك الذي ترتئي . وأوعز إلى القوّاد أن لا يُقدِم أحدٌ منهم على عقوبةِ أحد من أصحابه ، إلا عقوبةَ تأديب في تقويم ميل، وتثقيف أَوَد ؛ فأما عقوبةٌ تبلغ تلف المهجة وإقامةُ حدّ في قطع ، أو إفراطٌ في ضرب أو أخذُ مال ، أو عقوبةٌ في شعر فلا يلينّ ذلك من جندك أحدٌ غيرك ، أو صاحبُ شُرطتك بأمرك وعن رأيك وإذنك ؛ ومتى لم تُذلّل الجندَ لقوّادهم ، وتُضرعهم لأمرائهم ؛ تُوجبْ لهم عليك الحجّة بتضييع ــ إن كان منهم ــ لأمرك ، أو خلل ــ إن تهاونوا به ــ من عملك ، أو عجز ــ إن فرّط منهم ــ في شيء مما وكّلتهم به أو أسندته إليهم ، ولا تجد إلى الإقدام عليهم باللّوم وعضّ العقوبة عليهم مجازا تصلُ به إلى تعنيفهم ، بتفريطك في تذليل أصحابهم لهم ، وإفسادك إياهم عليك وعليهم . فانظر في ذلك نظرا محكما ، وتقدّم فيه برفقك تقدّما بليغا ؛ وإياك أن

يدخل حزمك وهن، أو تشوب عزمك إيثار، أو يخلط رأيك ضياع؛ والله يستودع أمير المؤمنين نفسك ودينك .

إذا كنت من عدوك على مسافة دانية وسنن لقاء مختصر، وكان من عسكرك مقتربا قد شامت طلائعك مقدمات ضلالته، وحماة فتنته؛ فتأهب أهبة المناجز، وخذ أعداد الحذر، وكتب خيولك، وعب جندك؛ وإياك والمسير إلا في مقدمة وميمنـــة وميسرة وساقة؛ قد شهروا الأسلحة، ونشروا البنود والأعلام، وعرف جندك مراكزهم سائرين تحت ألويتهم، قد أخذوا أهبة القتال، واستعدوا للقاء، ملتجئين إلى مواقفهم، عارفين بمواضعهم في مسيرهم ومعسكرهم . وليكن ترحلهم وتنزلهم على راياتهم وأعلامهم وفي مراكزهم، قد عرف كل قائد منهم أصحابه مواقفهم : من الميمنة والميسرة والقلب والساقة والطليعة، لازمين لها، غير مخلين بما استنجدوا له، ولا متهاونين بما أهيب بهم إليه؛ حتى تكون عساكرك في منهل تصل إليه ومسافة تختارها كأنها عسكر واحد في اجتماعها على العدو، وأخذها بالحزم، ومسيرها على راياتها، ونزولها في مراكزها، ومعرفتها بمواضعها : إن ضلت دابة من موضعها، عرف أهل العسكر من أي المراكز هي، ومن صاحبها، وفي أي المحل حلوله منها فردت إليه، هداية معروفة بسمت صاحب قيادتها؛ فإن تقدمك في ذلك وإحكامك له طارح عن جندك مئونة الطلب، وعناية المعرفة، وابتغاء الضالة .

ثم اجعل على ساقتك أوثق أهل عسكرك في نفسك صرامة ونفاذا ورضا في العامة، وإنصافا من نفسه للرعية، وأخذا بالحق في المعدلة، مستشعرا تقوى الله وطاعته؛ آخذا بهديك وأدبك، واقفا عند أمرك ونهيك، معتزما على مناصحتك وتزيينك، نظيرا

لك فى الحـال ، وشبيها بك فى الشرف ، وعديلا فى الموضـع ، ومقاربا فى النسب[(١)] ، ثم اكثف معه الجمع ، وأيده بالقوة ، وقوه بالظهر ، وأعنه بالأموال ، وأغمده بالسلاح ، ومره بالتعطف على ذوى الضعف من جنـدك ومن أزحفت به دابته وأصابتـه نكبـة : من مرض أو رجلة أو آفة ، من غير أن يأذن لأحد منهم فى التنحى عن عسكره ، أو التخلف بعد ترحله ، إلا لمجهود مثقل ، أو لمطروق بآفة جائحة . ثم تقدم إليه معذرا ، ومره زاجرا ، وانهه مغلظا فى الشدة على من مر به منصرفا عن معسكرك من جندك بغير جوازك ، شادا لهم أسرا ، وموقرهم حديدا ، ومعاقبهم موجعا ، وموجههم إليـك فتنهكهم عقوبة ، وتجعلهم لغيرهم من جندك عظة .

واعلم أنه إن لم يكن بذلك الموضع من تسكن إليه واثقا بنصيحته قد بلوت منه أمانة تسكنك إليـه ، وصرامة تؤمنك مهانته ، ونفاذا فى أمرك يرخى عنك خنـاق الخوف فى إضاعته ـ لم يأمن أمير المؤمنين تسلل الجنـد عنك لواذا ، ورفضهم مراكزهم ، وإخلالهم بمواضعهم ، وتخلفهم عن أعمالهم ، آمنين تغيير ذلك عليهم ، والشـدة على من اجترمه منهم ، فأوشك ذلك فى وهنك ، وخذل من قوتك ، وقلل من كثرتك .

اجعل خلف ساقتك رجلا من وجوه قوادك ، جليدا ، ماضيا ، عفيفا ، صارما ، تهم الرأى ، شديد الحذر ، شكيم القوة ، غير مداهن فى عقوبة ، ولا مهين فى قوة ، فى خمسين فارسا يحشر إليك جنـدك ، ويلحق بك من تخلف عنك بعـد الإبلاغ فى عقوبتهم ، والنهك لهم والتنكيل بهم . وليكن بعقوتك فى المنزل الذى ترحل عنه ، والمنهـل الذى تتقوض منـه ، مفرطا فى النفض له ، والتتبع لمن تخلف عنك به ؛

(١) فى مفتاح الأفكار وغيره « فى الصيت » وهى أوضح .

مشتدًّا فى أهل المنزل وساكنيه بالتقدّم، مُوعِزا إليهم فى إزعاج الجُنْد عن منازلهم، وإخراجهم عن مكامنهم؛ وإيعادِ العقوبة المُوجِعة والنَّكال المُبْسل فى الأشعار والأبشار، واستِصْفاءِ الأموال وهَدْم العَقار لمن آوى منهم أحدًا أو ستَر موْضعه، أو أخفى محلَّه . وحَذِّره عقوبتَك إياه فى الترخيص لأحد، والمحاباة لِذى قَرابة، والاختِصاص بذلك لِذى أثَرة وهَوادة . ولْتكُنْ فُرسانه منتخَبين فى القوّة، معْروفين بالنَّجدة، عليهم سوابِغُ الدُّروع دُونَها شعار الحشو وجُبَب الاستِجْنان، متقلِّدين سُيوفَهم، سامِطِين كنائنَهم، مستعِدّين لهَيْج إن بَدَههم [أو كَمِين إن يظهر لهم](١) . وإيّاك أن تَقبل منهم فى دَوابِّهم إلا فرسًا قويًّا أو بِرْذَوْنا وَثِيقا : فإن ذلك من أقوى القُوّة لهم، وأعْون الظَّهرِيّ على عدُوّهم، إن شاء الله .

لِيَكُنْ رَحيلك إبّانا واحدًا، ووقتا معلُوما : لتخِفّ المَئُونة بذلك على جُنْدك، ويعلموا أوانَ رَحيلهم، فيقَدِّموا فيما يُريدُون من معالجة أطْعِمَتِهم، وأعلافِ دَوابِّهم، وتَسْكُنَ قلوبهم إلى الوقت الذى وَقَفُوا عليه، ويَطْمئنّ ذوُو الرأى إلى إبّان الرحيل، ومتى يكُنْ رَحيلُك مختَلِفا، تعظُم المَئُونةُ عليك وعلى جُنْدك ولا يزالُ ذَوُو السَّفَه [والنَّزق](١) يترحَّلون بالإرجاف ويتنزّلون بالتوهُّم، حتى لا ينتفع ذُو رأى بنوم ولا طُمأْنِينة .

إيّاكَ أن تُظهر استِثقالا، أو تُنادىَ برحيل من مَنْزِل تكونُ فيه، حتى تأمُر صاحبَ تعبِئتك بالوُقوف بأصحابه على مُعَسكرك آخذا بجَنَبَتَىْ فوهته، بأسلحتِهم عُدّة لأمْرٍ إن حضَر، أو مفاجاةٍ من طَليعة للعَدُوّ إن رأَتْ منكم نُهْزةً، أو لمحَتْ عندكم غِرّة . ثم مُر النّاسَ بالرَّحيل وخيلُك واقفة، وأُهْبتُك مُعَدّة، وجُنّتك

(١) الزيادة عن «مفتاح الأفكار» وغيره .

واقيــة ، حتى إذا آستقللتم من معسكركم ، وتوجهتم من منزلكم ، سرتم على تعبئتكم بسكون ريح ، وهدوّ حملة ، وحسن دعة . فإذا آنتهيت إلى منهل أردت نزوله أو هممت بالمعسكر به ، فإياك ونزوله إلا بعد العلم بأهله ، والمعرفة بمرافقه ؛ ومر صاحب طليعتك أن يعرف لك أحواله ، ويستثير لك علم دفينه ، ويستبطن علم أموره ثم ينهيها إليك على ماصارت إليه : لتعلم كيف آحتماله لعسكرك ، وكيف ماؤه وأعلافه وموضع معسكرك منه ، وهل لك ــ إن أردت مقاماً به ، أو مطاولة عدوك أو مكايدته فيه ــ قوة تحملك ومدد يأتيه : فإنك إن لم تفعل ذلك ، لم تأمن أن تهجم على منزل يعجزك ويزعجك عنه ضيق مكانه ، وقلة مياهه ، وآنقطاع موادّه ، إن أردت بعدوك مكيدة ، أو آحتجت من أمورهم إلى مطاولة . فإن آرتحلت منه كنت غرضا لعدوك ، ولم تجد إلى المحاربة والاخطار سبيلا ، وإن أقمت به أقمت على مشقة وحصر وفى أزل وضيق ، فاعرف ذلك وتقدم فيه . فإن أردت نزولا أمرت صاحب الخيل التى وكلت بالناس فوقفت خيله متنحية من معسكرك ، عدة لأمر إن غالك ، ومفزعا لبديهة إن راعتك ، فقد أمنت بحمد الله وقوته فجاة عدوك ، وعرفت موقعها من حرزك ، حتى يأخذ الناس منازلهم ، وتوضع الأثقال مواضعها ، ويأتيك خبر طلائعك ، وتخرج دبابتك من معسكرك درّاجة ودبابا محيطين بعسكرك ، وعدّة إن آحتجت إليها . ولتكن دبابات جندك أهل جلد وقوة ، قائدا أو آثنين أو ثلاثة بأصحابهم ، فى كل ليلة ويوم نوبا بينهم ؛ فإذا غربت الشمس ووجب نورها ، أخرج إليهم صاحب تعبئتك أبدالهم ، عسسا بالليل فى أقرب من مواضع دبابى النهار ، يتعاور ذلك قوادك جميعا بلا محاباة لأحد فيه ولا إدهان .

إياك وأن يكون منزلك إلا فى خندق وحصن تأمن به بيات عدوك وتستنيم فيه إلى الحزم من مكيدتك إذا وضعت الأثقال وحطت أبنية أهل العسكر، لم يمدد

طُنُب ، ولم يُرفع خِباء ، ولم يُنصَب بناءٌ حتى تَقطع لكلّ قائد ذَرْعًا معلومًا من الأرض بقدر أصحابه ، فيحفِرونه عليهم خَندقًا يُطيفونه بعد ذلك بخنادق الحَسَك ، طارحين لها دُون آشتجار الرِّماح ، ونَصْب التِّرَسة ، لها بابان قد وُكِّلتَ بحفظ كل باب منهما رجلا من قُوّادك فى مائة رجل من أصحابه ، فإذا فُرِغ من الخَندق كان ذانِك الرجلانِ القائدانِ بمن معهما من أصحابهما أهلَ ذلك المركز ، وموضعَ تلك الخيل ، وكانُوا هم البَوّابِين والأحراسَ لذَينِك الموضعَيْن ، قد كَفَوْهما وضَبطُوهما وأُعفُوا من أعمال العسكر ومكروهه غيرهما .

وآعلم أنك إذا كنتَ فى خَندق ، أمِنتَ بإذن الله وقُوّته طوارقَ عدوّك وبَغتاتِهم ، فإنْ راموا تلكَ منك ، كنتَ قد أحكمتَ ذلك وأخذتَ بالحزم فيه ، وتقدّمتَ فى الإعداد له ، ورَفَقتَ مَخُوفَ الفَتق منه ؛ وإن تكُن العافيةُ آستحقَقْتَ حمدَ الله عليها ، وآرتبطْتَ شُكره بها ، ولم يَضرُرْك أخذُك بالحزم ؛ لأن كل كُلفة ونَصَب ومَئُونة إنفاق ومشقّة عمل مع السلامة غُنْم وغيرُ خَطَر بالعاقبة ، إن شاء الله . فإن آبتُليت ببَيات عدوّك أو طَرَقك رائعًا فى ليلك ، فليُلفِك حَذرا مُشمِّرا عن ساقك ، حاسرًا عن ذِراعك ، متشزِّنا لحَرْبك ، قد تقدّمتَ دَرّاجتُك إلى مواضعها على ما وصَفَه لك أمير المؤمنين ، ودبّابتُك فى أوقاتها التى قَدّر لك ، وطلائعُك حيثُ أمرك ، وجُندُك على ما عَبّأ لك قد خَطَرتَ عليهم بنفسك ، وتقدّمتَ إلى جُندك إن طَرَقهم طارق ، أو فاجأهم عدوّ ، أن لا يتكلّمَ منهم أحدٌ رافعًا صوته بالتكبير مُغرِقا فى الإجلاب ، مُعلِنا بالإرهاب لأهل الناحية التى يقع بها العدوّ طارقًا ، وليَشرَعوا رِماحَهم ناشبين بها فى وُجوههم ، ويَرشُقونهم بالنبل مُكتنِّين بأترِستِهم(١) ، لازِمين لمراكزهم ،

(١) فى المفتاح وغيره « ملبذين ترستهم » وفى الأصل أترستهم وقال ابن السكيت لا يقال أترسة وزان أرغفة وإنما جمع الترس ترسة وتروس وتراس وربما قيل أتراس فتنبه .

غير مُزيلي قَدَم عن موضـعها ، ولا مُتجاوِزين إلى غير مَرْكَزهم . وليُكَبِّروا ثلاثَ تكبيرات متواليات وسائرُ الجند هادُون، لتَعرف موضعَ عدُوّك من مُعَسْكرك، فتُمِدّ أهل تلك الناحية بالرجال من أعوانك وشُرْطتك ، ومن آنتخبتَ قبلَ ذلك عُدّةً للشدائد بحضرتك، وتَدُسّ إليهم النُّشّاب والرِّماح .

وإيّاكَ وأن يَشْهروا سـيفًا يتجالَدُون به . وتقدّمْ إليهم أن لا يكونَ قتالهم فى تلك المواضع لمَنْ طَرقَهم إلا بالرِّماح مُسْـنِدين لها إلى صُـدُورهم، والنُّشّاب راشقين به وجُوهَهم، قد ألبَدُوا بالأَتْرِسة، وآستجَنُّوا بالبَيْض، وألقَوْا عليهم سَوابِغَ الدُّروع وجِبابَ الحَشْو ؛ فإن صَدّ العدوُّ عنهم حاملين على جهة [أخرى ، كَبَّر] (١) أهل تلك الناحيـة التى يقع فيها كفِعْل الناحيةِ الأُولى ، وبقيّـةُ العسكر سكوتٌ والناحيةُ التى صَدّ عنها العدوُّ لازمةٌ مراكزَهم متطقةُ المدوّساكنةُ الرِّيح، ثم عمِلتَ فى تقويتهم وإمدادهم بمثل صَنيعك فى إخوانهم .

وإياك أن تُخْمِـدَ نارَ رُواقِـك [وإذا وقع العـدُوّ فى مُعَسْكرك فأجِّجها ساعرًا لها وأوقدها حطبًا جَزْلًا يعرف به أهـل العسكر مكانَكَ وموضع رواقك] (١) فيَسْكُن نافِرُ قلوبهـم ، ويَقوَى واهِى قُوّتِهـم ، ويشتدُّ مُنْخَذِل ظُهورهم ، ولا يرجُمونَ بك الظُّنون ، ويعمَـلونَ لكَ آراء السُّوء ، ويُرْجِفُون بك آناءَ الخوف، وذلك من فعلك رادٌّ عدُوّك بغيظه لم يستفِلّ منك ظَفَرا، ولم يبلُغْ من نِكايتك سُرُورا . وإن آنصرفَ عنك عدوُّك ونَكَل عن الإصابة من جُنْدك وكانتْ بخَيّـالك قوةٌ على طلَبه أو كانت لك من فُرْسانك خيلٌ مُعَدّة وكتيبةٌ منتخَبة، [و]قَدرتَ على أن تَركَبَ بهم أكساءَهم، وتحمِلَهم على سَنَنِهم ؛ فأتبِعْهم جَريدةَ خيل عليها الثِّقات من فُرْسانك ، وأُولو النَّجدة من حُماتك ؛ فإنك تَرْهَق عدوّك وقد أَمِن من بَياتك، وشُـغِل بكَلاله عن التحرُّز

(١) الزيادة من مفتاح الأفكار وغيره وهى من سقطات الناسخ كما لايخفى .

منك والأخذ بأبواب مُعَسْكره ، والضَّبط لمحارسه عليك، مُوهَنةً حُماتُهم لِغيبة أبطالهم : لما ألفوكم عليه من التشمير والجِدّ ، قد عقَر الله فيهم ، وأصابَ منهم، وجرَح من مقاتِلتهم، وكَسَر من أماني ضُلّالهم، ورَدّ من مستَعلي جِماحهم .

وتقدَّمْ إلىٰ من تُوجّهه فى طلَبهم، وتُتبِعُه أكساءَهم : فى سُكُون الرِّيح، وقِلّة الرَّفَث، وكَثْرة التسبيح والتهليل، وآستنصار الله عزّ وجل بألسِنَتهم وقلوبِهم سِرًّا وجَهْرا، بلا لَجَبٍ ضَجَّة، ولا آرتفاعِ ضَوْضاء، دُونَ أن يردوا علىٰ مطالبهم، ويتَهزّوا فُرَصَتهم. ثم لِيَشْهَروا السِّلاح ، ويَنتَضُوا السُّيوفَ، فإنّ لها هَيْبةً رائعة، وبَديهة مَخُوفة، لايقومُ لها فى بُهْمة الليل وحِندِسه إلا البطَلُ المُحارِب ، وذُو البصيرة المُحامِي ، والمستَميتُ المُقاتل، وقليلٌ ماهم عند تِلكَ الحَمِيَّة وفى ذلك الموْضع .

لِيَكُنْ أوّلَ ماتتقدّمُ به فى التهيُّؤ لعدُوّك، والاستعداد لِلقائه، آنتخابُك من فُرْسان عسكرك وحُماة جُنْدك ذَوِي البأْس والحُنْكة والجَلَد والصَّرامة، ممّن قد آعتاد طِرَاد الكُماة، وكَشَر عن ناجذه فى الحَرْب، وقام علىٰ ساقٍ فى مُنازَلة الأقران ، ثَقِفَ الفُروسية ، مجتمِعَ القُوّة، مستحصِدَ المَرِيرة ، صَبُورًا علىٰ هَوْل الليل، عارفًا بمُناهَزة الفُرَص، لم تَمْهنْه الحُنْكة ضَعْفًا، ولا بَلَغَتْ به السِّنّ كَلالًا، ولا أسْكرَتْه غِرّة الحَداثة جهلًا، ولا أبطرَتْه نَجْدة الأعمار صلَفًا ، جَريئًا علىٰ مخاطَرة التلَف، مُقْدِما علىٰ آدّراع الموْت ، مُكابِرًا لمَهِيب الهول، متقَحِّمًا مَخْشِيّ الحُتُوف، خائضًا غَمَرات المَهالك ، برأْيٍ يؤيّده الحزم ، ونِيّة لايخالِجُها الشّكّ ، وأهواءٍ مجتمعة ، وقلوبٍ مؤتلِفة ، عارفِينَ بفضل الطاعة وعزِّها وشرفها ، وحيثُ محلُّ أهلها من التأييد والظَّفَر والتمكين ، ثم آعرِضْهم رأْيَ عين علىٰ كُراعِهم وأسلحتهم . ولْتَكُن دوابُّهم إناثَ عِتاق الخَيل، وأسلحتُهم سوابغَ الدُّروع وكمالَ آلةِ المُحارب، متقلِّدين

سيوفهم المستخلصة من جيد الجوهر وصافي الحديد، المتخيرة من معادن الأجناس، هندية الحديد يمانية الطبع، رقاق المضارب، مسمومة الشحذ، مشطبة الضريبة، مخلدين بالترسة الفارسية، صينية التعقيب، معلمة المقابض بحلق الحديد، أنصاؤها مربعة، ومحارزها بالتجليد مضاعفة، محملها مستخف، وكنائن النبل وجعاب القسي قد استحقبوها، وقسي الشريان والنبع أعرابية الصنعة، مختلفة الأجناس، محكمة العمل، مقومة التثقيف؛ ونصول النبـل مسمومة، وعملها مصيصي، وتركيبها عراقي، وتريشها بدوي، مختلفة الصوغ في الطبع، شتى الأعمال في التشطيب والتجنيح والاستدارة. ولتكن الفارسية مقلوبة المقابض، منبسطة السية، سهلة الانعطاف، مقربة الانحناء، ممكنة المرمى، واسـعة الأسهم، فرضها سهلة الورود، ومعاطفها غير مقتربة المواتاة. ثم ول على كل مائة رجل منهم رجلا من أهل خاصتك وثقاتك ونصحائك، له صيت في الرياسة، وقدم في السابقة، وأوليـة في المشايعة. وتقـدم إليه في ضـبطهم، وكف معرتهم، واستنزال نصائحهم، واستعداد طاعتهـم، واستخلاص ضمائرهم، وتعاهد كراعهم وأسلحتهم: معفيا لهم من النوائب التي تلزم أهل عسكرك وعامة جنـدك؛ واجعلهم عدة لأمر إن حزبك أو طارق إن أتاك؛ ومرهم أن يكونوا على أهبة معدة، وحذر ناف لسـنة الغفلة عنهم؛ فإنك لا تدري أي الساعات من ليلك ونهارك تكون إليهم حاجتك. فليكونوا كرجل واحد في التشمير والترادف وسرعة الإجابة؛ فإنك عسيت أن لا تجد عنـد جماعة جندك في مثـل تلك الروعة والمباغتة ـ إن احتجت إلى ذلك منهم ـ معونة كافية، ولا أهبة معدة، بل ذلك كذلك. فليكن هؤلاء القوم الذين تنتخب عدتك وقوتك، بعوثا قد وظفتها على القواد الذين وليتهم أمورهم، فسميت أولا وثانيا وثالثا ورابعا وخامسا وسادسا؛ فإن اكتفيت فيما يطرقك ويبدهك ببعث واحد، كان

مُعَدًا لم تحتج إلى انتخابهم فى ساعتك تلك فقطع البعث عليهم عند ما يَرْهَقُك . و إن احتجت إلى اثنين أو ثلاثة ، وجّهت منهم إرادتك أو ما ترى قُوّتك ، إن شاء الله .

وَكِّلْ بخزائنك ودواوينك رجلا ناصحا أمينًا ، ذا ورع حاجز ، ودين فاصل ، وطاعة خالصة ، وأمانة صادقة ، واجعل معه خيلا يكونُ مسيرها ومنزلها ومرحلها مع خزائنك وحولها . وتقدّمْ إليه فى حفظها ، والتوقِّى عليها ، واتّهام كلِّ من تُسند إليه شيئا منها على إضاعته والتهاون به ، والشدّة على من دنا منها فى مسير ، أو ضامّها فى منزل ، أو خالطها فى منهل . وليكنْ عامّةُ الجند والجيش ـ إلا من استخلصت للسير معها ـ متنحّين عنها ، مجانبين لها فى المسير والمنزل ، فإنه رُبّما كانت الجولة وحدثت الفزعة ، فإن لم يكن للخزائن من يوكّل بها أهلُ حفظ لها وذبٍّ عنها ، وحياطة دونها ، وقوّة على من أراد انتهابها ، أسرعَ الجندُ إليها وتداعوا نحوها حتى يكاد يترامى ذلك بهم إلى انتهاب العسكر ، واضطراب الفتنة ، فإنّ أهل الفتن وسوء السيرة كثيرٌ ، وإنما همّتهم الشرّ ، فإيّاك أن يكونَ لأحد فى خزائنك ودواوينك [و بيوت أموالك] (١) مطمع ، أو يجد سبيلا إلى اغتيالها ومرزأتها .

اعلم أنّ أحسنَ مكيدتك أثرًا فى العامّة ، وأبعدها صيتاً فى حُسن القالة ، ما نلت الظّفر فيه بحزم الرويّة ، وحُسن السيرة ، ولُطف الحيلة . فلتكن رويّتك فى ذلك وحرصُك على إصابته بالحِيَل ، لا بالقتال وأخطار التلف ، وادسُسْ إلى عدوّك ، وكاتب رؤساءهم وقادتهم وعِدْهم المنالات ، ومنّهم الولايات ، وسوّغهم التراث ، وضَعْ عنهم الإحَن ، واقطع أعناقهم بالمطامع ، واستدعهم بالمثاوب ، واملأ قلوبهم بالترهيب إن أمكنتك منهم الدوائر ، وأصارتهم إليك الرواجع ، وادعُهم إلى الوثوب بصاحبهم أو اعتزاله إن لم يكن لهم بالوثوب عليه طاقةٌ ، ولا عليك أن تطرح إلى

(١) الزائد من رسائل البلغاء .

بعضهم كُتُباً كأنّها جوابُ كُتبٍ لهم إليك، وتكتب على ألسنتهم كتبا إليك تدفعها إليهم، وتحمِلُ بها صاحِبَهم عليهم وتنزلهم عنده بمنزلة التُّهَمة ومَحَلّ الظِّنّة؛ فلعلّ مَكيدتك في ذلك أن يكونَ فيها افتراقُ كلمتِهم، وتشتيتُ جماعتِهم، وإحَنُ قلوبِهم، وسُوءُ الظنِّ مِنْ واليهم بهم، فيوحِشُهم منه خوفُهم إيّاه على أنفسهم إذا أيقنوا باتّهامه إيّاهم؛ فإن بسَط يدَه فقتلهم، وأولَغ سيفَه في دِمائهم، وأسرَعَ الوثوبَ بهم، أشعَرَهم جميعاً الخوفَ، وشمِلهم الرُّعبُ، ودعاهم إليك الهربُ فتهافَتُوا نحوك بالنصيحة وأمّوك بالطّلَب. وإن كان متأنّيا محتَملا رجوتَ أن تستميلَ إليك بعضَهم، ويستدعى الطمعُ ذوِي الشَّره منهم، وتنالَ بذلك ما تُحِبّ من أخبارهم، إن شاء الله.

إذا تَدانَى الصَّفّان، وتواقَفَ الجمْعان، واحتضرت الحربُ، وعبّأت أصحابك لقتال عدُوّهم، فأكثِر من قول: لاحولَ ولا قُوّةَ إلا بالله، والتوكُّلِ على الله عزّ وجلّ والتفويضِ إليه، ومَسْألتِه توفيقَك وإرشادَك، وأن يَعزِمَ لك على الرُّشد المُنجِي، والعِصْمة الكالئة، والحِياطة الشاملة. ومُر جُندَك بالصَّمْت وقلّة التلفُّت عند المُصاولة، وكثرةِ التكبيرِ في أنفسِهم، والتسبيحِ بضمائرِهم؛ ولا يُظهِروا تكبيراً إلا في الكَرّات والحَمَلات، وعند كلّ زُلْفَةٍ يزدلِفُونها؛ فأمّا وهم وقوفٌ فإنّ ذلك من الفَشَل والجُبْن، وليذكُروا الله في أنفسِهم ويسألُوه نَصْرَهم وإعزازَهم، وليُكثِروا من قول: لاحولَ ولا قوّة إلا بالله العليّ العظيم، حسبُنا الله ونِعم الوكيلُ، اللهمّ انصُرنا على عدُوّك وعدُوّنا الباغي، واكفِنا شوكتَه المستَحِدّة، وأيِّدنا بملائكتِك الغالبين، واعصِمْنا بعونك من الفَشَل والعَجْز إنك أرحمُ الراحمين.

وليكُنْ في مُعَسكرك المكبِّرون في الليل والنهار قَبْل المُواقَعة، وقومٌ موقوفون يُحضّونهم على القتال ويحرِّضُونهم على عدُوِّهم، ويصِفُون لهم منازلَ الشُّهداء وثوابَهم،

ويُذَكّرونهم الجنةَ ودرجاتِها ونعيمَ أهلِها وسُكّانِها، ويقولون: آذكُروا اللهَ يذكُرْكم، وآستنصِروه ينصُرْكم، وآلتجِئوا إليه يمنعْكم. وإن آستطعتَ أن تكون أنت المباشرَ لتعبئةِ جُنْدك، ووضعِهم مواضعَهم من رأيك، ومعك رجالٌ من ثقات فُرسانك ذوو سِنٍّ وتجرِبةٍ ونجدةٍ على التعبئة التي أميرُ المؤمنين واصفُها لك في آخر كتابك، فافعل إن شاء الله تعالى.

أيّدك اللهُ بالنصر، وغلّب لك على القوة، وأعانك على الرُّشد، وعصَمك من الزَّيغ، وأوجبَ لمن آستشهَدَ معك ثوابَ الشُّهداء ومَنازلَ الأصفياء، والسلامُ عليك ورحمةُ الله وبركاتُه.

وكتب سنةَ تسع وعشرين ومائةٍ.

الطرف الثالث

(فيما كان يُكتَب عن خلفاء بني العبّاس ببغدادَ إلى حين آنقراض الخلافة العبّاسية من بغداد)

وهو على أربعة أنواع:

النوع الأوّل

(ما كان يُكتَب لوُزَراء الخلافة)

وكان رسمهم فيه أن يفتتح بلفظ «أما بعدُ فالحمدُ لله» ويؤتى فيه بثلاث تحميداتٍ، وربما آقتُصِر على تحميدة واحدة. وعلى ذلك كانت تقاليدُ وُزَرائهم من أرباب السُّيوف والأقلام.

وهذه نسخةُ تقليدٍ من ذلك كَتَب بها العلاءُ بن مُوصَلايا ، عن القائم بأمر الله ، للوزير فخر الدولة بن جَهِير ، فى شهور سنة آثنتين وسبعين وأربعمائة ، وهو :

أما بعـدُ ، فالحمدُ لله ذى الآلاءِ الصافيَـة الموارِد ، والنَّعماء الصادقة الشَّواهد ، والطَّوْل الجامع شَمْلَ أسباب المِنَح الشَّوارد ، ذى القُدْرة المصرِّفة على حُكْمها مَجارِى القَدَر ، والمشيئة الحالية بالنَّفاذ فى حالَتَى الوِرْد والصَّدَر ، المُذلّ بجميل صُنْعه أعنـاقَ المَصاعب ، المُديم(١) بكريم لُطْفه من آمتداد ذوائب النَّوائب ، الذى جلَّ عن إدراك صِفاته بعدّ أو حَدّ ، ودلَّ بباهر آياته على كونه الفَرْدَ الولىَّ بكل شُكْر وحمد ، سبحانه وتعالى عما يصِفُون .

والحمـدُ لله الذى آختصَّ محمدًا صلى الله عليه وسـلم بالرِّساله واجْتباه ، وحَبـاه بالكَرامه بمـا أشرق له مَطْلَعُ الجَلال ، وآختـاره وبعثه لإظهار كلمة الحقِّ بعد أن مدّ الضَّلالُ رُواقَه ، فلم يزلْ بإعزاز الشَّرْع قائمـا ، ولسـاعاتِ زمانه فى طَلَب رضا الله قاسِما ، لا يَنْحرِف عن مقاصِدِ الصواب ولا يَميل ، ولا يُخْلِى مَطايا جِدّه فى تقوية الدِّين مما يُتابِـع فيه الرَّسيمَ والذَّميل ، إلى أنْ أزالَ عن القلوب صَدَأ الشُّكُوك وجَلا ، وأجلى مَسْعاه عن كلِّ ما أودَع نُفُوسَ أحلافِ البـاطل وَجَلا ، ومَضى وقد أضاء للإيمـان هلالُ أمرٍ سَراره ، وآنتضَى لإبادة الشِّرك حُساماً لاينبُو قطُّ غِراره ، فصلَّى الله عليه وعلى آله الطاهرين ، وأصحابه المنتخَبين ، صلاةً يتَّصل الأصيلُ فيها بالغُدُوّ ، وترى قيمتُها فى الأجر وافيةَ العُلُوِّ والغُلُوّ .

والحمـدُ لله الذى أصار إلى أمير المؤمنين من إرْث النبُوّة ما هو أحقُّ به وأَوْلى ، وأنار له من مَطالع العِزّ ما أسـدَى به كلَّ نعمةٍ وأَوْلى ، وأحلَّه من شرَف الإمامة

(١) كذا فى الأصول المديم بالميم ولعله المديل باللام تأمل .

بحيثُ عنَتْ لطاعتــه أعناقُ الرِّقاب الصِّعاب ، وأذعنَتْ له القلوبُ بالانطواء على الوَلاء الفَســيج الرحاب والشِّعاب ، وجعل أيّامه بالنّضارة آهلةَ المَغَــانى ، متقابلةً أسماؤها فى الحُسْن بالمَعَانى ؛ فما يجري فيهــا إلا ما الصوابُ فى فِعْله كامن ، والحظُّ بٱنتهاج سُبُله كائن ؛ إبانةً عن ٱقتران الرُّشْد بعزائمه فى حالتى العَقْد والحَلّ ، وٱقتراب مَرامِ كلِّ مايَحُل من الصَّلاح فى الدهر أفضلَ المَحَلّ .

ثم إنه يَرى من إقرار الحُقُوق فى نِصابها[1] ، وإمرار حِبــال التوفيق فى جانبيهــا من الأطماع المُمتدّة إلى ٱغتصابها ، مايُعرِب عن الاهتداء إلى طُرُق الرُّشــد ، والاقتداء بمَن وجدَ ضالَّة المراد حين نَشَد ، ويَقصِدُ من تجديد العَوَارف ، عند كلّ عالم بقَدْرها فى الزمان عارف ؛ مايحلُو جَنَى ثَمَره فى كلّ أوَان ، ويَحْدُو[2] ٱنتشارُ خبره على إعانة كل فكر فى وَصْفه عُنْوان ؛ فيتناقلُ الرُّواةُ ذِكرَ ذلك غَوْرا ونَجْــدا ، وتلقى الهممُ العليّــة ٱدّخار الجَمَال به أنفعَ من كلّ قِنْية وأجدى ؛ باستمرارًا على شاكلة تحلَّتْ بالكَرَم ، وحلَّت من الجَلال فى القُلَل والقِمَم ، وحلَّتْ آثارُهافى إيلاء نَفيس المِنَح وجزيلِ القِسَم .

ولما غدَا مَنصب الوزارة موقُوفا على الّذين طالمَا جَزُّوا بِهِمَمِهم نَوَاصِيَ الخُطوب ، وحازوا بِذِمَمِهم المَنَالَ فى مَقَاصد ٱستَشْهَدوا بهــا على إحراز كلِّ فضــيلة وٱستدلُّوا ؛ وكَفُّوا بكِفَايتهم أكُفَّ الفساد ورَدُّوا ، وحازُوا الفَعَال فى كلِّ ماسَعَوْا له وجَدُّوا ؛ وخلا الزمانُ ممّن يَنْهَض بعِبْء هذا الأمر الجسيم ، وتُضيع أنباؤه فيه ذَكيّةَ الأَرَج والنسيم ــ لم يبقَ غيرُك ممن يستحقُّ التخييمَ فى عِراصه ، والتحكمَ فى ٱجتناء الفخْر منه وٱستخلاصه ؛ وكان القَدَر سبَقَ بٱنفصالك عن الخدمة لالضَعف مَريرة ، ولا لقُوّة جَرِيرة ، ولا لكَدَر سيره ؛ وكيف وأنت المتفرّدُ بالكمال ، والمتجرّدُ فى كل

(١) لعله فى منابتها .

(٢) أى يبعث ويسوق ٱنتشار الخ .

مقام سليم حدٌّ تقربك فيه من حادث الكلال ؛ ولك فى الدولة الحقوق التى أعتدت لك من وقع الاستزادة مجناً ، والمواقف التى اعتدت من درة الإحماد بما أين الظئر[(١)] لها وأنأ ، والمقاصد التى أعدمت منك البدل ، ولا أعرف لك منها مسعى عن مناهج الإصابة ولا عدل ؛ وتمكنت فيها من عنان التوفيق بما لايجارى سيفك فيه قط ، ولا يحسن له حال المسرى إليه الحظ ؛ والآثار التى أثارت من كوامن الرضا أفضل مايذخر ويقتنى ، وأنارت من دلائل الزلفى ما ينتجز به وعد المنى ويقتضى ؛ لكن كان ذلك مسطوراً فى الكتاب ، وليتبين أنه لاعوض عنك فى الاستحقاق للأمر والاستيجاب ؛ لم يوجد لهذه الرتبة كفؤا سواك ، ولا يتزهها عن العطل غير رائق حلاك ؛ فرأى أمير المؤمنين تسليم مقاليدها إليك إذ كنت أحق بها وأهلها ، وممن يجمع بعد الشتات شملها ؛ فطوقك من قلائدها ماهو بأعطافك ألصق ، وبتمام أوصافك أليق : لتدرع من عز الوزارة جلبابا لايخلق الأيام له جدة ؛ ولا تزال السعود بما يئول إلى دوام مدته ممتدة ؛ وترتضع من لبان خلالها ما يقضى لك بأن تقف نفسها عليك ، وتقف آمال الأمثال دون ما انتهت الغاية فيه إليك ؛ وتعتمد فيما عدقه بك منها وناطه ، ووفاك فيه حقوق النظر واشتراطه ؛ بحكم توحدت فى إحراز أدواتها التى لايبلغ أحد لك منها مدى ، ولم يمد طامع إلى مساجلتك فيها يدا ـ مايرضى الله تعالى ويرضيه ، ويخص ذكرك بالطيب ويحيطه فتفوز فوزا كبيرا ، وتعيد الساعى فى إدراك شأوك ظالعا حسيرا .

ثم إنه شفع هذه المنمة التى قمصك مجاسد فخرها بالوجوب ، وعوضك فيها الدهر بحادث البشر عن سابق القطوب ـ بإيصالك إلى حضرته ، وإدنائك من سدته ؛ ومناجاتك بما يتيح لك امتطاء غارب المجد وصهوته ، والاحتواء على خالص السعد

(١) لعل الصواب أأن يقال شرب الرجل حتى أأن أى امتلا .

وصفوته ، وحبائك من صنوف التشريفات التى تروق حلى خلالها ، وتتوق الآمال الى إدراكها ومنالها ، وصفت الكرامات التى وفت المنى بها بعد مطالها ، ونفت القذى عن مقل مغضوضة بسوء فعال الأيام ومقالها ، بما يوطئ عقبك الرجال ، ويضيق على من يحاول مجاراتك المسرح والمجال ، ولم يقتنع بذلك فى حق النعمى التى أعداك فيها على الغير ، وأغداك منها فى ظل من الأمن البادى الأوضاح والغرر ، حتى ألحق بسماتك «تاج الوزراء» تنويها بذكرك فى الزمان ، وتنبيها على آختصاصك لديه بوجاهة الرتبة والمكان ، فصار مكروه الأمور فى محبوبها سببا ، وخبت نار كل من سعى فى تضليل النظام وجيفا وخببا ، حتى الآملون أن يجعلوا تحت الخلافة(١) زمنا ، وتصبح رباعه بعد النضارة دمنا ، ليعقبهم ذاك نيل ماوصلت إليه الامضاء(؟) لهذا العزم . وبالجملة فالسآمة واقعة من تتابع هذه الشكاوى ، وقد كان الأحب أن لايتضمن الكتب النافذة سوى تعهد الأنباء ، لازال عرفها أرجا من سائر الأرجاء والنواحى . لكن تأبى مجارى الأقدار ، ودواعى الاضطرار ، إلى مايرتق(٢) ماء الإرادة والإيثار ، والآن فقد بلغ الماء ، وجلب من عدم الصبر الحناء ، ولم يبق غير هزة دينية منك تكشف بها هذه المعره ، وتتحف منها أمير المؤمنين بما يتم لديه أكمل المسره ، فقم فى ذلك مقام مثلك ـ وإن كان لا نظير لك يوجد ـ تحظ بما يمضى لك فيه آستحقاق كل الحمد ويوجب ، إن شاء الله تعالى .

⁂

وهذه نسخة تقليد من ذلك ، كتب بها عن المسترشد ـ فيما أظن ـ لبعض وزرائه ، وهى :

أما بعد ، فالحمد لله المنفرد بكبريائه ، المتفضل على أوليائه ، مجزل النعماء ، وكاشف الغماء ، ومسبغ العطاء ، ومسبل الغطاء ، ومثنى الحباء ، ومسدى الآلاء ،

(١) فى الأصل الخلافة ولا معنى له . (٢) لعله بما يرتق .

الذى لايئوده الأعباء ، ولا يكيــده الأعداء ، ولا تبلغه الأوهام ، ولا تحيط به الأفهام ، ولا تدركه الأبصار ، ولا تخيّـله الأفكار ، ولا تهرمه الأعوام بتواليها ، ولا تعجزه الخطوب إذا ادلهمت لياليهـا ، عالم هواجس الفكر ، وخالق كل شئ بقدر ، مصرّف الأقدار على مشيئته ومجريها ، ومانح مواهبه من أضحى بيد الشكر يمتريها ، حمدًا يصوب حياه ، ويعذب جناه ، وتتهلل أسرّة الإخلاص من مطاويه ، ويستدعى المزيد من آلائه ويقتضيه .

والحمد لله الذى استخلص محمدا صلى الله عليه وسلم من زكى الأصلاب ، وانتخبه من أشرف الأنساب ، وبعثه إلى الخليقة رسولا ، وجعله إلى منهج النجاة دليـلا ، وهدبو السرك بور لـ لـدل وقضاه (١) وشهر عضب العز وانتضاه ، والأمم عن طاعة الرحمن عازفه ، وعلى عبادة الأوثان عاكفه ، فلم يزل بأمر ربه صادعا ، وعن التمسك بعرا الضـلال الواهية وازعا ، وإلى ركوب محجّة الهدى داعيا ، وعلى قدم الاجتهاد فى إبادة الغواية ساعيا ، حتى أصبح وجه الحق منيرا مشرقا ، وعوده بعـد الذبول أخضر مورقا ، ومضى الباطل موليّا أدباره ، ومستصحبا تتبيره وبواره ، وقضى صلى الله عليه وسلم بعـد أن مهد من الإيمـان قواعده ، وأحكم أساسه ووطائده ، وأوضح سبل الفوز لمن اقتفاها ، ولحب طريقها بعد ما دثرت صواها ، فصلى الله عليه وعلى آله الطاهرين ، وصحبه الأكرمين ، صلاة متصلا سح غمامها ، مسفرا صبح دوامها .

والحمـد لله على أن حاز لأمير المؤمنين من إرث النبوة ما هو أجدر بحيازة مجده ، وأولى بقبض عقده ، ووطّأ له من الخلافة المعظمة مهـادًا أحفزته نحوه حوافز ارتياحه ، وجذبته إليـه أزمة راعه والتياحه ، إلى أن أدرك من ذلك مناه ، وألقى الاستقرار الذى لاتريم عصاه ، وعضد دولته بالتأييـد من سائر أنحـائه ومراميه ،

(١) كذا فى الأصول على هذه الصورة ولم نهتد إلى تحقيقه .

وأعراضه ومغازيه ، حتى فاقت الدول المتقادمة إشراقا ، وأعطتها الحوادث من التغير عهدا وفيا وميثاقا ، وأضحت أيامه ـ أدامها الله ـ حالية بالعدل أجيادها ، جالية فى ميادين النضارة جيادها ، وراح الظلم دارسة أطلاله ، مقلصا سرباله ، قد أنجم سحابه ، وزمت للرحلة ركابه ، فما يستمر منها أمر إلا كان صنع الله سبحانه مؤيده ، والتوفيق مصاحبه أنى يمم ومسدده ، وهو يستوزعه ـ جلت عظمته ـ شكر هذه النعمه ، ويستزيده بالتحدث بها من آلائه الجمه ، ويستمد منه المعونة فى كل أرب قصده وأمه ، وشحذ لانتحائه عزمه ، وما توفيقه إلا بالله عليه يتوكل وإليه ينيب .

ولما كانت الوزارة قطب الأمور الذى عليه مدارها ، وإليه إيرادها وعنه إصدارها ، وخلا منصبها من كاف يكون له أهلا ، وينظم من شمله شملا ، أجال أمير المؤمنين فيمن يختار [لذ] لك فكره ، وأنعم [النظر] لأهل الاصطفاء لهذه المنزلة حتى صرح محض رأيه عن زبدة اختيارك ، وهداه صائب تدبيره إلى اقتراحك وإيثارك ، وألقى إليك بالمقاليد ، وعول فى دولته القاهرة على تدبيرك السديد ، وناط بك من أمر الوزارة مالم يلف له سواك مستحقا ، ولا لنسيم استيجابه مسترقا ، علما بما تبديه كفايتك المشهوره ، وإيالتك المخبوره ، من تقويم ما أعجز ميادُه ، وإصلاح ما استشرى فساده ، واستقامة كل حال وهى عمادها ، وأصلت على كثرة الاقتداح زنادها ، وتبينا لما تبسم عنه الأيام من آثار نظرك المقربة عن احتوائك على دلائل الجزاله ، واستيلائك على مخايل الأصاله ، اللذين تنال بهما غايات المعالى ، وتفرع الذرى والأعالى .

ثم إن أمير المؤمنين بمقتضى هذه الدعاوى اللازمه ، وحرمات جدك وأبيك السالفة المتقادمه ، التى استحصدت فى الدار العزيزة قوى أمراسها ، وأدنت منك

الآنَ ثمرة غِراسِها، رأى أن يُشيِّد هــذه العارفة التى تأرَّجَ لديكَ نسيمُها ، وبدَتْ على أعنـاقِ تحـرك وسُومُها ، وجادتْ رِباعَك شآبيبُها ، وضفَتْ عليك جلابيبُها ، بمـا يَزيدُ أزرَك آشتِدادا ، ويباعَ أملك طُولا وآمتِدادا ، فأدناك من شريف حَضْرته مُناجِيا ، ومنحَك من مَزايا الأيّام مايُكْسِبُك ذِكْرا فى الأعقاب سارِيًا ، وعلى الأحقاب باقِيًا ، وأفاضَ عليك من المَلابس الفاخرة ما حُزتَ به أوصافَ الجَمـال ، وجمع لكَ أياديَ الآمال ، وقلَّدك وحصـل (؟)[1] بداوه ، وأمطاكَ صَهْوةَ سابِحٍ يُساوِى الرِّياحَ سَبْقا ، ووسَمك بكذا وكذا فى ضمن التأهيل للتكنية ، إبانةً عن جميـل معتقَدِه فيك ، ورعايةً لوسائلك المُحْكَمَة المرائر وأواخيك .

وأمرك بتقوى الله التى هى أحصَنُ المَعاقل ، وأعذَبُ المناهل ، وأنفعُ الذَّخائر ، يومَ تُبلَى السَّرائر ، وأن تستشعرها فيما تُبديه وتُخفيه ، وتَذَرُه وتأتيه : فإنها أفضلُ الأعمال وأوجَبُها ، وأوضَحُ المســالك إلى الفَوز برضا الله وأحْبُها ، وأجلبُ الأشـياء للسعادة الباقية ، وأجْناها لقُطوف الجنان الدانيه ، عالمًا بمـا فى ذلك من نفع تتكاملُ أقسامه ، وتتفتّح عن نَور الصَّلاح الجامِع أكمامُه ، قال الله جلَّت آلاؤه ، وتقدَّستْ أسماؤه : ﴿وسارِعُوا إلى مَغْفِرةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وجَنّةٍ عَرْضُها السَّمٰواتُ والأرضُ أُعِدّتْ للمُتّقِين﴾ . وقال تعالى حاضًّا على تَقواه ، ومخبِرا عما خَصَّ به مُتّقِيه وحَباه ، وكفى بذلك داعيًا إليها ، وباعثًا عليها : ﴿ إنَّ اللهَ يُحِبُّ المتّقين ﴾ .

وأمرَك أن تتوخّى المَقاصِدَ السليمة وتأتيها ، وتتوخّم المواردَ الوخيمةَ وتجتويها ، وأن تُتْبِع بالحزم أفعالَك ، وتجعل كتابَ الله تعالى إمامَك الذى تهتدى به ومثالَك ، وأن تكُفّ من نفسك عند جِماحِها وإبائها ، وتصُدَّها عن متابعة أهوائها ، وتَثْنِى عند آحتِدام سَوْرة الغضب عِنانَها ، وتُثمِرَها من حميـد الخلائق مايُوافِق إسرارُها فيه

(١) كذا فى الأصل على هذه الصورة والمراد أنه انعم عليه بخلعة وسيف وجواد ـ تأمل .

إعلانها : فإنها لم تزل إلى منزلة السوء المردية داعية، وعن سلوك مناهج الخير المنجية ناهية، قال الله تعالى : ﴿ إنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ .

وأمرك أن تتخير للخدمة بين يديك من بلوت أخباره، واستشففت أسراره؛ فعلمته جامعا أدوات الكفاية، موسوما بالأمانة والدراية؛ قد عركته رحا التجارب عرك الثفال، وحلب الدهر أشطره على تصاريف الأحوال : ليكون أمر ما يولاه على منهج الاستقامة جاريا، وعن ملابس الخلل والارتياب عاريا؛ فلا يضع في مزلقة قدما، ولا يأتي ما يقرع سنه لأجله ندما؛ وأن تمنح رعايا أمير المؤمنين من بشرك ما يعقل شوارد الأهواء، ويلوي إليك بأعناق نوافرها اللائي اعتصمن بالجماح والإباء، مازجا ذلك بشدة تستولي حبا رهبتها على القلوب، وتفل مرهفات بأسها صرف الخطوب، من غير إفراط في استدامة ذلك يضيق نظامها به، ويغريها اتصاله باستشعار وعر الخطإ واستيطاء مركبه .

وأمرك أن تعذب مورد الإحسان لمن أحمدت بلاءه، وتحققت غناءه؛ واستحسنت أثره، وارتضيت عيانه وخبره؛ وتسدل أسمال الهوان على من بلوت فعله ذميما، وألفيته بعراص الإساءة مقيما، وإلى رباعها الموحشة مستأنسا مستديما؛ كيلا لكل امرئ بصاعه، واتباعا لما أمر الله باتباعه؛ وتجنبا للإهمال الجاعل المحسن والمسيء سواء، والمعيد هما في موقف الجزاء أكفاء؛ فإن في ذلك تزهيدا لذوي الحسنى في الإحسان، وتتابعا لأهل الإساءة في العدوان؛ ولولا ما فرضه الله على أمير المؤمنين من إيجاب الحجه، والفكاك من ربقة الاجتهاد ببلاغ المعذره، لثنى عنان الإطالة مقتصرا، واكتفى ببعض القول مختصرا؛ ثقة بامتناع سدادك ونهاك،

أن يَرَاك صوابُ الفعل حيثُ نَهاك ، وآستنامةً إلىٰ ماخوّلكَ اللهُ من الرأى الثاقب ، المُطْلِع من خصائص البَدِيهة علىٰ محتجب العَوَاقب . فآرتبِطْ يافلانُ هـذه النُّعمىٰ التى جادَتْ دِيَمُها مغَانيك ، وحقّقت الأيّامُ بمكانتهـا أمانيك ، بشُكْرٍ ينطِقُ به لسانُ الاعتراف ، فيؤمِّن وحشِىَّ النِّعم من النِّفار والانحراف ، وآسلُكْ فى جَمَـال السِّيره ، والاقتداء بهذه الأوامر المبيَّنة المذكوره ، جَدَدا يُغرِى بحمدك الألسنه ، ويُعرِب عن كونك من الذين يستَمِعُون القَوْلَ فيَتَّبِعُون أحسَنَه ، واللهُ يصَدِّق مَخِيلةَ أمير المؤمنين فيك ، ويُوزِعُك شكرَ ما أَوْلاك ويُولِيـك ، ويجعلُ الصَّوابَ غرضا لنِبَال عزائمه ، ويَذُودُ عن دولته القاهرة كتائبَ الخُطوب بصَوَارِم السَّعد وَلهَـاذِمه ، ويصِلُ أيامَه الزاهرةَ بالخُلُود ، ويبسُطُ علىٰ أقاصى الأرض ظِلَّه الممدود ، ما آستهلّ جَفْنُ الغيث المدرار ، وآبتسمتْ ثُغُور النُّوَّار ، إن شاء الله تعالىٰ .

النـــــوع الثـانى

(ممـا كان يكتب لأرباب الوظائف من ديوان الخلافة ببغداد ما كان يُكْتَب لأرباب الوظائف من أصحاب السُّيوف ، وهو علىٰ ضربين)

الضـــــرب الأوّل

(العُهُـــود ، وهى أعلاها رُتْبَــةً)

وطريقتهم فيهـا أن تُفْتَتح بلفظ : «هـذا ما عهِد عبدُ الله ووليُّه فلانٌ أبو فلان الإمامُ الفلانىُّ إلىٰ فلان الفلانىّ حينَ عرفَ منـه » ويذكُر بعضَ مناقبه ، وربّمـا تعرّض لثناء سُلطان دولته عليه . ثم يقال : « فقلّده كذا وكذا » ثم يقال : «وأمَره بكذا » ويأتى بمـا يُناسب من الوصَايَا . ثم يقال : « فتقلّدْ كذا وكذا » ثم يقال :

«هذا عهدُ أميرِ المؤمنين اليك، وحُجّتُه عليك» أو نحو ذلك؛ ولا يُؤْتىٰ فيه بتحميد فى أوّل العهد ولا فى أثنائه كما تقدّم فى عهود الخلفاء للملوك .

عهــــود أربابِ السيوف

(وهى عدّة ولايات)

منها — النظر فى المَظَالم .

وهـذه نسخةُ عهدٍ كتَب به أبو إسحاقَ الصابى، عن المُطيع لله، الى الحُسَيْن آبن مُوسىٰ العَلَوىّ، بتقليد المَظَالم بمدينة السلام، وهى :

هذا ما عَهِد عبدُ الله الفضلُ الإمامُ المطيع لله أميرُ المؤمنين، الىٰ الحسين بن مُوسىٰ العَلَوىّ، حينَ آجتمع فيه شرَفُ الأعراق، والأخلاق؛ وتكامَلَ فيه يُمْنُ النقائب، والضَّرائب؛ وعَرَف أميرُ المؤمنين فيه فضلَ الكِفَاية والغَناء، ورَشادَ المقاصد والأنحاء؛ فى سالِفِ ما ولّاه إيّاه من أعماله الثقيلة التى لم يزَلْ فيها محمودَ المَقَام، مستمِرّا علىٰ النِّظام؛ مُصيبَ النَّقْض والإبْرام، سَديدَ الإسْداء والإلحام؛ زائدًا علىٰ المُزَايدين، راجحًا علىٰ المَوازِين؛ فائتًا للمحاذين، مُبرِّا علىٰ المُبارين؛ فقلّده النظرَ فى المظالم بمدينة السلام وسَوادِها وأعمالها، وما يجْرى معَها؛ ثقةً بعِلْمه ودِينه، وآعتمادًا علىٰ بصيرته ويَقينه؛ وسُكونًا الىٰ أنّ الأيام قد زادتْه تحليِا وتهذيبا، والسِّنّ قد ناهَتْ به تحنيكا وتجريبا؛ وأن صَنيعةَ أميرِ المؤمنين مستقِرّةٌ منه عندَ أكرم أكفائها، وأشرَفِ أوليائها؛ برَحِمه المَتَاء(1) الدانيه، وحُرْمته الشامخةَ العاليَه، ومعْرِفته الثاقِبةَ الداعِيةِ الىٰ التفويض اليه، الباعثةِ علىٰ التعويل عليه؛ وأميرُ المؤمنين يستمدّ

---

(1) لعل الصواب الماتة .

اللهَ فى ذلك أحسنَ ماعوده من هدايةٍ وتسديد، ومعونةٍ وتأييد، وما توفيقُه إلا بالله عليه يتوكَّل وإليه يُنيب .

أمره بتقوى الله التى هى الجُنَّة الحصينه، والعصمة المتينه، والسببُ المتصلُ يومَ انقطاع الأسباب، والزادُ المبلِّغ إلى دار الثواب، وأن يستشعرَها فيما يُسِرّ ويُعلِن، ويعتمدَها فيما يُظهِر ويُبطِن، ويجعلَها إمامَــه الذى يَنحُوه، ورائدَه الذى يقفُوه؛ إذ هى شيمةُ الأبرار والأخيار . وكان أولى مَنْ تعلَّق بعلائقها، وتمسَّــك بوثائقِها؛ لمَفْخره الكريم، ومَنْصبه الصَّميم، واستظلاله مع أمير المؤمنين بدَوْحة رسولِ الله ـ صلَّى الله عليه وعلى آله ـ التى يَكتنّان فى فِنائها، ويأويان إلى أفيائها؛ وحقيقٌ على من كان منها مَنْزِعُه، وإليها مَرجِعُه؛ أن يكونَ طيّبًا زكيًّا، طاهرًا تقيًّا، عفيفًا فى قوله وفعله، نظيفًا فى سِرّه وجَهْره؛ قال الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ .

وأمره بتلاوة القرآن، وتأمُّلِ مافيــه من البُرهان، وأن يجعلَــه نُصْبا لناظره، ومألَفا لخاطره؛ فيأخُذُ به ويُعطى، ويأتمِرُ له وينتهى؛ فإنه الحجةُ الواضحه، والمَحجّة اللائحه، والمعجِزة الباهرة، والبيِّنة العادلة؛ والدليــلُ الذى من اتَّبعه سَــلِم ونجا، ومن صَدَف عنه هلَك وهوى؛ قال الله عزّ مِن قائل: ﴿ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ .

وأمره أن يجلس للخُصوم جلوسًا عامًّا، ويُقبِل عليهم إقبالاً تامًّا، ويتصفَّح ما يُرفَع إليــه من ظُلاماتهم، ويُنعِم النظر فى أسبــاب مُحاكَماتهم؛ فمــا كان طريقُه طريقَ المنازعة المتعلِّقــة بنظر القُضاة وشهــادات العُدول ردَّه إلى المتولِّى للحُكم، وما كان طريقُــه الغُصوبَ المحتاجَ فيها إلى الكشف والفحص، والاستشفاف والبحث؛

نظر فيه نظرَ صاحبِ المَظالم ، وآنتزع الحقّ ممن غَصَب عليه ، وآستخلصه ممن آمتدّتْ له يدُ التعدّي والتغرر إليه ، وأعاده إلىٰ مستحقه ، وأقرّه عند مستوجبه ؛ غيرَ مراقب كبيرًا لكِبَره ، ولا خاصًا لخُصُوصِه ، ولا شريفًا لشَرَفه ، ولا متسلّطًا لسُلْطانه ؛ بل يقدِّمُ أمرَ الله جلّ ذكره فى كل ما يأتى ويَذَر ، ويتوخّى رضاه فيما يُورد ويُصْدِر ؛ ويكونُ علىٰ الضعيف المُحِقّ حَدِبا رءوفا حتّى ينتصر وينتصف ، وعلىٰ القوىّ المُبْطِل شديدًا غليظا حتّى ينقادَ ويُذْعِن ؛ قال الله جل وعز : ﴿ يا داوُدُ إنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فى الأرْضِ فاحْكُمْ بينَ النَّاسِ بالحَقِّ ولا تَتَّبِعِ الهَوَىٰ فيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ إنَّ الَّذِينَ يَضِلُّون عَنْ سَبِيلِ اللهِ لَهُمْ عَذابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الحِسَابِ ﴾ .

وأمره أن يَفتح بابَه ، ويُسهل حِجابَه ، ويبسُط وجهه ، ويُلين كَنَفه ؛ ويَصْبِر علىٰ الخُصُوم الناقصين فى بيانهم حتّى تَظْهرَ حُجَّتُهم ؛ ويُنْعِمَ النظرَ فى أقوال أهلِ اللَّسَن والبيانِ منهم حتّى يعلمَ مُصيبَهم ؛ فربّما آستظهر العريضُ المُبْطِل بفضل بيانه ، علىٰ العاجز المُحِقّ لِعِيّ لسانه ؛ وهنالك يجب أن يقع التصفُّح علىٰ القولين ، والآستظهارُ للأمرين : ليُؤْمَن أن يزولَ الحقُّ عن سَنَنه ، ويَزُورَ الحكمُ عن طريقه ؛ قال الله عز وجل : ﴿ يأَيُّها الَّذِين آمَنُوا إنْ جَاءَكُمْ فاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلىٰ مَافَعَلْتُمْ نادِمِينَ ﴾ .

وأمره بأنْ لايَرُدّ للقُضاة حُكمًا يُمْضُونه ، ولا سِجِلًّا يُنفذونه ؛ ولا يُعقّب ذلك بفَسْخ ، ولا يُطَرّق عليه النقض ؛ بل يكونُ لهم موافقًا مُؤازرا ، ولأحكامهم عاضِدًا ناصرا ؛ إذ كان الحقُّ واحدًا وإن آختلفتِ المَذاهبُ إليه . فإذا وجد القِصّةَ قد سبقتْ ، والحُكومةَ قد وقعتْ ؛ فليس هناك شكٌّ يوقَفُ عنده ، ولا رَيْبٌ يحتاج

إلى الكشف عنه ، وإذا وجد الأمر مشتبها ، والحق ملتبسا ، والتغرر مستعملا ، والتغلب مستجازا ، نظر فيه نظر الناصر لحق المحقين ، الداحض لباطل المبطلين ، المقوى لأيدى المستضعفين ، الآخذ على أيدى المعتدين ، قال الله عز وجل : ﴿ يأيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين إن يكن غنيا أو فقيرا فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيرا ﴾ .

وأمره أن يستظهر على معرفته بمشاورة القضاة والفقهاء ، ومباحثة الربانيين والعلماء ، فإن اشتبه عليه أمر استرشدهم ، وإن عزب عنه صواب استدل عليه بهم ، فإنهم أزمة الأحكام ، وإليهم مرجع الحكام ، وإذا اقتدى بهم في المشكلات ، وعمل بأقوالهم في المعضلات ، أمن من زلة العاثر ، وغلطة المستاثر ، وكان خليقا بالأصالة في رأيه ، والإصابة في أبحاثه ، وقد أمر الله — تقدست أسماؤه — بالمشاورة فعرف الناس فضلها ، وأسلكهم سبلها ، بقوله لرسوله صلى الله عليه وسلم وعلى آله : ﴿ وشاورهم في الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين ﴾ .

وأمره أن يكتب لمن توجب له حق من الحقوق إلى صاحب الكوفة بالشد على يده والتمكن له منه ، وقبض الأيدى عن منازعته ، وحسم الأطماع في معارضته ، إذ هو مندوب لتنفيذ أحكامه ، ومأمور بإمضاء قضاياه ، ومتى أخذ أحد من الخصوم إلى مكاذبة في حق قد حكم عليه به ، أخذ على يده وكفه عن عدوانه ، ورده إلى حكم الله الذى لا معدل عنه ، قال الله عز وجل : ﴿ ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون ﴾ .

هذا عهدُ أمير المؤمنين إليك ، وحُجّته عليك ، قد أرشَدَك وذَكَّرك ، وهَداك وبَصَّرك ، فكُنْ إليه مُنتهِيا ، وبه مُقتدِيا ، وآستَعِن بالله يُعِنك ، وآستَكْفِه يَكْفِك .

وكتب الناصح أبو الطاهر فى تاريخ كذا .

ومنها — نِقابةُ الطالبيِّين : وهى المعبَّر عنها الآن بنِقابة الأشراف .

وهذه نسخةُ عهد بنِقابة الطالبيِّين ، كتب به أبو إسحاق الصابى ، عن الطائع لله إلى الشريف أبى الحسن محمد بن الحُسَيْن العَلَوِى المُوسَوِى ، مضافًا إليها النظرُ فى المساجد وعِمارتها ، وآستخلافه لوالده الشريف أبى أحمد الحُسَين بن موسى على النظر فى المَظَالم والحجِّ بالناس ، فى سنة ثمانين وثلثمائة ، وهى :

هذا ما عَهِد عبدُ الله عبدُ الكريم ، الإمامُ الطائعُ لله أميرُالمؤمنين ، إلى محمد بن الحسين بن موسى العَلَوِى ، حينَ وصلَته به الأنساب ، وقُرِنَت[1] لديه الأسباب ، وظهرت دلائلُ عقله ولَبَابته ، ووضَحت مخايِلُ فضله ونَجابته ، ومَهَّد له بهاءُ الدولة وضياءُ الملة أبو نَصر بنُ عضُد الدولة ما مَهَّد عند أمير المؤمنين من المَحَلّ المَكين ، ووصَفَه به من الحِلْم الرَّزين ، وأشار به من رَفْع المَنزلة ، وتقديم الرُّتْبة ، والتأهيل لوِلَاية الأعمال ، وتحمُّل الأعباء والأثقال ، وحيثُ رَغَّبه فيه ، سابقةُ الحسين أبيه ، فى الخِدْمة والنصيحه ، والمُشايعة الصَّحيحه ، والمواقف المحمُوده ، والمَقامات المشهُوده ، التى طابت بها أخبارُه ، وحسُنَت فيها آثارُه ، وكان محمدٌ متخلِّقا بخَلائقه ، وذاهِبًا على طرائقه : عِلْما ودِيَانه ، ووَرَعا وصِيَانه ، وعِفّةً وأمانه ، وشَهامةً وصَرامه ،

(١) فى "المثل السائر" ص ١٢٢ « وتأكدت له الأسباب » .

وتفردا بالحظ الجزيل : من الفضــل الجميل والأدب الجزل ، والتوجه فى الأهل ؛ والإيفاء فى المناقب على لِداته وأترابه ، والإبراز على قرنائه وأضرابه ـ فقلّده ما كان داخلا فى أعمــال أبيه من نقابة نُقَباء الطالبيّين بمدينة الســلام وسائر الأعمــال والأمصــار ، شرقا وغربا ، وبعــدا وقربا ، واختصه بذلك جذبا بضبعه ، وإنافة بقدره ، وقضاء لحق رحمه ، وترفيهــا لأبيه ، وإسعافا له بإيثاره فيــه ؛ إلى ما أمر أميرُ المؤمنين باستخلافه عليه من النظر فى المظالم ، وتسيير الحجيج فى أوان المواسم ؛ والله يعرّف أمير المؤمنين الخيرة فيما أمر ودبّر، وحسن العاقبــة فيما قضى وأمضى ؛ وما توفيق أمير المؤمنين إلا بالله عليه يتوكّل وإليه يُنيب .

أمره بتقوى الله التى هى شعارُ المؤمنين ، وسِيما الصالحين ، وعصمةُ عبــاد الله أجمعين ، وأن يعتقدها سرّا وجهرا ، ويعتمدها قولا وفعلا ، فيأخذ بهــا ويُعطى ، ويَرِيش ويبرى[(١)] ، ويأتى ويذر ، ويُورِدُ ويُصْــدِر ؛ فإنها السببُ المتين ، والمعقل الحصين ، والزادُ النافعُ يومَ الحساب ، والمسلكُ المُفضى إلى دار الثواب ؛ وقد حضّ اللهُ أولياءه عليها ، وهداهم فى مُحكم كتابه إليها ، فقال : ﴿ يٰأيُّها الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُم مُسْلِمُونَ ﴾ . وقال تعالى : ﴿ يٰأيُّها الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾ .

وأمره بتلاوة كتاب الله سبحانه مُواظبــا ، وتصفحه مُداوما مُلازما ، والرجوع إلى أحكامه فيما أحلّ وحرّم ، ونقض وأبرم ، وأثاب وعاقب [وباعد وقارب][(٢)] ؛ فقد صحّح الله بُرهانه [وحُجّته][(٢)] ، وأوضح منهــاجه ومحجّته ، وجعله فجرا فى الظلمات طالعا ، ونورا فى المشكلات ساطعا ؛ فمن أخذ به نجا وسلم ، ومن عدل عنه هلك وهوى ؛

(١) فى ”المثل السائر“ بدله «ويسر ويتوى» .

(٢) الزيادة من ”المثل السائر“ .

[وندم] [1]. قال الله عز وجل: ﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾.

وأمره بتنزيه نفسه عما تدعو إليه الشهوات، وتتطلع إليه النزوات؛ وأن يضبطها ضبط الحكيم، ويكفها كف الحليم، ويجعل عقله سلطانا عليها، وتمييزه آمرا ناهيا لها، فلا يجعل لها عذرا إلى صبوة ولا هفوه، ولا يطلق منها عنانا عند نزوة ولا فوره؛ فإنها أمارة بالسوء، منصبة إلى الغي؛ فالحازم يتهمها عند تحرك وطره وأربه، واهتياج غيظه وغضبه، ولا يدع أن يغضها بالشكيم، ويعركها عرك الأديم، ويقودها إلى مصالحها بالخزائم، ويعتقلها عن مقارفة المحارم والمآثم؛ كيما يعز بتذليلها وتأديبها، ويجل برياضتها وتقويمها؛ والمفرط في أمره تطمح به إذا طمحت، ويجمح معها أني جمحت؛ ولا يلبث أن توردَه حيث لا صدَر، وتلجئه إلى أن يعتذر، وتقيمه مقام النادم الواجم، وتنكب به سبيل الراشد السالم؛ وأحق من تحلى بالمحاسن، وتصدى لاكتساب المحامد، من ضرب بمثل سهمه في نسب أمير المؤمنين الشريف، ومنصبه المنيف؛ واجتمع معه في ذؤابة العترة الطاهره، واستظل بأوراق الدوحة الفاخره؛ فذاك الذي تتضاعف له المآثر إن آثرها، والمثالب إن أسف إليها؛ ولا سيما من كان مندوبا لسياسة غيره، ومرشحا للتقليد على أهله؛ إذ ليس يفي بإصلاح من ولي عليه، من لا يفي بإصلاح ما بين جنبيه؛ وكان من أعظم الهجنة أن يأمر ولا يأتمر، ويزجر ولا يزدجر؛ قال الله عز وجل: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

(١) الزيادة من "المثل السائر".

وأمره بتصفح أحوال من وُلّى عليهم واستقراء مذاهبهم ، والبحث عن بواطنهم ودخائلهم ؛ وأن يعرف لمن تقدمت قدمُه منهم وتظاهر فضلُه فيهم منزلتَه ، ويوفيه حقّه ورُتبته ، ويتحرّى فى إكرام جماعتهم إلى الحدود التى توجبها أنسابهم وأقدارُهم ، وتقتضيها مواقفهم وأخطارُهم : فإنّ ذلك يلزمه لشيئين : أحدهما يخصّه وهو النّسب الذى بينه وبينهم ، والآخر يعمّه والمسلمين جميعا ، وهو قولُ الله جلّ ثناؤه : ﴿ قُل لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ ﴾ فالمودّةُ لهم والإعظامُ لأكابرهم ، والإشبالُ[1] على أصاغرهم ؛ [واجب][2] متضاعفُ الوجوب عليه ، ومتأكّدُ اللزوم له ؛ ومن كان منهم فى دُون تلك الطّبقة من أحداث لم يحتنكوا ، أو جُذعان لم يقرحوا ؛ مُجرين إلى ما يُزرى بأنسابهم ويغضّ من أحسابهم ، عذلهم ونبّههم ، ونهاهم ووعظهم ؛ فإن نزعوا وأقلعوا فذاك المُرادُ بهم ، والمقصود إليه فيهم ؛ وإن أصرّوا وتتابعوا ، أنالهم من العقوبة بقدر ما يكفّ ويردع ؛ فإن نفع وإلا تجاوزه إلى ما يوجع ويلذع ؛ من غير تطرّق لأعراضهم ، ولا انتهاك لأحسابهم ؛ فإنّ الغرض منه الصّيانه ، لا الإهانه ؛ والإداله ، لا الإذاله . وإذا وجبت عليهم الحقوق ، أو تعلّقت بهم دواعى الخصوم ، قادهم إلى الإعفاء بما يصح منها ويجب ، والخروج إلى سَنن الحق فيما يشتبه ويلتبس . ومتى لزمتهم الحدودُ أقامها عليهم بحسب ما أمر الله به فيها ، بعد أن تثبُت الجرائمُ وتصح ، وتبين وتتضح ، وتتجرّد عن الشكّ والشّبهه ، وتتجلّى من الظنّ والتّهمه ؛ فإن الذى يُستحبّ فى حدود الله أن تُدرأ عن عباده مع نقصان اليقين والصحّة ، وأن تُمضى عليهم مع قيام الدليل والبيّنة . قال الله عزّ وجل : ﴿ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ .

---

(١) الإشبال العطف وفى "المثل السائر" « والاشتمال » وهو بمعناه .

(٢) الزيادة عن "المثل السائر" .

وأمره بحياطة هذا النسب الأطهر، والشرف الأفخر، عن أن يدّعيه الأدعياء، أو يدخل فيه الدخلاء، ومن انتمى إليه كاذبا، وانتحله باطلا، ولم يوجد له بيت في الشجره، ولا مصداق عند النسابين المهره، أوقع به من العقوبة ما يستحقه، ووسمه بما يعلم به كذبه وفسقه، وشهره شهرة ينكشف بها غشه ولبسه، ويتزع بها غيره ممن تسول له مثل ذلك نفسه. وأن يحصن الفروج عن مناكحة من ليس لها كفؤا، ولا مشاركها في شرفها وفخرها، حتى لا يطمع في المرأة الحسيبة النسيبة إلا من كان مثلا لها مساويا، ونظيرا موازيا، فقد قال الله تعالى: ﴿إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا﴾.

وأمره بمراعاة متبتلي أهله ومتهجديهم، وصلحائهم ومجاوريهم، وأراملهم وأصاغرهم، حتى يسد الخلة من أحوالهم، ويدر المواد عليهم، وتعادل أقساطهم فيما يصل إليه من وجوه أموالهم، وأن يزوج الأيامى، ويربي اليتامى، ويلزمهم المكاتب ليتلقنوا القرءان، ويعرفوا فرائض الإسلام والإيمان، ويتأدبوا بالآداب اللائقة بذوي الأحساب: فإن شرف الأعراق، محتاج إلى شرف الأخلاق، ولا حمد لمن شرف نسبه، وسخف أدبه، إذ كان لم يكسب الفخر الحاصل له بفضل سعي ولا طلب، ولا اجتهاد ولا دأب، بل بصنع من الله عز وجل له، ومزيد في المنة عليه، وبحسب ذلك لزوم ما يلزمه من شكره سبحانه على هذه العطيه، والاعتداد بما فيها من المزيه، وإعمال النفس في حيازة الفضائل والمناقب، والترفع عن الرذائل والمثالب.

وأمره بإجمال النيابة عن شيخه الحسين بن موسى فيما أمره أمير المؤمنين باستخلافه عليه من النظر في المظالم، والأخذ للمظلوم من الظالم، وأن يجلس للترافعين

إليـه جلوسا عاما ، ويتأمل ظلاماتهم تأملا تاما ؛ فـما كان منها متعلقا بالحاكم رده إليـه ، ليحمل الخصوم عليـه ؛ وما كان طريقـه طريق الغشم والظلم ، والتغلب والغصب ، قبض عنه اليد المبطله ، وثبت فيه اليد المستحقه ؛ وتحرى فى قضـاياه أن تكون موافقة للعدل ، ومجانبة للخذل ؛ فإن غايتى الحاكم وصاحب المظالم واحدة : وهى إقامة الحق ونصرته ، وإبانتـه وإنارته ؛ وإنما يختلف سبيلاهما فى النظر : إذ الحـاكم يعـمل على ما ثبت وظهـر ، وصاحب المظـالم يفحص عمـا غمض وآسـتتر ؛ وليس له مع ذلك أن يرد لحـاكم حكومه ، ولا يحل له قضـيه ؛ ولا يتعقب ماينفذه ويمضيه ، ولا يتتبع مايحكم به ويقضيه ؛ والله يهديه ويسدده ، ويوفقه ويرشده .

وأمره أن يسـير حجيج بيت الله إلى مقصـدهم ، ويحميهم فى بدأتهم وعودتهم ؛ ويرتبهم فى مسيرهم ومسلكهم ، ويرعاهم فى ليلهم ونهارهم ؛ حتى لا تنالهم شـدة ، ولا تصل إليهم مضرة ؛ وأن يريحهم فى المنازل ، ويوردهم المناهل ؛ ويناوب بينهم فى النهل والعلل ، ويمكنهم من الإرتواء والإكتفاء ؛ مجتهدا فى الصيانة لهم ، ومعذرا فى الذب عنهـم ؛ ومتلوما على متأخرهم ومتخلفهم ، ومنهضا لضعيفهم ومهيضهم ؛ فإنهم حجاج بيت الله الحرام ، وزوار قبر الرسول عليه السلام ؛ قد هجروا الأوطان ، وفارقوا الأهل والإخوان ، وتجشموا المغارم الثقال ، وتعسفوا السهول والجبال ؛ يلبون دعاء الله عز آسمه ، ويطيعون أمره ويؤدون فرضه ويرجون ثوابه ؛ وحقيق على المسلم المؤمن أن يحرسهم متبرعا ، ويحوطهـم متطوعا ؛ فكيف من تولى ذلك وضمنـه ، وتقلده وآعتنقه ، قال الله : ﴿ ولله على النـاس حج البيت من آسـتطاع إليه سبيلا ﴾ .

وأمره أن يُراعِيَ أمورَ المساجد بمدينــة السلام وأطرافها ، وأقطارها وأكنافها ؛ وأن يَجْبِيَ أموال وُقُوفها ، ويستقصِيَ جميعَ حقُوقها ، وأن يَلُمَّ شعثَها ، ويَسُدَّ خَلَلَها ؛ بمــا يتحصَّل من هذه الوجوه قِبَلَه ، حتى لايتعطَّل رسمٌ جرى فيها ، ولاتنقض عادةٌ كانتْ لهــا ؛ وأن يُثْبِتَ آسمَ أمير المؤمنين على ما يعمُره منهــا ، ويذْكُرَ آسمه بعــده بأنَّ عُمْرانها جرى على يديْه ، وصلاحَها أدّاه قولُ أمير المؤمنين إلى فعلِه ؛ فقد فَسَّح له أمير المؤمنين بذلك تنويهًا بآسمه ، وإشادةً بذكره ؛ وأن يُولِّيَ ذلك مِنْ قِبَلِه مَنْ حَسُنت أمانتُه ، وظهرت عفَّته وصيانتُــه ؛ فقد قال الله تعالى : ﴿ إنمــا يَعْمُرُ مساجِدَ الله مَنْ آمَنَ بِالله واليَوْمِ الآخِرِ وأقامَ الصَّلاةَ وآتى الزَّكاةَ وَلَمْ يَخْشَ إلَّا الله فَعَسَى أُولئِكَ أنْ يَكُونُوا من المُهْتَدِين ﴾ .

وأمره أن يستخلِف على مايرى الاستخلاف عليه من هذه الأعمال : في الأمصار الدانيــة ، والبلاد القريبــة والبَعيدة ، مَنْ يَثِق به من صُلَحاء الرجال ، وذَوِي الوَفاء والاستقلال ؛ وأن يعهَدَ إليهم مثلَ الذي عُهِد إليه ، ويعتمِدَ عليهم في مثل ما آعتُمِد عليه ؛ ويستقرِيَ مع ذلك آثارَهم ، ويتعرَّف أخبارَهم ؛ فمن وجده محمودًا أقرّه ولم يُزِلْه ، ومن وجده مذمُوما صرفَه ولم يُمْهِله ؛ وآعتاض منــه مَنْ تُرْجَى الأمانةُ عنــده ، وتكونُ الثِّقة معهودةً منه ؛ وأن يختار لكتابته وحِجَبتــه والتصرُّف فيما قَرُب منه وبَعُد عنه ، مَنْ يَزِينُه ولايَشِينه ، ويَنْصَح له ولا يَغُشُّه ، ويُجِلُّه ولايُهجِّنه ، من الطبقة المعرُوفة بالظَّلَف، المتصوِّنة عن النَّطَف (١) ، ويجعَلَ لهم من الأرزاق الكافيه ، والأُجرة الوافيه ، مايصُدُّهم عن المَكاسب الذميمه ، والمآكل الوَخيمه ؛ فليس تجب عليهم الحُجَّةُ إلا مع إعطاء الحاجة ، قال الله تعالى : ﴿ وأنْ لَيْسَ لِلإنْسَانِ إلَّا ماسَعَى وأنَّ سَعْيَه سَوْفَ يُرَى ثُمَّ يُجْزاهُ الجَزاءَ الأَوْفَى ﴾ .

---

(١) هو بالتحريك العيب .

وأمره بأن يكتب لمن يقوم ببيِّنته عنده وتنكشف حجته له ، إلى أصحاب المعاون بالشدّ على يديه ، وإيصال حقّه إليه ، وحسم الطمع الكاذب فيه ، وقبض اليد الظالمة عنه ؛ إذ هم مندوبون للتصرّف بين أمره ونهيه ، والوقوف عند رسمه وحدّه .

وهذا عهدُ أمير المؤمنين إليك ، وحجّته لك وعليك ، قد أنار فيه سبيلك ، وأوضح دليلك ، وهداك وأرشدك ، وجعلك على بيّنة من أمرك ؛ فاعمل به ولا تخالفه ، وانته إليه ولا تجاوزه ، وإن عرض لك أمرٌ يعجزك الوفاء به ، ويشتبه عليك وجه الخروج منه ، أنهيته إلى أمير المؤمنين مبادرا ، وكنت إلى ما يأمرك به صائرا ، إن شاء الله تعالى . وكتب في مستهلّ شعبان سنة ثمانين وثلثمائة .

* * *

ومنها ـ ولاية الصلاة .

وهذه نسخة عهد كتب بها أبو إسحاق الصابى عن الطائع لله ، لأبى الحرث محمد بن موسى العلوىّ الموسوىّ ، بتقليده الصلاة في جميع النواحى والأمصار والأطراف ، وتوقّف عن إظهاره لرأى رآه في ذلك ، وهى :

هذا ما عهد عبدُ الله إلى محمد بن موسى العلوىّ ، لمّا استكفاه النظر في نقابة الطالبيين فكفاه ، وحمّل ذلك العبء فأغناه ، وفات النظراء في الاستقلال والوفاء ، وبذّ الأمثال في الاضطلاع والغناء ، جامعا إلى شرف الأحساب والأعراق ، شرف الآداب والأخلاق ؛ وإلى كرائم المفاخر والمناقب ، مكارم الطباع والضرائب ؛ على الحداثة من سنّه ، والغضاضة من عوده ، مستوليا من البراعة والنجابة ، والفراهة واللبابة ، على التى لا يبلغها الشيب المفارق ، فضلا عن البالغ المراهق ، وغايات

تتقطع دونها أنفاسُ المنافسين، وتتضرم عليها أحشاءُ الحاسدين؛ لاسيّما وقد أطَّتْ[(١)] بأمير المؤمنين إليه شواجنُ الأرحام، وعطفتْه على اصطناعه عواطفُ الآباء والأعمام؛ واقتضت آثارُه المحمودة، وطرائقُه الرشيدة، أن يُناويه على رُتْبة لم يبلغها أحدٌ من ولد أبيه، ولم يفترع ذوائبَها رجلٌ دونه؛ فقلّده الصلاةَ بمدينة السلام في خمسة جوامعها: فأولُها الجامعُ الداخلُ في حريم أمير المؤمنين، وجامعُ الرُّصافة، وجامع المنصور، وجامع بُراثى، وجامع الكَفّ الذى تولّى أبوه إشادتَه وعمارتَه، وحسُنتْ آثارُه في إنشائه وإعلائه؛ وحيثُ سَمتْ همّتُه إليه، وبذَلَ المجهودَ في إنفاق الأموال الدَّثْرة[(٢)] عليه؛ واستنزل بذلك من الله أجزلَ إثابة المثابين، وأوفر أجر المأجورين؛ وجميع المنابر في شرق الأرض وغربها، وبعيد الأقطار وقريبها؛ وأميرُ المؤمنين يسألُ اللهَ حُسْنَ التسديد في ذلك وسائر مراميه، وجميع مطالبه ومغازيه؛ وجواري هممه التي يُمْضيها، وسرايا عزماته التي ينويها؛ وأن يجعل النجاحَ قائدَها وسائقَها، والصلاحَ أولَها وآخرَها؛ وما توفيقُ أمير المؤمنين إلا بالله عليه يتوكّل وإليه يُنيب.

أمره بتقوى الله التي هي أحرزُ المعاقل، وأحصنُ الجُنَن عند النوازل؛ وأعظمُ ملجأ يُلْجأ إليه، وآمنُ موئل يُعوَّل عليه؛ وأن يعتقدها في خلوته وحفلته، ويعتمدها في سرّه وعلانيته؛ ويجعلها سببًا يتّبعه، ولباسًا يدّرعه؛ فيُنازع بها مَن نازعه، ويوادع بها مَن وادعه: فإنها أوكدُ الأسباب، وأوصلُ القُرَب والأنساب. وأولى الناس بالتمسّك بحبلها، والاشتمال بظلّها، مَن كان بأجلّ المناصب تعلّقه، وبأشرف الخلائق

---

(١) في القاموس «أطت له رحمي رقت وتحركت» فانظره.

(٢) في اللسان ج ٥ ص ٣٦٢ «الدثر بالفتح المال الكثير لا يثنى ولا يجمع يقال مال دثر ومالان دثر وأموال دثر» فلعل هاء التأنيث زائدة من قلم الناسخ. تأمل.

تخلّقه ، قال الله سبحانه : ﴿ إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا ﴾ .

وأمره بتلاوة القرءان ، والمواظبة عليه والإدمان ، والائتمار بما فيه من الأوامر ، والازدجار عما تضمن من الزواجر ، وأن يجعله الإمام المتبع فيقفوه ، والطريق المهيع فيقصده ويخوه : فإنه العلم المنجي من الغوايه ، والدليل القائد إلى الهدايه ؛ والنور الساطع للظلام إذا أشكل مشكل ، والحاكم القاضي بالحق إذا أعضل معضل ؛ قال الله : ﴿ وإنه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ﴾ .

وأمره بتهذيب لبّه ، من جوامح الوساوس ، وتطهير قلبه ، من مطامع الهواجس ؛ وأن يتوقّى الحفظة العارمه[1] ، ويتجنّب اللفظة المؤلمه ، عاصيا جواذب الخلاعة ، ومطيعا أوامر النزاهة ، حتى يستوي خافيه وعالنه ، ويتفق ظاهره وباطنه ؛ فعالى من جعله إمام المسلمين إماما ، وقدمته الرعية أماما ؛ وكان إلى الله داعيا ، وله عن عباده مناجيا ؛ وبينهم وبين خالقهم وسيطا ، وعلى ما قلّده من الصلاة بهم أمينا : لتصحّ شروط صلاته ، ويقبل مرفوع دعواته ؛ قال الله عز وجل : ﴿ ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحا وقال إنني من المسلمين ﴾ .

وأمره بالمحافظة على الصلوات ، وانتهاز فرصها من الأوقات ؛ والدخول فيها بالرقة والخشوع ، والتوفر بالإخبات والخضوع ؛ وحقيق على كل مستشعر شعار الإسلام ، ومتجلبب جلباب الإيمان ، أن يفعل ذلك مستوفيا شروطه ، ومستقصيا حدوده ورسومه ، فكيف بمن أقامه أمير المؤمنين [مقامه] في امتطاء غوارب المنابر

(١) لعله من قولهم رجل عارم أي خبيث شرير .

وذُراها ، ونَصَبه مَنصبَه في أمّ الرعيّة أدناها وأقصاها . قال الله تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴾ . وقال : ﴿ اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ ولا تَمُوتُنَّ إِلَّا وأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ .

وأمره بالسعي في الجُمَع إلى المساجد الجامعة ، وفي الأعياد إلى المُصَلَّيات الضاحية ، وأن يَخُصّ أحدها بصلاته فيه وقَصْده له ؛ ويأمر خلفاءه على الصلاة بالافتراق في سائر الجوامع وباقي المَنابر ، بعد الأمر بجمع المؤذّنين والمكبّرين ، وإحضار القُوّام والمرتّبين ، في أتمّ أُهْبة وأجمل هيئة ، بقلوب مستشعرة للخشوع ، متصدّية للدموع ، وألسُن بالتسبيح والتقديس مُنطلقة ، وآمالٍ في حُسْن الجزاء وجزيل الثواب منفسحة ، حتى تعبّر ألسنتهم إذا افترعوا الخُطَب وافتتحوا الكلم عن مكنون ضمائرهم ، ومضمون سرائرهم ، فتجيء المواعظ بالغة ، والزواجر ناجعة ؛ قال الله تعالى : ﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ .

وأمره بمُراعاة المساجد ، وتعهّد الجوامع ، وسدّ خَلَلها ، ولَمّ شَعَثها ؛ فإنها مَقاوِم[(1)] عزّه ونَخْره ، ومَحاضر صيته وذِكْره ، ومراكز أعلام الدين الخافقه ، ومطالع شموس الإسلام الشارقه ، ومواقف الحق المشهوده ، وقواعد الإيمان الموطوده ؛ مما لا يتضعضع أحدها إلا تضعضع من أركان الإسلام له رُكن ، ولا آلتات بعضها إلا آلتات من أعضاء الدين عضو ؛ قال الله عز وجل : ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللهِ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللهَ فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴾ .

---

(1) جمع مقوم وفي اللسان « المقوم الخشبة التي يمسكها الحراث » ولعله يريد أنها آلات عزه ونخره . تأمل .

وأمره فى خُطبتـه بكثرة التحفّظ ، وعنـد آفتاحه وآختتامه بطُول التيقّظ ؛ فإن العُيونَ به منُوطة ، والأعناقَ إليـه ممْدودة ، والمَسامعَ فاغرةٌ تتلقّف ما يقوله ، والقلوبَ فارغةٌ لحفظ مايُبْـدِئ وما يُعيـد ؛ فقليلُ الزَّلَل ، فى ذلك الموقف كثير ، وصـغيرُ الخَطَل ، فى ذلك المقام كبير ؛ والله تعالى يُسَدّده إلى المَحَجّة الوُسْطى ، ويقفُ به على الطريقة المثلى ، بمنه .

وأمره بالسَّكينة فى آنتصابه للصّلاة الجامعة ، وتقدُّمه لقضاء الفُروض اللازمة ؛ وأن يَسْكُن [فى كلّ] حدّ من حدودها فى الرُّكوع والسُّجود ، والقيـام والقُعود ؛ فإنه عليها مُحاسَب ، وبمـا يَلْحَق من يأتمّ به فى جميعها مُطالَب ؛ وأن يُفرّغ قلبـه لمـا يتلُوه من البيان ، ويرفع صوتَه بمـا يقرَ به من قَوارع القُرءان ، مرتّلا لقراءته ، ومُسْتَرْسِلا فى تلاوته : ليشـترِكَ فى سَمـاعها الأقربُ والأقصى ، وينتفع بمَواعظها الأبعدُ والأدنى ، بعـد إخلاص سرّه وآنتزاعه ، وتسويته فى الطهور بين باديه وخافيه ، وغائبه وحاضره ؛ فليس بالطاهر عند الله تعالى من يُصيبُ بالمـاء أطرافَه ، وأدرنَ بالخبائث شِـغافَه ؛ قال الله تعـالى : ﴿ يٰأَيُّها الَّذينَ آمَنُوا إذا نُودِيَ للصَّلاةِ مِنْ يَوْمِ الجُمُعَـةِ فَاسْعَوْا الى ذِكْرِ اللهِ وذَرُوا البَيْعَ ﴾ . وقال : ﴿ إنَّ الصَّلاةَ كانَتْ عَلَى المُؤْمِنينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا ﴾ .

وأمره أن يُقيم الدَّعوة على منابر أعمـاله القاصيـة والدانية والغائبة والحـاضرة لأمير المؤمنين ؛ ثم للناهض عنـه بالأعباء ، والقائم دُونَه فى البَأْساء والضَّرّاء ؛ الذى غُذّى بلبان الطاعة ، وآنقاد بزِمَام المتابَعة : بهاء الدولة ؛ ولوُلاة الأعمال من بعـده الذين يُدْعى لهم على المَنابر مايكون منهـا على العادة الجارية فيها ؛ فإنهـا دعوةٌ تلزم إقامتُها ، وكلمةٌ تجبُ إشادتُها ، إذ كانتْ متعلّقة بطاعة الله عزّ وجلّ ، وقد أوجبها الله

تبارك وتعالى على كافّة المسلمين وجميع المُعاهَدين، إذ يقول [وهو] أصدقُ القائلين: ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وأُولِى الأَمْرِ مِنْكُمْ ﴾، وعائدتُها تَعُمُّهم، وفائدتُها تَشْمَلُهم، إذ كان صلاحُ الرعيّة مقرونا بصَلاح راعِيها، وفَسادُ الأمّة مَنُوطا بفَساد واليها.

وأمره باستخلاف من يَرى استخلافَه على الصّلاة فى الأقطار والأطراف والنواحى والبُلْدان، وأن يختارَ من الرجال كلَّ حَسَن البيان، مِصْقَع اللسان، بَلِيلَ الرِّيق إذا خَطَب، بليغَ القول إذا وَعَظ.

هـذا عهدُ أمير المؤمنين إليك، وحجّته لك وعليك، قد أعْذَر فيه وأنْذَر، وهدى من الضّلالة وبَصَّر، وأعلقك زِمامَ رُشْدك وغَيّك، وقلّدك عِنانَ هُلْكك وفَوْزك، وخيّرك فى كِلا الأمرين، ووقفك إزاءَ الطريقين، فإن سلكت أهْداهما لم تلبَثْ أن تَعُود غانِما، وإن وَلَجْتَ أضلَّهما فغيرُ بعيد أن تَئُوبَ نادِما، وآستعن بالله يُعِنْك، وآستَزِده من الكِفاية يَزِدْك، وآستَهْدِه الهِداية يُلْبِسك، وآستدِلَّه على نَجاح المَطالب يَدْلُلْك، إن شاء الله، والحمدُ لله وحده.

ومنها — نظرُ الأوقاف.

وهـذه نسخةُ عهـد من ذلك، كتب بها أبو إسحاقَ الصـابى عن الطائع لله — للحسين بن مُوسى العَلَوى، وهى:

هـذا ما عهِدَ عبدُ الله عبدُ الكريم الإمامُ الطائعُ لله أميرُ المؤمنين، إلى الحسين بن مُوسى العَلَوى، حين طابت منـه العَناصر، ووصلته بأمير المؤمنين الأَواصر، جمـع إلى شَرَف الأعْراق الذى وَرِثه، شرفَ الخُلُق الذى آكتسبه، ووضحت آثارُ دينـه

وأمانته ، وبانت أدلّة فضـله وكفايته ، فى جميع ما أسـنده أمير المؤمنين إليه من الأعمـال ، وحمّله إيّاه من الأثقال ؛ فأضاف إلى ما كانـ ولّاه من [ذلك] النّظر فى الوُقوف التى كانت بيد فلان فيها بالحضرة وسوادها ، ثقـةً بسَداده ، وسكونا إلى رَشاده ، وعلما بأنه يَعرف حقّ الصّنيعه ، ويَرعى مايُستحفَظه من الوَديعه ؛ ويجرى فى المَنهَل الذى أحمَده أمير المؤمنين منه ووكَل إليه . والله يُمدّ أمير المؤمنين بصواب الرأى فيما نحـاه وتوخّاه ، ويؤمّنـه فى عاقبته النَّـدَم فيما قضاه وأمضاه ؛ وما توفيقُ أمير المؤمنين إلا بالله عليه يتوكّل وإليه يُنيب .

أمره بتقوى الله التى هى عمـاد الدين ، وشعار المؤمنين ، وأن يعتقدها فى سرّه ونجواه ، ويجعلها الذخيرة لأُولاه وأُخراه ، ويجتنب المَوانـع المُوبِقَه ، ويتوقّى الموارد المُرْديه ، ويغضّ طرْفه عن المَطامع المُغويه ، ويذهب بنفسه عن المَطارح المُخزيه ؛ فإنه أحق من فعل ذاك وآثره ، وأَولى من اعتمده واستشعره ؛ بنسـبه الشريف ، ومَفخره المُنيف ، وعادته المشهوره ، وشاكلته المأثوره ؛ وتلاوة كتاب الله الذى هو وعترة رسول الله الثَّقلان المخلّفان فى الأمّة ؛ وقد جمعته[(1)] ، وآخرهما الأنسابُ وجمعته والثانى عصمةُ أولى الألباب ، وتوجّهت حُجّةُ الله بما يرجع من هذه الفضائل إليه ، وأنّه غُصنٌ من دوحة أمير المؤمنين ، التى تحدّاها الله بالإنذار قبل الخلائق أجمعين ؛ إذ يقول لرسوله محمد صـلّى الله عليه وعلى آله : ﴿ وأنذرْ عشيرتَك الأقربيـن ﴾ . وقد حضّ تبـارك وتعـالى على التّقـوى ، ووعد عباده عليهـا الزُّلفى ؛ فقـال : ﴿ يأيّها الّذين آمنوا اتّقوا اللهَ وكُونوا مع الصّادقين ﴾ .

وأمره بالاشتمال على ماأسنده إليه أمير المؤمنين من هذه الوُقوف مستنفدا طوقه فى عمـارتها ، مستفرغا وسعه فى مصلحتها ، دائبًا فى استغلالها وتثميرها ، مجتهدًا

(١) هذه الجمل هكذا فى الأصول وهى غير مستقيمه .

فى تدبيرها وتوفيرها ، وأن يصرف فاضلَ كلّ وقف منها بعدَ الذى يخرج منه للنفقة علىٰ حفظ أصله ، واستدرار حلبه ، والمئونة الراتبة للقوّام عليه ، والحفظة له ؛ إلىٰ أربابه الذى يعود ذلك عليهم فى وجوهها التى سُبّل لها ، ووُقف عليها ؛ واضعًا جميع ذٰلك مواضعه ، موقعا له مواقعه ؛ خارجًا إلىٰ الله من الحقّ فيه ، مؤدّيا الأمانة إليه ؛ وأن يُشهد علىٰ القابضين بما يقبضونه من وقوفهم ، ويكتب البراآت عليهم بما يستوفونه من أموالهم ؛ ويستظهر لنفسه بإعداد الشّواهد والأدلّة علىٰ ما ينفقه من أموال هذه الوقوف علىٰ مصالحه ، ويصرفه منها إلىٰ أهلها ، ويخرجه منها فى حقوقها وأبواب برّها ، وسائر سُبلها ووجوهها ؛ سالكا فى ذٰلك مذهبه المعروف فى أداء الأمانة ، واستعمال الظّلف والنّزاهة ؛ معقّبا علىٰ من كان ناظرًا فيها من الخونة الذين لم يرعوا عهدا ، ولم يتصوّنوا عن سحت المطاعم ، وظلم المآثم .

وأمره باستكتاب كاتب معروف بالسّداد ، مشهور بالرّشاد ، معلوم منه نصيحة الأصحاب ، والضّبط للحساب ؛ وتفويض ديوان الوقوف وتدبيره إليه ، وتوصيته بصيانة ما يشتمل عليه من أصول الأعمال وفروعها ، وقليل الحجج وكثيرها ؛ وأن يحتاط لأربابها فى حفظ رسومها ومعاملاتها ، وحراسة طسوقها ومقاسماتها ؛ حتّى لا يستمرّ عليها حيف يبقىٰ أثره ، ولا يتغيّر فيها رسم يخاف ضرره ؛ وأن ينصف الأكرة فيها والمزارعين ، وسائر المخالطين والمعاملين ؛ ولا يجشّمهم حيفا ، ولا يسومهم خسفا ؛ ولا يغضى لهم عن حق ، ولا يسمح لهم بواجب ، خلا ما عادت السّماحة به بزيادة عماراتهم ، وتأليف نيّاتهم ، واجتلاب الفائدة منهم والعائدة بهم ؛ فإنه مؤتمن فى ذلك كلّه أمانة ، وعليه أن يؤدّيها ويخرج عن الحقّ فيها .

وأمره باختيار خازن حصيف ، قئوم أمين ؛ يخزن حجج هذه الوقوف وسجلاتها ، وسائر دفاترها وحسباناتها ؛ فإنها ودائع أربابها عنده ، وواجب أن يحتاط عليها

جُهْدَه، فمتى شكَّ فى شرط من الشُّروط، أو حَدٍّ من الحُدُود، أو عارَضَ مُعارِضٌ، أو شاغَبَ مُشاغِبٌ، فى أيّام نظرِه وأيّامِ مَنْ عسى أن تُنْقَل ولايةُ هذه الوُقوف إليه، ويُناط تدبيرُها به، دفَع مايَحْدُث من ذلك بهذه الحُجَج التى هى مَعارِف البُرْهان، وقواعِدُ البُنْيان، وإليها المَرْجِع فى كلّ بيِّنة تُنْصَر وتُقَام، وشُبهة تُدْحَض وتُضَام .

هذا عهدُ أمير المؤمنين إليك، ووثيقتُه الحاصلةُ فى يدَيْك، فاتَّبِعْ آثارَ أوامِرِه، وآزدَجِرْ عن نَواهِيه وزَواجِره، وآستمْسِك به تنْجُ وتَسلَم، وآعمَلْ عليه تفُزْ وتغْنَم، وآسترشِدِ الله يُرْشِدْك، وآستَهْدِه يَهْدِك، وآستعِنْ به يَنْصُرْك، وفوِّضْ إليه يَعْصِمْك، إن شاء الله تعالى .

الضـــــرب الثـــانى

(ممـا يُكتَب من ديوان الخلافة لأرباب السُّيوف التقاليدُ . وهى لمن دُونَ ارباب العُهود فى الرُّتبة، وليس لافتتاحها عندهم ضابطٌ)

وهــذه نسخةُ تقليد بحِمَاية الكُوفة، لأبى طَرِيف بن عليـان العُقَيلىّ، من إنشاء أبى إسحاق الصابى، وهى :

قد رأينا تقليدَك ـ أطال اللهُ بقاءك ـ الحِمَـايةَ بالكُوفة وأعمالِها وما يَجْرى معها ثقةً بشَهامتك وغَنائك، وسُكُونا إلى آستِقْلالك ووَفائك، وآعتقاداً لاصْطِناعك وآصطِفائك، وحُسْنَ ظنٍّ بك فى شُكْرِ ما يُسدىٰ إليك، ومقابلتِه بمـا يَحِقُّ عليك، من الأثر الجميل فيما تُولّاه، والمَقام الحميد فيما تُستَكْفاه، فتولَّ ـ أيدك الله ـ ذلك مقدِّما تقوىٰ الله ومراقبتَه، ومستمِدّا توفيقَه ومعُونتَه . وآحرُسِ الرعيّةَ فى مَساكِنها، والسابلَةَ فى مَسالِكها . وآدفَعْ عن عَمَلك ونواحيه أهلَ العَيْث جميعا، وآطلُبْهم طلبا

شديدا، وٱطْرُقهم فى مَكَامِنهم، وتَوَلَّجْ عليهم فى مَظَانِّهم، ونَكِّل بمن تَظْفَر به منهم نَكالًا تُقيم به حُكْمَ الله عليهم، وحُدودَه فى أمثالهم؛ وبالِغْ فى ذٰلك مبالغةً تُخيف الظَّنِين وتُوحِشُه، وتُؤَمِّن السَّلِيم وتُؤْنِسُه . وراعِ الأَكَرَةَ والمُزارِعين حتّى يَنْبَسِطوا فى معايشهم، ويتصرَّفُوا فى مصالحهم، وتتيسَّر عواملُهم فى عِماراتها، ومواشيهم فى مَسَارِحها؛ ومتى طُرِدتْ لأحدٍ منهم طَرِيدةٌ أو ٱمتدَّتْ إليهم يَدٌ عاتِيَة، ٱرتجعتَ ما أُخِذَ له، ورَدَدْته بعينه أو قيمةِ مثْله . وخَفِّف عمن وُلِّيت عليه الوَطْأة، وٱرفَعْ عنهم المَئُونةَ والكُلْفة، وخُذْهم بالتناصُف، وٱقبِضْهم عن التظالُم، وٱمنَعْ قويَّهم من تحيُّف المضعوف، وشريفَهم من ٱستضامة المشروف، وأَوْلِهم من عدْلك وحُسن سيرتك، وٱستقامة طريقتك، ما يتَّصل عليه شُكْرُك، ويَطيبُ به ذِكْرُك، ويقتضى لك دَوامَ الوِلايه، وتضاعُفَ العنايه .

وٱعلَمْ بأنك فيما وُلِّيتَه من هذا الأمر متضَمِّن للمال والدَّم، ومأخوذ بكل ما يَهْمُك من ذمة ومُحرَّم؛ فليكن ٱجتهادُك فى الضَّبْط والحمايه، وٱحترامُك من الإهمال والإضاعة، بحَسَب ذٰلك . وٱكتُبْ بأخبارك على سِياقتها، وآثارك لأوقاتها: لِيتَّصلَ لك الاحماد (١) عليها، والمجازاةُ عنها، إن شاء الله تعالى .

النـــــوع الثـالث

(ممـا كان يُكتَب لأرباب الوظائف من ديوان الخلافة ببغداد ما كان يُكتَب لأرباب الوظائف ببغدادَ من أصحاب الأقلام)

وهى على ضربين :

---

(١) من أحمده استبان له أنه مستحق لحمد .

الضـــــرب الأوّل

(العُـــهُود)

ورَسْمُها على نحو ما تقـدّم فى عهود أرباب السُّـيوف ، تُفْتتح بـ«هـذا ما عَهِد» إلى آخر الترتيب المتقدّم ذكره .

وهذه نسخة عَهْد بولاية قضاءِ حاضرةِ بغدادَ وسائرِ الأعمال ؛ كَتَب به المسترشدُ بالله لقاضي القُضاة أبي القاسم عليّ بن الحسين الزينبي ، وهى :

هـذا ما عَهِد عبدُ الله أبو منصور الفضلُ ، الإمامُ المسترشدُ بالله أميرُ المؤمنين ، إلى قاضي القضاة عليّ بن الحسين الزينبي : لمّـا تأمّل طريقتَـه ، وحَمِدَ عقيدتَه ، وأحْمَدَ مذاهبَه ، وآرتضى ضرائبَه ، وتكاثرتْ دواعيه ، وحسُنَتْ مساعيه ، ووجَدَه عندَ الآختِبار ، وفى مِضْمار الآعتبار ، راجِعًا إلى عَقلٍ رصين ، ودينٍ متين ، وأمانةٍ مشكوره ، ونزاهة مَخْبُوره ، ووَرَعٍ تَمِر المَشْرَع ، عارٍ من دَنَس المَطْمَع ، وعلمٍ توفّر منه قِسْمُه ، وأصاب فيه سَهْمُه . وحين راعى فيـه موروثَ شرف النَّسَب ، إلى شرف العلم المكتَسَب ، مع ما سلَف لبيته من الحُرُمات المرعية المتأكّده ، والقُرُبات المرضيّة المتمهِّده ، والسوابق المحْكَمة المرائر ، الجيـدة المبادئ والمصاير ، قلّده قضاءَ القُضاة بمدينة السلام وسائرِ الأمصار ، فى الآفاق والأقطار ، شَرْقًا وغَرْبا ، وبُعْدا وقُرْبا ؛ إنافةً به إلى ما أصبح له مستحِقّا ، وآستمرّ آستيجابُه مستَرِقّا ، وجَذْبا بضَبْعه إلى ما يحقّق نُهوضَه بأعبائه ، وحُسْنَ آستقلاله به وغَنائه ، وآقتفاءً لآثار الأئمة الراشدين فى إيداع الودائع عند مستحقّها ، وتفويض الأمور إلى أكفائها وأهلِها ؛ لاسيّما أولياءُ دولتهم ، وأغذياء نِعمتهم ، الذين كشَفَت عن مَحْض خِبرتهم التجارِب ، ووردُوا من الخلال الرشيدة أعذبَ المَشارب ، وآنتهجُوا الجَدَد الواضح ، وتقبّلوا الخُلُق

الصالح ؛ والله سبحانه يقرن عزائم أمير المؤمنين بالخيرة فى كل رأى يرتئيه ، وأمر يؤمه وينتحيه؛ ويصدق مخيلته فى كل حال يأتيها، ويمضى عزمه فيها؛ وما توفيقه إلا بالله عليه يتوكل وإليه ينيب .

أمره بتقوى الله التى لايسعد أحدٌ إلا بالتمسك بسببها، ولا يشقى إلا مع إضاعتها؛ فإنها الجناب المريع، والمعقل المنيع ، والنجاة يوم الفزع الأكبر، والعدة النافعة فى المعاد والمحشر، والعصمة الحامية من نزغات الشيطان ومخايله ، المنقذة من أشراكه وحبائله ؛ وبها تمحص الأوزار، وتنال الأوطار، وتدرك المآرب، وتنجح المطالب؛ قال الله تعالى : ﴿ يأيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانا ويكفر عنكم سيئاتكم ويغفر لكم والله ذو الفضل العظيم ﴾ .

وأمره باستشعار خشية الله سبحانه فى قوله وفعله ، واختلاف أطواره وأحواله ؛ وتذكر ماهو قادمٌ عليه ، ووافدٌ إليه : يوم ﴿ لا يجزى والدٌ عن ولده ولا مولودٌ هو جازٍ عن والده شيئا ﴾ . فلا يقوده الهوى إلى اتباع شهوة ، أو إجابة داعى هفوة أو صبوة، إلا كان الخوف قادعه، والحذار مانعه ؛ وأن يجعل التواضع والوقار شيمته ، والحلم دأبه وخليقته ؛ فيكظم غيظه عند احتدام أواره ، واضطرام ناره ؛ مجتنبا عزة الغضب الصائرة إلى ذلة الاعتذار، ومتوخيا فى كل حال للمقاصد السليمة الإيراد والإصدار . وأن يتأمل أحوال غيره تأمل من جعلها لنفسه مثالا، واتخذها لنسجه منوالا؛ فما استحسنه منها يأتيه، وما كرهه فيجتويه؛ غير ناه عما هو من أهله ، ولا آمرٍ بما هو مجانبٌ لفعله ؛ قال الله جلت عظمته : ﴿ أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون ﴾ .

وأمره بتلاوة كتاب الله مواظبا، والإكثار من قراءته دائبا ؛ وأن يجعله إماما يقتفيه، ودليلا يتبعه فيهديه ؛ ونورا يستضيء به في الظلمات ، وهاديا يسترشده عند اعتراض الشبهات ؛ وموئلا يستند إليه في سائر أحكامه ، وحصنا يلجأ به في نقضه وإبرامه؛ عاملا بأوامره ، ومزدجرا بزواجره؛ ومنعما نظره في محكم آياته ، وصادع بيناته ؛ ومعملا فكره في خوض غماره ، واستخراج غوامض أسراره ؛ فإنه الحق الذي لا يجور متبعه ، والمتجر الذي لا يبور مبتضعه ؛ والمنار الذي به يقتدى، والمنهج الذي بأعلامه يهتدى؛ والمصدر الذي تفرى به الأمور في ملبس الإشكال ، وتشرع معه الأحوال المستبهمة في ورود الوضوح السلسال ؛ وينبوع الحكمة الذي ضرب الله فيه الأمثال ؛ وفرق فيه بين الحرام والحلال ، والهداية والضلال، قال الله سبحانه : ﴿ ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين ﴾ .

وأمره بدراسة السنن النبوية صلوات الله على صاحبها، والاقتداء بما جاءت به من مكارم الأخلاق التي ندب إليها، وحض عليها؛ وتتبع مايتداخلها من الأخبار المزيفة، والروايات غير الصحيحة؛ والفحص عن طرقها وإسنادها، وتمييز قويها ومتأودها؛ والبحث عن رواتها، منحوزها وثقاتها؛ فما ألفاه بريئا من الطعن، آمنا من القدح والوهن ؛ عاريا من ملابس الشك والارتياب ، عاطلا عن حلى الشبهة والاغتياب ، اتبعه واقتفاه ، وتمثله واحتذاه ؛ وكان به حاكما ، ولأدواء الباطل باتباعه حاسما؛ وما كان مترجحا[(1)] بين كفتي الشك واليقين، ولم تبد فيه مخايل الحق المبين، جعل الوقف حكمه، وردع عن العمل به عزمه؛ إلى أن يضح الحق فيه، فيعتمد ما يوجبه ويقتضيه : فإنه ـ عليه السلام ـ الداعي إلى الهدى ، والرحمة

(١) أي مترددا ومتذبذبا . انظر اللسان والقاموس .

التى عصم الله بها من عوادى الردى، والهادى الذى لم يفصل بين العمل بفرائض كتابه وسننه فى قوله تقدست أسماؤه، وجلت آلاؤه : ﴿ وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله إن الله شديد العقاب ﴾ .

وأمره بإقامة الصلوات الخمس المفروضة فى أوقاتها ، والمبادرة إليها قبل فواتها ، والإتيان بشرائطها المحدودة وأركانها .

وأمره بمجالسة العلماء، ومباحثة الفقهاء، ومناقشة ذوى البصيرة والفهم، والفطنة والحزم ، ومشاورتهم فى عوارض الأمور المشكله ، وسوانح الأحكام المستبهمة المعضله ، حتى يصرح محض رأيه وآرائهم عن زبدة الصواب، وتنتج أفكارهم باستجماعها نظرا شافيا بالجواب ، رافعا عنه منسدل الحجاب ، وإن فى ذلك ثلجا للصدور، واستظهارا فى الأمور، واحترازا من دواعى الزلل، واستمرار الخلل ، وأمنا من غوائل الانفراد، وحطا للتعويل على الاستبداد، فلرب ثقة أدت إلى خجل ، وأمن أفضى إلى وجل ، وما زالت الشورى مقرونة بالإصابه ، محكمة عرى الحق وأسبابه ، حارسة من عواقب الندم، داعية إلى السلامة من زلة القدم، وقد أمر الله نبيه صلى الله وسلم عليه، وأزلف محله لديه، بالاستظهار بالمشاورة مع عظم خطره ، وشرف قدره ، فقال : ﴿ وشاورهم فى الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين ﴾ .

وأمره أن يختار لحكمه الأماكن الفسيحة الأرجاء، الواسعة الفضاء، وينظر فى أمور المسلمين نظرا تفتر ثغور العدل فيه ، وتلوح خشية الله من مطاويه ، فيوصل إليه كافة الخصوم، ويبرز لهم على العموم، غير مشدد حجابه، ولا مرتج دون المترافعين إليه بابه ، وأن يولى كلا من الإقبال عليه ، وحسن الإصغاء إليه ، مايكون بينهم فيه

مُساويا، وطمع فى مجمع المُوازاة حاوِيا، ولا يُعطى من التفاته [إلى] الشريف لشرفه، وذى الشارة الحسـنة من أجل ثوبه ومِطْرَفه، مايمنعه من تقحمه العيون، وتترجم فى خموله الظنون: فإنّ ذلك مُطمِع لذى الرُّواء فى دَفْع الحقّ إذا وجب عليـه، والتمـاس الباطل وإن ضعفت الدّواعى إليـه؛ مؤيِس لذى الخمول من الانتصـار لحقّه، وإن أسفر صبح يقينه ونطقت ألسنةُ أدلته؛ فالناس وإن تباينوا فى الأقدار والقيمه، وتفاوتوا فى الأرزاق المقسومه، فالإسلام لهم مجتمع، والحـق أحقُّ أن يتّبع؛ وهم عند خالقهم سواءٌ إلا مَن ميزته التقوى، وتمسّك بسببها الأقوى؛ قال الله تعالى: ﴿ إنّ أكرمكم عنـد الله أتقاكم ﴾. وقال تعالى: ﴿ إن يكن غنياً أو فقيرا فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعـدلوا وإن تلووا أو تعرضوا فإنّ الله كان بمـا تعملون خبيرا ﴾.

وأمره أن يتأمل أحوال المترافعين إليه، والخصوم لديه، ويتطلّب ماوقع نزاعهم لأجله فى نصّ الكتاب، ويعدل إلى السنّة عند عدمه من هذا الباب؛ فإن فُقد من هـذين الوجهين، فليرجع إلى مااختاره السلف المهتدون، وأجمع عليه الفقهاء المجتهدون؛ فإن لم يلف فيه قولا ولا إجماعا، ولاوجد إليه طريقا مسـتطاعا، أعمل رأيه واجتهاده، وامتطى ركاب وُسعه وجياده؛ مستظهرا بمشورة الفقهاء فى هـذه الحال، ومستخلصا من آرائهم مايقع عليه الاتّفاق الآمن الاعتلال: ﴿ والله يقول الحقّ وهو يهدى السبيل ﴾.

وأمره باستعمال الأناة عند الحكومات، واستماع الدعاوى والبيّنات؛ من غير سُرْعة تحدث خطلا، ولاإفراط فى التأنّى يورث مللا؛ فإنّ الحقّ بين ذينك على شفا خطر، وظهر غرر؛ ولا سيّما إذا كان أحد الخصمين منطيقا، يحقّق كلامه تحقيقا؛

فإنه يخلب ببلاغة نطقه مستمعه، ويغطي وجه الباطل بألفاظه الموشعه؛ فإذا اتفق لديه ماهذا سبيله، شحذ له غرب فطنته، وأرهف غرار فكره وبصيرته؛ ومنح كلا من الإنصات مايجتلي وجه النصف منيرا، ويغدو لأشياع الجور مبيرا. وإن ذو اللسن روعه، وأوهمه أن الحق معه، بما يلفقه من كلام يقصر خصمه عن جوابه، ويحصر عن جداله واستيفاء خطابه؛ مع عدم البينة المشهوده، وتعذر الحجة الموجوده، استعاد كلامه واستنطقه، واستوضح مغزاه وتحققه؛ من غير إظهار إعجاب بما يذكره، ولا اغترار بما يطويه وينشره؛ ولا إصغاء يبدو أثر الرغائب من لحواه، ولا اختصاص له بما يمنع صاحبه شرواه[1]: لئلا يولد ذلك له اشتطاطا، ويحدث له انطلاقا في الخصومة وانبساطا؛ حتى إذا ابتسم الحق، وانتصر الصدق؛ وفلج أحدهما بحجته، ولحن ببينته، أقر الواجب في نصابه، وأداله من جنود الظلم وأحزابه؛ وأمضى الحكم فيه باعتزام صادق، ورأي محصد الوثائق؛ غير ملتفت إلى مراجعة الخصوم وتشاجرهم، وشكواهم وتنافرهم؛ اعتمادا للواجب، وانتهاجا لجدد العدل اللاحب. قال الله تعالى: ﴿ يَادَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ ﴾.

وأمره إذا انتدب للقضاء أن يفرغ باله، ويقضي أمامه أوطاره وأشغاله؛ ويخلي من أحوال الدنيا سره، ويشرح لما هو بصدده صدره؛ فلا تنزع نفسه إلى تحصيل مأرب، ولا تتطلع إلى درك مطلب؛ فإن القلب إذا اكتنفته شجونه، وأحاطت به شئونه، كان عرضة لتشعب أفكاره، وحمله على مركب اضطراره الجاري بضد إيثاره واختياره؛ حريا بالتقصير عن الفهم والإفهام، والضجر عند مشتجر الخصام.

(١) « شروى الشيء مثله ».

وأمره بالتثبت فى الحدود، والاستظهار عنـد إقامتها بمن يسكن إلى قوله من الشهود؛ والاحتياط من تعجل يحيل الحكم عن بيانه، أو ريث يرجيه عند وضوحه وتبيانه؛ وأن يتجافى عمـا لم يصرح له بذكره وشرحه ، ولا يسرع إلى تصديق ساع وإن تشبه بالناصحين فى نصحه ؛ حتى يستبين له الحق فيمضيه ، عاملا بمـا يوجبه حكم الله فيه . وأن يدرأ من الحدود ما اعترضت الشبهة دليله ، وكانت شواهده مدخوله ؛ ويقيم منها ما قامت شهوده، ولم يمكن إنكاره وجحوده ؛ قال الله تعالى : مكبرا لتجاوزها، ومعظما للتجوز فيها : ﴿ ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون ﴾ .

وأمره بتصفح أحوال الشهود المعدلين، المسموعة أقوالهم فى أمور المسلمين وأحوال الدين؛ ومواصلة البحث عن طرائقهم ، واستشفاف خلائقهم؛ مستخدما فى ذلك سره وجهره، وواصلا بعوان دأبه فيـه بكره ؛ فمن علمه سـليما فى فعله ، غير ظنين فى أصله ، متحريا فى كسبه ، مرضيا فى مذهبه ، حافظا لكتاب الله سبحانه ، متمسكا من علم الشريعة بمـا يلوى عن مهاوى الخطإ عنـانه ، حاليا بالديانة المنيـرة المطالع، حاميا نفسه عن الإسفاف إلى دنايا المطامع ، حاويا من الظلف والأمانه ، والقدر والصيانه ، والاحتراس والتحفظ ، والتحرز والتيقظ ، ماتميز به على أشـكاله وأترابه ، وطال مناكب أمثاله وأضرابه ، فقد كملت صفاته ، واقتضت تقديمـه أدواته ، ووجب أن يمضى كونه عدلا ، ويجعله لقبول الشهادة أهلا . ومن رآه عن هذه الخلال مقصرا ، وببعضها مستظهرا ، وكان موسوما بديانة مشكوره ، ونزاهة مأثوره ، رضى بذلك منه قانعا ، وحكم بقوله سامعا . ومن كان عن هذين الفريقين نائيـا ، ولأحوالهم المبين ذكرها نافيـا ، ألغى قوله مطرحا ، ورد شهادته مصرحا ؛ فإن هؤلاء الشهود أعوان الحق على انتصاره ، وحرب البـاطل على تتبيره وبواره ؛

وَصِحَّة الحاكم إلى قضائه، ووزره الذي يستند إليه في سائر أنحائه؛ فإذا أعذر في ارتيادهم، واستفرغ وسعه في انتقادهم، فقد خرج من عهدة الاجتهاد، واستحق من الله جزاء المجتهد يوم التناد؛ ومتى غرّر في ذلك توجهت اللائمة عليه، وكان قمنا بنسبة التقصير في الاحتياط إليه؛ والله يتولى السرائر، ويبلو خفيات الضمائر، قال سبحانه: ﴿ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ ﴾. وقال جل ذكره: ﴿ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ ﴾.

وأمره أن يكل أمور اليتامى في أملاكهم وأموالهم، ومراعاة شئونهم وأحوالهم، إلى الثقات الأعفّاء، والكفاة الأتقياء، الذين لا تستهويهم دواعي الطَّمَع، ولا يوردهم الإسفاف موارد الطَّبَع؛ وأن يتتبع أمورهم ويتصفحها، ويشارفها بنفسه ويستوضحها؛ عالما أنه عمّا في أيديهم مسئول، فإنّ عذره في إهمالٍ يتخلله غير مقبول؛ وهو سبحانه يقول: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴾.

وأن يوعز إليهم بالإنفاق على أربابها بالمعروف: لينتهجوا فيها جدد القصد المألوف؛ حتى إذا بلغوا الحلم، وأونس منهم الرشد وعلم؛ وساغ لهم التصرف في نفوسهم، ووثق منهم باستدرار معايشهم، دفع إليهم أموالهم محروسة، ووفّاهم إياها كاملة غير منقوصة؛ مستظهرا بالشهادة عليهم، والبراءة منها بتسليمها إليهم؛ اتّباعا لقوله تعالى: ﴿ وَابْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴾.

وأمره بتزويج الأيامَى اللواتِي فقَـدْن الأولياء ، وآعتـدى عليهن صَرْفُ الدهر وأساء ، وأضرّ بهنّ طُولُ الإرمال، وبدَتْ عليهن آثارُ الخَـلّة في الحال ، فينكِحهن أكفاءهن من الرجال ، ويُتِمّ عقد نكاحهن على مُهُور الأمثال .

وأمره بتفويض أمر الوُقُوف الجارية في نظره إلى مَنْ يأمَنه ويختاره ، وتقترن بإعلانه في آرتضائه أسرارُه : من أهل التجربة والحياء، ذوِى الآضطلاع والغَناء؛ فإنهم أقلّ إلى المَطامع تشوُّفا ، وأبعَدُ في عواقب الأمور نَظَرا وتلطُّفا، وأن يُوسِّع عليهم في الأرزاق، فيُوصّلها إليهم مُهنّأة عند الوُجوب والآستحقاق ، فبذلك يملك المرءُ نفسَـه ويستصلحها ، ويتجنّبُ مواقفَ التُّهم ويطّرحها ، وتجبُ عليه الحجّـةُ إن ثلَم أمانه ، أو قارَفَ خيانه ، مستظهرًا بترتيب المُشرفين الذين خَبَر أحوالَهم وسَبَر أفعالَهم .

وأن يتقدّم إلى المستنابين قِبَله بالإنفاق عليها حَسَب الحاجة من محصُولها ، حافظا بما تعمّده من ذلك لأصولها ، وجبايةِ آرتفاعها من مظانّها، وآلتماس حقُوقها في أوانها ، وصَرْفها في وُجوهها التي شرطها واقفُوها ، وعيّن عليها أربابُها وأهلُوها ؛ غير مُخِلّ مع ذلك بالإشراف والتطلّع ، ولا مُهْمِل للتفحص والتبلّغ ؛ فمَنْ ألفاه حميدَ الأثَر، ورضِيّ العيان والخبَر، عوّل عليه ، وفوّض مستنيبا إليه؛ ومَنْ وجده قد مَدّ إلى خيـانة يَدَه آستبدَل به وعزَله، جزاءً بمـا فعـله : ﴿ إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴾ .

وأمره أن يَستخلِف على مانأى عنه من البِـلاد مَنْ جَمع [إلى الوقار] الحِلْم، وإلى الدِّراية الفَهْـم ، وإلى التيقُّظ الآستبصار ، وإلى الوَرَع الآستظهار : ممن لا يَضيق بالأمور ذَرْعا، ولا تُحدث له مُراجعةُ الخُصوم ضَجَرا ولا تبرّما، ولا يَتمادى

فى أسباب الزَّلَّة ، ولا يُقَصِّر عن الرُّجوع إلى الحقّ إذا ٱتَّضح له ، ولا يكتفى بأدنى مَعْـدَلة عن بُلُوغ أقصاها ، ولا تتهافت نفْسُـه على طاعة هَوَاها ، ولا يُرْجِئ الأخْذَ بالحجة عِنْد ٱنكشافها ، ولا يعجّل بحُكْم مع ٱعتراض الشُّبْهة وٱكْتِنافها ، ولا يستَميلُه إغراء ، ولا يَزْدَهِيه مَدْح وإطْراء ؛ وأن يتَعَهّد بمثل ماعَهِد أميرُ المؤمنين إليه ، ويُعْذِر فى الاجتهادِ بإيجاب الحجة عليه : ليَبْرأ من تَبِعة بادرة عساه يأتيها ، أو مَزَلقة تُناديه فيُجيب مُلبِّيا لداعيها ؛ قال الله تعالى : ﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى البِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الإثْمِ وَالعُدْوَانِ وَٱتَّقُوا اللهَ إنَّ اللهَ شَدِيدُ العِقَابِ ﴾ .

وأمره أن يُمْضِىَ ماأمضاه الحُكّام قَبْلَه ولا يتعقّب أحكامَهم بتأويل ، مجتنبًا تَتَبُّع عَثَراتهم ، والبحْثَ عن هَفَواتهم ؛ ومهما رُفِع إليه من ذلك مما الإجماعُ عليه مُوافِق ، ولسانُ الكتاب والسُّنّة به ناطق ، أمْضاه وحَكَم به ، وإن كان مباينًا لمَذْهبه : فإنّ الحكومات كلَّها ماضيةٌ على ٱختلافِ جِهاتها ، مستمِرّةٌ على تَنافى صِفاتها ، محميّة عن التأويل والتعليـل ، محروسةٌ من التغيير والتبديل ؛ ما كان لهـا مَخْرَجٌ فى بعض الأقوال ، أو وُجِد لهـا عنـد الفُقهاء ٱحتمال ؛ إلا أن يكونَ الإجمـاع منعقدا على ضِدّها ، آخذا بالغـائها ورَدّها ؛ فيستفرغ فى إيضاحها جُهْده ، ويُنفق فى تلافيها من الاستطاعة وُجْده ، حتى يُعيدَها إلى مقرّها من الواجب ، ويُمضيَها على الحقّ اللازب ؛ قال الله عز وجل : ﴿ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَـا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ .

وأمره أن يتّخـذ كاتبـا بالظَّلَف موسُوما ، وبأدقّ مايُناط به قَئُوما ، خبيرًا بمـا يَسْـطُره ، عالمـا بمـا يَذْكُره ، عارفا بالشُّروط والسِّجلّات ، وما يتوجّه نحوها من التأويلات ، ويتداخَلُها مِـن الشُّـبَه والتلبيسات ؛ مطَّلِعا على أسرارها وعِلَلها ، وتصاريف حِيَلها ؛ متحرِّزًا فى كل حال ، متنزِّها عن مَذْموم الفعال ؛ متخذا خشْية

الله شـعارا ، مُسْبِلا دُونَ عِصْيانه من التُّقَى أستارا : فإنها نظاماته التى يرجِعُ إليها، ويَدُه التى يبطِشُ بها ويعوّل عليها ؛ ومتى لم يكن له من نَفْسه وازع ، ولا من عَقْله ودينِه رادِع ، لم يُؤْمَنْ أن تدِبَّ عقاربُه ليـلا ، ويَسْحَب على الغوائل والمُوبِقات ذَيْلا ، فيعمَّ الضررُ بمكانه ، ويَشْرع أذاه إلى المسلمين حَدَّ سِـنانه . وأن يتخيَّر حاجبا طاوِيًا كَشْحه دُونَ الأشرار ، جامعًا لأدَب الأخيار ، مُدَّرعا جِلْباب الحيـاء ، طَلْق الوجه عند اللِّقاء ، سَهْل الجانب لَيِّنه ، مستشْعِر الخير متيقِّنه ، غير متجهِّم للناس ، ولا معاملهم بغير البشاشـة والإيناس ؛ فإنه البـابُ إليه ، والمعتَمَد فى لقائه عليه ؛ فلينتخبه انتخابَ من عَلِم أنّ حُسنَ الثناء خيرُ زاد ، وأنفسُ ذُخْر وعَتاد ، ورأى طيِّب المَحْمَدة أجلَّ كَسْب مراد ، وحَظَّ مجْـد مسـتَفاد . ومتى كان عن هـذه الخلال متخلِّيا ، وبخلافها متحلِّيا ، اعتاض عنه بمن هو أسلَمُ غيبا ، وآمَنُ ريبا ، وأنقى جَيْبا ، وأقلّ عيبا ، قال الله سبحانه : ﴿ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴾ .

وأمره أن يتسـلَّم ديوانَ القضاء وما فيـه من الحُجج والسِّجلّات ، والوثائق والكَفالات ، والمحاضر والوَكالات ، بمحضر من العُدُول ليكونوا له مشاهِدين ، وعليه شاهِدين ، وأن يجعل خَزَّانها من يرتضيه ، باجتماع أدوات الخير فيه ، عاملًا فى حِفْظها بمـا تقتضيه الأمانةُ التى أشفقت السمٰواتُ والأرضُ والجبالُ منها ، واقْرِرْنَ بالعجز عنها ، متحرِّيا من أمرٍ يبوء معـه بالآثام ، فى دار المُقام ؛ قال الله تعـالى : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ .

وأمره بمراعاة أمر الحِسـبة فإنها أكبرُ المصـالح وأهمُّها ، وأجمعُها لنفع النـاس وأعمُّها ، وأدعاها إلى تحصين أموالهم ، وانتظام أحوالهم ، وحَسْم موادّ الفَساد ،

وكَفَّ يَدِه عن الاْمتداد ؛ وأن يتقدّم إلى المُستناب فيها بمُداومة الاْطِّلاع على كَمِّيَّة الأسعار، والفَحْص عن مادّةِ المخلوقات فى الاْنقطاع والاْستمرار، ومواصلة الجُلُوس فى أماكِنِ الأقوات ومَظَانِّها : ليكون تَسعيرُها بمقتضَى زيادتها ونُقْصانها، غيرَ خارج فى ذلك عن حدِّ الاْعتدال ، ولا مائلٍ إلى مايُجحف بالفريقين من إكثار وإقلال ؛ وأن يُراعِىَ عِيارَ المكاييل والمَوازين ، ليميِّزَ ذَوِى الصِّحّة من المطفِّفين ؛ فيقول لمن حَسُن اعتباره [مَرْ] حىٰ (١) ويقابِلَ مَنْ ساء اختبارُه بما يجعلُه لأمثاله رادعا، حتى يَزِنُوا بالقِسْطاس المستقيم ، ويتجنَّبوا التطفيف بقَلْب من إضمار المُعاوَدة سليم ؛ قال الله تعالى : ﴿ وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ .

هذا عهدُ أمير المؤمنين إليك ، وحجَّتُه عند الله تعالى عليك ، وقفك [فيه] على مَنْهَج الصَّلاح ، وأعلقك منه إن اتَّبعته بأسباب النَّجاح ، وأدَرّ به عليك خِلْفَ السَّعادة إن أَمْرَيْتَه (٢) بيَدِ القَبُول ، وجمع لك مع احتذائه بدائد (٣) المأمول ، وعطف لديك متى تمثّله شَوارِدَ السُّول ، وأوجدك ضالّة متاعك إن أصغيْتَ إليه سامعًا مُطيعا ، وأعاد إن ائْتمرت بأوامره شَمْلَ أقوالك جميعا ، وأرادك مَرْعَى النجاة إن نهضْتَ بأعبائه مَريعا ، لم يَدَّخرك فيه شفيقا، ولا حَقَرك إرشادًا وتعريفا ؛ خلَع به رِبْقَة الأمانة عن عُنُق اجتهاده، وأوضح لك مايُسأل غدًا عن فعله واعتماده .

فبادِرْ إلى العمل به مُسْرِعا، وقُمْ بالمحدود فيه مُضْطَلِعا ؛ واعلَمْ أنّ لكل عالم هَفْوة، ولكلّ جَواد كَبْوة ؛ فاغضُضْ عن مَطامِح الهوى طَرْفَك، واثْنِ عن أضاليل الدُّنيا

(١) مرحى كلمة تقال للرامى إذا أصاب تعجبا من رميه .

(٢) مرى الدم وأمراه استخرجه .   (٣) لعله مع اختزاله . تأمل

الغَرارة عِطْفَك ، وٱخْشَ مَوْقِفًا تَشْخَص فيه الأبصار ، وتَعْدَم الأعوانُ والأنصار ؛ يومَ يَنظُر المرءُ ماقدّمتْ يَدَاه ، وتنقطع الوسائلُ إلا ممّن أطاعَ الله وٱتّقاه ؛ يَنْعم عَوْفُك[1] ، ويأمَنْ يومَ القيامة خَوْفُك ؛ ومهما عَرَض لك من شُبْهة لم تُلْف مَخْرجا منها ، ولا صَدَرا عنها ، ولا وجدْتَ لسَقْيها هِناء ، ولدائها شِفاء ، فطالِعْ حضرةَ أمير المؤمنين بحالها مستعلِما ، وأنْهِها إليه مستفتِحا باستدعاء الجواب عما أصبح لديك مستغلِقا مُبْهَما ، يُمْدِدْك منه بما يُريك صُبْحَ الحق منبلِجا ، وضيقَ الشكّ مُنْفرِجا ؛ عن علم عنده البحرِ كالقياس ، إلى أوشالِ الناس ؛ والله تعالى يعضُد آراءَ أمير المؤمنين بالصواب ، ويُمدّه بالتوفيق فى سائر الآراب ، ويقود لمراده أزِمّةَ جوامِحها الصِّعاب ، ما أنجم سَحَاب ، وأثجم رَبَاب ، بمنّه وسَعة فضله .

✤

وهذه نسخةُ عهد بولاية القضاء بسُرَّ مَنْ رأى ، كتب بها أبو إسحاق الصابى ، عن الطائع لله ، للقاضى أبى الحُسين محمد ٱبن قاضى القُضاة أبى محمد عبيد الله ، ابن أحمد بن معروف ، حين ولّاه القضاء بسُرَّ مَنْ رأى وغيرها ، وما أضيف إلى ذلك من أعمال الجزيرة ، وهى :

هذا ماعهِدَ عبدُ الله عبدُ الكريم ، الإمامُ الطائع لله أمير المؤمنين ، إلى محمد ٱبن قاضى القُضاة عُبيد الله بن أحمد ، حينَ عُرِفت الفضيلةُ فيه ، وتقيَّل[2] مَذاهبَ أبيه ؛ ونَشأ من حِضْنه فى المَنْشإ الأمين ، وتبوَّأ من سَبَبه ونَسَبه المُتبوَّأَ المَصُون ؛ ووجده أميرُ المؤمنين مستحِقًّا لأن يُوسَم بالصَّنيعه ، والمنزلة الرَّفيعه ؛ على الحَداثة من سِنّه ،

(١) العوف من معانيه البال والحال ومنه يقال فى الدعاء نعم عوفك .

(٢) يقال تقيل فلان أباه [أى بالياء المثناة] تقيلا اذا نزع اليه فى الشبه .

والغضاضة من عوده، ساميًا به فى ذلك إلى مراتب أعيان الرجال، التى لا تدرك إلا مع الكمال والاكتهال: لما آنس من رشده ونجابته، واستوضح من عقله ولبابته، واسترجح من وقاره وحلمه، واستغزر من درايته وعلمه، وللذى عليه شيخه قاضى القضاة عبيد الله بن أحمد من حصافة الدين، وخلوص اليقين، والتقدم على المتحلين بحليته، والمتحلين لصناعته، والاستبداد عليهم بالعلم الجم، والمعنى الفخم، والافتنان فى المساعى الصالحة التى يسود أحدهم بأحدها، ويستحق التجاوز لهم من استوعبها بأسرها، وبالثقة والأمانة، والعفة والنزاهة، التى صار بها علما فردا، وواحدا فذا، حتى تكلفها من أجله من ليست من طبعه ولا سنخه، فهو المحمود بأفعاله التى اختص بها وبأفعال غيره ممن حذاه فيها، وبما نفق من بضائع الخير بعد كسادها، وبالسابقة التى له فى خدمة المطيع لله أولا ثم خدمة أمير المؤمنين ثانيا، فإنها [سابقة](١) شائع خبرها، وجميل أثرها، قوية دواعيها، متمكنة أواخيها. وللمكانة التى خص بها من أمير المؤمنين [ومن عز الدولة أبى منصور مولى أمير المؤمنين أيده الله](١) ومن نصير الدولة الناصح أبى طاهر رعاه الله، ومن عظماء أهل حوزتهم، وأفاريق(٢) عوامهم ورعيتهم، فلما صدق محمد فراسة أمير المؤمنين ومخايله، واحتذى سجايا أبيه وشمائله، وحصل له ما حصل من الحرمات المتأثلة، والموات المتأصلة، أحرز من الأثرة على قرب المدى، ما لا يحرزه غيره على بعد المرمى، واستغنى أمير المؤمنين فيه عن طول التجربة والاختبار، وتكرر الامتحان والاعتبار. فقلده الحكم بين أهل سر من رأى، وتكريت، والطبرهان، والسن، والبوازيج، ودقوقا، وخانيجار، والبندنيجين، وبوحسابور، والراذانين، [ومسكن](١) وقطربل، ونهربوق، والدبين، وجميع الأعمال

(١) الزيادة من "رسائل الصابى".

(٢) أفاريق جمع أفراق وأفراق جمع فرقة.

المُضافة إلىٰ ذلك والمنسوبة إليـه ، وشرّفه بالخلع والحُملانـ ، وضُروب الإنعام والإحسان ، وكان فيما أعطاه من هذا الصِّيت والجَدّ ، ونحله إيّاه من المَفْخر العِدّ ، مبتغيًا ما كَسَبه من الله الرِّضا والزُّلفىٰ ، والسلامةَ فى الفاتحة والعُقبىٰ ، وراعيًا لما يُوجبه لقاضي قُضاته عُبَيد الله بن أحمدَ من الحقوق التى أخفىٰ منها أكثرَ مما أبدىٰ ، وأمسكَ عن أضعاف ما أحصىٰ ، وذاهبًا علىٰ آثار الأئمة المهديّين ، والوُلاة المجتهدين ، فى إقرار ودائعهم عند المرشَّحين لحفظها ، المُضْطلِعين بحملها ، من أولادِ أوليائهم ، وذُرّيّة نُصحائهم : إذ كان لا بُدَّ للأسلاف أن تَمضى ، وللأخلاف أن تَنمى ، كالشجر الذى يُغرَس لَدْنًا فيصيرُ عظيمًا ، والنباتِ الذى ينجُم رَطْبًا فيصير هَشيمًا ، فالمُصيب من تخيَّر الغَرس من حيثُ استَنجب الشجر ، واستَنحَل الثمر ، وتعمَّد بالعُرف مَن طابَ منه الخَبَر ، وحَسُن منه الأثَر ، وأمير المؤمنين يسألُ اللهَ تعالىٰ تسديدًا يُحمَد عائدته ، وتَدِرُّ عليه مادّتُه ، ويتولّاه فى العزائم التى يَعزِمها ، والأمور التى يُبرِمها ، والعقودِ التى يعقِدها ، والأغراضِ التى يعتمدها ؛ وما توفيقُ أمير المؤمنين إلّا بالله عليه يتوكّل وإليه يُنيب .

أمره باعتماد التقوىٰ ، فإنّها شعار أهلِ الهُدىٰ ، وأن يُراقبَ اللهَ مراقبةَ المتحرّز من وَعيده ، والمتنجّز لمَواعيده ، ويطهّرَ قلبه من مُوبِقات الوَساوس ، ويهذّبَه من مُرْدِيات الهَواجس ، ويأخُذَ نفْسَه بمآخذ أهلِ الدِّينـ ، ويكلّفَها كُلَف الأبرار المؤمنين ، ويمنَعَها من أباطيل الهَوىٰ ، وأضاليل المُنىٰ ؛ فإنها أمّارةٌ بالسّوء ، صَبّةٌ (١) إلىٰ الغَيّ ، صادّةٌ عن الخير ، صادفةٌ عن الرُّشد ، لا ترجِعُ عن مَضارّها إلّا بالشّكائم ، ولا تنقادُ إلىٰ منافعها إلا بالخَزائم ، فمَن كَبَحها وثَناها نَجَاها ، ومن أطلَقها وأمْرَجها (٢)

(١) أى مائلة الى الخ .   (٢) فى الأصول والرسائل وأمرجها بالحاء ، ولعله تصحيف فى اللسان "وأمرجها [أى الدابة] تركها تذهب حيث شاءت" فتنبه .

أرْداها . وأولى مَنْ جعل تقوى الله دَأْبَه ودَيْدَنه ، والخِيفةَ منه مِنهاجَه وسَنَنه ، مَن ارتدى رِداءَ الحُكّام ، وأمَر ونَهى في الأحكام ، وتَصدّى لكَفّ الظالم ، وردّ المَظالم ، وإيجاب الحُدود ودَرْئها ، وتحليل الفُروج وحَظْرها ، وأخْذ الحُقوق وإعطائها ، وتنفيذ القضايا وإمضائها : إذ ليس له أن يأمُر ولا يأتَمِر ، ويَزجُر ولا يَزْدَجِر ، ويأتي مثل ما يَنْهَى عنه ، ويَنهى عمّا يأتي مِثْلَه ؛ بل هو محقوق بأن يُصْلِح ما بين جَنْبيه ، قبل أن يُصْلِح ما رُدّ أمرُه إليه ، وأن يهذّب من نِيّته ، ما يحاولُ أن يهذّبَ من رعيّته ، قال الله تعالى : ﴿ يأيُّها الّذينَ آمَنُوا اتّقُوا الله حَقّ تُقاتِهِ ولا تَمُوتُنّ إلّا وأنْتُمْ مُسْلِمُون ﴾ : ﴿ فاتّقُوا النّارَ الّتي وَقُودُها النّاسُ والحِجارَةُ أُعِدّتْ للْكافِرين ﴾ .

وأمَره بالإكثار من تلاوة القرآن الواضح سبيلُه ، الراشد دليلُه ؛ الذي من استضاء بمَصابيحه أبصر ونَجا ، ومن أعرض عنها زلّ وغَوى ؛ وأن يتخذه إماماً يَهتدي بآياته ، ويَقتدي ببيّناته ؛ ومثالاً يحذُو عليه ، ويرُدّ الأصولَ والفُروع إليه ؛ فقد جعله الله حُجّته الثابتةَ الواجبه ، ومَحجّته المستبينةَ اللاحبه ، ونُورَه الغالبَ الساطع ، وبُرهانَه الباهرَ الناصع ؛ وإذا ورد عليه مُعضِل ، أو غُمّ عليه مُشكِل ، اعتصم به عائذاً ، وعَطف عليه لائذاً ؛ فبه يُكشَف الخَطْب ، ويُذلّل الصّعْب ، ويُنال الأَرَب ، ويُدرَك المَطْلَب ؛ وهو أحدُ الثقلين اللذين خلّفهما رسولُ الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم فينا ، ونصبهُما مَعْلَماً بعده لنا ، قال الله تعالى : ﴿ إنّا أنزَلْنا إليْكَ الكِتابَ بالحَقّ لِتحكُمَ بيْنَ النّاسِ بِما أراكَ اللهُ ولا تكُنْ للخائنينَ خَصِيماً ﴾ . وقال تعالى : ﴿ وإنّه لَكِتابٌ عزيزٌ لا يأتِيهِ الباطِلُ مِنْ بيْنِ يَدَيْهِ ولا مِنْ خَلْفِهِ تنْزِيلٌ مِنْ حكيمٍ حَميدٍ ﴾ .

وأمره بالمحافظة على الصلوات ، وإقامتها فى حقائق الأوقات ؛ وأن يدخل فيها أوانَ حلولها بإخلاص من قلبه ، وحضور من لبّه ؛ وجمع بين لفظه ونيّته ، ومطابقة بين قوله وعمله ؛ مرتّلا للقراءة فيها ، مفصحا بالإبانة لها ، متثبّتا فى ركوعها وسجودها ، مستوفيا لحدودها وشروطها ، متجنّبا فيها جرائر الخطإ والسهو ، وعوارض الخطل واللغو : فإنه واقف بين يدى جبّار السماء والأرض ، ومالك البسط والقبض ، والمطّلع على خائنة كلّ عين وخافية كلّ صدر ، الذى لاتحتجب دونه طويّة ، ولا تستعجم عليه خبيّة ؛ ولا يضيع أجر محسن ، ولا يصلح عمل مفسد ؛ وهو القائل عز وجل : ﴿ وَأَقِمِ الصَّلاةَ إنَّ الصَّلاةَ تَنْهَى عَنِ الفَحْشاءِ والمُنْكَرِ ﴾ .

وأمره بالجلوس للخصوم ، وفتح بابه لهم على العموم ؛ وأن يوازى بين الفريقين إذا تقدّما إليه ، ويحاذى بينهما فى الجلوس بين يديه ؛ ويقسم لهما أقساما متماثلة من نظره ، وأقساطا متعادلة من كلمه : فإنه مقام توازن الأقدام ، وتكافؤ الخواص والعوامّ ؛ ولا يقبل على ذى هيئة لهيئته ، ولا يعرض عن دميم لدمامته ؛ ولا يزيد شريفا على مشروف ، ولا قويّا على مضعوف ؛ ولا قريبا على أجنبىّ ، ولا مسلما على ذمىّ ، ماجمعهما التخاصم ، وضمّهما التحاكم . ومن أحسّ منه بنقصان بيان ، أو عجز عن برهان ؛ أو قصور فى علم ، أو تأخّر فى فهم ، صبر عليه حتى يستنبط ماعنده ، ويستشفّ ضميره ؛ وينقع بالإقناع غلّته ، ويزيح بالإيضاح علّته . ومن أحسّ منه بلسن وعبارة وفضل من بلاغة ، أعمل فيما يسمعه منه فكره ، وأحضره ذهنه ؛ وقابله بسدّ خلّة خصمه ، والإبانة لكلّ منهما عن صاحبه ؛ ثم سلّط على أقوالهما ودعاويهما تأمّله ، وأوقع على بيّناتهما وحججهما تدبّره ؛ وأنفذ حينئذ الحكومة إنفاذا يعلمان به أنّ الحقّ مستقرّ مقرّه ، وأن الحكم موضوع موضعه ؛ فلا يبقى للمحكوم عليه استرابة ولا للمحكوم له استزادة ؛ وأن يأخذ نفسه مع ذلك بأطهر

الخلائق وأحمدها ، وأهدى السجايا وأرشدها ؛ وأن يقصد فى مشيه ، ويغض من صوته ، ويحذف الفضول من [لفظه و] (١) لحظه ؛ ويخفف من حركاته ولفتاته ، ويتوقر من سائر جنباته [وجهاته] (١) ؛ ويجتنب الخرق والحدة ، ويتوقى الفظاظة والشدة ؛ ويلين كنفه من غير مهانة ، ويرب هيبته فى غير غلظة ؛ ويتوخى فى ذلك وقوفا بين غايتيه ، وتوسطا بين طرفيه ؛ فإنه يخاطب أخلاطا من الناس مختلفين ، وضروبا غير متفقين ؛ ولا يخلو فيهم من الجاهل الأهوج ، والمظلوم المحرج ؛ والشيخ الهم ، والناشئ الغر ؛ والمرأة الركيكة ، والرجل الضعيف النحيزة ؛ وواجب عليه أن يغمرهم بعقله ، ويشملهم بعدله ؛ ويقيمهم على الاستقامة بسياسته ، ويعطف عليهم بحلمه ورياسته . وأن يجلس وقد نال من المطعم والمشرب طرفا يقف به عند أول الكفاية ، ولا يبلغ منه إلى آخر النهاية ؛ وأن يعرض نفسه على أسباب الحاجة كلها ، وعوارض البشرية بأسرها ؛ لئلا يلم به من ذلك ملم أو يطيف به طائف فيحيلانه عن جلده ، ويحولان بينه وبين سدده . وليكن همه إلى ما يقول ويقال له مصروفا ، وخاطره على ما يرد عليه ويصدر عنه موقوفا ؛ قال الله تعالى : ﴿ يَادَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ ﴾ .

وأمره إذا ثبت عنده حق من الحقوق لأحد من الخصوم ، أن يكتب له متى التمس ذلك إلى صاحب المعونة فى عمله بأن يمكنه منه ، ويحسم المعارضات فيه عنه ، ويقبض كل يد تمتد إلى منازعته ، أو تتعدى إلى مجاذبته ؛ فقد ندب الله

---

(١) الزيادة عن " رسائل الصابى " .

النـاسَ إلىٰ مُعاونةِ المُحِقِّ علىٰ المُبْطِل ، والمظلومِ علىٰ الظـالم ؛ إذ يقولُ عزَّ وجلَّ : ﴿ وتَعَاوَنُوا علىٰ البِرِّ والتَّقوىٰ ولا تَعاوَنُوا علىٰ الإثمِ والعُدْوان ﴾ .

وأمره أنــ يستصْحب كاتبًا دَرِبا بالمحاضر والسِّجلات ، ماهرا فى القضايا والحكومات ، عالمًـا بالشُّروط والحدُود ، عارفًا بمـا يَجُوز ومالايجُوز ، غيرَ مقصِّر عن القُضاة المستُورين ، والشُّهود المقْبُولين ، فى طهارةِ ذَيْله ، ونَقاءِ جَيْبه ، وتَصَوُّنه عن خُبْث المـآكِل والمَطاعِم ، ومُفارقةِ الرِّيَب والتُّهم ؛ فإن الكاتب زمامُ الحاكِمِ الذى إليه مَرْجِعُه ، وعليه مُعوَّلُه ؛ وبه يحترس من دَواهي الحِيَل ، وكَوامِن الغِيَل . وحاجبًا سديدًا رشـيدا ، أديبًا لبيبـا ، لايُسِفُّ إلىٰ دَنِيّة ولا يُلِمّ بمنكَرة ، ولا يقْبَــل رَشْوة ، ولا يلتمسُ جَعَالةً ، ولا يحجُب عنــه أحدًا يحُاوِل لقاءه فى وقْته ، والوصولَ إليــه فى حينه . وخُلفاءَ يردُّ إليهم مابعُدَ من العمل عن مَقَرّه ، وأعجزه أن يتولَّى النظرَ فيه بنفسه ؛ ينتخِبُهم من الأماثل ، ويتخيَّرهم من الأفاضل ؛ ويعْهَد إليهم فى كلِّ ماعُهِد فيه إليــه ، ويأخُذهم بمثل ماأُخِذ به ؛ ويجعلُ لكلٍّ من هذه الطوائف رِزقا يكُفُّه ويكْفِيه ، وقُوتا يحْجُزه ويُغْنِيه ؛ فليس تلزمُهم الحُجّــةُ إلا مع إعطائِهم الحـاجة ، ولا تُؤخَذُ عليهـــم الوثيقةُ إلا مع إزاحة العِلّة ؛ فقد قال الله تعـالىٰ : ﴿ وأَنْ لَيْسَ للإنْسانِ إلّا ماسَعىٰ وأنّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرىٰ ثُمّ يُجْزاهُ الجَزاءَ الأَوْفىٰ ﴾ .

وأمره بإقرار الشهود الموسومين بالعَدالة علىٰ تَعْديلهم ، وإمضاءِ القضاءِ بأقوالهم ، وحملِهم علىٰ ظاهرِ السَّلامه ، وشِعار الاستقامه ؛ وأن يعتمِدَ مع هــذا البحْثَ عن أديانهم ، والفَحْصَ عن أماناتِهم ، والإصــغاءَ إلىٰ الأحاديث عنهم : من شاءٍ يتكرر ، أو قَدْح يتردّد ؛ فإذا تواتر عنــده أحدُ الأمرين ، ركَن إلىٰ المزكَّى الأمين ، ونبا عن المتّهم الظَّنين : فإنه إذا فعل ذلك اغتبط أهلُ الأمانة بأماناتِهم ، ونزَع أهلُ الخيانة

عن خياناتهم، وتقرّبوا إليه بما تَنْفُق سُوقُه، ويُستحقّ به التوجّه عنده، وآستمرّ شُهودُه وأمناؤه، وأتباعُه وخلفاؤه، على المَنهج الأوْضَح، والمَسْلك الأنجح، وتحصّنت الأموالُ والحُقوق، وصينت الحُرُمات والفُروج؛ ومتى وقَفَ لأحدٍ منهم على هَفْوة لاتُغفر، وعثرةٍ لاتُقال، أسقطه من عَدَدهم، وأخرجه عن جُملتهم؛ وآعتاض منه من يَحْمَد دينَه، ويرتضي أمانتَه؛ قال الله تعالى: ﴿وإمّا تَخافَنّ مِنْ قَوْمٍ خِيانَةً فانْبِذْ إليهِمْ على سَواءٍ إنّ اللهَ لا يُحِبُّ الخائنينَ﴾. وقال في الشهادة: ﴿وأقيمُوا الشّهادةَ لله﴾.

وأمره بالضَّبْط لما يجري في عَمَله من الوُقوف الثابتة في ديوان حُكمه؛ والتعويلِ فيها على الأُمَناء الثِّقات، والحُصَفاء الكُفاة، المعروفين بالظَّلَف والوَرَع، المتنزّهين عن الطَّفَف[1] والطَّمَع؛ والتقدّمِ إليهم في حِفْظ أصولها، وتوفيرِ فُروعها؛ وتثميرِ غلّاتها وآرتفاعها؛ وصَرْفها إلى أهلها ومستحقّيها وفي وُجوهها وسُبُلها؛ ومطالبتِهم بحساب مايجْري على أيديهم، والاستقراء لآثارهم فيه وأفعالهم؛ وأن يَحْمَد منهم من كَفَى وكَفّ، ويَذُمّ من أضاع وأسَفّ؛ ويُنزِل كُلّا منهم منزلتَه التي آستحقّها بعَمَله، وآستوجبها بأثره؛ قال الله تبارك وتعالى: ﴿إنّ اللهَ يأمُرُكُمْ أنْ تُؤدّوا الأماناتِ إلى أهلِها وإذا حَكَمْتُمْ بينَ النّاسِ أنْ تَحْكُموا بالعَدْلِ إنّ اللهَ نِعِمّا يَعِظُكُمْ بهِ إنّ اللهَ كانَ سَميعًا بَصيرًا﴾.

وأمره بالاحتياط على أموال الأيتام، وإسنادها إلى أعفّ وأوثق القُوّام؛ والتقدّمِ إلى كل طائفة بأن يجريهم مُجرَى ولده، ويقيمهم مُقام سُلالته، في الشفقة عليهم، والإصلاح لشُئونهم، والإشراف على تأديبهم؛ وتلقينهم مالا يَسَع المسلم جهلُه من الفرائض المفترضة، والسُّنن المؤكّدة؛ وتخريجهم في أبواب معايشهم،

---

(١) هو بالتحريك العيب والريب.

وأسباب مصالحهم ، والإنفاق عليهم من عرض أموالهم بالمعروف الذى لاشطط فيه ولا تبذير ، ولا تضييق ولا تقتير ، فإذا بلغوا مبالغ كمالهم ، وأونس منهم الرشد فى متصرفاتهم ، أطلق لهم أموالهم ، وأشهد بذلك عليهم ، فقد جعله الله بما تقلده من الحكم ، خلفا من الآباء لذوى اليتم ، وصار بهذه الولاية عليهم مسئولا عنهم ، ومجزيا عما سار به فيهم ، وأوصله من خير أو شر إليهم ، قال الله تعالى : ﴿ وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافا خافوا عليهم فليتقوا الله وليقولوا قولا سديدا إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون فى بطونهم نارا وسيصلون سعيرا ﴾ .

وأمره بحفظ ماق ديوانه من الوثائق والسجلات ، والحجج والبينات ، والوصايا والإقرارات : فإنها ودائع الرعية عنده ، وواجب أن يحرسها جهده ، وأن يكلها إلى الخزان المأمونين ، والحفظة المتيقظين ، ويوعز إليهم بأن لا يخرجوا شيئا منها عن موضعه ولا يضيفوا إليها مالم يكن بعلمه ، وأن يتخذ لها بيتا يحصرها به ، ويجعله بحيث يأمن عليه : ليرجع متى احتاج الرجوع إليه ، فقد قال الله تعالى : ﴿ والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون ﴾ .

وأمره إن ورد عليه أمر يعييه فصله ، ويشتبه عليه وجه الحكم فيه ، أن يرده إلى كتاب الله ، ويطلب به سبيل المخلص منه ، فإن وجده وإلا ففى الأثر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإن أدركه وإلا استفتى فيه من يليه من ذوى الفقه والفهم ، والهداية والعلم[(١)] ، فما زالت الأئمة والحكام من السلف الصالح ، وطراق السنن الواضح ، يستفتى واحد منهم واحدا ، ويسترشد بعض بعضا ، لزوما للاجتهاد ، وطلبا للصواب ،

(١) فى رسائل الصابى «وأهل الدراية» .

وتحرُّزا من الغلط ، وتوقِّيا من العِثار ، قال الله تعالى : ﴿ فإنْ تَنَازَعتُمْ فى شَىْءٍ فرُدُّوهُ إلى اللهِ والرَّسُول ﴾ .

وأمره أنْ لاينقُضَ حكما حكم به مَنْ كان قبله ولا يَفْسَخه ، وأن يعمَل عليه ولا يَعْـدِل عنه ، ما كان داخلاً فى إجماع المسلمين ، وسائغا فى أوضاع الدِّين ؛ فإنْ خرج عن الإجماع ، أوضَحَ الحال فيه لمن يَحْضُرته من الفقهاء والعلَماء حتّى يصيرُوا مثله فى إنكاره ، ويجتمعُوا معه على إيجاب ردِّه ، ثم ينقُضه حينئذ نقضا يَشيع ويَذيع ، ويعُود به الأمر إلى واجبه ، ويستقر معه الحقّ فى نِصابه ، قال الله تعالى : ﴿ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنزَلَ اللهُ فأُولئكَ هُمُ الفاسِقُون ﴾ .

هـذا عهدُ أمير المؤمنين إليك ، وحُجّتُه عليك ، قد شرح به صدْرَك ، وأوضح به سُبُلك وأقام أعلامَ الهداية لك ، ولم يَأْلُك تبصيرا وتذكيرا ، ولم يَدَّخرك تعريفًا وتوقيفا ، ولم يجعلك فى شىءٍ من أمرك على شُبْهة تعترضك ، ولا حَيْرة تعتاقك ؛ والله شاهدٌ له بخُروجه من الحق فيما وَصَّى وعَهِد ، وعليك بقَبُولك ماقبِلْتَ مما ولّى وقلّد ؛ فإن عدلت واعتدلْتَ ـ وذلك خليقٌ بك ـ فقد فاز وفُزْتَ معه ، وإن تجانفْتَ وزَلَلْتَ ـ وذلك بعيدٌ منك ـ فقد رَبح وخسِرْتَ دُونه ؛ فلتكُن التقوى زادَك ، والاحتراسُ شعارَك ، واستعِنْ بالله يُعِنْك ، واستهْده يَهْدِك ، واعتضدْ به يُعْضِدْك ، واستمِدّ من توفيقه يُمْدِدْك ؛ إن شاء الله تعالى .

[وكتب نصيرُ الدولة الناصحُ أبو طاهر يومَ كذا من رجب سنة ست وستين وثلثمائة] (١) .

(١) الزيادة عن "رسائل الصابى" .

وهذه نسخة عهد بقضاء القُضاة شرقا وغَرْبا ، كُتب به عن الإمام الناصر لدين الله أحمد ، للقاضي محيي الدين أبي عبد الله محمد بن فَضْلان ؛ من إنشاء أستاذ الدار عضد الدين بن الضحّاك ، وهي :

هـذا ما عهِدَ عبدُ الله وخليفته في العالَمين ، المفترَضُ الطاعة على الخلق أجمعين ، أبو العبّاس أحمدُ النـاصرُ لدين الله أميرُ المؤمنين ، إلى محمد بن يحيى بنِ فَضْـلان : حين سَـبَرَ خلاله وآستقْراها ، وآعتبر طرائقَه وآستبْراها ، فألفاه رشيدًا في مذاهبه ، سديدًا في أفعاله وضرائبه ، موسُوما بالرّصانه ، حاليًا بالوَرَع والدِّيانه ، مبرّزا من العلوم في فُنُونها ، عالمـا بفرُوض الشريعة المطهّرة ومسْـنُونها ، مُدّرِعا ملابِسَ العَفاف ، قد أناف على أمثـاله في بوَارِع الأوصاف ، فقلّده قضاءَ القُضاة في مدينة السـلام وجميع البلاد والأعمال ، والنواحي والأمصار : شَرْقا وغَرْبا ، وبُعْدا وقُرْبا ، سُكُونا إلى ما عَلِم من حاله ، وآضطلاعه بالنهضة المنُوطة به وآستقلاله ، ورُكونا إلى قيـامه بالواجب فيما أُسْنِد إليه ، ونُهوضه بعِبْء ما عُوِّل في حفظ قوانِينه عليـه ؛ وآستنامةً إلى حلُول الآصطناع عنـــده ، ومصادَفته منـه مكانا تَبَوّأه بالآستحقاق وحْده ؛ والله تعالى يعضّد آراءَ أمير المؤمنين بمزيد التوفيق في جميع الأمور ، ويُحْسن له الخِيَرَة فيما يؤُمّه من مَناظم الدّين وصَـلاح الجُمْهور ، وما توفيقُ أمير المؤمنين إلّا بالله عليه يتوكّل وإليه يُنيب .

أمره بتقوى الله تعـالى في إعلانه وإسْراره ، وتقمّص شِعارها في إظهار أمره وإضمـاره ، فإنها العُروة الوُثْقى ، والذُّخْر الأبْقى ، والسعادةُ التي ما دُونَها فوزٌ ولا فَوقَها مَرْقى ، وهي حِلْية الأبرار ، وسِيَما الأخيار ، والمَنْهج الواضح ، والمَتْجر الرابح ، والسبيلُ

المؤدِّى إلى النجاة والخلاص ، يومَ لا وَزَرَ ولاتَ حينَ مَناص ، وأنفعُ العُدَد والذخائر، وخيرُ العَتاد يوم تُنشَر الصُّحُف وتُبلَى السرائر، يومَ تَشخَص الأبصار ، وتَعدَم الأنصار : ﴿ وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطِرَانٍ وَتَغْشَى وُجُوهَهُمُ النَّارُ ﴾ . ولا يَنجو من عذاب الله يومئذ إلا مَنْ كان زادُه التقوى ، وتمسَّك منها بالسبب الأقوى ، قال الله تعالى : ﴿ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ .

وأمره أن يجعل كتابَ الله إمامًا يَهتَدِى بمَنارِه، ويستصبح بِبَواهر أنواره، ويستضىءُ فى ظُلَم المشكلات بمُنير مصباحه ، ويقفُ عند حُدُود محظوره ومُباحه، ويتّخذُه مثالا يحتذيه، ودليلا يَتَّبع أثَرَه فيَهْديه ، ويعمَلُ به فى قضاياه وأحكامه ، ويقتَدى بأوامره فى نَقْضه وإبرامه : فإنه دليلُ الهدى ورائدُه ، وسائقُ النُّجح وقائدُه ، ومعدِنُ العلم ومَنبَعُه، ومَنجَم الرَّشاد ومَطلَعه ، وأحدُ الثقلين اللذين خلَّفهما رسول الله صلَّى الله عليه وسلم فى الأمَّة ، والذِّكْرُ الذى جعله الله تعالى تِبيانا لكل شىء وهدًى ورحمة، فقال عز من قائل : ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ .

وأمره بانتزاع(١) الآثار النبوية صلوات الله على صاحبها وسلامه ، والاهتداء بشُمُوسها التى تَنجلى بها دُجُنَّة كلِّ مشكل وظلامه ، والاقتداء بسُنَّة الشريعة المتبوعه ، وتصفُّح الأخبار المسموعه ، والعمل منها بما قامتْ أدلَّة صحته من جميع جهاته ، واستحكمت الثقة بنَقَلته عنه ــ عليه السلام ــ ورُواته ، وسلِمتْ أسانيدُه من قَدْح، ورجالُه من ظِنَّة وجَرْح ، فإنها التاليةُ للقرآن المجيد فى وجُوب العمل بأوامره ،

(١) فى اللسان ج ١٠ ص ٢٢٩ « انتزع بالآية والشعر تمثل و يقال للرجل إذا استنبط معنى آية من كتاب الله قد انتزع معنى جيدا » .

والانتهاءِ بروادعه وزواجرِه ، وهو عليه الصلاة والسلامُ الصادقُ الأمينُ الذى ماضلّ وما غوىٰ ، وما ينْطق عن الهوَىٰ ؛ وقد قرَنَ الله سبحانه طاعتَــه بطاعته ، والعملَ بكتابه والأخذَ بسُنَّته ، فقال عز من قائل : ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوه وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ شَدِيدُ العِقَابِ ﴾ .

وأمره بمجالسة العلمـاء ، ومُباحثــة الفُقهاء ، ومشاركتِهم فى الأمور المشــكله ، وعَوارض الحكومات المُعضله : لتستبينَ سبيلُ الصواب ، ويَعْرىٰ الحُكْم من مَلابس الشُّبَه والارتياب ، ويَخْلُصَ من خطإ الانفراد ، وغوائلِ الاستبداد ، فالمَشُورة باليُمْن مقرونه ، والسلامةُ فى مَطاويها مضْمُونه ؛ وقد أمر الله تعالىٰ بها نبيَّه صلّى الله عليه وســلم مع شَرَف منزلته وكمال عِصْمته ، وتأييده بوَحْيه وملائكته ، فقال سبحانه : ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِى الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَىٰ اللهِ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ المُتَوَكِّلِينَ ﴾ .

وأمره بفتح بابه ، ورَفْع حِجابه ، وأن يجلس للخُصُوم جلوسا عامّا ، وينظُر فى أمورهم نَظَرا حسَنًا تامّا ، مساوِيًا بينَهم فى نَظَره ولَحْظه ، وإصغائه ولفْظه ، محترزا من ذى اللَّسَن وجُرأة جَنانه ، متأنِّيا بذى الحَصَر عنــد إقامة بُرْهانه ، فرُبَّمــا كان أحدُ الخصمين ألْحَنَ بحُجَّتــه ، والآخر ضعيفا عن مُقاوَمتــه ؛ هذا مَقــامُ الفحص والاستفهام ، والتثبّت وإمضاءِ الأحكام : ليسْلَم من خديعــة مُخْتال ، وكَيْد مُغْتال ؛ مائلا فى جميع ذلك مع الواجب ، سالكا طريقَ العَدْل اللّاحب ؛ غيرَ فارق فى إمضاء الحكم بين القوىّ والضعيف ، والمَشْروف والشريف ؛ والمالك والمَمْلوك ، والغنىّ والصُّعْلوك ؛ قال الله تعــالىٰ : ﴿ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّــا أَوْ فَقِيرًا فَاللهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا ﴾ . وقال سبحانه وتعالىٰ : ﴿ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَــا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الكَافِرُونَ ﴾ .

وأمره أن يتصفح أحوالَ الشهود، المسموعةِ أقوالُهم فى الحقوق والحدود، المرجوعِ إلى أماناتهم، المعمولِ بشهاداتهم، الذين بهم تُقام الحُجَج وتُدْحَض، وتُبرَم الأحكامُ وتُنْقَض، وتثبت الدعاوى وتَبْطُل، وتمضى القضايا وتُسجَّل، مجتهدًا فى البحث عن طرائقهم وأحوالهم، وانتقادِ تصاريفهم وأفعالهم، واستشفاف سجاياهم، وعرفان مزاياهم، مخصِّصا بالتمييز من كان حميدَ الخلال، مرضىَّ الفعال، راجعًا إلى ورَع ودِين، متمسِّكا من الأمانة والنزاهة بالسبب المتين، قال الله تعالى: ﴿وأَشْهِدُوا ذَوَىْ عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾.

وأمره بالنظر فى أمور اليتامى وأموالهم، ومراعاةِ شئونهم وأحوالهم، وأن يرتِّب بسبب اتِّساق مصالحهم الثِّقاتِ الأعفَّاء، والأُمَناءَ الأتقياء، ممن ظهرتْ ديانتُه، وحسُنَت سريرتُه، واشتَهر بالظَّلَف والعَفاف، والتنزُّه عن الطمع والإسفاف، ويأمُرَهم بحفظها من خَلَل يتخلَّلها، ويدِ خائنة تدخُلها، وليكنْ عليهم حَدِبا، وفى فَرْط الحُنُوِّ أبا، وخَلَفًا من آبائهم فى الإشفاق عليهم، وحُسْن الالتفاتِ إليهم: فإنَّه عنهم مسئول، والعُذْرُ عند الله تعالى فى إهمالهم غيرُ مقبول، وأن يأذَن لهم فى الإنفاق عليهم بالمعروف من غيرِ إسرافٍ ولا تقتير، ولا تضييقٍ ولا تبذير، فإذا بلغ أحدُهم النِّكاح، وآنس منه أماراتِ الرُّشْد والصَّلاح، دفع مالَه إليه، وأشهد بقبضه عليه، على الوجه المنصوص، غيرَ منقوص ولامَنْقُوص، ممتثلا أمرَ الله تعالى فى قوله سبحانه: ﴿فإذا دَفَعتُمْ إليهِمْ أموالَهُمْ فأَشْهِدُوا عليهِمْ وكَفَى بِاللهِ حَسِيبا﴾.

وأمره بتزويج الأيامَى اللَّواتى لا أولياءَ لهنّ من أكفائهنّ، بمهورِ أمثالهنّ، وأن يشمَل ذوات الغِنَى والفقر منهنّ بعنايته، ويتحرّى لهنّ المصلحة فى عقده وحلّه.

وأمره أن يستنيبَ فيما بَعُد عنه من البلاد ودَنا، وقَرُب منه ونَأىٰ، كلَّ ذي علم وآستبصار، وتيقُّظ فى الحكم وآستظهار، ونزاهة شائعــه، وأوصاف لأدوات الآســتحقاق جامعة، ممن يتحقق نُهوضَــه بذلك وآضطلاعَه، ويأمن آسترلاله وآنخداعه، وأن يَعْهَد إليهم فى ذلك بمثل ما عُهِد إليه ولا يألُوَهم تنبيها وتذكيرا، وإرشادًا وتبصيرا؛ قال الله تعالىٰ : ﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَىٰ البِرِّ والتَّقْوىٰ ولا تَعَاوَنُوا عَلَىٰ الْإِثْمِ والعُدْوانِ ﴾ .

وأمره بإمضاء ما أمضاه قبْله الحُكّام، من القضايا والأحكام، غير متعقِّب أحكامَهم بنقض ولا تبديل، ولا تغيير ولا تأويل، إذا كانتْ جائزةً فى بعض الأقوال، مُمضاةً علىٰ وجه من وُجُوه الاحتمال، غيرَ خارقة للإجماع، عارية من ملابس الابتداع، وإن كان ذلك منافيًا لمذهبه، فقد سبَق حكمُ الحاكم به؛ قال الله تعالىٰ : ﴿ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ .

وأمره أن يتخذ كاتبًا فَهِمًا بشروط القضايا والسِّجلّات، عارفًا بما يتطرّق نحوَها من الشُّبَه والتأويلات، ويتداخلُها من النَّقْص والتلبيسات، متحرِّزًا فى كلّ حال، متنزّهًا عن ذميم الأفعال . وأن يتخيّر حاجبًا نَقِيّ الجَيْب، مأمونَ المَشْهَد والغَيْب، مستشعرًا للتقوىٰ، فى السِّر والنجوىٰ، سالكًا للطريقة المثلىٰ، غيرَ متجهِّم للناس، ولا معتمدٍ ما يُنافى بَسْط الوجه لهم والإيناس : فإنه وُصْلتهم إليه، ووجْهه المشهودُ قبلَ الدخول عليه؛ فلينتخبْه من بين أصحابه، وممن يرتضيه من أمثاله وأضرابه .

وأمره بتسلُّم ديوان القضاء والحُكْم، والاستظهار علىٰ ما فى خزائنــه بالإثبات والخَتْم، والاحتياط علىٰ ما به من المال والسِّجلّات، والحُجج والمحاضر والوكالات،

والقُبُوض والوثائق والأثبات والكفالات ، بمحضر من العُدُول الأمناء الثقات ؛ وأن يرتّب لذلك خازنا يُؤدّي الأمانة فيه ، ويتوخّى ماتوجبه الديانة وتقتضيه .

وأمره بمراعاة أمر الحِسْبة : فإنها من أكبر المصالح وأهمّها ، وأجمعها لمنافع الخلق وأعمّها ، وأدعاها إلى تحصين أموالهم ، وانتظام أحوالهم ؛ وأن يأمر المستناب فيها باعتبار سائر المبيعات فيها : من الأقوات وغيرها في عامّة الأوقات ، وتحقيق أسباب الزيادة والنقصان في الأسعار ، والتصدّي لذلك على الدّوام والاستمرار ؛ وأن يُجري الأمر فيها بحسب ماتقتضيه الحالُ الحاضرة ، والموجباتُ الشائعةُ الظاهرة ؛ واعتبار الموازين والمكاييل ، وإعادة الزائد والناقص منها إلى التّسوية والتعديل ؛ فإن اطّلع لأحد من المتعاملين على خيانة في ذلك وفعلٍ ذميم ، أو تطفيف عَدَل فيه عن الوزن بالقسطاس المستقيم ، أناله من التأديب ، وأسباب التّهذيب ، ما يكونُ له رادعا ، ولغيره زاجرا وازعا ؛ قال الله تعالى : ﴿ وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ .

وهذا عهدُ أمير المؤمنين إليك ، وحجّتُه عند الله تعالى عليك ؛ قد أولاك من صُنُوف النِّعم والآلاء ، وجزيل الكرم والحباء ، ما يُوجب عليك الاعتراف بقدره ، واستيزاع شكره ؛ ووقف بك على محجّة الرّشاد ، وهداك إلى منهج الحقّ وسَنَن السّداد ؛ ولم يألُك تثقيفا وتبصيرا ، وتنبيها وتذكيرا . فتأمّل ذلك متدبّرا ، وقِفْ عند حدود أوامره ونواهيه مستبصرا ؛ واعمل به في كلّ ما تأتيه وتذره ، وتورده وتُصدره ؛ وكن للمخيلة في ارتيادك محقّقا ، وللمعتقد فيك مُصدّقا ؛ تفز من خير الدارين بمُعلّى القِداح ، وإحماد السُّرى عند الصّباح ؛ وحسبُ أمير المؤمنين اللهُ ونعم الوكيل .

الضــــرب الثــانى

(ممـا كان يكتب بديوان الخلافة ببغداد لأرباب الوظائف من أصحاب الأقـلام التواقيع)

وطريقتهم فيها أن يفتتح التوقيع بلفظ «أحق» أو «أولى» أو «أقمن من أفيضت عليه النعم» أو «من فوض إليه كذا» أو «من نوه بذكره» ونحو ذلك «من كان بصفة كذا وكذا» ثم يقال: «ولما كان فلان بصفة كذا وكذا، فوض إليه كذا وكذا» أو «أسند إليه كذا وكذا» ونحو ذلك.

وهـذه نسخة توقيع بتدريس، كتب به عن الإمام الناصر لدين الله، للقـاضى محيي الدين «محمد بن فضلان» بتدريس المدرسة النظامية ببغداد، فى ســنة أربع عشرة وستمائة، وهى:

أحق من أفيضت عليه مجاسد النعم (١)، وجذب بضبعه إلى مقام التنويه وتقدم القدم، من أسفر فى أفضية الفضائل صباحه، وانتشر فى العالم علمه وأزهر مصـباحه.

ولمـا كان الأجل الأوحد، العالم، محيي الدين، حجة الإسلام، رئيس الأصحاب، مفتي الفريقين، مفيد العلوم، أبوعبد الله «محمد بن يحيى بن فضلان» أدام الله رفعته، ممن نظم فرائد المحامد عقده النضيد، وأوى من العلم والعمل إلى ركن شديد، وثبتت قدمه من الديانة على مستثبت راسخ وقرار مهيد ـ رؤى التعويل فى تفويض التدريس بالمدرسة النظامية إليه: ثقة باضطلاعه واستقلاله، وتبريزه

(١) المجاسد جمع مجسد بالضم والكسر الثياب التى تلى الجسد وقد تكون مصبوغة بالجسد وهو الزعفران.

فى حلبات الاستباق على نظرائه وأمثاله ، وتراجع المساجلين له عن فوت غايته وبعد مناله ؛ وأسند إليه ـ أدام الله رفعته ـ النظر فى أوقاف المدرسة المذكورة بأجمعها ، واعتماد ما شرطه الواقف فى مصارفها وسبلها ؛ سكونا إلى كفايته ، وركونا إلى سداده وأمانته .

ورسم له تقديم تقوى الله تعالى التى ما زال منتهجا لطرائقها ، متمسكا بعصمها ووثائقها ، وأن يشرح صدره للمتعلمين ، ولا تأخذه مجرة(١) من المستفيدين ، ولا تعدو عيناه عن جهلاء الطالبين ؛ ولا يتبرم بالمبالغة فى تفهيم المبتدى ، ولا يغفل عن تذكير المنتهى : فإنه إذا احتمل هذه المشقه ، وأعطى كل تلميذ حقه ، كان الله تعالى كفيلا بمعونته ، بحسب ما يعلم من حرصه عليهم وإخلاص نيته . وليكن بسائر المتفقهة معتنيا رفيقا ، وعليهم حدبا شفيقا ؛ يقرع لهم من الفقه ما وضح وتسهل ، ويبين لهم ما التبس من غوامضه وأشكل ؛ حتى تستنير قلوبهم بأضواء علوم الدين ، وتنطق ألسنتهم فيها باللفظ الفصيح المبين ، وتظهر آثار بركاته فى مراشده وتبين ؛ ولتتوفر همته فى عمارة الوقوف واستنمائها ، والتوفر على كل ما عاد بتزايدها وزكائها ؛ بحيث يتضح مكان نظره فيها ، ويبلغ الغاية الموفية على من تقدمه ويوفيها ؛ ولا يستعين إلا بمن يؤدى الأمانة ويوفيها ، ويقوم بشرائط الاستحفاظ ويكفيها ؛ وهو ـ أدام الله رفعته ـ يجرى من عوائد المدرسين والمتولين قبله على أوفى معهود ، ويسامى به إلى أبعد مرتقى ومقام محمود ؛ وأذن له فى تناول إيجاب التدريس ونظر الوقوف المذكورة ، أسوة من تقدمه فى التدريس والنظر فى الوقوف ، على ما شرط الواقف فى كل ورد وصدر ، واعتماد كل ما حده فى ذلك ومثله من غير تجاوز .

---

(١) هى بالضم التبرم والضجر . انظر القاموس .

النـــــوع الرابــــــع

(مـا كان يُكتب من ديوان الخلافة ببغداد ما كان يُكتب لزعماء أهل الذمّة)

وطريقُهم فيه أن يُفتتح بلفظ : « هذا كتابٌ أمر بكَتْبه فلانٌ أبو فلان الإمامُ الفلانيّ أمير المؤمنين لفلان » ثم يقال : « أما بعدُ فالحمدُ لله » ويؤتَى فيه بتحميدة أو ثلاث تحميداتٍ إن قُصد المبالغة في قهر أهل الذمّة بدُخُولهم تحت ذِمة الإسلام وانقيادهم إليه . ثم يذكر نظر الخليفة في مصالح الرعيّة حتّى أهلِ الذمة ، وأنه أُنْهِيَ إليه حالُ فلان وسُئِل في توليته على طائفته فولّاه عليهم للميزة على غيره من أبناء طائفته ونحو ذلك ، ثم يُوصيه بمـا يناسبه من الوصايا .

وهــذه نسخةٌ من ذلك ، كُتب بها عن القائم بأمر الله ، لعَبْـد يَشُوعَ الجاثَلِيق ، من إنشاء العلاء بن مُوصَلّايا ، وهي :

هذا كتابٌ أمر بكَتْبه عبـدُ الله أبو جعفرٍ عبـد الله الإمامُ القـائم بأمر الله أميرُ المؤمنين ، لعَبْد يَشُوعَ الجاثَلِيق القَطْرَك .

أما بعـدُ ، فالحمدُ لله الواحدِ بغَير ثانٍ ، القديم لا عَنْ وُجُودِ زَمانٍ ، الذي قَصُرت صنيعة الأوهام ، عن إدراكه وحارَتْ ، وضَلّتْ صـنيعة الأفهام ، عن بُلُوغ مَدَى صِـفاته وحالَتْ ، المتنزّه عن الوَلَد والصاحبة ، العاجزة عن إحاطة العـلم به دلائلُ العقُول الصافيَة الصائبـة ، ذي المَشيئة الخاليَـة بالمَضاء ، والقُدْرة الجـارِيَة عليها تصاريفُ القَـدَر والقضاء ، والعظمة الغَنِيَّـة عن العَوْن والظَّهير ، المتعالي بها عن الكُفْء والنظير ، والعِزّة المكتَفية عن العَضُـد والنصـير ، ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ .

والحمدُ لله الذى آختارَ الإسلامَ دِينا وآرْتضاه، وشَامَ(١) به عَضْبَ الحقِّ علىٰ الباطل وآنتضاه، وأرسل محمّدا ــ صلىٰ الله عليه ــ مُنقِذا من أشراك الضَّلَّة، وكاشفًا عن الإيمان ماغمَره من الإشراك وأظلَّه، وبعثه ماحيًا أثرَ الكُفْر من القلوب والأسماع، وناحيًا فى آتِّباع أوامره ماجَدّ فى البِدار إليه والإسراع، وأدّىٰ ماحُمِّله أحسنَ الأداء(٢)، وداوىٰ بمُعجز النبوّة من النفوس مُعْضِل الداء، ولم يزَلْ لأعلام الهدىٰ مُبينا، ولحبائل الغَىِّ حاسمًا مُبينا، إلىٰ أن خلَص الحقُّ وَصَفا، وغدا الدِّينُ من أضداده متَصِفا، وآتّضح لحائرٍ سَنَنُ الرَّشَد، وآنقاد الأبِىُّ باللِّين والأَشَد، فصلّىٰ الله عليه وعلىٰ آله الطاهرين، وأصحابه المنتخَبين، وخُلفائه الأئمة الراشدين، وسلّم تسليما .

والحمد لله الذى آستخلص أميرَ المؤمنين من أزكىٰ الدَّوْحة والأَرُومه، وأحلّه من عزّ الإمامة ذِرْوةً للمجد غيرَ مَرُومه، وأصار إليه من تُراث النبوة ماحَوَاه بالاستحقاق والوُجُوب، وأصاب به من مَرامى الصّلاح ماحُميت شُموسُه من الأُفول والوجُوب، وأوْلاه من شَرَف الخلافة ما آستقدَم به الفخرَ فلبّى، وآستخدَم معه الدهرَ فما تأبّىٰ، ومنح أيامه من ظهور العدْل فيها وآنتشاره، ولَقَاح حَوامِل الإنصاف فيها ووَضْع عِشاره، مافضَل به العُصُورَ الخاليَه، وظلّت السِّيرُ متضمِّنةً من ذكرها ماكانت من مثله عاريةً خاليَه، وهو يستَديمُه ــ سبحانه ــ المَعُونةَ علىٰ مايُقرِّب لدَيْه ويُزْلِف عنده، ويستمدُّه التوفيقَ الذى يغدُو لعزائمه الميمُونة أوفىٰ العَضُد والعُدّه، وما توفيقُ أمير المؤمنين إلا بالله عليه يتوكَّلُ وإليه يُنِيب .

(١) شام السيف شيا سله .

(٢) فى الأصول وأدل ... ... الادلاء . وهو تصحيف كما لايخفىٰ .

وأميرُ المؤمنين مع ماأوجب الله تعالى عليه من آختصاص رَعاياه [بالمواهب] التي يَمُدّ عليهم رُواقَها، ويَرُدّ بها إلى أغصان صَلاحِهم أوراقَها ؛ ويُلقِي على أجيادهم عُقُودها ، ويَقِي رياحَ آئتلافهم رُكُودَها ، يرى أن يُولِيَ أُولِي الآستقامة من أهل ذِمّته ضُروبَ الرأفة وصُنوفَها، وأقسامَ العاطفة الدافعة عنهم حوادثَ الغِيَر وصُروفَها؛ بمقتضى عُهُودِهم القوية القُوَى، وأذِمّتِهم(١) التي يلزمُ أن يحافِظَ عليها أهلُ العدل والتقوى؛ ويعتمدَهم من الضَّرر الغامر ، والإجمامِ المُضاهِي الآنفُ منه الغابر؛ بمـا يَقبِض يدَ الضَّيم وكَفَّه، وأن يحُوطَهم من الحِياطة بما يحرُس رُسومَهم المستمِرّة من أسباب الآختلال ، ويُجْرِيَهم فيها على ماسَنّه السلفُ معهم من مألوف السَّجايا والخِلال .

ولـمـا أُنهِيَ إلى حضرة أمير المؤمنين تميزُك عن نُظَرائك ، وتَحلِّيك من السَّداد بمـا يستوجِبُ معه أمثالُك المبالغةَ في وصفك وإطرائك ؛ وتَخصُّصك بالأنحاء التي فُتَّ فيها شأوَ أقرانك، وأفَدْتَ بها ماقصَّر معه مُساجِلُك من أبناء جِنْسك أن يعدلَك في ميزانك ؛ وما عليه أهلُ نِحلتك من حاجتهم إلى جاثليق كافلٍ بأُمورهم، كافٍ في سياسة جُمهورهم، مستقلٍّ بما يلزمه القيامُ به، غيرِ مُقِلٍّ بمـا يتعيّن مثلُه في أدوات مَنْصِبه؛ وأنّ كُلًّا ممن يُرْجَع إليه منهم لمّـا تصفّح أحوالَ متقدّمي دينهم وآستشَفّ، وأعمل الفكرَ في آختيار الأرجَح منهم والأشَفّ ، وآتفقوا من بعدُ على إجالة الرأي الذي أفاضُوا بينَهم قِداحَه، وراضُوا به زَنْدَ الآجتهاد إلى أن أورَى حين راموا آقتِداحَه ، فلم يُصادِفُوا مَنْ هو بالرياسة عليهم أحقُّ وأحْرَى ، وللشروط الموجِبة التقديمَ فيهم أجمعُ وأحْوى ، وعن أموال وُقُوفهم أعفُّ وأورَع ، ومن نفسه لداعي التحرّي فيها أطْوعُ وأتبَع ، منك . اختارُوك لهم راعيًا ، ولِمـا شَذّ نِظامَهم ملاحظا

(١) جمع ذمام بالذال المعجمة وفي اللسان الذمام والمذمة الحق والحرمة .

مُراعيا، وسألوا إمضاء نَصّهم عليك والإذنَ فيه ، وإجراءَ الأمر فيما يخُصُّك أسَدَّ مجاريه ، وترتيبَك فيما أُهّلت له وحُمّلتَ ثِقله ، وآختصاصك على من تقدّمك من الأضراب ، بمزيد من الإرعاء والإيجاب ، وحملك وأهل نحلتك على الشروط المعتاده ، والرسوم التى إمضاءُ الشريعة لها أوفى الشهاده ــ رأى أميرُ المؤمنين الإجابةَ إلى ماوُجّهت إليه فيه الرّغبه ، وآستخارة الله تعالى فى كل عزم يُطلق شَباه ويُمضى غَربه ، مقتديا فيما أسداه إليك ، وأسناه من أنعُمه لديك ، بأفعال الأئمة الماضين ، والخلفاء الراشدين ، صلواتُ الله عليهم أجمعين ، مع أمثالك من الجثالقة الذين سَبَقوا ، وفى مقامك آتّسقوا ، وأوعز بترتيبك جاثليقًا لنُسطور النّصارى بمدينة السلام وسائر البلاد والأصقاع ، وزعيمًا لهم وللرُّوم واليَعاقبة طُرّا ، ولكلّ من تحويه ديارُ الإسلام من هاتين الطائفتين ممّن بها يستقِرّ والبهاطِرا ، وجعل أمرك فيهم ممتثلا ، وموضعك من الرِّياسة عليهم متأثّلا ، وأن تنفرد بالتقدّم على هذه الطوائف أجمع : ليكونَ قولك فيما يجيزه الشرعُ فيهم يُقبَل وإليك فى أحوالهم يُرجَع ، وأن تميز بأهبة الزّعامة ، فى مجامع النصارى ومُصَلّياتهم عامّةً ، من غير أن يَشركك فيها أو يشاكلك فى النِّسبة الدالة عليها مَطرانٌ أو أُسقُف للروم أو اليَعاقبة : لتغدُوَ شواهدُ ولايتك بالأوامر الإمامية باديةً للسامع والناظر ، وآثارُ قُصورهم عن هذه الرُّتبة التى لم يبلُغوها كافّةً للمُجادل منهم والمُناظر ، ومُنِعوا بأسْرهم عن مساواتك فى كلّ أمر هو من شُروط الزّعامة ورُسومها ، والتزيّى بما هو من علاماتها ووُسومها ؛ إذ لاسبيلَ لأحدهم أن يمُدّ فى مُباراتك باعه ، ولا أن يخرُج عن المُوجَب عليه من الطاعة لك والتِّباعه ؛ وحَمْلك فى ذاك على مايدُلّ عليه المنشورُ المنشأُ لمن تقدّمك ، المُمضَى لك ولكلّ من يأتى بعدَك ، المُجدّدُ بما حواه ذِكْرُ ما نطقتْ به المناشيرُ المقرّرةُ فى أيام الخلفاء الراشدين ، صلواتُ الله عليهم أجمعين ، لمن تقدّمك فى مَقامك ، وأحرزَ سبْقَ مَغزاك

ومرامك : من كون المنصوب فى الخلقة إليه الزعامة على ما تضمه ديار الإسلام من هذه الفرق جمعا ، والمنصوص عليه فى التقدم الذى ليس لغيره من رياضه مرعى ؛ وتقدم أمير المؤمنين بحياطتك وأهل نحلتك فى نفوسكم وأموالكم وبيعكم ، وديارکم ومقار صلواتكم وحراسة أموالكم ، وآعتادكم بأقسام الكلاءة على أجمل الرسم معكم ؛ وأن تحموا من نقض سنة رضية قررت لكم ، ودحض وتيرة حميدة آستعملت فى فرضكم ؛ وأن تقبض الجزية من رجالكم ذوى القدرة على أدائها بحسب ما جرت به عاداتكم دون النساء ومن لم يبلغ الحلم دفعة واحدة فى السنه ، وتجروا فى ذلك على السجية التى تناقلها الرواة وتداولتها الألسنه ، من غير تثنية ولا تكرير ، ولا ترنيق لمنهل المعدلة عندكم ولا تكدير ، وأن تحمى بالشد دائما وتقوية يدك على من نصبته فى أمورهم ناظرا ولشملهم ناظما ، ويفسح لك فى فصل ما يشجر بينهم على سبيل الوساطه ؛ لتقصد فى ذاك ما يحسم دواعى الخلف ويطوى بساطه ؛ وأن تمضى تشقيقك لهم وأمرك فيهم ، أسوة ما جرى عليه الأمر مع من كان قبلك يليهم ؛ لتحسن معه السيرة العادلة عليهم بحفظ السوام(١) ، المطابقة للشروط السائغة فى دين الإسلام .

وأمر بإنشاء هذا الكتاب مشتملا على ما خصك به ، وأمضى أن تعامل بموجبه ؛ فقابل نعمة أمير المؤمنين عندك بما تستوجبه من شكر تبلغ فيه المدى الأقصى ، ونشر لا يوجد التصفح له عندك قصورا ولا نقصا ؛ وواظب على الآعتراف بما أوليته من كل ما جملك ، وصدق ظنك وأملك ، وآسترد الإنعام بطاعة تطوى عليها الجوانح ، وأدعية لأيامه تتبع الغادى منها بالرائح ؛ وتجنب التقصير فيما بك عدق ، وإليك وكل وعليك علق ، وآحتفظ بهذا الكتاب جنة تمنع عنك ريب الدهر وغيره ،

(١) لعله العائده . تأمل .

وحجّة تحمل فيها على ما يَجِي مأمنحته من كل ماشمته (؟) وغيره ؛ وليَعمل بهذا المثال كافّة المطارنة والأساقفة والقسيسين ، والنصارى أجمعين ؛ وليعتمدوا من التّباعة لك ما يستحقّه تقديمك على الجماعه ، وليثقوا بما يغمرهم من العاطفة الحامية سربهم من التفريق والإضاعه ، إن شاء الله تعالى .

وكتب فى شهر ربيع الأوّل سنة سبع وستين وأربعمائة .

الطــــرف الرابـــــع

(فيما كان يكتب عن مدّعى الخلافة ببلاد المغرب والأندلس)

وكانوا يعبّرون عمّا يُكتَب من ذلك بالظّهائر والصّكوك : فالظهائر جمع ظهير ، وهو المُعين ، سمّى مرسوم الخليفة أو السلطان ظهيرًا لما يَقع به من المُعاونة لمن كُتِب له . والصّكوك جمع صَكّ وهو الكتاب ، قال الجوهرى : وهو فارسىّ معرّب والجمع أصُكّ وصِكاك وصُكوك ؛ ثم تحامى المتأخرون منهم لفظ الصّكّ ، لما جرى به عُرْف العامّة من غَلَبة استعماله فى أحد مَعنيَى الاشتراك فيه وهو الصّفع ؛ واقتصروا على استعمال لفظ الظّهير .

ولذلك حالتان :

الحـــالة الأولى

(ما كان الأمر عليــه فى الزمن القـــديم)

واعلَم أنه لم يكن لهم مصطلح يَقِفون عنـد حدّه فى الابتداءات ، بل بحسَب ماتقتضيه قريحة الكُتّاب ؛ فتارةً يبتدأ بلفظ : « من فلان إلى فلان » أو « من فلان إلى أهل فلانة » أو « إلى الأشياخ بفلانة » أو « يَصِلكم فلانٌ بهذا الكتاب » .

وتارة يبتدأ بـ«أما بعد حمد الله» . وتارة يبتدأ بلفظ «تقدّم فلان بكذا» . وتارة يبتدأ بلفظ «مكتوبنا هذا» وغير ذلك مما لا يحصر .

فمن الظّهائر المكتَتَبة لأرباب السُّيوف عندهم، ما كُتِب به بولاية ناحية، وهي :

من فلانٍ إلى أهل فلانة أدام الله لهم من الكرامة أتمّها ومن الرِّعاية أوفاها ، وأسبغ عليهم بُرودَ نِعَمِه الجزيلةِ وأضفاها .

أما بعدَ حمد الله ميسّر أسباب النّجاح، ومُسَنّي مَرامِ الرّشاد والصّلاح، والصلاة على سيدنا محمد رسوله نبيّ الرحمة والرِّفق والإسْجاح(١)، وعلى آله وصحبه المتّصفين بالقوة في ذات الله تارةً وتارةً بخفض الجَناح، والرِّضا عن الخليفة أمير المؤمنين ذي الشّرف الذي لم يزل بالهُدَى النبوي متوقّد المِصْباح، والدعاء للمقام الإماريّ بالنصر الذي يُؤْتِي مَقاليدَ الأفتاح، والتأييد الماضي حَدُّ رُعْبِه حيثُ لا يمضي غِرارُ المهنّد وشَبا الرِّماح — فإنّا كتبناه إليكم — كتَب الله لكم سُكونَ الأرجاء وهُدوَّها، وأجرى لكم بالصّلاح رَواحَ الأيّام وغُدوَّها «من فلانة» وللدّولة العليّة بركاتٌ تُكاثِرُ السُّحب في انْسكابها وانْسجامها، وتقودُ الخيراتِ والمسَرّات في كلّ أوْبٍ بزِمامها، والحمدُ لله حمدا يقضي بوُفور جزيلات النّعم وجِسامها .

وإنّ الاهتمامَ بكم لمستَحِقٌّ على كلّ غرضٍ جميل ، ومقدَّمٌ فيما يُحظيكم بكلّ بُغْية وتأميل ، وبحسَب هذا لا يزالُ يختارُ لكم من الوُلاة كلَّ مختارٍ منتخَب ، ولا يُقدّم عليكم إلّا مَنْ ينتهي إلى أثيلِ حسَبٍ وكريمِ منتَسَب ، ولا يزال يُداوِل موضعكم بين كلّ طريقة تتّصل من حُسْن السِّيَر وسَداد النظر بأمتن سبَب ، وعلى هذا الأصل استخَرْنا الله وهو المستَخار ، والذي يقضي ما يشاءُ ويختار ، في أن قدّمنا عليكم ،

(١) الإسجاح حسن العفو .

ووَلّينا للنظر فيما لديكم، مَنْ له التقدّم فى الإقدام، والاضْطِلاعُ الثابتُ الأقدام، وذلك فلان. وآثرْنا كم به اعتناءً بجانبكم واحتِبالا[1]، وخصصْنا كم منه بمن يُفسِح فى كل أثر حميدٍ مجالا، والمعتقدُ فيه أن يعمَل على شاكلته بنَباهة مكانه، وأن يبذُل فى الانتهاض والاكتفاء غايةَ وُسعه وإمكانه؛ وعليه أن يُلازِم تقوى الله العظيم فى سِرّه وعَلَنه، ويجْرِى على سبيل العَدْل وسَنَنه، ويُشمِّر عن ساعده فى الدِّفاع عن أحوازكم كُلَّ التشمير، ويأخُذ على أيدى أهل التعدّى أخذًا يقضِى على الفَساد وأهله بالتّتبير، ويقصِدَ بكم سديدَ السَّعْى ورشيدَ الرأْى فى الدقيق والجليل والصغير والكبير، ويُسوِّىَ فى الحق بين الحافِل والتافِه والغنِىّ والفقير؛ وعليكم أن تسْمَعُوا وتُطيعوا، ولا تُهمِلوا حقَّ الامتثال والائتمار ولا تُضيعُوا؛ وأن تكونوا يدَه التى تَبْطِش، وأعوانَه فيما يُحاوِل من مستوْفِى المساعِى المرضيّة ومستوعِبِها، وأن تتعاوَنوا على التقوى والبِرّ، وتقِفُوا له عند النهى والأمر، وتجتهِدُوا معه فى مصالحكم كلَّ الاجتهاد، وتعتَمِدُوا على مارسمْناه لكم أتمَّ الاعتماد؛ وستَجِدُون من مُوالِيكم ـ إن شاء الله ـ مايوافقُ الظّنَّ به، ويلائِمُ العملَ بحسَب حَسَبه؛ إن شاء الله تعالى والسلام.

* * *

ومنها ما كُتِب به فى ولايةِ ناحيةٍ أيضا، وهى:

من فلان إلى أهل فلانةَ أدام الله تعالى كرامتهم بتقواه، وعرّفهم أحقَّ النظر بمصالحهم وأحْراه.

وبعدُ، فإنّا كتبْناه لكم ـ كتب الله لكم أحوالا متّصلةَ الصّلاح، حميدةَ الاختتام والافتتاح ـ من فلانةَ ونِعَمُ الله سبحانه موفُورةُ الأقسام، صَيِّبةُ الغَمام؛ وقد اقتضى

(١) أى اشتغالا بشأنكم من قولهم احتبل حبلك أى اشتغل بشأنك انظر اللسان ج ١٤ ص ٢١٢.

ما نتوخّاه من الاحتيـاط على جوانبكم ، ونعتمده من الإيثـار لكم والاعتناء بكم ؛ أن تختير للتقديم عليكم من نعلم منه الأحوال المرضيّة حقيقه ، وتحمد سيره فيما يحاوله وطريقـــه .

ولمـا كان فلان ممن حمدت مقاصده ، وشكرت فى المحاولات الاجتهاديّة عوائده ؛ وحسنت فيما نصرّفه فيــه مصادره وموارده ، رأينا والله القاضى فيما نذره ونأتيــه ، بالتوفيق الذى يكون به انقيـاد النّجح وتأتّيــه ، أن نقدّمه لحفظ جهاتكم ، وتأمين أرجائكم وجنباتكم ؛ ووصّيناه أن يجتهد فيما قلّدناه من ذلك كلّ الاجتهاد ، وينتهض فى إذهاب الشرّ وإرهاب أهـل الفساد ؛ وبأن يسلك فيما يتولاه من الأحكام سنن الحق ، ويجرى على سبيل العدل والرّفق ؛ ويدفع أسباب المظالم ، وينصف المظلوم من الظالم ؛ فإذا وافاكم فتلقّوه بنفوس منبسطه ، وعقائد على العمل الصالح مرتبطه ؛ وكونوا معه على تمشية الحق يدًا واحده ، وفئةً فى ذات الله متعاونةً متعاضده ؛ بحول الله سبحانه .

* * *

ومنها ما كتب به بإعادة وال إلى ناحية ، وهى :

وإنا كتبناه إليكم ـ كتبكم الله من المتعاونين على البر والتقوى ، وأعلقكم من طاعته بالحبل الأمتن الأقوى ـ من فلانة : والذى نوصيــكم به تقوى الله تعالى والعمل بطاعته ، والاستعانة به والتوكّل عليه ؛ وقد صرفنا إليكم فلانا بعد أن أقام هنا شاهدًا مشاهد للتعلم نافعــه ، مباشرًا من المذاكرة فى الكتاب والسّـنّة مجالس ضامنةً لخير الدنيـا والآخرة جامعه ؛ مطالعًا لأحوال الموحّدين أعزهم الله فى مآخذهم الدينيّه ، ومقاصدهم المحبيّة لمـا درس من الملّة الحنيفيّه ؛ فنال بذلك كلّه خيرًا كثيرا ، وأحرز به

حظًّا من السعادة كبيرا، وظفر منه بما يكونُ له فى كل ماينظُر فيه سراجًا مُنيرا؛ وقد أعدْناه إلى الشُّغُل الذى كان يتولّاه بجهتكم حرسها الله ، ووصَّيْناه بتقوى الله تعالى الذى لا يَطّلِع على السّرائرِ سِواه؛ وأن يكونَ بما شاهدَه مما تقدم ذِكْرُه مقتديا، وبأنوارِه الساطعةِ التى لايَضِلُّ من آهتدى بها مُهْتديا؛ ولا يستنِدُ فى شىء من أحكامه إلى من لايَقُوم على عصمته دليل ، ولا يُجعل إليه تحريمٌ ولا تحليل ؛ فأعينُوه ـ وفقكم الله ـ على تمشيةِ هذه المقاصد الكريمة أكْرَمَ إعانه ، وآسلُكوا من مُظاهَرته على الحق ومُوازَرته على المَسالكِ التى تستبِينُ هنالِكُم أتمَّ آستِبانه؛ إن شاء الله تعالى .

***

ومن الظهائر المكتتَبة بالوظائف الدينيّة ما كُتِب به فى ولاية قاضٍ، وهو :

أما بعدَ حمدِ الله رافعِ عَلَمِ الحقّ لمن آهتدى ، وواضعِ مِيزانِ القِسْط بالشريعة المحمديّة الآخذةِ بالحُجَز عن مَهاوِى الرّدى؛ ومؤيّد الدّين الحنيفىّ بمن آرتضى لتحديد حُدُوده وتجديد عهوده وهدى . والصلاةِ على سيدنا محمد نبيّه الكريم الذى أرسلَه إلى الناس كافّةً غيرَ مستثنٍ عليه من الخَلْق أحدًا؛ وعلى آله وصَحْبه الذين سلكُوا فى نَصره وإظهار أمْرِه جَدَدا . والرضا عن الخليفة أمير المؤمنين العباسىّ الأطيب عُنصُرا ومَحْتِدا ، فإنا كتبناه إليكم ـ كتبكم الله ممن آعتزّ بطاعته وتقْواه، وآعتصمَ من حَبْله المتينِ بأوثقه وأقواه ـ من فلانة وفضلُ الله سبحانه مديدُ الظِّلال ، وتوكُّلُنا عليه ـ عز وجهُه ـ ظهيرُنا المعتمَدُ به فى كلّ حال ، وعمادُنا الذى نقدِّمُه فيما نُدَبِّره من الأعمال؛ وأنكم من عنايتنا، وموصُول رعايتنا ، لَبِالمحلّ الأدنى ؛ ومن خاصّ

نظرنا واهتمامنا لمن تكفف بشأنه كلّه ونُعنَى، ونعتمـد من ذلك بالأحسن فالأحسن بجزاء الذين أحسنوا الحسنى .

وقد علمتم ـ وصـل الله كرامتكم ـ أن الأحكام الشرعيّة هى ملاك الأمور ونظامها ، وعليها مدار الأعمال الدينيّة وبها تمامها ؛ وأنه لا يصلح لهـا إلا من تجرد عن هواه، وآثر الحق على ماسواه، واتّبع حكم نبيّه ـ عليه السلام ـ فى كلّ ماعمله ونواه ، وتجمّل بالدّراية وحمل الرّواية فكانتا أظهر حلاه ؛ واتّسم بالعدل والاعتدال فيما وليه من ذلك أو تولّاه، وكان ممن أطلق الحقّ لسانه وقيّد الورع يمناه؛ وقد أمعنّا النظر فيمن له من هـذه الأوصاف أوفى نصيب ، ومن إن رمى عن قوس نظـره الموفّق كان سهمه المسـدّد مصيب : لنخصّكم به قاضيا فى هذه الأحكام، ونقدمه للفصل بينكم فى القضايا الشرعية حكما من صالحى الحكّام، فرأينا أهلا لذلكم وعلا من اختبرت على [النّهج] القويم أحواله ، وارتضيت فيما نيط به من ذلك أعمـاله وأقواله ، وشهد له الاختبار بالانكفاف عن كل سابق وغائب (١) ، وعن ارتكاب الثنيّات إلى السّنن اللاحب ، وذلكم « فلان » أدام الله كرامته وتوفيقه ، ويسّر إلى مسالك النّجاة مسلكه وطريقه ؛ فأنفـذناه إليكم حكمًا مرضىّ السّـير ، وافر الحظّ من المعارف المصوّرة للحقّ فى أجمل الصّور ، مكتفيا بمـا لديه من استقامة الأحوال عن الوصايا ماخلا التذكير والتنبيه ، والوصية بتقوى الله فهى التى تعصم العامل بها وتنجيه ؛ فقد وصّى بها الله من اختاره من خلقه لإقامة حقّه وارتضاه، فقال تعالى : ﴿ ولقد وصّينا الّذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإيّاكم أن اتّقوا الله ﴾ . فتلقوه ـ أدام الله كرامتكم ـ بنفوس منبسطه ، وقلوب مبتهجة مغتبطه ، وأهواء على التظافر

---

(١) لعله عن كل شائن وعائب . تأمل .

والتناصر فى الحق مجتمعة مرتبطة ، وتعاونوا فى ذات الله على الطاعة ، وكونوا فى سبيل الله يدا واحدة فيد الله مع الجماعة ، واستعينوه سبحانه على الخير يعنكم ، واشكروا الله يؤتكم خيرا مما أخذ منكم ، وهو سبحانه يتولاكم بالحفظ الشامل ، ويستعملكم من طاعته وسلوك سبيل مرضاته بأنجى ما استعمل به عامل ، والسلام .

✦ ✦ ✦

ومنها ما كتب به أبو الحسن الرعينى فى ولاية قاض ، وهى :

من فلان إلى الأشياخ بفلانة أدام الله كرامتهم بتقواه ، واستعملهم فيما يحبه ويرضاه .

أما بعد ، فإنا كتبناه إليكم ـ كتب الله لكم حسناه ، وأوزعكم شكر ما خولكم من نعماه ورحماه ، ومن مقاصد هذا الأمر العزيز ـ أدامه الله ـ ما يعلى يد الحق ويسميها ، ويسدد سهام العدل إلى أغراضها ومراميها ، ويتكفل بالجزاء لمن لاذ بأكناف الطاعة ونواحيها ، والحمد لله على نعمه التى لا نحصرها ولا نحصيها .

وإلى ذلكم فإن فلانا لما تمكنت الثقة بجميل صفته ، واستنامت البصيرة إلى استحكام سنه ومعرفته ، وقد كان تقدم له من خدمة الأمر وأوليائه ما نجده[1] مع الأيام ونخرجه ، وخصصه من كريم الاستعمال بما استدناه إلى مراقى الذكاء واستدرجه ، رأينا ـ والله المستعان ـ أن نقدمه للنظر فى قضاياكم الدينيه ، وأحكامكم الشرعيه ، بعد أن وصيناه بتقوى الله فقدمها ، وعرضنا عليه ما يعلمه ويلزمه من شروط الحكومة فالتزمها . فلينهض إلى ما قدمناه على بركة الله تعالى

(١) فى الأصل أنجده بالهمز وهو غير مناسب .

مشمّرا عن ساعد الحزم، آخذًا فى كافّة أموره بما يأخذه أولو العزم، جاريًا على السَّنن الواضح المعروف، مسوّيًا فى الحق بين النّبيه والخامل والشريف والمشروف، محتسبا على إقامة فروض الدّين أكرم احتساب، مكتسبا من الأجر فى ردع الظّلم والباطل أفضل اكتساب، راجيًا فى تمشية العدل على رغم من أباه ما يرجو المؤمن المحقق من زُلفى وحُسن مآب، ولدينا من عقده على ذلك ما يحسّن مقصده، ويمكّن فى بسطة الحقّ مقعده، فإذا وافاكم فاستبشروا بموافاته، وقفوا عند ما يمضيه من لوازم الشّرع وموجباته، وتعاونوا على الخير تعاونًا يُجزل حظّكم من فضل الله وبركاته، فهو المؤمّل فى ذلك لا ربّ سواه .

ومن الظهائر المكتتبة بالوظائف الدّيوانيــة ما كتب به أبو المطرِّف بن عميرة بولاية وزارة، وهو :

مكتوبنا هــذا بيد فلان أدام الله علاءه، وحفظ عنايته وغناءه، يجد به مكان العزّة مكينا، ومورد الكرامة عذبا معينا، وسبيل الحُرمة المتأكدة واضحا مستبينا، ويتقلّد وزارتنا تقلّد تفويض وإطلاق، ويلبس ما خُلع عليه منها لِبسة تمكّن واستحقاق، وينزل من رتبتها العليا منزلة شرفُها ثابتٌ وحماها باق، ويسوّغ الدار المخزنية التى يسكنها بفلانة تسويغا يملّكه إيّاها أصحّ تمليك، وينفرد فيهــا من غير تشريك، إن شاء الله تعالى والسلام .

ومنها ما كتب به أبو عبد الله بن الأبّار فى مشارفة ناحية، وهو :

عن إذْن فلان، يتقدّم فلان للنّظر فى الأشغال المَخْزَنية بفلانة، مُوَفّيا مايجبُ عليه من الاجتهاد والتّشمير، والجدّ الذى ارتسم فى الإنماء والتّثمير، مصدّقا ماقُدّر فيه من الانتهاض والاستقلال، وقُرّر عنه من الأمانة التى رشّحته وأهّلته لأنْبَه الأعمال، جاريا فى ضبط الأمور المَخْزَنيّة والرّفق بجانب الرعيــة على المقاصد الجليلة والمذاهب المرضيّة فى عامّة الشّئون والأحوال، عاملاً بما تقدّمت به الوصيّة إليه، وتأكّدت الإشارةُ [به] عليه، من تقوى الله فى السرّ والعلَن، عالمــا أنّ المرءَ بمــا قدّمته يداه مُرْتَهَن .

• • •

ومنها ماكُتب به المذكور بإعادة مشارف إلى ناحية، وهو :

يُعادُ بهذا المكتوب فلانٌ إلى خُطّة الإشراف بفُلانة : رافلا من ملابس التّكرمة والحُظْوة فى شُفُوفها، مُخلّى بينه وبين النظر فى ضروب الأشغال المَخْزَنية وصُنُوفها ؛ فهو المعروفُ بالكفاية والاجتهاد، الموصوفُ بحُسْن الإصدار والإيراد، وأولى الناس بالتزام النّصيحه، والازدياد من بضائع الأعمال الرّبيحه ؛ مَنْ كثُرت النّعمُ السلطانيّةُ لديه، ودُفع إلى الخُطَط ودُفعت إليــه . فليتقلّد هــذه الخُطّة بحقّها من الانتهاض والتشمير، وتأدية الأمانة بالإنمــاء والتّثمير، وليتزوّدْ تقوى الله تعــالى ليوم يُسْأل عن النّقير والقِطْمير، جاريا فى أموره كلّها على الطريقة السّويّه، جامعا بين الاحتياط للمَخْزَن(١) والرّفق بالرعيّــه، غيرَ عادلٍ فى حالٍ من الأحوال وفنّ من فُنون الأعمال عن مقتضى هذه الوصيّه، إن شاء الله تعالى .

---

(١) المخزن بفتح الزاى مايخزن فيه الشىء .

الطـــرف الخـامس

(فيما كان عليه الأمرُ فى الدولة الفاطمية بالديار المصريّة)

وقد تقدّم فى الكلام على ترتيب المملكة أنه كان بها من وظائف أرباب السُّيوف الوِزَارةُ إذا كان الوزيرُ صاحبَ سيْف ، والنظرُ فى المَظَالم ، وزَمّ الأقارب ، ونِقابةُ العَلَوِيّين ، وزَمُّ الرجال والطوائف : كالأُمَويّة ، والحافظيّـة ، والأفضلية ، وغيرِهم ممّن تقـدّم ذكْرُه فى ترتيب دَوْلتهم ، ووِلايةُ الشُّرطة ، وولايةُ المَعَاون والأحْداث ، وولايةُ الحِمَاية ، وولايةُ حفْظ الثُّغور ، والإمارةُ على الحجّ ، والإمارةُ على الجهاد ، وولايةُ الأعمال ، وغير ذلك . ومن الوظائف(١) قضاءُ القُضاة ، والدعوةُ إلى مذْهبهم ، والنظرُ فى الأوقاف والأَحْباس ، والنظرُ فى المساجد وأمرِ الصـلاة ، وغير ذلك .

وكانتْ كتابةُ مايُكْتب لَدَيْهم لأرباب الولايات على نوعين :

النـــــوع الأوّل

(ما كان يكتَبُ به عن الخليفة نفســه)

وكان من شأْنِهم أنهم يتعرّضُون فى أثناء الوِلاية لإشارة الوزير بتولِيَة المُوَلَّى وثنائه عليه ، ورُبّمـا أهملُوا ذلك . وكانوا يُسَمُّون جميعَ مايكتَبُ من ديوان الإنشاء سِجِلّات ، ورُبّمـا سَمّوه عهُودا ؛ وعليـه يدُلّ ما كتبه العاضدُ آخرُ خلفائهم فى طُرّة سِجِلّ السـلطان صلاح الدّين بالوِزارة : « هذا عهدٌ لاعَهْدَ لوزير بمثله » على ماتقدّم ذكره فى الكلام على عُهود الملوك .

ولهم فيهـا أربعة مذاهـب :

---

(١) لعله «ومن وظائف أرباب الأقلام قضاء» الخ فتنبه .

المذهب الأول

(أن يفتتح ما يكتب في الولاية بالتصدير)

وهو «من عبد الله ووليّه فلانٍ أبي فلان الإمام الفلاني أمير المؤمنين، إلى فلان ابن فلان» بالألقاب المنعوت بها من ديوان الخلافة، ويُدْعَى له بدعوتين أو ثلاث، ثم يقال: «سلامٌ عليك فإنّ أميرَ المؤمنين يَحْمَدُ إليك الله الذي لا إلهَ إلا هو، ويسأله أن يصلّيَ على جدّه محمد صلّى الله عليه وسلم وعلى أخيه وابن عمّه أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب» ويُؤْتَى من وَصْف الخليفة ومَدْحه بما يُناسب المَقام.

ثم هو بعدَ ذلك على ثلاثِ مراتبَ:

المرتبة الأولى

(أن يقال بعد التصدير المقدّم «أما بعدُ فالحمدُ لله»)

ويؤتَى من التحميد بما يُناسبُ تلك الولايةَ، ثم يؤتَى بتحميدةٍ ثانيةٍ وثالثة، وتكونُ الثالثةُ متعلّقةً بالنِّعم الشاملةِ لأمير المؤمنين، ثم يقال: «وإنَّ أميرَ المؤمنين لَمّا آختصَّه اللهُ به من كذا وكذا» ويذكر ماسَنَح من أوصاف الخليفة، ويذكر أنه تَصَفَّح الناسَ وسَبَرهم فلم يجدْ من يَصْلُح لتلك الوِلايةِ إلّا هو، ويذكر من صفته ما آتّفق ذكْرُه، ثم يذكر تفويضَ الوِلاية إليه، ويُوصيه بما يُناسب، ويختِمُ بالدعاء ثم بالسلام مع التفنُّن في العبارة، وآختلافِ المعاني والألفاظ، والتقديم والتأخير بحسبِ ماتقتضيه حالُ المُنشئ، وتؤدي إليه قريحتُه.

وهي على ضربين:

الضـــــرب الأوّل

(سجــلّات أرباب الســيوف(١))

وعلى ذلك كُتُبُ سجلّات وُزَرائهم أصحاب السيوف القائمين مَقام السلاطين الآن، من لَدُنْ وزارة أمير الجيوش بَدْر الجَمالى: وزير المستنصِر: خامس خلفائهم وإلى آنقراض دولتهم . وقد تقدّم منها ذكر عهدَى المنصور: أسد الدين شِيركُوه آبن شادِى، ثم آبنِ أخيه الناصر صلاح الدين يوسفَ بن أيُّوب بالوزارة عن العاضد فى جملة عُهُود الخلفاء والملوك، حيث أشار فى "التعريف" إلى عدّهما من جملة عهود الملوك .

ومن أحسَنِها وصْفا، وأبْهَجِها لفظا، وأدَقِّها معنى، ما كُتب به الموفّق بنُ الخَلّال صاحبُ ديوان الإنشاء عن العاضد المتقدّم ذكره، بالوزارة لشاوَر السَّعْدِىّ، بعد أن غلبه ضِرْغام عليها ثم كانت له الكَرّة عليه . وهذه نسختُه :

من عبد الله ووليّه عبد الله أبى محمد العاضدِ لدين الله أمير المؤمنين، إلى السيِّد الأجلّ، سلطانِ الجُيُوش، ناصرِ الإسلام، سيفِ الإمام، شرَفِ الأنام، عُمْدةِ الدِّين، أبى فلان فلان .

سلامٌ عليك: فإنّ أميرَ المؤمنين يحمَدُ إليك اللهَ الذى لا إلٰهَ إلّا هو، ويسألُه أن يصلّىَ على جدّه محمد خاتم النَّبيين، وإمامِ المرسَلين، صلّى الله عليه وعلى آله الطاهرين الأئمة المهديِّين، وسلّم تسليما .

أما بعدُ، فالحمدُ لله مانحِ الرغائب، ومُنيلِها، وكاشفِ المَصاعِب، ومُزيلِها، ومُذِلّ كلِّ عُصْبة كَلِفَتْ بالغَدْر والشِّقاق ومُذيلِها . ناصرِ من بُغِىَ عليه، وعاكس

(١) لم يترجم فيما يأتى للضرب الثانى وهو سجلات أرباب الأقلام وإن كانت قد ذكرها ضمن المراتب الثلاث الآتية فتنبه .

كَيْد الكائد إذا فَوّق سَهْمَه إليه، ورادّ الحقوق إلى أربابها، ومرتجِع المراتب إلى مَنْ هو أجدر بُرقِيّها وأولى بها، ومُسَنِّي الخير بتيسير أسبابه، ومسهّل الرَّتَب(١) بتمهيد طُرُقه وفتح أبوابه، ومُدْنِي نائي الحظّ بعد نُفوره واغترابه، ومُطْلِع الشمْس بعد المَغيب، ومُتدارِك الخَطْب إذا أعضَل بالفَرَج القريب، مُبْدِع ما كانَ ويكُون، ومسبِّب الحَرَكة والسُّكون، مُحْسِن التدبير، ومسهِّل التعْسير: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

والحمدُ لله الذى اختَصّ أولياءَ أميرالمؤمنين الأبْرار بالاستعلاء والظُّهور، وذَلّل لهم جَوامحَ الخُطوب ومَصاعبَ الأُمور، وآتاهُم من التأييد كلَّ بديعٍ مستَغْرَب، وأنالَهُم من كل غَريبٍ إذا أُورِد قَصَصُه أطْرَب، ومكّنهم من نَواصِي الأعداء، وشَمِلَهم بعناياته فى الإعادة والإبْداء، وضَمِن لهم أَحْمدَ العَواقب، وأرشدَهُم إلى الأفعال التى ثَبَتَتْ لهم فى صحائف الأيّام أفضَلَ المَناقب، وهداهُمْ بأميرالمؤمنين إلى ماراق زُلالُه، وتَمّ غايةَ التَّمام كما أنه كان لرضا الله سبحانه وحُسْن ثوابه مآلُه(٢)، ويُمِدّهم فى المجاهدة عن دَوْلته بالتأييد والتمكين، ويُحْظِيهم من أنوار اليقين، بما يجلُو عن أفئدتهم دُجَى الشّكّ البهيم، ويُظْهِر لأفهامِهم خصائصَ الإمامة فى حُلَل التفخيم والتعظيم، ويُريهم أنّ خلُوص الطاعة مَنْجاةٌ فى المَعاد بتقدير العزيز العليم.

والحمدُ لله الذى استَثْمَر من دَوْحة النبوة الأئمةَ الهادين، وأقامَهم أعلاما مُرْشِدةً فى مَحجّة الدين، وبيّن بتَبْصيرهم الحقائقَ وورّث أميرَ المؤمنين شرَفَ مَقاماتِهم،

---

(١) مراده الصعب. والرتب بالتحريك من معانيه الشدة والغلظة يقال ما فى هذا الأمر رتب ولا عتب أى عناء وشدة.

(٢) لم يتقدم ما يعطف عليه وهو من متعلقات أمير المؤمنين كما لا يخفى.

وجعله مُحْرِزَ غاياتهم، وجامعَ مُعْجِزاتهم وآياتهم؛ وقضى لمن آتّحف بظلّ فنائه، وآشتمل بسابغ نِعَمِه وآلائه، وتمسّك بطاعتـه وآعتصم بولائه؛ بالخُلُود فى النعـيم المقيم، والحُلولِ فى مَقامِ رِضوانٍ كريم : ﴿ ذٰلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ واللهُ ذُو الفَضْلِ العَظِيمِ ﴾ .

يحمَـدُه أميرُ المؤمنين على نِعَمِه التى جعلتْـه للبشر إماما، وأمضتْ له فى المَشارق والمَغارب أوامِرَ وأحكاما؛ وجرّد من عَزْمه فى حياطة دِيـن الله عَضْبا مُرْهَفا حُسَاما، وآستخلَص لإنجاد دولته من أوليائهـا أكملَهم شجاعةً وإقداما؛ وأحسَنَهم فى تدبير أُمُورها قانُونًا ونِظاما، وأتمَّهم لمصـالح أجنادها ورعاياها تفقُّـدا وآهتماما؛ وأولاهم بأن لا يُوجِّه عليـه أحدٌ فى حقٍّ من حقُوق الله مَلاما؛ وأجدرَهم بأنْ يُحِلّ من جميـل رأى أمير المؤمنين دارَ سـلام يَلْقَى فيها تحيّةً وسَلاما؛ ويسألُه أن يصلّى على جدّه محمد خاتَم النبيين الذى أعلَنَ بالتوحيد وجَهَر، وغلَبَ بالتأييد وقَهَر؛ وأظهر المُعجِز البديعَ وآسـتطال إعجازُه وبَهَر، وأطلع نُورَ الإسـلام وآشتَهر فى المَشارق والمغارب إشراقه وظَهَر؛ وعلى أخيـه وآبنِ عمِّه أبينا علىّ بنِ أبى طالب سيف الله الذى شَهَره على الكفر وسَلّه، وكفّله إعزازَ الدِّين فأعظمه بجهاده وأجَلّه؛ وقرَع بعزه صَـفَاةَ الإلحاد فأعانه (؟) بعزه وأذلّه، وقصَد الأصنام وأرغَم مَـن آستَغْواه الشيطانُ بآتّباعها وأضَلّه؛ وعلى الأئمة من ذُرِّيتهما أعلامِ الدِّين، وهُداة المتقين؛ ومُوضِّحى سبيل الحقّ لأهل اليقين، ومُوصِّلى الأنوار الدينيـة إلى بصائر المؤمنين؛ صلاةً تتكرَّر وتتردّد، وتدُوم مَدَى الأيام وتتجدّد .

وإن أمير المؤمنين لِمَـا آختصّه الله به من المَنْصِب الشريف، وسَمَـا به إليه من المحلّ الشامخ المُنيف؛ وفوّضه إليه من تدبيرِ خَلْقه، وأفرده به من آتّباع أمره والقيام

بحقّه؛ وناطه به من المحاماة عن المِلّة الحنيفيّة، والاجتهاد فى أن يشمل أهلها بالحالة السنيّة والعيشة الهنيّـة؛ وإعانته فى إظهار شعارها، وتأييده فى إظهار عُلوّها على المِلَل واقتدارها ـ يبذل جُهده فى الاستعانة بمن تقوم به حجّته عند الله بالاعتماد عليه، ويتوثّق لنفسه فى اختيار من يقوم برضا الله فى إسناد الأمور إليه؛ ويحرص على التفويض لمن يكفى فى التدبير، ويُحيط غاية نظره بالصغير من رجال الدولة والكبير؛ تقرّبا إلى الله بالعمل فيما ولّاه بما يُرضيه، وازدلافا باتّباع أمره فى كل ما يُنفذه ويُمضيه. وقد كان أمير المؤمنين تصفّح أولياء دولته، وعظماء مملكته وأكابر شيعته وأنصار دعوته؛ فوجدك أيها السيد الأجلّ أكملهم فضلا، وأقلّهم مثلا؛ وأعمهم فى التدبير والسياسة إنصافا وعدلا، وأحقّهم بأن تكون لكلّ رياسة وسيادة أهلا؛ ففوّض إليك فى أمور وزارته، وعوّل عليك فى تدبير مملكته وجمع لك النظر فيما وراء سرير خلافته؛ فجرت الأمور بمقاصدك السعيدة على إيثار أمير المؤمنين وإرادته، واستمرّ أمر المملكة بمباشرتك على أحسن قانونه وعادته، وشملت الميامن والسعود أتمّ اشتمال على تفصيله وجملته؛ وانحسمت الأدواء، وذلّت بسطوتك الأعداء، وزالت فى أيامك المظالم والاعتداء، وحسنت بأفعالك الأمور، وظهر بك الصلاح وكان قبل وزارتك قليل الظهور؛ فانبسطت الآمال، واتّسقت الأعمال؛ وأُقمع الضلال، وأُمنت الأهوال؛ وخلصت من الرأى السقيم، وحظيت بالملك المقيم؛ وغدا جندها ورعاياها ببركة رأيك فى النعيم المقيم.

فلمّا رمقتك عين الكمال، وألهب قلوب حسدتك ما أوتيته من تمام الخلال؛ تكاثر من يحوك المكايد، وتظافر عليك المنافس والمعاند؛ ورثت إليك إساءة من عاملته بالإحسان، وعدت عليك خيانة من ائتمنته أتمّ ائتمان؛ وتمّ له[1] المراد بوقائك

---

(١) لعله "لك" بكاف الخطاب. تأمل.

وغَدْره، وسلامةِ صَدْرك ومَكْره، واتّفاق ظاهرك وباطنك ومباينة سِرّه لجهره؛ فكان ماهوّنه في نفسه سلامةُ النّفس وأكبر الولَد، ومنح في اسداده نِعمًا لا تحصر بعَدد، وأفظع ما كان فيه ماأُصِيبَ به وَلَدُك الأكبرُ رضي الله عنه الذي أُصِيب وهو مظلوم، ولو لم يُصَبْ لم يمتنع من الأجَل المحتوم؛ فربحت بما نالكَ ثوابا، واستفتحَ لك الحظُّ من النصر على الباغي بابًا؛ واغتصب الغادرُ مالا يستحق، ورآه أمير المؤمنين بصورة المُبْطِل ورآك بصُورة المُحِق؛ وهدَتْك السعادةُ إلى العمل بسيرة الأنبياء، في الانحياز عن الأعداء، والتباعُد عن أهل البَغْي والاعتداء؛ فانسلَلْت من الغُواة انسلالَ الصارم من غِمْده، وتواريْتَ من العُتاة تواريَ النار في زَنْده؛ وقطعتَ المَفاوزَ مصاحبًا للعُفْر والعِين، حتّى حللتَ بِرَبْوةٍ ذاتِ قَرارٍ ومَعين؛ وإنّ أمير المؤمنين يُمِدّك في ذلك بدُعائه، ويُعِدّك لتدبير دولته وقَمْع أعدائه؛ ورآك وإن أبعدَتْك الضَّروراتُ عن بابه، وأنأتْك الحادثاتُ عن جَنابه، أنك وزيرُه المَكين، وخالِصتُه القويُّ الأمين؛ الذي لاينزع عنه شمسَ وزارته، ولا يُؤْثِر له غيرَ سلطانه ومملكته.

ولما وُجِّهتَ إلى أعمال أمير المؤمنين بن استصحَبْته راجيًا من عدُوك الانتصار، قاصدا إدراكَ الثار، وحللْتَ بعَقْوته[1]، وخيّمتَ في جهته؛ فاتّصلتْ بينكُم الحُروب، وعزّ على كلٍّ منكما نيلُ المطلوب ـ أنجدك أميرُ المؤمنين عند علمه ببلوغ الكتاب أجلَه، واستيفاء الوَقْت المحدود مَهَلَه، بإظهار ميله إليك وميْله عن ضدّك، وأنّ قصْدَه مُباينٌ لقصد المذكور موافقٌ لقصدك؛ فسبّبَ ذا نصرَك وخِذلانَه، وتفويتَك وإيهانَه؛ ولأمير المؤمنين في حاله عناية تُسْعِدك، ورعايةٌ تؤيّدك.

(١) أي بساحته يقال ما بعقوة هذه الدار مثل فلان .

فحين عُدْتَ إلى بابه عَوْدَ الشُّموس إلى مَشارِقِها قَبِلك أحسنَ قَبُول، وتلقَّاك بتبليغ السُّول؛ وكشف الغطاء عمّا كان يُسِرُّه إليك ويُضمِره، ويُريده بك ويُؤْثِره؛ وجدّدَ لك ما كنتَ تنظُر فيه من الوِزَاره، ومباشرةَ ما كان مردُودا إليك من السِّفَارة والظِّهاره: لأنّك أوحدُ ملوكِ العصر كمالا، وأوسعُهم في حسن التدبير مجالا؛ وأشرفُهم شِيَمًا بديعةً وخِلالا، وأصلحُهم آثارًا وأعمالا، وأتمُّهم سعادةً وإقبالا، وأكثرُهم تقيّةً لله تعالى؛ وما زِلْتَ للمَفاخر جامعا، ولراية المجد رافعا؛ ولذُرى العَلاء والسَّناء فارِعًا؛ تزدانُ العصورُ بعصْرك، وتتجمّل الدنيا ببقاء نَهْيك وأمْرِك؛ وتتعجّب الأفلاكُ العليّةُ من سَعَة صَدْرك، وتتضاءلُ الأقدارُ الساميةُ لعظيم قَدْرك؛ وكم لك من مَنْقَبةٍ تجِلُّ أن يكَيّفَها بديعُ الأقوال، وتعظُم أن يتجَنَّاها بديعُ الأقوال(١)؛ فالدولة العَلَويّة بتدبيرك مَخَالةٌ زاهيهْ، وأركانُ أعدائها وأضدادِها بحَزْمك وعَزْمك واهيه، وسَعاداتٌ من تضمُّه وتشتمِلُ عليه مضاعفةٌ غيرُ منقطعةٍ ولا متناهيه؛ ولم تزَلْ للإسلام سَيْفا قاطعًا ماضيا، وعلى الإلحاد سيفًا مرْهَفا قاضيا؛ تذُودُ الشِّركَ عن التوحيد، وتصُدّ الكفرَ عن الإيمان فيحيدُ مُرْغَما ويَبيد. وكم لكَ في خدمة أئمة الهدى من مأثُرة تؤثَر فتُبهج، ويوردُ ذِكْرُها فيُغْري بالثناء عليك ويُلْهِج؛ وتبذُل في طاعتهم النفْسَ والوَلد، وتنتهي في مناصحتهم إلى الأمد الذي ليس بعده أمد؛ فلذلك فُزْتَ بدعواتهم التي أعقبتْك حُسنَ العواقب، وأحلّتْك المحلَّ الذي لاتسْمُو إلى رُقِيِّه النجومُ الثَّواقب؛ فإذا رفعكَ أميرُالمؤمنين إلى منزلة سامية، وجد محلَّك لديه عنها يجِلُّ ويسْمُو، وإذا خصَّك بفضيلةٍ مّا، صادف آستحقاقَك عنها يرتفع ويعلُو؛ وإذا آستشفَّ خصائصَك، وجدها بديعةَ الكمال، يمتنعُ أن يُدْرَك مثلُها

---

(١) الأقوال جمع قَيْل (وأصله من ذوات الواو) وهم ملوك حمير ويجمع أيضا على أقيال على لفظ واحده.

بعرض ساع أو ينال ، وقد توافقت الخواطر على أنك أوحد وزراء الدولة العلوية ظفرا ونظرا ، وأحسنهم فى طاعتها ومخالصتها أثرا ، وأفضلهم خبرا وأطيبهم خبرا ؛ وقد جدد لك أمير المؤمنـين اصطفاءك لوزارته ، واجتباءك لتدبير مملكته ، وجعلك الفرد المشار لك فى دولته .

فتقلد ماقلدك أمير المؤمنين من هذه المهمات الجسام ، وتسنم ماوطده لك من هذه الرتب العظام ، وتلق آلاءه بما يثنيك فى جرائد الأبرار ، ويمنحك مصاحبة التوفيق فى الإيراد والإصدار ، وباشر مانيط إليك من كبير الأمور وصغيرها ، وجليل الأحوال وحقيرها ، وابسط يدك فى تدبير دولته ، وأنفذ أوامرك فى أرجاء مملكته ، واعن بما جعله لك من تدبير جيوشه الميامين وأوليائه المتقين ، وكفالة قضاة المسلمين وهداية دعاة المؤمنين ، ورتب أحوال جنوده ورعاياه أجمعين ، واعمـل فى ذلك بتقوى الله الذى مابرحت لك دأبا وطريقه ، وشيمة وخليقه ، وبها النجاة من النار ، والسلامة فى دار القرار ، والفوز بمغنى الخلاص ، فى يوم المناقشة والقصاص . فالعارف من مهد بها مقامه فى الآخرة تمهيدا ، وأحرز بها من الثواب فى الآخرة مزيدا ؛ بقول الله فى الكتاب الذى جعلـه فى الإعجاز فريدا : ﴿ يأيهـا الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديدا ﴾ .

وراقب الله فيما ألقـاه إليك فقد فوض إليك مقاليـد البسـط والقبض ، والرفع والخفض ، والولاية والعزل ، والقطع والوصل ، والتوليـة والتصريف والصرف ، والإمضاء والوقف ، والغض والتنبيـه ، والإخمال والتنويه ، والإعزاز والإذلال ، والإساءة والإجمـال ، والإبداء والإعاده ، والنقص والزياده ، والإنعـام والإرغام ،

وكل ما تُحْدِثه تصاريفُ الأيام، وتقتضيه مطالبُ الأنام ؛ فهو إليك مَرْدُود، وفيما عُدِق بنظرك معْدُود .

وأما العدلُ ومدُّ رُواقه، وإقامةُ مَوَاسمه وأسْوَاقه؛ والإنصافُ واتّباعُ مَحَجّته، والاعتمادُ علىٰ أحكامه وأقضيته ؛ وكفُّ عوادِى الجَوْر والمَظالم، وحَمْلُ الأمر علىٰ قصْد التصاحُب والتّسالُم ؛ وإظهارُ شعار الدِّين ، فى إنصاف المُتداعين إلىٰ الشرع المتحاكمين؛ والدعوةُ الهاديةُ وفتحُ أبوابها للمستجيبين، وإعزازُ من يتمسّك بها من كافّة المؤمنين؛ والأموالُ والنظرُ فيها، والأعمالُ أقاصيها وأدانيها ـ فكلُّ ذلك محرَّرٌ فى تقليد وِزارتك الأُولىٰ، وأنت أَوْلىٰ مَنْ حافَظ علىٰ العمَل به وأكمل .

وأمّا أُمراء الدولة الأكابر، وصُدُورها الأماثل ؛ وأُمَراؤُها الأعيان، وأولياؤُها الذين بسُيُوفهم تُقام دعائمُ الإيمان ـ فأنت شفيعُهم فى كلّ مكان، ومُعِينُهم الذى يبْذُل جُهدَه بغاية الإمكان ؛ والجاهدُ لهم فى النّفع والصّلاح ، والحريصُ علىٰ دَفْع مايُلِمُّ بكلّ منهم من الضّرر والاجتياح؛ ومازِلتَ لهم فى الأغراض بحَضْرة أمير المؤمنين مساعِداً، وعلىٰ مايُبَلِّغهم الآرابَ حريصًا جاهدًا؛ وتَخُصُّهم دائمًا بعنايتك، وتُعِدّهم برِعايَتك ، وتُعمِل لهم فى الحاجات صائبَ رَأْيك ؛ فأَجْرِهم علىٰ ماأَلِفوه من الاعتناء والإجمال، وبلِّغهم من محافَظتك نهاياتِ الآمال؛ فهم أبناءُ المَلاحِم ، ومُصْطلُو لَهَب الجَمْر الجاحِم؛ ومصالِحُو الصِّفاح، المُرْهَفة الضُّروب، وملاعِبُو الرِّماح، العاسِلةِ ذات الكُعُوب؛ ومُعْملو العِتاق الأعوجيّة، ومُرْسِلو السِّهام المَريشة المَبْريّة .

وأميرُ المؤمنين يعلَمُ أنك بفضلِ فِطْرتك، وثاقبِ فِطْنتك، وما ميّزك اللهُ به من قديم حُنْكتك وتجربتك؛ تَغْنىٰ عن الوصايا، وتُنَزّه عن توسيع الشّرْح فى القضايا؛ وإنما أوردَ لك هذا النَّزْر منها علىٰ جهة التيمُّن بأوامر الأئمة، والتبرُّك بمَراسِم هُداة

الأمة ؛ والله يحقّق لأمير المؤمنين فيك الأَمَل ، ويوفّقك فى خدمته للقول والعَمَل ، ويُعينك على إصلاح دولته ، واغتنام فُرَص طاعته ، وبذل الجُهْد والطاقة فى مناصحته ، والاجتهاد فى رفع منار دعوته ، ويؤيّدك على أعداء مملكته ، ويُرشدُك إلى العمل بما يُسْبغ عليك لباس نعمته ؛ فاعلم هذا من أمير المؤمنين ورَسْمه ، وانتهِ إلى مُوجَبه وحكمه ؛ إن شاء الله تعالى . والسلام عليك ورحمة الله وبركاته ، والحمد .

* * *

وعلى ذلك كتب الموفّق بن الخلّال أيضا عن العاضد بولاية ابن شاوَر السَّعْدى نيابةَ الوزارة عن أبيه ، وتفويض الأمور إليه ، وهذه نسخته :

من عبد الله ووليه (بألقاب الخلافة) إلى فلان (بالنعوت اللائقة به) .

سلامٌ عليك (إلى آخر الصلاة على النبىّ صلّى الله عليه وسلم على نحو ما تقدّم فى سجلّ الوزارة لأبيه) .

أما بعدُ ، فالحمدُ لله مؤيّد الحقائق بأفضل الأنصار ، ومُعزّ الممالك بأكمل ذوى النَّفاذ والاستبصار ، وجاعل الولَد البارّ لوالده رُكْنا وسَنَدا ، والنَّجْل المختار لناجله نَجْدة ومَدَدا ، مرتّب الممالك على أفضل نظامها ، ومُرقّى الدُّول إلى المُؤْثَر من إجلالها وإعظامها : ليتّضح للتأملين فضلُ تأكُّد الأواصر ، ويستبين للناظرين فضل تبايُن العناصر ؛ إبرامًا منه ـ جلّ وعزّ ـ لأسباب الحكمة ، وتوسيعًا لسبيل الحنان والرحمة ، وشمولًا لما يتتابع به إحسانُه من المنّ الجسيم ﴿ فَضْلًا مِنَ اللهِ ونِعْمَةً وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ .

والحمدُ لله مُعْلِي الدَّرجات ورافعِها، ومُفيد الأمَم ونافعِها، ومُزيل البأساء ودافعِها، ومُجيب الدَّعَوات وسامعِها، ومُضاعِف المَصالح وجامعِها، الذى وَقَف على الدولة العَلَويَّة أحسنَ السِّيَر، وخصّها فيمن تُؤثِر اصطفاءه بمساعدة القَدَر، ويسّر لها رائق التدبير بعد ملابَسة الرَّنْق والكَدَر، وأدّخرها من الأصفياء مَنْ تُشْرِق الدنيا بأنواره، وتتزيَّن الدُّهورُ بمَحاسنِ آثاره، وتسمُو المفاخرُ بمَفاخره، ويتوالى الثناءُ على ما آبتكره من المكارم فى أوّل نَشْئِه وآخره، ويَتَتابع الإحمادُ لمن يختاره ويجتبيه، وتتضاءلُ أقدارُ الملوك إذا ذُكِر فضلُه وفضلُ أبيه، وتسكُنُ النفوسُ إلى تمام وَرَعه ودينه، ويَنطق لسان الإجماع بصحّة معتَقَده ويقينه .

والحمدُ لله الذى شَمِل البرايا فَضلُه، وعمّ الخلائقَ عدلُه، وأقرّت العقول بأنّ إليه يَرْجِعُ الأمرُ كلُّه .

يحمَدُه أميرُ المؤمنين على نِعَمه الظاهرةِ التى أحظت دولتَه الطاهرةَ، بمُوازرةِ البيت الجليل الشّاوَرِىّ، وأيدت مملكتَه القاهرةَ، بحاماته عن حَوْزتها بالعَضْب المُرْهَف والسَّمْهَرِىّ؛ ويشكُره على مِنَنه التى آستخلَصَتْ له منه أنصارا يُرْهِفُون فى طاعته العزائم، ويُحقِّرُون فى إرادته العَظائم، فيذُبّون عن حَوْزته ولا يخافُونَ فى ذاتِ الله لَوْمةَ لائم؛ ويسألُه أن يصلِّىَ على جدّه محمّدٍ الداعى إلى الهُدَى، والمبعوثِ إلى الخلائق وهُم إذ ذاك سُدىً؛ والمُناضِلِ فى نُصْرة الإسلام بالأُسْرة والآل؛ والمُطَّرِح عاجلِ الدنيا الفانية لآجلِ المآل؛ وعلى أبيه أمير المؤمنين علىّ بن ابى طالب الذى اقام من دِينِ الله منآدَ الأَوَد، وقام لنبىّ الله مَقامَ النَّجْل المرتضى والوَلَد، وقَطّ من طواغِيت الكفر شائِحَ الهام، وأوضح غامضَ التنزيل بما أفرده الله به من مَزايا

الإلهام، وعلى الأئمة من ذريتهما أبناء الرسالة والإمامه، والمختصين بإرث بيته المحبو بتظليل الغمامه، والقائمين بنصرة الدين، والمتفردين بإمرة المؤمنين .

وإن أمير المؤمنين لما أقامه الله له من تمكين قواعد الدين، واختاره لإيضاحه من إرشاد فرق المسلمين، وأفضى به إليه من سر الإمامة المكنون، وألقاه إليه من خفايا الإلهام الذي تستنبط من أنوارها علة ما كان ويكون، وأمده [به] من التأييد الذي يستأصل طواغيت النفاق بقوارع المهالك، ويسلك بمردة أهل العناد أوعر السبل والمسالك، وأنجده في كل الحالات بالألطاف الخفية التي تتكفل بإعلاء كلمته، وتتضمن نصر أعلامه ونشر دعوته، وآتاه جوامع المعارف والحكم، وفرض طاعته على من دان بالتوحيد من جميع الأمم، وألزم مقاصده وأنحاءه التوفيق، وأوجب لها السعادة في كل جليل ودقيق - يفوض أمره إلى الخالق، ويفيض جوده وبره في الخلائق، فلا يزال لأحوال دولته مراقبا، ولا ينفك يفيد كل ما يتعلق بها نظرا ثاقبا، فإذا لاحت له لائحة صلاح، أو بدت لنظره مخيلة نجاح، اجتهد في توسيع مجالها، وحرض على حثها وقصد إعجالها، والتمس للدولة اجتلابها، وفتح إلى استدعاء النفع بابها : لينمي الخير العميم في دولته، ويتضاعف النفع الجسيم لرعيته، وتكون كافة الخلق فيها بالأمنة والسكون مغمورين، وبحسن صنيع الله بهم فرحين مسرورين .

ولما تصفح أمير المؤمنين أحوال دولته، وتأملها تأمل من يؤثر أن يفقه الفحص في كل مهم على حقيقته، رأى أن الله جل وعلا قد منح أمير المؤمنين من خالصته وصفيه، ووزيره وكافيه ووليه، السيد الأجل (بالنعوت والدعاء) الذي قام بنصرته، وكفل أهوال الحروب بنفسه وأولاده وأسرته، وحالف التغرب والأسفار،

واستبدل من لين العيش بملاقاة السهام واللهاذم والشفار، واتخذ ظهور الجياد عوضا من الحشايا، ومنازلة الأبطال دأبا فى الحنادس والبكر والعشايا، وآثر على لبس الغض الموثق الجديد، لباس اليلب ولأمات الحديد، ولازم فى ذات الله قرع أبواب الحتوف، والتهجم على كل مخشى مخوف، حتى ذلل الأعداء، وقمع الاعتداء، وحسم الأدواء، وألزم الدهر بعد خطته الاستهواء، وأفاد دولة أمير المؤمنين باجتهاده عزا، وادخرلها عند الله من الأجر والمثوبة كنزا، وسير عنها فى الآفاق أحسن الأحاديث، وبين فضلها على غيرها فى القديم من الدهر والحديث، وأخلص لأمير المؤمنين فى الطاعة حتى استخدم الموالى الموافق، والمباين المنافق، وكل فضائله التى لا تحد، ومحاسنه التى لا تحصر ولا تعد، بفضيلة تفوت الفضائل، ومنقبة تفوق بفخرها المناقب الجلائل: وهى ماوجهه الله [له] من بنوة الأجل فلان الذى لم يزل للدولة عزا حاضرا، ووليا ناصرا، وعونا قاهرا، ومجدا ظاهرا، وجمالا باهرا. ومابرح لله ـ جل وعلا ـ مراقبا، ولرضاه وغفرانه طالبا، قد جمع إلى كمال الدين وصحة اليقين، المخالصة فى طاعة أمير المؤمنين، لا يفتر منذ مدة الطفولية [عن] درس القرءان، ولا يبارى بغير الأمور الدينية نجباء الأقران، إن تصفحت محاسنه الدنيوية عد ملكا مهذبا، وإن تأملت مناقبه الدينية حسب ملكا مقربا، وكم له من منقبة تستنقص الغيوث، وشجاعة تستجبن الليوث، ومهابة ترد أحاديثها الجيوش على الأعقاب، وتغريها بموالاة الحذر والارتقاب، إذا أسهبت الخطوب أوجز تدبيره، وإذا استطالت الحوادث قصر طولها فأعجب تقريره، فالدولة العلوية من ذبه فى الحرم الآمن، والخلافة العاضدية من ملاحظاته فى تدبير يجمع أشتات الميامن، فاجتماع المآثر قد وحده، بشهادة الإجماع، وتوالى المحامد قد أفرده، بما شاع منه فى الممالك وذاع، تحاسد عليه غر الأخلاق، وتنافس فيه المكارم منافسة

ذوات الإشراق ، فلا توجد خلّة فضل بارع إلا وقد جمعها ، ولا مكنة جبر قارع إلا وهو الذى مهّد محجّتها ووسّعها ، ومقاماته فى الجهاد والجلاد مقامات أوضحت الحقائق للأفهام ، وثبّتت الدقائق تثبيتا يبقى على غابر الأيام ، وأعزّت دعوة الدولة العلوية وأيدتها ، ونصرت أعلامها ونشرتها ، واكتنفت بالتفضيل والإحسان رجالها ، وأزالت بالجدّ والتشمير أوجالها ، ومحت آثار عداتها بالسيوف ، وألقتهم(١) عن النكايات المجحفة بوزع المنايا والحتوف .

والحروب قرباه فى مهودها ، ومنشاه بين أسودها ، ورعاتها وقف على إضرامها وإخماد وقودها ، فإذا توردها توردها باسما متهللا ، وإذا اقتحم مضايقها تصرف فيها متوقفا متمهلا ، لايحفل بأهوالها ، ولا يرى لقارعة من عظائم قوارعها والها ، وحسبك فتكاته فى طغاة الكفار ، وقصد أولياء الدولة بالإظهار : فإن الكفار حين نهدوا للنفاق ، واجتلبوا أشباههم من بعيد الآفاق ، وتهجموا على الأعمال بجاهم بعزمة من عزماته أقامت راية الدين ، وجعلتهم حصيدا خامدين ، وأفنت منهم الصناديد ، واصطلمتهم ببلايا تزيد على التعديد ، واجتحفتهم بالقتل والأسر والتفريق ، ورمتهم بدواه لايقدر بشرى على دفاعها ولا يطيق ، ولما التجأ طاغية الكفر إلى الحيرة وركد ، ورام الاعتصام بعروتها واجتهد ، واغتر بما معه من الجمع وكثرة العدد ، نهد إليه فى الأبطال الأنجاد ، ونهض نحوه ثابتا للقراع والجلاد ، فأزاله عن مجثمه ، وذعره ذعرا شرده عن معلمه ، ورماه بالحراك بعد السكون ، والتعب الذى قدر باغتراره أن مثله لايكون ، وكم له فتكة فى أهل العمود ذللت جماحهم ، واستلبت أرواحهم ، وأعادت ليلا بالنقع صباحهم .

---

(١) لعله وألفتهم .

وعند تمادى عتاة الكفّار فى الإصرار، وجوسهم خلال الديار، ونفثهم فى وجوه الأذى والإضرار، وطمعهم فى اجتياح أهل الأعمال والأقطار - عوّل أمير المؤمنين فى استئصالهم على عزمه، واعتضد بذبّه وحسمه، وجعل إليه التدبير بالقاهرة المحروسة التى هى عمدة الإيمان والإسلام، ودار هجرة الإمام، ومعقل الخلافة منذ غابر الأيام، وأطلق يده فى ربّ جميع الأعمال، وتأمينها من بوائق الأوجال، فبثّ بالحضرة وبالأعمال من مهابته ماشرّد الأوغار، وسهّل الأمصار، ومحق الضّلّال، وأذاقهم النّكال، فعمّ السكون والأمنه، واستولت على الأعمال السياسة المستحسنه، فجادت بنضرة الأيام وصلاح الوجود، واغتبطوا من تدبيره بصعود الجدود، ورتعوا من عنايته فى عيش يضاهى عيش جنات الخلود، فالبلاغات بأسرها لاتقوم بمدح ماأوتى من الفضائل، ولا يوازى مجموعها منقبة من مناقبه التى أربى بها على الملوك الأواخر والأوائل، والخصائص الملوكية بجملتها فيه جبلّة وفطره، وإذا قيست نادرة من نوادر فضله بما تفرّق فى جميع الملوك كانت فضائله بمنزلة البحر ومجموع فضائل الملوك بمنزلة القطره، وقد طرّز فضائله البديعه، وخلاله السامية الرفيعه، من موالاة أمير المؤمنين ومناصحة دولته بما تكفّل بسعادة الدنيا والآخره، ونهايات مغانم الثواب الشريفة الفاخره، فليله ونهاره مصروفان إلى المجاهدة عن دولة أمير المؤمنين التى هى دولة التوحيد، والمخلص فيها معرّض لكلّ مقام سعيد، فمحاسنه ترتفع عن قدر التقريظ والمديح، ولا تقابل إلا بموالاة التسبيح .

ولما أحمد أمير المؤمنين أثرهما فى خدمته، وشكر قصدهما فى دولته، وكان السيد الأجلّ قد بلغ إربه فى الجلال، وحلّ المحلّ الذى لاتتعاطاه جوامح الآمال، وقدره يشرف عن كلّ تكريم، وموضعه يجلّ عن كلّ منح جسيم، ومنزلته تسمو عن كلّ تعظيم - فأوصى أمير المؤمنين السيد الأجل أن يقرّر له جميع خدمه، ويسبغ عليه

فى المستأنف أضفى نعمه : فإن محلّه يرتفع عن محلّ الخدَم الجليله ، ويسمو عن كل تصرّف يسِمُه فى الدولة بسِمَة جميله ؛ ورأى أميرُ المؤمنين والسيدُ الأجل أن يُعلَن بإسناد النيابة عن والده فى أُمور المملكة إليـه ، ويُشْهر أنّ ذلك معولٌ فيه عليه : ليخفّف عن السيد الأجلّ أمير الجيوش أمْرَ أثقالها ، ويتحمّل عنه تكليفَه بعض أحوالها ؛ ترفيهًا للسـيد الأجل عن التعَب ، وتخفيفًا من كثرة النّصَب ؛ على أنّ عُلُوّ قدره الأجلّ لم يُخْلِه فى وقتٍ من الأوقات من مشاركةٍ فى التدبير ، ولا صدّه عن ممازجةٍ فى مُهِمّ كبير ؛ بل ما برحتْ يدُه فى جميع أحوالِ الدولة جائله ، وجلالةُ منصبه تقضى بأن تكونَ تصريفاتُه لجميع الأمور شاملَه ؛ وتوقيعاتُه ماضيةٌ فى الأموال والرجال ، والجهات والأعمـال ؛ وأميرُ المؤمنين والسيد الأجل يستسعدان بأدائه ، ويتتبّعان فى كل السياسات ماهو موافقٌ لإرادائه : لمـا خصّه الله [به] من المرامى الصائبه ، والمقاصد التى السعادةُ على مايرِد منهـا مُواظبه ، وجَبَله عليه من المحافظة على حُسْن المرْجع وحميد العاقبه ــ خرجَ أمرُ أمير المؤمنين إلى السيد الأجل بالإيعاز إلى ديوان الإنشاء بكَتْب هـذا السِّجلّ لك : فتقلّد ما قُلِّدته من النيابة عن والدك فيما إليه من أمور مملكته ، وأحوال دولته ؛ معتمدًا على تقوى الله التى بها نجاةُ أهل اليقين ، وفوزُ سُعداء المتقين ؛ لقول الله عز من قائل : ﴿يأيُّها الَّذينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وكُونُوا معَ الصَّادِقين﴾ . واحمِلْ عن السـيد الأجل والدك مايُؤْثِرأن تحمِلَه عنه من الأثقال ، وتكفّلْ مايُكلِّفك إيّاه من الأشغال ؛ ونفِّذ مايختارُ أن تُنفِّذه ، وأنجِز مايُؤْثِر أن تُنجِزه ؛ وأمضِ ما يُشِير إليك بإمضائه(١) من أساليب التوقيعات ، وفنون المُهِمّات ؛ وقُم فى كل من أمور نيابتك المقامَ الذى يُرضيه ، ويوجبه بِرُّك ويقتضيه ؛

(١) فى الأصل «إليك إلى امضائه» ولا يخفى ضعفه أو بطلانه .

وقد جعلك الله ميمونَ النَّقيبـه ، مسعودَ الضريبـه ، مُكمَّل الأدوات ، مؤهَّلا لترقِّى الغايات ، لا تَكْبَر عن مباشرتك كبيره ، ولا تَشِفُّ[1] عن رُتبتك رتبةٌ خطيره ، وأجْرِ على عادة والدك فى حسن السياسة والتدبير ، والإجمالِ للأولياء لكما فى كل صغير من الأمور وكبير .

والوصايا متَّسعةُ الفنون ، كثيرةُ الشُّجُون ، ولك من مَزِيَّة الكمال ، وفضيلة الخِلَال ، ومساعدة الإقبال ، والخُبْرة بالجهات والأعمال ، وطوائف الأولياء والرجال ، ما يُعينُك على آستنباط دقائقها ، والعمل بحقائقها ، وسُلوك أحسن طرائقها .

هذا عهدُ أمير المؤمنين إليك ، وحجتُه عليك ، فاعمَل بأحكامه ، وأجْرِ أمورك على نظامه ، وبالِغْ أيها السيدُ الأجل أميرُ الجيوش فى شُكْر نعمة الله التى ألهمَت الملوكَ إشاعة فَضْلك ، ورتَّبت السُّعود على آكتناف عَقْدك وحَلِّك ، ومنحَتك آية كليم الله فجعلت لك وزيرًا من أهلك ، فاعْلَم هذا وآعْمَلْ به إن شاء الله تعالى ، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته .

⁂

وعلى ذلك كتب بعضُ كُتَّابهم عن العاضد ، لرُزِّيك بن الصالح طلائع بن رُزِّيك ، بولاية المظالم وتقدمة العسكر فى وزارة أبيه ، وهذه نسخته :

من عبد الله ووليِّه فلان أبى فلان الإمام الفلانى (بلقب الخلافة) أمير المؤمنين ، إلى فلان (بلقبه وكنيته) .

سلامٌ عليك ، فإنَّ أمير المؤمنين يحمَدُ إليك الله الذى لا إلهَ إلا هو ، ويسألُه أن يُصلِّىَ على جدِّه محمد صلَّى الله عليه وسلم خاتم النبيين ، وسيد المرسلين ، صلَّى الله عليه وعلى آله الطاهرين ، الأئمة المهديِّين ، وسلَّم تسليما كثيرا .

---

(١) فى القاموس "شف يشف شفا زاد ونقص" .

أما بعدُ، فالحمدُ لله الغامرِ بالطَّول والفضل، الآمرِ بالإحسان والعَدْل، مُوسِّـع سُبُل الصَّلاح لبريَّته، ومسبِّب أسباب النَّجاح لدينه الحنيف وملّته، وجاعلِ أبرارِ أوليائه ذَخائرَ مُعدّةً لنفعِ الخلق، ومُصطفي سعداءِ أحبَّائه لإعلاء منَارِ الشرع وإقامة قِسْطاس الحق، وميسِّرهم للنُّهوض بالأعباء التي تتكفّل بعَضْد الدولة العلوية وتقُوم، ومجتبيهم للفصل بمَرْضاته فيا يقضى بإغاثة الملْهوف وإنصاف المظلُوم، الذى تنقاد بمشيئته الأمور، وتتصرف بإرادته الدُّهُور، ويعلم خائنةَ الأعيُنِ وماتُخفى الصُّدُور، ويغدُو فضلُه على عباده جَسِيما، و﴿ لا يَظْلِمُ مِثْقالَ ذَرّةٍ وإنْ تَكُ حَسَنَةً يُضاعِفْها ويُؤْتِ من لَدُنْه أجْرًا عظيما ﴾ .

والحمد لله الذى أوضح بأنبيائه سُبُلَ الهـدى للأنام، وأنقذ بإرشادهم من عبادةِ الأوثانِ والأصنام، وأقامَ باجتهادهم أحكامَ ماشرَعه من المِلَل والأديان، وأذهب بأنوارهم ماغَمَر الأُمَم من غَيَاهبِ الظُّلْم والعُدْوان، وقفَّى على آثارهم بمن لانُبوّة بعـد نُبوّته، ولاحُجّةَ أقطَعُ من حُجّته، ولا وُصْلَةَ أفضَلُ من وُصْلةٍ ذَخَرها لأمّته، ولاذُرّيةَ أقومُ بحقّ الله فى حِفظ نظامِ الإيمانِ من عِتْرته وذُرّيّته .

يحمَدُه أمير المؤمنيـن على أنْ مكّن له فى الأرض، وذخَر شفاعتَه لذوى الوَلاء فى يوم النُّشور والعَرْض، وأورثه خَصائِصَ من مضى من أئمّة الهُدى آبائه، وأفرده بمُعجِز التأييـد الذى أضاءت الآفاقُ بمُشْرِق أنبـائه، ويشكُره على أن أنجدَ دولتـه بكفيلٍ جدّد جِلْبابَها، وظهيرٍ أحكَمَ أسبابَها، ونصيرٍ بلَغ بها فى الوَلىّ والعَدُوّ مطالِبَها وآرابَها، واستنجب له من نُجَله خليـلا يتلُوه فى الفضائل البارعه، وناصرًا يُحاولُ فى الذَّبِّ عن حَوْزته عَزْما أمضى من السُّيوف القاطعه، وعَضُـدا يقُومُ له بإرضاءِ الخالق والمخلُوق، ومُسْعِدا لا يألُو جُهْدا فى إيصال المستحقّين إلى ما جعله الله لهم

من الحُقُوق . ويسأله أن يصلّى على جدّه محمد سيد من بلّغ عن الله رسالة وأمرا ، وأفضل من دعا إلى توحيد بارئه سرًّا وجهرا ؛ وأكمل من جاهد عن دينه حتى ظهرت بعد الدُّروس جدّتُه، وقهرت إثر الخُضُوع عزّتُه، وآنتشرت فى المشارق والمَغارب كلمتُه ودعوتُه ؛ صلّى الله عليه وعلى أخيه وآبن عمّه أبينا علىّ بن أبى طالب قسيمه فى الشّرف والأُبوّه، وصدّيقه الأكبر فيما جاء به من النُّبوّه، والمكمّل بالنصّ على إمامته الدِّين، وخامس الخمسة الذين سادسُهم الرُّوح الأمين ؛ وأبى الأئمة الأبْرار، والهازم بمفرده كلَّ جيش جرّار ؛ وعلى الأئمة من ذُرّيتهما أعلام محجّة الهُدى، وأنوار سُبُل الإيمان التى بأنوارها يُستَبصر ويُقتدى ؛ وأدلّة منهاج النجاه ، وكاشفى غُمَم الشّكّ إذا الظُّلَم دَجاه ؛ وسلّم ومجّد، وتابع وردّد .

وإنّ أمير المؤمنين لمّا آصطفاه الله له من إرث سرّ الإمامة المَصُون المكنُون ، وحقّ بيانه العظيم الذى بالخُشُوع لجلاله أفلح المُؤمنون ؛ وآختاره [له] من نشر لواء الحقّ ونصره ، وتأكيد أحكام الإنصاف ليَحظى بعائدتها كافّةُ أهل زمنه وعصره ؛ وألبسه إيّاه من تاج خلافته الذى أشرقَ لبصائر العارفين نورُه الساطع ، وتجلّى لأفهام المُوقنين برهانُه الصادعُ ودليلُه القاطع ؛ وأودعه من خفَايا الحكَم التى عذُب سَلْسبيلُها، وبلغ إلى النعيم الخالد دليلُها وسبيلُها ؛ وكمّله لأيامه من الإقبال الذى جعلها مواسمَ زاهيةً ببهجة النصر المبين ، وأعيادَ ظَفرٍ تروقُ بتوالى إبادة العادلين عن الطاعة النّاكثين ؛ وأوقاتًا سعيدةً تُفيد الدينَ وأولياءَه عزًّا وآعتلاء ، وتُوجب للإيمان وأنصاره آقتدارًا وآستيلاء ، وتُسْبِغ عليهم كيفما تصرّفتْ بهم الأحوالُ مِننًا ضافيةً وآلاء ؛ ويسّره لعلمه من الإحاطة بكل مُغيَّب مستُور ، وأوجبه لأغراضه فى كل مايرومُه من مُظاهَرة المقدُور ؛ ومهّده لحُلوله من أشمخ منازل التطهير والتقديس ، وشرّف به شيمَه من كل خُلُق نَبَوىّ بارع نَفيس ؛ وفضّله به من الكرم الذى لاتزالُ

سُحُبِه تجودُ الأُمَمَ سَرَفا، ولا تنفكُّ غيوثُه تجِدُ لمن مُطِر به عَلاءً وشَرَفا؛ ولا بَرِح وابلُه يعمُّ بالنِّعَم الغُرّ الجِسام، ولا تكُفُّ سـيُوبُه عن إفاضـة المِنَن التى علَتْ وغلَتْ فلا تُسامىٰ ولا تُسام؛ وخُصَّ به إحسانه من المُثـابرة علىٰ إعظام المَنـائح للمستوجبين، والمحافظة علىٰ إجزال المَواهب للمُزْدَلِفين إليه بالأعمال الصالحة المتقرِّبين ـ يُجْهِد آراءَه فى آرتياد من تتضاعَفُ للبريّة بالاستعانة بكفاته أسـبابُ المَصالح، وتتأكَّدُ للأئمة بالتعويل علىٰ بارع فضله أحكامُ النُّجْح والمَناجح؛ وتقُوم الحجةُ عنـدَ الله بالاعتضاد به فيما يقضى بنَفْع [العباد]، ويُسْهِل الاعتماد علىٰ ديانته بالنُّصح لله فى الحاضر من بريَّته والباد؛ ويَنْطِق شرَفُ خلائقه بتوفُّره علىٰ إحراز مَغانم البِرِّ والتقوىٰ، وتُعْرِب طرائقُه عن السَّـعْى الذى لايقِفُ فى مَرْضاة ربِّه دُونَ بلُوغ الغاية القُصْوىٰ؛ وتدلُّ أحوالُه علىٰ رعاية حُقُوق الله سـبحانَه فى كلِّ مايفعل ويقول، وتُوضِّح أخبارُه حُسْنَ تأتِّيـه فى مصالح الأُمَم لمـا يَعْجِز عن آستنباطه رَواجحُ العقُول؛ ويقتَدِحُ نظَرُه أنوارًا يُستضاء بها فى طُرُق السِّـياسات الفاضله، ويفْتَتِحُ فكْرُه أبوابا تَضْحىٰ بها الخليقةُ إلىٰ الخيرات الكاملة واصله؛ ويبعثُه حُسْنُ جِبِلَّته علىٰ أن يحتَقِر فى إعانة البَرايا، عظائمَ المَشاق، ويدْعُوه كرَمُ سَجِيَّتـه إلىٰ أن يحنُوَ علىٰ الرعايا، حُنُوَّ مَن يتوخَّاهم بالرحمة والإشفاق؛ ويقوىٰ بإعانته المستضْعَف قوّةً تُخَصِّنه من عَدْوىٰ الاهتضام، ويعزُّ بملاحظته المستذِلُّ عِزّةً تُخرِجه عن صُورة المقهُور المُسْتَضَام؛ ويقتَفِى الآثارَ الصالحيَّةَ فى عَدْل الطِّباع وحُسْن الشِّيَم، ويتَّبع السُّنَن الغِياثيّة فى الإحسان إلىٰ جميع الأُمَم؛ ويقْصِد فى اللُّطْف بالصغير والكبير قَصْـدَها، ويتنحى نوَاجمَ الباطل فيعتمِدُ اجتثاثَهـا وحَصْدَها؛ ويكون تفويضُ أمير المؤمنين إليه توثُّقًا عند خالقه وباريه، واحتياطًا لنفسـه فى آستناد المهمّات منـه إلىٰ من لايُدانيه مُدانٍ ولا يُباريه؛ وتتيمَّن الدولةُ العلَويّةُ بمباشرته للأحوال تيمُّنا يُؤْذِنُ لها بإدْراك كلِّ مَطْلَب بعيد، وتستَسْعِد بحُسْن

سيرته آستسعادا يقضى للنساج بتمكين تبدى فيه وتعيد ؛ وتختال الأيام بما آجتلته من جواهر مفاخره ، وتزدان الأزمان بما توشحه من مناقبه التى حقرت الملوك فى أول الدهر وآخره .

وقد آكتنفتك أيها الأجل عنايات الله سبحانه وآشتملت عليك ، وتتابعت موادّ آصطفائه وآجتبائه إليك ؛ وأنالتك من كل فضل بارع ، غايته ، وأظهرت فيك لكل كمال رائع ، آيته ؛ وجمعت لك من معجزات المحاسن مالولا مشاهدتك لوجب آستحالة جمعه ، ولأنكر كل متدبر صدر حديثه عن صدر صدره أو ورود سمعه ؛ ويسر لك تمام السعد والإقبال ، الترقى إلى ذروة العلى التى يهاب النجم أن تمر ملاحظتها منه ببال ؛ وآتفقت الحظوظ فى إعظام ماخولتك من الفضائل الباهرة فبالغت وتناهت ، وأغرقت فيما أتحفتك به من المحاسن النادرة فشرفت بك وتباهت ؛ حتى غدا جسيم ماقدم شرحه من الثناء وذكره ، وعظيم ماوجب منه نشره فتضوع أرجه ونشره ، نغبة من بحارها الزاخره ، وشذرة من عقودها الفاخره ؛ وقليلا من كثيرها الجسيم ، وضئيلا من جزيلها الذى آستكمل خصائص التعظيم .

وآستثمر فأنت الجامع لمفترق الفضائل الملكيه ، والفارع ذرى الجلال الذى أفردتك به المواهب الملوكيه ؛ والممنوح أعلى رتب السيادة السارية إليك من أكرم الأصول ، والمنوح بارتقاء هضاب المجد التى عجز ملوك الآفاق عن [الآنتهاء] إليها والوصول ؛ والأوحد الذى بذ العظماء فعظم خطرا وقدرا ، والأروع الذى آنقادت له الصعاب فرحب باعا وصدرا ، والعالم بالأمور الذى أصبح أعلم ملوك الأرض بأحسن التدبير وأدرى ؛ والمذكى بأنوار ذكائه فى عاتم النوب سراجا وهاجا ، والمشمر فى ذات الله فلا يوجد له على غير ما أرضاه معاجا ، والمبتكر من غرائب السياسات مالا تزال محاسنه على مفرق الزمن تاجا ؛ والممجد اللهج بتمجيده كل مقول ولسان ، والمعجز

كلَّ متعاطٍ وإن كان بليغًا بديعَ الإحسان ، والممنوحُ المُعرِق فى السيادة والملكه ، والمبتدعُ المكارمِ أبكارا تجلّ عن أن يُشابِهَ أحدٌ فيها أو يَشْرَكه ، فآياتُ مجدك ظاهرةٌ باهره ، وغُرُّ خلائقك فى آختراع المآثر وآفتراعها ماهره ، وإليك إيماءُ السعادة وإشاراتُها ، والدُّسوتُ باعتلائك مَناكبَها تُسامى السماءَ أرجاؤُها ، وتحقّق فى البحر الأعظم بتصدُّرك فيها رجاؤُها ، فلا كمالَ إلّا ما أصبح إليك يُنْسَب ، ولا جلالَ إلا ما يُعَدّ من خصائصك ويُحْسَب ، ولم تزل لربِّك خاضعا ، ولشَرَفك متواضعا ، وأنوارُ الألمعيّة تُوضّح لك من طُرُق الأمانة ما يَعجِز عن إدراكه قوىُّ التجريب ، وتُحكِم لك من أحكام السياسة ما تقصُر عن أقلِّه فِطَنُ الحكماء الشِّيب ، وتُبدى لك أسرارَ الأزمنة المتطاولة فى إقبال سنِّك ، وتُلين بتلطفاتِ صَلابةَ الخطوب مع نَضارة غُصْنك ، وما بَرِح ذكرُ أخبار صَولتك ، وحديثُ ما أعطمه الله من فُروسيّتك وشجاعتك ، يُوقِّر حُلُومَ الأبطال فى المَلَاحم إذا أطارَها الذُّعْرُ فطاشَتْ ، ويُسكِّن نفوسَ الأنجاد فى المَلاحم إذا أطارها الذُّعْر فجاشَتْ ، ويُحْدث للجبناء جُرْأةً وإقداما ، ويجعلُ الكَهامَ فى الحروب مُذَلَّقًا حُساما ، فخُيَلاء الأعوجيّة زهو مما ترقُبه من شَرَف آمتطائك ، وصليلُ المَشْرَفيّة ترنُّمٌ بمُطْرِب قَصَصك وأنبائك ، وآهتزازُ السَّمْهريّة جذَلٌ بما كفّلتها من إشادةِ عَلائك ، وضَمَّنتها من إبادة أعدائك ، وليس بغريبٍ أن تفضُل الأملاك ، وتطأ أخامصُك السِّماك ، وتختالَ فى وَشْى الوصف البَديع ، وتُشرِقَ أسِرّةُ محاسنك فتُخجِلَ ضوءَ الصُّبح الصَّديع ، وقد أكرمك الله مع فضل الخليقة والفِطْره ، وكمالِ الخصائص التى غدا كلٌّ منها فى بديع المُعجِزات نَدْره ، ببُنوّة مُغيث الأنام ، ومُصْلح الأيّام ، وكفيلِ أمير المؤمنين وكافيه ، ومُبرِئ مُلْكه من أسقام الحوادث وشافيه ، السيد الأجلِّ الملك (وتتمّة النعوت والدعاء) الذى آنتضاه اللهُ لكشف الغُمَم ، وآرتضاه لتدبير الأُمَم ، وفضّله على ملوك العرب والعَجَم ، وشمخ علاؤُه فتطامَنَ

له كلُّ عليٍّ ودان، وسمتْ مواطئُ أقدامه فتمنّت منالها مواطئُ التِّيجان، وحاز بالمساعي الفضلَ الباهرَ أجمع، واستولى على بواهر الحِكَم بالنظر الثاقب والقلب الأَضْمع(١)، وأُفرِد بكمالٍ عزَّ أن تُدرِكه الآمال، أو يكونَ لاشتطاطها فيه مَطْمع أو مَجَال؛ وغدا النصرُ المُبين تابعًا لعَذَبِ ألويته، وحُسنُ إقباله في كلّ موطن كفيلٌ بإدبار العدوّ وتوليته؛ وأجاب داعيَ الله إذ استنصرَ لآل بيت النبوّة واستصرخ، ولبّى دعاءه تلبيةً تُسطَّر أخبارها على ممرّ الزمان وتُؤرَّخ؛ وأجلى شياطين الضلال وقد تبِعتْ في زعيمها الجاحد وثنا، وصدّها بالعزم المُرهَف عما أصرّتْ عليه من منكَر الإلحاد وثنَى؛ وبذلت سطاه جبابرةَ الطُّغاة من الأوطان بُعْدا وسُحْقا، وأمتعتهم فتكاته من الأعداء الوافرة إفناءً وسَحْقا؛ وأذاقتهم حَمَلاتُ جيوشه وَبالَ أمرِ من عاضدَ باطلا وعاندَ حقّا؛ وجعلتهم شِفارُ سيوفه الباترةِ في التنائف حصيدا، ورمتْ بالإرغام والإضراع معاطسَهم وخدودَهم بعد أن عمّروا شُمًّا وصِيدا؛ وقصَدَ بمواضيها أشلاءهم ودماءهم فألجم غُروبها وسقى، وكشف بلوامعها عن الدولة الفاطمية من معرّتهم جُنحًا عاتمًا وغَسَقا؛ وكفلَ أمورَهم فأحسن الإيالةَ والكفاله، وأعادها إلى أفضلِ ما تقدّم لها من القوّة والفخامة والجلاله؛ ونظر أحوالها فقوّم كلَّ معوجّ وعدّل كلَّ مائل، وحباها ملبسَ جمالٍ تقبُح عند بهجته ملابسُ الخمائل.

ولمّا أبادَ عُصَب العناد، عطف على الاجتهاد في الجهاد؛ فجابتْ جحافلُه متقاذفَ الأقطار، ونالتْ من الفتك بالكفرة في أقصى بلادها نهايةَ الأوطار، وانتزعتْ منهم الحصون، واستباحتِ المَنيع المَصُون؛ حتّى أصارت جَلَدهم المشهورَ فَشَلا، وقيّض إقدامَهم المذكورَ وَشَلا؛ وشمِل الأمة بسيرةٍ عُرفت بالعدل والإحسان، وأحظت

---

(١) أى الذكى المتيقظ.

الخلائق بالأمن المديد الظلال، وأرضتهم بالعيش الرائق الزلال، وأنالتهم من المطالب ما أنسعت لإدراكه خطا الآمال، وجاد فقضح الغمائم، ومن على ذوى الذنوب حتى كاد يتقرب إليه بالجرائم، وأقال عثرات كبرت فلولا كرم سجيته لم يرم الإقالة من خطرها رائم، وأمده الله من معجزات البلاغة والبيان، وغرائب الحكم البديعة الأفنان، ما يستخف الأحلام بفرط الطرب والإفتان، ولم يزل منذ كان يحمى سرح الدين، ويضم نشر المؤمنين، ويبذل نفسه الشريفة فى نصرة الدولة العلوية بذل أكمل ناصر وأفضل معين، وتكبر عظائم الخطوب فيكون عزمه أعظم وأكبر، وتزهى الأيام بغرر محاسنه وهو لا يزهى ولا يتكبر، فقد عز جانب كماله، عن أن يناهضه جهد المديح، وارتفع محل جلاله، فلا ينال تكييفه بإشارة ولا تصريح، وعظم قدر مفاخره فلم يقابل إلا بموالاة التمجيد لخالقه والتسبيح، ووجب على متصفح خصائصه الموالاة فى التعظيم، ولزوم منهج استيداع لا يبرح عنه ولا يريم، ومبالغة قوله تعالى: ﴿ ماهذا بشرا إن هذا إلا ملك كريم ﴾ .

فبلغ الله أمير المؤمنين فى إطالة مدته الآمال، وأبقى لمدته باستمرار نظره الحظ والجمال، وفتح له المشارق والمغارب بهممه العالية وعزائمه، وجعل نواجم الإلحاد حصائد شفار صوارمه، فافخر أيها الرجل بأصلك وفرعك كيف شيت، وابتهج بما منحت منه وأوتيت، ووال شكر خالقك على ما خولت وأوليت، فما نخر بمثل فخرك ملك متبدع، ولا تباهى الدهر لأحد بمثل ماتباهى فى حقك ولا أبدع .

ولما تكامل لك أيها الأجل بلوغ هذا الفضل الجسيم، وتم مامنحته من المجد الحادث والقديم، جدد أمير المؤمنين لك شعار التعظيم، وكمل لديك المفاخر تكميل العقد النظيم، وجعل الخير فى إمرته لك عيانا، وأقامك للدولة الفاطمية والمملكة

الصالحيّة بُرهانا، وجعلك لكافّة المسلمين فى أقطار الأرض سُلطانا، وطابق بين ماخصّك به من السّمات السنيّه، وبين مامكّنه لك من المراتب العليه، فاتّخذك لدولته ناصرًا وعضُدا، واتّخبك للإسلام مجدا وسَندا، وأحيا بمُرافدتك أنصار الدين، وشفى بنظرك صُدورَ المؤمنين، واستخلصك لنفسه النفيسة حميًا وخليلا، وبلغ بك إلى الغاية القُصوى إعلاءً وتبجيلا، وشرّفك بخِلَع بديعة من أخصّ ملابس الخلافة تروق محاسنُها كلّ النواظر، وتفوق بدائعها مادبّجه زهَر الروض الناضر، وقلّدك سيفا يُؤذِن بالتقليد، ويبشّر بالنصر الدائم المَزيد، تتنافَس فى متنه وفِرِنده الجواهر، ويستولى ناصعُها على الباطن منه والظاهر، وعزّزها بالتشريفات التى اكتنفتْها البَهْجة والبهاء، وبلّغتها فى العُلى إلى الغاية التى ليس بعدها انتهاء، وآثر أن تبسط يدُك فى التدبير، ويُعدّق بك ماهو عنده بالمحلّ الكبير، ويُجمع لك من أشتات دولته مالم يُعرف لجمع مثله فى سالف الزمن نظير، ويسند إلى كمالك مايعودُ النفع بصلاحه على المأمور من الأنام والأمير .

ففاوَض أيّها السيد الأجلّ الملكَ الصالحَ والدَك أدام الله قُدرتَه، وأعلى كلمتَه، فى ذلك مُفاوضةً أفضتْ إلى وُقوع الإجماع على أنك أكمل ملُوك دهرك دِينا، وأصحُّهم يقينا، وأشرفُهم نفْسا وأخلاقا، وأكرمُهم أُصولا وأعراقا، وأمثلُهم طريقةً وأحسنُهم سيره، وأنقاهم صدرا وأطهرُهم سريره، وأشرفُهم جوهرا وأزكاهم ضريبة وأتقاهم لله سِرّا وعلَنا، وأولاهم بأن لايصدُر عنه من الأفعال إلّا جميلا حسَنا، وأنك أفضلُ مَن عدَق أميرُ المؤمنين بنظره أمرَ الدنيا والدين، وأسند إلى ملاحظته أحوالَ أُمراء الدولة ورجالها أجمعين، وفوّض مصالحَ المسلمين منه إلى الثّقِيّ الأمين، وأنّ السيدَ الأجلّ الملكَ الصالح أدام الله قدرتَه لمّا أخلص محلّه عند أميرالمؤمنين بتتابُع الإشاده، وتفرّدَ باستمرار المضاعفة بإذن الله تعالى والزّياده،

وآستولى على الأمد الأقصى فى السمو لديه والتعالى، وآنخفضت عن ثراه ذرى أشمخ المعالى، كان عند أمير المؤمنين الأول فى الجلال وأنت ثانيــه، والسابق فى الفخار وأنت تاليه، ودلّ بفضلك على فضله دلالة الصبح على النهار، والثناء على الإبدار، والثمر الطيب على فضيلة الأصل والنجار، فتبارك مولى المنن لأوليائه وحزبه، القائل فى محكم كتابه : ﴿ والبلدُ الطيّبُ يخرجُ نباتُهُ بإذنِ ربِّه ﴾ .

وقرر لك أمير المؤمنين آستشفاف أمور المظالم، وإنصاف المظلوم من الظالم؛ والنظر فى آسفهسلارية العساكر المؤيدة المنصورة إيثارًا من أمير المؤمنين لأن يجعل لك خير الدنيا والآخرة ميسرا، ويثبت لك فى كل من أمور العاجلة والآجلة حديثا حسنا وأثرا، ورتّب ذلك لك ترتيبا يصحبه التوفيق ويلزمه، ويكمّله السعد ويتممه؛ ويحيط به اليمن والنجاح، ويشتمل عليه الحظ والفلاح . فتقلّد ماقلّدك أمير المؤمنين شاكرًا لأنعمه، متمسكا بأسباب ولائه وعصمه، جاريًا على أحسن عاداتك فى مراقبة الله وخيفته، مستمرًا على أفضل حالاتك فى خشيته، متبعا أوامره فى العمل بتقواه، وزاجرا للنفس عما تؤثره وتهواه، يقول الله فى كتابه المبين : ﴿ إنه من يتق ويصبر فإن الله لايضيع أجر المحسنين ﴾ .

وآعلم أن المظالم (١) كنز من كنوز الرحمة، وباب يتوصل منه إلى مصلحة الأمه، ووسيلة يتوسل بها السعداء إلى خالقهم فى آستبقاء ما أسبغ عليهم من النعمه؛ فاجلس لها جلوسا عامًا ترفع فيه الحجاب، وتيسر للوصول إليك عنده الأسباب؛ وتأمر بتقريب المتظلمين، وتوعز بإدنائهم لتسمع كلام الشاكين؛ وتتوفر على الأخذ بيد المستضعف القريع (٢)، والحرمة التى لاتجد سبيلا للإنصاف ولا تستطيع؛ وتتقدم

(١) يريد ولاية المظالم . (٢) من معانى القريع المغلوب وهو المناسب هنا .

بأن تحضر بين يديك النائب فى الحكم العزيز الذى على فتياه مدار أحكام الدين، ومن تحتاجه من الموقعين والدواوين؛ وتأمر بإحضار القصص وعرضها، وتتأمل دعاوى المتظلمين فى إبرامها ونقضها؛ وتوقع على كل منها بما يقتضيه الشرع وأحكامه، ويوجبه العدل ونظامه.

وانظر فى مشكل القصص نظرا يزيل إشكالها، ويجعل إلى لوازم الشرع والحق مآلها؛ وراع أمر المنازعات حتى تنتهى إلى الأواخر، ولا يبقى فيها تأمل لمتأمل ولا نظر لناظر؛ وتخرج أوامرك بإيصال كل ذى حق إلى حقه، وكف كل متعد عن سلوك سبيل العدوان وطرقه. وليكن الضعيف أقوى الأقوياء عندك إلى أن يصل إلى حقه موفرا، والقوى أضعف الضعفاء حتى يخرج مما عليه طائعا أو مجبرا؛ والشرع والعدل فهما قسطاسا الله فى أرضه، ومعينا [ن على] الحق من أراد العمل بواجب الحق وفرضه؛ نفذ بهما وأعط بين العباد، وأثبت أحكامهما فيما قرب وبعد من البلاد؛ وساو بهما فى الحقوق بين الأنام، وصرف النصفة بحكمهما بين الخواص والعوام، حتى ينتصف المشروف من الشريف، والضعيف من ذى القوة العنيف؛ والمغمور من الشهير، والمأمور من الأمير، والصغير من الكبير؛ واستكثر بإغاثة عباد الله ذخائر الرضوان، واستفتح بقيامك بحقوق الله فيهم أبواب الجنان؛ واعمم بسعيد نظرك وتام تفقدك وملاحظاتك جميع صدور أولياء الدولة وكبرائها، ومقدميها المطوقين وأمرائها؛ وميزها الأعيان، ورجالها الظاهرة نجدتهم للعيان؛ وتوخ الوجوه منهم بالإجلال والإكبار، وتبليغ الأغراض والأوطار؛ والتمييز الذى يحفظ نظام رتبهم، وينيلهم من حراسة المنازل غاية أربهم؛ والقهم مستبشرا كعادتك الحسنى، وأجر معهم فى كرم الأخلاق على مذهبك الأسنى؛ وعرفهم بإقبالك على مصالح أمورهم، واتجاهك لصالح شئونهم، بركة اشتمالهم بفضلك، والتحافهم بظلك؛

واقصد من يليهم بما يبسط آمالهم، ويوسع فى التكرمة مجالهم، ويكسبهم عزة الإدناء والتقريب، ويخصهم من إحفائك بأوفر سهم ونصيب، وكافة الرجال فاحفظ نظامهم بحسن التدبير، وأثر فيهم بجميل النظر أحسن التأثير، وتوخهم بما يشد باهتمامك أزرهم، ويصلح بتفقدك أمرهم، ويقف على الطاعة سرهم وجهرهم، وييسر لهم أسباب المصالح ويسهلها، ويتمم لمطالبهم أحكام الميامن ويكملها، وأصف لجميع ذكرهم من سابق فى التقدمة وتال، ومخلص فى المشايعة وموال، مناهل إحسان أمير المؤمنين الطامية الجمام، المتعرضة مواردها العذبة لأدواء كافة الأنام؛ فهم أنصار الدولة وأعوانها، وأبناء الدعوة وخلصاؤها وشجعان المملكة وفرسانها؛ ونجدة خلاصها عند اعتراض الكروب، وسيوفها المذربة القاطعة الغروب؛ وأسنتها المتوغلة من الأعداء فى سويداء القلوب، وحزبها الذى أذن الله بأنه الغالب غير المغلوب؛ ولكل منهم منزلة من التقديم، وموضعه من الاشتمال بظل الطول العميم، ومحله من الغناء ومكانه من الكفاية الذى بلغ إليه فسده. فرتب كلا من المقدمين فى الموضع الجدير به اللائق، وأوضح للموفقين أنوار مراشدك ليلحق بتهذيبك السكيت منهم بالسابق.

والوصايا متسعة النطاق، متشعبة الاشتقاق؛ ولم يستوعب لك أمير المؤمنين أقسامها، ولا حاول إتمامها: للاستغناء بما لك من المعرفة التى غدت فى استنباط حكم السياسات أكرم معين، والفطرة النفيسة التى تمدك من كل فضيلة بأغزر معين؛ ولا يزال يضىء لبصيرتك من أنوار السيد الأجل الملك الصالح - أدام الله قدرته -

(١) لعله وأصف لجميع من ذكرتهم من سابق الخ - تأمل.

(٢) فى الأصل "اختلالها". تأمل.

التي لا تبرح للبصائر لامعه، ولمحاسن الأفعال وغُررها جامعه، ماتستمين بأضوائها[1] على الغرض المطلوب من الإصابة وأكثر.

هـذا عهدُ أمير المؤمنين إليك، وإنعامُه عليك، فتلقَّه من الشُّكر بما يكون للمزيد سببًا مؤكّدا، ويغدو الإحسان معـه مُرتَدا مجدَّدا، وآبذُلْ جُهدك فيما أرضى الله وأرضى إمامَ العصر، وثابِرْ على الأعمال التي تُناسبُ فضائلك المتجاوزة حدّ الحَصْر، والله يعضُدك بالتوفيق، ويُمهّد لك إلى السعادة أسهلَ طريق، ويُرهِف في الحرب عزائمَك، ويُمضي في الأعداء صوارِمَك، ويضاعفُ لك موادَّ النصر والتأييد، ويخُصُّ بناء مجدك بالإعلاء والتشييد، إن شاء الله. والسلامُ عليك ورحمةُ الله وبركاته.

قلت: والذي يظهر أن ممـا كان يكتب في دولتهم على هـذه الطريقة سجلّات كبار نياباتهم، حالَ آستفحال الدولة في مبادئ أمرِها، قبل خُروج البلاد الشاسعة عنهـا واستقلاعها من أيديهم: كدمَشق ومُضافاتها من البلاد الشامية قبلَ خُروجها عنهـم لبني أُرْتُق في زمن المستنصر أحد خلفائهم، وكأفريقيَة وما معها من بلاد الغرب قبلَ تغلُّب المعزّ بن باديس نائب المستنصر المتقدم ذكره بهـا وقطْع الخُطبة له، وجزيرة صقلّيّة من جزائر البحر الرُّومي قبلَ تغلّب رُجّار أحد ملوك الفرنج عليها وآنتزاعها من أيديهم في زمن المستنصر المذكور أيضا، فإنّ دمشق وأفريقيَة وصقلّيّة كانت من أعظم نياباتهم، وأجلّ ولاياتهم، فلا يبعُدُ أن تكونَ في كتابة السِّجلّات عندهم من هذه الطبقة.

---

(١) في الأصل "فاستبد". تأمل.

المرتبـــــة الثـانيـــــة

(من المذهب الأوّل من سجلّات ولايات الفاطميين أن يُفتتح السّجلّ بالتصدير، فيقال : « من عبد الله وولّيه » إلى آخر التصلية، ثم يُؤتى بالتحميد مرةً واحدةً ويُؤتى في الباقي بنسبة ماتقدّم ، إلا أنه يكونُ أخصَرَ ممـا يؤتى به مع التحميدات الثلاث)

ثم هي إما لأرباب السُّـيوف أو لأربابِ الأقلام من أرباب الوظائِف الدِّينية والوظائف الدِّيوانية .

فأما السّجلّات المكتَتَبة لأرباب السُّيوف، فمن ذلك نسخةُ سجِلّ بولاية القاهرة من هذه الرتبة : لِرفعة قدر متوليّها حينئذٍ، وهى :

من عبد الله ووليّه (إلى آخره) .

أما بعدُ، فالحمدُ لله رافع الدَّرجات ومُعْليها، ومُولِى الآلاء ومُواليها، ومُحْسن الجزاء لمَنْ أحسن عملا، ومُضاعف الحِبَاء للذين لايَبْغُون عن طاعته حِولا؛ ومنيل أفضل المَوَاهب ومُخَوِّلها، ومتِّم النعمة على القائم بشُكْرها ومُكَمِّلها؛ مُتْبع المِنَن السـالفة بنظائرها وأشـكالها، والمُجازى على الحسَـنة بعشْر أمثالها؛ وصلّى الله على جدّنا محمد رسوله الذى أقام عمادَ الدين الحَنِيف ورفَعَه، وخفض بجهاده منارَ الإلحاد ووَضَعَه؛ وأرغَمَ عَبَدة الصُّليب والأوْثان، ونَشَر فى أقطار المملكةِ كلمةَ الإسـلام والإيمـان؛ وكـشَف غياهبَ الضَّـلال بأنوار الهُدى اللّامعه، وهتَكَ حجابَ الكفْر ببراهين التوحيد الصادعة وسيوف النصر القاطعَه؛ صلّى الله عليه وعلى أخيه وآبن عمّه أبينا أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب، سيف الحقّ الماضى المَضَارِب، وبَحْر العلم الطامى

الحُجج والعَوارِب (١)، ومَعين الحكمة العَذْب المَشارع، والمخصُوص بكلّ شرَف باسق وفضلٍ بارع، وعلى آلها سادة الأنام، وحُماة سَرح الإسلام، ومُوَضّحى حقائق الدِّين، وقاهري أحزاب المُلحدين، وسلَّم ومجَّد، وضاعف وجدّد.

وإنّ أميرَ المؤمنين لمّا آتاه اللهُ من شرَف المَحْتِد والنِّجار، ونَوَّهه به من تيجان الإمامة المُشرقة الأنوار، وألقاهُ إليه من مقاليد الإبرام والنَّقض، وأنالَهُ إيّاه من الخلافة فى الأرض، والشَّفاعة فى يوم العَرْض، وعَلَّقه به من إيضاح سُبُل الهُدى اللّامعه، وهَتْك حجاب الكُفر ببراهين التوحيد الصادعة وسُيوف النصر القاطعه، إلى الأنام (٢)، وأطْلَعه عليه من أسرار الحكمة بمُناجاة الإلهام، وأقامه له من إعلاء مَنار المِلّة وتقويم عِماد الحق، وأمدّه به آراءه من العنايات الرَّبّانيّة فيما جلّ ودَقّ، وأمضاه له فى الأقطار من الأوامر والنّواهى، وأفرده به من الخصائص الشريفة التى يَقْصُر عن تعديدها إسهابُ الواصف المُتناهى، ويَسَّره لإرادته من آنقياد كلّ أبِىٍّ جامح، وحبَّبه إليه من آستعمال السِّيرة المستدْنية من المصالح كلَّ بعيد نازح ـ يُضاعفُ بَهاءَ أيّامه بآصطفاء ذوى الصّفاء، ويزيدُ فى بهجة زمانه بآستكفاء أولى الوَفاء، ورَفْع منازل المُعرِقين فى الوَلاء إلى غايات السَّناء، ويُنيل المخلصين من الحِبَاء، مايدُلّ على مواضعهم الخَطيرة من الاجْتباء، ويُسنِد مَعالى الأمور، إلى الأعيان الصُّدور، ويُقلِّد الولايات الخطيره، بمن حسُنَت منه الآثار والسِّيره، وأظهر تَغايُر الأمور ماهو عليه من خُلوص النّيّة ونَقاء السّريره، وآستولى على جوامع الفضل وغاياته، وقَصُرت هِمَمُ الأكْفاء عن مماثلته فى الغَناء ومُساواته، وألقتْ إليه المناقبُ قيادَ المستَسْلِم المُسَلِّم،

(١) جمع عارب أو عاربة. يقال ماء عرب كثير ونهر عرب وبئر عربة كثيرة الماء والفعل من كل ذلك عرب عربا فهو عارب وعاربة. انظر اللسان ج ٢ ص ٨١.

(٢) متعلق بإيضاح سبل الهدى انتبه.

وأعجز تعديدُ محاسنه البارعة كلَّ ناطقٍ ومتكلّم، وسمَتْ همَّته إلى آكتساب الفَخار، وآستكمل فُنونَ المحامد فحصَلتْ لديه حصُولَ الأقتناء والادّخار، وفاز من كلِّ مأثُرة بالنصيب الوافر المُعلَّى، وتشوّفتْ إليه الرُّتَب السنيةُ تشوّفَ [من] رأته لهـا دُونَ الأكفاء أهلا، وكفَى المُهِمّاتِ بجَنانٍ ثابتٍ وصَـدرٍ واسعٍ، وقربتْ عليه أفعالُه المرضيَّةُ من المَيَامن كلَّ بعيدٍ شاسعٍ، ووَسَم جلائلَ التصرُّفات بمـا خلّفه بهـا من مستحسَن الآثار، وخلَصتْ مشايعتُـه من الأكدار فحَلَّ فى أميَزِ محلٍّ من الإيثار، وجارَى المُبرِّزين من أرباب الرِّياسات فسـبَق وأبرَّ، وأحرزَ جميلَ رأيِ وليِّ نعمته فيما ساءَ وسرَّ .

ولمَّـا كنتَ أيها الأميرُ المعنيَّ بهذا الوصفِ الرفيع، المخصوصَ من مفاخره بكلِّ رائعٍ بديعٍ، الحالَّ من الاصطفاء فى أقرب محلٍّ وأدناه، المرتقِيَ من الرياسـة أشمخَ مكانٍ وأسناه، الأوحدَ فى كل فضيلةٍ ومَنقبه، الكاملَ الذى أوجبَ له الكمالُ صُعودَ الجَدِّ وسُمُوَّ المرتبه، المُصلحَ ما يَرِدُ إلى نظره بالتدبير الفائق، الشاملَ ما يُعدَق به بحزمه الذى لاتُخشَى معه البَوائق، المُجمَعَ على شكر خصائصه وخِلاله، الفائتَ جُهدَ الأعيان الأفاضـل بعفو آستقلاله، المعتصمَ من المُشايعة بالسبب المتين، المتميِّزَ على الأكفاء بمآثره المأثورة وفضـله المُبين، وما زالتْ مَساعيكَ فى طاعة أمير المؤمنـين تُوجب لك منـه المَزيد، وتسـتدعِي لمنزلتـك من جميل رأيه مُضاعفةَ التشييد، وتخُصُّـك من الاجتباء بالنصيب الوافر الجزيل، وتبلِّغك من تتابُع النِّعم ما يُوفِى على الرجاء والتأميل .

وقد باشرتَ جلائلَ الولايات، وعُدِق بك أفخمُ المهمّات، فآستعملتَ السِّـيرة العادله، وسُسْتَ السياسـةَ الفاضله، وجمعتَ على محبّتك القُلوبَ، وبلّغتَ الرعيةَ

من إفاضة الإنصاف كلّ مُؤْثَر ومطلوب، وإذا برقتْ بارقةُ نِفاق، ونَجَم ناجم من مَرَدة المُرّاق، كنتَ الوليَّ الوَفِيّ، والمخلِص الصَّفِيّ، والمُدافِع عن الحوْزة بجِهاده، والحامِيَ عنها بماضي عَزْمه وصادِق جِلاده، والباذلَ مُهْجَتَه دُون وليّ نعمته، والجاهِدَ فيما يُحظيه بنائل مَوَدّته وتأكّد أذِمّته، ومُجلِيَ ظلامِ الخَطْبِ الدامس بحُسامه، ومُزيل الخَطْب الكارِث برأيه واعْتِزامه، ومواقِفُك في الحروب، تكشف الكُروب، وتُرْوِي من دِماء الأبطال ظامئات الغُروب، وتُورِد سِنانَ اللَّدْن العاسِل، وَرِيدَ الكَمِيِّ الباسل، وتُحكّم ظُبَا المَناصِل، في الهامات والمَفاصِل، وتستبيحُ من مُهَج الأقران كلَّ مَصُون، وتَرميهم من قوارع الدَّمار بضُروب متَّسِعة الفنون، فآثارُك في كل الحالات محمُوده، وشرائطُ الاصطفاء فيك فاضِلةٌ موجُوده. وحضَر بحضْرة أمير المؤمنين فَتاه ووزيره، وكافِلُ مُلْكه وظَهيرُه، السيدُ الأجل الملك الذي (١) فأثنَىٰ عليك ثناءً وسَّع فيه المَجَال، وخصّك من شُكْره وإحماده بما أفاض عليك حُلَل الفَخْر والجَمال، وقرر لك الخدمةَ في ولاية القاهرةِ المحروسة. فتقلَّد ماقلّدك أميرُ المؤمنين من ذلك: عاملا بتقوىٰ الله الذي تصيرُ إليه الأمور، ويَعْلم خائنةَ الأعْيُن وما تُخفِي الصُّدور، قال الله في كتابه المبين: ﴿ يٰأيُّها الذين آمَنُوا اتّقُوا الله وكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾.

واعلم أنّ هذه المدينةَ هي التي أُسِّس على التقوىٰ بُنْيانُها، ولها الفضيلةُ التي ظهر دليلُها ووَضَح برهانُها: لأنها خُصَّت بفخرٍ لايُدْرَك شأوُه ولا تُدْرَك آمادُه، وذلك أنّ منابِرَها لم يُذْكَر عليها إلا أئمةُ الهدىٰ آباءُ أمير المؤمنين وأجدادُه، ثم إنها الحرَمُ الذي أضحىٰ تقديسُه أمرا حتما، وظَلّ ساكنُه لايَخاف ظُلْما ولا هَضْما، وغدت

---

(١) بياض في الاصول بقدر كلمة ولعله ذكرك فأثنى الخ.

النعمةُ به متمَّمةً مكمَّله ، والأدعيةُ فى بيوتِ العبـادات به مَرْفوعةً متقبَّله : للقُرْب من أمير المؤمنين بابِ الرحمة ومَعْدِن الجَلاله ، وثمرةِ النبوّة وسُلالة الرساله ؛ فاشْمَلْ كافّةَ الرعايا بها بالصِّيانة والعِنَايه ، وعُمَّهم بتـامِّ الحِفْظ والرِّعايه ؛ وٱبْسُطْ عليهم ظِلَّ العـدل والأَمَنه ، وسِرْفيهم بالسِّـيرة العادلة الحسَنَه ؛ وساوِ فى الحقّ بينَ الضعيف والقوِيّ ، والرَّشِـيد والغوِيّ ؛ والمِـلِّيِّ والذِّمّيّ ، والفقير والغنِيّ ؛ وٱعتمدْ مَنْ فيهـا من الأمراء والمميَّزين ، والأعيانِ المقدَّمين والشُّهود المعدَّلين ؛ والأماثِل من الأجناد ، وأرباب الخِدَم من القُوّاد ، بالإعزاز والإكرام ، وبلِّغْهم نهـايةَ المُراد والمَرَام ؛ وأقِمْ حُدُودَ الله على مَنْ وجبتْ عليه بمقتضىٰ الكتاب الكريم ، وسـنَّة محمد عليه أفضـلُ الصلاة والتسليم ؛ وتفقَّدْ أمورَ المتعيِّشين ، وٱمنَعْ من البخْس فى المكاييل والمَوَازين ؛ وحَذِّر من فسادٍ مُدْخَل علىٰ المَطاعم والمَشَارب ، وٱنْتهِج فى ذلك سبيلَ الحق وطريقَ الواجب ؛ وٱحْظُرْ أن يخلُوَ رجلٌ بٱمرأة ليستْ له بمَحْرَم ، وٱفعَلْ فى تنظيف الجوامع والمساجد وتنزيهها عن الابتذال بما تُعَزُّ به وتُكَرَّم ؛ وٱشْدُدْ من أعوان الحُكْم فى قَوْد أُباةِ الخصوم ، وٱعتمدْ مِنْ نُصْرة الحق ما تبقىٰ به النعمةُ عليك وتَدُوم ؛ وأوعِزْ إلىٰ المستخدَمين بحفظ الشارع والحارات ، وحراستِها فى جميع الأزمنةِ والأوقات ؛ وواصِلِ التَّطْواف فى كلّ ليلة بنفسِـك فى أوقىٰ عِدَّه ، وأظهر عُدَّه ؛ وٱنتَـهِ فى ذلك وفيما يُجاريه إلىٰ مايشْهَدُ بٱجتهادك ، ويزيدُ فى شُكْرك وإحمادك ؛ والله تعالىٰ يوفِّقك ويُرْشِـدك ، ويسدِّدك فى خدمة أمير المؤمنين ويُسْعِدك ؛ فاعلَمْ ذلك وٱعمـلْ به ، وطالِـعْ مجلس النظر الأجلّ المَلَكيّ بمـا تحتاج إلىٰ علمه ؛ إن شاء الله تعالىٰ .

قلت : وعلىٰ هذا النَّمَط كان يُكْتَب سجِلُّ ولاية الشرقية من أعمال الديار المصرية دُونَ غيرها من سائر الولايات ، إذ كانت هى خاصَّ الخليفة كالجيزيّة والمَنْفَلُوطِيَّـة الآنَ ، وكان واليها هو أكبرَ الوُلاة عندهم لذلك .

وأما الوظائف الدينية .

فنها — ما كتب به القاضي الفاضلُ عن العاضد بولاية قاض :

من عَبْد الله ووليِّـه عبد الله أبي محمد الإمام العاضد لدين الله أمير المؤمنين، إلى القاضي المؤتمن الأمين، علَم الدين، خالصـةِ أمير المؤمنين، وفّقه الله لما يُرضيه، وسدّده فيما يَذَرُه ويأتيه، وأعانه على ما عُدِق به ووُلِّيه .

سلامٌ عليك فإن أمير المؤمنين يحمَدُ إليك اللهَ الذى لا إلهَ إلّا هو، ويسأله أن يصلّى على جدّه سـيِّد ولَد آدمَ، وعالِم كل عالَم، ومُبقِى كلمة المتقين على اليقين، ومُعلِى منار الموحّدين على المُلْحدين، صلّى الله عليه وعلى آله الطاهرين، وعلى أُمَراء المؤمنين، صلاةً تتصلُ فى كلّ بُكْرة وأَصيل، ويَعُدّها أهل الفضل وأهـلُ التحصيل، ووالى وجدّد، وعظّم ومجّد، وكرّر وردّد .

وإن أمير المؤمنين لـمّا آتاه الله إيّاه من نَفاذ حُكْمه ومَضاء حكْمته، وفوّضه إليـه من إمامة أمّته، وأفاضه عليه من أنوارٍ كشفَتْ غمامة كلّ غُمّـه، وشرّدتْ بعـدْله من نَسْـطة ظُلْمٍ وسَطْوة ظُلَمه، وأظهره له من حقٍّ نصَب للنصر عَلَمـه وللهداية عِلْمَه، وأيّده به من كلِّ عَزْمة فتكَتْ بكل أزْمه، ووكّل به همّه من إتمـام نِعْمة وآبتـداء نِعمه، وأطلق به يدَه من معْروف روَّض الآمالَ صَوْبُ مِدْراره، وبدَتْ على الأحوال آثارُ إيثاره، وأخذ به الخِصبُ من المَحْل ثارَه وآستقالَ به الرخاءُ من وَهَـدات عِثاره، وعضّد به أفعـاله من أمور التوفيق آتّباعا وآقتضابا، وألهمه من مُوالاة الآلاء التى لا تَذهب عهودُ عِهادها آنقضاءً ولا آنتضابا، ويسّر له عزيمةً من الآراء التى لا تُكسِب إلا حمدا أو ثوابا — يختصّ بإحسانه من يَنُصّ الآختبـار على أنه أهـلٌ للآختيار، وتُفيض الأحوال من حَوالىّ أوصـافه ما يُديمُ المَطَار

فى الأوطار، ويُنْعِم على النعمة بإهدائها إلى ذوى الاستيجاب، ويَصْطنِعُ الصَّنِيعةَ بإقرارها فى مَغارس الاستطابة والاستنجاب، ويرشِّح لخدمه من عُرِف ذِكْرُه بأنه فائح، وعَرْفُ عُرْفه ناصعٌ نافح، ويبوِّئ جنانَ إنعامه مَنْ أحسن عملا، واستحقَّت منزلتُه من الكفاية أن تكونَ له بدَلا، ولم تَبْغِ تصرُّفاته فى كل الأحوال عنها حوَلا، ودرّجته خصائصُه العليةُ فاقتعدَ صَهَوات الدَّرجات العُلى، واستحقَّ بفضل تفضيله أن يُولى الجميلَ جُمَلا، وعُرِضتْ خلالُه على تعيين الانتقاد فاقتضاها ولا يتقضاها، وزُويتْ مسالكُ العَناء بصَدْره فَضاها فَضاها .

ولمـا كنتَ أيُّها القاضى المشتملَ على هذه الخلال اشتمالَ الرَّوْض على الأزاهر، والأُفُق على النُّجوم الزَّواهر، والعقود على فاخر الجواهر، والخواطر على خَطَراتها الخواطر، والنَّواظر على ماتُصافِحُ من الأنوار وتُباشر، المُثْرى من كل وَصْف حَسَن، المتبوعَ الأثر بمـا فَرَض من المحَاسن وسَنّ، الكالئَ ماتُستحفَظ بعين كفاية لايُصافح أجفانَها وَسَن، الأمينَ الذى تُرِيه أمانتُه متاعَ الدنيا قليلا، وتُصْحبه ناظرا عن نَضارتها كَليلا، المؤثِرَ دينَه على دنياه، المطيعَ الذى لايَسْلُو العصبة عن هَواه، المخلصَ النية فى الوَلاء و "لِكُلّ امرِئ مانَوَاه" الناصحَ الذى يُنَزِّه مايُلابسه عن لباس الرِّيَب، البعيدَ عن مَظانِّ الظُّنون فلا تتطلَّع الأوهامُ منه على عَيْب غَيْب، النقيَّ الساحة أن يَعْرِض بهـا وَضَر، التقيَّ الذى لاتُخْدَع يدُه عن التمسُّك ما استطاعَ بحبل عِصمَه، المخْتُومَ الحقوق بأن يُستودَع دهرَ الوفاء، المتوسِّلَ بِعَواتٍ تُوجب له الإيفاءَ على الأكفاء، المستقيمَ على مثل الظَّهيرة كهْلا ويافعا، الشافعَ بنفسه لنفسه وكفى بالاستحقاق شافعا ، وحسْـبُك أنك حمَلتَ الأمانةَ وهى حفظ الكتاب ، وأطلق اللهُ به لِسانَك فشفَيْتَ القلوبَ من الأوْصاب ، ووصَـلَ به سببَك إلى رحمته يوم

تنقطع الأسباب ، وأصبح محلُّك فى الدارين آهلا أثيرا ، وكنتَ ممن قال الله فيه : ﴿ وَمَنْ يُؤْتَ الحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ .

وقد خالطتَ فى مواكب أمير المؤمنين المعقِّبات التى من بين يديه ومن خلفه ، وقرُبتَ من مجالسه المشتملة منه على عُنوان عناية الله بالبريَّة ولُطْفه ، ونُوره الذى كلَّت العُيونُ عن كَشْفه والحيلُ عن كَسْفه ، وتقدّمتَ بخدمة الخلفاء الراشدين ، أمراء المؤمنين ، إلى سوابق سبقتَ بها فى كل مِضْمار ، وجمعتَ فى المخالصة فيها بين الإعلان والإضمار ، وسَبَر التجريبُ حالتَيْك بصحائف خَبَره ، وآستمرّتْ بك الحال فى القُرب منهم وفى تقلُّب الأحوال عِبَره ، وتدرّجتَ فى حُجُب القُصور ، وبدَتْ لك الغاياتُ فما كنتَ عنها ذا قُصور ، فكانت التَّقدمةُ لك مظنونةً وبك مضمُونه ، وسريرتُك على الأسرار المَصونة مأمُونه ، وما آعوجّت معالمُ إلا وكان تقويمُها بتقويمك ، ولا آستيقظت حيلةٌ لخلاف الحقّ سبيلَ غيِّها بتهويمك(١) ، وإنّ كل قائل لايعلك من إصغاء أمير المؤمنين ماتملكُ بتلاوة الذِّكر الحكيم ، ولايسلُك من قلبه ماتسلُك بمُعجز جَدّه العظيم ، فأنت تخدُم أمير المؤمنين بقلبك مُواليا ، وبلسانك تاليا ، وبنظرك مؤتمنا ، وبيدك مُختزنا ، لاجرم أنك حصدتَ مازرعتَ طيِّبا ، وسقاك ما آستمطرتَ صَيِّبا ، وزُفّت لك الأيادى بِكْرا وثيِّبا ، وحلّلت بِقاعَ المنازل مستأنِسا إذا حلّ غيرك وهَداتِها متهيبا .

فأمّا حُرمتك التى بوّأتك من الآختصاص حَرَما ، وجعلتك بين الخواصّ علَما ، وتوالِى يدك بلمس ماحظِى من الملابس بصحبة جسده الطاهر ، وآشتمَل على زَهْر النُّضار وزَهْر الجواهر ، فذلك جارٍ مجرى السِّكّة والدّعوة فى أنهما أمانةٌ تعُم العباد والبلاد ، وهذه أمانة تخُصّ النفُوس والأجساد ، ولك مما فى خزائنه وكالة التخيير

(١) التهويم النوم الخفيف . يريد أنه لاينام عن ابطال كل حيلة .

والتعبير ، وعن أغراضه الشريفة سفارةُ الإفراح والتغيير ؛ وهذه مواتٌ تجعل سَمَاء السَّمَاح لك دائمة الدِّيَم ، وتُسْكِن آمالك في حَرَم الكَرَم ؛ وتعقد بينك وبين السعادة أوكَدَ الذِّمم ، وتتقاضى لك جُدودَ الجَدّ بقدم الخِدم .

وحضر بحضرة أمير المؤمنين فَتاه ، الذى زُهى الزمانُ به فَتاه ؛ ووزيرُه ، الذى عَزَّ به مِنبره وسريرُه ، السيدُ الأجل أفضل الملوك قدرا ، وأكثرُهم قُدْرة ، وأعظمُهم صَبْرا ، وأدرَبُهم نُصْرة ، وأفيَضُهم جُودا غَمْرا ، وأكشَفُهم لغَمْرة ، وأمضاهم على الحول صَدْرا ، وأردُّهم لكَرَّة ، وأثبَتُهم جاشا وصليلُ السيوف يَخْطُب والمَقاتل تَسْمَع ، وأوضَحُهم في استحقاق المجد حُجَّة تَشْرَعُها الرِّماح الشُّرَّع ؛ وأرَكُبُهم في طاعة أمير المؤمنين لمَشَقة ، وأشدُّهم وطأة على من يَجحد نُورَه وعَقّ حقَّه ؛ فالدنيا مبتسمةٌ به عن ثُغور السُّرور ، والمُلْك بكَفالته بين وليّ منصور وعدوّ محصُور ؛ فأسفرتْ سفارتُه عن أنك من أمثلِ ودائع الصَّنائع وأكفاء الاستكفاء ، وأعيان من يحقِّق اختيارَهم وفضلَهم العيان ، وأفاضل من هو أهل لإسداء الفواضل ؛ وأن الصنيعة ثوب عرك (؟) داره ، وجارٌ قد عقَد بين شكرك وبينه جِوارَه ؛ وقرر لك تقدمةً في الحضرة لأنك فارسهم اسما وفعلا ، وأولهم حين تتلو وحين تتلى ؛ والنظرَ على المؤذِّنين بالقُصور الزاهرة ، والمساجد الجامعة ، وبالمشاهد الشريفة : لأن الأذان مقدّمةٌ بين يدي القرءان ، وأمارةٌ على معالم الإيمان ؛ والنظرَ في تقويم ما يردُ إلى الخزانة العالية الخاصّة والعامّة من الملابس على اختلاف أصنافها ، والأمتعة على ائتلاف أوصافها ؛ ومشارفةَ خزانة الفُروش ليكمل لك النظرُ في الكِسْوات التي تصانُ للَّبوس ، والكِسْوات التي تُبتَذَل للجلوس ؛ وخَزْنَ بيت المال الخاص ليكمل لك النظرُ في الذهب مَصُوغا ومرقُوما ، وخَزْنا وتقويما ؛ واستصوبَ أمير المؤمنين ماراه ، وأمضى ما أمضاه ؛ وخرج أمره إلى ديوان الإنشاء أن يكتب هذا السجلّ لك بذلك .

فاعرف قدر ما عُدق بك من أمور دين ودنيا ، وخدم لا تقوى عليها إلا بلباس التقوى ؛ وأنك قد أصبحت بجنات أنعم أمير المؤمنين رضوانا ، وبذلك للفظ إحسانه لسانا ؛ وباشر ذلك مستشعرا خشية الله فى سرك وجهرك ، متحققا أنه غالب على أمرك ، مذخرا من الأعمال الصالحة ما يبقى عند فناء ذخرك ، مستديما للنعمة بما يقيدها من شكرك ، وما يصونها أن تبتذل من بشرك ؛ عالما أن التقية حلية الإيمان ، وضمان الامان ، وزاد أهل الجنان إلى الجنان ، بقول الله سبحانه فى كتابه العزيز : ﴿ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ ﴾ .

وأخلص نيتك فى خدمة أمير المؤمنين فمع الإخلاص الخلاص ، وأد له الأمانة فإن أداءها أطيب القصص يوم القصاص ، وقم فى خدمته المقام المحمود ، واستدم بها صعود ركاب السعود ؛ فقد عرفك الله بركة النصيحة وعوائدها ، وأنجزت لك الآمال المنبسطة مواعدها ؛ واستشرف أحوال القراء فهم أحق قوم بالتهذيب ، ولزوم أساليب التأديب ؛ فمن كان للآيات مرتلا ، وللدراسة متبتلا ، وبأثواب الصلاح متقمصا ، وبخصائص الدين متخصصا ؛ ولما فى صدره بقلبه لا بلسانه حافظا ، وعلى آداب ما حفظ محافظا ؛ فذلك الذى تشافه تلاوته القلوب ، وتروض بأنواء المدامع جدوب الذنوب ؛ ومن كان دائم الإطالة فى سفر البطاله ، ساترا لأنوار المعرفة بظلم الجهاله ، فحق عليك أن تصرفه وتبعده ، وتجعل التوبة للعود موعده ؛ وكذلك المؤذنون فهم أمناء الأوقات ، ومتقاضون ديون الصلوات ، ولا يصلح للتأذين إلا من كملت أوصاف عدالته ، وأمنت أوصام جهالته .

وأما الأمانة فى الأموال التى وكلت إلى تحزنك وختمك ، والأمتعة التى وكلت إلى تقويمك وحكمك ، فأن تؤدى بسلوك أخلاقك وهى الأمانه ، واتباع طباعك

وهي الإباءُ للخيانة، وأن تستمر على وَتيرتك، ومشكُورِ سيرتك، ومشهورِ سريرتك، ومُنيرِ بَصيرتك، وأن لا تُؤتَى من هوًى تتّبعه، ولا حَيف تبتدعه، ولا قويٍّ تَخدَع له، ولا ضعيف تَخدَعه، ولا من محاباة وإن أحببْت، ولا من مُداجاة كيفما تقلّبت؛ وآذكر ما يُتلَى من آيات الله في مثلها: ﴿ إنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أنْ تُؤدُّوا الأمَانَاتِ إلَى أهْلِها ﴾ والله يتولّى توفيقَك وتوفيقَك، ويُديم [على] ما يُحِبُّ تصريفَك؛ إن شاء الله تعالى.

ومنها ـ ما كتب به القاضي الفاضل أيضا، وهي:

من عبد الله ووليّه (إلى آخره).

أما بعدُ، فإنّ رُتَب الولايات متفاوتةُ الأقدار، متباينةُ الأخطار، وكلُّ شيء منها عند أمير المؤمنين بمقدار، ولها رجال مشرّفو الأقدار، ومَحالُّها بحضرته مقدّرةٌ تقدير منازل الأقمار، ومَحالُّ الأولياء بمقامه مَحالُّ الأهلّة تتنقّل بين أول التمام إلى آنتهاء الإبدار، ومنْ أميَزها قدرا، وأحقّها بأن يكونَ صدرا، وأن يَشرح لمن حلَّه صَدْرا، وأن يَشُوق إليه الخاطبُ من آستحقاقه مَهْرا، ولايةُ مدينة مصر: لأنها المجاورةُ لمحلّ الخلافة، وكلُّ مصرٍ بالنّسبة إليها معها بالإضافة؛ وهي خِطّة النِّيل، وفُرضة المَنيل[(1)]، وبها إذا هجمت الخُطوب المُنيـل، ومنها من عثَرات الأيام المَقيل؛ ومنها تُونِس أنوارُ الإمامة على أنها تتوضّحُ بغير التأميل وبَدْء التأميل، ولا يؤهّل لولايتها إلا لكل حامل لعبئها الثقيل، ولا تسنَدُ الخدمةُ فيها إلا لكل مُثرٍ من ذخائر السياسة غير فقير ولا مُقل، ولا يتوقّل رُتبتها إلا من تكونُ به الرتب مُنيرة ومحاسنُه لا تَملُّ مما يُمل؛ ولا يمتطي صَهوتَها إلا من لا يطأطئ للأطماع عزّة نزاهته ولا يُذِل، ولا يرتقي درجتَها إلا من يهتـدي بأعلام الديانة التي لا تُضـل، ولا يُقرأ سِجلُّها إلا لمن يَطوي مَظالِمَ الرعية طَيَّ الكتاب للسِّجلّ.

(1) المنيل بفتح الميم الشيء المعطى.

ولما كنتَ أيها الأمير ممن توقّدت هذه الأوصافُ فيه توقُّد النار فى ذُرى علَمِها، وأوجد معانِيَ مَعاليها وأنقذها من إسار عَدَمِها ؛ وآرتقَى إلى هَضَبات الرياسة المَنيعة بما جعل خِلالَه المُسلَّمَ فضلُها مثل سَلَمِها ، وناولَتْه الدِّرايةُ عِنانَيْ سيفِها وقلَمِها ؛ وشهدت الأيام بتقدُّم قَدَمِه فى مراتِبها وقِدَمِها ، وأمِنَتِ الصواب أن يُتبِعَ أفعالَه إذا أمضاها بعيب (؟) بذَمِّها ؛ وكتبَتْ أقلامُ رماحه سطورَ الطعن فى صُدُور العدا مستمدّة من دَمِّها ؛ وتجشّم مشقّاتِ المعالى فآثرَتْه تعفى راحة بجسمها ؛ وآجتمعت فيه صفاتُ المَحاسن المتفرّقة فقضَى عليها بتجسيمها ؛ وتَصدَّر الدرجات المحصنَة من مطالع الحاضر لحظِّه من رقتها ونسيمها ؛ وتعرّضتْ ذخائرُ المحامد لما فى طبْعه من آقتناصِها ونَعيمِها ؛ وقرّتْ عينُ المنازل فما زوَتْ وجهَ إقبالها ولا بسطَتْ راحةَ تظلُّمِها ، وآنثنَتْ إليه عقائلُها المصونةُ فما تَنَتْ دُونَ دِيانَتِه عِنانَ تلوُّمِها ؛ وأثرُك فى كل ولاية مشكُور ، وسعيُك فى كل غاية غيرُ مقصور ، وغَناؤك فى المُهِمّات مُعَدٌّ مذخُور ، ومُساجِلُك عن أيسَرِ ما وصلْتَ إليه مدفوع مدحُور ؛ وليلُ شَبابك بالكوكب الدُّرِّيّ من صولتِك منحُور ، وأفعالُك أفعالُ مَنْ لا يحوزُ غيرَ مُحْرِز كَسْبِ الأجور ، وخِلالُك خِلالُ من آنتظَم فى سِلْك الذين يرجُون تجارةً لن تبُور .

وقد سلفَتْ لك خِدَم تصرّفْت فيها وتدرّجْت ، وعُرِّفْتَ بطُهْر الذكر من رعيّتها وتأرّجْت ؛ وتحوبْتَ من الأوزار على ما يوقع ذنبَك وتحرّجْت ؛ وجريتَ على أجمل عاده ، وآقتضيْتَ عند آنقضاء شأو الإبداء آستئنافَ شأو الإعاده . ومَثَلَ بحضرة أمير المؤمنين لسانُ أمره ، وسيفُ زجْره ، السيدُ الأجلُّ الذى قام بما آستكفاه فأحسَنَ وحسَّن ، وصان حِمَى الملك فأحصَن وحصَّن ؛ وجاد بنَفْسه فى سبيل الله فما ضَنّ ، وكان مكانَ ما أُمِّل عند آصطفائه وفوقَ ما ظُنّ ؛ وسدّد قُصودَه ، فرقَتْ سهامُها وما مرقَت عن طاعته ، وأطلع سُعودَه ، فأنارت نُجوما لأوليائه ورُجُوما لأهل

خلافِ خلافتِــه ، وأطلقتْ أحكامَ عدلِ الله في خلْق الله أحكامُ مراماتِه وسيفُ إخافتِــه ؛ فالدنيا بيُمن ايالتِــه عن ماخذ السراء ، وطُلَقاء الجُود بمــا عملته يدُه من قيود الإحسـان في عِداد الأَسْراء ؛ ورضا أميرالمؤمنين عنــه كافلٌ له بأن يُرضِيَ الله في الأعداء ، وملوكُ الأرض إن فدتِ السماء(؟) طيِّبةٌ أنفسُها له بالفِداء ، والدنيا متأرِّجة بطِيبِ خَبَرِه ، والعلياء متبرِّجة بحُسْنِ نظَره ؛ وبحارُ التــدبير لا تُفارق زَبَدَ أمواجِها إلا بفاخرِ جَوْهَرِه ، وقوانينُ السِّياسة لا تُوجَد مستنَدَة إلا عن آتّباع أثَرِه ؛ ولاحظٌ لمحاربه إلا ســلْمه بعثاره وتثلُّمه بعثْرِه ، فأثنىٰ عليك بحضْرته واصــفا ، وثنىٰ إليك عِنانَ عنايتِــه عاطفا ، ورأىٰ تقليــدَك ولايتَها مُعْرِبا باستحقاقك عارفا ـ خرج أمر أمير المؤمنين إليــه بأن يُوعِزَ إلىٰ ديوان الإنشاء بكَتْب هــذا السجلّ لك بتقليدك ولايةَ المَعُونة والحِسْــبة بمدينة مصر والجِيزة والقَرَافة ، إنافةً بك عن النُّظراء ، وإبانةً عمّالك من جميــل الآراء ، وتَطْرِيةً لحظك بمــا حصَــل به من الإطراء ، ورعايةً لمــا لكَ من الآنتهاء إلىٰ أقصىٰ غايات الإحسان والإجراء ، وإيجابًا لمــا تتوسل به من الغَناء ، وذخائرِ الغَناء والإثراء ، وإشادةً لقدْرك الذى أشاده ما أنت عليــه من الإيواء إلىٰ ظلِّ النزاهة والآستيناء .

فتقلَّدْ ما قُلِّدته من هذه الخدمه ، وآرفُلْ بمــا ضَفَا عليك من ملابس هذه النعمة وبمــا صفا لديْك من موارد هــذه الجُمّه ، وقدِّم تقوىٰ الله أمامَك ، وآتَّبِــعْ وصيَّتَها التى آستعمل الله بها إمامَك ؛ فبها النجاةُ مضمونه ، والرحمةُ متيقَّنة لا مظنُونه ؛ قال الله ســبحانه فى كتابه المكنون : ﴿ وَيُنَجِّي اللهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ .

وآعتمد المساواةَ بيْن النّاس فيما هو حُكْم ، والنظرَ بالعدل فى كلِّ ما هو ظُلْم ؛ ولا تجعَلْ بين الغنيِّ والفقير فى الحق فرْقا ، وآسلُكْ فيهــم طريقًا واحدًا فقد ضَــلّ

مَنْ سلك فيهم طُرُقا، واشمل أهلَ المدينة بطُمَأنينة تُنيم الأخيار وتُوقظ الأشرار، وأمنةٍ تساوى فيها بينَ ظلام الليل ونُور النهار : لتكونَ ولايتُك لهم مَوْسما، ومَوْرِدها لثُغُور الأمر مَبْسِما، وأنصف المظلوم واقمع الظالم، وكُنْ لنفسك زعيما بنجاتها فالزعيم لها غارم ؛ وانْهَ عما نهىَ الله عنه من الفحْشاء والمُنْكَر، وأمر بالمعروف وحَسْبُك أن تُعرفَ به وتُذْكَر، وخُذْ فى الحدود بالاعتراف أو الشهاده، ولاتمدَّ حدَّها بنقص ولا زياده ؛ وكما تُقيمها بالبينات، فكذلك تدرؤُها بالشُّبُهات . وفى هذه المدينة من أعيان الدولة ووُجُوهها، وكلّ سامى الأقدار نبيهها، وأرباب السيوف والأقلام، والمعدودين فى العلماء والأعلام، والمعدَّلين الذين هم مَقاطع الأحكام، والتجار الذين هم عينُ الحلال والحرام، والرعيةِ الذين بهم قِوام العيْش فى الأيام، مَنْ يلزمك أن تكون لهم مكْرِما، ولإيالتهم مُحْكِما، ومن ظلمهم متحرّجا متأثِّما، ولسانُهم فى الشكر عن لسانك متكلِّما، وإلى قلوبهم بجميل السِّيرة متحبِّبا، ولمَساخطهم ــ مالم تُسخِط الله ــ متجنِّبا . واشْدُدْ من المستخدَمين بباب الحكم فى إشخاص مَنْ يتقاعد عن الحضور مع خَصْمه، ويتّبع حكمَ جهله فيخرُج عن قضيّة الشرع وحُكْمه ؛ وأوعِزْ إلى أصحاب الأرباع بإطلاعك على الخفايا، وإبانة كل مستُور من القضايا، وأن يتيقَّظوا لسَكَنات الليل وغَفَلات النهار، وخُذْهم فى الليل بما ٱلتزموه من الحَرَس من مَكايد اللُّصوص والدُّعّار، وأيقظهم لأن يتيقَّظوا فرُبَّما آجتُنِىَ ثمرُ الأمْن من غَرْس الحذار ؛ وإذا ظفِرْت بجان قد أوبقه عملُهُ، وطمَح إلى الفساد أمَلُهُ، فٱجمَعْ له بين التنكيل والتوكيل، أوذى ريبةٍ إن زاد ريبةً بالحبْس الطويل، وإلا فطالع بأمره إنْ كان من غير هذا القَبيل . وواصِل التَّطواف فى العَدَد الوافر، والسِّلاح الظاهر، فى أرجاء المدينة وأطرافها، وعمِّر بسرِّك سائرَ أرجائها وأكنافها . وٱنظر فى الحِسْبة نظَرَ من يحتسب ما عند الله خيرٌ وأبْقىَ ومن يرغَبُ فى الأجر

ويُعرِض عن شعار لباس التمويه واللَّبس . وآمنع أن يخلو رجل بامرأة ليستْ بذات مَحْــرَم : لتكون قد سلِمْتَ وسلِمت من شُبهتَي المَطْمَع والمَطْعَم . وآستوضِعْ آلاتِ المعاملات ، وغيرها فيما تخِفّ الموازين أو ترْجَح ﴿ يَوْمَ تُبَــدَّلُ الأرْضُ غَيْرَ الأرْضِ والسَّـمٰواتُ ﴾ . وآعتمِدْ فى تهذيبها وتصويبها ماتُحسِن فيــه للمسيء والمُحْسِن ، لأنك تُكفّ أحدهما عن عمل المتهافت وعن المَهُوب المعن .

وتقدّم بنَفْض الأذىٰ عن جادّة الطريق ، وآنْهَ أن تحمَّل دابّةٌ أكثرَ ممــا تُطيق ؛ وتفقّد الجوامعَ والمساجدَ بالتنظيف إبانةً لجَمالهــا ، وصيانةً من آبتذالهــا ؛ ولا تمكِّن أحدا أن يحضُرها إلا مؤدّيًا للفَرْض أو متطرا أو متطوّعا ، أو عالمــا أو متعلما أو مستَمِعا ؛ فإنها أسواقُ الآخرة ، ومنازل التَّقوىٰ العامرة ؛ وأجْرِ الأمورَ علىٰ عاداتها ، وآسترشِدْ فى طارئاتها ومُشْكِلاتها ؛ فآعلَمْ هذا وآعمَلْ به . إن شاء الله تعالىٰ .

⁂

وهذه نسخة سِجِلٍّ بولاية قاضٍ بثغر الإسكندرية ، من إنشاء القاضي الفاضل ، من هذه الرتبة ، وهي :

من عبد الله ووليّه (إلىٰ آخره) .

أما بعدُ ، فالحمــد لله الذى نشَرَ رايةَ التوحيد وأعزّ مِلّةَ الإسلام ، وهدىٰ بكَرَمه مَنِ آتّبع رِضوانَه سُــبُلَ السَّلام ، رافِع مَنَــار الشرع وحافظ نظامه ، ومُجْزِل الثواب لمن عمِل بأمْره فى تحليل حلالِه وتحريم حرامِه ؛ وسِع كلّ شيء رحمةً وعلما ، وساوىٰ بين الخليقة فيما كانَ حُكْما ، وقال جلّ من قائل فى كتابه العزيز : ﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وهُوَ مُؤْمِنٌ فلا يَخَافُ ظُلْمًا ولا هَضْمًا ﴾ . سبحانه من خالق لم يزلْ رءوفا ببَريّتــه ، عادلًا فى أقضيته ، مُضاعفا أجْرَ من خشيَه وعمِــل بخيفته ، موفّرا ذلك له يوم يودُّ المُجْرِمُ لو يفتدى من عذابِ يومئذٍ ببَنِيه وصاحبته وأخيه وفَصيلته .

يحمده أميرُ المؤمنين أنْ أفاض عليه أنواراً إلهيَّه، وتعبّد البريّةَ بأن جعلها بطاعته مأمورةً وعن مخالفته منْهيّه؛ وآستخلف منه على الخليقة القوىَّ الأمين، وآتاه مالم يُؤتِ أحدًا من العالمين؛ ويسأله أن يصلّى على جدّه الذى عمَّ إرسالُه بالرحمه، وكشف بمبعثه كلّ غُمّه، وجعل شرعه خيرَ شرع وأُمّته خيرَ أمه؛ فأحيا من الإيمان ما كان رَميما، وهدىٰ بالإسلام صِراطًا مستقيما، وخاطبه اللهُ فيما أنزل عليه بقوله: ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا ﴾ وعلىٰ أبينا أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب الذى وفّر الله نصيبَه من العلم والحِكْمَه، وجعل خلافَتَه فى أرضه لاتخرج عن ذرّيته الهُداة الأئمَّه؛ وعلىٰ آلهما الأطهار، وعِتْرتهما السادةِ الأبرار، الذين وَلاؤُهم يُحظى بالجنة ومحبّتُهم تُنجى من النار، وسلّم عليهم أجمعين [سلاما] باقياً إلىٰ يوم الدين.

وإن أميرَ المؤمنين لمّا أفرده الله به من المآثر، وتوحّده به من المَناقب والمَفاخر، وخصّه بشرفه من الإحسان إلىٰ أوليائه بالإنعام إليهم فى الدنيا والشفاعةِ لهم فى اليوم الآخر ـ يرتادُ لجلائل الخدَم مَنْ يُشار إليه ويُومىٰ، ويختار لتولّيها مَنْ يكون بأثقالها ناهضًا وبأعبائها قَئُوما؛ ويُسنِد أمرها إلىٰ من لا يُمارىٰ فى سُؤْدَده ولا يختَلَف فى فضله، ويَعلِق شُئُونها بمن عُدِقت الرياسةُ به وبأسلافه من قَبْله؛ فيكون إذا شُرّف بها عَرَف منزلتَها ومحلَّها، ووقعَ الاتفاقُ علىٰ التمثل بقوله: ﴿ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ﴾.

ولمّا كنتَ أيُّها القاضى المكينُ من البيت الذى آشتهر قَدْرُه، وآرتفع ذِكْرُه، وحلَتْ رتبتُه، بأوصاف كلٍّ من أهله فى قوله وفعله؛ وتردّدت رياستُه، فى عددٍ كثير لاعهدَ للرياسة بالتردُّد فى مثله؛ وكانتْ لك ولمن مضى من أسلافك آثارٌ فى الخدَم خلَدتْ لكم مجدا يبقىٰ، وأقرتْ من الحديث به مالا يسمُو إليه النّسيانُ ولا يَرْقىٰ؛

فكل ماتتولّونه متجمّل بكم ولا يُريد معكم زياده، وكلّ مايعتمد فيه عليكم قد نال مطلوبَه وبلغ البغيـة والإراده ، والذى يخرج عن نظركم يتلهف عليكم حنيناً إليكم وآشتياقا ، وإن رُدّ إليكم إلى تشبثًا بكم وتمسكا وآعتلاقا.

هذا إلى مالكم من الحُرُمات المرعيه، والمَواتّ التى ليست بمنسيه . والسيد الأجلّ الأفضل الذى حسبُه من المفاخر قيامُه بحق الله لمّا غفَل الملوك عنه وقعدوا ، وآستيقاظُه بمُفرده حين ناموا دُونَ آستخلاصه ممـا عَراه ورقَدوا، وإن آنتصابَه آيةٌ أظهرها الله لله ، وحسَمَ بها فى رفع منار الدين كلّ عِلّه ؛ فإذا أنفقت الأعمـار فى [بيان] أوصافه كانت جديرةً بذلك حريّه ، وإذا ذُكرت آثاره فى الإسلام كان العلم بكرمها لاحقًا بالعلوم الضّروريه ؛ فما يُنسب المتوسّع فى التقريظ له إلى تغال ، ولا تضييع وقت يُقضى فى آهتمام بالثناء على مناقبه وآشتغال ـ يُواصلُ الثناء عليك والشكر لك ، ويتـابعُ من ذلك ما إذا ذُكر اليسير منـه شرّفك وجمّلك ؛ ويصف ما كان لأخيـك القاضى المكين ـ رحمـه الله ـ من الآجتهاد فى المُناصحات ، ومن الأفعال الحَسَـنة والأعمال الصالحات، ومن الوَجاهة التى أحلّته مكانًا متجاوزا غايةَ الآمال الطامحات ، مارفعـه عن طبقات كثير من سادات الناس، وجعل حاسديه فى راحة لمـا شملهم من دعة الياس . وإنك أيها القاضى المكين، الأشرفُ الأمين، قد بلغت مَداه فى الجلاله ، وورثت مجـده لا عن كَلاله ؛ وحويت فضله ونخره ، وقفوت أثره وأحييت ذكْره ، وحُزت خِلاله الجبـلة وأفعاله الرضيّـه ، وحصّلت الفضيلتين الذاتيّة والعَرضيّه ؛ ولذلك تقررت نُعوتك « القاضى المكين » لآستيجابك فيما تقضى به جزيلَ الثواب ، ولتمكّن أفعـالك فى عمـل الصّواب ؛ و « الأشرف الأمين » لشرف نفسـك ، وكون أمانتك فى حاضر يومـك على ما كانت فى ماضى أمسك ؛ و « تاجُ الأحكام » لأن مايصدُر منها سامى المنهاج ، وقد آرتفع محلّه كما

آرتفع محلُّ التاج ؛ و « جمالُ الحُكّام » لأنك لما وَلِيتَ ماوُلُّوا ، جمّلتهم إذ فعلتَ من الواجب فوق مافعلُوا ؛ و « عُمدةُ الدين » لأنّ من كان مثلك ركَن إليه الدينُ وآستند ، وتوكّأ على جانبه وآعتمد ؛ و «عمدةُ أمير المؤمنين » لأنك ذخيرةٌ لدولته ، ونِعْم البقيةُ الصالحةُ لمملكته .

ومعلوم أن ثغر الإسكندرية ـ حماه الله تعالى ـ الثغرُ الرفيعُ المقدار، الذى هو قُرّة العين للإسلام وقذًى فى عيون الكُفّار ؛ ومحلُّه مما تتطامن له معاقلُ التوحيد وحصُونُه ، وهو مشتملٌ من الفقهاء والصلحاء والمرابطين وأهلِ الدِّين على مَنْ لم يزَلْ يحفظه ويصُونه ؛ وإليه تَتَابُل(١) السُّفّار ، وتَتَردّدُ التُّجّار ؛ وهو المقصود من الأقطار القصيةِ النائيه، ومن البلاد القريبةِ الدانيه ؛ وما زالتْ أحوالُه جاريةً بنظَرك على أحسَن الأوضاع وأفضلها، وأوفى القضايا وأكملها ؛ وما كان آستخدامُ غيرك فيه إلا ليَظْهَر إشراقُ شَمْسك، وليَزُولَ الشكُّ فى تبريزك على جِنْسك، وليتبيّن فضلُ مباشرتك وتولّيك على أن ذلك لم يكُنْ مكتتما، وليتحقّق أنّ عقدَ صَلاحه لايكون بتولّى غيرك متّسِقًا ولا منتظِما .

وقد رأى أميرُ المؤمنين إمضاءَ مارآه السيدُ الأجلُّ الأفضل من إقرارك على الحكم والقضاء : لاطّلاعك من ذلك على سِرّه ، ونَفاذك فى جميع أمرِه ؛ ولخُبْرتك به ودُرْبتك ، ولاستقلالك ومضائك ومعرفتك ؛ وإنك إذا آستمْررت على عادتك ، غَنِيتَ عن تجـديد وصيّتك ؛ فتَمادَ على سُنّتك ، ولا تخرُجْ عن سبيلك ومَحجّتك ؛ وأنت تعلم أنّ الشُّهود بهم يُعْطِى الحُكّام ويمنعون ، وبأقوالهم يفصلون ويقطعون ؛ وبشهاداتهم تثبتُ الظُّلامات وتَبْطُل ، وعليها يعتمَد فى آنتزاع الحقُوق ممن يُدافع ويَمْطُل ؛ فواجبٌ أن يكونُوا من أتقياء الورى، وممن لا يتّبع الهوى ؛ فآستَشِفّ

(١) أى تنصب وترد عليه كثيرا انظر اللسان والقاموس .

أحوالهم، وآستوضِحْ أمورهم وأفعالهم؛ فمن كان بهذه الصفة فأجرِه على عادته فى آستماع مَقالتِــه ، ومَنْ كان بخلافه فقِف الأمْر على عدالته ، وآحْسِم مادّةَ الضرر فى قبول شهادته؛ وقد جعل لك ذلك من غير آستئذان عليه ، ولا آعتراض لك فيه؛ ولا تُقرِّبْ أحدًا من رُتْبة العَدَاله ، وآرفَعها بإزالة الأطماع فيها عن الإهانة والإذاله ؛ وآغضُضْ من أبصار المتطلِّعين إليهـا ، والمتوثّبين عليهـا ، بالتطارُح على الجهات ، وآلتمـاسها بالعنايات التى هى من أقوى الشُّبهات ؛ وإن ورد إليــك توقيعٌ وتزكيةٌ من البـاب فأصدره [فى] مُطالعتك ليُحيط العلمُ به، ويخرُجَ إليك من الأمر ماتفعلُ على حسَبِه ؛ وآفعلْ فى دار الضَّرب وأحوال المستخدَمين والمتصرِّفين على ما أنتَ به العالمُ البصير، والعارفُ الخبير .

وقد جُعل لك إضافةً إلى ذلك النظرُ فى أمرِ جميع هــذا الثَّغر المحروس وأُسْــند إليــك ووُكِل إلى صاءِ ـب تدبيرك ، وإلى حُسْن تهذيبك ، وإلى بركة سيـاستك ، وإلى عملك فيه بمقتضى ديانتك ، وصار جميع المستخدَمين به من قِبَلك متصرِّفين ، ولأوامرك متوكِّفين ، وعنــدَ ما تَحُدّه واقفين ، ولمَرَاسمك متابِعين غيرَ مخالفين ؛ فمن أحمدتَه منهــم وعلمتَ نَهْضته فأجره على عادتِه ورَسْمه ، ومَنْ كانــ بخلاف ذلك فاستبدِل به وآمْحُ من الخدمة ذكرَ آسمه ؛ فلا يَدَ مع يَدِك ، ولا عُدُولَ عن مقْصدك ؛ والآستخدامُ فى هــذا الأمرِ قد أُسنِد إليك ورُدّ ، وكونُهُ من جهة غيرك أُغلِق بابه وسُدّ ؛ فلا تَصرُّفَ فيه إلا لمن صَرَّفته ، ولا خِدمةَ إلا لمن آستخدَمْتَه .

وتأكيدُ القول عليك لا يَزيدُك حِرصا ، والمعرفةُ بهمّتك وخُبْرتك تُغنيك عن أن توصى ؛ والذى تقدّم ذكره فى هذا السجِلّ إرهاف لحدّك ، وإعلاءٌ لجَدّك ، وإطلاع لكوكب سَعْدك ؛ والله يتولّى تأييدَك وتوفيقَك ، ويُوضح إلى الخير سبيلك وطريقَك ؛

فاعلم هذا وآعمل به ، وطالِع مجلسَ النظر بأمور خِدْمتك ، وما تحتاجُ إلىٰ عمله فى جهتك ، إن شاء الله عز وجل .

* * *

وأما السِّجلات المكتَتَبة بالوظائف الدّيوانيـة ، فكما كتب به بعض كُتّابهم بولاية ديوان المُرْتجع :

لسَنِيِّ الدولة وجَلَالِها ، ذى الرياستين ، أبى المنجى سليمان بن سَهْل بن عِمْران .

أما بعـــدُ ، فإنّه من حسُنَتْ آثارُه فى مناصحات الأئمــة الخلفاء ، وآرتفع محلُّه فى طاعتهــم عن الأنظار[1] والأمثـال والأَكْفاء ، وظهَرتْ بركاتُ أفعاله فيما يتولّاه ظهورَ الشـمس ليس بهـا من خَفَاء ، وباهَىٰ بتدبيره كُلَّ مايباشرُه من أمرٍ خطيرٍ قدرُه ، وآستدعَتْ من الثناء والإطراء ماتأرَّجُ نَشْره ويتضوع ذِكْرُه ، وتساوىٰ عنده القولُ والعملُ ونافَسَ فيه الخُبْرُ الخبرَ ، ورتَّبه مرتَبَة مقدَّما علىٰ مَنْ مضىٰ من طبقته وغَبَر ، ووَسَم الأعمال بسِمات فى العمائر تُضاف إليه وتُنْتَسب ، وغدَت الخدَم تَزْهىٰ به وتُعْجَب ، وهو لا يَزْهىٰ ولا ينظُر ولا يُعجَب ـ كان ردُّ المهمّات إليه حُسنَ نظرٍ لهـا ، وإذا خُطِرت جلالةُ توليها علىٰ غيره أضحىٰ نفاذُه متبَهجا له مَحَلّها ، وكان التنويهُ به حقًّا من حقوقه وواجبًا من واجباته ، والمبالغةُ فى تكريمه وتفخيمه ممـا يتعيّنُ الأنتهاء فيه إلىٰ أقصىٰ آماده وأبعد غاياته .

ولمّا كنتَ فى متولّى الدواوين ، مشهورَ الشأن والقدْر ، وحالًا من مَراتب الكُفَاة المقدَّمين ، فى حقيقة الصَّدْر ، إن آنتظمُوا عقدا كنتَ فيـه الواسطه ، وإن قَسَط غيرُك علىٰ مُعامَل لم تكن أفعالُك قاسطه ، ولك السـياسةُ التى ظلَّتْ ساحاتُها رِحابا ،

(١) جمع نظر بوزن نِدّ بمعنى النظير حكاه أبو عبيدة . انظر اللسان ج ٧ ص ٧٦ .

والرياسة التي من وَصَفَك بها فما تَملّق ولا داجَنَ ولا حابَى ، والصِّناعةُ البـارعة التي تَشهَدُ بها الطُّروس واليَرَاع ، والأمانةُ الوافيــةُ التي آرتفع فيها الخلافُ ووقَع عليهـا الإجماع ، والتصرّفُ في أنواع الكتابة على تبايُنِ ضُروبها ، والآستيلاءُ على ظاهرِها ومســتُورها وواضِحِها ومكتُومها ، والأخذُ لها عن أهــل بيتك الذين لم يَزالُوا فيها عَريقين ، ولم ينفكُّوا في مَدَاها سابقين غيرَ ملحوقين ؛ وقد زِدت عليهم بمـا حَرَتْه بِهمّتك ، ونِلْته بقَريحتك ، حتّى بلغتَ منهـا ذِروةً شامخةً عليّه ، وحصَّلت فضيلتين فَضِــيلةً ذاتيّة وفضِــيلةً عَرَضِيّه ؛ وأمِنْتَ مَنْ يُباريك ويساجِلُك ، وكُفِيت مَنْ يناوئك ويُطاوِلك ؛ وكان الديوان المُرتَجَع عن بَهْرامَ وغيره من أجلّ الدواوين وأوْفاها ، وأحقِّها بالتقـديم وأَوْلاها : لأنه يشتَمِل على نواحٍ مختاره ، ويحتوِي على ضِيـاعٍ مكنُوفة بالعِماره ؛ وقد زاده مِيزةً على غيره كونُك ناظرًا فيــه ، وأنك مـدبِّر أمرِه ومستوْفيه ،

وحضر بحضرة أمير المؤمنين فَتاهُ ووزيرُه السيدُ الأجلُّ الأفضلُ الذى عزّ بحُسْن ســيرته المُلكُ وتضاعفَ بهـاؤُه ، وضَمِنتْ مصالحَ الأمور تدبيراتُه وآراؤُه ؛ وظلّتْ شُئُون الدولة بمـا يقرّره منتظمةً مستقيمه ، وغدَتِ الميَامنُ والسُّعودُ مخيِّمةً في داره مُقيمه ؛ وآتفقتْ على الثناء عليــه مختلِفاتُ الأقوال ، وقضتْ مَهابتُه بحماية النُّفوس وصيانةِ الأموال . وفاوضه في أمر هذا الدِّيوان فأفاضَ في وَصْفك وشُكْرك ، وأطنبَ في تَقْريظك وإجمال ذِكْرك ؛ ونبّه على الحظ في توَلّيك إيّاه ، وواصلَ من مَدْحك بمـا يتضوّع عَرْفُه ويَطيب رَيّاه ؛ وقرّر لك من تولّيه مايصلُ سببَ الخيرات بسبَبه ، وميّزك بمـا لم يَطْمَع أحد من كافّةِ متولى الدواوين به ؛ فلم يجعلْ فيــه يدًا مع يَدِك ، ولا نظرًا إلا لك بمفرَدِك ، فلا يرفَعُ [أحد] شيئا إلى غير ديوانك من حساب مايَجْرى في أعماله ، ولا مُعاملةَ لبيت المـال إلّا معك فيما يَحِلّ من أمواله . فأمضى

أمير المؤمنين ذلك وأمر به ، وخرج أمره إلى ديوان الإنشاء بكتب هـذا السجل بتقليدك الديوانَ المرتجع المذكور : ثقة بأنك تأتى فيـه على الإراده ، وتتأتّى لبلوغ الغرض وزياده .

فآستخر الله تعالى وباشر أموره بجدك المعهود ، وشمّر عن ساق عزمك المشهود وسعيك المحمود ، وآجر على رسمك فى العمل بمـا يحفظ أوضاعه ، ويزجى آرتفاعه ، ويزيح علّتـه ، ويغزر مادّته ، فآعتقد مواصـلة الليل والنهـار فى مصالحه فرضًا إذا آعتقدها غيرك نفلا ، وآجعل آجتهادك لآستخراج أمواله وكّل عليها إلى أن تصـل إلى بيت المـال قفـلا ، وآستنظف ما فيـه من تقـاو وباق ، وآفعـل فى تدبيره مايجرى أموره على الوفاق ، وآستخدم من الكتّاب مر__ تحمده وترتضيه ، وتصّهم إلى الأفعال التى تستدعى شكرك لهم وتقتضيه ، ولا تسوغ لضامن ولاعامل أن يقصّر فى العماره ، وآعتمد من ذلك مايكون على كفايتك أوضح دلالة وأصحّ أماره .

وقد أمر أمير المؤمنين أن تجرى الحالَ على ما كانت عليه من دخول ذلك وبيعه بغير مكس فى جميع الأعمـال ، وأزاح مع ذلك علتك ببسـط يدك وإنفاذ أمرك وإمضـاء قولك ، وإفرادك بالنظر مر__ غير أن يكون لأحد من متولّى الدواوين على آختلافهم نظر معك ، فتمادَ فى حسن تدبيره على سنّتك ، ولا تخرج عن مذهبك وطريقتك ، والله يوفقك ويسعدك ، ويعينك ويعضدك ، فاعلم هـذا وآعمل به إن شاء الله عز وجل .

المرتبـــــة الثـــالثـــــة

(من المذهب الأول من سجلات ولايات الفاطميين أن تفتتح بالتصـدير أيضا ، وهو « من عبـد الله ووليه » إلى آخر التصلية على النبي صلى الله عليه وسلم وأمير المؤمنين علىّ رضى الله عنه ؛ ثم يؤتى بالبعدية ، لكن من غير تحميد ، بل يقال : «أما بعدُ فإنّ أولى» أو «إنّ أحق» ونحو ذلك ؛ ويذكر مناقب المولَّى ثم يأتى بالوصايا)

وآعلم أنّ هذه المرتبةَ من السّجلّات يشترك فيها أربابُ السيوف وأربابُ الأقلام من أصحاب الوظائف الدينيّة والوظائف الدّيوانية .

فأما سجلّاتُ أرباب السُّـيوف فكأصحاب زُمُوم طوائف الرِّجال ، يعنى التّقدمة عليهم والولايات ونحو ذلك ، على ماسيأتى ذكره إن شاء الله تعالى .

وهذه نسخُ ولاياتٍ لأرباب السيوف بالحَضْرة من هذه المرتبة .

نسخة سجلّ بزمّ طائفة ، من إنشاء القاضى الفاضل ، وهى :

من عبد الله ووليّه (إلى آخره) .

أما بعدُ ، فإنّ أمير المؤمنين يصطنع مَنْ يرتضيه لتأليف عَبيده وضمّهم ، ويستوقفه للنظر فى تقديم رجال مملكته وزَمّهم ، ويختار مَنْ يجتبيه لإحراز مَدْحهم بالبُعْد من مُوجبات ذَمّهم ؛ ولا يؤهّل لذلك إلا مَنْ توسّل بالغَناء وتقرّب ، وآستقلّ بالأعباء وتدرّب ، وأطلَق حَدَّه التوفيقُ فمضى وتذرّب ، وأُودِع الإحسانَ فما زايَل محلّه ولا تغرّب ، ولابَسَ الأمورَ ملابسةَ من فَطِن وجَرّب ؛ وقد أيّد الله دولته بفتاه وأمينه ، وعقده وثمينه ، السيد الأجلّ الذى غدتْ آراؤه للمصالح كوافل ، وأذكى للتدبير عُيونَ حَزْم غير ملتفتاتٍ عنه ولا غوافل ، وأطلع من السّعد نجوما غيرَ غوارِبَ

ولا أوافل، وقام بفرائض النّصائح قيامَ من لم يُجوز فيهـا رُخَصَ النَّوافل، وتحدّثتْ بأفعاله رِماحُه فى المحافل فما راعت الجحافل .

ولمّا مَثل بحضرة أمير المؤمنين أجلّ ذِكرك واطابه ، وقصـدَ بك غرضَ الإصطناع فأصابه ، واستمطر لك الإنعامَ الغَدَق السَّحاب فأجابَه، ووصَفَ ما أنت عليـه من شَهامةٍ شُهِدت وشُهِرت ، وصرامةٍ تظاهَرَتْ وظَهرت، وكِفَـايةٍ بَرَعتْ وفَرَعت ، ونزاهةٍ آستُودِعت الأمانةَ فرَعَتْ، ومُناصحةٍ آنفردَتْ بوَصْـفِها، وتحلّت واسطةَ عِقْد صَـفِّها ، وجهـادٍ لم يزَلْ به القرْءانُ مُغْرِيا ، والصَّعبُ المقَـادِ مُذْعِنا والخَطْب عابيا (؟) فى قيادها مدعيا، وقرر لكَ الإستخدام فى زمِّ الطائفـة فأمضى تقريرَه ، وآستصابَ تدبيرَه، وخرج أمْرُه إليه بأنْ يُوعِز إلىٰ ديوان الإنشاء بكَتْب هذا السِّجلّ وإيداعه ماتهتَدى به، وتعمَلُ بتأْديبه .

فتقلّد ماقُلِّدته من ذلك عاملا بالتّقيّة فإنهـا الجنّةُ والمَحجّة ، والجُنّة والجَنّـه ، والمَدد السليم ، والمَزيج القويم ، والنعمةُ والنّعيم ، يقول الله سبحانه فى كتابه الحكيم : ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴾ .

فانهض بشُروط هـذا الزّم نُهوضا يُؤدّي عنك من النُّصح مفروضا، ويجعلُ لك كلّ يوم كتابَ شـكر مقْضُوضا ، وسُسْ هـذه الطائفةَ بمـا يُولِيها دواعيَ الوِفَاق ، ويَحْميهـا من عَوادِى الإفتراق، وآجهَدْ فى منافعهـا مجتَلِبا ، ولأخلاف دَرّها مُحْتلبا، وآنتصبْ لإستشفاف أحوالهم وتَعهُّدها، وملاحظة أفعـالهم وتفَقُّدها ، فمن ألفيْتَه إلىٰ فرائض الخدمة مُسْرِعا ، وبنوافلها متَطوّعا ، وبكَرَمه عمّـا يَشينه مترفِّعا، شحَذت بَصيرته بالتّكْرِمه ، ورشّحتَ هِمّته للتّقْدمه، ومن وجَدْته لتلك الصفات الزائنة مُخالفا، وللصفات الشائنة مُؤالفا ، ولنفسه عمّا يرفَعُها صارفا، قومْتَ أوَدَه وثقّفته ، وأشرفت به علىٰ مَنْهج الصِّراط ووقّفته ، فاعلَمْ هذا وآعمل به ، إن شاء الله تعالىٰ .

وهــذه نسخة سجلّ بولاية الفُسْطاط المعبَّر عنهـا بمصر على نحو ماتقدّم فى ولاية القاهرة، وهى :

أما بعــدُ، فإنّ أمير المؤمنين لمـا خصّ الله به آراءه من التأييد الذى يُسَدّد سهامَهـا، ويُجزل من التوفيق سِهامهـا، وأطلق به يَدَه من أيادٍ تسبِقُ آمادَ الآمال وتُكاثِرُ أوهامَها، وألبس الدِّينَ ببقائه من مهابة تَصير قلوبَ أعدائه مَهامِها، وميَّز به عَصْره من خصائص نَصر لاتُطيـل الأيام آستِفهامَها ولا تخشىٰ آستبْهامَها، ويَسَّره من نَبإ دعوته التى طبَّقتْ أنجـادَ الأرض وتِهامَها، ورَقّاه من محـلّ أمانة الإمامة التى لا يظهر أرباب الألبـاب علىٰ أسرار الله ولا آتهامَها؛ وناطه بتـدبيره من إيالة البريّة والاعتناء بمَصالحها، وأصابه من مَراشد اليقين التى تستضىءُ العقول بمَصابيحها؛ وأتىٰ به الأنفسَ الصالحة من تقْواها، وصَرَف بمـا صَرّفه علىٰ لسانه من الحِكَم عنها مَضارَّ الشُّبَه وطوَاها، وألبسه من هَدْى النبوّة التى قرّبَ اللهُ إسنادَ من رآها وفَضَل مَنْ روَاهـا ـ يستغزر مَوادّ التوفيق من خالقِه بنُصْحه فى الخلائق، ويقدِّم الآستخارة بين يدَىْ أفعاله فهى به أملَكُ الخـلال وأخصّ الخَلائق؛ ويَعتام للقيام بتكاليف الآستنهاض، ويختارُ لتقويمِ المُيّاد من آشتهر بالتدبير وجَبْرِ المُنْهاض، ويُقدِّم لكِبار الولايات وعَواليهـا، وخصائص الرُّتَب وغَواليها، مَنْ تكافأتْ فى آستيعاب المحاسنِ خِلالُه، وخطبَ الخـدَم المتكثِّرة لأُولى الحظوظ آستِقلالُه، وعلم آستبدادُه بطيب الذكر وأَمِن آنفصالُه، وأوىٰ إلىٰ جَنّة مَريعــة وجُنّة مَنيعة من الوَلاء والحقتْــه ظلالُه، وآستقام علىٰ محَجّة واضحة من المخالصة ولم يُخَفْ زيغُه ولا ضَلالُه، ومضتْ ضرائبُه فى المُهِمّات مَضــاءَ الحُسام الذى لا يَنْبُو حدُّه ولا يَثْبُتُ آنفلالُه، وصحّ بصــيرة

فى المناصحة فما سرّ الأعداء شكّه ولا آعتلاله ، وأعطى الخدم حقوقها من إقامة القوانين ، ونهض بأعبائها المثقلة نهضة المشمّرين غير الوانين ، وآشتدت وطأة تبادره على المفسدين والخائنين ، وتظاهرت شواهد ميزته بما يكثّر له الحسّاد ويرغم الشانين ، وآقتنى من نفائس المحامد ما يعدّه أهل النظر قنية القانين ، وآستبقى من جميل الأحدوثة ما يبقى ذكره بعد فناء الفانين ، ووفّقت فى الخدمة مصادره وموارده ، وآنتظمت درر الذكر بحسن ذكره فأتلفت قوارده ، ونشدت ضوالّ الغناء فآلتقت عنده غرائبه وشوارده ، وآختصّت مساعيه بالإبرار على الأنظار ، وصحّت خلاله على عيب النقد كما صحّح النار نور الأبصار ، ونظر لمن أسند إليه أمره نظرًا يعفيه من تطرّق الأكدار والمضارّ ، ورعى له ما هو متوسّل به من آثار حقيقة بالإيثار ، وكفاية تأخذ للخدم من الفخر بالثار .

ولما كنت أيها الأمير المراد بهذا الإيراد ، المطّرد إليه هذا الآستطراد ، المعدود فى أمراء الدولة العلوية من الأعيان الأفراد ، المخلّى سبقه بين المساعى الجميلة ينتقى منها ما آختار ويصطفى ما أراد ، المهادى الصفات الحسنة فلا جاحد من عداته ولاراد ، المضطلع بما يعيى حمله الحازم المطيق ، المستنفد فى أفعاله المشكورة أقوال الواصف المنطيق ، الواصل بمحمود مساعيه إلى غايات السابقين فى مهل ، الجامع فى تدبير المهمّات بين رأى آحتنك وحزم آكتهل ، المنظور بعين الحزم بآيات دواعيه ، المترقّى إلى أمانيه فى درج مساعيه ، المجيب دعوة العزم إذا قام فلم يسمع المقصّرون داعيه ، المجتهد فى تشييد أركان التدبير إذا آرتقب آضطرابه وخيف تداعيه ، الممتثل وصايا الأدب الصالح فهو بقلبه راعيه وبسمعه واعيه ، الشهم الذى ينفذ فى الأمور نفاذ السهم ، الألمعىّ الذى علا أن يماثل بما أوتى من بسطة الفهم ، المتبوّئ من النعمة منزلة شكر لا يروم ضيفها أن يريمه ، ومربع حمد لا يسوم نازلها غير

أن يُسِيمه ، المباشرَ من مأثور السياسة ما آستفاض ذكْرُه فلم تتطرّق عليـه أسبابُ الجحـد ، البالغَ بسُمو المساعى ماقصّر الأكفاءُ عنه ولم يقصّروا عن الجَهْد ، الحـالّ من التقدمة فى هضابها إذا نزل الأكفاءُ منها فى الوَهْـد ، الحاملَ من أعباء المُشايعة ماغدَا به من المُوفين على الأنظـار الموفّين بالعَهْد ، المحقوقَ من الوسائل بأن يجودها النجاحُ بأغزر ديمة وأسـقى عهد ، المؤدّى فيما يُسْنَد إليـه فُروضَ التفويض ، المليّ بأن لا تتوب فرصةُ حزْم الإمكان مليًّا بالإلحاق والتعويض ، المكتفِى من وصَايا الحزْم بمـا يقوم له مَقامَ التصريح من التعريض ، المستوجِبَ أن تُجْدى إلى آســتحقاقه وتُهدى سحائبُ الطَّوْل الطويلِ العَريض ، المســتوعبَ شرائطَ الرياســة بالإستيلاء على أدَواتها ، المتتبِّع مظانَّ الخطوب بمُفاجأة الفرَص فى مُداواتها ، المبرِّز على القُرَناء بخلال لاتطْمَع الهممُ فى مُساماتها ولا مُساواتهـا ، الآخذَ من كل شيء بأحسنه فأى حسنة لم يؤتهـا ولم يأتها ، النافذَ الآراء إذا المشْكلات لم يتّضح لأرباب الألبـاب مُصْمَت بيانها ، المُصيبَ شواكلَ الصّرائب فسهامُ آرائه مذلولةٌ على شَواتها ، المتبرّجَ المقاصـد لعيان الحمد إذا تحفّزت الأفعالُ وَوارَتْ سَوْآتها ، المعروفَ بثُبوت الجنَان ، حينَ يلتبسُ الشُّجاعُ بالجَبَان ، المشـكورَ فى مواقف الحَـرْب بأفواه الجراح ولسان السِّنان ، المقــدمَ حيثُ الأعضاءُ تتزيّل والأقدامُ تتزلزَل ، المقتحمَ غمَـراتِ الهيْجاء والأرواحُ عن ولاياتِ الأجسامِ تُعزَل . وقد وُلّيت الولاياتِ فآستقلّلتَ بها أحسنَ آسـتقلال ، ورُفع لك منارُ العدل فاستدلّلتَ منه بأوضح آستدلال ، وجعلتَها على مَنْ تؤْويه حَرَما ، وعلى مَنْ يطْرُقها حِمىً ؛ وكنتَ لجُمْهور زمانِك فى المصالح والنّصائح مُقَسَّما ، ولحكم التقوى ولو ضَفَت مشقّاتُها دُونَ حكم الهوى محكَّما .

وحضر بحضرة أمير المؤمنين فتـاهُ ووزيرُه الســيدُ الأجلُّ الذى حلّ المشكلات من رأيه وراياته بالشمس وضُحَاها ، وتعرّضت له آيةُ الليل من العـدا فجلّاها بسُيوفه

ومحاها ، وثبّت نصابَ المُلْك الفاطمى حين أدارت الحربُ على قتكاته رحاها ، واقتاد الأعداءَ إلى مصارعها بخزائم من العزائم وأعجلها وأوحاها ، وقام بنصر أئمة الهدى حين قعد الناس ، ورعى الله عزيمته الصابرة فى البأساء والضرّاء وحين البأس ، وخاطر فى حفظ الدِّين بنفسٍ تجرى محبّتها مع الأنفاس ، وحلّ من ملوك الأرض محلَّ العين من الرأس بل الرأس من الحوَاسّ ، وأتعبت الأجسامَ همّمه الجسام ، وأعدى الزّمانَ فتبسّم جذلا بعدله البسّام ، وقسّمت المطامعُ أمواله لحمى المجدَ الموفّر عليه من الانقسام .

فطالع أميرَ المؤمنين بأخبارك بعد اختبارك ، وتوسّلك إلى التقدمة بمرضى آثارك ، وما أظهره الامتحانُ من نقاء سريرتك وأسرارك ، واستقامتك على مُثْلى الطريقة واستبصارك ، وأن ولاية مصر من أنفس الولايات محلّا ، وأثبتها على غيرها فضلا ، بمجاورتها للمقام الكريم ، وحصولها من استقلال الرِّكاب الشريف إليها على الشّرف العظيم ، واختصاصها من محالّ الخلافة بما جمع لها بين الفخرين الحادث والقديم ، وأوجب لها على غيرها من البلاد مزيّةَ ظاهرةَ التكريم والتقديم ، وما يمتّ به أهلها من شرف الجوار الذى لآمالهم به التخييرُ فى الإحسان والتحكيم .

وما رأى من إسناد ولايتها إليك علما أنّك ممن تزكو لديه الصّنيعه ، وتروق فى جيد كفايته قلائدُ المنن البضيعه ، وتطامن لاستحقاقه ذروةُ كلّ مرتبة رفيعه ـ خرج أمرُ أمير المؤمنين إليه ، بأن يوعز إلى ديوان الإنشاء بكتب هذا السجلّ لك بالولاية المذكورة . فتقلّد ماقلّدك منها مقدّما تقوى الله على كل فعل وقول ، متبرّئا إليه من طول الحول ، معتدّا ذخيرتها النافعة ليوم الهول ، قال الله فى محكم الكتاب : ﴿ وتزوّدوا فإنّ خير الزاد التقوى واتّقون يا أولى الألباب ﴾ .

وانظُر فى هــذه الولاية حاكمًا بالقِسْطاس ، وساوِ فى الحق بين طبَقات الناس ؛ ولا تميِّز فيه رفيعًا على حقير ، ولا غنيًّا على فقير ؛ وأقم الحُدودَ على من وجبت عليه إقامةً يرتدِع بها المغرور، وتستقيمُ بها الشُّـون وتنتظمُ الأمور؛ وراعِ مَنْ بهذه المدينة المحروسة من شُهودها ، ومتميِّزى أهلها ، ففيها الفُقهاء والأتقياء ، والقُرّاء والعلمــاء ؛ والمتميِّزون الأعيانُ الوُجوه ، وأهلُ السلامة الذين يستوجِبُ كلٌّ منهم نَيْلَ مايأمُله وبلُوغَ مايرجُوه؛ فاعتمِدْ إعزازَهم ، وتوخَّ تكرِمتَهم ؛ ووفِّهم مايجب لهم من الحق ؛ والقَهُم بالوجه المُسْفِر الطَّلْق ؛ وأْمُر بالمعروف وحُضَّ إليــه ، وانْهَ عن المنكر وعاقبْ عليــه ؛ وتفقَّد أحوالَ المَطاعِم والمَشارب ، وحافِظْ على إجرائها على أحكام الصواب وقَضايا الواجب ؛ واحظُرْ فى المكاييل والموازين البَخْس والتَّطفيف ، وقدّمِ الإنذارَ فى ذلك والتحذيرَ والتخويف ؛ وأوعِزْ بتنظيف المَسالك والساحات ، وامنَـعْ من توعير السُّبُل والطُّرُقات ؛ واعتمِدْ كلَّ ليلة مواصَلةَ التَّطْواف على أرجاء هذه المدينة وأكنافها ، ومُتابعةَ الإطلال على نَواحيها وأطرافها ؛ واعمَلْ فيمَنْ تظفَرُ به من عائث وعَاد ، ومُنتهِج طريقَ الفَساد ، مايَرتدِع به سِواه ، ويجعَــلُه مَوْعظةً لمن يَعدِل عن الصَّواب ويتَّبِـعُ هواه؛ واشْدُدْ من المتصرِّفين على بابِ الحُكْم العزيز فى قَوْد أُباة الخُصُوم ، ليُنْظَر بينهـم فيما ينتصِف به المَظْلوم من الظَّلُوم ؛ وتقدّمْ بتوفير الجَوامع وصِيانتها ، وحافِظْ على ماعاد ببَهْجتها ونظافتهــا ؛ وخُذ المستخدَمين فى الأرْباع بأن يتيقّظ كلٌّ منهم لمــا يجْرى فى عَمَله ، وأن يكون كلُّ مايحدُث ويُنْهى إليك من قِبَله ؛ وانظُرْ فى الصِّناعة المحروسة ، وفى عَمائر الأساطيل المظفَّرة المنصُورة؛ وتوفَّرْ على تدبير أمورها والاهتمام بشُئونها ، وحِفْظ مافيها من الأخشاب ، والحَديد والعُدَد والآلات والأسْباب ، وابعَث المستخدَمين على المناصحة فيها ، وبَذْلِ الجُهْد فى قصد مصالحها وتوخِّيها ؛ وأجْرِ أمرَ هــذه الولاية على مايَشهَد بحُسْن أثرك ، وجميلِ ذِكْرك وطيِّب

خبرك ؛ فاعلم هذا واعمل به ، وطالع مجلس النظر السيدى الأجل بأمور خدمتك ، وما يحتاج إليه من جهتك ؛ إن شاء الله تعالى .

وهذه نسخة سجل بولاية الأعمال القوصية ، وهى بعد التصدير :

أما بعد ، فإن أمير المؤمنين لموضعه من خلافة الله التى أعمره إياها ، وأنار بنظره محياها ؛ والإمامة التى أفرعه ذراها ، وناط به عراها ؛ وما وكله إليه من القيام ، بحفظ الإسلام ، الذى رضيه دينا ، وألبسه بعدله تحسينا وبذبه عنه تحصينا ؛ وما استودعه إياه من جوامع الحكم ، وعدقه بكفالته من رعاية الأمم ، وعضد به آراءه من التأييد والتوفيق ، وأوجبه من فرض طاعته على كل مطيق ــ يصطفى لمعونته على النهوض بما حمله الله من أعباء الأمانه ، والشكر على ما اختصه به من الوجاهة عنده والمكانه ؛ ويستكفى فيما أمر به من إحسان الإيالة فى بريته ، وينتخب لتفويض أمورهم والسلوك بهم مسالك رأفته فى سيرته ــ من يكون اصطفاؤه لرضا الله عنه مطابقا ، واجتباؤه لشرائط المراد والاقتراح موافقا ، وانتصابه للمهمات أفضل ما يبدى به وقدم اعتماده ، وإسناد الأمر الجسيم إليه أوفى ما عظم بتدبره شأنه ورفع بنظره عماده ؛ وإن ولى ولاية ، جعلها بمهابته حرما آمنا على أهلها من المخاوف ، وغدا حسن سيرته برهانا على فضله يضطر إلى التصديق به المؤالف والمخالف ؛ وأعاد حميد أثره محلها ربيعا ممرعا ، وقرب حسن ثنائه من المطالب ما كان بعيدا ممتنعا ؛ وإن ندب لجلى ، عاد مظفر المقاصد ، محفوفا بالميامن والمساعد ، ساحبا ذيل الفخر ، حائزا لكنوز الأجر ، مستعينا بتوحيده على العدد الجم ، والعسكر الدهم[1] .

(١) الدهم بفتح الدال الكثير أنظر اللسان ج ١٥ ص ١٠١ .

وإنّ هذه الأوصافَ قد أصبحتْ لك أيّها الأميرُ أسامِيَ لم تزِدْك معرفه، وخواصّ المهمّات إلى ملابَسـتك إيّاها متطلّعةٌ متشوّفه؛ وأفعالُك الحميدة قد بنَتْ لك بكلّ ريع منَـارا، وجعلتْ لك في كل مَكْرُمة سِمَاتٍ وآثارا؛ وجميلَ رأْى أمير المؤمنين فيك، قد زادَ توفيقَ مَساعيك؛ وضاعفَ آرتقـاءَ مَعاليك، وجعـل الخِيَرة مقترنةً بمَقَاصدك ومَرَاميك؛ وسَمَا بك إلى رُتبة من الوَجَاهة تتذبذَبُ دُونها مَطارحُ الهِمَم، وأحلّكَ من الثّقة بك منزلةً لاتُفضِى إليها خواطِرُ الظّنَن والتُّهَم؛ وتحقّق من يقينك ومَضاء عزيمتك، وعدْلِ سيرتك وصفاءِ سَرِيرتك، ماجعل حظّك عنده زائدَ النَّمـاء، وذِكْرَك بحضرته مكنوفًا بالشكر والثّناء، ووسائلَك إليه متقبَّلة؛ وقد أدركتَ في رَيّق الشّباب حَزامةَ الكُهُول، وآستنجحْتَ في مَقَاصدك بضمير من الوَلاء مأْمُول؛ ولك البيتُ الذى كَثُرَ فيـه الأمجادُ والأفاضل، وأحلّك في ذِمّة الناس من يخافهم المُبارى والمُناضل؛ وتساوتْ في آعتقاد تفضيلهم حالَتَا السّرّ والجهر، وأُصْلِح بعزائمهم ماظهر من الفَساد في البرّ والبحر؛ وقُتّ المَطامعَ بفضيلة هـذا النّسَب وفضـيلة النفْس، ودلت ماثِرُك على ماظَهَر من خصائصك دِلالةَ الفَجْر على الشّمْس.

ولمـا رآك أمير المؤمنين أهْلًا للعَوْن على آستيجابه لُطْفا لله عنده، وآلتماس عوائد صُنْعه الجميل فيمن فارقَ سعْيَه ونَبذَ عَهْده ـ آنتضى منك حُساما حاسِما للأدواء، معينا في اللأْواء، طَبًّا بتأليف الأهْواء، لاينبُو غِرارُه، ولا يُخْشَى آغترارُه، ولا يُفَلُّ حَدُّه، ولا يُؤْويه غِمـدُه؛ فأُحقِنت الدّماء، وسَكَنت الدَّهْماء، وعمّ الأَمْن، وعَظُم من الله تعالى الطَّوْلُ والمَنّ؛ وأصبح مكانُ القول فيك ذا سَعَةٍ فَسِيحا، ولسانُ الإحماد لأفعالك مُنطلِقًا فَصِيحا؛ وحصلْتَ من الوجاهة عند أمير المؤمنين بحيث [لاتأباك] (1) رُتبةٌ خَطيره، ولا تَنْأى عنك بجانبها [منزلة] رفيعةٌ أثيره؛ بل غَدَتْ خواصُّها فيك

(1) في الأصول بحيث قدرك رتبة الخ، تأمل.

لاستجزال حظّها من الجمال بك راغبة، وممتنعاتها لاستكرام الأكفاء طالبة للإفضال بل خاطبة؛ إذ كان مايعدم التتمة بك لايعدم شمّا واختيالا، وما حظى منها بمقاربتك يتيه زهوا بك واختيالا؛ فإذا أراد أمير المؤمنين أن ينظر إلى عمل من أعمال مملكته ويرفع من محلّه، ويفيض عليه من سحائب رأفته ما يكون ماحيا لآثار جدبه ومحله؛ ويعمّ بالبركات أقطاره، ويبلّغ كلّا من أهله مآربه من العدل وأوطاره ـ استند منك إلى القوىّ الأمين، والكامل الذى لايخدع الظنّ فيه ولايمين؛ إذا استكفى أمرا حمى حماه بالماضيين: حسامه واعتزامه، وتمسّك فى حفظ نظامه بالحسنيين: طاعة الله وطاعة إمامه.

ولما كانت مدينة قوص وأعمالها أمدى أعمال المملكة مسافة، وأبعدها من دار الخلافة، وتشتمل على كثير من أجناس الناس، وأخلاط يحتاج فيهم إلى إحسان السياسة والإيناس؛ وعليه معاج المسافرين من كلّ فجّ عميق، وإليه يقصد الحجاج إلى بيت الله العتيق ـ رأى أمير المؤمنين وبالله توفيقه أن يرد ولاية الحرب بها إليك، ويعوّل فى تقويم مائدها وضمّ نشرها عليك؛ وأن يحسم بك داءها، ويحسّن بنظرك رواءها؛ ويعمّ أهلها بك رأفة ومنّا، فخرج أمره إلى ديوان الإنشاء بكتب هذا السجلّ [لك] بالولاية المذكورة.

فتقلّد ماقلّدك أمير المؤمنين واعتمد على تقوى الله التى جعلها شرطا فى الإيمان، وأمر باعتمادها فى السرّ والإعلان؛ فقال فى كتابه المبين: ﴿ واتّقوا الله إن كنتم مؤمنين ﴾.

وأمر بالمعروف وانه عن المنكر، وابسط عدل أمير المؤمنين على البادين والحضّر، وأقم الحدود على من وجبت عليه بمقتضى الكتاب والسنّة، وقم بما أمر الله به

من ذلك بانفاذ عزمه وأقوى منّه ، وساوِ فى الحقّ بين الضعيف والقوىّ ، وآسِ بينَ العدُوّ والولىّ [والذمىّ] والملّىّ ؛ وآجعل من تضُمّه هـذه الولايةُ ساكنين فى كنَف الوِقايه ، مشمُولين بالصّون والحمَايه ، وليكُنْ أرَبُهم فى الصلاح من أرَبك ، فكلٌّ منهم شاكرٌ لله على النعمة بك ، وبُثَّ فى أقطارها ما يحجُز النفوسَ العادية عن التظالُم ، ويُعيد شيمَتَهم بعـدَ العُدْوان مُخلِدة إلى التوادُع والتّسالُم ، ومَنْ أقدم على كبائر الإجْرام ، ولم يتحرّجْ عن الدّمِ الحرام ، فآمتثِلْ فيه ما أمر الله به فى قوله : ﴿إنّمَا جَزَاءُ الّذِينَ يُحَارِبُونَ اللهَ وَرَسُولَه وَيَسْعَوْنَ فِى الأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِى الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ .

واعتمد المستخْدَمَ فى الحكم العزيز والدّعوة الهادية ـ ثبّتهما الله ـ بما يُقوّى عزْمَه ، ويُنفّذ حُكْمَه ، وأجزِلْ حظّه من إعزاز الجانب ، وتيسير المَطالب ، وأحسِنْ إليـه العَوْنَ على صَوْن المؤمنين ، وآجتلابِ المستَجِيبين . والمستخْدَمون فى الأموال من مُشارِف وعامل وغيرهـا فآندُبهم فى عمَارة الأعمـال ، وبلّغهم فى المُرافدة كُنْهَ الآمال ، وآشدُدْ منهـم فى صَوْن الآرتفاع ، وحِفْظه من الإفراط والضّياع ؛ وضافِرْهم على آستخراج الخَراج ، وخُذهم بحَمْل المُعامَلين على أعدَل منْهاج . والرجالُ العسكريّة المركّبة المستخْدَمون معك فآستخدِمْهم فى الخِدَم السانحه ، وصرِّفهـم فى المُهِمّات الغريبـة والنازحه ؛ فمن آستقامَ على طريق الصواب ، أجريْتَ أموره على الآنتظام والآستتباب ؛ ومَنْ كان للإخلال آلِفـا ، وللواجب مُخالِفا ، قوّمتَ بالتأديب أوَدَه ، وحلّأته عن مَوْرد الفساد الذى تورّده .

هذه دُرَر من الوصايا فابعث (؟)[1] على إحضاره الثقة بهدايتك إلى كلّ صواب ،

(١) لعله بعث على اختصارها الثقة الخ تأمل .

وٱعتلاقك من الديانة والأمانة بأوثق الأسباب، وإحاطة علم أمير المؤمنين بٱستغنائك بذاتك، وكمال أدواتك، عن الإيقاظ والتنبيه، والإرشاد فيما تنظر فيه؛ والله يوفقك إلى ما يرضيه، ويجعل الخيرة مكتنفة لما تروِيه وتُمضيه؛ فٱعلم هذا وٱعمل به إن شاء الله تعالى.

⁂

وهذه نسخة سجلّ بولاية الأعمال الغربيّة، وهي:

أما بعدُ، فإن أمير المؤمنين لمّا فضّله الله به من إمامة البشر وشرّفه، وأناله إياه من الخلافة التي نظم بها عقد الدين الحنيف وألّفه، وأمضاه الله له في أقطار البسيطة من الأوامر، ونقله إليه من الخصائص النبويّة التي تجمّلت بذكرها فروق المنابر، ومكّنه له من السلطان الذي تخضع له الجبابرةُ وتدين، وعضّده به من التأييد الذي أرغم المشركين وخفض منار المُلحدين، وآثره به من مزايا التقديس والتمجيد، وألهمه إياه من ٱستكمال السّيرة التي أصبح الزمنُ بجمالها حاليَ الجيد، وأنجد به ملكه من موالاة النصر ومتابعة الإظفار، وحازه له من مواريث النبوة المنتقلة إليه عن آبائه الأطهار؛ وٱصطفاه له من إيضاح سُبُل الهدى المعتاد، وألهمه إياه من إسباغ ملابس الرحمة على الحاضر من الأمم والباد، ووفّر عليه ٱجتهاده من ٱستدناء المصالح وٱجتلابها، وصرف إليه هممه من تمهيد مسالك الأمنة وفتح أبوابها ـ يتصفّح أمور دولته تصفّح العاني بتهذيب أحوالها، ويتفقّد أعمال مملكته تفقّداً يزيل شعثها ويؤمن من ٱختلالها، ويَعدق المهمّات الخطيرة بالصدور الأفاضل من أصفيائه، ويزيدُ في رفع منازل أوليائه إلى الغاية التي تشهد بجلالة مواضعهم من جميل آرائه، ويُفيض عليهم من أنوار سعادته ما يظهر سناه للأبصار، ويمنحهم من ٱصطفائه ما لا يزالُ دائم الثبات والٱستقرار، ويعوّل في صيانة الرعايا من المضارّ، وحراسة الأعمال المتميّزة من عَيْث المفسدين والدُّعّار، على من تروع مهابته ضواري

الآساد، وتكفّل عزائمه بقطع دابر الفساد ، ويُبدع فى السياسة الفاضلة ويُغرب ، وتُعجب أنباؤه فى حسن التـدبير وتُطرب ، ويعمّ الرعايا بضروب الدّعة والسّكون، ويشملهم من الأمنة والطّمأنينة بأنواع وفنون ، وتقوم كفايته بسـدّ الخلل وتقويم الأود ، ويبلغ فى تيمّنـه فى آكتساب المحامد إلى أقصى غاية وأبعـد أمد ، ويُعنى بحفظ النّواميس وإقامة القوانين ، ويدأب فى آسـتعمال السيرة الشاهدة له باستكمال الفضل المبين ، ولا يألو جُهدا فى تقريب الصّلاح وآستدنائه ، ويقصد من الأفعال الجميلة ما تلهج به الألسن بإطابة ثنائه .

ولـمّا كنتَ أيها الأمير نجمـا من نجوم الدين المُضيئة المشرقه ، وثمرةً من ثمرات دوحة العلاء الزّكيّة المورقه ، وفذّا فى الفضائل البديعه ، وفردا فى المحاسن التى لم تقرَ بنظير ذكرها أُذُنٌ سميعه ، وسيفا يحسم داءَ الفساد حدّاه ، وكافيا لا يتجاوزه الاقتراح ولا يتعدّاه ، وماجدا حاز المفاخر عن أهل بيته كابرا عن كابر ، وعلَما فى المآثر يهتدى به الأعيانُ الأكابر ، وهُماما تملأ مهابته القلوب ، وماضـيا تلوذ بمضائه الأعمـال الخطيرة وتثوب ، وصدرا تقرّ له الرؤساء بارتفاع المنزله ، ومهذّبا أغرته شيمه الرضية ببثّ الإنصاف وبسط المعدله ، وحازما لا يُخشى آختداعه وآغتراره ، وعازما لا يكهم عزمه ولا يكلّ غراره . وقد ألقت إليك المناقب قيادها مطيعه ، وأحلّتك الرياسة فى أشمخ ذروة رفيعه ، وتألّفت عندك الفضائل تألّف الجواهر فى العقود ، وتكفّلت لك مساعيك المحمودةُ بتضاعف الميامن وترادف السـعود ، وتكاملت فيك الخلال المطابقـة لكرم أعراقك ، وآسـتعملت الأفعالُ الشاهدةُ بمبالغتك فى ولاء أئمّتـك وإغراقك ، وحصـل لك من الآنتمـاء إلى البيت الصالحى الكريم ما كسبك فخرا لا يبرح ولا يريم ، وخصّك فى كلّ زمن بمضاعفة التفخيم والتقديم ، وأنالك من الإقبال غاية الرّجاء ، وجعل وجاهتك فسيحة الفناء ، وسيعة الأرجاء . ولك المهابة التى تُغنى

غَناء الجُيوش المتكاثرة العَدَد ، والشجاعة التى تُسَلِّط قوارعَ الدَّمار على من كفر وعند، والعزمُ الذى آستمدت السيوفُ الباترةُ من مَضَائه ، وعزَّ جانبُ التوحيد بآنتضائه لجهاد أعداء الله وآرتضائه ، والإقدامُ الذى تلوذُ منه أُسُودُ الوقائع بالفرار ، والبأس الذى لايعصم منه الهربُ ولا يُنجِّى من بوادره الحِذَار .

وحضر بحضرة أمير المؤمنين فتاه ووزيره، وصائنُ مُلكه وظهيره ، السيدُ الأجلُّ الذى (١) فأثنى عليك ثناءً طالَ وطاب ، وحرَّر فى ذكر مناقبك ومحاسنك القولَ والخطاب ، وذكَرَ مالك [من الأعمال] فى الأعمال الغربيه ، التى أعادت الأمنةَ على الرعيه، وما آستعملت فيهم من السِّيرة العادله ، والسياسات الفاضله ، وقرَّر لك الخدمةَ فى ولاية أعمال الغربيَّة، ـ فخرج أمر أمير المؤمنين إليه بأن يُوعِز إلى ديوان الإنشاء بكتب هذا السجلِّ لك بالولاية المذكورة .

فتقلَّد ما قُلِّدته عاملًا بتقوى الله سبحانه الذى إليه تصيرُ الأمور، ويعلم خائنة الأعين وما تُخفى الصُّدور، وقال الله جلَّ من قائل فى كتابه المكنون : ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴾ فاعمُمْ بالعدل مَنْ تشتمل عليه هذه الولايه ، وآنته فى حياطتهم وكلاءتهم إلى الغايه ، وصُنْهم من كلِّ أذًى يُلِمُّ بساحتهم، وتوفَّر على ماعاد باستتباب مصلحتهم، وآخصُص أهلَ الستر والسلامة بما يُصلح أحوالهم، ويشرح صدورهم ويبسط آمالهم، وقابِل الأشرارَ منهم بما يُدوِّخ شِرَّتهم ،ويكُفُّ عن ذوى الخير مَضَرَّتهم ، وآشدُدْ وطأتك على الدُّعَّار وأهل الفساد ، وتطلَّبهم حيث كانوا من البلاد ، وآقصدْ حماية السُّبُل والطُّرُقات ، وصُنْها من غوائل المُفسدين على ممرِّ الأوقات ، ومَنْ ظفرتَ به من المجرمين فاجعله مُزْدَجَرا لأمثاله ، وموعظةً لمن يسلك مَسْلك ضَلاله ، والمُقدِمون على سَفْك الدَّمِ الحرام، والمرتكبون لكبائر الذُّنوب

(١) بياض بالاصول .

والإجرام، فامتثل فيهم ما أمر الله تعالى به فى كتابه الكريم، إذ يقول : ﴿ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِى الأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الأَرْضِ ذٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِى الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ .

وأجزل حظّ النوّاب فى الحكم العزيز من عنايتك ، واجعل لهم نصيبًا وافرًا من آهتمامك ورعايتك، وعاضدهم على إقامة منار الشرع، وأجر أحوالهم على أجمل قضيّة وأحسن وضع . والمستخدَمون فى الأموال، تُشدّ منهم شدًّا يبلّغهم الآمال، ويقضى بترجية الآرتفاع وتثمير الآستغلال، وعاضدهم على عمارة البلاد، ووازرهم على ما تكون به أحوالها جارية على الآطّراد . والرجال المركزيّة والمجرّدون فاستنهضهم فى المهمّات القريبة والبعيده ، وخذهم بلزوم المناهج المستقيمة السّديده ، وقابل الناهض منهم بما يستوجبه لنهضته ، وقوّم المقصّر بما يوزع من يسلك مسلكه ويقتفى طريقته، فاعلم هذا وآعمل به وطالع، إن شاء الله تعالى .

وهـذه نسخة سجلّ بولاية ثغر الإسكندرية، كتب به لآبن مصّال، من إنشاء القاضى الفاضل، وهى :

أما بعد ، فإنّ أمير المؤمنين لما أكرمه الله به من شرف المنصب والنّصاب ، وأجار العباد بآبائه الطاهرين من عبادة الأوثان والأنصاب ، وأوردهم من موارد حكمه التى كلّ صادر عن ريّ قلبه منها صاد ، وسخّره بأمره من رياح الصواب التى تجرى بأمره رُخاءً حيث أصاب ، وأصمى بسهام عزائمه ، من مقاتل الباطل، وحلّى بأنوار مكارمه، من أجياد الأمانىّ العواطل، وأنجزه على يد أياديه من وعود سعود تظلّ السّحب المواطر بمثلها هواطل، وتوحّده به من الإمامة التى أعزّ بها

أحزابَ التوحيد، وأجراه من بَركاته التى لاتقول الآمالُ لهـا هَل من مَزيد، وأوراه من فَتكاته التى لاتقول لهـا الآجالُ هل من مَحيد، وأجدبه من إرادته لأزِمّة الأيام فهى بينَ إنعامه وإسقامه تُفيد وتُبيد، وأحدثه له من مُعجزات التأييـد التى تملك أحاديثها رِقَّ التأبيد، وشرّف به قدْره فى ملكوت السموات والأرض والملائكةُ له أنصـارٌ والملوكُ له عبيـد، وألهمه من إبداع جَلىّ صـنائعه حيثُ لا يُنكَر المقلَّد ولا يُستغرب التقليـد، وأنطقَ به لسانَ كرمه من بدائع إحسان تَروقُ بين التَّرديد والتوليد ـ ينظُر بنُور الله فيمن ينظُر به للجمهور، ويجلُو عقائلَ المكارم على مَنْ هو ماهرٌ فى تقدمة المُهور، ويُربِح الذين يرجُون بولّائه تجارةً لن تَبُور، ويقتدِح الأنوارَ المُودَعة فى سَواد الشَّباب كما يُودَع فى سَواد العين بياضُ النُّور، ويرفَع رُتَب الأعيان حتّى إذا تعـاطاها سِواهم ضُرِبَ بينـه وبينها بِسُور، وتَعُود أياديه إلىٰ بيوت النِّعَم فكلّ بيتٍ تَولّاه كالبيت المَعْمُور، ويُهـدِى السُّرورَ بهـم إلىٰ صُـدُور الثُّغور، والابتِسـامَ إلىٰ ثُغور الصُّدور، ويرىٰ أنهم يستوجبُون فواضلَه ميراثا، وإذا سُلِّمت إليهم أعِنَّةُ الوِلايات كانتْ لهم تُراثا، وإذا تبوّءُوا الرُّتب العلية كانت الرياسـةُ لهم دارا والسِّياسة أثاثا، لا سِيَّما الصدرُ الذى عرفته السعادةُ لدولة أمير المؤمنين واحدا يجمعُ فضلَ سَلَفه، ونَدْبا ما عُرِضتْ عليه جَواهرُ الدّنيا فضـلا عن أعْراضها إلّا ولّاها عِطْفَ نَزاهته وظَلَفه، والمعِيًّا تتناثَرُ معانِى المَعالِى من شمائله كما تَتْثر من غُصْن القلَم ثِمارُ أحْرُفه، وكُفْأً للصُّـدور من أنهضـه بها بنَصّ تكلّفه أنهضه بها فضلُ كَلَفه، وقوّامًا بالأمور يَمْضِى عليهـا مَضاءَ النَّجم فى بَحْرِ حَندسـه لا السَّهمِ فى نَحْرِ هَـدَفه، ومَلًا كا للثُّغور إذا حلَّ منها فى إسكندريّتها فهو علىٰ الحقيقـة نَجْمٌ حلَّ بُرْجَ شَرَفه، وطَوْدا للوَقار يعترِى الحلمُ منـه إلىٰ أقومه لا إلىٰ أحنَفه، وشرطا للاختيار، يكتفى مُصطَفيه منّـة مَعرِفه ومئُونة معنَفه، ومعنًى للفخار، لم ينتصـف فيـه من لسان

واصــفه، مَسْمَعُ مستوصفه ، وعلَمًا للأنظار ، يبدُو لهم منارُ إشراقه ويخفى عليهم منالُ شرَفه .

ولمّا كنتَ أيُّها الأمير واسطةَ عِقْد هـذه الأوصاف الحُسْنَى ، ومُنْجدَ ألفاظها من الحقيقة بالمعْنَى الأسْنَى ؛ المتوحِّدَ من الرياسة باسمٍ لا يجمَعُ بعده ولا يُثَنَّى ، الجاريَ إلى غاية من المجد لا يُرَدّ عنها عِنانُه ولا يُثْنَى ؛ الجديرَ إذا وَلِيَ أن يُسْكِن الرعيَّةَ اليومَ عَدْلا لا تُسكِنُه في غدٍ عَدْنا ؛ ويُنْجِز فيهم وعدَ الله الصادقَ في قوله : ﴿ولَيُبَدِّلَنَّهُمْ من بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ . المستبِدُّ بالحمد حتَّى آستقرّ فيما يفعَل وآستقرَى فيما يُكْنَى ؛ الثَّبتَ الذي لا تقرَعُ الأهوالُ صَفاتَه ، النَّدْبَ الذي لا تبلُغ الأقوالُ صِفاتِه ، الولىَّ الذي لا تكدِّر الأحوالُ مُصافاتَه ؛ الجامعَ بين فضل السوابق وفَضْل اللواحق ، المتجلِّيَ في سماءِ الرِّياسة نيِّرا لا تهتضمه صُروفُ الليالى المَواحِق ؛ المشكورَ الفعّال لا بألِسنة الحقائبِ بل بألِسنة الحقائق ، المستبِدَّ بالهِمَم الجلائلِ المدلولةِ على المحاسن الدقائق ؛ المستمِدَّ صَوْبَ الصواب من خاطرٍ غيرِ خاطل ، المستجدَّ ثوبَ الثواب بسَعْيٍ ينْصُر الحقَّ على الباطل ؛ المستعدَّ لعُقَب الأيام بأقرانٍ من الحزم تثْنيها على الأعقاب ، المستردَّ بمساعيه فوارِطَ محاسنَ كانتْ مطْويّةً في ضمائر الأحْقاب ؛ الساميَ بهمَّته ، إلى حيثُ تتقاصَرُ النواظِرُ السَّوامى ، المُقَرْطِس بعزيمته ، حيثُ لا تبلغ الأيدى الرَّوامى ؛ المستقِلَّ بقَطِّ نَواجِم الخطوب وحَسْمها ، المستقرَّ في النفوس أنه يقُومُ في ظُلَمها مَقَام نجمها ؛ المُطْلَقَ وجْهًا فلا غَرْوَ أن تُجْلَى به الجُلَّى ، المطلَقَ وصْفًا حسنًا فلا يعرِض له لَوْلا ولا إلّا ؛ المؤيَّدَ العزَمات ، في صونِ ما يفوَّضُ إليه ويَلِيه ، المتَّقِىَ الوثَبات ، ممّنْ يجاوِرُه من الأعداء ويَلِيه ؛ المُحْيِيَ بمساعيه ماشاده أوّلوه ، والمتوضِّحةَ فيه نصوصُ المجْـد الذي كانوا تأوّلوه ؛ والآوِىَ إلى بيتٍ تناسقَتْ في عُقُوده الرؤساءُ الجِلّة ، والطالعَ منه في سماءٍ إذا غربَتْ منها البُدورُ أشرقَتْ فيها الأهلَّة .

ولقد زِدْتَ عليهم وما قَصَّرُوا زيادةَ أبيض الفجْر علىٰ أزْرقِه ، وكنتَ شاهدَ من يَرْوِى مناقِبَهم البديعه ، ودليلَ من آدّعىٰ أن المَكارم لكم مَلَكَةٌ وعند سِواكم وَدِيعه ، وقِيلتَ وصاياهم فى المعالى فكأنما كانتْ لديْكم شَرِيعه ، ونَصَرتم الدولة العلويَّة فكنتم لهـا أمثـلَ أولياء وأخصَّ شيعه ، وتجمَّلتْ أنسابُكم باصطناعها وكفاكم إن عُدِدتم لصنائع الله صَنِيعه ، وأباحتْكم من آصطفائها كلَّ درجة علىٰ تعاطى الأطماع عليَّة مَنِيعه ، وقدّمتْكم جيشَ برِّها وبحرِها ، وكان منكم سـيفُ جِهادها ونجْمُ ليلها وفارسُ كَرِّها ، وصالتْ بكم علىٰ أعدائها كلَّ مَصَـال ، وأغربتْ مَنْ يليهـا إلا إذا آسـتقرّتْ فى داركم إلىٰ مَصَال ، وحينَ خرجْتَ منها خائفًا تترقَّب ، وأبقيتَ فيها خائفا يتعقَّب ، كنتَ الذهبَ المشهور ، الذى ما بَهرجه الرَّغام ، والحَـرفَ المَجهُور ، الذى ما أدْرجه الإدغام ، وكنتَ وإنْ كنت بينَ الكُفَّار ، عنهـم شديدَ النِّفار ، وحلْتَ فيهـم محلَّ مؤمنِ آلِ فِرعونَ يدْعُوهم إلىٰ النجاة وإن دعَوْه إلىٰ النـار ، وعُدْتَ إلىٰ باب أمير المؤمنين عوْدَ الغائب إلىٰ رَحْله ، والآئب إلىٰ أهله ، وآستقررْتَ به آسـتقرارَ الجوهر فى فَصْله ، والفَرْع فى أصْـله ، وأبان الآستشفافُ عن جوهرك الشَّفَّاف ، وخرجتَ من تلك الهَفَوات خروجَ الرياح لاخُرُوجَ الكَفاف ، وأعربتِ السـعادةُ إذ حيَّتْك بمشيبٍ أسْـوَد ، وتبِعَ الأماجدُ غُبارَكَ الذى يُرْفَع من طريق السُّؤدَد ، وآعتلقتَ بعُروة الجِدّ ، فلستَ من دَدٍ ولا منك دَدُ ، وضَربْتَ قلبَ العيش الأصفىٰ بعـدَ العيْش الأنكد ، لاجرمَ أن أميرَ المؤمنين أنساك سيئةَ أمْسِـك بحسنة يومك ، وسَمَا بك إلىٰ أعلىٰ رُتَبِ الأولياء وأغناك عن تعرُّضِ سَوْمك ، وأنعمَ بك علىٰ قومٍ ماعرَفُوا إلا رياسةَ قومك .

وحضر بحضرة أمير المؤمنين أمينُ مملكته ، ويمينُ فتكته ، السيدُ الأجلُ الذى أتىٰ اللهُ به سَهْما إلىٰ مصْرَ وهى كنانتُه ، وأفرده بمزيَّة السـبْق فلا حظَّ لمساجله إلا أن

تدمي بنانته ، ورعى الرعية منه ناظر لا تلم بناظره مراود الهجود ، وقام بالملك منه قائم لا يزال يورده موارد الجود ، وأغنته يد الغلاب عن لسان الحلاب ، ونال نادرة الأمل في نادرة الطلاب ، وجمت فتكاته من الهرمين إلى الحرمين ، وصرف الرمح تصريف القلم وكأنه يصول ويصل بقلمين ، ورد الله به العدو منخذلا ، وطالما لقيه فاقام منجدلا ، وأضحى به ذيل النعمة منسحبا وستر الأمنة منسدلا ، ودبر الأمور فامسكها حازما وعقلها متوكلا ، فأنهى ما لسلفك عند الأئمة الخلفاء من مزية الأصطفاء ، وما لك في نفسك من الحسنات التي ما برحت بارحة الخفاء ، وما أطلع عليه من خلالك التي ما أخلت بمنقبه ، وأفعالك التي ما تغايرت في يوم ذى نعمة ولا يوم ذى مسغبه ، وما لك من وثائق العقود ، وما فيك من الأوصاف المؤكدة لعلائق السعود ، وقرر لك الخدمة في كذا وكذا ـ خرج أمر أمير المؤمنين إليه بأن يوعز إلى ديوان الإنشاء بكتب هذا السجل لك بالخدم المذكورة وهي التي فرقت لسلفك وجمعت لديك ، كما أن محاسنهم المفرقة منتظمة العقود عليك : ليكمل لك ولايتي الثغر والسيادة في حال ، وليسد بك ثغر الجهاد وثغر الإمحال ، ولتقوم [في هذا] مقام الجحفل الجرار وفي ذاك مقام الحيا الهطال ، ولتكون فرائد الإنعام عندك تؤاما[(1)] ، وليجعل ابتداء تصرفك لغيرك تماما ، وليختصر لك طريق الكمال ، وليجري بك في ميدان الشكر طليق الآمال .

فتقلد ما قلدته منهما عاملا بتقوى الله التي هي مصالح الأعمال ، وميدان الإتحاف والإجمال ، وسبب النجاة في الابتداء وعند المآل ؛ قال الله سبحانه في كتابه الذي لم يجعل له عوجا : ﴿ ومن يتق الله يجعل له مخرجا ﴾ .

---

(1) جمع توأم . قال الأزهري ومثله غنم ورباب وابل ظؤار وهو من الجمع العزيز . انظر اللسان ج ١٤ ص ٢٣٨ .

وابسط العدل على من يحويه هذا الثغر الذى هو ثغر الثغور الباسم، وأولاها بأن تكون أيامه بأوامر الله وأمر أمير المؤمنين مواسم؛ ففيه من صدور المحافل، وقلوب الجحافل، وعيون المدارس، وأعيان الفوارس، وتجار الدنيا والآخره، وأخيار الأمة المقيمة والمسافره، ووفور مكارم عدل أمير المؤمنين التى هى بالرجاء واردة وبالرضا صادره، من يؤثر أن يكون فضل السكون لهم شاملا، ورداء الأمن عليهم سابلا؛ وسحاب الإنعام عليهم هاطلا، وحالهم فى الاتساق لا متغيرا ولا حائلا. وساو فى الحق بين أبعدهم وأقربهم، ومقيمهم ومتغربهم؛ واعتمد منهم من تقدم ذكره بما يرهف فى الطاعة خاطره ويشحذه، ويصونه من تحيف الأيدى الجائرة وينقذه؛ واخصص العلماء بكرامة تعينهم على التعليم، والأعيان بمزية توضح لهم مالهم من مزية التقديم؛ واكفف عوادى أهل الشره والشر، واقمع غلواء من اعتز بغير الله واغتر؛ وتوخهم بإقامة المهابة وبسطها، وكف الشوكة وقطها؛ وأمر بالمعروف وانه عن المنكر، وأقم الحدود إقامة من يثاب عليها ويؤجر، وتفقدها على حدها غير داخل فى الأقل ولا خارج إلى الأكثر؛ وأذك العيون على من يلم بسواحل الثغر من أسطول العدو اللعين ومراكبه، واحجز باليقظة بينه وبين تلصيص مطالبه، وأمر أهله باتخاذ الأسلحة التى يعز الله بها جانبه، ويذل مجانبه؛ وتبلغ العدو اللعين من ذكرها ما يعملها وهى فى أيديهم موفره، ويبذلها فى مقاتلهم وبيوتهم بها معمره؛ قال الله سبحانه فى آياته المتلوه: ﴿ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوه ﴾.

واعتمد للأعمال البحرية مثل ماتقدم شرحه من تأمين الأخيار وترويع الأشرار، وتتبع كل مريب مستخف بالليل وسارب بالنهار؛ ومن ظفرت به قد حارب الله فى أرضه، وصار قتله من فرضه، فنفذ حكم الله فيه فى آية السيف وأمضه؛ وادع إلى عمارة بلادها وتخفرها، وتفقد المصالح بها وتكثرها؛ وإطابة أنفس المزارعين

بمـا تخفّفه عنهم من وَطْأة كانت ثقيله ، وتقلّله عنهم من مَغارِمَ لم تكن قليله ؛ فما عَمَرت البلاد بمثل الرّاهة التي هي شيمتُك المعتاده ، والمَعْدَلة التي هي من خِلالك مستَفاده ؛ واعتمِدْ كُلّا من النـائب في الحكم العزيز والناظرِ في الدعوة الهـاديّة والمُشارف بالثغر والعُمّال برعاية تحفَظ مَراتبَهم ، وتلحَظ مَطالبَهم ؛ وتُنفِّذ الأحكام ، وتَبلُغ بمـا ينظُرون فيه من المصالح غاياتِ التَّمام ، وتُعِزّ طائفة الإيمان ، وتُظهِر عليهم أثَرَ الإحسان ؛ وتستدِرُّ حَلَبَ الأموال ، وتستديمُ عِمارةَ الأعمال ؛ وتقضي بمواصـلة الحمول وتحصيل الغِلال ، وتعودُ بها عليك عوائدُ الأجر والجَمال ؛ ومثلُك آشتهارًا أيُّها الأميرُ مَنْ وُلِّيَ فلم تُطَل له الوصايا التي يَحتاجُ إلى إطالتها سِواه ؛ ويُوثَق بما يُذكِيه من عُيون حزمٍ غيرِ غَوافلَ ولاسَـواه ؛ ويحقِّق أن تقواه رقيبُ سِرّه ونجواه ، وأن أميرَ وَرَعِه يحكم على أسيرِ هَواه ؛ والله سبحانه يجعل نعمةَ أمير المؤمنين لدَيك مأمولةَ الدّوام موصولةَ الحبل ، ويُتمُّها عليك كما أتمّها على أبوَيْك من قَبْل ؛ إن شاء الله تعالى .

قلت : وعلى هـذا النمط كانت سجلّات سائر ولايات أعمـال الديار المصرية ، فكانت تُكتَب على نظير ذلك في الوجه القبـلي ولايةُ الجيزيّة ، وولايةُ الإطفيحيّة ، وولاية البَهنَساويّة ، وولاية البُوصـيريّة ، وولاية الأُشْمُونَين والطّحاويّة ، وولاية السُّـيُوطيـة ، وولاية الإخميميّـة ، وولاية الفَيُّوم ، وولاية واح البَهنَسا ، وولاية الواح الداخلة ، وولاية الواح الخارجة . ومن الوجه البحري ولايةُ القَلْيُوبيـة ، وولاية مُنْيـة زِفتَى وهي مُنْية غَمْر ، وولاية المُرتاحية ، وولاية الدَّقَهْليـة ، وولاية مدينة تِنِّيس ـ وبها كانتْ دار الطِّراز ـ وولاية المَنُوفيّـة ، وولاية جزيرة بني نَصْر وربمـا أضيفَتْ إلى المَنُوفية وعُبِّر عنهما بالمَنُوفيّتَين ، وولاية جزيرة قُوسِينيا ، وولاية البُحَيرة ، وولاية ثَغر رشـيد المحروس ، وولاية ثغر نَسْتَراوه ، وولاية ثَغر دِمْيـاط ، وولاية الفَرَما ، بساحل الشامي فيما دُونَ العَرِيش .

وأما البلاد الشامية فقد تقدم أنها كانت خرجت عنهم وتملكت الفرنج غالب سواحل الشام، ولم يبق معهم إلا ساحل عسقلان وماقاربه وكان مقر الولاية بها في عسقلان .

وهذه نسخة سجل بولايتها، وهي :

أما بعد ، فإن أولى ما وفر أمير المؤمنين حظه من العناية والاشتغال ، واعتقد العكوف على مصالحه من أشرف القربات وأفضل الأعمال ، وأسند أمره إلى من يستظهر على الأسباب المعيية بحسن صبره، وعدق النظر فيه بمن لا يشكل عليه أمر لمضائه ونفاذه ومعرفتـه وخبره، ما كان حرزا للمرابطين ومعقلا ، وملتحدا للمجاهدين وموئلا ، وموجبا لكل مجتهد أن يكون لدرجات الثواب مرتقيا متوقلا ، عملا بالحوطة للإسلام الذى جعله الله فى كفالته وضمانه، وتماديا على سياسته التى أقر بفضلها إقرار الضرورة كافة ملوك زمانه ، وحرصا على الأفعال التى لم يزل مقصودا فيها بألطاف الله تعالى وتوفيقه، وتبتلا للأمور التى أرشده الله سبحانه فى تدبيرها إلى منهج الصواب وطريقه ، ومضاعفة من الحسنات عند أوليائه أهل الحق وحزبه وفريقه .

ولما كانت مدينة عسقلان ـ حماها الله تعالى ـ غرة فى بهم الضلال والكفر، وحرما يمتاز عن البلاد التى كلمها الشرك بالناب والظفر، وهو من أشرف الثغور والحصون، وأهله أنصار الدين القيم المحفوظ المصون، وكنت أيها الأمير من أعيان أمراء الدولة وكبرائهم، ووجوه أفاضلهم ورؤسائهم، ولك فى الطاعة استرسال الآمن فى مواطن المخاوف ، وفى الذب عنها وحمايتها مواقف كريمة لا توازى بالمواقف ، وقد وصلت فى ولائها القديم بالحديث والتالد بالطريف ، وحين وليت مهمات

آستُنجِد فيها بعزمك، وآستُعين عليها بحزمك، تهيَّب الأعداء فيها ذِكْرَ آسمك، وكان من آثارك فيها ماشُهِر عُقْلُها[1] بوَسْمك، فلا يُباريك مُبارٍ إلا أربيْتَ عليه وزدتَ، ولا يُناويك مُناوٍ إلا أنسيتَ ذِكْرَه أو كِدْت، فكم لك من مقامٍ محمودٍ يَسير ثناؤه ووصفُه، وكم لك من ذكرٍ جميلٍ يفوح أرَجُه ويتضوّع عَرْفُه، وكم لك من مجالٍ فى المشايعة لا يقصر أمدُه ولا يكبو طِرْفُه، والسيد الأجلّ الأفضلُ الذى عظّم الله قدرَه ورفع مجدَه، وجعله فى الغضب لتوحيده دون جميع البريّة أُمّةً وحدَه، وألهمه التجرُّد لنصرة الإيمان فقام بحقّ الله لمّا غفَل الملوكُ وقعَدُوا، وأمدّه بمواد السعد فآستيقظ بتفرده حين ناموا عن آستخلاصه ممّا عَرَاه ورقَدُوا، وأضحى آنتصابُه آيةً أظهرها الله لِلّه، وغدا آنتصارُه مُعجزةً حسَم بها فى رفع منار الدين كُلَّ عِلّه، فهِمّته مصروفةٌ على ما يُعِزُّ الشريعة الحنيفيه، وعزمته موقوفةٌ على الدفع عنها بأطراف الذوابل وحدّ المَشْرَفيّه، فبلّغه الله فى كلّ ما يحاوله ما يُضاعف فخْرَه، وأعانه على مايقدّمه لمَعاده ويجعله فى الآخرة ذُخره، بحوله ومَنّه، وطَوْله وفضله.

فلا يزال هذا السيدُ الأجل يُثنى عليك ثناءً يخلّد لك ولعَقِبك مجدًا باقيا، ويحبوك من الوصف والإطراء بما يجعلُك فى مراتب الوجاهة والنباهة ساميًا راقيا، ويُرشّحك من الخدَم لأجلّها قَدْرا، ويُطْلِع منك فى آفاق سمائها بَدْرا، ويجعلُ لك بما يؤهّلك له صِيتًا ويُسيّر لك ذِكْرا، وحين جدّد شُكْرك، وأوصل على عادته ما يُشيّد أمرك، قرّر لك ولاية «ثغر عسقلان» ـ حماه الله تعالى ـ الذى هو ثغر الدين، وكِنانة الموحّدين، ووَزَرُ الأتقياء المجاهدين، وشَجًى فى صدور الكفرة المعاندين، فأمضى أميرُ المؤمنين مارآه من هذا التقرير، وعلم أن البركة مضمونةٌ فيما يتكلّفه من التدبير،

---

(١) العُقْل بالضم مالا علامة فيه من القداح والطرق وغيرها ومالاسمة عليه من الدواب - انظر القاموس.

وخرج أمرُه إلى ديوان الإنشاء بكتب هذا السجل بتقليدك ولاية هذا الثغر المحروس وعمله، وما هو منتظم معه من سهله وجبله .

فاعرف قدر هذه النعمة التى رفعتك على جميع الأمراء، وأغناك فيها حُسن رأى أمير المؤمنين ووزيره السيد الأجلّ الأفضل عن الوسائط والسفراء ؛ وأحلّتك أعلى مراتب الرفعة والسموّ، وأحظتك مع بُعد الدار بمزيّة القُرب من قلبيهما والدنوّ .

فتقلّد ما قلّدك أمير المؤمنين من هذه الولاية الشامخة المحلّ، التى غدا محظورها على غيرك من المُباح لك المُحلّ ؛ وتلقّها من الشكر بما يجعلها إليك آويه، ولديك مقيمةً ثاويه ؛ واعمل فيها بتقوى الله التى إذا أظلمت الخطوبُ طلعتْ فى ليلها فجرا، قال الله عز من قائل : ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا﴾ .

واشمل أهلَ هذه الولاية بالمماثلة بينهم فيما كان حقّا، ولا تجعل بين الشريف والمشروف فى الواجب فرقا ؛ وأمُر بالمعروف وابعث عليه، وانْهَ عن المنكر وامنع من الإجراء إليه ؛ وأقِم الحدود مستمرّا فى إقامتها على العاده، ومتوقّيا من نقص مايؤمَر به منها أو زياده؛ واصرف النصيبَ الأجزل، الأوفرَ الأكمل، إلى الاستيقاظ للعدوّ المخذول المجاور لك والبحث عن أخباره وعَمَل المكايد له، ومواصلته بما يُديم مخافته ووجله ؛ واغزُه فى عُقر داره، واقصده بما يقضى بخفض مناره ؛ ولاتُهمِل تسييرَ السّرايا إليه، وإطلاعَ الطلائع بالمكاره عليه ؛ واعتمده بما يُشرّد عنه لذيذَ منامه، وازرع فى قلبه خوفا يهابك به فى يقظته وفى أحلامه . وافعل فى أمر من يجرّدُ إليك من عسكر البدَل المنصور فى تقرير نُوَب المناسر، ولتتخيرْ لها كلَّ متوثّب على الإقدام متجاسر، ماتقتضيه الحالُ مما أنت [أ]قوم لمعرفته، وأهدى الناس فى سبيله ومحجّته . ووفّر حظّ القاضى المكين متولّى الحكم والمشارفة من

إعزازك وإكرامك ، واشتمالك واهتمامك ، ورعايتك ومعاضدتك ، والعمل في ذلك بما هو معروفٌ من سياستك، ومشهورٌ من رياستك ، وكذلك المستخدَم في الدعوة الهادية ثبتها الله تعالى ، فاعتمده بما يُعِزّ أمره ، ويبسط أمله ويشرح صدره . وضافر على أمر المال ، ووفور الاستغلال، والعمل من ذلك بما فيه أكبر حظٍّ للديوان . وأجرِ على ماهو مشهورٌ عنك في ولاياتك من حُسْن السياسة، والعمل بقضايا المصلحة، والتبتّل لما تستقيمُ به أمورُ الخدمة، وحفظ أهلِ السلامة وأرباب الدين، وإعمال السيف في مستوجبيه من المفسدين والمتمردين، مما أنت أنفذُ الوُلاة فيه، وأعلمُهم بما يوجبُه الصوابُ ويقتضيه ، فاعلمْ هذا واعمَلْ به، وطالِعْ مجلس النظر بما تجب المطالعةُ بمثله ، إن شاء الله تعالى[1] .

المذهب الثانى[2]

(أن يفتتح مايُكتَب في الولاية بلفظ « هـذا ماعَهِد عبدُ الله ووليُّه فلان أبو فلان ، الإمامُ الفلانيُّ أميرالمؤمنين، لفلان الفلانيِّ حينَ ولّاه كَيْتَ وكَيْتَ » من غير تعرّض لتحميد في أوّل مايُكتَب ولا في أثنائه ، ثم يقال : « أمره بكذا وأمره بكذا» على قاعدة ما كان يكتب في العهود بديوان الخلافة ببغداد، وهو قليل الاستعمال عندهم للغاية القُصْوى، ولم أظفَر منه بغير هذا العهد)

وهذه نسخةُ عهد على هذه الطريقة ، كُتِب به عن الحاكم بأمر الله الفاطميّ، للحسين بن عليّ بن النُّعمان ، بقضاء الديار المصرية وأجناد الشام وبلادِ المَغْرب ، مضافًا إلى ذلك النظرُ في دُور الضرب والعيار وأمْرُ الجوامع والمساجد، وهو :

---

(١) في بعض النسخ هنا زيادة نصها «وأما الوظائف الدينية فلها» ثم ترك بياضا بقدر نصف صفحة .

(٢) وقع في الأصول الضرب الثاني وهو سهو من الناسخ .

هذا ما عهد عبدُالله ووليُّه المنصورُ أبو علىّ الحاكمُ بأمر الله أميرُ المؤمنين، للقاضى حُسَين بن علىّ بن النُّعمان حين وَلّاه الحكمَ بالمُعِزّيّة القاهرة ومصر، والإسكندرية وأعمالها، والحرمَين حرسهما الله تعالى، وأجنادِ الشام، وأعمالِ المَغْرِب، وإعلاء المَنابر، وأئمّة المساجد الجامعة، والقَوَمة عليها والمؤذّنين بها، وسائر المتصرّفين فيها وفى غيرها من المساجد، والنظرِ فى مصالحها جميعا، ومشارفةَ دار الضَّرْب وعِيارِ الذهب والفِضّة، مع ما آعتمده أميرُ المؤمنين وآنتحاه، وقصده وتوخّاه: من آقتفائه لآثاره، وآنتهائه إلى إيثاره؛ فى كلّ عِليّة للدولة يَنْشُرها ويُحْيِيها، ودنِيّة من أهل القِبلة يَدْثُرها ويُعَفِّيها، وما التوفيقُ إلا بالله ولىّ أمير المؤمنين عليه توكّله فى الخيرة له ولسائر المسلمين فيما قلّده إيّاه، من أمورهم وولّاه.

أمره أن يَتّقِىَ الله عز وجلّ حقّ التقوى، فى السرّ والجهر والنَّجوى؛ ويعتصمَ بالثَّبات واليقين والنُّهى، ويَنْفَصِم من الشُّبُهات والشكوك والهوى: فإنّ تقوى الله تبارك وتعالى مَوْئِلٌ لمن وَألَ إليها حصين، ومَعْقِل لمن آقتفاها أمين، ومُعوَّل لمن عوّل عليها مَكِين؛ ووَصيّةُ الله التى أشاد بفضلها، وزاد فى سَناها بما عهد أنه من أهلها، فقال تبارك وتعالى: ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آتَّقُوا اللهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾.

وأمره أن لا يُنْزِل ما ولّاه أميرُ المؤمنين [إيّاه] من الأحكام فى الدّماء والأشعار والأبشار، والفُروج والأموال، [عن] منزلته العظمى من حُقُوق الله المحرّمه، وحُرُماته المعظّمه، وبيّناته المبيّنة فى آياته المُحْكَمه؛ وأن يجعل كتابَ الله عز وجلّ وسنّةَ جدّنا محمد خاتَمِ الأنبياء، والمأثورَ عن أبينا علىّ سيّد الأوصياء، وآبائنا الأئمة النُّجَباء - صلّى الله على رسوله وعليهم - قِبلةً لوجهه إليها يتوجّه، وعليها يكون المتّجه (١). فيحكم

(١) فى الأصل «إليها يتوجه وعليها لا يكون متجه» وهو غير مستقيم. تأمل.

بالحق ويقضي بالقسط ، ولا يحكّم الهوى على العقل ، ولا القسط على العدل ، إيثارًا لأمر الله عز وجل حيث يقول : ﴿ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ ﴾ : ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ .

وأمره أن يقابل مارسمه أمير المؤمنين وحدّه لقناة برجوان ، من إعزازه والشد على يده ، وتنفيذ أحكامه وأقضيته ، والقصر من عنان كل متطاول على الحكم ، والقبض من شكائمه ، بالحق المفترض لله جل وعز ولأمير المؤمنين عليه : من ترك المجاملة فيه ، والمحاباة لذى رحم وقربى ، وولىّ للدولة أو مولى ؛ فالحكم لله ولخليفته فى أرضه ، والمستكين له لحكم الله وحكم وليه يستكين ، والمتطاول عليه ، والمباين للإجابة إليه ، حقيقٌ بالإذالة والنهوض ؛ فليتق الله أن يستحيي من أحد فى حق له : ﴿ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ ﴾ .

وأمره أن يجعل جلوسه للحكم فى المواضع الضاحية للتحاكمين ويرفع عنهم حجابه ، ويفتح لهم أبوابه ، ويحسن لهم انتصابه ، ويقسم بينهم لحظه ولفظه قسمة لا يحابي فيها قويًا لقوته ، ولا يزدى فيها ضعيفًا لضعفه ؛ بل يميل مع الحق ويجنح إلى جهته ، ولا يكون إلا مع الحق وفى كفته ، ويذكر بموقف الخصوم وعاباتهم بين يديه موقفه وعاباته بين يدى الحكم العدل الديان : ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ ﴾ .

وأمره أن ينعم النظر فى الشهود الذين إليهم يرجع وبهم يقطع فى منافذ القضايا ومقاطع الأحكام ، ويستشف أحوالهم استشفافا شافيا ، ويتعرف دخائلهم

تعرُّفا كافيا ، ويسألَ عن مذاهبهم وتقلُّبهم فى سرهم وجهرهم ، والجلىّ والخفىّ من أمورهم ، فمن وجده منهم فى العَدالة والأمانه ، والنَّزاهة والصِّيانه ، وتحرِّى الصِّدق ، والشهادة بالحق ، علىٰ الشِّيمة الحُسنىٰ ، والطريقة المُثلىٰ ، [أبقاه] وإلا كان بالإسقاط للشهادة أوْلىٰ . وأن يُطالِعَ حضرة أمير المؤمنين بما يبدو له فيمن يعدله أو يردُّ شهادتَه ولا يقبله ؛ ليكونَ فى الأمرين علىٰ مايُعَدّ له ويمثّلُه ، ويأمَن فيما هذه سبيلُه كلَّ خلَل يدخُله ؛ إذ كانت الشهادةُ أُسَّ الأحكام ، وإليها يرجع الحُكّام ، والنظرُ فيمن يؤهَّل لها أحقُّ شىء بالإحكام ؛ قال الله تقدّست أسماؤه : ﴿ يأيُّها الذِين آمنُوا كُونوا قوّامينَ بِالقِسْطِ شُهَداءَ لِلّهِ ولَوْ علىٰ أنْفُسِكُمْ أوِ الوَالِدَيْنِ والأقْرَبِين ﴾ . وقال تعالىٰ : ﴿ وَالّذِينَ لا يَشْهدُونَ الزُّورَ وَإذا مَرُّوا بِاللّغوِ مَرّوا كِرَامًا ﴾ .

وأمره أن يعمَل بأمثلة أمير المؤمنين له فيمن يَلِى أموالَ الأيتام والوَصايا وأُولى الخلَل فى عقُولهم ، والعجزِ عن القيام بأموالهم ، حتى يجوز أمرُها علىٰ مايُرْضِى الله ووليَّه : من حياطتها وصيانتها من الأمناء عليها ، وحفظهم لها ، وتَقْطهم لما يحرم ولايحِلُّ أكْلُه منها ؛ فيتبوَّأ عند الله بُعْدا ومَقْتا ، آكِلُ الحرامِ والمُوكلُ له سُحْتا ، قال الله تعالىٰ : ﴿ إنَّ الّذِينَ يأْكُلُونَ أَمْوالَ اليَتامىٰ ظُلْمًا إنّما يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهمْ نَارًا وسَيَصْلَوْنَ سَعِيرا ﴾ .

وأمره أن يُشارِفَ أئمة المساجد والقَوَمةَ عليها ، والخُطباءَ بها والمؤذّنين فيها ، وسائرَ المتصرِّفين فى مَصالحها ، مشارَفةً لايدخُل معها خَللٌ فى شىء يلزم مثلَه : من تطهير ساحتها وأفنيتها ، والاستبدال بما تَبذّل من حُصُرها فى أحيانها ، وعمارتها (١) بالمصابيح

(١) الأولى "وإضاءتها" كما لايخفىٰ .

فى أوقاتها، والإنذار بالصلوات فى ساعاتها، وإقامتها لأوقاتها، وتوفيتها حق ركوعها وسجودها، مع المحافظة على رسومها وحدودها، من غير اختراع ولا اختلاع لشيء منها: ﴿ إنّ الصّلاةَ كانَتْ على المُؤمنينَ كِتابًا مَوْقُوتا ﴾ .

وأمره أن يَرعى دارَ الضرب وعيارَ الذهب والفضة بثقات يحتاطون عليهما من كل لَبْس، ولا يمكّنون المتصرّفين فيهما من سبب يُدْخل على المُعاملين بهما شيئًا من الوَكْس، إذ كان بالعَيْن والوَرِق تُتناول الرِّباع، والضِّياع والمَتاع، ويُبتاع الرقيق، وتنعقد المناكح وتُتقاضى الحقوق، فدخول الغش والدَّخَل فيما هذه سبيله جُرحةٌ للدِّين، وضررٌ على المسلمين، يتبرّأ إلى الله منهما أميرُ المؤمنين .

وأمره أن يستعينَ على أعمال الأمصار التى لا يُمكنه أن يشاهدَها بأفضلِ وأعلم وأرشد وأحمد من تُمكنه الاستعانةُ به على ما طوّقه أميرُ المؤمنين فى استعماله . قال الله عزّ وجل : ﴿ إنّا عَرَضْنا الأمانَةَ عَلى السّمواتِ والأرْضِ والجِبالِ فأبَيْنَ أنْ يَحْمِلْنَها وأشْفَقْنَ مِنْها وحَمَلَها الإنْسانُ إنّهُ كانَ ظَلُومًا جَهُولا ﴾ .

هذا ما عهد أميرُ المؤمنين فأوْف بعهده، تهتد بهديه، وترشُد برُشده، وهذا أوّل إمرة أمّرها لك فاعمل بها، وحاسب نفسك قبل حسابها، ولا تدعْ من عاجل النظر لها أن تنظر لمآبها : ﴿ يَوْمَ تأتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجادِلُ عَنْ نَفْسِها وتُوَفّى كُلُّ نَفْسٍ ما عَمِلَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ ﴾ .

وكتب فى يوم الأحد لسبع ليال بقين من صفر سنة ٣٨٩ .

المــــذهب الثـالث

من مذاهب كُتَّاب الدولة الفاطميــة

(أن يُفتتح ما يُكتَب فى الولايات بخطبة مبتدأة بالحمدُ لله كما يكتب فى أعلىٰ الولايات فى زماننا، ويقال: «يحمَدُه أمير المؤمنين علىٰ كذا وكذا»، ويسأله أن يصلِّى علىٰ محمد وآله، وعلىٰ جده علىّ بن أبى طالب» ثم يقال: «وإنّ أمير المؤمنين لم يزل يَنظُر فيمَنْ يصلُح لهذه الولاية، وإنه لم يجِدْ من هو كُفُؤ لها غير المولىٰ، وإنه ولّاه تلك الوظيفة» ثم يُوصّى بما يليق به من الوصية، ثم يقال: «هذا عهدُ أمير المؤمنين إليك، وحجتُه عليك، فاعمل به» أو نحو ذلك مما يُعطى هـذا المعنىٰ)

وقد أورد علىّ بن خَلَف من إنشائه فى كتابه "مواد البيان" المؤلَّف فى ترتيب الكتابة للدولة الفاطمية عدّةَ تقاليدَ لأرباب السُّيوف .

منها — تقليد فى رسم مايُكتَب للوزير، [وهو] :

الحمـدُ لله المنفرد بالملَكوت والسـلطان، المستغْنِى عن الوُزَراء والأَعْوان، خالقِ الخَلْق بلا ظَهِير، ومُصوِّرِهم فى أحسَـنِ تَصوير، الذى دَبَّر فأتقن التدبير، وعَلَا عن المُكَنِّف والمُشير، المانِّ علىٰ عباده بأن جعلهم بالتوازُر إخوانا، وبالتظافُر أعوانا، وأفقر بعضَهم إلىٰ بعض فى آنتظام أمورهم، وصلاحِ جُمهورِهم .

يحمدُه أمير المؤمنين أن آستخلفه فى الأرض، وناطَ به أسـبابَ البرْم والنقض، وآسترعاه علىٰ بَرِيَّته، وآستخلصه لخلافته، وقيَّضه لإعزاز الإسلام، وحياطةِ الأنام، وإقامةِ الحُدُود وتنفيذِ الأحكام، ويسألُه الصلاةَ علىٰ سـيدنا محمد خاتَم الأنبيـاء، وخِيرةِ الأصفياء، المؤيَّد بأفضـل الظُّهَراء، وأكمل الوُزَراء: علىّ بن أبى طالب المتكفِّل فى حياته، بنَصْره وإظهار شريعته، والقائم بعد وَفَاته، مقَـامَه فى أُمَّته،

صلّى الله عليهما، وعلى الأئمة من ذرّيتهما، مفاتيح الحقائق، ومصابيح الخلائق؛ وسلّم، وشرّف وكرّم.

وإنّ الله تعالى نظر لخلقه بعين رحمتـه، وخصّ كُلّا منهـم بضَرْب من ضُروب نعمته، وأقدرَهم بالتعاضُد، على آنتظام أُمورهم الوُجوديه، وأوْجدهم السُّبُل بالترافُد، إلى آسـتقامة شُئونِهم الدُّنيويه: لتنبجِسَ عيُونُ المَعاوِن بتوازُرهم، وتَدِرّ أخلافُ المَرافِق بتظافُرِهم.

وأَوْلَى النـاس باتّخاذ الوُزَراء، وآسـتخلاص الظُّهراء، من جعله اللهُ تعالى إلى حقّه داعيا، ولخلقه راعِيا، ولدار الإسلام حاميا، وعن حِماه مُرامِيا، وآستخلفه على الدّنيا وكلَّفه سياسةَ المسلمين والمُعاهَدين، ولذلك سأل موسَى عليه السلامُ وهو القَوِيّ الأمين، فى آستخلاص أخيه هارُونَ لوِزارته، وشدّ أَزْره بمُوازَرته، فقال: ﴿ وآجْعَل لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي هارُونَ أَخِي آشْدُدْ به أَزْرِي﴾. وآستوزر محمدٌ صلى الله عليه وسلم وهو المؤيَّد المعصومُ الذى لايَنْطِق عن الهوى آبنَ عمه عليًّا سيدَ الأوصياء؛ بدليل قوله له: «أنتَ مِنّي كهارُونَ من مُوسَى إلّا أنّه لا نَبِيَّ بَعْـدِى» لأن الإمام لو تولّى كلَّ ماقرُب وبعُد بنفسه، وعوّل فى حِيطَته على حواسّه؛ لنصَّ ذلك بتطرّق الخَلَل، ودخول الوَهْن والشَّـلَل؛ وإنمـا تسـتعينُ الأئمـةُ على ما كفّلها الله بكُفاة الأعوان، وأهلِ النُّصْرة فى الأديان؛ وذَوِي الآسـتقلال والتشمير، والمعرفة بوجُوه السياسة والتدبير، والخِبْرة بمَجارِي الأعمال، وأبواب الأموال، ومَصالح الرجال.

وإنّ أمير المؤمنين لم يزل يرتادُ لوزارته حقيقًا بها مسـتحقًّا نعْتَها؛ جامعًا بين الكِفَاية والغَنـاء، والمناصَحة والولاء، والأُبوّة والآختصاص، والطاعة والإخلاص؛ والنُّصرة والعزم، وأصالة الرأْى والحَزْم؛ ونَفاسة السياسة والتدبير، والنّظر بالمصلحة فى الصـغير والكبير؛ والآحتيال والتأديب، وملابَسة الأيّام والتجريب؛ والآنتمـاء

إلى كريم المناجب، بضمير المناصب؛ ويكرّر في الاختيار تقليده[1]، ويجيل في الانتقاء تأمّله وتدبّره. وكلّما عرضت له مخيلة فمن توافق إيثاره، أخلف نوءها، وكلما لاحت له بارقة تطابق اختياره، خبا ضوءها؛ حتى انتهت رويّته إليك، وأوقفه ارتياده عليك؛ فرآك لها من بينهم أهلا، وبتقمّص سربالها أولى؛ وبالاستبداد بإمرتها أحقّ وأحرى: لاشتمالك على أعيان الخصائص التي كان زيادٌ [لها] جامعا، وحلولك في أعيان المناقب التي لم تزل ترومها متحلّيا بفرائدها، وما شهرت به من إفاضة العدل والإقساط، وإغاضة الجور والإشطاط؛ وإنالة الحقّ والإنصاف، وإزالة الظّلم والإجحاف؛ ومراعاة النّصح بادسائك شاهدا، ومناجاته بمحذارك جاهدا؛ ولنهوضك بالخطب إذا ألمّ وأشكل، والحادث إذا أهمّ وأعضل؛ وتفرّدك بالمساعي الصالحه، والآثار الواضحه؛ والطرائق الحميده، والمذاهب السّديده؛ والتحلّي بالنّزاهة والظّلف، والمعطّل من الطّبع والتّكلّف؛ وفضل السّيرة، وصدق السّريره؛ ومحبة الخاصّة والعامه، والمعرفة بقدر الأمانه؛ والاضطلاع بالصّنيعه، والحفظ للوديعه.

فرأى أمير المؤمنين برأيه فيما يريه، ويقضي له بالصلاح فيما يعزم عليه ويمضيه ويسدّد مراميه ومساعيه؛ ويتعهّده في جميع مقاصده بلطف تحلو ثماره، وتحسن عليه وعلى الكافّة آثاره؛ أن قد ولّاك النظر في مملكته، وأعمال دولته: برّها وبحرها، وسهلها ووعرها، وبدوها وحضرها؛ وردّ إليك سياسة رجالها وأجنادها، وكتّابها وعرفائها، ورعيّتها ودواوينها، وارتفاعها ووجوه جباياتها وأموالها؛ وعدق بك البسط والقبض، والبرم والنّقض؛ والحطّ والرفع، والعطاء والمنع، والإنعام والردع، والتصريف والصّرف؛ ثقة بأن الصواب منوط بما تسدي وتلحم، وتفيض وتنظم، وتنقض وتبرم؛ وتصدر وتورد، وتقرّر وتأتي وتذر.

---

(١) لعله «تخيره» تأمل.

فلتهنأ هذه النعمة متحليا بملبسها ، ساريا فى قبسها ، وتلقها من الشكر بما يستقرها ويخلدها ، ويقرها عليك ويؤيدها ، واعرف ما أهلك له أمير المؤمنين من هذا المقام الأثير ، والمحل الخطير ، فإنما ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم .

وأنت وإن كنت مكتفيا بفضل حصافتك ، وثقابة فطنتك ، وحسن ديانتك ، ووثاقة تجربتك ــ عن التبصير ، مستغنيا عن التنبيه والتذكير ، فإن أمير المؤمنين لا يمتنع أن يزيدك من مراشده ، ما يقفك على سنن الصواب ومقاصده ، وهو يأمرك بتقوى الله تعالى فى سرك وجهرك ، واستشعار خشيته ومراقبته ، والله قد جعل لمن اتقاه مخرجا من ضيق أمره وحرجه ، ونصب له أعلاما على مناهج فرجه . وأن تستعمل الإنصاف والعدل ، وتسبغ الإحسان والفضل ، وتلين كنفك ، وتظهر لطفك ، وتحسن سيرك ، وتفيض برك ، وتصفح وتحلم ، وتعفو وتكرم ، وتبصر من ترجو صلاحه وتفهمه ، وتنصف من أفرط جماحه وتقومه ، وتأخذ بوثائق الحزم ، وجوامع العزم ، والغلظة والشدة على من طغى ولج فى غيه وعتا ، وبارز الله وأمير المؤمنين بالخلاف والشقاق ، والانحراف والنفاق ، مستعملا فاضل التدبير عند الموادعة ، وفاصل المكافحة عند المقارعة ، مصلحا للفاسد ، مثقفا للشارد ، مكثرا لأولياء الدولة وخلصائها ، وحاصدا لبغاتها وأعدائها ، واعظا مذكرا للغافل ، مؤمنا للمظلوم الخائف ، مخيفا للظالم الحائف ، مستصلحا للمسيئين ، مذكرا بإحسان المحسنين ، متنجزا لهم الجزاء على بلائهم فى الطاعة وآثارهم فى الخدمه . وأن تنظر فى رجال الدولة على اختلافهم نظرا يسلك بهم سبيل السداد ، ويجرى أمورهم على أفضل العرف المعتاد .

فأما الأماثل والأمراء ، والأعيان والرؤساء ، فتحفظ على من أحمدت طريقته ، وعرف إخلاصه وطاعته ، شعار رياسته ، وتزيد فى تكرمته ، وتنتهى به إلى ما تتراءى إليه مواضى همته .

وأمّا طوائفُ الأجناد فتُقرّهم على مراتبهم فى ديوان الجيش المنصُور، وتخُصّهم من عنايتك بالنصيب الموفُور، وتستخدمُهم فى سَدّ الثُغور وتشديد الأمُور، وتُراعى وُصُولَ أطماعهم إليهم، أوقات الاستحقاق إليهم، وانفاقهم نصاب الوجوب منهم (١).

وأما الكُتّاب المستخدَمون منهم فى آستخراج الأموال، وعمارة الأعمال، فتخُصّ كُفاتَهم بمـا تقتضيه كفايتُهم، وأُمناءَهم بمـا تُوجبه أماناتهـم؛ وتَستبدلُ بالعـاجز الخبيثِ الطُّعمه، والطَّبع المستشعر شـعارَ المذمّه: ليتحفظ النّزه المأمونُ بنزاهتـه وأمانته، ويُقلـع الدَّنسُ الخَئُون عن دَنَسه وخيانته؛ وتأمُر من تختارُه لخدمة أمير المؤمنين منهم أن يَسـيروا بالسِّيَر الفاضله، ويعمَلُوا على الرُّسوم العادله؛ فلا يضَيّعوا حقًّا لبيت مال المسلمين، ولا يَحيفوا أحدًا من المعاملين.

وأما الرعيّة، فيأمُرك أن تحكُم بينها بالسّويه، وتعتمدَها بعَدْل القضـيه؛ وترفَع عنها نَيرَ الجَوْر، وتحميَها من وُلاة الظلم، وتَسُوسَها بالفضل والرأفة متى آسـتقامَتْ على الطاعه، وتأدبتْ فى التِّباعه؛ وتُقوّمها متى أجرَتْ إلى المنازع والافتتان، وأصرت على مَغْضَبة السلطان.

وأما الأموالُ وهى العُدّة التى تُرهف عزائمَ الأولياء، وتَغُضّ من نَواظر الأعداء؛ فتستَخرجها من مَحَقّها، وتضعُها فى مستحِقّها؛ وتجتهدُ فى وُفُورها، وتتوفّر على ماعاد بدُرُورها؛ وأن تُطالعَ أمير المؤمنين بذَرّه وجلّه، وعَقْد أمرك وحَلّه؛ وتُنْهِىَ إليه كل ماتعزِمُ على إنهائه، وترجعَ فيـه إلى رائه: ليَكْرُمك من مواد تبصيره وتعريفه، ويزيدَك من هدايته وتوقيفه؛ بمـا يُفضى بك إلى جادّة الخير وسبيله، ويوضّح لك عَلَم النّجاح ودليله.

---

(١) المراد قيامهم بمـا يجب عليهم من استجادة الخيل والسلاح.

هذا عهدُ أميرِ المؤمنين إليك : وقد أودعه من تلويح الإشاره ، ما يُكتفى به عن تصريح العِبَاره ، ثقـةً بأنك الأريبُ الألمعىّ ، والفَطِنُ اللَّوْذَعىّ ، الذى تنتهى به مُتُونُ التذكير إلى أطرافه وحواشيه ، وتفضى به هوادى القول إلى أعجازه وتَواليه .

فتقلَّد ما قلدكَ أميرُ المؤمنين ، وكُنْ عنـد حُسْن ظَنّه فى فضلك ، وصدّق مَخِيلته فى كمالك ، والله تعالى يعرّف أميرَ المؤمنين وجه الخيرة فى تصيير أمره إليك ، وتعويله فى مهماته عليك ، ويوفقك لشُكْر المَوْهِبة فى آستخلاصـك ، والمِنْحة فى آجتبائك ، ويُنْهِضك بمـا حَمَّلك من أعبـاء مُظاهَرته ، وجَشَّمك من أثقال دَوْلته ، ويُسَدِّدك إلى ما يُدِرُّ عليك أخلافَ [نعمته] ، والسلامُ عليك ورحمة الله وبركاته .

* * *

ومنها ــ ماأورده فى رَسْم تقليد زَمِّ الأقارب : وهو التقدمة على أقارب الخليفة ، وهذه نسخته :

الحمـدُ لله الذى آبتـدأ بنعمته آبتـداءً وآقتضابا ، وأعادها جزاءً وثوابا ، ومَيَّز من آختصَّه بهداية خلقه ، وآستخلصه لإظهـار حَقِّه ، بأصْفاها عِطافا ، وأصْفاها نِطَافا ، وأحسنِها شِـعارا ، وأجملها آثارا ، وآستخرجهم من أطيب البريّة أعراقا ، وأطهرها شِيَما وأخلاقا ، وأقدمها سُؤْددا ومَجْدا ، وأكرمها أبًا وجَدّا ، وتَوحّد بأفضل ذلك وأعلاه ، وأكمله وأسنـاه ، محمدًا صفوتَه من خُلَصائه ، وخيرتَه مـن أنبيائه ، فأظهره من المَنْجَب الكريم ، والمَنْجَم الصَّميم ، والدَّوْحة الطاهرِ عُنْصُرها ، الشريف جوهَرُها ، الحُـلْوِ ثَمَرُها ، ورَشَّح من آختاره من عِتْرته لسياسة بريّتـه ، والدعاء إلى توحيده وطاعته .

يحمدُه أمير المؤمنين أنْ شرّفه بميراث النُّبوّه ، وفضّله بأكرم الوِلَادة والأبُوّه ؛ وأحلّه فى الذِّروة العالية من الخلافه ، وناطَ به أمورَ الكافه ؛ ويسأله الصلاةَ على جدّه محمد وعلىّ أبيه ، صلّى الله عليهما .

وإن أمير المؤمنين يرى أنّ من أشرف نِعم الله عليه مَوْقعا ، وألطف مواهبه لديْه مَوْضعا ، توفيقَه للمحافظة على مَنْ يُواشِجُه فى كريم نَسَبه ، ويمازِجُه فى صميم حَسَبه ؛ ويُدانيه فى طاهرِ مَوْلِده ، ويُقاربه فى طِيب مَحْتِده ؛ وتنزيلِ كلّ ذى تميُّز منهم فى دين وعلم ، ودراية وفهم ، وإحلاله بالمنزلة التى يستوجبُها بفاضل نَسَبه ، وفضل مكتَسَبه ؛ وبعثُ أنظاره على التحلّى بخصاله ، والتزيّن بخلاله : ليحصُل لهم من فضل الخلائق والآداب ، ما يُضاهى الحاصلَ لهم من عَراقة المناجب والأنساب ؛ ولذلك لا يزالُ يَنُوط أمورَهم ، ويكلُ تدبيرَهم ، إلى أعيان دولته ، وأماثل خاصّته ، الذين يعتادُون حضرته ويراوحُونها ، ويطالعُونه بحقائق أحوالهم ويُنهونها ، ويستخرجُون أمره فى مصالحهم بما يُذلّل لهم قُطوفَ إحسانه وطَوْله ، ويُعذِب لهم مَشارعَ بِرّه وفضله ؛ وما توفيقُ أمير المؤمنين إلا بالله عليه يتوكّل وإليه يُنيب .

فإن كان العهد إلى خادم ، قال :

ولما كنتَ بحضرة أمير المؤمنين معدُودا فى أُولى النّباهه ، المترشّحين للاستقلال بأعباء دولته وذَوِى الوجاهه ، المستخلَصين لاستكفاء جلائل مملكته : لِمَا اجتمع فيكَ من إباء النفس وعزّتها ، ووَثاقة الدِّيانة وحَصَافتها ، وسَداد السِّيرة واستقامتها ، ونَقاء السريرة وطهارتها ، وتقيُّلك مَنْهج أمير المؤمنين ومذهَبَه ، وتمثُّلك بهَدْيه وأدبه ، ونشْئك فى قُصور خلافته ، وارتضاعك دَرّ طاعته ـ رأى ـ والله تعالى يعزِم له على الخير فى آرائه ، ويوفّقه لصالح القول والعمل فى أنحائه ـ أنْ قلّدك زمّ بنى عمّه

الأشراف الإسماعيليين ثقةً بسياستك وحميد طريقتك ، وإنافةً لمنزلتك وإغرابا عن أثير مكانتك .

وإن كان العهد إلى شريف قيل بدلًا من هذا الفصل :

ولما كنتَ بحضرة أمير المؤمنين ممن زَيَّن شريفَ محتده ، بُمنيف سُؤدده ، وطاهرَ مَولده ، بظاهر مَحتِده ، وكريمُ تالده بنفيس طارفه ، وجليلَ سالفه ، بنَبِيل آنفه ، مقتفياً سَنَن أوليّتك ، مفرعا على أُصُول دَوْحتك ، ضاربًا بالسّهم المُعَلَّى في الدين والعلم ، حائزًا خَصْل السَّبْق في الرّجاحة والفَهْم ـ رأى أمير المؤمنين أنْ قلّدك نِقابةَ في عمه الأشراف الفلانيين : ثقةً بأنك تَعرِف ما يجمعهم وإيّاك من الأرحام الواشجه ، والأَواصِر المُتمازِجه ، وتُحسن السِّيرة بهم ، والتعهُّدَ لهم والتوفّر عليهم .

ثم يوصل الكلام بأى الخطابين قُدّم فيقال :

فتقلّد ما قلّدك أمير المؤمنين مستشعرًا تقوى الله وطاعته ، معتقدًا خيفته ومراقبته ، سائرًا فيمَنْ وَلّاك أمير المؤمنين بسيرته ، مستَنًّا بسُنّته ، متأدّبا بآدابه ، مقتفيا مَناهج صَوابه ، وإكرام هذه الأُسْرة [التى] خَصّها الله تعالى بكرامته ، وفَرَض مودّتها على أهل طاعته ، ونَزّهها عن الأدناس ، وطَهَّرها من الأرْجاس ، فقال جل قائلًا : ﴿ إنّما يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرا ﴾ .

وٱعرِف لهم حَقّ مراتبهم الدانية من أمير المؤمنين ، ونَزِّلهم بحيث نَزّلهم اللهُ من الدُّنيا والدّين ، وٱعتمد تعظيمَ مشايخهم وتوقيرَهم ، وسياسةَ شُبّانهم وتدبيرَهم ، وتقويم أخلاقهم وتثقيفَهم ، وحُثّهم بلُزُوم الطرائق الحميده ، والمذاهب السّديده ، التى تليق بأُصُولهم الطاهره ، وفُروعهم المُثْمره ، ومَناسبهم الصّميمه ، ومَناجبهم الكريمه ؛ وتفقّد مَنْشاهم ومَرْباهم ، وخُلَطاءهم وقُرَباهم ؛ فمن تناكَرت أعراقُه ، وأخلاقُه ،

وأنسابه، وآدابه، بالغت في تنبيهه وتعريفه ، فإن نجع ذلك فيه وإلا بسطت يدك إلى تهذيبه، وإصلاحه وتأديبه : ليستيقظ من منامة غرته ، ويرجع إلى اللائق بشرف ولادته ، وانظر فيما أوقف عليهم من الأملاك والمستغلات ، والضياع والإقطاعات، والرسوم والصلات ، وانتدب لتولي ذلك من تسكن إلى ثقته وأمانته من الكتاب، وراع سيرته في عمارته ، وطريقته في تثمير ماله وزيادته ، فإن ألفيته كافيا أمينا أقررته ، وإن وجدته عاجزا خئونا صرفته ، واستبدلت به من يحسن خبرك ، ويطيب أثرك ، وأجر الأمر في قسمته بين ذكورهم وإناثهم على الرسوم التي يشهد بها ديوانهم، واكتب الرقاع عنهم إلى الحضرة في اقتضاء رسومهم ، وما يعرض من مهمات أمورهم، وتنجز كل مايتعلق بهم وتنوب عنهم فيه : لتستقيم شئونهم بسياستك، وتنتظم أحوالهم بحسن سيرتك .

هذا عهد أمير المؤمنين إليك فاعمل به وانته إلى مضمنه ، إن شاء الله تعالى :

***

ومنها — ماأورده في رسم تقليد بنقابة العلويين، وهو :

الحمد لله الذي انتجب من أسرار عباده قادة جعلهم لمصالحهم نظاما ، وانتخب من أخيار خليقته سادة صيرهم لأمورهم قواما، وعلق بهم هداية من ضل، وتقويم من ذل ، وتعليم من جهل ، وتذكير من غفل ، ونصبهم أعلاما على طرق الرشاد ، وأدلة على سبل السداد .

يحمده أمير المؤمنين أن اختصه بأثرة الخلافة والإمامه ، وميزه بمزية الولاية على الأمة والزعامه، وأنهضه بما كلفه من سياسة بريته وتنزيلهم منازلهم من اختصاصه وإيثاره، وإحلالهم في عالمهم من استخلاصه واختياره، ويسأله الصلاة على أشرف

الأمم نجارا وأطيبهم عُنْصُرا، وأعظمهم مَفْخَرا، سيدنا محمد صلّى الله عليه وعلى أخيه وآبن عمّه، وباب حكمته وعلمه، أمير المؤمنـين علىّ بن أبى طالب الراجح فى نَسَبه، المُدانى [له] فى حَسَبه، سـيفه البائر، ومُعجزه الباهر، ومكاتفه المُظاهر، وعلى الأئمة من ذرّيتهما المهديّين، وسلم تسليما .

وإنّ أمير المؤمنين بمـا خصّه الله تعالى من شَرَف المَنجم والمَولِد، وكَرَم المحتـد، وخوّله من مَناصب الخلفاء والأئمة، وناط به من إمامة الأمّة - يرى أنّ من نِعَم الله التى يجب التحدّثُ بشُكْرها، ويَحقّ الإفاضـةُ فى نَشْرها، توفيقَـه للنظر فى أحوال ذوى لُحمتـه، وأولى مُناسبته، المُواشِجين له فى أَرُومته، المعتزين إلى كرم ولادته، وتوخّيهم بمـا يُرفلهم فى مَلابس الجمـال، ويُوقِلهـم فى هَضَبات الجلال، ويرتّبهم فى الرُّتَب التى يستوجبونها [ويراها] أَوْلى بمَغارسهم وأنسابهم، وماسًّا بأنفسهم وآدابهم؛ ولذلك يصرف آهتمامَه إلى مايجمع لهم بين شَرَف الأعراق، وكَرَم الأخلاق، وطهارة العناصر والأواصر، وحيازة المناقب والمآثر .

ولمـا كنتَ بحضرة أمير المؤمنـين من جِلّتهم العلمـاء، وطَهَرتهـم الأزكياء، وأبرارهم الصُّلَحاء، وخيارهم الفُضَـلاء، الذين تضارعتْ أخلاقُهـم وأعراقُهم، وتقارعتْ أنسابُهم وآدابُهـم، وتشاكهتْ مواردُهم ومصادرُهم، وتشابهتْ أوائلُهم وأواخرُهم، وآتفقت جيُوبُهـم ودخائلهم، وتوضّحت عن الدين والخير مخايلُهـم . هـذا مع مارعاه أميرُ المؤمنين من كريم مَساعيك فى خدمتـه، وإصابة مَراميك فى طاعته، وآعتصامك بحبل متابعته، ونُهوضك بحقوق ما أسبغه عليك من نِعمته - رأى أمير المؤمنين - والله تعـالى يَقضى له فى آرائه بحُسْن الآختيار، ويُمِدّه بالعون والتأييد فى مجارى الأقدار - أن قلّدك النّقابة على الأشراف الطالبيّين أجمعين، المقيمين

بالبصرة وسائر أعمال المملكة شرقا وغربا، وبعدا وقربا ، ثقة بأنك تصدق مخيلته فيك واعتقاده، وتستدعى بكفاية ما استكفاك شكره وإحماده، وتستدر بالاستقلال والغناء أخلاف إحسانه وفضله، وتمترى بالاضطلاع بمضلع الأثقال فائض امتنانه وطوله .

فتقلد ما قلدك أمير المؤمنين عاملا بتقوى الله وطاعته ، مستشعرا لخيفته ومراقبته، وأحسن رعاية من علق بك رعايته، وسياسة من وكل إليك سياسته .

وآعلم أن أمير المؤمنين قد ميزك على كافة أهل نسبك ، وجميع من يواشجك فى حسبك، وجعلك عليهم رئيسا ولهم سائسا ، فاعرف لهم حق القرابة والمشابكة، وتشاجر الأسباب والمشاركة ، فإن الله تعالى يقول : ﴿ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ ﴾ . وعمهم جميعا بالتوقير والإكرام، والتفقد والاهتمام، واتخذ شيخهم أبا، وكهلهم أخا، وطفلهم ولدا، وافرض لهم من الحنان، والإشفاق والفضل والإحسان، ماتقتضيه الرحم الدانية، والأواصر المتقاربة ، وكن مع ذلك متفقدا لأحوالهم، مطالعا لسيرهم وأفعالهم، فمن ألفيته سالكا لأقصد الطرائق، متخلقا بأجمل الخلائق، حارسا لشرفه، متشبها بسلفه ، فزده فى الأثرة زيادة ترغب أمثاله فى اقتفاء مذهبه، وتبعثه على التأدب بأدبه، ومن وجدته مستحسنا مالا يليق بصريح عرقه، راكبا ما ليس من طرقه ، فأيقظه بنافع الوعظ، وذكره بناجع اللفظ ، فإن استقام على الطريقة المثلى ، ورجع إلى الأجدر والأولى، عرفت ذلك من فعله ، وفرضت له ماتفرضه لصلحاء أهله : فإن الله تعالى قد فتح باب التوبة، ووعد بإقالة أهل الإنابة، ومن انحرف عن التذكير ، وانصرف عن التبصير، وأصر وتمادى، وارتكب مايوجب حدا، امتثلت أمر الله تعالى فيه، وأقمت الحد عليه ، غير مضجع

إلى شـفاعه ، ولا مُوجب لحق ذَريعه : فإن أمير المؤمنين يصل من ذَوى أنسابه من وكّدها بأسبابه ، ويقطع من أوجب الحقُّ قطيعتَه ، ولا يراعى رَحِمَه وقرابتَـه . ووكِّل بهم من يَرْوى إليك أخبـارَهم ، ويكشفُ لك آثارَهم : ليعلموا أنهـم ببال من مطالَعتك ، وبعينٍ من اهتمامك ومشارفَتك ؛ فيكبَحُ ذلك جامحَهم عن العِثار والسَّقط ، ويمنع طامحَهم من الزَّلَل والغَلَط . وتَوَخّهم فى خطابك بالإكرام ، وميّزهم عن محاورةِ العَوام ، ولا تقابِلْ أحدا منهم ببَذَاء ولا سَبّ ، ولاقَذْح فى أمّ ولا أب ؛ فإنهم فروعُ دوحةِ أميرالمؤمنين وعِترتُه الذين طهّرهم الله من الأرجاس ، وفَرَضَ قِرَاهم على النـاس . ووَفّر اهتمامَك على صِيانةِ النَّسَب من الوَكْس ، وحياطته من اللَّبْس ؛ فإنه نَسَبُ الرسول صلّى الله عليـه وسلم الذى يتصل يومَ انقطاع الأنْساب ، وسببُه الذى يتشج يومَ انفراط الأسباب ؛ وأثبِتْ أسمـاءَ كافّة من يَعْتَرى إلى هذا البيت منسوبةً إلى أصولها : لتأمن من دَخيل مُلْصَق يتزور عليهـا ، ومختلِق مُلْحَق ينضم إليها . وإن عرف مدّعٍ نسبًا لاحجة له فيه ، ولا بينةَ عنده عليه ؛ فغلِّظ له العقاب ، وأشهِره شُهرة تحجُزُه عن معـاودة الكذاب ؛ وآحتَطْ فى أمر المَناكح وصُنْهـا عن العَوامّ ، ووَفّر كرائمَ أهل البيتِ عن مُلابسة اللّئام ؛ وإن آدّعى أحدٌ من الرعية حقًّا على شريف فاحمِلْهـا على السويّة وعِده بإنصاف خصمه ، وآمنَعْه من ظُلْمه ؛ وإن ثَبَتَ أيضا فى مجلس الحُكْم حقٌّ على أحد من الأشراف فانزِعْه منـه [وولّ][1] على من فى البلاد ، أهـل السَّداد منهم والرَّشاد ؛ ومُرْهم بتقيُّل مذهبك ، وتَقَيُّل أدبك ؛ وآصرِف اهتمامَك إلى حِفْظ أوقافهـم وأملاكهم ومسـتغَلّاتهم فى سائر الأعمـال ، وحُطْها من العَفاء والاضمحلال ؛ وتوفّر على تثمـير ارتفاعها ، وتَزجيـة مالهـا ؛

(١) الزيادة ليستقيم الكلام .

وآستخدمْ لضبط حاصلها ، وجهات مُنْفَقها ، من تسْكُن إلىٰ ثقته ، وتثق بنهضته ؛ ووَزِّع ما يرتفع من آستغلالها بينهم على رُتَبهم التى يشهد بها ديوانهم .

هـذا عهدُ أمير المؤمنين إليك فآنته إليه منتهجا لتمثيله ؛ معتمدا بدليله ؛ وطالعْ أميرالمؤمنين بما آلتبس عليك وأبهم ، وأشكل وآستعجم : ليقفك على واضح السَّنَن ، ويُرشدك إلى أحسن السُّنَن ؛ وآستعنْ بالله يَمِدك لمعونته ، وآستهْدِه يؤيِّدك بهدايته ؛ إن شاء الله تعالىٰ .

✦✦✦

ومنها — ماأورده فى رسم تقليد بزِمِّ طوائف الرجال .

الحمدُ لله البديع تقديرُه، الحكيم تدبيرُه، الذى أتقن ماصنَع وأحكمه ، وكمَّل ماأبدع وتمَّمه ؛ وأعطى كلَّ مصلحة من مصالح عباده نِظاما ، وكُلَّ مَرْفِق من مرافق خلقه قِواما ؛ فلا يُقارَب فيما خَلَق وصوَّر، ولا يُشاكَل فيما قدَّر ودبَّر؛ ورأَبَ ثَلْم بريَّته بمن آستخلصه من خاصَّتها، لسياسة عامَّتها ؛ وآنتخبه من أشرافها، لتسديد أطرافها ؛ وإقامة من سادَها لإصلاح فاسدها ، وتقويم مائدها ؛ وتوقيفها علىٰ سَنَن الصواب ، وتعريفها بمحاسن الآداب .

يحمده أميرالمؤمنين أن أحلَّه فى المنزلة العليَّة : من آصطفائه وآستخلاصه ، والذِّروة السنيَّة : من آجتبائه وآختصاصه ؛ وفوَّض إليه تنزيل الرتب وتحويلها ، وإقرار المنازل وتحويلها ؛ وناط به الإبرام والنقض ، والرَّفع والخفض ، والرِّيش والحصّ ، والزيادة والنَّقص ؛ وسوَّغه الشُّكر على مواهبه السابغ عِطافُها ، الفسيحة أكنافُها ، البعيدة أطرافُها ؛ و[يسأله] أن يصلى على نبيِّ الرحمه ، ومُفيد الحكمه ، سيدنا محمد خاتم

الرُّسُل ، ومُوضِّح السُّبُل؛ صلى الله عليـه وعلى أخيه وآبن عمِّه ، وخليفته على أُمَّتـه وقومه : علىّ بن أبى طالب أمير المؤمنين، ومَولى المسلمين؛ وعلى الأئمة من ذُرِّيتهما الطاهرين .

وإنّ أمير المؤمنين بمـا فوّضه الله تعالى إليـه من حماية الأنام، والمُراماة عن دار الإسلام، وكَفَّله من غَضّ نواظر أهـل العناد ، وتنكيس رءوس رؤساء الإلحاد ؛ لايزال ينظُر فى مصالح عبيده ، وتَوَفُّر سياسة رجال دولته وجنوده ؛ الذين هم حزبُ الله الغـالبُون، وجنـدُه المنصورُون ؛ ويردُّ النظرَ فى أمورهم، والتقدّمَ عليهم ؛ وزمَّ طوائفهم ، إلى خواصّ دولته ، وأعيان مملكته ، الذين بَلاطرائقهم ، وحَمِدَ خلائقهم : من الغَناء والكفاية ، والسّداد وحُسْن السياسـة ؛ وتَقلُّهم فى الخدم فاستقلُّوا بأعبائها وأثقالها ، ونهضُوا بناهض أعمالها ، ومضتْ عزائمُهم فى حِياطة البيضة ، وآشتدّت صرائمهم فى تحصين الحَوْزة ، وصدَقتْ نيّاتهم فى المُراماة عن المِلّة ، والمحاماة عن الدعوة والدَّوْلة .

ولـمّا كنتَ بحضرة أمير المؤمنين مُعَدًّا لمهمّاته ، معدودًا فى أماثل كُفَاته ؛ مشهورًا بحسن السياسة لمـا تُورِده وتُصدِرُه ، معروفًا بفضـل السِّيرة فيما تأتيـه وتَذَره ـ رأى أمير المؤمنين ـ والله يُرشده لأعْوَد الآراء بالصلاح والإصـلاح ، وأدْناها من الخير والنجاح ـ أنْ قلَّدك زِمامَ طائفة الرجال الفلانيين (و يوصفون بمـا تقتضيه مكانتهم من الدولة وحسن سيرهم فى الخدمة) إنافةً بقَدْرك ، وإبانةً عن خَطَرك ، وتنويهًـا بذِكْرك ، وتفخيمًا لأمرك .

وهو يأمُرك بتقوى الله تعـالى وطاعته ، وآستشعار مراقبته ؛ ورياضة خلائقك على محبّة العَدْل ، وإيثار الفضل ؛ وآتّبـاع اللُّطف ، وآجتناب العَسْـف ؛ وتوخّى

الإنصاف، وبَسْط الهيبة من غير إجحاف، وأن تخُصّ هذه الطائفة من النظر في أمورها، وتعهُّد صغيرها وكبيرها، بما يُسدّد أحوالها، ويحقّق آمالها، وتأخذها بأحسن الآداب اللائقة بأمثالها، وسُلوك الطريقة المعهودة من أعيانها وأماثلها، وتُشعرها من أمير المؤمنين بما يشرح صدرها في خدمته، ويُقرّ عينها في طاعته، والمسارعة إلى مكافحة أعدائه، والتميّز في نُصرة أوليائه، وتُطالع بحال من يستحق الاحترام، ويستوجب إفاضة الإنعام، وتكتب الرّقاع عنها (مستدعيا للرّباطات، في الأطماع والعاجزين شاملا في التعويد والتأمير والتلقيب والولايات قاصدا في ذلك ما يُفسح آمالها في الآجال، ويُوثّقها بدُرور الأمثال)(١)؛ فإنهم أمراء الحروب، وكُفاة الخطوب، الذين يجاهدون عن الحوزة، ويُرامُون عن الدولة، وأفرِض لهم من الإكرام، وتامّ الاهتمام، ما تقتضيه مكانتهم في الدوله، وموضعهم من الخدمه، وتكفّل أوساطهم بالرّعايه، واصرِف إليهم شطرا موفورا من العنايه، وألحِق من برّز منهم وتقدّم، ونهض وخدم، بنظرائه وأمثاله، وساوِ بينه وبين أشكاله، وتعهّد أطرافهم بملاحظتك، وتفقّدهم بسياستك، وخُذهم بلزوم السِّيَر الحميده، والمذاهب السّديده، والتوفّر على ما يُرهف عزائمهم، ويؤيّد أيديهم، ولا تُفسح لأحد من هذه المذاهب في مخالطة العوّام ولا مشاركة التجّار والاحتراف، ووكّل بهم من النُّقباء من يتتبّع سيَرهم، ويُنهي إليك أخبارهم، فمن علمته قد اجترأ إلى نَسْخ المذهب، فتناوله بأليم الأدب، وأحضضهم على الإدمان في نقل السلاح، والضّرب بالسيف، والمطاعنة بالرمح، والإرماء عن القوس، وميّز من مهر واستقلّ، وقصّر بمن ضجّع وأخلّ، فهم كالجوارح التي ينفعها التعليم والإجراء، ويضرّها الإهمال والإبقاء، وفي صرفك الاهتمام إليهم ما يزيد في رغبة ذي الهمّة العليّه، ويبعث المعروف

(١) كذا في النسخ ولم نهتد الى المراد منها .

فى النفس الدَّنيّــه ، وأن تُطالبَهم بالاستعداد، وارتباط الخُيُول الجياد، والاستكثار من السِّــلاح الشاك والجُنَن . وليَكُنْ ماتُطالبهـم بإعداده من هــذه الأصناف علىٰ حَسَب الفُروض من العَطَاء، ولا تُرَخِّص لأحد فى الاقتناع بمـا لايليقُ بمنزلتــه ، والرضا بمـا يَقع دُون مايعتدُه أماثلُ طبَقته . ومَنْ مات من هــذه الطائفة وخلَّف ولدا يتيًا فضُمّه إلىٰ أمثاله ، وانْظُر فى حاله ، ووكِّل به من يفقِّهه فى دينه ، و يعلّمه مالا غنىٰ به عن تعليمه من كتاب الله وسُنّته ، ومَنْ يهذبه فى الخدمة و يعلِّمه العملَ بآلاتها، والتنقّلَ فى حالاتها، و يطلِّق له من إنعام أمير المؤمنين مايقُوم بكُلْفتها ولوازمها، وخُذْ كلّ من تقدَّمهم بخدمها والجرْى علىٰ عادتها فى النُّهوض بما يُستَنهض به ، ولا يُفَسِّــح لها فى التثاقُل عنــه ، وسوِّ بينَهم فى الاستخدام ، ولا تخُصّ قومًا دون قوم بالترفيــه والإجمام، فإنّ فى ذلك إرهاقًا لعزائمهم ، وتقويةً لمُنَنِهم، و إفاضةَ العدل عليهم .

هــذا عهدُ أمير المؤمنين إليك، قد وكّد به الحجةَ عليك، فتأمّله ناظرا ، و راجعْه متدبِّرا ، وانته إلىٰ مَصَايره ومَرَاشِــده ، واعمل علىٰ رُسُــومه وحدُوده ، يُوفِّق الله مقاصدَك، ويُسْعِد مَصالحك و يتولّاك، إن شاء الله تعالىٰ .

ورُسوم هــذه العهود يتفاضَل الخطابُ فيها بحسب تفاضُل الطوائف ومَن يولّىٰ عليها . وهذا الأُنْموذَج متوسِّط تُمكن الزيادةُ عليه والنقصُ منه .

⁂

ومنها ــ ما أورده فى رسم تقليد بإمارة الحج، وهذه نسخته :

الحمدُ لله الذى طهّر بيته من الأرجاس، وجعلَه مَثَــابةً للنــاس، وآمَنَ مَن حلَّه ونزله، وأوجبَ أجرَ من هاجر إليه ووصلَه .

يحمده أمير المؤمنين أن خصّه بحيازة البيت الأعظم، والحجر المكرّم، والحطيم وزمزم؛ وأفضى إليه ميراث النبوّة والإمامه، وتراث الخلافة والزّعامه؛ وجعله لفرضه موفّيا، ولحقوقه مؤدّيا؛ ولحدوده حافظا، ولشرائعه ملاحظا؛ ويسأله أن يصلّى على من أمره بالتأذين فى الناس بالحجّ إلى بيته الحرام لشهادة منافعهم، وتأدية مناسكهم؛ وقضاء تفثهم، ووفاء نذرهم، وذكر خالقهم؛ والطواف بحرمه، والشكر على نعمه: سيدنا محمد رسوله صلّى الله عليه وعلى وصيه وخليفته، وباب مدينة علمه وحكمته: على بن أبى طالب سيد الوصيّين، وعلى الأئمة من ذرّيتهما الطاهرين.

وإنّ أولى ماصرف أمير المؤمنين إليه همّته، ووفّر عليه رعايته؛ مثابرا عليه، وناهضا لحق الله تعالى فيه؛ النظر فى أمر رفق الحجيج الشاخصة إلى بيت الله الحرام، وزيارة قبر نبيه عليه أفضل الصلاة والسلام؛ ورده إلى من حلّ محلّك من الدين، وتميز بما تميّز به صلحاء المسلمين: من العلم، ورجاحة الحلم؛ ونفاذ البصيره، وحسن السريره، وعدل السّيره؛ ولذلك رأى أمير المؤمنين أن قلّدك أمر رفق الحجيج المتوجّهة من موضع كذا إلى الحرمين المحروسين، وولّاك الحرب والأحداث بها: واثقا باستقلالك وغنائك، وسدادك وإصابة آرائك؛ فتقلّد ماقلّدك أمير المؤمنين بعزم ثاقب؛ ورأى صائب؛ وهمّة ماضيه، ونفس ساميه؛ وشمّر فيه تشميرا يعرب عن محلّك من الاضطلاع، ويدلّ على استقلالك بحقّ الاصطناع؛ وخصّ الحجّاج بأتمّ الحظ، وكن من أمرهم على تيقّظ؛ واعتمد ترفّهم فى المسير، وسوّ فى رعايتهم بين الصغير والكبير؛ فإنهم جميعا إلى الله متوجّهون، وإلى بيته الحرام قاصدون، وعلى رسوله صلى الله عليه وسلم وافدون؛ قد استقرّبوا بعيد الشّقّه،

وآستدمثوا خشن المشقة ، رغبة فى ثواب الله وعفوه ، والنجاة من عقابه وسطوه ؛ وتقربا إليه بارتسام أمره وطاعته ، وإيجابا للحرمة بالحلول فى عراص بيته وأفنيته ؛ فرافدتهم واجبـه ، ومساعدتهم لازبه ؛ حتى يصلوا إلى بغيتهم وقد شملتهم السلامة فى الأنفس والأموال، والأمنة فى الخيل والرجال : متوجهين وقارين وقافلين ، بعد أن يشهدوا منافعهم ، ويؤدوا مناسكهم ، ويعملوا بما حد لهم . وردهم فى سيرهم عن الازدحام ، ورتبهـم على الانتظام ، وراعهـم فى ورود المناهل ، وآمنعهم من التحاذث عليهـا والتكاثر فيها ؛ حتى لا ينفصلوا منهـا إلا بعد الارتواء ، ووقوع التساوى والاكتفاء ؛ وقدم أمامهـم من يمنعهـم من التسرع ، وأخر وراءهم من يحفظهم من التقطع ؛ ورتب ساقتهم ، ولا تخل بحفظهم من جميع جهاتهم ؛ وطالـع أمير المؤمنين فى كل منزل تنزله ومحـل تحله بحقيقـة أمرك ليقف عليها ، ويمـدك بمـا ينهضك فيها .

هـــذا عهد أمير المؤمنين إليك فتدبره عاملا عليـه ، متبصرا بمـا فيه ، عاملا بمـا يحسن موقعه لك ، ويزيدك من رضا الله وثوابه ، إن شاء الله تعالى .

⁂

ومنها ــ ماأورده فى رسم تقليد الإمارة على الجهاد ، وهذه نسخته :

الحمد لله الصادق وعده ، الغالب جنـده ؛ ناصر الحق ومديله ، وخاذل الباطل ومذيله ؛ محل النكب بمن آنصرف عن سبيله ، ومنزل العقاب بمن تحرف عن دليله ؛ الذى آختـار دين الإسـلام فأعلى مناره ، ووضح أنواره ، وآسـتخلص له من أوليائه أعضادا لاتأخذهم فى الحق لومة لائم ، ولا يغمضون عن المكافحة دونه جفن حالم ؛

وجزاهم على سعيهم فى نصرته جزاء فيه يتنافس المتنافسون ، وإلى غاياته يرتقى بالهمم المجدون؛ قصدًا من الله تعالى فى إعزاز دينه ، وإنجاز ماوعد به خلفاءه من إظهاره وتمكينه؛ وقطًا لشوكة أهل العناد ، وتعفية لآثار ذوى الفساد ؛ وتوفيرا لأحاظى من بذل الاجتهاد، من سعداء عباده فى الجهاد .

يحمده أمير المؤمنين أن اختصه بلطيف الصنع فيما استرعاه، ووفقه للعمل بما يرضيه فيما ولاه ؛ وأعانه على المراماة عن دار المسلمين، والمحاماة عن ذمار الدين؛ ومجاهدة [من] ندعنهما صادفا، ونكب عن سبيلهما منصرفا؛ وإبادة من عند عن طاعته واتخذ معه إلها آخر لا إله إلا هو سبحانه وتعالى عما يقول المشركون علوا كبيرا؛ واستنزالهم من صياصيهم قهرا واقتسارا ، وإخراجهم عن بيوتهم عزا واقتدارا ؛ وإذاقتهم وبال أمرهم [و] عاقبة كفرهم، اتباعا لقول الله تعالى إذ يقول : ﴿ يأيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة واعلموا أن الله مع المتقين ﴾ .

ويسأله أن يصلى على أشهر الخلق نورا وفضلا ، وأطهر البرية فرعا وأصلا ؛ وأرشد الأنبياء دليلا ، وأقصد الرسل سبيلا : محمد رسوله الذى ابتعثه وقد توعر طريق الحق عافيا، وتغور نور الهدى خافيا؛ والناس يتسكعون فى حنادس الغمرات ، ويتورطون فى مهاوى الهلكات ؛ لا يعرفون أنهم ضلال فيستهدون ، ولا عمى فيستبصرون؛ فأيده وعضده ، ووفقه وسدده؛ ونصره وأظهره، وأعانه وآزره؛ وانتخب له من صفوة خلقه،أولياء كانفوه على ظهور حقه، سمحوا بالأنفس العزيزه ، والأموال الحريزة ؛ وجاهدوا معه بأيد باسطة ماضيه، وعزائم متكافية متوافيه؛ وقلوب على الكفار قسية قاسيه ؛ وعلى المؤمنين رءوفة حانية. فلما صدقوا ماعاهدوا الله عليه، وارتسموا أمره وانتهوا إليه، شركهم معه فى الوصف والثناء ،

وأضافهم إليه فى المدح والإطراء، فقال جل قائلا : ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾ ، صلى الله عليه وعلى أخيه وابن عمه أمير المؤمنين على بن أبى طالب سيف الله الفاصل، وسنانه العامل ؛ ومعجز رسوله الباهر، ووزيره المظاهر ؛ مبيد الشجعان، ومبير الأقران ؛ ومقطر الفرسان ، ومكسر الصلبان ؛ ومنكس الأوثان ، ومعز الإيمان ، الذى سبق الناس إلى الإسلام ، وتقدمهم فى الصلاة والصيام ؛ وعلى الأئمة من ذريتهما الميامين ، البررة الطاهرين ، وسلم تسليما .

وإن أمير المؤمنين بما كلفه الله تعالى من [أمر] دينه ، ووعده من إظهاره وتمكينه ، يرى أن أفضل ماردنا إليه ببصر بصيرته ، ورمى نحوه بطامح همته ، مااشتملت الدين والدنيا بركته ، وعمت الإسلام والمسلمين عائدته ؛ وحل محل الغيث إذا تدفق وهمع ، والنهار إذا تألق ولمع . ولا شىء أعود على الأمه ، وأدعى إلى سبوغ النعمه ، من علو كلمتهم ، وارتفاع رايتهم ؛ وتحصين حوزتهم ، وإيمان منصتهم ؛ وتأدية الفريضة فى مجاهدة أعدائهم ، وصرفهم عن غلوائهم ؛ واقتيادهم بالإذلال والصغار ، وكبحهم بشكائم الإهوان والإقتسار ؛ ومواصلتهم بغزو الديار ، وتعفية الآثار ، وإيداع الرعب فى صدورهم ، وتكذيب أمانى غرورهم ؛ ووعظهم بالسنة القواضب ، ومكاتبتهم على أيدى الكتائب : لما فى ذلك من ذل الشرك وثبوره ، وعز التوحيد وظهوره ؛ ووضوح حجة أولياء الله تعالى على أعدائه بما ينزله عليهم من نصره ومعونته ، ويؤيدهم به من تأييده وعنايته ؛ لا جرم أن أمير المؤمنين مصروف العزمه ، موقوف الهمه ، على تنفيذ البعوث والسرايا ، والمواصلة بالجيوش والعرايا ؛ وتجهيز المرتزقة من أولياء الدوله ، وحض المطوعة من أهل المله ، على ما أمر الله تعالى به من غزو المشركين ، وجهاد الملحدين ؛ نافذا فى ذلك بنفسه ، وباذلا فيه

عزيز مُهجته ، عنـد تسهُّل السبُل إلى البِغْية ، ووجُود الفُسحة ؛ ومعوّلا فيـه عند التعذُّر على أهل الشّجاعة والرّجاحة من أعيان أهل الإسلام الذين أيقنتْ ضمائرهم ، وخلصتْ بصـائرهم ؛ ورغبُوا فى عاجل الذكر الجميـل ، وآجل الأجْر الجزيل ؛ وأميرُ المؤمنين يسأل الله تعـالى أن يُجرِيه فيما يُصْـدر و يُورِد ، على أفضل مالم يزل يُولى ويُعوِّد : من التوفيق فى رأيه وعَزمه ، والتسديد فى تدبيره وحَزمه ؛ ويؤتيه من ذلك أفضلَ ماآتاه وليًّا آستخلفه ، وأمينًا كفَّله عبادَه وكلَّفه ؛ وما توفيقُ أمير المؤمنين إلّا بالله عليه يتوكّل وإليه يُنيب .

ولـمّا كنتَ بحضرة أمير المؤمنين ممن يُعِـدّه لجلائل مهمّاته ، ويَعُدُّه من أعيان كُفَاته ؛ ورآه سِدَادا للخَلَل ، وعِمـادًا فى الحادِث الجَلَل ؛ وسَهْما فى كِنَانتـه صائبا ، وشهابا فى سماءِ دولته ثاقبا ؛ وسيفا بيَد الدين قاطعا ، ومِجَنًّا عن الحَوْزة دافعا ــ رأى ــ وبالله التوفيق ــ أن يُقدّمك على جُيُوش المسلمين ، وبُعوثِهم الشاخصة إلى جهاد المشركين ؛ فقلّدك الحربَ والأحداثَ بها ، وعقد لك لواءً بيده يَلْوِى إليك الأعناق ، ويُنكِّس لك رءوسَ أهل الشّقاق ؛ وشرّفك بفاخرِ ملابسه وحُمْلانه ، وضاعفَ لديك موادَّ إحسانه ؛ وحَبَاك بطوقٍ من التِّبر ، مرصّع بفاخر الدُّر ؛ عادقًا هذه الخدمةَ منك بالنّصيح المأمون ، والنَّجيح الميمُون ؛ الذى تتوضّح فيـه أنوار اللّبابه ، وتلوحُ عليـه آثارُ النّجابه ؛ واثقا بمـا تَنْطوى عليـه من الإخلاص والوَلايه ، وتتحلّى به من الغَناء والكِفَايه ؛ وتفترضه من الآستمرار على سَنَن الطاعه ، والآستقامة على سَمْت الآنقياد والتِّباعه ؛ وتُوجِبه من مناصحة المسلمين ، والتشمير فى نُصْرة الدين .

فتقلَّدْ ماقلّدك أميرُ المؤمنين مستشعرًا تقوى الله وطاعتَـه فى الإسرار والإعلان ، معتقِدًا خِيفتَه ومراقبتَه فى الإظْهار والإبْطان ؛ مخلِصَ القلب ، رابطَ اللُّبّ ، واثقا

بنصر الله الذى يُسبغه على خُلصائه ، ويُفرغه على أوليائه ؛ آخذًا بوثائق الحزم ، متمسّكا بعلائق العزم ، ناظرًا من وراء العواقب ، متفرسا فى وجوه التجارب ؛ مقلّصا بجُوف الآراء بإصفاء عيار التدبير ، مُمرًّا مرائر التقرير ؛ مُوغلا فى المخاتل والمكايد ، حارسًا للطالع والمراصد ، يقظان النفس والناظر ، متحرّزًا فى موقف الوانى والمُخاطر . وأن تتوجه على بركة الله وعونه وحسن توفيقه ، ويُمن تأييده ؛ بعد أن تتسلّم من الجُيوش المنصورة جرائد بعدّة رجال أمير المؤمنين السائرين تحت رايتك ، المُوطين بسياستك ؛ وتعرضهم عليها ، فتتخيّر من شُهرت بسالته وكفاحه ، وعتق جَوادُه وكُمل سلاحه ؛ وعُرف بصدق العزيمة فى مُقارعة الأعداء ، وحُسن الطويّة فى الإخلاص والولاء ؛ وتستبدل بالورع الجبان ، والرّعديد الضعيف الجنان ؛ الناقص العُدّه ، المقصر النّجده ، المدخول النّيه ، النّغل الطّويّه[1] ؛ فإذا كملت العدّة من أهل الجلد والشهامه ، وأولى الحماسة والصّرامه ؛ استدعيت من بيت المال ما يُنفق فيهم من مستحق أطماعهم ، ومعونة طريقهم ؛ وأجريت النفقة فيهم على أيدى عارضيهم وكتّابهم ؛ فإذا أزحت عللهم فاستصحب من العُدد والسّلاح والخيم والأزواد والأموال ما يُرهب الأعداء ، ويُنهض الأولياء ؛ وأذّن فى مُطّوعة المسلمين ، بجهاد المُشركين ؛ فى [كل] بلدة تنزلها ، ومحلّة تحلّها ؛ وابذُل لهم الظّهر والمِيرة والمعونة بالسلاح وما يستدعونه ؛ وأرهف عزائمهم فى غزو الكُفّار ، وإجلائهم عن الأوطان والدّيار ؛ واسلُك الطريق القاصد ، ولا تُفارق أهل المناهل والموارد ؛ ولا تُغذّ السير إغذاذا تنقطع له الرجال وتتأخّر به الأزواد ، ولا تتلوّم فى المنازل تلوّما تتصرّم فيه الآماد ؛ ويُوجد المشركين مُهلة للاحتيال والاستعداد ؛ وراع جيشك عند الحلّ والترحال ، ولا تُباعد بين مضاربهم إذا نزلوا ، ولا تمكّنهم

(١) فى الأصول المهرق الطوية ولم نجد هذه المادة .

من التفرّد إذا آرتحلوا ، وخذهم بالاجتماع والالتئام ، والتألف والانتظام ، ولاسيما إذا حصلوا فى أرض العدو فإنهم ربما آهتبلوا (١) الفرصة فى المسير المتسرّع ، والمبيت المتفرّد ، ونالوا منه ماتتوسّم به المضيمة على أهل الإسلام ، والعياذ بالله .

وإذا دانيت القوم فأعط الحزامة حقها ، مستعملا تارة للدهاء والخداع ، وأخرى للقاء والقراع ، فربما أغنت المساتره ، عن المكاشره ، ونابت مخايل التلطف ، عن مداخل التعسّف ، وكفت غوائل المخادعه ، عن مواقف المصاقعه ، وقد قال إمام الحرب ، وزعيم الطعن والضرب : "الحرب خدعة" .

وإذا عزمت على المصاع والمثاقفه ، والإيقاع والمكافحه ، فبثّ من سرعان الفرسان الذين لاتشك فى محض نصحهم ، ولا ترتاب بصدق نبأتهم ، طلائع تطلعك على الأخبار ، وعيونا تكشف لك حقائق الآثار ، وتغضّ الطرف عن مجاوري الديار ، ومر من تقدمه عليهم بأن لا يقتحم خطرا ، ولا يركب غررا ، وليكن من تنفذه فى ذلك [من] أهل الخبرة بالطرق والساحات ، والدخلات والأودية والفجوات ، حتى لا يتم للعدو فيهم حيله ، ولا ينالهم منه غيله ، فإذا أتوك بالخبر اليقين ، وأقبسوك قبس النور المبين ، بدأت الحرب مستخيرا لله تعالى ، مقدّما أمامك الاستنجاح به ، وآستنزال النصر من عنده ، مرتّبا للكتائب ، معبيا للصفوف والمقانب ، زاحفا بالراجل محصّنا بالفارس والرامى مجنّبا بالتارس ، وآشحن القلب والجناحين بالشجعان المستبقين ، والأبطال الحلاسين ، وأنزل إلى رحى الحرب من خفّ ركابه من الأنجاد الراغبين فى علو الصيت والذكر ، الطالبين الفوز بالثواب والأجر ، وآجعل وراءهم ردءا ، وأعدّهم مددا يوازرونهم إن يجنهم مالا يطيقونه ويجبن(؟) ، ويظايرونهم على

---

(١) أى آغتنموا الفرصة الخ .

ما خلص إليهـم وادعين، وقف من التأخير والإقدام، والنفوذ والإحجام، موقفـا تُعطى الحزامةَ فيه حظّها، والرويّة قسطها، مصمّما ما كان التصميم أدنى لانتهاز الفُرصه، واهتبال الغِرّه، متلوما ما كان التلومُ أحمدَ للعاقبة، وأسلم للعُقبة.

واعلم أنّ ريح النصر قد تهُبّ للكافرين على المسلمين، فلا يكن ذلك قادحا منك فى الدّين. فإن الله تعـالى يستدرج بسُنّة الباطل لابسُنّة الإظفار، ويُريهم الإقدار فى مخايِل الأقدار، حتى إذا فرِحوا بما أُوتوا أوردتْهم كواذبُ أمانيّهم مواردَ الهلكه، وأُخذوا بغتـة، ودالتْ دولةُ الحق لأوليائها مرفوعةَ الأعلام، آخذةً بنواصي العُداة والأقدام، وتحقّق أنّ الأمورَ بخواتيمها، والأعمال بتمامها، وأنه ولىُّ [المؤمنين]. ماجمعَ موقفٌ فئتَى شـكٍّ ويقين، وكُفرٍ ودين، إلّا كان الفَلَج والنصر لأهل التُّقى والدّين، والخسارةُ والبوارُ على الشاكّين الكافرين، تصديقًا لوعده تعالى إذ يقولُ: ﴿ولقدْ سبقتْ كلمتُنا لعِبادِنا المُرْسَلينَ إنّهمْ لهمُ المنْصُورُونَ وإنّ جُندنا لهمُ الغالِبُونَ﴾.

وتحفظ بنفسك ولا تُلقِها فى المهـالك متهوّرا، ولا ترْمِ بهـا فى المتالف مُخاطرا، ولا تُساعدْها على مطاوعة الحميّة والنخْوه، وتحرّز قبْل السّقْطة والهفْوه؛ فإنك ـ وإن كنتَ واحدا من الجيش ـ أوحدُهم الذين يتبادَرون إليـه، ويعتمدُون فى السياسة عليـه، وما دمتَ محفوظًا ملحوظا فالهيبة عاليَه، والعين ساميه، وإن ألمّ بك ـ والله يعصمُك ـ خطْب، أو نالك ـ والله يكْفيك ـ رَيْب، توجّه الخلَل، وأرْهف حدّ الوهْن والفشَل. وإن دعتْك نفسُك إلى الجهـاد، وحملك تصرّفُك على الكفاح والجلاد، فليكُنْ ذلك عنـدَ الإحجام، وتزلْزل الأقدام: فإنّ ذلك يَشْحذ عزائمَ المسلمين، ويقوّى شكائمَ المتأخّرين، غيرَ مضيّع للحذَر، فى الورْد والصّدَر، وكذلك فاحْرُس أماثِل القُوّاد، ووجُوه الأجناد، الذين تُشفَى صـدُورُ الكفّار بمصارعهم،

وتُنقع غُلّلهم بغضايعهم، وحام عنهم حماية الجفون عن المقل، وصُنْهم صيانة الصّوارم من الخلل، ودافعْ عن كافة [جند] المسلمين المرتزقين والمتطوعين، فإنّ الله تعالى قد كافَىْ بينَ دمائهم، وسوّى بين ضُعفائهم وأقويائهم، على أنه سبحانه قد وعدهم عن بَذْل الأنفس فى مجاهدة المُلْحدين، وإبادة المشركين، الجزاءَ الجسيم، والنعيمَ المقيم، والبقاءَ الذى لايعتوره فَناء، والجَذَل الذى لايعترضُه انقضاء.

وقدّمْ على الأساطيل والمَراكب الحربيّة وأعمالها ورجال البَحْر من تختاره لذلك من أماثل الأمراء المشهورين بالشّدّة والنّجدة، والبَصَارة والمَهارة والخبرة بشُقّة البحر والقتال فيه، ومُرْه بالتّسحيل وملازَمة السّيف والإرساء من الشّطوط بحيثُ يتأمّل مَضارِبَك، ليكون ماتُحمل عليها من ميرة وعُدّة قريبًا منك، فإنْ نازلتَ ثغرا من ثغور الساحل فاملأه بالخيل من برّه، وبالسفائن من بحْره، واستخْدم لحفظ مافيها من الأزْواد والأسلحة والعُدَد والنّفط ودُهْن البَلَسان والحبال والعرّادات وغيرها من الآلات مَنْ تثق بأمانته ومعرفته. وتقدّمْ إليهم بالحَوْطة على مايخرجونه من العَوَارى واسترجاعه بعد الغنى عنه، واستظهرْ بذلك استظهارا تَجِدُ موقعَه لك، ويعرِف به رَصينَ رأيك، وسديدُ مذهبك. واستخلِصْ لمجالستك من أهل الأصالة والحزْم، والرّجاحة والفَهْم، والدّراية والعلْم، والتجارب فى ممارسة الحروب، وملابسة الخُطوب، من ترجع إلى رأيه فيما أشْكل، وتعتمدُ على تجربته فيما أعْضَل، ولا تستبدّ برأيك فإنّ الاستبدادَ يُعمّى المَراشد، ويُبْهم المَقاصد.

ولمّا كانت الشّورى لِقاحَ الأفهام، والكاشفةَ لغَواشى الإبْهام، أمر الله تعالى بها نبيّه عليه السلام فقال: ﴿ وشاوِرْهُمْ فى الأمْرِ فإذا عَزَمْتَ فتوكّلْ على الله إنّ اللهَ يُحبُّ المتوكّلين ﴾.

ولا تُشاوِرْ جبانا ولا مثبّطا عن انتهاز الفرصة الممكنة، ولا متهوّرا يحملك على الغرّة المُهْلِكة؛ وتأنّ فى الآراء فإنّ التأنّى يُجِمُّ الألباب، ويجلو وجهَ الصواب، ويقلّص سُجُوف الارتياب؛ واضربْ بعضَ الآراء ببعض وسَجِّلها، وأجِلْ فكرَك فيها وتأمّلْها؛ فإذا صرّحتْ عن زُبْدتها، وانشقّتْ أكمامها عن ثمرتها، فأمضِ صحيحها، واعتمد نجيحها؛ وإذا استوى بك وبالعدوّ مَرْحَى الحرب(١) فحرّقهم بنار الطّعن، وأذِقهم وبالَ أمرِهم، وعاقبةَ كُفْرِهم؛ ولا تَرِقّ لهم؛ واتّبع ما أمر الله تعالى به فى الغلظة عليهم، فإنه يقول: ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾ . فإن جنحوا للسّلم والمُوادَعة مصانعين، فقابل بالقبول، فإن الله تعالى يقول: ﴿ وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ .

وابْذُلِ الأمانَ لمن طلبه، واعْرِضْه على من لم يطْلُبه، وفِ لمن تُعاهده بعهده، واثبُتْ لمن تُعاقده على عَقْده؛ ولا تجعل ما تُقرطه من ذلك ذَرِيعةً، إلى الخديعة، ولا وَسيلة، إلى الغيلة: فإن الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ ﴾ . ورسولهُ صلى الله عليه وسلم يقول: "الناسُ عند شُروطِهم" وإذا أعانك اللهُ على افتتاح مَعقِل من مَعاقِل المشركين، واستضافته إلى ما بأيدى المسلمين، فارفَعِ السيفَ عن قاطنيه، واعتمد اللُّطفَ بالمقيمين فيه؛ وادعُهم إلى الإسلام، واتلُ عليهم ما وعد اللهُ به أهلَه من كريم المَقام؛ فمَنْ أجابك إلى استشعار ظلّه، والاعتصام بحبله؛ فافرِض له ما تفرضه لإخوانك فى الدّين، واضمُمْ إليهم من علماء المسلمين من يُبصّرهم ويُرشدهم، ويُثقّفهم ويسدّدهم؛ وخيِّر من آثر المُقام على دينه بين تأديةِ الجزية، والاستعباد والمَلَكة؛ فإن أدَّوا الجزية فأجْرِهم مُجْرَى أهل الذمّة

---

(١) أى المكان الذى تدور عليه رحى الحرب .

المعاهَدين، وخُصَّهم من الرِّعاية بمـا أُمِر به فى الدين، وإن أبَوْا ذلك فإن الله تعالىٰ قد أباح دماءَ رجالهم، وآستعبادَ ذرارِيِّهم ونسائهم، وآبْنِ بالمَعْقِل مسجدا جامعاً يجمِّع فيه بالمسلمين، ويُخطَب علىٰ منبره لأمير المؤمنين، وآرفعْ منارته حتّى تعلُوَ علىٰ كنائس المشركين، وآنصِبْ فيه إماماً يؤدِّى الصلاةَ فى أوقاتهـا، وخطيباً مصْقَعا يخطُب الناسَ ويعظُهم، ومكبِّرين يدْعُون إلىٰ الصلوات، وينَبِّهون علىٰ حقائق الأوقات، وقُوّاما وخُدَّاما يتولَّوْن تنويرَ مصابيحه، وتعهُّد تنظيفه وفَرْشه، وأطلِقْ لهم من الأرزاق والجرايات ما يبعَثُهم علىٰ ملازمتـه ويُعِينهم علىٰ خدمته، وآحتَطْ علىٰ من يحصُـل فى يدك من أسْرىٰ المشركين، لتَفْدى بهم مَن فى قبضتهم من أُسَراء المسلمين، وإذا عرضُوا عليك الفِداءَ فاحذَرْ من خديعة تتِمُّ فيه، أو حيلة تتوجَّه فى آفتكاك معروفٍ منهـم بمجهولٍ من أهل الإسلام، وإن كان الله تعالىٰ قد فضَّل أدْنياءَ المسلمين علىٰ عُظَماء المُلْحِدين، ولم يسوِّ بينهم فى دُنْيا ولا آخرة ولا دين، إلا أنَّ هذا مما يوجب الحزْمَ الحَوْطَةَ فيـه (١)، وإن ظفرتَ بنَسِيب لطاغيتهم المتملِّك عليهم أو خَصيص به فاحمِلْه إلىٰ حضرة أمير المؤمنين، لِيُقرِّبهـا رهينةً علىٰ مَنْ قِبَلهـم من المأْسُورين، وسبيلا إلىٰ آنتزاع ما يبـذُلُونه فى فدايتـه من المَعاقل والحُصُون. وقد أمضىٰ لك أميرُ المؤمنين أن تعقِدَ الهُدْنة معهـم إذا رَغِبوا فيها علىٰ الشرائط التى تَعُود بعُلُوِّ كلمة الله، وتجمعُ الخواطرَ والاستظهارَ للدولة، فعاقدْهم محتاطا، وآشترط عليهم مُشطِّا، وتحرَّزْ فى العقـد مما يُوجب تأوُّلا، ويدخل وَهْنا، ويطرِّق وَهْيا. وتحفَّظْ بجَوالى المُعاهَدين والأموال المقبُوضـة فى فِداء الغَلّات والغنائم وسَبْى المشركين حتى يُحْمل ذلك إلىٰ بيت مال المسلمين، فينظُرَ أميرُ المؤمنين فى تفريقه علىٰ مستحقِّه، وإيصاله

(١) اشتهر هـذا البناء على الألسـنة وفى رسائل الأفاضل ولكن لم نجده فى كتب اللغة وإنما الذى فيها بهذا المعنى «فلان مُخِص بفلان أى خاص به وله به خصية» فتأمل.

إلى مستوجبه ، وافحص عن أحوال المستأمنين إليك تفحصا يكشف ضمائرهم ، ويبلو سرائرهم ، وتحرز منهم تحرزا يؤمنك مكايدهم وحيلهم ، وخدائعهم وغيلهم ؛ وإذا نازلت حصنا من حصون الكفار ، فكن على يقظة من مخاتلهم فى الليل والنهار ، وانصب الحرس والأرصاد ، واحذر الغرة ولا تهمل الاعتداد : لتعرف أعداء الله أن طرفك ساهد ، وجنانك راصد ، وتفقد أمر الجيش وأزح علة من ترقبه فى الأطماع والمواكدات ، ومطوعته فى المعاون والجرايات ، ولا تغفل عنهم غفلة تضطرهم إلى الانفلال ، وتدعوهم إلى الانفصال ، وأحسن إلى من حسن فى الكفاح أثره ، وطاب فى الإبلاء خبره ، وعده عن أمير المؤمنين بالحباء الجزيل ، والعطاء والتنويل ، فإن ذلك قادح لعزائم الأولياء ، باعث لهم على التصميم فى اللقاء ؛ فإذا أنت ـ بمشيئة الله ـ شفيت الصدور ، واحتذيت المأمور ، وأعززت الدين ، وذللت الملحدين ، ودوخت البلاد ، ونكست رءوس أهل العناد ، فاقلب بعساكر أمير المؤمنين ، ومطوعة المسلمين ، إلى حضرته واثقا بجميل جزائه ، وجليل حبائه ، وطالع فى موردك ومصدرك ، بما يجدده الله لك ويفتحه على يدك ، واذكر ما أشكل عليك ليمدك أمير المؤمنين بالتبصير والتوقيف ، والتعليم والتعريف ، واستعن بالله فهو خير معين ، وتوكل على الله فإنه نعم الوكيل .

هذا عهد أمير المؤمنين إليك ، فاعمل به وانته إليه يسدد الله مساعيك ، ويصوب مراميك ، إن شاء الله تعالى .

قلت : وأورد فى خلال ذلك من تقاليد أرباب السيوف جملة أسقط من صدرها التحميدات .

ما أورده فى رسم تقليد الإمارة على قتال أهل البغى أن يقال بعد التحميد مامثاله :

وإنّ الله تعالى أوجبَ طاعةَ أُولى الأمر على كافّة المؤمنين، وأكّد فرضَها على جميع المسلمين، فقال جل قائلا: ﴿ يأيُّها الَّذين آمَنُوا أطيعُوا اللهَ وأطيعُوا الرَّسُولَ وأُولِى الأمرِ منكُم ﴾ . علماً منه تعالى بأنّ الطاعة مِلاكُ الأمرِ ونظامُه، ومِساك الجُمهور وقِوامُه، وأنه لاتتمّ سياسةٌ مع الشّقاق والانحراف . وأمر سبحانه باستتابة من ألقى العِصمة من يده، ونبذ الطاعةَ وراء ظهره؛ بشافى المواعظ والتبصير، ونافع التنبيه والتذكير؛ فإنْ أقلعَ وتاب، ورجَع وأناب؛ وإلا جُوهِد وقُوتِل، وقُوبِل بالرَّدع حتّى يُقبِل ويعتصمَ بالطاعة، وينتظمَ فى سِلْك الجماعة؛ فقال تعالى: ﴿ وإنْ طائفتانِ مِنَ المُؤمِنِينَ اقتتلُوا فأصلحُوا بينَهُمَا ﴾ . وقال: ﴿ فقاتِلُوا الَّتِى تَبْغِى حتّى تفِيءَ إلى أمرِ الله ﴾ . وإنّ الغُلاة[1] فارقُوا اجتماعَ المسلمين، وانسلخُوا من طاعة أمير المؤمنين؛ نابذين لبيْعته، شائين بُطْل دعوته؛ وشقُّوا عصا الإسلام، واستخفُّوا بمحل الحرام، واستوطئُوا مَركَب السيئات والآثام؛ وعرَّجوا عن قويم السُّنَن، وسَنُّوا بأراذل البِدَع أفاضلَ السُّنَن؛ وسعَوا فى الأرض بالفَساد، وجاهَروا بالعِصْيان والعِناد؛ وكاتَبهم أميرُ المؤمنين مبصِّرا، ومُعْذِرا مُنْذِرا ومخوِّفا محذِّرا؛ ودعاهُم إلى التى هى أصلَحُ فى الأُولى والأُخرى، وأربح فى البَدْء والعُقْبى؛ وأعلمهم أنّ الله تعالى لايقبل صلاتَهم ولا صِيامَهم، ولا حَجّهم ولا زكاتَهم، ولا يُمضِى قضاياهم ولا حُكوماتِهم، ولا عقودَهم ومُناكَحاتِهم؛ ما داموا على معصية إمامهم، ومُفارقة ولىّ أمرِهم؛ الذى أوجبَ عليهم طاعتَه، وفرض فى أعناقهم بَياعتَه؛ وتابَع فى ذلك مواصلا، ووالاه مكاتِبا ومُراسِلا، فأصرُّوا على العُقوق، واستمرُّوا على اطّراح الحُقُوق؛ ودعَوا إلى الأسْوإ لها من إقدام الجُيوش عليهم، ونَقْل العساكر إليهم؛ ومقابلتِهم بما يقوِّم أوَدَهم، ويُصلِح فاسدَهم، ويَزَع جاهلَهم، ويُوقِظ غافلَهم .

(١) فى الأصل الغلاب وليس بواضح المعنى والمراد البغاة .

وإنَّ أمير المؤمنين مُخيِّرك للتقدم على الجيش الهاتف نحوهم : لمـا يعلمه من شهامتك وصرامتك ، وسـدادك وسياستك ، وإخلاصك ووفائك ، وكفايتك وغنـائك ، (ويوصف بما تقتضيه منزلته ، والأمر الذى هو أهل له) .

وهو يأمرك أن تقدم النفوذ إليهـم ، مستنجحا دعاءَ أمير المؤمنيـن ، مستنزلا لصروف الغالبين ، مستشعرا لبـاس التقوى ، فى الإعلان والنجوى ، فإذا نازلتهـم فى عُقر دارهم ، فأذقهم بالمضايقة وبالَ أمرِهم ، واسلُكْ بهم سبيلَ أمير المؤمنـين وافتتحْهم بالإرشاد ، وحُضَّهم على ما يقضى بصلاح الدنيا والمعـاد ، فإن استقاموا وتنصَّـلوا وراجعُوا ورجعُوا فأعطِهم الأمان ، وأفِضْ عليهـم ظِلَّ الإحسان ، وإن أصرُّوا وتمرَّدوا ، وجاهدوا واعتدوا ، فشمِّرْ لمنازلتهم ، وصمِّم فى مقاتلتهم ، واثقًا بأن الله تعالى قد قضى بالنصر لأولياء أمير المؤمنـين وأهل طاعته ، والخـذلان لأعدائه وأهل معصيته ، إبانةً بذلك عن تأييده لمن اعتصم بحبله ، ودفعِه لمن انسلخ من ظلّه ، وحجّةً بالغـةً لمن تمسّك بطاعته ، وموعظةً شافيةً لمن استخفّ بحمْـل معصيته ، فإن ملّكك الله تعالى البلاد ، وطهّرها من أهـل الفساد ، وشرّد عنها الدُّعّار والأشرار ، إلى أقاصى الديار ، فاجْتُثَّ نواعقَ الفتنة والضلاله ، وعَفِّ آثار ذوى الغىّ والجهاله ، وأسْبِـغ الأمْن على أهـل السلامه ، وأفرِغ العدلَ على مَنْ سلك سبيلَ الاستقامه ، وأجرِ الأمرَ فى الخُطبة لأمير المؤمنـين على الرّسم المحدود ، والمَنْهج المعهود ، وطالِعه بمـا انتهيتَ إليه ، ليكاتبَك بمـا تعتمدُ عليه .

ويضمّن هذا العهد مايقع فيه من شروط العهد المتقدم ، ويُؤمَر أن لايستصحب من الجُند إلّا من يثق بإخلاصه وصفائه ، ويَسكُن إلى أمانته ووفائه ، وأن يرفُض المدخول النيّه ، النَّغِل الطويّه ، فإنه لاشىءَ أضرّ على المحاربة من لقـاء عدوّ بجيش

مُخامرين، وجند مُمَاكرين ؛ وقد يكون فى العساكر مَنْ يُداهن ويظهر الخدمة وهو فى مثل العَدُوّ : إما لأنّ بينهما سالِفَ وِداد وولاية قد تأصّلتْ بإطماع وإفساد ، أو يكون لسلطانه قليلَ الإحماد . وهذا الذى أوردناه ليس بمثال جامع وإنما هو الذى يتميز به هذا العهدُ عما تقدمه ، والكاتبُ إذا آحتاج إلى آستعماله رتّبه وقدم مايجب تقديمه ، وأخر مايجب تأخيره و [أضاف اليه ماتجب] إضافته ، إن شاء الله تعالى .

* * *

وهذه نسخة سجلّ بولاية مصر ، وهى :

الحمدُ لله ، الموفّق إلى دواعى رضاه ، المحسنِ العونَ على ماأوجب المزيد من إفضاله وآقتضاه ، المثيب على ماهدى إليه من طاعته ، القابلِ عملَ مَن آستنفد فى الشكر أقصى طاقته ، المتكفّل بمصالح عباده ، المُولى من مواهبه ماتعجز الخواطرُ والألسنةُ عن تَعْداده ؛ وصلّى الله على جدّنا محمد الذى جعل آتّباعه سبيلًا إلى سُكْنَى جنّات الخُلود ، وآلتْ بهداه نارُ الكفر إلى الهُمُود والخُمُود ، وأنقذ من مَهاوِى الضَّلال ، ووَسَم مَنْ حادّه وحادَ عن سبيله بالصَّغار والإذلال ؛ وخلّف فى أُمّته الثقلين كتابَ الله وعترتَه ، وأبقى بهما فيهم آيتَه وهدايتَه ؛ وعلى أخيه وآبن عمّه أبينا أميرِ المؤمنين على بن أبى طالب مُبْرِم أسباب الشريعة ومُحْكِمها ، ومُطْلِق سيوفه فى نُفُوس أعداء الملة ومُحَكِّمها ، وباب مدينة علم النُّبوة التى لايُدْخَل إليها إلّا منه ، وسيد من عناهم الله بقوله : ﴿ رَضِيَ اللّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ﴾ وعلى آلهما الأئمة الهُداة قُوّامِ الإسلام ، وساسةِ الأنام ؛ وخُلَفاء الله فى أرضه ، والموفين بعهده والآمرين بأداء سُنّته وفَرْضه ؛ ورُكْنِ العصمة الذى مَنْ لجأ إليه نجا ، والحصنِ الذى ماخابَ من أمّه فَرَجًا منه فَرَجا ؛ وسلّم وعظّم ، ووالى وكرّم .

وإنّ أمير المؤمنين لمـا أودعه الله إيّاه من أسرار الحكمـه ، واجتباه له من إمامة الأمّه ، واختاره له من كلاءة الخليقة وإيالتها ، وحفظ حوزتها من المخاوف ورعايتها ، وما خصّه به من بنوّة النبوّة والرّساله ، وأفرد به رأيه من الجزالة والأصاله ، واكتنف به أنحاءه من التوفيق الذى لا يصدف عن غرض الإصابة ولا يحيد ، وعضده به من التأييد القاضى لعزائمه ببلوغ الغرض فى نصرة التوحيد ، واستودعه إيّاه من الإقبال الذى يجعل المستحيل لمراده إمكانا ، والتأييد الذى أوضح به لإمامته برهانا ، وتوحّده به من العصمة التى تصيب بها مراميــه مواقع الرّشاد ، وتضمن الخيرة لمـا يعانيه من الأمور ممـا ســدّ وساد ــ يعمل خواطره فيما يكفل للنفوس رضاها ، ويجزل للدّين والدنيا به حظاها ، وتتظاهر به ضروب الصــلاح على الأمه ، وتحيا به سنن الخيرات وتتمّ النعمه ، وينظر لمن استودعه الله إيّاهم من بريّته نظر المؤدّى الأمانة إلى مؤتمنه ، المستودع فيما يتقرّب به إليه من البرّ شكر سوابـغ منائحه ومننه ، ويقرّب على الأمة منال الخير باصـطفائه من يكون لأفاضل الشّـيم مستكملا ، وإلى ما أزلفه إلى الله سبحانه من طاعة أمير المؤمنين متوصّلا ، ولشوارد الثناء بفاضل سيرته متحلّيا ، وللتسمّح فى قوانين السّياسة مجتنبا ، ولمـا علم [رغبة] الرعية فيه منتصبا ، وفيما بلغهم أقصى الآمال متسبّبا ، وبمراقبة الله فيما يأتى ويذر متدينا ، وبحسن الجزاء على العمل بمرضاته متيقّنا : ليكون أمير المؤمنين قد قضى [ما أوجبــه عليه] مستخلفه باجتبائه واصطفائه ، واستخدم إليه بإسناد جلائل الخدم إليه واستكفائه ، وأتى ما تكون السلامةُ مضمونةً فى مباديه وعواقبه ، وأحظى بنيل المراد فى جميع جهاته وجوانبه ؛ مستديمـا نعم الله التى أسداها إليه وأولاها ، مواصــلا حمده على مننه التى ظاهرها عليه ووالاها ، ويستعينه على لوازم عوارفه التى من أجلّها خطرا ، وأحمدها فى البريّة أثرا ، وأجمعها لمنافع الخـاص والعام ، وأعودها بحماية حوزة الإسـلام ، وأشهدها

براهين الأئمة ، وأدلّها على عناية الله بهذه الأمة ، مامُنِحه أميرُ المؤمنين من مُوازرة فتاه ووزيره ، ومعينه على المصالح وظهيره ، السيد الأجل العادل أمير الجيوش أبي الحسن على الظافرى ، ـ والدعاء ـ الذى أظهر اللهُ به لأمير المؤمنين آيات حُقوقه ، وآستأصل ببأسه شأفةَ من تتابع فى مُروقه وبالغ فى عُقوقه ، وكسا الدهرَ بإياله ملابس الجمال ، وفسّح بفاضل سيرته مجالَ الآمال ، وبذل من الجهاد غاية الآجتهاد ، ووالى من عمارة البلاد ماأنطق بحمده الجماد ، وآستخلص نخائلَ الصدور بلُطف سياسته ووُسْع عدله ، ورغبتْ غرائبُ الآمال فى الإيواء إلى سابغ فضله ؛ وتبارت الليالى والأيامُ فى خدمة أغراضه فى أعاديه ، وآسترق قلوبَ الأولياء بما يُواليه من بيض أياديه ، ووضع الأشياءَ فى مواضعها غيرَ محابٍ ولا مرخّص ، ولم يحظ بأيامه النيرة غيرُ الطائع المخلص ، ولم ينفق للباطل سُوق ، وأتت سيرتُه بما يُرضى الخالقَ والمخلوق ؛ فالله تعالى يجعل مدّته غيرَ متناهية إلى مدى ، والنصرَ والتوفيقَ لآرائه مَدَدا ، ويخلّد أبدا سعدَه ، ويُنجز لأمير المؤمنين على يده وعدَه .

ولما كانت منزلتُه عند أمير المؤمنين المنزلةَ التى تتطامَنُ دُونها المنازلُ والرُّتب ، وجلّتْ أن ينالها أحدٌ ممن بَعُد أو قَرُب ، وأفعالُه قُدوةٌ يُهتدَى بأمثالها فى الشكوك ، وسيرتُه قد عظُمتْ عن أن تتعاطَى مماثلتَها همَمُ الملوك ، ومحلُّه عندَه من الكمال بحيثُ تستحكم الثقةُ بآختياره ، ويُرجَع فى عقد الأمور وحلّها إلى آتّباع آثاره ومُوافقة إيثاره ، وكانتْ مَراتبُ الأولياء عند أمير المؤمنين بحسَب مَراتبهم من قُربه ، وموضعُهم من رضاه مُضاهيًا لموضعهم من قلبه ، ومكانُهم من الحظوة لديه مُناسبا لمكانهم من الزُّلفة عنده ، وأحقُّهم بسَناء الرُّتب من أقبسه زَنْدَه وكساه مجدَه ، ولاسيّما مَنْ لم يخرُج منه عن حُكْم الولد ، وحلّ منه محلّ القلب من الكَبِد ، ونشأ فى دَوْحته غُصْنا نضيرا ، وطلع فى سماءِ جلاله قمرا مُنيرا ، وآعتلى بجدّه ، وقطع بحدّه ، وتظاهرتْ

شواهدُ سعده في مَهده ؛ وكنتَ أيها الأميرُ الحاوي لهذا الفضل المبين ، المتعلّق من وَلاء أمير المؤمنين بالحبْل المتين ؛ الذى نشأ متوقّلا فى درج المعالى ، وغدا متقيّلا فى ظلال الصّوارم والعوالى ؛ وأخذت بمراشد السيد الأجلّ العادل فزدتَ عن الظّنون وأوفيت ، ووعدتَ عنك فصدّقتَ ضمانها ووفّيت ؛ ومازلت بعين الإجلال والتعظيم ملموحا ، وبأفضل خلال الرّؤساء ممنوحا ؛ ولجلائل المراتب مؤهّلا ، وبلسان الإجماع مفضّلا ؛ ولما أعيا من أدواء النّفاق حاسما ، وفى مواقف المخاوف رابط الجأش حازما ؛ ولما يعقد الأماجدُ له مذخورَ المضاء ، وفيما تعانيه وتلابسه موفّق الآراء ؛ وقد اكتنفك من اتّباعك هَدْى السيد الأجل العادل ــ أدام الله قدرته وولاءه ــ ناصر الدين ، الأجل المظفّر المقدم الأمين ؛ سيف الإمام ، ركن الإسلام ، شرف الأنام ؛ فخر الملوك ، مقدم الجيوش ، ذى الفضائل ، خليل أمير المؤمنين ؛ أبى الفضائل عبّاس الظافرى العادلى ، أدام الله به الإمتاع ، وعضّده وأحسن عنه الدّفاع ، الذى هو فخرُ الملوك ونخلهم ، وأزراهم من المفاخر وأجلّهم ؛ وأقدمهم فى الرياسة قدما وأعرقهم ، وأطيبهم أرجَ ثناء وأعبقهم ــ ماجعلك أعلى الأعيان مفخرا ، وأكرم الجواهر عنصرا ؛ وأولاهم بآلاء أمير المؤمنين وعطائه ، وأسبقهم فى مضمار اختياره واجتبائه ؛ وأثبتهم عنده مكانه ، وأحراهم فى خدمه بتأدية الأمانه ؛ وقد عرف من مواقفك المشهوده ، ومقاماتك المحموده ، ما كان منك فى توبة ابن مصّال وجموع ضلاله ، وما استفاض من كونك سبب انهزامه وانفلاله ؛ وانقلاب تدبيره عليه وانعكاسه ، والتفريق بين جسده ورأسه ؛ وحصل لك بذلك من إحماد أمير المؤمنين ما لايبلغ الوصفُ مداه ، إذ كان قد جرّد سيف نصر والدك الأجل المظفّر وأنت حدّاه ــ رأى أمير المؤمنين ــ وبالله توفيقه ــ أن لايُضيّع مافيك من جوهر مكنون ، ولا يرجع فى أمر نباهتك إلى ماتدل عليه السّنون ؛ إذ كنت للكمال مع فتاء السّن

حائزا ، وبمزية اصطناع أمير المؤمنين واختياره إياك فائزا ، وفاوض السيد الأجل العادل ـ أدام الله قدرته ـ فى تشريفك بولاية يكشف بها شفوف جوهرك، ويوضح لكافة البرية بمباشرتك إياها ما استقر عنده من جميل مختبرك، ووقع التعيين على تقليدك ولاية مصر وما مع ذلك من الصناعتين وغيرهما من حقوقهما . فأمضى أمير المؤمنين ذلك لما لهذه الولاية من الحظوة بالقرب والدنو، وليوفر على الإيثار على أن يبلغ نظرك إلى غايات العلو والسمو، وخرج أمره إلى ديوان الإنشاء بكتب هذا السجل بتقليدك الخدمة المذكورة : علما بانتظام شئونها بإياالتك ، وحياطة حوزتها بسطاك ومهابتك ، وتحققا أن بسياستك تعمها المصالح، وتتظاهر عليها الميامن والمناجح ، وتظهر لها الحجة فى الافتخار، على سائر الأمصار، وتستأنف بعقارتك من الميزة ما لم تحظ به فيا سلف من الأعصار ، ويتضح بك البرهان لمن بالغ فى تفضيلها ، وتنال من فائض العدل بسيرتك ما تكاد تغنى به عن نيلها .

فتقلد ما قلدك أمير المؤمنين من ذلك : معتمدا على تقوى الله الذى إليه تصير الأمور، ويعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور، قال الله تعالى فى محكم كتابه المبين : ﴿يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين﴾ . واجعل من تحويه هذه المدينة بالعدل مشمولين، وعلى أجمل السيرة والرسوم محمولين، وساو فى الحكم بين الشريف والدنى ، وآس فى المقدار بين الملى والذمى ، وأقم الحدود على من تجب عليه بمقتضى الكتاب وصحيح الآثار، ولا تتعدها بإقلال ولا إكثار . وفى هذه المدينة من ذوى الأنساب، وأعيان الأجناد ومتميزى الكتاب ، وأماثل الشهود : فاعتمد تمييزهم والاحتفاء بهم ، ومعونتهم على مطالبهم ومحابهم ، وكذلك من تضمنت هذه الولاية من التجار والرعية . وتوخهم بما يسكن جأشهم ، ويزيل استيحاشهم ، ويفسح لهم فى الرجاء والأمل ، ويعينهم على صالح العمل . وتقدم بحفظ الجامع العتيق وصونه

وتوفيره ، على ما يليق به وتوقيره ، وآمتنع من آبتذاله في غير ما جُعل له ، ونُصب له ، من الإعلان بذكره فيه وأهله ؛ ووفّر تامّ العنايه ، وشامل الرّعايه ؛ على مَنْ به من الفُقهاء والعلماء ، والمتصدّرين والقُرّاء ؛ وحُضّهم بالتكرمة على المبالغة في طلب العُلُوم ، والتزوّد من صالح الأعمال ليوم الوقت المعلوم ؛ وخُذْ جميع المستخدَمين معك بلزوم الطرائق الحميده ، والمقاصد المستوثقة السديده ؛ فمن آستمرّ على ماترضاه من آجتهاده ، وتستوفقُه من صواب آعتماده ، أجريتَه على رسْمه في الرعايه ، وتوخّيتَه بالصون والحمايه ؛ ومَنْ كان بالخدم مُخِلّا ، وسلوكُه عما يلزمه ضالّا مضِلّا ؛ فأوعزْ بتأديبه ، وما يقضي بتقويمه وتهذيبه ؛ والثقة بوُفُور حظّك من الصواب ، وإجرائك على ما يُناط بك على الآستتباب ، أغنى عن الإطالة لك في الوصايا والإسهاب ؛ والله تعالى يقرُنُ الخير بما تنظر فيه ، ويجعل التوفيق مضمُونا فيما تذره وتأتيه ؛ ويُنيلك من رُتَب السعادة ما أنت له أهل ، ويُتمّ نعمته عليك كما أتمّها على أبويك من قبل ؛ فاعلمْ هذا وآعملْ به ، إن شاء الله تعالى .

⁂

ومن السجلّات بالوظائف الدينيّة على هذه الطريقة ما كَتب به القاضي الفاضل عن العاضد بولاية بعض القُضاة ، وهو :

الحمدُ لله الواسعة عطاياه ، الوازِعة قضاياه ؛ المشتملة على أقسام الخَلْق قِسَمُه ، المبرور في سُؤالهم يومَ فصل القضاء قَسَمُه ؛ المسطور في كتابه الذي مافرّط فيه من شيء مُحلّلُ الشرع ومُحرّمه ؛ المتمثّل فيه لمن مثّلَه مُطاعُ الأمر ومسلّمه ؛ الكريم الذي لايُضيع ثوابَ العاملين ، ولايقطع أسبابَ الآملين ، ولايمنعُ طلّابَ السائلين ؛ العدل الذي قامتْ حجّته على الناكبين والعادلين ، والحقّ الذي يقضي بالحقّ وهو خيرُ

الفاصلين؛ مُصفّى مَشارع الشريعة من أعراض الكَدَر؛ وحامي مَعاقل الملّة من انتقاض المَدَر؛ ومنزّه أوليائه من محاسنها في رياض الفكر؛ ومعرّفهم بما عرض عليهم من إنافتها لارتياض النظر، وارتكاض الفِطَن والفِطَر؛ جاعل الحُكم سلطانه الذي يأوي اللهيف إلى ظِلّه، وحماه الذي يلجأ الضعيف إلى عدله؛ ومفزع الرائع الذي يقف المشروف والشريف[1] عند فصله، وشفاء العلل الذي يذهب بكل [ماق] صدر من علّه؛ ومشرع الإنصاف الذي يُفضي إلى الظّمآ فيض سجْله، وموعد الخلائق يوم تُطوى السماء كطيّ السجلّ، ومُظهِره ليظهر به هذا الدين على الدين كلّه؛ والآمر فيما أشكل منه بالتعريج إلى مستنبطه من أهله، وجاعل الأئمة الهادين الحُجَج على من رجع إلى قياس عقله أو تقليد جهله؛ وأحد الثقلين الذي يخفّف عن كُلّ غارب كل ثقله، وأخوه الكتاب فلن يفترقا حتى يردا الحوض يوم نَهَله وعَلّه؛ وصراطه المستقيم الذي من أتى اليوم فيها بزلّة رأيه أتى غدا بزلة فعله، ومنار الأنوار المضروب على طُرُق الساري في ليل الضّلال وسُبُله، وسبب العصمة التي أشار فيها إلى الاعتصام بحبله؛ وصلّى الله على جدّنا محمد الذي عَظُم به جَدُّنا، وأعتلق بسببه مجْدنا؛ ووجب به على كل من وادّ الله ورسوله وُدُّنا، وأورثنا من علمه ماحاز لنا شرفَي الدين والدّنا؛ وحلم به بجيرمن ضاقت به المذاهب فرجا فرجا، وحكّمه المشركون فيما شجر بينهم فلم يجدوا في أنفسهم مما قضى حرجا؛ وعلى أخيه وابن عمّه، القائم مقامه بفصل حكمه وفَضْل علمه؛ أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب الذي حُرز له من المكْرمات أبابها، وطابت بغبار حلمه إقامة الألباب والبابها، وميّزه على الكافّة بقوله: "أنا مدينة العلم وعليّ بابها" وشهد طورًا بأنه

(١) أي الخائف.

أقتاهم، فعُلم أنه أقربهم به شَبَها وفى مَدى الفضل أقصاهم؛ وعلى الأئمة من ذريتهما الذين أنعموا فأجزلوا، وحكَموا فعدَلوا، وحُمّلوا ثقل الأمانة فحملوا، وجاهدوا فى سبيل الله فعلَوْا بما فعلوا؛ واستوجبوا الحمدَ بما أوْلَوْا والأجرَ بما وُلّوا؛ صلاةً مأمونةً من الشُّبهات، متوضّحة الثّبات .

ولما كان حُكْمُ الصواب فى الحُكم بين الناس أن يُختارَ مَنْ بانَ صوابُه واتّضح، وبان عنه حكْمُ الهوىٰ الذى فَضَح؛ وأصغىٰ ضميرَه إلىٰ لسان الحقّ الذى فَصح، وعُرِض جوهرُه علىٰ مَحَكّ النّقد فصحّ؛ وميِّز بينه وبين الرجال فثقُل وَزْنا ورَجح، واحتجّ به الإسلامُ علىٰ من نوىٰ مُناواته فنَجح؛ ووَلِيَ الأحكامَ بين المسلمين فأصْلح وصَلَح، وتسمّح إذا كان الحقُّ له وإذا ما كانَ فيه فما أسمَحَ(١) ولا سَمَح؛ وجدّد جِدُّه من معالم العلوم ماصَحّ رسمُه وأمّح(٢)، وأطلعته علىٰ خفايا المشكلات بديهةُ فِكره لمّا لَمَح؛ وملكَ عنانَ هواه رأيُه بجَمَح إلىٰ هواه وما جَمَح، وشَرح صدرَ الاختيار بما ملأ الأخيارَ من محاسنه وشَرح، وتعالىٰ الاقتراحُ لهذه المرتبة فكان وَفْقَ ما أراد وفوقَ ما اقترح؛ وتشبَّث بعين الأعمال الصالحة وتمسّك، وتنزّه عن داءٍ يلازمُها وأعراضٍ تَشينُها وتنَسّك؛ وكفّ الخوضَ فى الباطل فإما صَدَع بالحق وإما أمسك، وأعدىٰ فَضْلَه وفَضْلَه علىٰ من شكا أو شَكّ؛ وغضّ عينيه عمّا أُعْطِي سواه ومُتِّع به، واشترىٰ طُولَ راحته بتَصبيه الآنَ من نَصَبه، وحسره (؟) النعمة من تَعَبِه؛ وأيِس الظالمُ من مُمالاته ومُبالاته، وطمِع المظلومُ بقُرب إعاناته وبُعْد إعناته؛ ومرّ مُرُّ الدهر وحلا حُلْوُه فلم يشهَدْ باستمالاته عن حالاته، ولم يرضَ أحدُ به حُكْمَ صَرف دهرٍ يجرى بأذاته؛ ولا كشفَتْ منه التجاربُ إلا عن البصائر التى تَروق السَّماع

(١) أى فما أنقاد ولان ولا سمح أى جاد وعفا .

(٢) أى درس وعفا . انظر اللسان .

والنُّظّار، والحسناتِ التي قضَتْ بصائرُها بقضاءِ مناظَرة الأنظار، والديانةِ التي عَمَرت المحاريبَ في الليل وأطرافِ النهار، والأمانةِ التي استمسك عَقْدُها فما خِيفَ عليه أن يتداعى ولا أن ينهار، والصيانةِ التي آستوى فَوْقَ مركبها فحلَّتْ بجنّاتِ عَدْنٍ تجرى من تحتها الأنهار .

ولمّا كنت أيها القاضي ملتقى هذه الأوصاف وطَيِّعَها، ومَشْرِقَ نجرها ومَطْلَعَها، وملْقَى عصا آرتيادها ومُنْتَجَعَها ، ومَوْرِدَ فرط تلك الأموالِ ومَشْرَعَها، ومُرادَ هـذه السِّمات التي تقَعُ منك موقعَها، وتألَف عندَك مَوْضِعَها، وأصل هذه المحامد التي إن آستغلقت بسواه فمنه فَرْعُها، وقارعَ صَفاةِ هذه الذِّروة التي ما كان لغيره أن يَقْرَعَها، ومن تَعُدّه الخناصرُ أتقى كُفاةِ الرتب وأَوْرَعَها، وأبلجَ أُباةِ الرِّيَب وأرْدَعَها، وأشدَّها قيامًا ومَقامًا في ذاتِ الله وإن كان له أطْوَعَها؛ وأمضاها حدًّا إذا كَفَّ الباطلَ الغُروب ، وأشرقَها شمسًا لا تتوارى بحجاب الغُروب، وأقواها سَلَّةً في تنفيذ حكم حقٍّ إذا ضَعُف الطالبُ والمطلوب ، وأنقاها صحيفةً بما أَوْدَعَها من نُور العمل المكتوب، وأبداها زُهْدًا في دنياه إذا أغْرَوْا بوعدها الكاذبِ أمَلَ إتيانها المكذوب، وأدومها مصاحبةً لشكر لا يستقلّ به رفيقُها المصحُوب، وأقومها طريقةً في الحسنات فما طريقُه إلى الحُوب بمَلْحوب، وأقواها طُمأنينةَ قلب إلى ذكر الذى تطمئنّ به القلوب؛ وأنهضها عزمًا بما أعيا الهِمَم من تكاليف الطاعة وآد بسمع وبصر وفؤاد، وأقدرها على مجاهدة الشهوات أشدّ الجهاد؛ وأنظرها لنفسه في تحصيل عمل يشهد له يومَ قيامِ الأشهاد، وأمهدها لجنبه وذخائرُ التقوى نِعْمَ المِهاد .

وإلى اليقين[1] الذى ظهرتْ شواهدُه ، والعملِ الذى جُمعتْ إليك شواردُه ؛ والدِّين الذى صفتْ إليك مواردُه، والعلمِ الذى هبَّتْ بعذا كرتك رواكدُه ، والفهم

(١) مراده وكل ذلك مضاف إلى اليقين الخ .

الذي تظاهرتْ بمناظرتك مَراشِــدُه ، والنظر الذي ألقَىٰ فُرْسانَ الجدال بالجَدالَه ، والأثر الذي يُقضىٰ به عليك بالعَدالَه ، والمحاماة عن الحقّ بمـا يقضي لمخالفه بالإذاله ولمؤالفه بالإدالَه ، والإرشاد الذي ما بدا لفَهْم الشاكّ إلا بَدَا له ، والفُتْيا التي ضربتْ نَبْج الباطل بِسُيوفها ، وحلّتْ مَسامعَ المستفيديـن بشُنُوفها ، والجلالة التي لا يُمَلّ مسمُوع أوصافها ، والعدالة التي لا يُملّ (؟) مشْرُوع إنصافها ، وكم ليلة أغمدتَ ظلامَها في نُور التهجُّد والناس هُجُود ، وسكّنتَ جُفونَ مآقيها بيَقَظات السُّجُود ، وأنشأتِ الخشـيةُ غمامَها فاطفأتْ بمـاء الدمع النـارَ ذاتَ الوَقُود ، وبلغتَ رياضة الجوارح التي تُرِيد ورياضَ القلب التي تَرُود ، فأسفر الصبحُ منك عن سارٍ واقف ، واستسرّ لك القَبُول عن أُنس خائف ، وتأرّجتْ أنفاسُ الأسحـار باسـتغفارك ، وتمّ عُنوانُ السُّجود بأسرارك ، وابيضّتْ شِيَةُ الليل على آثارك ، واكتنفَتْك الطَّهارةُ حتّى كأنّك مُصْحَف ، وأرهَفَتْـك الديانةُ حتّى كأنّك مُرْهَف ، وحالَفَتْك الزّكانةُ وكأنّك مع سـلامة الخُلُق أحنَف ، وثقّفتك السِّنُّ فأبقَتْ منك ما أبقتْ من سِـنان المثقّف ، وعرّفتَ الأحكامُ بأنك ماضٍ على الحقائق عند الشُّـبَه تتوقّف ، وألِفتْـك النزاهةُ فشهِد عدولٌ أن نكرةَ المطامع عندك لا تُعرّف ، وصرّفَتْك النزاهةُ عن دُنْيا إن كانتْ عرائسُها تُزَفّ فقدْ ما مواردُها تُنزَف ، واستشرفتْك المنازلُ التي لا تزالُ بأعناق الأشراف تُستَشرَف ، وما رأَستَ ، حتى درَسْتَ ، ولا تنبّهتَ ، حتى تفقّهتَ ، ولا أفتيتَ حتى أَفنيتَ المحابر ، ولا تصـدّرتَ حتّى تصـبّرتَ على تكلّف تعاب الصابر ، فمـا حاباك من حباك ، ولا قدّمك حتّى علِم أن سِواك ما ساواك ، فرياستُك لم تكن فلْتَه ، واستشرافُ وجه الرياسة لك لم يكُنْ لَفتَه ، بل تنقّلتَ متدرّجا ، وأثنىٰ عليك لسانُ حقيقةٍ ما كان متلجلجا ، ولو أقعـدك حسَـبُك أو أباك ، لقبِلك المجدُ وما أباك ،

فكيف ولك نفس بنت لك الشرف الخالد، وجمعت الطريف منه إلى التالد، ولم تقنع بما ورثت من تراث رياسة الوالد.

والسيد الأجل الذى أعاد إلى الدولة رونق نضارتها، بعد رونق إضارتها، وأفاضت عليه حيا إشارتها، وأضافت إليه نص إشارتها، وأعطته السعادة أفضل إمارتها، بما أعطته من فضل وزارتها، واشتملت معانى النجاح من صفحة بشره التى عجلتك الآمال ببشارتها، وأقرت حركاته الخلافة فى دارها والأنوار فى دارتها، وقصرت مهابته أيدى الأعداء بعد استطالتها، وأخمدت نارهم بعد استطارتها، وذللت رياضته الأسود فلم ترع الأسماع بزأرها ولا العيون بزيارتها ــ يعلك للصدور صدرا، ويعدك بما يرفع ذوى الأقدار قدرا، ويذكرك بما تطيب به نشرا، ويحسن ملبوسه بشرا؛ ويراك أولى من أقام الحق لازما جواده، وأقعد الباطل حاسما مواده؛ ويصفك بالعدل الذى يتألم عليه الأضداد، والسداد الذى لا يضرب بينك وبينه بالأسداد، والنزاهة المنزهة عن التصنع بالرياء، والسريرة الطيبة النشر والسيرة الحسنة الرواء.

ولما قرر لك النيابة عنه فى الصلاة والخطابة والقضاء والمظالم والإشراف على الجوامع والمساجد ودار ضرب العين والورق والسكة بالحضرة وسائر أعمال المملكة، أمضى أمير المؤمنين ما قرر، وتخير لهذه العطية من تخيره سكونا إلى أمانتك التى حملت نوقها، وركونا إلى ديانتك التى أوجبت تطلع هذه الرتبة إليك وسوقها؛ وعلما أنك فارسها الذى اتسع ميدانه، وواحدها الذى رجح ميزانه، وكفؤها الذى تمكن مكانه.

فتقلد ما قلدت من ذلك عاملا بتقوى الله التى يفوز العامل بها فى مواقف الإغتباط، ويجوز بها السالك متالف الصراط، ويحوز بها الآمل معارف الاحتياط،

قال الله فى فرقانه الذى نزله على عبده ليكون للعالمين نذيرا : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَكُمْ نُوراً ﴾ .

والحكم فهو عقد الناس دنيا ودينا ، وسبيل الحق الذى يسلكه من جرى شمالا وسلك يمينا ، وبه كف الله الأيدى المتعديه ، وأنقذ من النار النفوس المترديه ، وأقام حدود كل من استحقها ولم يتوقها ، وأوجب قصاص الدماء على من أراقها واستباح رقها ؛ وبه يقف القوى والضعيف موقفا واحدا ، ويظهر أولو عدل الله لمن كان بعين قلبه مشاهدا ؛ وبه تتبين مواقع التحليل والتحريم ، وفيه تتعين مقاطع الحكم بالتحكيم ؛ ولمجالسه الوقار فهى جنة لا لغو فيها ولا تأثيم ، والظالم فيه وإن ظفر فإنما ظفر بما يقطع له من نار الجحيم . ولا تجعل بين المتحاكمين إليك من فرق ، وساو فى الحكم بين كافة الخلق ، ولا تحكم بحجة أحد الخصمين وإن كان لها السبق : ﴿ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ ﴾ . ولا تقطع بعلمك وإن كنت عليما ، ولا تبال فى الله أن تغضب ظالما وترضى مظلوما ، واجعل لنفسك من نظرك وإصغائك بين المترافعين إليك مقسوما ، فلا تحقر خطأ الحكم وتجنب منه بينهما ماتجده [عند] الله عظيما : ﴿ وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيماً ﴾ . وتحلب بالوقار الذى يبين فضل الملة ، ويشهد للكفر بالذلة ، ويلبسك بخز السراة الحلة ؛ ولا يمنعك مذموم التكبر ، عن محمود التدبر ؛ ولا جبر لكسر التجبر ، ولا خير فيمن لا يمهل روية التحير فالعجلة تضيق ميدان التخير ؛ وإذا أوضح الملتبس لفهمك ، وعز القطع بفصل حكمك ؛ فأفهم الظالم ماتوجه عليه لخصمه ، فربما أوتى من سوء فهمه لا من طريق ظلمه ؛ ولعله لا يجمع عليه بين فوت مراده وبقاء إثمه ؛ وذاكر المقدمين على اليمين ، بما على من يمين ؛ وأن كاذبها يدع الديار

بالواقع ، وأن تحوق الجرأة على الله ماله من واقع ، وصرعة الفاجر مالها من مزيل ولا رافع ؛ ومن قطعه الحصر عن الإفصاح ، وصرفه العي عن الإيضاح ، فاستعمل معه أناة توضح مايختلج في صدره ، ورفقا يفصح مايختلج في فكره ؛ فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إنكم تختصمون إلي ولعل أحدكم أن يكون ألحن بحجته من الآخر فأقضي له على نحو ماأسمع " ولدخول المجالس دهشة تورث اللسان عقله ، ولمفاجأة المحافل حيرة تعقب البيان مهله ؛ فواجب عليك ممن تدله أن تدله ، وممن تشده أن تشده : لتقضي بما تقضي ، وتمضي الحكم بحقيقة تمضي ؛ وإن تجزت قضية قد فرطت ، وتدبرت توبة قد أفرطت ، فبادر باستدراكها ، قبل وقوعك في أدراكها ، وتعذرك عن إدراكها ؛ ولست معصوما من المغالط ، ولا موصوما بالخطإ الفارط ، ولا ملوما [إلا] إذا أقمت على ما الله منه ساخط ؛ فقد ذم الله من اتقى الخلائق ولم يتق الخلاق ؛ فقال تعالى : ﴿ يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم ﴾ .

وكتاب الله وسنة رسوله السراجان اللذان ما ضل هداهما ، والمهادان اللذان ماأوضحهما إليه وأبداهما ؛ وقد أغنت نصوصهما عن الأقيسه ، وأوضح خصوصهما عامة الأمور الملتبسه ؛ قال الله سبحانه : ﴿ ما فرطنا في الكتاب من شيء ﴾ . وقال تعالى : ﴿ وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ﴾ وإن أشكلت نازلة غير مسطوره ، وأعضلت واقعة غير محصوره ، فاسترشد أمير المؤمنين في أمرها ، وقف على بحار علمه فلن تعدم سيح درها ؛ فأمير المؤمنين الذي أمر الله عند التنازع بأن نرد [إليه](1) ماأعضل ، وأتم أخذك للاستنباط [الأمين](1) الذين حكم الله أن يرد عليهم ما أشكل .

(١) زدنا هاتين الكلمتين على ما في الأصل لأن الكلام بدون زيادتهما لايفهم . تأمل .

والشهادةُ فلقد أمر اللهُ بإقامتها وكفى بالله شهيدا، وكفى بذلك جلالة وتمجيدا؛ ولا تتخذ إلا العُـدول المقانع، ولا تسمَعْ منهـم إلا لمن هو لأمر الله سامع؛ فهـم الأعوانُ التى تُدفَع بها نارُ جهـنم، والجُنَن التى يتّقِى بها الحاكم سهام الآثام فيما حلّل وحرّم؛ وإلى علمهم انتهتْ مقاطعُ الحقوق التى اللهُ بها أعلم، وما سرى حكمٌ إلا بعد أن تجدَ أقواله دليـلا، ولك السـمعُ ولهم البصر وكلُّ أولئك كان عنـه مسئُولا؛ واستشِفْ أمورهم فمن ألفيته آلفا لمحجّة الصواب، عائفا لمضلّة الارتياب؛ لايُخاف بالإغضاب، ولا يُخاف بالإرهاب، ولا يحسِبُ حسابا إلا ليوم الحساب، فاسمع مقالتـه، وأقرّ عدالتـه. ومن كان عن السبيل ناكبا، وللهوى راكبا؛ فأرجلْه عن ظهر العداله، وتتبّع زلّله بالإزاله؛ وواصِلْ فيهم ألسِـنةَ حكك، وأوجُه علمك؛ فلا تستنِب إلا من تعلم أن خطأه عليك وصوابَه لك، ولا تعوّل إلّا على من لايُخجل نفسك ولا يذمّ تعويلك.

وكاتبُك فقلمُه لسانك، ولسانه ترجُمانك؛ إن وقّع فإليك تُنْسَب مواقع توقيعـه، وإن وصـل حكما بمسطوره فمقدارُك مسطورٌ من مسمُوعه؛ فلا ترضَ بالدُّون فيما يدوّن، ولا تعوّل إلا على كل من تصوّر وتصوّن.

وحاجِبُك فهو عينُك وإن سُمّى حاجبا، ووجْهُك الذى تلقَى به إذا كُنتَ غائبا؛ فاختَرْ من يكون متخيّرا فى المَقال، متحلّيا بحُسْن الفِعال، مجرّبا فى جميع الأحوال؛ لايلتفتُ إلى دنيـا دينـه، ولا يخونك أمانتـه ولا تمتدّ يمينـه، ولا يقول عنـك ولا عن نفسه إلا مايَزِينُك ويزينُه، ولا يخفُّ إلى ما تخفّ به موازينُه.

والخطباءُ فرُسان المنابر، وألسنةُ المحاضر، وتراجمُ الشعائر، وأئمةُ الجامع، وسُفَراء القلوب بوَساطة المسامع لمقامها الرافع؛ ومُبرِّها الفارغُ من القلوب على دائها، وتدحر

حربُه شياطينَ الأمم عنـد آعتدائها، ويُعرب عن الهداية ويبالغ بلاغته فى إهدائها، ويتقِنُ مخارجَ الحروف مُحسنا فى أدائها وإبدائها، وتَحُلّ موعظتُه عن العيون الجامدة عُقَدَ وكائها، وينادى القلوبَ الصَّدِيَة فيكون صَدَاه صوبَ بكائها، ويستشعرُ أرْدِيةَ الوَقار فتشهد المنابرله بارتدائهـا، وتغذى النفوسَ مواعظُه إذا قصدتْه بآستنصارها على القلوب وآستعدائها .

والأيتـام فأنتَ لهم والد، وأجْرُ نفقتك عليهم فى الصحيفةِ وارد، وهم ودائعُ الله لديك، وذخائرُ الآباء [إ] لّا أنهم فى يديك، فأحْسِن بهم السياسة بالشَّفقه، وأحسن لهم التدبيرَ بالنَّفقه، ومن آنستَ رُشْدَه، فآدفع مالَهُ إليه، ومن لم تسترشد قصْده، فأنفق منه عليه، قال الله تنبيهًا وتحذيرًا : ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴾ .

والمساجد بيوت الله التى يُسَبَّح له فيها بالغُدُوّ والآصال، ومَظانُّ العبادة التى يعمُرها أهل الآعتلاقِ بمعروفه والإفضال، ومَصاعدُ الكَلِم الطيب والعملِ الصالح، وأسواقُ الآخرة التى يُوجب فيها المشترُون صَفقة البَيْع الرابح، فمَهِّد الطريقَ إلى زيارتها، وآشرَحْ قلوبَ المتطهِّرين بطهارتها، وآنِس القائمينَ بالليل والمستغفرين بالأسحار بإنارتها .

والمضروبُ بدار الضرب فهو عينُ ما تجب عليه الزَّكَوات، ونفس ما تُحازُ [به] المستملَكات، ومدارُ ماتشتمِلُ عليه المُعامَلات، وقِيَمُ ماتُحقَن به الدماء فى الدِّيات، ومنتهى ما تُوقَى به الصَّدُقات، وتُوصى به الصـدقات، فتولَّ أخذَ عيـاره، ومباشرةَ تصفية درْهمه وديـناره، وأخلِصْه لتنجُوَ من النـار بلَفَحات ناره، وآحفظْ شكله الذى ينقش خاتم جَوازه، والأسمـاءُ المسطَّرة عليـه وسيلةُ آمتيـازه على بقية الأحجار وإعْزازه .

والوكالة على باب الحكم فهى كِفَاح المتناضِلين، وسِلاح المتناصِلين؛ ومن ينتفع بها لا يُعْزَل من الخطاب، كما لا ينصَّب بها من يَفْتح له الباطلُ الأبواب؛ فلا تُوعِها إلا لمن حسمته الدُّربه، فى السرعة من القُرْبه، وتدبر قول الله: ﴿ وإنْ كانَ مِثقالَ حبَّـة ﴾ ممن يُؤمن على النساء والرجال، ولا يُعجبه إرسالُ لسانه فى الحَلال، ولا يُبطِلُ الحق إذا أطلق لسانه فى سَعة المَجال .

والمتصرِّفون الذين هم أيدى الشريعة التى تُشخِص الخُصوم، ويُستعانُ بهم على قمع الظُّلوم ونَفْع المظلوم، فتخيَّرْ أن يكون أكثرهم من أهل طبقته، وأمدَّهم تحسينا لسُمْعته وتحصينا لأمانته .

هذا عهدُ أمير المؤمنين إليك فاهتَدِ بهَدْيه، وقُمْ بفرض رَعْيه وحقّ وَعْيه؛ وكريم سعى الآخرة أحسَنَ سَعْيه، وتصرَّفْ بين أمر الحقِّ ونهيه؛ والله سبحانه يبلِّغك من مناجح أمرك، مالا تبلغه بمَطامِح فكرك؛ وييسر لك من بديهة الإرشاد، ماتعجِز عنه روِيَّة الارتياد؛ فاعلمْ هـذا من أمير المؤمنين ورَسْمه، واعمل بموجَبه وحُكمه؛ إن شاء الله تعالى .

❖

ومن ذلك ماأورده علىُّ بن خلف الكاتب فى كتابه "مواد البيان" فى سجلّ بالدعوة للدولة والمشايعة لهـا، والموافقة على مذهبها، وهو :

الحمدُ لله خالق ماوقع تحت القيـاس(1) والحَواس، والمتعالى عن أن تُدرِكه البصائرُ بالاستدلال والأبصارُ بالإيناس؛ الذى آختار الإسلامَ فأظهره وعظَّمه، واستخلص الإيمانَ فأعزَّه وأكرمه؛ وأوجب بهما الحجةَ على الخلائق، وهداهم بأنوارهما إلى أقصَد الطرائق، وحاطَهما بأوليائه الراشدين شُموس الحقائق؛ الذين نَصَبهم فى أرضه

(1) يريد بالقياس المعقول .

أعلاما، وجعلهم بين عباده حُكّاما، فقال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ ﴾ .

يحمَدُه أمير المؤمنين أن آصطفاه لخلافته، وخصّه بلطائف حكمته، وأقامه دليلا على مناهج هدايته، وداعيًا إلى سبيل رحمته؛ ويسأله الصلاة على سيدنا محمد نبيّه الذى آبتعثه رحمةً للعالمين، فأوضح معالم الدين، وشرع ظواهره للسلمين، وأودع بواطنه لوصيّه سيد الوصيين : علىّ بن أبى طالب أمير المؤمنين، وفوّض إليه هداية المستجيبين، والتأليفَ بين قلوب المؤمنين، ففجّر ينابيعَ الرَّشاد، وغوّرَ ضلالات الإلحاد، وقاتل على التأويل كما قاتل على الرسل، حتى أنار وأوضح السُّبُل، وحسر نقابَ البيان، وأطلع شمسَ البرهان، صلّى الله عليهما، وعلى الأئمة من ذرّيّتهما، مصابيح الأديان، وأعلام الإيمان، وخُلفاء الرحمن، وسلّم عليهم ماتعاقب الملَوان، وترادف الجديدان .

وإنّ أمير المؤمنين بما منحه الله تعالى من شرف الحكمة، وأورثه من منصب الإمامة والأئمة، وفوّض إليه من التوقيف على حدود الدين، وتبصير من آعتصم بحبله من المؤمنين، وتنوير بصائرِ من آستمسك بعُروته من المستجيبين ـ يُعنى بإقامة الدعوة الهاديّة بين أوليائه، وسُبوغ ظلّها على أشياعه وخُلَصائه، وتغذية أفهامهم بلِبانها، وإرهاف عقولهم ببيانها، وتهذيب أفكارهم بلطائفها، وإنقاذهم من حَيْرة الشُّكوك بمعارفها، وتوقيفهم من عُلومها على ما يلْحَب لهم سبُلَ الرِّضوان، ويُفْضى بهم إلى رَوْح الجنان، وريح الحَنان، والخلود السرمدىّ فى جوار الجوّاد المنّان ـ ما يزال نظرُه مصروفًا إلى توطها بناشئ فى حِجْرها، مغتذٍ بدَرّها ساربٍ فى نُورها، عالِم بسرائرها المدفونة، وغوامضها المكنونة، موفرا على ذلك آختيارَه، وقاصية آنتقاده وآختباره، حتى أدّاه الآجتهادُ إليك، ووقفه الآرتيادُ عليك، فأسندها منك إلى

كفئها وكافيها ، ومدّرهها المبرّز فيها ، ولسانها المترجم عن حقائقها الخفيّه ، ودقائقها المطويّه ، ثقةً بوثاقة دينك ، وصحّة يقينك ، وشهود هديك وهداك ، وفضل سيرتك في كل ماولّاك ، ومحض إخلاصك ، وقديم آختصاصك ، وأجراك على رسم هـذه الخدْمة فى التشريف والحُملان ، والتنويه ومُضاعفة الإحسان .

فتقلّد ما قلّدك أمير المؤمنين مستشعرا للتقوىٰ ، عادلا عن الهوىٰ ، سالكًا سبيل الهُدىٰ ، فإنّ التقوىٰ أحصنُ الجُنَن ، وأزينُ الزّين ، و ﴿ آدْعُ إلىٰ سبِيلِ ربِّكَ بِالحِكْمَةِ والمَوْعِظَةِ الحَسَنَةِ وجادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ . فإن الله تعالىٰ يقول : ﴿ وَمَنْ يُؤْتَ الحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ . وحضّ علىٰ ذلك فقال سبحانه : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَىٰ اللهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ المُسْلِمِينَ ﴾ .

وخُذِ العهدَ علىٰ كل مستجيب راغب ، وشُدّ العقدَ علىٰ كل مُنقادٍ ظاهر ، ممن يَظْهر لك إخلاصُه ويقينُه ، ويصحّ عندك عفافه ودينُه ، وحُضّهم على الوفاء بما تُعاهِدُهم عليه ، فإن الله تعالىٰ يقول : ﴿ وَأَوْفُوا بِالعَهْدِ إِنَّ العَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا ﴾ . ويقول جل من قائل : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللهَ يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ ﴾ . و [كفّ] كافّةَ أهل الخلاف والعناد ، وجادِلْهم باللُّطف والسّداد ، وآقبلْ منهم مَنْ أقبل إليك بالطَّوْع والآنقياد ، ولا تُكْرِه أحدا علىٰ متابعتك والدخول فى بيْعتك ، وإن حَمَلتْك علىٰ ذلك الشفقةُ والرأفةُ والحنان والعاطفة : فإنّ الله تعالىٰ يقول لمن بعثه داعيًا إليه بإذنه : محمد صلّى الله عليه وسلم : ﴿ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ .

ولا تُلْقِ الوديعـةَ إلا لحُفّـاظ الوَدائع ، ولا تُلْقِ الحَبَّ إلا فى مَزْرَعة لاتُكْدِى علىٰ الزارع ، وتوخَّ لغرسـك أجلَّ المَغارس ، وتُورِدُهم مشارع ماءِ الحياة المَعِين ،

وتُقرِّبهم بقُرْبان المخلصين ، وتخرجُهم من ظُلَم الشكوك والشُّبُهات ، إلىٰ نُور البراهين والآيات ، وأتْلُ مجالس الحِكَم التى تخرج إليك فى الحضرة علىٰ المؤمنين والمؤمنات ، والمستجيبين والمستجيبات ، فى قُصُور الخلافة الزاهره ، والمسجد الجامع بالمُعِزّيّة القاهره ، وصُنْ أسرارَ الحِكَم إلا عن أهلها ، ولا تَبْذُلْها إلا لمستحقِّها ، ولا تكشِفْ للمستضعَفين ما يَعْجِزون عن تحمُّله ، ولا تستقِلُّ أفهامُهم بتقبُّله ، وآجمعْ من التبصُّر بين أدلّة الشرائع والعقول ، ودُلّ علىٰ آتصال المَثَل بالممثول ، فإن الظواهرَ أجسامٌ والبواطنَ أشباحُها ، والبواطنَ أنفسٌ والظواهرَ أرواحُها ، وإنه لا قِوامَ للأشباح إلا بالأرواح ، ولا قِوامَ للأرواح فى هذه الدار إلا بالأشباح ، ولو آفترقا لفسد النِّظام ، وآنتسخ الإيجادُ بالإعدام . وآقتصرْ من البيان ، علىٰ ما يحرُس فى النفوس صُورَ الإيمان ، ويصونُ المستضعَفين من الآفتتان ، وآنهَهُم عن الإثم ظاهره وباطنه ، وكامنه وعالنه ، فإن الله تعالىٰ يقول : ﴿ وذَرُوا ظاهرَ الإثمِ وباطنَه ﴾ .

وآتّخذ كتاب الله مصباحًا تقتبس أنوارَه ، ودليلا تقتفى آثارَه ، وآتلُه متبصِّرا ، ورَدِّده متذكِّرا ، وتأمَّله متفكرا ، وتدبَّر غوامضَ معانيه ، وآنشُر ماطُوِى من الحِكَم فيه ، وتصرّفْ مع ماحلَّله وحرَّمه ، ونقَضَه وأبرمه ، فقد فصَّله الله وأحكمه ، وآجعل شَرْعه القويمَ الذى خَصّ به ذَوِى الألباب ، وأوْدَعه جوامعَ الصلوات ومحاسنَ الآداب ، سببا تتّبع جادّته ، وتبلُغ فى الآحتجاج محجّته ، وتمسَّكْ بظاهره وتأويله ومُثُله ، ولا تعدِل عن مَنْهجه وسُبُله ، وآضمُمْ نَشَر المؤمنين ، وآجمع شَمْل المستجيبين ، وأرشِدْهم إلىٰ طاعة أمير المؤمنين ، وسوِّ بينهم فى الوَعْظ والإرشاد ، والله تعالىٰ يقول فى بيته الحرام : ﴿ سَوَاءً العَاكِفُ فِيهِ والْبَادِ ﴾ . وزِدْهم من الفوائد والموادّ علىٰ حسَب قُوَاهم من القَبُول ، وما يظْهَر لك من جَوْدة المحصول ، ودرِّجهم بالعلم ووَفِّ المؤمنَ حقَّه من الآحترام ، ولا تُعْدِم الجاهلَ عندك قَوْلًا سلاما كما علّم رَبُّ

السلام . وتوخ رعاية المؤمنين ، وحماية المعاهدين ، وميزهم من العامة بما ميزهم الله من فضل الإيمان والدين ، وألِن لهم جانبك وآحنُ عليهم وآلطف ، وآبسُط لهم وجهك وأقبِل إليهم وآعطف ، فقد سمعت قول الله تعالى لسيد المرسلين : ﴿ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ . ولا تُفسح لأحد منهم فى التطاول بالدين ، ولا الإضرار بأحد من المعاهدين والذميين ، وميزهم بالتواضع الذى هو حلية المؤمنين ، وإذا ألبس عليك أمرٌ وأشكل ، وصعب لديك مَرامٌ وأعضل ، فأنهِه إلى حضرة الإمامة متبعا قول الله تعالى : ﴿ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ . وقوله : ﴿ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ : ليخرج إليك من بصائر توقيفها ، ومراشد تعريفها ، ما يقفك على مناهج الحقيقة ، ويذهب [بك] فى لاحب الطريقة ، وآقبض ما يحمله المؤمنون لك من الزكاة والجزى(١) والأخماس والقربات وما يجرى هذا المجرى ، وتتقدم إلى كاتب الدعوة بإثبات أسماء أربابه ، وآحمله إلى أمير المؤمنين لينتفع مخرجوه بتنقيله له ووصوله إليه ، وتبرأ ذممهم عند الله منه . وآستنب عنك فى أعمال الدعوة من شيوخ علم الحكمة ومن تثق بديانته ، وتسكن فيه إلى وفور صناعته ، وآعهد إليهم كما عهد إليك ، وخذ عليهم كما أخذ عليك ، وآستطلق لهم من فضل أمير المؤمنين ما يعينهم على خدمته ، ويحمل ثقلهم عن أهل دعوته ، وآستخدم كاتبا دينا أمينا مؤمنا بصيرا عارفا ، حقيقا بالاطلاع على أسرار الحكمة التى أمر الله بصيانتها وكتمانها عن غير أهلها ، نقيا حصيفا لطيفا ، بنزلهم فى مجلسك بحسب مراتبهم من العلم والدين والفضل .

(١) جمع جزية وهى خراج الارض وما يؤخذ من الذمى .

هذا عهد أمير المؤمنين إليك فتدبّره متبصّرا، وراجعه متدبّرا، وبه الوصايا تهدى وتُسدّد، وتوفّق وتُرشد؛ واستعن بالله يُمِدّك بمعونته، ويُدِم حظّك من هدايتِه؛ إن شاء الله تعالى .

قلت : وعلى هذا سائرُ السجلات من هذا النوع . وقد أورد فى "مواد البيان" سجلّات غيرَ هذه حذف منها التحميدَ واقتصر على مقاصدها، وفيما ذُكر من ذلك مقنع .

المـــــــذهب الرابع

(مما كان يكتب لأرباب الولايات بالدولة الفاطميـــة مرتبةُ الأصاغر من أرباب السُّيوف والأقلام)

وليس لهذه الرتبة صِيَغٌ محصورةٌ فى الافتتاح، بل تُفتتح بلفظ : «إنّ أمير المؤمنين لما آتاه الله [من] كذا يفعل كذا وكذا ولمّا كنتَ بصفة كذا ، وحضر بحضرة أمير المؤمنين فتاهُ ووزيرُه فلان وأشار بكذا، فترك أميرُ المؤمنين فى كذا» أو يقال : «إن أولى» أو «إنّ أحقّ» أو «إنّ أجدر» أو «أقمن» أو «مَنْ حسُنَتْ طريقتُه» أو «مَنْ كان متّصفا بكذا كان خليقا بكذا» أو «ولمّا كان كذا» أو «منشور تقدم بكتبه فلان» ونحو ذلك .

فمن المكتتب عن الخليفة من هذه المرتبة لأرباب السيوف نسخةُ سجلّ بَزّم .

إنّ أمير المؤمنين لِما آتاه الله من المحلّ الأرفع ، وجعله اليومَ الآمرَ المطاعَ وغدًا الشفيعَ المشفّع ؛ يتعهّد عبيدَه بِمهادِ كرمه ، ويُجير من هَجْر[1] النوائب من يُحاول ظلّ

(١) الهجير والهجيرة والهجر والهاجرة نصف النهار عند زوال الشمس الى العصر وقيل فى كل ذلك انه شدة الحر . انظر اللسان ج ٧ ص ١١٥ .

حَزمه ؛ ويقبَلُ وســيلة من كانت النجابةُ أقوىَ وسائله وذِمَمه ، ويؤمِّنه من إلحاف حوادثِ الدهرِ به وتمه؛ فلا زال بأُمورهم عانيا ، وبمكارم شيمته عن رَفع مسائلهــم غانيا؛ لاسيَّما من حسُن فى الخدمة أثرًا وطاب خَبَرا ، ونُشرتْ أوصافُه فى أيدى الثَّناء فكانتْ بُرودا وحِبَرا ، و تَمَّ له الإحسانُ فى كل زمانٍ أن يأتِىَ مستحمِدا لامعتذِرا ، وعُدقت به بحارُ المحاماة فما أخرجَتْ منه إلا جَوْهرا ، وغَرَس مقدِّماتِ المخالصة وكان لسانِح الإنعام مستثمِرا ، وصــقَل التجريبُ صفيحةَ طبْعه وكان لضريبــة الحَزم مستأمِرا ، وآستبدّ بموجبات المحامد مؤثِرا لها ومُستأثِرا ، وجُعلتْ لديه أسبابُ الاستقلال التى قلَّتْ عند سِواه فظلّ منها مهيدا (؟) متكثرا .

ولمــا كنتَ أيها الأمير ممن قام له هــذا الوصفُ مَقامَ الاسم [من] المسمَّى ، ووضَحتْ مَخايِلُه به فلم يكُنْ مــن اللُّغز المُعمَّى ؛ وقام يقرر من الخدمة مشتمِلا ، وآستقل بشرائط التعويلِ مستكمِلا ، وأدرك غاياتِ المحاسنِ عجِلًا متمهلا(١) ، وضمنتْ له الشبيبةُ أن يعلوَ كاهلَ الرياسة متكهِّلا ، وآشتهر بالتقدُّم فلم تعرف به أوضاحُ الصنائع غُفلا ولا مجهلا ، وآستوجبَ أن لا يزال فى أُفُق الإنعام مُنهَلًّا عليه يُغادر لديه غديرًا ومَنهلا ، وآستحقّ أن يملأ يديه من (٢) ناظره متأمِّلا ، وأدّىَ فريضةَ النصيحة كافلًا متكفِّلا ومُحملا لامتحمِّلا ، ونهض بتكاليف الخدمةِ متحمِّلا فيهــا مالم يزل متحمَّلا .

وحضر بحضرة أمير المؤمنــين فتــاهُ الذى أفناه التوفيقُ باستبزاره ، ووليُّه الذى جَمَّ به موردُ السعد بعد آستنزاره : الســيدُ الأجلُّ ســيفُ نَصْره المهنّد باســه ،

---

(١) التمهل التقدّم وتمهل فى الأمر تقدّم فيه . انظر اللسان .

(٢) بياض بقــــد ركلمة .

وليثُ حَرْبه والسِّنان نَاب ، وسحابُ الرحمة إلىٰ الإسلام بما حصل رعى خضر الجَنَاب ، ومتعب الرائح فى غَيِّـه حتى عَزَب فى سُـهوب الإسهاب بأطناب الإطْناب ، ومستحقُ المدائح التى يُعَطَّر بهـا الجَناب ، ويُعطَّل بها الرِّكاب ، والملكُ الذى خدمه الملوكُ لارتبة الغَنَاء عنه بل لرُتبة المَتَاب ، فذكَرك بمـا جمَّلك ، واستمطرَ لك من الإحسان ماجَمَّ لك ، واستوفَق فى مُناصحة الدولة عَمَلك ، وقرَّبتْ عليـك بسِفَارته بحضرة أمير المؤمنـين أمَلَك ، وقرر لك الخدمةَ بالزِّمّ الفـلانى إخلادًا إلىٰ ماتَطْوِى عليه جُمْلتُك ، واعتمادًا علىٰ ماتعزى به كاملتُك ، فأجابه أميرُ المؤمنين إلى ماأجابَك إليه ، وتقـدّم أمرُه باستخدامك فيما عُيِّن عليـه ، وخرج أمره إلىٰ ديوان الإنشاء بكَتْب هذا السجل بتقليدك ذٰلك .

فتقلَّد ماقُلِّدته مستشعرا لباس التقوىٰ ، ناهيًا للنفس عن الهوىٰ ، سالكًا الطريقة المُثلىٰ ، قال الله سبحانه : ﴿ والعاقبةُ للتقوىٰ ﴾ . وهـذه الخدمةُ من أمراء قبائل العرب ، وهى المَنْبَع وسِواها الغَرَب(١) ، وما فيها من يُدْعىٰ إلى خدمة إلا طَبّق المفْصل وأتىٰ علىٰ الأرَب ، فخذْها بالمرسُوم لمـا تُنْدب له من المهمّات السانحة والعوارض ، والخُفُوف إليها بالأسْلِحة الرَّوائـع والخُيُول النَّواهض ، وألزِم رجالَهـا أن تحفَظَ من الطُّرقات مايُصاقبُها ، وأن تسُوق كلَّ نفس بجنايتها إلىٰ من يعفُو عنها أو يُعاقبُها ، وقدِم العَرْض الذى يُستَدلُّ به علىٰ مَنْ كان بالوفاء ساقطا ، وعن أعمـال المملكة ساخطا ، ليسترجعَ الديوانُ ما كان بيـده ، ويفتضحَ من كانت الخيـانةُ سريرةَ مقْصَده ، فاعلمْ هذا واعمَلْ به .

---

(١) الغرب بالتحريك من معانيه الماء يقطر من الدلو بين الحوض والبئر أنظر القاموس .

* * *

ومن ذلك نسخة سجل بولاية ثغر، وهى :

إنّ أولى من رقّاه إنعامُ أمير المؤمنـين إلى المحلّ اليَفَـاع، وشفَعتْ فيـه وسائلُ فضائله فغَنِى عن الاستشفاع، وعَظُم له النفع لمـا به من عظيم الانتفاع، وجرّدته يدُ الاختيار سيفًا من سُيوف الذّبّ عن الملّة والدّفاع، واستقرّ فى الرُّتب التى لاتُنْقَل إلا إلى الزّيادة ولا تُغيَّر إلا إلى الارتفاع، وجُلِّيت عليـه وجوهُ النعماء واضحةَ اللّثام واضعةَ القِناع، ونيطتْ منـه وصايا الحزْم بحافظ لهـا واع، وتوفّرت عليه بواعثُ الصنائع ودعتْ إليه دَواع ـ مَنْ ترشّح بالاستحقاق للرتب السنيّة وتأهّـل، وسبَق الجارين فى حَلْبة الإخلاص على أنهـم جَهَدوا وتمهّـل، واستوجبَ امتطاء كاهل الرياسة بالفتك الذى شبّ والرأى الذى تكهّل، وثبتَ جأشُه فى المَقامات التى يُراعُ لهـا كلُّ رُوع ويَذْهَل، ومَنعتْ مهابتُه العدوّ أن يَجْهَل عليـه وأبتْ له حَصافتُه أن يَجْهَل، وغَرِيتْ همّتُه بالمَطْلَب الأصعب من العَلاء وأنِفت من المَطْلَب الأسهل، ووَلِىَ الولاياتِ الجليلةَ فظلّت الرعايا تَعُلّ من مَواردِ عَدْله وتَنْهل، ونشأتْ لهم سُحُبُ الرِّكاب التى بَرْقُها يتهلّل وعارِضُها يَنْهلّ .

ولمـا كنتَ أيّها الأميرُ الناهضَ بحقوق هذه السِّمات، البعيدَ القَدْر من المُساواة والمُسامات، المتنقّلَ فى درجات التّقـدمة والكَرامات، المنفرِجةَ عن أنوار فتكاته ظُلُماتُ المَقامات، المُعَدّ النّجْدة لمَواقف البأساء والضراء والرادّ على أعقابها الأبطالَ المُعْلِمةَ بالفَتَكات المُعْلَمات، الدائمَ الغَرام بمَقامات الرِّياسة وإن كانتْ عظيمةَ المُؤَن جسيمةَ الغَرامات، القائمَ بمـا تُوجبه عليـه صنائعُ أمير المؤمنين من حقُوق المُدافعة عن الحَوْزة وفُروض المُرامات، المتظاهرةَ فيـه شواهدُ الفضائل بأصـدق الأعذار

وأوضح العلامات ، المشهورَ المقامات ، إذا جرتْ من مُتُون الصِّفاح جداولُ وآهتزّت من غُصُون الرِّماح قامات ، الآخذَ بالأرصاد على العـدا بسُيوف تَرقُب الرِّقاب وتَهيمُ في الهامات ، الكافيَ الذي تَنقَّل في الخدَم فكان من الشُّـكر مُثرِيَ الأثَر ، وآنتُدب في المهمّات فكان مَثابَ الثَّواء مُسْفِر السَّـفَر ، المعروفَ في تصرُّفاته بانتهـازِ النُّجْح وقَصْر البجح ، والمعوّلَ على أن تصفَه أفعاله بشرحٍ لصَدْر الآختيار به شَرْح ، المعدودَ يوم الرَّوْع من كُفاة الخَطْب وحُماة السَّرْح ، المـاضيَ الحدِّ إذا كان السيفُ لعدم الضارب مشتَبِهَ الحدّ بالصَّفح ، وقدَّم فعلَ الآستقلال ، وأخَّر سُؤال الآسـتغلال ، وأسكنه من المُخالصـة إلى دارٍ ببلوغ الآمالِ مِحْلال ، وآرتفعتَ كاهل المجد بسعي لمحظورها به آستِحْلال ، وسهَّلت إلى الطاعة كلّ مُعتاص من المَطالب ، وغدا الآستحقاقُ بمُرادِك نِعْم الكفيلُ و بآمالك نِعْمَ الطالب ، وآشـتهرتَ بخلالٍ آقتضت الرَّغبةَ فيما آقتضتْه إليك من الرغائب ، وعَظُم النفعُ بك حتّى لا نَفْع مع غَيْبتك بحاضر ولا ضَررَ مع حُضُورك بغائب . ومثَل بحضرة أمير المؤمنين فتاه ووليُّه وأمينُه السيدُ الأجل ، الذى سارتْ أوصافُه مَسِير الشمس وأنارتْ إنارتَها ، وسقتْ مَكارمُه سَقْيَ الغُيُوث وأمارتْ إمارتَهـا ، وسرَتْ خيولُه مَسْرى طَيْف الخيـال و إن كره الأعداءُ زيارتَها ، وقامتْ مهابتُه مَقامَها في البلاد وأغارتْ على القلوب إغارتَها ، ونازعَ الأقمارَ بعُلُوِّ القـدر دارَها وما حسِبُوا الدَّسْت له دارَتَهـا ، وأشارتْ له السـعادةُ العلَوية وأمضى التلطُّفُ إشارتَها وأحسَن به شارَتَها ، وطالَعَ بمـا أنت عليه من طاعة تَبذُل فيهـا الطّاقة ، وكِفايةٍ إذا تعاطاها الوصفُ المتَّسِع ضَيَّق عنها النُّطْقُ نِطاقَه ، وعَدّك في سَرَعان الأولياء إذا رتَّب سواك في الساقه ، وآحتسب بما لكَ من حسنات نَظْمها نَظْم السِّاقه . وبما قرره لك من الخدمة إلى ولاية كذا خرج أمر أمير المؤمنين بأن يُوعَز إلى ديوان الانشاء بكتب هـذا السجل لك بالخدمة المذكورة ، سكُونا إلى

مُناصحتك التى سكنتْ ضميرَك، وركونًا إلىٰ موالاتك التى حققت أملك وتقـديرَك، وإيرادًا لك إلىٰ المَوارد التى تُوجب تقديمَك وتصديرَك .

فتقلّد ما قُلّدته منهـا بادئا بتقوىٰ الله التى إن جعلتها جُنّتك كانتْ جَنّتك ، وإن آستشعرتها عُمدتك أنجزتْ فى الدارين من السعادتين عِدَتك ؛ قال الله تعالىٰ فى كتابه المكنون : ﴿ إنَّ اللهَ مَعَ الَّذِينَ ٱتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴾ . وقال تعـالىٰ : ﴿ وَيُنَجِّى اللهُ الَّذِينَ ٱتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ . وآبدأ فى هذا الثغر الجليـل قدرُه ، المصاقِب لمـا به محلُّ السعد ومقرُّه ، الميسَّر به لكلِّ عاملٍ ثوابُه وأجرُه ، المحضوض علىٰ رِباطه لمن توفَّر حظُّه من ذخائر الآخرة فأحسن ذُخْرَه بعدل القَضايا ، وصَوْن الرَّعايا ، وبثِّ السَّرايا ، وترويع العدوِّ من جميع المَطالع والثَّنايا ، وإهداء المَنايا إليـه فى الغُدُوات والعَشايا ، والتطلّع علىٰ مايُجِنُّه من المَكايد والخَفايا ، وكفاية أوساط الصِّفَاح مصافحَةَ أطراف الرِّماح تَحايا ، ولا تُخليه أن تُجهِّز فى كل يومٍ إليـه رايةً أو تُنفِّذ فيـه رايا ، وأن تسترزق الله أموالَهُ مغـانمَ وحريمَه سَـبَايَا ، وتُطلِع عليهم فى عُقْر دارِهم طوالِعَ المنايا وفَوارِعَ الرَّزايا ؛ حتى لا تلوحَ فُرجةٌ إلا آقتحمْتها ، ولا تعِنَّ فُرصةٌ إلا آغتنمْتَها ، وآمدُدْ علىٰ مَنْ بهـذا الثغر جَناحَ الرِّعاية والذَّبِّ ، ومَهِّـد لهم جانبَ العدل ليتبوّءوا فيـه آمنِي السِّرْبِ والسَّرْب ، وصُنْهم صِـيانةً تَرفع عنهـم عَوادِىَ المضارّ ، وتُوطد لهم أكنافَ السكونِ والآسـتقرار ؛ وآعتمِدْ من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ما يطلقُ فيك ألسِـنةَ المادحين ، وينظمُك فى سِـلك من نَعَاه الله بقوله : ﴿ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَٰئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ .

وأقم الحدّ على مَنْ وجب عليه إقامةً لاتتعدّى فيها الواجب، ولاتُفارق بها مَنْهج الحقّ اللّاحب؛ وتوخّ متولّى الحكم بإعزاز ينفّذ حُكْمَه، وإكرام يَشُدّ فى الحق عزْمَه، ويردَعُ الظالمَ ويَمنَعُ ظُلْمَه؛ وكذلك المستخدَمُ فى الدعوة الهاديّة عامِلْه بما يَشُدّ أزره، ويشرَحُ فى دعاء المستجيبين صدره؛ وبالِغْ فى عَضْد المستخدَمين مبالغةً تُدِرّ بها الأموال، وتُوجِد بها السبيلَ إلى توفير عطيّات الرجال، وتُوسّع عليهم فيها المجَال؛ وآمنَعْ من يتعرّض لكَسْب الضرائب، والإخلالِ بإلزام الواجب؛ وشرور الاقلاب، وقَصْد سرح المال بالتّباب؛ وأقِمْ للسُّور شطرا من آهتمامك تعمُر أبراجه وأبدانَه، وتستخدِمُ حُرّاسه وأعوانَه؛ وترتّب عليه الوَقُودَ فى الليالى المُظْلِمه، وتُعجِز [عن] مناله المطامعَ الميسورةَ والأيدى المتسنّمه؛ وواصِلْ من عمائره مايتلافَى الخلَل قبلَ آنفراجه، ويُعيد مَبْدأ الغارة على أدراجه؛ فالقليلُ بالغَفْلة يستدعى كثْرة الاهتمام، وربّما لم تُصِب فيه المرمَى ولم يَنْجع المَرَام.

ومراكبُ الأسطول المنصورة فولِّها مَنْ ترتضى نُهوضَه، ومن يقُوم بشرائط الجهادِ المفروضه؛ وإذا آنس فرصة لم يعترِضْها التفويت، وإذا نَزَل به القِرْنُ ناداه بعزْم المستميت، وإذا عَرَا المجتمع عرَّض جمْعَه للتشتيت؛ وآحتَطْ على حواصل هذه المراكب فبها قوّةُ الإسلام على عدُوّه، ومَدَدُ آستظهاره وعلُوّه؛ وأقِمْ من الرؤساء من له حِيلةٌ فى الأسفار، وخِبْرة بمكايد الغارات والحِصار، ومُثابرةٌ يقتدر بها على فتح أبواب المنافع وسدّ أبواب المضارّ؛ ولكَ من البصيرة الجامعه، والألمعيّة اللّامعه، ماأنت به جديرٌ أن تكونَ لك الذِّكرى نافعه؛ فاعلَمْ هذا وآعمَلْ به؛ إن شاء الله تعالى.

النـــوع الثـانى

(ممـا كانـ يكتب فى الدولة الفاطمية بالديار المصرية ما كان يكتب عن الوزير)

وقد علمتَ فى الكلام على "المسالك والممالك" أنّ الوزير إذ ذاك كان فى منزلة السلطان الآنَ، وكان الشأنُ فيما يكتب فيه أن يفتتح بمـا يفتتح به المذهبُ الثالث(١) ممـا كانـ يكتَب عن الخليفة . وهو أن يفتتح مايكتب بلفظ : « إنّ أَوْلى » أو « إنّ أحقّ » أو « إنّ أجْدر » أو « إنّ أقمَن » أو « من حسُنَتْ طريقتُـه » أو «مَنْ كان متّصفا بكذا كان خليقًا بكذا» و « بلَمّـا كان فلان» أو «لمّـا كنت» على نحو ماتقدّم .

ثم مايُكتب عن الوزير : تارةً يكتَب بأمر الخليفة ، وتارةً يصـدُر عن الوزير آستقلالا، فيبينه الكاتبُ فى كتابته . وهى : إما لصاحب سيف، أو قلم .

فمن المكتتب عن الوزير فى الدولة الفاطمية لأصحاب السُّيوف نسخةُ سِجل بولاية الاسكندرية من إنشاء القاضى الفاضل رحمه الله، وهى :

مَنْ عُدّ من الأولياء الأماثِل، ووُجِد عندَ الآستقادِ قليلَ المُماثِل، وتوسّل بالحسَنات التى يُقْبل عنـده منها تشفيعُ الوَسَائل، وتُقبل السفارةُ له الشاملةُ الاستحقاقِ الذى يُغْنى عن المَسائل، ولطُف فكرُه لاَقتناء الشِّيَم الموجبة لآرتقاء الدرجات الجلائل، وألقت الرُّتَب قِناعَها له عنـدَ الكُفْء الذى يُقـدِّم لهـا أفضـلَ مُهُور الحلائل، وأسفرت مواقفُ الغَناء منه عن الهِزَبْر الشهم واللَّوذعىّ الحُلاحل، وأفرج له الكُفَاة

(١) لعل الصواب « المذهب الرابع » .

عن صدور المنازل الرفيعة فلم يكُنْ بينَه وبينَها حائل ، وآستقلّ بعظيم ما يُفوّض إليه فلم تحمل الأقوامُ ماهو حامل ، وآتّسع مجال كفايتِه فى كلّ أمرٍ يضيق بالمُباشر ضيقَ كفّة الحابل ، وتتبّع آثارَ الخلَل بعزماته تتبّع الغيث آثار الدّيار المَواحل ـ كانت الولاياتُ الجليلاتُ له من المُعَدّ المدّخر ، وقرّبتْ عليه منازلَ الآثار التى يُجمّل بها ويُفتخر .

ولما كان الأميرُ جامعًا لما أُفيض فيه من هذه الصّفه ، وموصُوفا بها من كلّ لسانٍ صادقٍ ونيةٍ منصفه ، جارية على غيره مجرى النكرة ومستندةً إليه آستناد المَعرفه ، مشتملًا على خلال كغرائبِ المكارمِ مستوفيةٍ متألّفه ، كلِفًا بالشّيَم الحميدة إذا آفتضحتْ بها الشّيمُ المتكلّفه ، قمِنًا أن يُوقّ فيُقرض سعْيَه إذا آقترضت المَساعى المتسلّفه ، نهّاضا بالمَصاعب عند ماتختلف فى إعطائها العزائمُ المتخلّفه ، آويًا من رجاحته إلى المَعقل الحريز والحصن الحصين ، حاويًا لفضائلَ حسنةٍ منها الفتْك الجرىّ والرأىُ الرّصين ، مُقدما على الأهوال إذا تنقّبت وُجُوهها غبرا ، مُصرًا على الخطَرات حتى يظُنّه الغُمْر غُمرا ، مصافحاً للرماح ، إذا بدَتْ أناملُ الأسنّه ، مباشرا للصّفاح ، إذا ذُعِرتْ لها النفسُ المطمئنّه ، جديرًا أن يَرُدّ الخيلَ المُغيرة تَدْمىَ نحورُها ، وتمدَحَك وتذُمّها الجراح التى آشتملت عليها ظهُورُها ، وسمّا للأعداء سيوفُك فعندك غُمودُها وفيهم صدُورُها ـ رأينا بما آتاه الله من رأى لايستأخِرُ أن يَستخير ، ونظرٍ يستمرّ أن يَمتاحَ من موارد الرّشاد ويستَنير ، ما خرجَ به أمرُنا من ولايتك لثغر الإسكندرية بعد أن طالعْنا مولانا صلواتُ الله عليه بما رأينا ، وآسترشدْنا بيَامِن إمضائه ماأمضيْنا ، وفاوَضْناه فيما فوّضناه إليك وأفضيْنا ، وقضيْنا حقّ الخدمة فيما آستمطرْنا من صَوْب وآقتضينا ؛ إذ كان الله قد خصّ خلالَه بمُواتاة الأقدار ، ووقفَ المَيامنَ على ما يُمضيه ويُوقفه من أعنّة الإيراد والإصدار ، وجعل الخِيَرة فيما

يختار، والحقّ دائرًا حيثُ دار، وأخلص للأولياء المستشعرين بولائه بخالصة ذكرى الدار، وجعل رأيه قُطْبا فى سماء الخلافة عليه فى مصالح خلق الله المدار؛ فصحّح ماعرضناه على مقام خلافته وصوّبه، وناجَتْه بديهةُ الإلهام بما أغنته عمّا صعّد فيه المستشيرُ وصوّبه؛ وخرج الينا بأن يعضى لك هذا الأمر، ويفوّض إليك هذا الثغر.

فلتقابلْ هذه النعمة بشكرٍ يوجب آستيفاءَ باقيها، وآعتدادٍ يمهّد درجاتِ مَراقيها، متنجّزا وعدَ الله لمستوفيه بإيلاء المزيد، الجدير باحالته من حالة التقليد إلى حالة التخليد؛ جاعلا تقوى الله حجتَه فيما يقطَعُه ويَصله، وعمدتَه فيما يمنعُه ويبذُله. قال الله سبحانه فى كتابه الذى فضله على كل كتاب: ﴿ وتزوّدوا فإنّ خيرَ الزّادِ التقوى وآتّقون يأولى الألباب ﴾. ولا تجعلْ فى حُكْمك بين الخُصَماء فرقا وإن عدل أحدهما؛ وليكن على الحق الذى لا مُفاضلةَ فيه مَقعدُهما عندك وموْردُهما؛ وآنتصِف للظلومِ من الظالم، وآعملْ فى ذلك عملَ من لا تأخُذه فى الله لومةُ لائم؛ وأمِر الجنود متحرّيا، وأمضها إمضاءَ من لا يزالُ بعين طاعة الله متحلّيا؛ وتفقّدها غير مُكْثِرٍ ولا مُقِلّ، فإن المكْثِر متعدّ والمُقِلّ مُخِلّ.

وقد علمتَ ما للقاضى من التقْدمة الشهيره، والرُّتبة الأثيره؛ والمَساعى التى هى بالسنة الحمدِ مأثوره، والأقوال التى هى فى صحائف حُسْن الذكر مسطُوره؛ والحُرُمات التى شهدتْ بها الأيامُ والليالى، والموَاتّ التى آنتظمت فى سُلوك التصرّفاتِ آنتظامَ اللآلى؛ والصّفات التى زهَتْ بها أجيادُ المحامد الحَوالى؛ وله الخِبْرة بقوانين هذا الثغر وأحكامه، والعادةُ التى لا خلافَ أنها لمصالح مايُباشره وأحكامه، وأنتَ مقدّم أرباب السيوف فى الثّغر وهو مقدّمُ أرباب أقلامه؛ فآعرف له منزلتَه

فى الخدم المنوطة بكفالته ، والأمور المحوطة بإيالته ، ووفّه من أثر الإكبار حقّه ، ويسّر فيما اشتدّ عليه من معونتك طرقه ، وأعن الداعى على ماهو بسبيله من الإرشاد ، وقم فى إعلاء مناره قيام المغرم الشاد .

والأموال أولى ما صرفت إليها همّك ، ووقفت عليها عزمك ؛ فاستنهض المستخدمين فيما يُستادى ، ولا تمكّنهم أن يحدثوا رسما ولا يُسقطوا معتادا ، ولا بدّ من المقام بظاهر البحر مدّة آنفتاحه ، وتفقّد الأسطول المقيم بالميناء تفقّدا يستوعب أسباب إصلاحه ، وأذك العيون على سواحله فلم يخلُ أمر العدوّ من طارق ليل وخاطف نهار ، وذُدْهم عن بغتات هجومهم بما يبلّغهم عنك من دوام التيقّظ والآستظهار ، وآستنهض الرجال فى نوائب الخدم وحوادثها ، وصرّفهم على موجبات المتجدّدات وبواعثها .

وهذا الثغر فيه من أرباب الزّوايا العاكفين على العبادات ، والعلماء الداعين الناس إلى الإفادات ، من لايدّخر الإكرام إلا لأن يؤدّى إلى آستحقاقهم ، ولا يُصان المال إلا لأن يُبذل لآستحقاقهم (١) ؛ فأوصل إليهم ماهو مقرّر لهم إيصالا هنيًّا ، وأعفهم من مئونة الهزّ وساقط عليهم رُطبا جنيًّا ، وآستنهض لنا دعواتهم فإنها أسهم الأسحار ، وآستخلص لنا نيّاتهم فهم لنا جُند الليل وغيرهم لنا جُند النهار ، والسلام .

⁂

ومن ذلك نسخة سجلّ بحماية الرّباع ، وهى :

مَنْ كان فيما يتولّاه مشكورَ السعى محمودَ الأثر ، مستعملا من النصح وبذل الجهد ما يزيد الخُبْر فيه على طيّب الخبر ، معتمدا ما يدلّ على دراية وخبرة ودُرْبة ، متوخّيا

---

(١) لعله لاستيجابهم .

ما يحصل الخدم إذا ماردت إليه لم تحل في دار غربه ـ آستحق أن يورى زنده، ويرهف حده، وتقوى منته، وتشحذ قريحته .

ولما كنت أيها الأمير ممن عرف نفاذه وأحمدت خلاله ، وشكرت طرائقه وآرتضيت أفعاله ، وظهر فيما باشره غناؤه وآستقلاله ، وجمع إلى الكفاية نزاهه ، وإلى الأمانة نباهه ، وإلى اليقظة عفافا وسدادا ، وإلى النهضة حزامة لايجد الطالب عليها مستزادا ـ تقدم فى مولانا وسيدنا باستخدامك فى حماية الرباع السلطانية بالمعزية القاهرة المحروسة : سكونا إلى جدك وتشميرك ، وتعويلا على تأتيك وتدبيرك ؛ فاستخر الله وباشر ماردّ إليك من هذه الحماية بعزم لا يمازجه فتور ، وحزم لايصاحبه قصور ، وآكشف أحوال هذه الرباع كشفا يعرف به حالها ، ويعلم منه آستقامتها وآختلالها ، وآنتصب لآستخراج مالها من السكان ، وآستعمل فى آستيدائه غاية الآستطاعة والإمكان .

وملاك الأمر فيها أن تتعهدها بالطواف فيها ، وأن تحافظ على حراسة غيرها ، وتناول أجرها ، ورم مالعله يسترم منها ويتشعث ، والعكوف على ذلك بحيث لايتوقف فيه أمر ولا يتريث ، وحمل مال آرتفاعها إلى بيت المال المعمور بعد مايصرف فى مصالحها ، ويطلق فيما يثبت به عليها ؛ ولك من الأمير من يعينك ويحمدك ، ويلبى دعوتك ويعضدك ، ويظافرك على آنتظام شئونك ومقصدك : من الآشتمال بما يزيد على تأميلك ، فآجعل عليه آعتمادك ، وبه فى الحل والعقد آسترشادك ؛ فاعلم هذا وآعمل به ، إن شاء الله تعالى .

❖

ومن الوظائف المكتتبة عن الوزير لأرباب الوظائف الدينية نسخة سجل بالحكم بقوص ومشارفة أعمال الصعيد، وهى :

من تقدمت لأسلافه خدم ومناصحات، وكانوا مشهورين بأن طرائقهم فى السداد مستقيمات واضحات، وعرف جميعهم بالصيانة والديانه، والثقة والأمانه، والمحافظة على مايحظيهم عند ولى نعمتهم، والعمل بما يقضى بطيب ذكرهم وحسن سمعتهم، كان ذلك ذريعة له ووسيله، ومادة ينال بها المواهب الجزيله .

ولما كنت أيها القاضى على القضية المرضية من ولاء الدولة وطاعتها، والحرص على الإخلاص لها ومشايعتها، والتحلى بالعلم والتمييز فى أربابه ، والتعلق بفضل الخير والتمسك بأسبابه ، والعمل بما ينفعك فى عاجلتك وآجلتك، والاجتهاد فيما يبعث على وفور حظك من الإنعام وزيادتك ، وكانت لك دربة فيما تعانيه ودرايه ، وصوله فى حسن التأتى إلى أمد بعيد وغايه ،وقد تقدمت لأخيك القاضى الرشيد ـ رحمه الله ـ خدمة أبانت عن حرصه ومناصحته ، وأعربت عن وفور نصيبه من النهى ورجاحته ؛ فأدى ذلك إلى بلوغه من رتب أمثاله أقصاها ، وإلى أن استقرت خدمه عليه وألقت عنده عصاها ؛ وهذه نصيبك إذا اقتفيتها فقد عرفت مقضاها ، وإذا حكمت عليها نالك من الإحسان على حسبها ومقتضاها ـ تقدم فى مولانا وسيدنا باستخدامك فى النيابة فى الحكم بمدينة قوص والمشارفة بأعمال الصعيد الأعلى : تنويها بك وتكريما لك ، وتمهيدا لمكان الاصطناع الذى رتبك فيه وأحلك ؛ فاعرف قدر هذه النعمه ، وقابلها ببذل الطاقة فى النصح فى الخدمه ، وبالغ فى الشكر الذى يثبتها عندك ويديمها لك ، واحرص على القيام بحقها حرصا تبذ به

نظرائك وأمثـالك، وآعمل فى ذلك بمـا تضمنه التقليـد المكتتب لك من مجلس القاضى الأعز المـاجد أدام الله تمكينه، وما أودعه من وصايا مُرْشدَه، وهدايات إلى الصـواب مُقرِّبهُ وعن الخطإ مُبعِـدَه؛ وآفعـلْ فى أمر المشارفـة ما آشتملت عليـه التذكرة المعمولةُ من الديوان فإنه يُوضِّح لك مَنْهج الصـلاح، ويأتيك منـه بمـا يَزِيد على البغيـة والاقتراح؛ وآنتصب للعمارة والاستكثار من الزراعة بالمَعْدَلة على المُعامَلين، والاستخراج لحقوق بيت المـال على أحسن القوانين؛ وواصـلْ من الحُوَل، ما يكونـ محققا للظنون فيـك والمأمول؛ فآعلمْ هـذا وآعمل به، إن شاء الله عز وجل.

* * *

ومن ذلك نسخة سجل بالنيابة فى الحكم والأحباس والحوالى بثغر دمياط، وهى:

أحقُّ من كانت المواهبُ عنـده مُخلَّده، والمنـائحُ إليه متواصـلةً متجدِّده؛ والعوارفُ تَفِدُ عليـه فتُخيِّم فى مَغْناه وتُقيم، والفواضلُ تأتى نحوه فتستقر فى مثواه ولا تَرِيم؛ والنِّعمُ الشَّتى لا تشكو فى مَواطِنـه آستيحاشا ولا آغترابا، والمِنَنُ إذا حُبِيَ بها كان نَيلُه لها آستحقاقا منه لها وآستيجابا ـ من كرُمتْ أعراقُه ومَحاتِدُه، وشُهِرت أوصافُه ومحامدُه؛ وصفَتْ فى المخـالصة مصادرُه ومواردُه، وكثُرت فى تقريظـه غرائبُ الثَّناء وشواردُه؛ وشيَّد مَنار أسلافه بالتخلُّق بخلائقهم، وأبقى الحديثَ عنهم بانتهـاج سُبُلهم وطرائقهم؛ وأحسن بِرَّهم، فى الاقتفاء لأثرهم والاقتـداء بهَدْيهم، وإحياء ذِكْرهم، بالعمل بمـا كانوا عليه فى عَوْدهم وبَدْئهم.

ولمـا كنتَ أيهـا القاضى لهذه الخلال جامعا، وإلى المَراشـد مُصْغِيا سامعا، ولبُلُوغ ماناله أسـلافُك بالمناصحات راجيـا طامعا؛ ولك فيما يُسـنَد إليك نظرٌ يدُل

علىٰ صـواب آرائك ، وفيما يُرَدُّ إلىٰ توليك كفايةٌ تميّزك علىٰ نُظرائك ؛ ولمّا نُدبت للأحكام الشرعية ، أبنتَ عن الديانة والألمعيّه ؛ وحين باشرتَ الأعمالَ الدّيوانيّهْ ، نصحْتَ وآجتهدْتَ وأخلصْتَ النّيه ؛ والذى بيَدك يتمسّك بك ، ويتعلّق بسببك ؛ لأنك لما آستُكفِيته نهضتَ وأحسنْتَ ، فلذلك يأبىٰ أن يُكَلّفـه غيرُك وأن لا يتكفّله إلا أنت ـ تقدّم فتىٰ مولانا وسيدنا بكتب هذا المنشور بتجديد نظَرك فيما هو بيَدك من النيابة فى الحكم العزيز بثغر دمياط ـ حماه الله تعالىٰ ـ والمشارفة علىٰ الأحباس به ، وعلىٰ مستخرَج الجَوالى فيـه ، تقويةً لعزْمك ، وإمضاءً لحُكْمك ، وشـدًّا لأزْرك ، وتأكيدًا لأمْرك ، وإنفاذًا لقولك ، وبَسْـطا ليَدك ، وإيضـاحًا لميزتك ، وإظهارا لتكرِمتك ، وإبانةً عن حسن النّية وإعرابًا عن جميل الرأى فيك ؛ فاجرِ علىٰ رَسْمك وعادتك ، وآستغنِ بما أُودعتَه تقاليدُك من الوصايا ، وآستمرّ علىٰ نَهجك الذى أفضىٰ بك إلىٰ أحمد الأفعال وأجمل القضَايا ؛ وآرتبط النعمة عنـدك بجَاريك علىٰ عادتك ، وتوسّـل بمشكور السعْى إلىٰ نموّ حظّك ووُفُور زيادتك ؛ فاعلمْ هذا وآعملْ به ، إن شاء الله عز وجل .

⁂

ومن ذلك نسخة سجل بالحكم بالأعمال الغربية ، وهى :

مَنْ كان بالعلوم الدينيّة قَـوّما ، وفى الأمور الشرعيّة ممّن يشار إليه ويُومىٰ ، وظَلّ مَنْ يجاريه من طبقته قليلًا إذا لم يكُنْ معدُوما ؛ وعُلِم نفاذُه الذى سَلِم من المناقضة فيـه والآختلاف ، وعُرِف آعتمادُه الواجبُ من غير مَيْل عنه ولا آنحراف ؛ وكان لشَمل الديانة والأمانةِ مؤلّفا جامعا ، وغدَا الوصفُ بجميل الخلال وحميد الأفعـال عنـه مسمُوعًا ذائعا ؛ وآثارُه فى كل ما يتولّاه مُدّاحُه وخُطباؤُه ، وسفراؤُه فى الرُّتب

الجليلة نزاهتُه وظَلَفُ نفسه وإباؤه ـ صارت الأحكام بنظره مَنْزهُوه، وأضحت الخِدَم الخطيرةُ تتوقّع بإسنادها إليه آستظهارًا وقوّه ؛ فهي تتشوّف إلى أن يُوليها حظًّا من محاسنِه يُكسِبها نَضْرة وبهاء ، وتتصدّى من نظره فيها لما يضمَن لها إدراكا للإرادة وبلوغًا إليها وآنتهاء .

ولما كنتَ أيها القاضي حائزًا لهذه الصّفات ، محيطًا بما آشتملتْ عليه من الأدوات ، سالكًا أعدلَ طريقٍ في الأمور إذا أشكلَتْ ، عاملًا بقضايا الواجب إذا آعتمدت الإقبالَ عليك وآتكلتْ ، ولك الخِدمة السنيه ، التي لا تطمَح إليها كل أُمنيه ، والرتبُ الرفيعةُ التي لا ينالُها إلّا مَنْ كان عمله موافقا لصادق النيّه ؛ وكلُّ ما تباشره يغتبِط بك ويأسى على فراقك ، وكلُّ ما حُظِر على غيرك مباحٌ لك لإستيجابك له وآستحقاقك ؛ فمن العدل أن تكونَ كفايتُك على الأعمال مقسّمه ، وأن تكونَ آثارُك في كل ماتُعانيه من أمور المملكة علامةً لك عليها وسِمَه ؛ وكانت الخدمةُ في الحكم بالغربية من التصرفات الوافيةِ المِقدار، الساميةِ الأخطار؛ التي لايسمُو كلُّ آملٍ إليها، ولايحدّثُ كلُّ أحد نفسَه بتوليها؛ وقد آشتهرت خُبْرتُك بالأحكام، وحفظُك فيها للنّظام؛ وبتُّك للقضَص المشكِله، ورفعُك للنُّوَب المُعضِله ـ فرأينا آستخدامَك نائبًا عن القاضي الأعزّ الماجدِ في الصّلاة والخَطابة والقضاء بالأعمال الغربية المقدّم ذكرُها : إذ كنت تعدِل في أحكامك، ولا تخرُج عن قضايا الصواب في نقضك وإبرامك ؛ ولا تُحابي في الحق ذا منْزِله، ولا تنفكّ معتمِدًا مايقضي لك بالمزيّة المتأكّدة والرتبة المتأثّله ؛ وأمرنا بكَتْب هذا المسطور شدًّا لأزرِك ، وتشييدًا لأمرِك ، وإبراءً لزَنْدك وتقويةً لعزمك ؛ وضمَّنّاه ماتقدّم ذكره من وصفك وشُكرك ، وتقريظك وإجمال ذِكْرك ، والثناءِ على علمك ، والإبانةِ عن قضيّتك في قضائك وحكْمك .

فاعمل بما اشتمل عليه التقليدُ المكتتَب لك من مجلس الحكم العزيز وآنتـه إلى ما أودع من فُصُوله، وكنْ عاملاً بمضمونه متّبعا لدليله؛ والله يوفّقك ويُرشـدُك، ويعينك ويُسدّدك؛ فاعلم هذا وآعمل به، إن شاء الله عز وجل .

* * *

ومن ذلك نسخة سجل بالحكم والمشارفة بثغر عَسْقلانَ من سواحل الشام، وهي :

الذى منَحنا الله من المفاخر الدالّة على محلّنا عنده، والمآثر التى أوصلتنا بها من الشرف إلى أمد لاغاية بعـده؛ والقضايا العادلة التى أبانتْ عما أجراه الله لنا من اللطائف، والسياسة الفاضلة التى تشهدُ لنا ببياض الصحائف، قد ضاعَف حظّنا من التأييد فيما نَراه ونُمضيه، وضمن لنا الهداية فى حق الله تعالى إلى ما يُرْضيه؛ وأجزل قسْطَنا من التوفيق فى آجتباء من نجْتبيه، وحبّب لنا إسْناءَ المواهب لمن كان قليلَ النظير والشّبيه؛ ووقَف آهتمامنا على التنبيه(؟) على كلِّ مشكور المساعى، وصَرَف آعْتزامنا إلى التفقُّد للقاصد التى هى على الاصطفاء من أقوى الدّواعى؛ ووفّر آلتفاتنا إلى تأمُّل الإخلاص الذى صفَتْ مواردُه، وصحّت سرائره، وأُحكمت معاقده، وأُحْصدت مرائرُه؛ وتوكّل لصاحبه فى بلوغ المطالب البعيدة المَطارح، وتكفّل لمن وُفّق له فى سُبُوغ العوارف الُخصبة المَسارح؛ وجعلنا لا نغفُل عن بذل فى الطاعة مُهجتَه، وأظهر بدُنُوبه وآنتصابه دليلَه على الولاء المحض وحُجّته؛ وأبان عن تقواه وحُسْن إيمانه، وتقرّب باستفراغ وُسْعه إلى الله تعالى وإلى سلطانه؛ وعمل فيما آؤتُمِن عليه ما آستوجَبَ به جزيلَ الأجر، وكان له من رأيه فى أعداء المِلّة مايقُوم مَقامَ العسكر الجَرّ؛ وعلم أنّ تجارته فى المخالصة نافقةٌ مُرْبِحه، وأن مراميَه فى المناصحة صائبةٌ مُنْجِحه؛ وتيقّن أنا بحمد الله لانُخيّب أملا، ولانُضيع أجرَ مَنْ أحسَنَ عملا .

ولـما كنت أيهـا القاضي المكين المرتضى ثقةُ الإمام جلالُ الملك وعمادُه ذو المعالى صفىُّ أمير المؤمنين، مستوليًا على هذه الخلال، التي تكفّلتْ لك بإعلاء القـدْر، ومحتويًا على هذه الخصال، التي رتّبتك على نظرائك فى الصّدر ؛ ولك من الحرمات سوابقُ لايُطمَع فيها بلَحاقك ، ومن المواتّ شوافعُ تجعل جَسائِمَ النعم وَقْفا لاستحقاقك ؛ وقد عُرِفتَ بالجِد والتشمير ، وآشتهرْتَ بصادق العزْم وصائب التدبير، وجُعلتَ مؤهَّلا لكل أمر خطير ومُهِمّ كبير ، واستقرّ أنك إذا آستُكْفيت جسيما فقد وُكِّل منك إلى الأمين الخبير : لأنّ لك الرياسةَ التي لا تُجارَى فيها ولا تُبارَى ، والكِفايةَ التي لايُختلَف فيها ولا يُتمارَى ، والفضائلَ التي تشهد بها أعداؤك وحُسّادُك آضطِرارا ، وما زالتْ أفعالكَ فى كل ماتتولّاه من الخِدَم الجليلة دالّةً على كَرَم طِباعك ، وآثارُك معربةً عن سَعة ذَرْعك فى الخير وآمتدادِ باعك ، وأخبارُك ناطقةً بإبائك عن الباطل وآقتفائك للحقّ وآتّباعك ؛ ولـما نظرتَ فى القضاء تهلّل بنظَرك وجهُ الشرع ، وأبنْتَ عن اضطلاعك من علمه بالأصل والفَرْع ؛ وعدَلْتَ فى أحكامك ، ولم تعدِل عن الواجب فى نَقضك وإبرامك ؛ وفعلتَ ما أقرّ عينَ المِلّة ، وأربَيْتَ على مَنْ تقدّمك من القُضاة الجِلّه ، وآعتمدتَ من الإنصاف ماَبرّدْت به الغُلّة وأزَحْت به كلّ عِلّه ؛ ووفّيتَ هذه الخدمةَ جميعَ شروطها ، وفسّحْت فى توليك أمانيَّ المظلومين بعد ضيقها وقُنُوطها ؛ وقمتَ فى ذلك المقامَ الذى يقضى بثُبوت النعمة عندك وخلُودها ، وبالغتَ فى آرتباطها بالشُّكر لعلمك أن شُرودَها بكُنُودها . فأما الإشراف فإنك أتيتَ فيه مادلّ على حُسْن المعرفه ، وآستقبلْتَ فى وجْهه كل صِفه ؛ وأوضح أنّ كلّ مَنْ باشَره لم يَبْلُغْ مَدَاك ، ولا جرى مَجْراك ؛ ولاوصلَ إلى غايتك ، بل ماطَمِع بمُداناتك ولامُقاربَتك ؛ وكلّ ماعُدِق بكفايتك فقد أتيتَ بحمد الله فيه على الأغراض ، لاجَرم أنه مستدْعٍ لزيادتك ومطالبٌ ومتقاضٍ ؛

فحين اجتمعت لك هذه الأسبابُ استوجبتَ من إنعامنا ما يتنزّه كرمُنا عن تعويقه، ومن جزيل إحساننا ما يكون تعجيلُه حقًّا من حقوقه؛ فشرّفناك بتجديد ما هو بيدك من الحكم العزيز والمشارفة بثغر عسقلانَ حماه الله تعالى، وجعلنا النيابةَ فى الحكم عنا تنويهًا بك ورفعًا لشانك، وتبيينًا لموضعك عندنا ومكينِ مكانك .

فاعمل بتقوى الله التى أمر بها فى كتابه الذى به يهتدى المؤمنون فقال عزّ من قائل : ﴿ يا أيُّها الَّذينَ آمنوا اتقوا اللهَ ولتنظرْ نفسٌ ما قدمتْ لغدٍ واتَّقوا اللهَ إنَّ اللهَ خبيرٌ بما تعملون ﴾ . واجرِ على عادتك فيما حسّن أثرك ، وأطاب خبرَك، معتمدا على ما تضمّنته عهودُك، واشتملتْ عليه تقاليدُك : من المساواة بين القوىّ والضعيف فى الحقّ ، وإجراء الشريف والمشروف فى المحاكمة مجرًى واحدا من غير فرْق ؛ والنظرِ فيمن قِبَلك من الشهود ، وحملِهم على القانون المألوف المعْهود : من إقرار مَنْ ترتضيه ، والمطالعةِ بحالِ من تأباه لما توجبه طريقتُه وتقتضيه ؛ والمحافظة على أن لا يتعلّق بشىء من أمور الحكْم إلا مَنْ أُحمِد فعله ، وحصل له من التزكية ما يُزكّى به مثلُه ؛ إلى غير ذلك مما أُودع فيها ، وأحاطتْ بها الوصايا التى لم يزل يستوعبُها ويستوفيها .

واستقِمْ على سبيلك فى ضبْط المال وحفْظه وصَوْنه ، واستعِنْ على بلوغ المرادِ فى ذلك بتأييد الله وتوفيقه وعَوْنه ؛ وتمادَ على سُنّتك فى النظر فى أحوال الثغر المحروس والانتصاب لمصالحه ، والتوفّر على منافعه، والاجتهاد فى الجهاد بآرائك ، والاستمرار فى ذلك على سَديد أنحائك ، والله ولىّ عونك وإرشادك ، والمانُّ بتبليغك فيما أنت فيه أقصى مُرادك؛ فاعلم هذا واعمل به ؛ إن شاء الله تعالى .

⁂

ومن ذلك نسخة سجل بتدريس ، وهى :

أميرُ المؤمنين لمـا منَحه الله من الخصائِص التى جملته لدينــه حافظا ، ولمصالح أمور المسلمين مُلاحِظا ، ولما عادَ بشُمُول المنافع لهم موازرا ، وبما أحْظاهم عنده تبارك وتعالى مُعينا وعليه مُثابِرا ، لايزال يُوليهم إحسانا وفضلا ومَنًّا ، ويُسْبِغ عليهم إنعاما لم يزل تسم (؟) هممهم إلى أن تتمنّى ؛ وقد يسّر الله تعالى لخلافته ودولتــه ، ووهَبَ لإمامته ومملكته ، من السيد الأجل الأفضـــل ، أكرَمَ ولىّ ضاعف تقواه وإيمانَه ، وأكملَ صفىّ وقفَ آهتمامَه وآعتزامَه على مايُرضِــيه سبحانه ؛ وأعدلَ وزير لم يرضَ فى تدبير الكافّة بدُون الرتبة العُليــا ، وأفضــلَ ظهيرٍ آبتغى فيما آتاه اللهُ الدارَ الآخرةَ ولم ينْس نَصيبَه من الدُّنيا ، فهو يُظافرُ أميرَ المؤمنــين على ماعمّ صلاحُه عمومَ الهواء ، ويفاوضُ حضرتَه فيما يستخلص الضمائرَ بمـا يرفَع فيه من صالح الدعاء .

ولمـا آنتهى إلى أمير المؤمنين مِيزةُ ثغر الإسكندرية ــ حماه الله تعالى ــ على غيره من الثُّغور ، فإنه خليقٌ بعناية تامة لاتزال تُنْجِد عنده وتَغُور ؛ لأنه من أوْقى الحصُون والمَعاقل ، والحديثُ عن فضله وخطير محلّه لاتهمة فيه للراوى والناقل ؛ وهو يشتمل على القُرّاء والفقهاء ، والمرابطين والصُّلَحاء ؛ وأن طالبى العلم من أهله ومن الواردين إليه ، والطارئين عليه ، متشتّتو الشَّمْل ، متفرّقو الجمع ــ أبى أمير المؤمنين أن يكونُوا حائرين متلدّدين ، ولم يرضَ لهم أن يبقَوْا مذبذَبين متبدّدين ؛ وخرجتْ أوامرُه بإنشاء المدرسة الحافظيّة بهذا الثغر المحروس بشارع المَحَجّة منًّا عليهم وإنعاما ، ومستقَرًّا لهم ومُقَاما ؛ ومثوًى لجميعهم ووطَنــا ، ومحلًّا لكافّتهم وسَكَنا ؛ فجدّد الســيد الأجل الأفضل أدام الله قدرتَه الرغبةَ إلى أمير المؤمنين فى أن يكونَ مايَنْصَرِف إلى مَئُونة

كل منهم والقيام بأوده، وإعانته على ماهو بسبيله وبصدده: من عين وغلة، مطلقا من ديوانه، واسترفد أمير المؤمنين المثوبة فى ذلك فأجابه جريا على عادة إحسانه؛ واستقرت التقدمة فى هذه المدرسة لك أيها الفقيه الرشيد جمال الفقهاء أبوالطاهر: لنفاذك واطلاعك، وقوتك فى الفقه واستضلاعك؛ ولأنك الصدر فى علوم الشريعه، والحال منها فى المنزلة الرفيعه؛ والمشتغل الذى اجتمع له الأصول والفروع، ومن إذا اختلف فى المسائل والنوازل كان إليه فيها الرجوع؛ هذا مع ماأنت عليه من الورع والتقى، وأن مجاريك لايكون إلا ناكصا على عقبه مخفقا؛ وأمر أمير المؤمنين أن تدرس علوم الشريعة للراغبين، وتعلم ماعلمك الله إياه لمن يريد ذلك من المؤثرين والطالبين؛ وخرج أمره بكتب هذا المنشور بذلك شدا لأزرك، وتقوية لأمرك ورفعا لذكرك .

فأخلص فى طاعة الله سرا وجهرا، فإنه تعالى يقول فى كتابه: ﴿ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجرا﴾ . واعتمد توزيع المطلق عليهم، وتقسيمه فيهم على حسب مايؤدى اجتهادك إليه، ويوقفك نظرك عليه؛ وقرب من ارتضيت طريقته، وأبعد من أنكرت قضيته؛ فقد وكل ذلك إليك، وعدق بك من غير اعتراض فيه عليك؛ فمن قرأه أو قرئ عليه من الأمير المظفر والقاضى المكين ـ أدام الله تأييدهما ـ وكافة الحماة والمتصرفين، والعمال والمستخدمين؛ فليعتمد رعاية المدرسة المذكورة ومن احتوت عليه من الطلبة وإعزازهم، والاشتمال عليهم، والاهتمام بمصالحهم، والتوخى على منافعهم؛ وليتل هذا المنشور على الكافة بالمسجد الجامع، وليخلد بهذه المدرسة حجة بما تضمنه، إن شاء الله عز وجل .

* * *

ومن ذلك سجل بولاية الحِسْبة من إنشاء القاضي الفاضل، وهي :

مَنْ شُكرت خلائقُه ، وتهـذّبت طرائقُه ، وأُمِنَتْ فيما يتولاه بوائقُـه ، ونيطت بعُرىٰ الصواب علائقُه ، وفُرِجت بسَدَاده مسالكُ الإشكال ومَضايقُه ، وآستحْوىٰ من الأمانة قريناً فى التصرفات يُرافِقُه ولا يُفارِقه ، ونهض إلىٰ الاستحقاق ولم تَعُقْه دونه عوائقُه ، وأثنىٰ عليه لسانُ الاختبار وهو صحيح القول صادقُه ـ استوجبَ أن يُخَصَّ من كل قول بأجمله ، وأن يُعانَ علىٰ نَيْـل رجائه وبلوغ أمَلِه ، وأن يُقتَدح زَنْدُ نيّته ليُرِىَ نورُ عمـله ، وتُيَسَّر إلىٰ النجاح متوعِّرات طُرُقه ومشكلاتُ سُـبُله ، وأن يقابل جَرَيانُه فى الولاية قبـله فيظهرَ عليه أثرُ الإحسان فيكون الشكرُ من قِبَل الإحسان لامن قِبَله ، ويُورَدَ من موارد النجح مايتكفّل له بالرىّ من غُلّته ، ويُوسَم من مَيَاسِم الاصطناع مايكون حليةَ أوصالِه ويشفَعُ سَداد خِلالِه فى سَدّ خَلّته .

ولـمّا كنت أيها الشيخُ المشتملَ علىٰ ما تقدّم ذكره، المستكملَ مِنَ الوصف مايجبُ شكرُه ، الآوِىَ إلىٰ حِرْز من الصيانة حَريز، المستغنِىَ بقناعته عن الاستظهار بعِزْوة العزيز[1]، المستوجبَ إلىٰ أن يُعَدّ من أهل التمييز لأنه من أهل التمييز، المستوعِبَ من الخلال الجميلة مالايقتضيه القولُ الوجيز، المخرَجَ من قضايا الدَّنايا فـما يستبيحُ عزمُها ولايستجيز، الممدّح فى خِدَم كلِّها أخلصته خَلاص الذهب الإبريز، وكانت له مضمارًا تشهَدُ له أفعاله [فيهـا] بالسبق والتبريز، المتوسّلَ بأمانة عزَّبهـا جنابُه عن الشُّبهة ووِجدانُها فى الناس عزيز ـ تقدّم فتىٰ مولانا السيد الأجل باستخدامك علىٰ

---

(١) العزوة بالكسر الاعتزاء . أى انه غنىّ بنفسه عن الاستظهار بالاعتزاء الى أحد . وفى الأصل بعروة بالاهمال . تأمل .

الحِسْبة بمدينة كذا : فباشر أمرَها مباشرةَ من يبذُل فى التقوىٰ جُهْدا ، فلا يرىٰ غيرها علىٰ ظَمَإٍ وِرْدا ، ولا يراه الله حيثُ نهاه ، ولا يأمُره أبدا ويَنْهاه إلا نَهَاه ، ولا يرىٰ ما كشَفَه إلا وهو عالمٌ أنّ الله يراه ، وٱنْتَهِ فيها إلىٰ ماينتهى إليه من بذَلَ غايةَ وُسْعه ، ومن لا يرتدُّ عن جرِّ كيده من عموم نَفْعه ، ومن يدُلّ بتهذيب طباع الناس علىٰ طهارة طَبْعه ، ومن يستَجْزِل حسْنَ صنيع الله لديْه بحُسْن صُنْعه ، ومن يستدْعى منه بذْلَ فضلِه بحَظْر ماأُمِر بحَظْره ومَنْعه . وٱسلُكْ فيما تستعمله من أمرها المَذْهَب القَصْد والمَنْهَج الأقوم ، وٱجتهِدْ فيها ٱجتهادَ معتصِمٍ بحبل التقوىٰ المتين وسببها المُبْرَم . وٱمنعْ أن يخلُوَ رجلٌ بامرأة ليستْ بذات مَحْرَم . وٱستوضِحْ أحوالَ المطَاعم والمشارب ، وقوِّمْ كلَّ من يخرُج فى شىءٍ منها عن السَّنَن الواجب . وعيِّر المكاييلَ والموازينَ فهى آلاتُ معامَلات الناس ، واجتهِدْ فى سلامتك من الآثام بسَلامتها من الإلباس والأدناس ، وحذِّرْ أن تَحمِل دابةٌ مالاتُطيق حَمْلَه ، وأدِّبْ من يجرى إلىٰ ذلك يتوخَّى فعلَه ، وأوعِزْ بتنظيف الجوامع والمساجد لتُنير بالنَّظافة مسالكُها ، كما تُنير بالإضاءة حَوالِكُها ، ففى ذلك إظهارٌ لبهجتها وجَمالها ، وإيثارٌ لصيانتها عن إخلاق نَضْرتها وٱبتذالِها ، ولا تمكِّنْ أحدا أن يحضُرها إلا لصلاةٍ أو ذِكْر ، قاطعا للسانِ الخِصام ومُوقِظا لعيْن الفكْر ، فأما من يجعلها سُوقًا للتِّجاره ، فقد حصَلَ بهذه الخَسارة علىٰ الخَساره ، فهى ميادينُ الضُّمر ، وموازين الرِّبح فى الظاهر من أعمالهم والمُضْمَر ، وما أحقَّ لياليَها أن تقوم بها المُجَّد لا السُّمَّر ، وهل أذِنَ الله أن تُرْفَع لغير ٱسمه أو تُعمَّر ، وٱحظُرْ أن يَحضُر الطُّرُقات مايمنَع السلوك أو يُوعِره ، وٱفعل فى هذا الأمر مايردَع العابثَ ويزجُره . وخُذ النصارىٰ واليهودَ والمخالفين بلُبْس الغيار وشَدِّ الزُّنّار ، ففى ذلك إظهارٌ لما فى الإسلام من العِزّة وفى المخالفة من الصَّغار ، وإبانةٌ بالشدِّ للتأهُّب للسير إلىٰ النار ، وتفريقٌ بين المؤمنين والكُفّار ، وأدِّبْ من يكيل

مطفّفا، أو يزن متحيّفا ، أدبًا يكون لمعاملته مزيّفا ، وله من معاودة على فعله زاجرًا ومخوّفا ، فاعلم هذا واعمل به ، إن شاء الله تعالى .

* * *

ومن المكتتب عن الوزير لأرباب الوظائف الديوانيــة سجــلّ بمشارفة الجوالى بالصعيد الأدنى والأشمونين ، وهى :

من حسنت آثاره فيما يتولّاه ، واستعمل من الاجتهاد مايدلّ على معرفتــه بقدر ماتولّاه ، كان اعتماده بمـا يؤكّد سببه ويُنجح قصــده ويبسط يده ، ويرهف حدّه فيما يضمن مصالح خدمته ، وينظم أمرها فى سلك إيثاره وبغيته .

ولـمـا كنـتَ (1) لمّا نُدبتَ إلى مشارفة الجوالى بالصعيد الأدنى والأشمونيـــن قد أبنت عن الخــبرة والدرايه ، والأمانة والكفايه ، والانتصاب للاســتخراج والجبايه ، والاجتهــاد فى الوفاء بمـا كتبت به خطّك ، والحرص على مايُجزل نصيبك من جميــل الرأى وقسطك ـ تقدّم فتى مولانا وسيدنا بكتب هذا المنشور مضمّنا شكرك وإحمادك ، ومودعا مايبلّغــك فى الخــدمة بُغيتك ومرادك ؛ وتجــديد نظرك وتقوية يدك ، وإعزاز جانبك ، وتوخّيك بمـا يشرح صــدرك ، ويشـــدّ أزرك ، ويرفع موضعك ويزيح عللك ، ويقيم هيبتك ويفســح مجالك ، ويبلّغك آمالك .

فاجر على رسمك فى هــذه المشارفة واستمرّ على عادة دءوبك ، واجعــل التقرّب بالنصيحة غاية مطلوبك ، وواصــل الانتصاب لاســتخراج مال هـــذه الجوالى

---

(1) بياض بالأصل . ومراده "أيها الأمير" أو نحوه .

واستِنْضاضه وآستيفائه وآستنظافه ، وتمادَ فى ذلك على سُنَنك الحميده ، وطريقتك السَّديده ، وثِق بأنّ ذلك يُسْفِر لك عن بُلوغ أراجيك ، ويضاعف سَهْمَك من حسن الرأى فيك ؛ فليعتمد الأميران معاضدَةَ المذكور ومؤازرتَه ، وإعانتَه ومظافرتَه ، وإجابةَ ندائه ، وتلبيةَ دعائه ؛ والشدَّ منه فى آستخراج البواقى مع المال الحاضر : ليجدَ السبيلَ إلى الوفاء بما شَرَطه على نفسه ، وكتب خَطَّه به ؛ والمبالغةُ فى ذلك مبالغةٌ يعودُ نفعها على الديوان ، ويشهدُ لها ببذل الطاقة والإمكان ؛ فليَعلم ذلك وليعمل به ، إن شاء الله عز وجل .

⁂

ومن ذلك سجلٌّ باستيفاء الأعمال القبلية ، وهو :

من كَرُم أصلُه ومَحتِده ، وحسُن فى الولاء ظاهرُه ومعتَقَده ، ولَقِنَ المخالصة عن الماضين من أسلافه ، ولَزِم فى المناصحة مَنْهجا لم يَعدِل عنه إلى خلافه ، وتَنَقَّل فى جلائل الخدم بكثرة الثناء عليه والتعديد لأوصافه ؛ وكان فى كلِّ ما يباشره على قضيةٍ تَشهد بفضله ، وتَدُلُّ من محاسن الخلال على ما لا يجتمع إلا فى مثله ؛ على أنه قليلُ النظراء والأكْفاء ، كَلِفٌ بالاقتداء بمكارم الأفعال والاتباع لها والاقتفاء ــ آستوجب أن يُرفَع مكانهُ ومحلُّه ، وآستحق أن يحمَّل من أعباء المهمّات ما لا ينهض به [إلا] مثلُه ، وصلَح أن يجعل لما يراعى أمرَه سهما من نظره فيه ، وأن يبرز من توليته إياه فى مَلْبَس جمال يُسْبِغه حسنُ التدبير عليه ويُضْفيه .

ولما كنت أيها الشريفُ ، تاجُ الخلافة ، عضدُ الملك ، صنيعةُ أمير المؤمنين ، من جِلّة آل أبى طالب ، والموفُورى الحظّ من المآثر والمَناقب ، ولك مع نَسَبك الشريف مِيزةُ بيتك فى الدولة العلوية ــ خلد الله ملكها ــ وتقدُّمه ، وآستقرارُك

بحبوة من السناء لايضايقه أحدٌ من طبقتك فيها ولايزحمه ، وقد توليتَ أمورا جليلةً فكنتَ عليها القويَّ الأمين ، وأهِّلت لمنازل سنيّة فأوضحتَ لك الأثرَ الحسنَ وأظهرت منك الجوهر الثمين ، ولم تنتقل قطُّ من شيء تتولاه ، إلى غيره مما تستحفظه وتُستكفاه ، إلا كان الأول عليك يتلهّف ، والثانى إليك يتطلع ونحوك يتشوّف ؛ وما برحتَ ملتمَسا من الرتب الخطيرة مخطوبا : لأن الأسباب التى غدتْ فى غيرك متشتّتة متفرقه ، قد أُلفيت عندك مجتمعة متألّفة متّسقه ؛ فلك النزاهةُ السابقةُ بك كلَّ من يجاريك ، والوجاهةُ الرافعة قدرَك على من يناويك ؛ والأمانةُ التى يشهد لك بها من لايحابيك ، والديانةُ التى حُزتَها عن الشريف عضُد الدولة أبيك ـ تقدّم فتى مولانا وسيدنا بالتعويل عليك فى تولّى ديوان الآستيفاء على الأعمال القبلية وما جُمع إليه ، الذى هو من أجلّ الدّواوين قدرا ، وأنبهها ذكرا ، وأرفعها شانا ، وأشمخها مكانا ؛ وخرج أمرُه بكَتْب هذا التقليد لك ؛ فباشرْ ذلك متقياً لله تعالى فيه ، جاريا على مراقبة عادتك التى تُزلف فاعلَها وتُحظيه ؛ فالله تعالى يقول إرشادا لعباده وتفهيما : ﴿ يأيّها الّذين آمنُوا آتّقُوا اللهَ وقُولُوا قولًا سَديدًا يُصْلِحْ لكُمْ أعْمالَكُمْ ويَغفِرْ لكُمْ ذُنوبَكُمْ ومَنْ يُطِعِ اللهَ ورسُولَهُ فقدْ فازَ فوزًا عظِيما ﴾ .

وتبتّل إلى عمارة الأعمال ، وتزجية الآرتفاع وآستخراج الأموال ؛ وآعتمد مواصلةَ الجدّ والتشمير ، وآعكُف على الآجتهاد الذى يشهدُ لك بقلّة الشبيه وعدم النظير ؛ وآستنظف البواقىَ من كل الجهات والأماكن ، وكُنْ على ضبط ماتَستخرج وصونه أحفَظَ له من الخزائن ؛ وآنظر فى أمر الكُتّاب نظر من يكشف عن جميع أسبابهم ، ويعلم أنه المخاطَبُ على خطئهم وصوابهم ؛ وخُذْهم بملازَمة الأشغال ، والمواظَبة على التنفيذ وعلى آستيفاء الأعمال ؛ ولا تُسوّغ لضامن ولا عامل أن يُضَجّع فى العمارة ، ولا أن يماطل بها من ساعة إلى ساعة فإن فاتت ذلك لايُلحق ،

وفارطه لايُدْرَك ، وقد أُزيحت علَّتُك ببسط يدك وإنفاذ قولك وإمضاء حكمك ؛ فتماد على سُنَّتك واستمرّ على رَسْمك ، واعلم هذا واعمل به ، وطالع بما تحتاج إلى المطالعة بمثله ، إن شاء الله تعالى .

سجل بمباشرة الأغنام والمطابخ .

لما كانت الأمانةُ كافلةً بالتنويه لأربابها ، والكفايةُ سافرةٌ في التمييز لمن يتعلق بأسبابها ، والخبرةُ خلّةٌ لايليق التصرُّف ولا يحسن إلا بها ، وكنتَ أيها القاضي مشهورَ النَّفاذ والمعرفه ، خليقاً إذا ذكر المرشَّحون للهمات بأجمل صِفَه ، وقد عُلمتْ نباهتُك ، واستقرّتْ نزاهتُك ، وحسُن فيما تتولاه أثرُك ، وطاب فيما تباشره خَبَرُك ، وحين عُدقت بك الخِدَم فيما يستدعى ويُبتاع من الأغنام برسم المطابخ السعيدة ومايُنفق ويُطلَق منها ، متصرّفاً في ذلك بين يدي المخلص السديد صفىّ الملك مأمونِ الدولة أبي الحسن : فرج الحافظى أدام الله تأييده ، فشكر سعْيَك ، وأحمد قصدَك ، ورضى اجتهادَك ، واستوفق اعتمادك ــ تقدّم فتىْ مولانا وسيدنا فلان بكتب هذا المنشور لك ، مضمَّناً مايقضى بشدّ أزرك ، وشرح صدرك ، وتقوية مُنّتك ، وإرهاف عَزْمك في خدمتك ، واعتمادك بما يؤدّى إلى استقامة الأمر فيما عُدق بك ، ومساعدتك ومعاضدتك ومعونتك في أسبابك ، وتبليغك أقصى طِلابك ، والأميران يعتمدان رعايتك ، والشدّ منك وإعانتك ، والمحافظة على مصالح أمرك والتلبية لدعوتك ، وتوفير حظك من الملاحظة لشئونك . فلتعلم هذا ولتعمل به ، إن شاء الله تعالى .

*
* *

ومن ذلك نسـخة منشور بمشارفة المواريث الحشرية ، والفروض الحُكْميـة ، وهى :

منشورٌ تقدّم بكتبه فتى مولانا وسيدنا السـيدُ الأجل الأفضـل لك أيها القاضى الرشـيد ، سَدِيد الدولة ، أبو الفُتوح محمد بن القاضى السـعيد عين الدولة أبى محمد عبد الله بن أبى عقيل ـ أدام الله عزك ـ لمـا آشتهرتْ كفايتُك آشتهارَ الشمس ، وأمِنتْ أمانتُـك دخولَ الشـبهة واللبس ، وسلكتَ مذهبَ أسـلافك فى العَفَاف والنزاهة وظَلَف النفس ، وظلّت آثارُك فيما تتولاه شاهـدة بدياناتك ، وأفعالك فيما تُستكفاه معربةً عن نباهتك ، وسِيرتُك فيما تتكلّفه منتهيـةً بك إلى أقصى أمد الاحتياط مُفْضِـية ، وقد أضحى سبيل تقديمك مُعبّدا مذلّلا ، وغدوتَ لمـا يُناسب كريم بَيْتك مرشَّحا مؤهَّلا ، وإنمـا إبقاؤك على مابيدك لتكمّل إصـلاحَه وتهذيبَه ، وتُتمّم تثقيفه وترتيبَه ، ولذلك كتب هـذا المنشورُ مقصورًا على إقرارك على ما أنت متولِّيه من الخدمة فى مشارفة المواريث الحَشْريه ، وتقرير الفروض الحُكْميه .

فاجر على رَسْمك وعادتك ، وآستمِرّ على مَنْهجك فى بَذْل آستطاعتك ، وآلزم المعهودَ منك فإنه مُغْنٍ عن الآستزاده ، وتَمادَ على ماأتيتَ فيه على البُغْية والإراده ، وآكتفِ بمـا تضمّنته التذكرة الديوانيـة المعمولةُ لهذه الخدمه ، وحافظ من الآجتهاد على ما يجدّدُ لك كلّ وقت ملبَسَ نعمه ، فاعلمْ هـذا وآعملْ به ، وليُنْسَخ هـذا المنشور بحيث يُنْسَخ مثله ، إن شاء الله تعالى .

✦✦✦

ومن ذلك نسخة منشور بعُمَالة ،وهى :

عندَ ماوُصفتَ به من آجتهادٍ ومناصحه ، وأمانةٍ ليس فيها مساهلةٌ ولا مسامحه؛ ومخالصةٍ آستمرت فيها القضيةُ المستقيمةَ الواضحه ، وكفايةٍ تمسَّكتَ منها بالسبب الوثيق وحصَّلتَ على الصَّفْقة الرابحه ، ومعاملةٍ تحرَّيتَ فيها نَهج من حُبِّب إليه الأعمالُ الصالحه ،وكفايةٍ إذا باشرت الدَّهْمة الكالحة أبدلتْها بالغُرّة الواضحه ، وسُمْعة مابرحت الألسُن لذخائر ثنائها مبيحةً ولسرائر أسبابها بائحه؛ وإنك إذا أُهِّلت لخدمة جعلتَها لشُكْرك لسانا ، ولكتاب كفايتك عُنوانا ؛ ومَن كان بها ملما (؟) إذا رأتك دواعه كان مستعارا بك أحيانا .

فآعتمدْ فى هذه الخدمة مايحقّق بك ظنا ، ويقيمُ لك وَزْنا ، ويشدّ بك رُكْنا ويضاعِفُ لديك مَنّا ، ويُنيلك من الإحسان ماتمنَّى ، ويُسْنِى لك من الزيادة والحسنىٰ ، ويتوكّل فى آقتضاء الحظّ الجزيل الأسنىٰ؛ وآسترْفِع (؟) الحُسْبانات التى مايلزم رَفْعُها ، ويُحفَظ به شرطُ الكفاية ووضْعُها ؛ وآكشِفْ ولا تُبقِ ممكنا حتى تكشِفَه ثم آستنطقه ، وحاصل به أصله ثم تجمله ؛ وحاقِقِ الجهابذَ علىٰ ماخرجتْ به البراآت ، ورُفعت به الختمات ، ولاتُخلِ وُصولا ، من أن تكون بخطّك موصولا ؛ وآستخرج حقُوقَ الديوان علىٰ ما مضَتْ به مواضى سُنَنه ، وخذ من كل شىء فى خدمتك بأحسنه ، وأنزل نفسَك من شئون السنة بأمنع ظل وأحصنه ؛ وآحمل التُّجار والسُّفَّار علىٰ عوائد العدل وشرائطه ، وقضايا الصون وحوائطه ؛ وشواهد الدّيوان وضرائبه ، ولا تتعدّ فيهم مألوفَ مَطالبه ؛ وآنظرْ فى الأملاك

الســلطانية نظرا يُصلح معتلّها، ويصحّح مختلّهــا، ويُوفّر أجرها، ويزجى غيرها؛ وكذلك الأحبـاسُ والأحكارُ والمواريث : فحافظ على حفظ آستغلالها ، وكُفّ كَفّ من يرى باستباحة أمر الحرمة وآستحلالها؛ وقد وردتْ لك من الديوان تذكرة فاهتَدِ بمنظومها، وآقتد برسومها ؛ ولك من الآراء ما تَشْحَذ عزمك، وينفّذ حكمك؛ ويُسْنى موردَك، ويعلى يدَك؛ ويمثّل الرعايةَ فيــك ، ويقيم على أن تكفى الديوان بمـا يكفيك؛ والسلام .

تم الجزء العاشر ، يتلوه إن شاء الله تعـالى الجزء الحادى عشر

وأوله الفصـــــل الثـالث

(من البـاب الرابع من المقـالة الخامســـة)

والحمد لله ربّ العالمين ، وصلاته على سيدنا محمد خاتم الأنبيـاء والمرسلين

وآله وصحبـــه والتـابعيـــن ، وسلامُه

وحَسْبُنا الله ونِعْمَ الوكيل

(المطبعة الأميرية ، ٥٦٩٤/١٩١٦/٣٠٠٠)

فهـــــــرس

الجـــــــزء العـاشر

من كتاب صبح الأعشى للقلقشندى

صفحة

الوجـــه الخامس — فيما يكتب فى ألقـاب الملـوك عن الخلفاء ، وهو نمطان ٥

النمـط الأول — ما كان يكتب فى قديم الزمن ٥

« الثـانى — مايكتب به لملوك الزمان ٦

الوجـــه السادس — فيما يكتب فى متن العهود، وفيـه ثلاثة (تتمـة) مذاهب... ... ... ٨

المذهب الأول — أن يفتتح العهد بلفظ «هذا» ، وللكتّاب فيه طريقتان

الطريقة الأولى — أن لا يأتى بتحميد فى أثناء العهد فى خطبة ولا غيرها الخ ٨

« الثانية — أن يأتى فى أثناء العهد بخطبة أو تحميد ٤٦

المذهب الثانى — أن يفتتح العهـد بلفظ « من فلان » باسم الخليفة وكنيته ولقب الخلافة « إلى فلان» باسم السلطان وكنيته ولقب السلطنة ٧٥

« الثالث — أن يفتتح العهد بخطبـة ٩٨

« الرابع — « « بقوله « أما بعد فالحمـد لله » أو «أما بعد فإن أمير المؤمنين» أو «أما بعد فإن كذا» ١٣٥

« الخامس — أن يفتتح العهد بـ«إن أولى ما كان كذا» ونحوه... ١٤٥

الوجـــه السـابع — فيما يكتب فى مستند عهد السـلطان عن الخليفة ، وما يكتبه الخليفة فى بيت العلامة ، وما يكتب فى نسخة العهد من الشهادة أو ما يقوم مقامها ... ١٥٢

« الثـامن — فى قطع الورق الذى تكتب فيـه عهود الملوك عن الخلفاء ، والقلم الذى يكتب به ، وكيفية كتابتها ، وصورة وضعها فى الورق ١٥٣

صفحة

النـــوع الثـالث — من العهود — عهود الملوك لولاة العهد بالملك ، وفيه سبعة أوجه ١٥٨
الوجـــه الأول — فى بيان صحة ذلك ١٥٨
« الثـــانى — فيما يكتب فى الطرة ١٥٩
« الثـالث — فى الألقاب التى تكتب فى أثناء العهد ١٥٩
« الرابـــع — مايكتب فى المستند ١٦٠
« الخامس — ما يكتب فى متن العهد ١٦٠
« السادس — فيما يكتب فى مستند عهـد ولىّ العهد بالسلطنة ، وما يكتبه السلطان فى بيت العلامة ، وما يكتب فى ذيل العهد ١٧٧
« السـابع — فى قطع ورق هذا العهد، وقلمه الذى يكتب به، وكيفية كتابته، وصورة وضعه فى الورق ، ١٧٨
النـــوع الرابـــع — من العهود — عهود الملوك بالسلطنة للملوك المنفردين بصغار البلدان، وفيه أربعة أوجه ١٨١
الوجـــه الأول — فى بيان أصـل ذلك وأول حدوثه فى هذه المملكة إلى حين زواله عنها ١٨١
« الثـــانى — فى بيان ما يكتب فى العهد، وهو على ضربين ... ١٨٣
الضرب الأول — ما يكتب فى الطرة، وهو تلخيص ما يشتمل عليه العهد (ولم يذكر الضرب الثانى) ١٨٣
الوجـــه الثـالث — فيما يكتب فى المستند عن السلطان فى هذا العهد، وما يكتبه السلطان فى بيت العلامة ١٨٨

صفحة

الوجـــه الرابـــع – فى قطع ورق هذا العهد، وقلمه الذى يكتب به، وكيفية الكتابة، وصورة وضعها فى الورق ١٨٨

البـــاب الرابـــع – من المقالة الخامسة فى الولايات الصادرة عن الخلفاء لأرباب المناصب من أصحاب السيوف والأقلام، وفيه ثلاثة فصول... ... ... ١٩٢

الفصـــل الأول – فيما كان يكتب من ذلك عن الخلفاء، وفيه خمسة أطراف ١٩٢

الطـرف الأول – فيما كان يكتب عن الخلفاء الراشدين ١٩٢

« الثانى – « « عن خلفاء بنى أمية ١٩٥

« الثالث – « « « بنى العباس ببغـداد إلى حين انقراض الخلافة العباســية من بغداد، وهو على أربعة أنواع... ... ... ٢٣٣

النوع الأول – ما كان يكتب لوزراء الخلافة... ... ... ٢٣٣

« الثانى – ممـا كان يكتب لأرباب الوظائف من ديوان الخلافة ببغداد – ما كان يكتب لأرباب الوظائف من أصحاب السيوف، وهو على ضربين ٢٤٢

الضرب الأول – العهود ٢٤٢

« الثانى – ممـا يكتب من ديوان الخـلافة لأرباب السيوف – التقاليد... ... ... ٢٦٢

النوع الثالث – ممـا كان يكتب لأرباب الوظائف من ديوان الخلافة ببغداد – ما كان يكتب لأرباب الوظائف ببغداد من أصحاب الأقلام، وهى على ضربين ... ٢٦٣

صفحة

الضرب الأول — العهـــود... ... ... ٢٦٤

« الثانى — ممـا كان يكتب بديوان الخلافة ببغداد لأرباب الوظائف من أصحاب الأقلام — التواقيع ٢٩٢

النوع الرابع — ممـا كان يكتب من ديوان الخلافة ببـغداد — ما كان يكتب لزعماء أهل الذمة ٢٩٤

الطـــرف الرابـع — فيما كان يكتب عن مدّعى الخــلافة ببلاد المغرب والأندلس، ولذلك حالتـان ٢٩٩

الحـالة الأولى — ما كان الأمر عليـه فى الزمن القديم (ولم يذكر الحـالة الثانيـــة) ٢٩٩

الطـــرف الخامس — فيما كان عليـه الأمر فى الدولة الفاطميـــة بالديار المصرية، وهو على نوعين... ... ... ٣٠٨

النـــوع الأول — ما كان يكتب به عن الخليفة نفســـه، ولهم فيها أربعة مذاهب ٣٠٨

المذهب الأول — أن يفتتح مايكتب فى الولاية بالتصدير، وهو على ثلاث مراتب ٣٠٩

المرتبة الأولى — أن يقال بعد التصدير المقدم «أما بعد فالحمد لله» وهى على ضربين... ... ... ٣٠٩

الضرب الأول — سجلات أرباب السـيوف (ولم يترجم للضرب الثانى) ٣١٠

المرتبة الثانية — أن يفتتح السجل بالتصدير إلى آخر التصلية ثم يؤتى بالتحميد مرة واحدة... ... ... ٣٣٠

صفحة

المرتبة الثالثة — أن يفتتح بالتصدير أيضا إلى آخر التصلية ثم يؤتى بالبعدية من غير تحميد ٣٦٠

المذهب الثانى — أن يفتتح ما يكتب فى الولاية بلفظ «هذا ما عهد عبد الله ووليه الخ » ٣٨٤

» الثالث — أن يفتتح ما يكتب فى الولايات بخطبة مبتدأة بـ«الحمد لله » ٣٨٩

» الرابع — مرتبة الأصاغر من أرباب السيوف والأقلام ... ٤٣٩

النـــوع الثانى — ما كان يكتب عن الوزير... ... ... ٤٤٦

(تم فهرس الجـــزء العـاشر من كتاب صبح الأعشى)